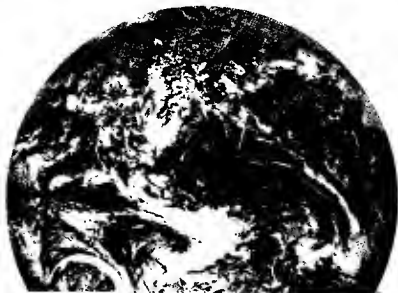


الدكتور حسين مؤنس

عالم الإسلام

النزهة للإعلام العربي



مقدمة

دارت في ذهني — منذ سنوات طويلة — فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية أنحو فيه نحو جورج ماكولي تريلبيان في كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعي الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يكتب هذا التاريخ الاجتماعي بصورة تقرب من الشكل والمسوى اللذين طلبتهما .

ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره ، فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا غلات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تظهر منه إلا بشئور لا تتناسب مع الجهد المبذول في القراءة وتسجيل الملاحظات وتحرير البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغالى » لأبى الفرج الأصفهالى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد المبرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع — ولم يفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها — وغيرها كثير .

مقدمة

دارت في ذهني — منذ سنوات طويلة — فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية أنحو فيه نحو جورج ماكولي ترينليان في كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعي الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يكتب هذا التاريخ الاجتماعي بصورة تقرب من الشكل والمسوى اللذين طلبتهما .



ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره . فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا غلات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تنظر منه إلا بشئور لا تتناسب مع الجهد المبذول في القراءة وتسجيل الملاحظات وتحرير البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغالى » لأبى الفرج الأصفهالى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد المبرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعتبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع — ولم ينفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها — وغيرها كثير .

واتسع في المجال بعد ذلك ، فقرأت — في سعة — كتب الرحالين
والجغرافيين ومؤلفات الحسبة وكتب الفقه والنوازل والفتاوى ،
والمؤلفات المتخصصة في التجارة وأنواع الصناعات وشئون المعاش مثل :
كتب النباتين والعشابين ومؤلفات الطب والصيدلة والجبل والفلك
وكتب الأحكام والنظم وما إلى ذلك كله ، ثم عكفت على المؤلفات
الأصلية من عقود زواج ووقفات ووثائق بيع وشراء ورهن وإيجار وما
إلى ذلك ، وهي — على قلتها عدنا — تعد ذخراً من ذخائر المكتبة
العربية . وقرأت كثيراً في كتب التراجم ، وهي في الحقيقة من أهم
المصادر لدينا عن الحياة الاجتماعية .

ووجدت — آخر الأمر — أنه من العسير إنشاء كتاب واحد عن
التاريخ الاجتماعي الإسلامي العام ، لأن بلاد المسلمين قد تشابه في مظاهر
الحضارة العامة مثل هيئة المدن ونظامها وحكومتها وأنواع النسيج
المستعملة ومستويات العلوم والآداب والصناعات والفنون ، ولكن لكل
منها — إلى جانب ذلك — مجتمعه الخاص به الذي شكل وتكون وتطور
في ظروفه الجغرافية والتاريخية والسياسية ؛ وإذا كان الدمشقي يشعر
عندما ينتقل إلى القاهرة بأنه يعيش في نفس الجو الحضاري إلا أنه يشعر
أيضاً — دون شك — بأنه في مجتمع غريب عليه ، ف نظام البيوت وأنواع
المطاعم والملابس والعادات والتقاليد تختلف ، بل إن اللهجة العربية التي
يسمعها تبدو له أول الأمر غريبة على أذنه ، ولابد من وقت طويل حتى
يندمج في مجتمعه الجديد ، ولن يم له ذلك إلا إذا تخلى عن عاداته الأولى
وأخذ بما يجري الناس عليه في المجتمع الجديد .

وإذن فلا سبيل لكتابة هذا التاريخ الاجتماعي إلا إذا أفرد مؤلف خاص
لكل بلد إسلامي على حدة .

وأحب أن أنه هنا إلى أنني أتكلم عن التاريخ الاجتماعي لا الحضاري ،
فإن حضارة الشعوب الإسلامية متقاربة وقد ألفت فيها الكثيرون كتباً

جيدة ، ولكن النظم الاجتماعية وأساليب الحياة وأشكالها ومستوياتها تختلف من بلد لبلد بل من ناحية لثانية في البلد الواحد .



ولكني رأيت — بعد ذلك — أن هناك ظواهر اجتماعية مشتركة بين بلاد المسلمين جميعاً : مثل خلو هذه المجتمعات من الطبقات الاجتماعية وفكرتها ، والاتصال بين الدولة والجماعة ، ومثانة بناء الأسرة ، والولع بالحياة في المدن وإهمال الأرياف ، والاهتمام بالعلم وتوفير العلماء واعتبارهم السادة الحقيقيين للجماهير ، وقلة المنشآت السياسية والإدارية والاجتماعية واتجاه الحكومات — على طول العصور الوسطى — إلى إضعافها ووضع يدها عليها .

والمنشأة السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية تقابل ما يعرف باسم Institution في اللغات الأوروبية ، ولم نشأ أن نسميها مؤسسة — كما يقال أحياناً — لأن المؤسسة أخذت في أيامنا هذه معال لا صلة لها بمصطلح Institution الغربى — فالقضاء والحسبة والمظالم والإشياء والجيش لا يمكن أن تسمى مؤسسات ، وإنما هي في الحقيقة منشآت أو ركائز يقوم عليها البناء السامى والاجتماعى للجماعة ، ولهذا أسميناها بهذا الاسم ثم وصفناها بعد ذلك ؛ فالقضاء منشأة تشريعية ، والحسبة منشأة إدارية وكذلك المظالم ، والجيش منشأة عسكرية ، والتعليم منشأة ثقافية ، وهكذا .

وبينا قام التنظيم الغربى كله منذ العصور الوسطى على المنشآت ، فإن مجتمعتنا الإسلامى لم يتم فيه إلا القليل منها ، ولم يتم إلا القليل من المنشآت السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية وبخاصة في المدن والأرياف والحرف والصناعات وما إلى ذلك ، وهذا القليل مع ذلك لم يكن مضبوطاً مقنناً في أحكام .

ولهذا فقد اجتهدت حتى جمعت الظواهر الاجتماعية العامة التى تشترك فيها كل المجتمعات الإسلامية خلال العصور الوسطى ، ووجدت بعد ذلك

أنها تصلح لأن تجمع في صعيد واحد وتعد مقدمة للتاريخ الاجتماعي لبلاد الإسلام .



° ° °

وعندما انضممت إلى هيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة الكويت بدأت أرسم منهج الكتاب ، وإذا أنا في ذلك طرأت فكرة تطوير مادة الثقافة الإسلامية التي تدرس لطلاب الجامعة ، وإضافة جانب من التاريخ الحضارى الإسلامى إلى ما كان يدرس من مواد الفقه والشريعة ، وكان صاحب هذه الفكرة هو السيد الأستاذ الدكتور عبد الفتاح إسماعيل مدير الجامعة إذ ذاك ، فعهد إلي وضع منهج مناسب لهذا الجانب الحضارى ، فوضعه وقمت بتدريسه ، ومضيت أدخل عليه التعديلات بعد ذلك سنة بعد سنة ، حتى انتهى إلى الصورة التي يراها القارئ بين دفتي هذا الكتاب .

ولابد أن أنهى إلى أن الخصائص الاجتماعية التي أتحدث عنها في هذا الكتاب ليست كل ما يميز المجتمعات الإسلامية عن غيرها ، وإنما هي أهمها في نظرى وأكثرها دلالة على الشخصية الخاصة للمجتمعات الإسلامية ، وهناك خصائص وملاح أخرى ولكنها لا ترتبط هذا الارتباط الوثيق بطبيعة الإسلام وجماعته ، ولهذا تركتها جانباً ، لا لأنى لا أقدر أهميتها ، بل لأنه كان لابد من مراعاة الاختصار في مثل هذا الكتاب ، فهو — في الحقيقة — مقدمة أو مدخل لتاريخ اجتماعى إسلامى ، وهو مؤلف رائد في هذا الموضوع لابد أن يراعى فيه الاختصار على الأهم دون المهم ، حتى إذا تداول الناس الكتاب وأبدوا آرائهم استطعنا أن نعيد كتابته على صورة أشمل وأكمل .

وقد رأيت — قبل أن أدخل في تحليل بناء المجتمع الإسلامى وتبيان ملامحه المميزة — أن أعرف القارئ في إيجاز بعالم الإسلام ، فبدأت الكتاب بفصل عن ذلك العالم ، درست فيه قيام الجماعة الإسلامية ، ثم أوجزت الكلام عن اتساع رقعتها ونموها حتى وصلت إلى الصورة التي هي عليها اليوم ، أى أنهى درست في ذلك الفصل الأول تكوين عالم

الإسلام رأساً ثم أفقياً ، وكل ذلك على وجه من الإنجاز شديد .

ورأيت أن ألفت بعد ذلك وقفة طويلة عند قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة على يد الرسول ، صلوات الله عليه ، واخصصت الصحيفة — أو الكتاب الذى كتبه الرسول بين أعضاء الجماعة من مهاجرين وأنصار ومن حالقهم وارتبط بهم من اليهود ، وأعتقد أن هذه هى أول مرة تدرس فيها هذه الوثيقة في اللغة العربية على هذا النحو . وقد بينت بعد ذلك خصائص هذه الجماعة الإسلامية الأولى لأن هذه الخصائص تحدد في رأيي الخصائص التى كان ينبغي أن تتوافر في كل جماعة إسلامية بعدها .

وبعد ذلك تألى بقية فصول الكتاب على النحو الذى يجده القارئ مبسوطاً في صفحاته .

° ° °

وبعد ، فهذه محاولة رائدة في ميدان التاريخ الإسلامى .. وهى — كمحاولة رائدة — تحمل النقص ومواضع الخطأ أكثر مما تعرض له مؤلف تقليدى في التاريخ السياسى . وقد أنفقت وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً في تكييف الموضوع ولم أظرفه وجمع مادته ، فأرجو أن يكون ذلك الجهد شافعاً لما عسى أن أكون قد سهوت عنه أو أخطأت فيه .

والعلم — في حقيقته — تجديد أو بحث عن الجديد ، وأظن أننى قدمت في هذا الكتاب جديداً عن عالم يحسب كثير من الناس ألا جديد فيه .

والحمد لله في المبتدأ والآخر ، نسأله الهداية والتوفيق وصواب الرأى وسداد النظر .

حسين مؤنس

القاهرة في يناير ١٩٧٣ م

الفصل الأول

الإسلام والمعلمون

فد التاريخ



عندما أتفكر في حقائق الإسلام — عقيدة — وشريعة ومكارم أخلاق — وأنظر في خريطة الدنيا يملكى العجب لقلة نصيب الإسلام من أهل هذا الكوكب بالمقارنة إلى غيره من العقائد حتى تلك التي لا يمكن النظر إليها إلا على أنها مجموعة نصائح وقواعد أخلاقية مثل البوذية ، وبخاصة الشامانية ، وهي أوسع مذاهب البوذية انتشاراً وكان ينبغي — إذا كانت أمور البشر تسير على المطلق — أن يكون أهل الأرض كافة مسلمين .

ذلك أن الله سبحانه جمع في هذا الدين من الفضائل المؤدية إلى صلاح الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة ما لا نجد شيئاً قريباً منه في كل عقائد البشر — السماوية منها وغير السماوية — كما سترى ذلك بالبرهان القاطع بعد قليل .

وقد بينا في أحد فصول « أطلس تاريخ الإسلام » أن الله عندما نزل الإسلام على رسوله (صلوات الله عليه) أن الأرض لم يكن فيها من النصراني واليهود إلا نحو ثمانين مليوناً من الأنفس متشردين في أوروبا وحزء ضئيل من شرق آسيا ومصر وشريط من الساحل الشمالي للمغرب وبعض نواح من التوبة ثم دواخل الحشنة لا سواحلها . وحتى هؤلاء كانوا منقسمين شيعة وأحزاباً ومذاهب ، فاليهودية كانت قد تحولت إلى عقيدة سرية مغلقة على أصحابها مبعة في نواحي العمورة منذ هم الإمبراطور تيتس معيدهم (معبد سليمان) في القدس سنة ٧٠ بعد الميلاد . وحتى هؤلاء كانوا متفرقين بين القرآنية والصدوقية وكانت التوراة قد نسيت وصاعت ومضى أحرار اليهود يجمعون أشئانها . وأما المسيحية فكانت مفرقة بين مذاهب الأرثوذكسية والأرمينية (التي ولدت في مجمع أفسس الثاني سنة ٣٢٥) وهذه كانت مبعة في مذاهب البعاقية والنساطرة والملكانيين ، ثم الكاثوليكية التي ولدت في مجمع خلقيدونية الذي انعقد سنة ٤٥١ م . وفي هذا المجمع المسكوني — نسبة إلى المسكونة

وهي الأرض (ومعناه العالمي) — طرد أقباط مصر وأصبحوا أصحاب مسيحية خاصة بهم . وفيه أيضاً وقع الخلاف الحاسم بين مذاهب المسيحية الشرقية التي عرفت في مجموعها بمذاهب الأرثوذكسية أي القديمة ، ومذهب المسيحية الغربية التي سميت بالكاثوليكية أي العالمية . وقد قامت هذه الكاثوليكية على ما رسمه « بولس » الرسول وتسمى في الإنجليزية بالمسيحية البولسية وبولس — ذلك الرجل العنيف النشط الحارق الذكاء هو الذي صاغ المسيحية المنتشرة الآن في الأرض ، بما في ذلك البروتستنتية بمذاهبها المتعددة ، وهي في ذاتها كانت ثورة على بولس وآرائه وعودته إلى المسيحية كما هي في الأناجيل وبعض أسفار العهد القديم ، ولكنها لم تتخلص من أثر بولس وبعض آرائه مثل القول بالثالوث وتأليه السيدة العذراء مريم والقول بالمعجزات والكرامات والخضوع المطلق للبابوات والقول بأن المسيح قبل موته قال إن بطرس خليفته والإيمان بأن المسيح هو الذي أرسل الخواري بطرس إلى روما لبنشئ فيها كنيسة وبطرس هو أول البابوات ، والبابوات يزعمون أنهم ورثة الأرض عن المسيح عيسى بن مريم ، وعلى هذا الأساس أصبح البابوات ملوكاً على الأرض يحيط بهم أمراء الكنيسة وهم الكرادلة (والاسم لاتيني معناه الأقطاب) وتحت الأقطاب يميء أمراء النواحي وهم الأساقفة باللاتينية ثم القساوسة ثم الرعاة .

وعندما جاء الإسلام كانت المسيحية لا تزال في عصر التكوين ، وكل شيء فيها كان مبهماً وغامضاً ، ولكنها كانت أملاً في السعادة والخلاص من الظلم في نظر أتباعها في عصور سادها الظلم والقلق والأخطار والأمراض والجماعات وتجاهها في العصور التالية قام على جهود البابوات ورجالهم ونفر من كبار القساوسة الزهاد الذين رفعتهم الكنيسة الكاثوليكية إلى مراتب القديسين ، وما زالت البابوية إلى اليوم ترفع من ترى إلى مقام القدسية قائلة : « إن الله أعطاها هذا الحق » . وفي عصرنا هذا كتب كبير اللاهوتيين المسيحيين وهو كارل بارث البروتستنتي نحو عشرة مجلدات في حقيقة المسيحية قال في ختامها : « وبعد .. فإن السيد المسيح رمز للأمل والامل في حياة أخرى بعد الموت وكتبنا المقدسة صاغها البشر على أساس ذلك الأمل ، فمن أسعده الحظ بالإيمان بذلك الأمل أمكن أن يكون مسيحياً ، وأنا شخصياً لا اومن بقداسة أحد ممن نسجهم آباء الكنيسة وبخاصة بولس وبطرس وأمروزيوس وأوغسطين . والمسيحية — كما قلت مراراً في هذا الكتاب أمل في الخير وسعادة الآخرة

يبحثه الله في القلوب ولا مكان هنا للقديسين أو بابوات . لأن البابا ملك في ثياب ملك ويجلس على عرش ملك . وأما القديسون فملوك في ثياب متسولين يجلسون على عروش من ذهب .

• • •

وقد استطردت هنا بعض الشيء في كلامي عن المسيحية حتى أعرف إخواني المسلمين بها وبمذاهبها وأصولها على وجه الإنجاز ، وأرجو ألا يكون قد صدر عني في هذا السياق ما يمس شعور يهودي أو مسيحي ، فنحن المسلمين مأمورون في قرآننا وحديث نبينا ﷺ بالأنا نسيء إلى أحد ، وحتى إذا دعونا إلى ديننا كان ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس لنا في ديننا إلا أن نعظ وندعو لأن الهدى لا يأتي إلا من الله لمن يشاء .

فإذا نحن جئنا إلى الإسلام وجدناه ديناً حقاً ولد تحت شمس التاريخ الحق . فبينما نحن لا نعرف من حياة عيسى بن مريم — على التحقيق — إلا شهرين أو أسبوعين فإن حياة محمد (صلوات الله عليه) معروفة محققة يوماً بعد يوم ، وقرآننا الذي أنزله الله على رسوله محقق آية بعد آية ، وعقيدة الإسلام وشريعته ومكارم أخلاقه واردة في القرآن بوضوح ناصح مرة بعد أخرى « مطبقة في حياة نبينا الذي تحير حياته كلها سنة » . والسنة — لغة — هي الطريق أو الطريقة ، وسنة رسول الله (صلوات الله عليه) هي طريق الإسلام ، وخلق رسول الله — الذي ينبغي أن يكون خلق كل مسلم هو القرآن كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

ومن ثم فقد كان ينبغي أن يعم الإسلام طباق الأرض ويشمل جميع أجناس البشر حتى يكون الدين كله لله ، لأنه فعلاً دين حق لا شك في صدوره عن الله ، وهو بالفعل دين قائم أي خالد ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه عنه في القرآن : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ التوبة : ٣٦ .

فإذا كان الإسلام — وهو دين الله حقاً — لم يعم طباق الأرض ولم يدخل فيه البشر كافة فإن المسئولية في ذلك تقع علينا نحن المسلمين ، فقد بعث الله فينا ونحن أمته ، وكان علينا أن نعمل في جهد خالص لنعم بركاته الدنيا . ومن هنا فلا شك

في أن أجيالنا السابقة قصرت في حمل رسالة الإسلام ، لأن أجيال المسلمين الأولى عندما صدقت العزم في ذلك دخل نصف أهل الأرض في دين الله في قرن واحد من الزمان ، ثم تراخينا وقصرنا بينما اجتهد الآخرون في نشر أديانهم فكان ما ترى من انحسار المد الإسلامي ، والمثال البين على ذلك هو ما تراه الآن في قارة أفريقيا ، فهي اليوم ميدان الصراع المفتوح بين الإسلام والنصرانية ، وما أنت ترى كيف يديرون معركتهم . والدول الجديدة المسيحية في هذه القارة لا تكتفى بنشر دينها في بلادها بل هي تحارب الإسلام وتعمل على الحد من انتشاره مستعينة في ذلك بكل سلاح حتى بالشيوعية كما ترى ، تحاربه الحجة التي ترغم أنها شيوعية وهي في الصميم من المسيحية ، وقد ساعدتها أوروبا وأعطتها آريتريا العربية المسلمة ونصرتها على الصومال ، ونحن وأهل الصومال وآريتريا مقصرون في حق الإسلام ، ولو صدقت عزيمتنا لارتد المد النصراني وعاد الإسلام إلى الظهور على كل دين سواه في وادي النيل وبلاد القرن الأفريقي .

وأنا أقول هذا الكلام عبثاً على إخواني المسلمين وسعياء وراء مافيه خير البشر ، ونحن نسمع بعضنا يؤلف كتباً فيمن يسميهم أعداء الإسلام . والحق أن الإسلام دين ليس له أعداء ولا يمكن — بداعة — أن يكون له أعداء . وإنما أعداء الإسلام حقاً هم المسلمون الذين يقصرون في حق الإسلام ، ولقد قرأت معظم ما كتب في لغات الأرض حملة على الإسلام ، فما وجدت في واحد منها حملة جديّة على عقيدة الإسلام أو شريعته ، وإنما الحملة في الغالب على المسلمين . وإذا أردت رهاناً على ذلك فافقراً في ذلك الكتاب القيم الذي نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بعنوان « مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية » (جزآن : الرياض ١٩٨٥) لترى بنفسك أن كل هجوم المستشرقين كان موجهاً إلى المسلمين لا إلى الإسلام ، فإذا كان هناك هجوم على الإسلام أو القرآن أو الرسول فإن مرد ذلك إلى الجهل بذلك كله . ونستثنى من ذلك بعض الكارهين للإسلام حقاً الحاقدين على رسوله من أمثال الأب هنري لامانس والمستشرق أنجاس جولدنزيير واليهودي مرجوليوت .

ولا أقول ذلك توهيناً لحماس المسلمين في نشر دينهم ، بل أقوله لأن الأمل في عودة الإسلام إلى النصر والتدفق مازال باقياً معقوداً بتواصينا ، وكل ما مضى من

عمر الإسلام أربعة عشر قرناً ، وبقيت من عمر الزمان إلى أن يطوى الله الأرض ومن عليها ملايين السنين . فلو أننا فتحنا عيوننا ونفضنا عنا تراب الكسل لعاد الإسلام إلى الظفر وبخاصة أد أديان البشر الأخرى كلها في ضعف وتفكك . ولم يبق من الأديان ثابته مناسكا إلا الإسلام والحمد لله رب العالمين .



ولكى أعطيك مثالا عن تميز الإسلام على غيره من الأديان فلننظر إلى قصة خلق الله لأدم وما شمله به الله من الرحمة والنعمة فلنقارن بين القصة كما تروجها الكتب السماوية الأخرى وكما نراها في القرآن .

وإذا كانت الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تعتبر البقية الباقية التي يعتمد عليها من نص التوراة فلننظر إلى الحكاية كما ترد فيها ، وهي هناك مروية في السفر الأول وهو سفر التكوين بأجزائه الثلاثة .

هنا نجد القصة مبهمه جداً ومتناقضة وبخاصة فيما يرد في الجزء الثاني من سفر التكوين وما يرد في جزئه الثالث . وأنت عندما تقرأ هذا السفر تشعر دائماً بأنك تقرأ قصة أسطورية بلا مغزى أو معنى رفيع ، فليس هناك لفظ خاص للدلالة على الإنسان كجنس قائم بذاته ، بل إن آدم نفسه هو الإنسان ، والقصة تقول إن آدم كان يعيش في ناحية من الجنة تسمى « عدن Eden » ، ونحن نشعر دائماً بأن « عدن » هذه مكان على الأرض غير محدد . وفي سفر التكوين نجد علاقة بين خطيئة آدم وإخراجه من الجنة عقاباً له على هذه الخطيئة وما نقوله تفاسير الأنجيل (وهي القسم الثاني من الكتاب المقدس المسيحي الذي يسمى بالإنجيل أي الكتاب باللاتينية) عن علاقة بين خطيئة آدم وخلق الله سبحانه لعيسى بن مريم .

بل إن الإشارة إلى أن موت عيسى على أيدي اليهود كان معناه أن الله قد خلص الإنسان من خطيئته بتحمل العذاب على الصليب وأن الله بذلك قد خلص البشر بنفسه . وهذا المعنى لانجده إلا في سطرين من إنجيل لوقا ومرقص ، ولكننا ، نجد الإشارة إلى ذلك في رسائل بولس كثيرة .

وبولس هو الذي ربط في رسائله إلى الجماعات المسيحية في روما كورنثس بين خطيئة آدم وموت عيسى على الصليب كما يزعمون . وهذا الرجل هو الذي أنشأ

بالفعل عقيدة الخلاص وقال إن آدم نزل على الأرض ملعونا ، وإن اللعنة لزمته ولزمت أبنائه أجمعين حتى أراد الله أن يخلصه من اللعنة فقرر أن يعالج خطيئة آدم بأن يهبط إلى الأرض في صورة عيسى بن مريم ويتخذ جسدا من لحم ودم ، ولما قبض عليه اليهود وحاكموه وسلبوه وسال دمه كان في ذلك خلاص أبناء آدم من خطيئة أبيهم ، وإن كل إنسان يريد تخليص نفسه من خطيئته ولعنة الله إياه لابد أن يؤمن بالمسيح ، ودخول المسيحية يكون بالتمعيد أو العماد ، والتمعيد يكون على يد رجل من رجال الكنيسة ، فتحمله أمه عقب ميلاده إلى الكنيسة حيث ينثر عليه القس شيئا من ماء التعميد المقدس ، وبدون هذا يظل الإنسان ملعونا . فإذا بلغ الطفل التاسعة أو العاشرة من عمره كان عليه أن يعلن انضمامه إلى الجماعة المسيحية (وهي الكنيسة أو الأيكليزيا) ويكون ذلك على يد القس أيضاً فيذهب الصبي مع أبيه حيث يتم تثبيته في المسيحية بأن يأكل قطعة من الخبز يضعها القس في فمه ، وقطعة الخبز ترمز هنا إلى جسد المسيح القليل ، وهو عندهم الله ذاته ، ويشرب شيئا من النبيذ من كأس يتناوله القس إياها ، وهي عنا رمز على دم السيد المسيح . فإذا فعل الصبي ذلك فقد أدى ما يسمى بالتثبيت وصار ذلك عضوا في جماعة المسيحيين الذين خلصوا من خطيئة آدم عندما أكلوا لحمة وشربوا دمه الذي رمزوا إليه بالنبيذ ، ولا خلاص لأحد من البشر من اللعنة إلا بدخول الجماعة المسيحية على يد القس على الصورة التي ذكرناها .

وبولس كان رجلا ذا شخصية طاغية وعقلية جبارة ، وقد صنع ذلك كله لكي يفصل المسيحية عن اليهودية فصلاً تاماً حاسماً لأن المسيحيين قبل بولس كانوا يهوداً يتبعون نبيا من أنبياء بني إسرائيل يسمى عيسى أو يسوع فقتله أبحار اليهود في زعمهم لأنه كان مصلحا دينيا واجتماعيا . وقد هاجم أبحار اليهود وهدد سيادتهم ودعا الناس إلى اتباعه . وفي رأى بولس أن السيد المسيح عيسى بن مريم تبع في ذلك نبيا آخر من أنبياء بني إسرائيل هو يحيى أو يوحنا انشق على جماعة اليهود الفاسدة وخرج إلى أرض الجليل ، ودعا اليهود إلى التخلص من نسادهم ، فبعه ناس كثيرون منهم عيسى نفسه ، وكان يوحنا يسير في الأرض داعيا بني إسرائيل إلى التخلص من نسادهم باتباعه ويمرر إلى ذلك بالمسيح على رؤوسهم بالماء ، ومات يوحنا المعمد أو المعمدان هنا في حادثة مشهورة بأمر من هيرودس الملك لإرضاء لسالومي ابنة

زوجته فصار عيسى رأس الجماعة الجديدة وقرر اقتحام بيت المقدس والوعظ في معبد سليمان . وهناك قبض عليه اليهود وحاكموه وصلبوه فيما زعموا ، وهذا ما ذهب إليه بولس وقبل بولس لم يكن هناك شيء اسمه المسيحية .

وبعد بولس نشأت الأسطورة وانتشرت . وكان بولس رجلاً عنيفاً قاسياً غضب على الحوارى مرقس فانفصل هذا عنه وذهب إلى مصر حيث كتب إنجيله باللاتينية ، وغضب بولس على الحوارى برنابا فتركه هذا ولزم البرية وكتب إنجيله الذي هاجم فيه بولس وبطرس هجومًا عنيفاً ، وكانت الأناجيل كثيرة ولكن المجامع الكنسية للمسكونية استبعدتها فيما عدا أربعة هي أناجيل متى ويوحنا (وهو غير يوحنا المعمدان) ومرقس وبولس ، وكان من أول الأناجيل التي استبعدت واعتبرت زيوغا إنجيل برنابا ولقبط إنجيل لاثيني ومعناه البشارة أو البشرى .

* * *

وهذه هي حكاية آدم عند بني إسرائيل وحكاية آدم وعيسى عند المسيحيين فلننظر الآن إلى تاريخ آدم وخلقه كما يرد في القرآن الكريم لكي يتضح لك جانب من وجوه الحق في القرآن والإسلام .

* * *

فإذا نحن انتقلنا إلى قصة خلق آدم وزوجه وعلاقتها بالخالق سبحانه وما كان من إبليس كبير الشياطين وتحمده للإنسان — لا لله سبحانه — وجدنا القصة محكية في القرآن الكريم ببلاغ ناصح وصدق باهر وتناسق جميل يدل بالتفعل على صدورها عن الله سبحانه خالق الكون وخالق القرآن ، وإذا كانوا يقولون إن الأديب الألماني فولفجانج جيته قد ارتفع إلى مراتب أعلام الأدباء بصياغته لهذه القصة على أبداع مثال وفلسفته إياها على نحو يصل إلى قمة الإبداع الفني في رواية فاوست ، فسترى أن جيته قد أخذ القصة كلها — كما حكاها — من القرآن لا من الأناجيل ، وسترى براهين ذلك كله فيما يلي من الحديث :

والقصة محكية في مواضع شتى من القرآن ، ولكن صليها نجده في سورة البقرة ، الآيات ٢٩ وما يليها ، وسنأتي بها على تواليها لكي نرى إبداعها وتناسقها ، ثم نعلق عليها فيما بعد :

- ٢٩ - ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم ﴾ .
- ٣٠ - ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .
- ٣١ - ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .
- ٣٢ - ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .
- ٣٣ - ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تدون وما كنتم تكتمون ﴾ .
- ٣٤ - ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .
- ٣٥ - ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .
- ٣٦ - ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .
- ٣٧ - ﴿ فلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ .
- ٣٨ - ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى عدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .
- ٣٩ - ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

فهنا تجد حكاية آدم وحواء فى الجنة : كيف خلقهما الله من صلصال ثم أسكنهما الجنة ، وكيف كانت حياتهما هناك رغدا ، فهما هناك خالدان ، وما داما خالدين فهما — وكل من فى الجنة — فى غير حاجة إلى إنجاب ، ومن ثم فهما لا يعرفان الجنس ، وهما لا يعرفان الحياء الذى نعرفه نحن من هذه الناحية ، وقد أطلق الله لهما الحرية ليتالا من أى شئ أرادا إلا شجرة واحدة حرمها الله عليهما وحذرهما من أن يقرباها حتى لا يقعا فى المعصية ، وليس من المهم أن نبحث أى شجرة

كانت ، ويستوى أن تكون شجرة تفاح أو لا تكون ، ولا محل للقول بأنها شجرة المعرفة لأن الله سبحانه لا يحرم المعرفة على بنى آدم بحال . إن هذا التحريم إنما هو محض حدود وضعها الله ، والله سبحانه يحب أن تُرعى حدوده .

ثم إن آدم وحواء عندما خالفا أمر ربهما وأكلا من الشجرة فقدما طبيعة أهل الجنة ودخلا في طبيعة أهل الأرض التي قدر الله في سابق علمه أن يهيئهما إليها ليعيشا فيها بين حيوانها ونباتها ويكونا في هذه الحالة خاضعين لطبيعة الحياة على سطح الأرض ، وهي الصراع على الرزق للحفاظ على الحياة ثم الجنس للمحافظة على النوع ، فإن الله سبحانه كتب على كل مخلوق حي على الأرض أن ينجب مثله حتى لا يبيد نوعه ، أما طبيعة الصراع على وجه الأرض فقد تبيينها عندما أمرها الله أن يهيئوا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو . والمراد بذلك ذريتهما ، والعداوة جزء من صراع البقاء على الأرض ، وقبل ذلك - عندما كان آدم وحواء في الجنة - لم يعرفا صراع الحياة ، ومن ثم فهما لم يعرفا العداوة ، وأما أن الجنس نبض في كيان آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة فهذا ولحنح من قول الله سبحانه في سورة الأعراف ، آية ١١ وما بعدها :

١١ - ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

١٢ - ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

١٣ - ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .

١٤ - ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يحضون ﴾ .

١٥ - ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ .

١٦ - ﴿ قال فيها أغويتني لأفعلن لهم صواطك المستقيم ﴾ .

١٧ - ﴿ ثم لأبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

١٨ - ﴿ قال اخراج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ .

١٩ - ﴿وَبَايَ آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

٢٠ - ﴿فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيَدِيَ لَهَا مَا وَرَوَى عَنْهَا مِنْ سَوَاعِثِهِمَا وَقَالَ مَا بَهَا كَمَا رَبَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ .

٢١ - ﴿وَقَامَهُمَا إِلَى لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ .

٢٢ - ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاعِثُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا هَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

٢٣ - ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

٢٤ - ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ هَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ .

٢٥ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ .

٢٦ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاعِثَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ .

٢٧ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاعِثَهُمَا إِنَّهُ يِرَاكُمُ هُوَ وَقِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

٢٨ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

٢٩ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ .

فقى هذه الآيات الكريمة من أبواب الحكمة الإلهية في خلق آدم وما فعل آدم بنفسه ، وما يريد الله به وبآبائِهِ من كل خير ما يكشف بصر المؤمن للمعاصر في عصر العلم . واحد من قدماء الفقهاء الذين لا يظنون إلا حلفا ، فكأنما أنزل الله الدين للمعاصي لا للحاضر ولا للمستقبل ، ومن ذلك :

— أن إبليس عندما عصى لم يكفر بالله بل كفر بالإنسان ، وحاشا لله أن يكفر

به مخلوقاته .

— وكفر إبليس بالإنسان هو جزء من طبيعة خلقه ومصيره ، فإن الله سبحانه قدر في علمه أن الإنسان خلق لكي يهبط إلى الأرض ، فهو لا يطبق الحياة في الجنة ولن يستطيعها إلا بعد تمحيص على الأرض شديد وطويل . والجنة الكبرى التي سيشتقى بها آدم هي طبيعته البشرية الضعيفة ، وإبليس هو رمز هذا الضعف وهو يعرفه ، وهو عندما خدع كان يعرف أنه سيوفق في صرفه عن الطريق القويم ويعرف أنه سيستطيع إخراجه من الجنة . وهو إذا خرج من الجنة أصبح فرمسة لإبليس . وعلى وجه الأرض يكون التحدى العظيم بين الإنسان ونفسه الضعيفة التي يعرف إبليس كيف ينفذ فيها ليقسد على آدم حياته . والإنسان عندما يهبط إلى الأرض لم يهبط ملعونا كما هو الحال في النصرانية التي صاغها بولس ، بل تلقى آدم من ربه كلمات وتاب الله عليه لأول ما نزل الأرض حتى لا يجعل أبناؤه وزر خطيئة لم يرتكبوها ، والإسلام دين عدل وقسط ، ﴿ ألا تزووا ووزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ النجم ٣٨ ، ٣٩ .

— ثم إن آدم عندما استقر على الأرض نزع الله عنه الستر الذي خصفه على نفسه من ورق الجنة إذ لا لقاء لشيء من الجنة في الأرض . وفي الآية ٢٦ من سورة الأعراف ينزل الله على آدم وزوجه لباسا يوارى سوءاتهما . وقد يكون هذا كناية عما ألهم الله آدم من اختراع النسيج والثياب .

— ومعنى ذلك أن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض تعير طبعه فأصبح ذا طبيعة أرضية ، مثله في ذلك مثل غيره من الحيوانات ، فكان عليه أن يصارع في سبيل رزقه وفي سبيل بقاء جنسه . وكان عليه — إلى جانب ذلك — أن يواجه تحدى إبليس لإياه ، وإبليس هو رمز الشر والفساد . والإنسان وحده من دون غيره من المخلوقات هو المعرض ، لأن الله سبحانه منحه العقل والعقل هو سلاحه الأكبر إنه يمكنه من النظر والتفكير والاختيار ، أما بقية المخلوقات فمستخرات لأمر ربها ، وكما خلقها الله تعيش ، فإذا كانت من آكلات اللحم فهي تقترب منها من الحيوان ولا تتربص عليها في ذلك أما الإنسان فقد نفخ الله فيه من روحه ﴿ فإذا صوته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (الحجر آية ٢٩) ونفخة الله هذه هي العقل ، وهو نعمة الله الكبرى على الإنسان ، وعليه أن يعتمد عليها في كل وجوه حياته كلها . والله سبحانه عندما قال للملائكة إنه جاعل في الأرض خليفة . فليس

معنى ذلك أن الإنسان سيكون خليفة لله على الأرض ، فإن الله لا يخلفه أحد ، ولكن المراد أن الله باعث في الأرض مخلوقاً متميزاً على غيره بالعقل ، والعقل مفتاح كل خير ، ثم إن إبليس عندما أنظره الله إلى يوم يبعثون اشتد غيظه على الإنسان وقرر أن يستخدم كل ما يملك من الأساليب ليفسد على الإنسان حياته ليثبت لنفسه أنه كان على حق عندما رفض أن يسجد لآدم . جاء في سورة الحجر :

٣٩ - ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لَّيْلِي لَآزِمِينَ لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَغْوِيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٤٠ - ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

٤١ - ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

٤٢ - ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .

٤٣ - ﴿ وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

بل إن الله سبحانه يريد أن يكون تحدى إبليس للإنسان بالغا مداه حتى يكون هذه الحياة في الأرض معنى ، جاء في سورة الإسراء الآيات ٦٢ وما بعدها .

٦٢ - ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتُنَا عَلَىٰ لَتْنِ أَنْعَرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْضَنَ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

٦٣ - ﴿ قَالَ أَذْهَبَ لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنْ جَهَنَّمُ جَزَاءُكَ مَوْفُورًا ﴾ .

٦٤ - ﴿ وَاسْتَغْزَزَ مِنْ الصَّامِتِينَ صَوْتَكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَيْتَكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْلَمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

٦٥ - ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

وإذن فالشيطان يرضى الله سبحانه وتعالى يتحدى الإنسان التحدى الكامل الذى ينبه الإنسان إلى ضرورة مسئوليته على الأرض ، وهو في هذه الأرض في رحلة طويلة أو قصيرة ، ولكن معاده في النهاية إلى الله سبحانه الذى يحاسبه على ما فعل ، ويجزيه الجزاء العادل على ما فعل في دنياه .

والإسلام أساساً لا يعرف الموت النهاى الكامل . إنما هى حياة واحدة طويلة مقسومة قسمين : قصير : هى هذه الحياة الدنيا ، وهى الصغيرة الخفيفة تنتهى بموت مؤقت ، ثم يبعث الإنسان عندما يشاء الله ليرى نصيبه في الحياة الأخرى ، وهذه هى الحالة .

والله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض جرده من طبيعته السماوية وأدخله في شكل أرضي ، ومنحه الأسلحة التي يستطيع — إذا هو استخدمها بعقله — أن ينحو من الهلاك على وجه الأرض ، لأنه يعيش على الأرض مع حيوانات وحشرات وطيور تعيش على غرائزها وحدها ، ولهذا فهي بالغة القوة واسعة الحيلة أو مسلحة بالسموم أو مهياة للدخول في باطن الأرض طلباً للأمان ، هذا إلى جانب الطيور التي تملأ السماء وفيها كواسر آكلات لحم والأسمك الضارية التي تملأ البحار والأنهار وبعضها يعيش على بعض في قوة بالغة ، ولا مسيل لها إلا الافتراس وسيلة للحياة ، والإنسان لا بد أن يتسلح إلى جانب العقل — بأسلحة تمكنه من مواجهة هذه الحيوانات أو الحرب منها ، وكل ذلك أعطاه هذا الشكل الحيواني الأرضي الذي يتميز به ، وهذا هو ما عناه الله سبحانه عندما قال في سورة التين :

- ١ - ﴿ والتين والزيتون .
- ٢ - وطور سينين .
- ٣ - وهذا البلد الأمين .
- ٤ - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم .
- ٥ - ثم رددناه أسفل سافلين .
- ٦ - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون
- ٧ - فما يكذبك بعد بالدين .
- ٨ - أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ التين : الآيات ١ - ٨

* * *

وعبارة ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ التي ترد في هذه الآيات تلتفت نظرنا إلى موضوعين رئيسيين من مواضيع العمل الإسلامي لم يفهمهما فقهاؤنا القدامى أى فهم وألحقوا بالإسلام والمسلمين — دون قصد — ضرراً بليغاً . الأول هو العلم ، والثاني هو العمل .

ذلك أن علم أولئك الفقهاء كان يقوم أساساً على النظر نحو الماضي دون نظر إلى الحاضر والمستقبل ، مع أن الإسلام بطبيعته دين حاضر ومستقبل ، ولا يكاد ينظر إلى الماضي ، وكان رسول الله ﷺ يعيش لحاضره ومستقبل أمته لا يكاد ينظر إلى الماضي إلا في مناسبات العبرة أما الحياة نفسها ، أما صميم الإسلام فهو الحاضر

والغد ، ولم يكن للإنسان من وجهة النظر الإسلامية أن يمضي حياته باكيا على ماضيه في الجنة متحسراً على ما فاتته منه ، بل كان عليه أن يعمل على هذه الأرض بما يسر الله له من وسائل ليستعيد مكانه في الجنة عن طريق العمل لا عن طريق اليكاه على الماضي والتحسر على ما فات .

ولقد كان رسول الله ﷺ من أكثر الناس إقبالاً على العمل لإصلاح الحاضر وإعداد المستقبل ، ولو كان رسول الله قد أمضى حياته على مثال أنبياء بني إسرائيل متحسراً على الماضي سأل الله أن يعيده إليه ما كان أدرك هذا التوفيق وتلك الكرامة ولما كان خير الأنبياء ، كان نظره دائماً متوجهاً إلى الغد وإلى الأحسن . وكانت همه طوال الوقت منجهاً إلى تقوية أمة وزيادة رفعتها وإدخال الناس فيها استعداداً للمستقبل الأحسن ، وإذا كان هو خير الرسل فلا بد أن تكون أمة خير الأمم ، وإلا ما كانت جذيرة به أصلاً ، والذي عمله رسول الله في المدينة خلال السنوات العشر لمقامه في المدينة لا يعمل به غيره في سنين طويلة ، وذلك إيماناً منه بالعمل وثقة به بأن التوفيق على الأرض وكسب رضا الله بالعمل .

وقد قصر المأذون تفسير عبارة « العمل الصالح » بأنها القيام بالعبادات ، مع أن عبادات الإسلام في ذاتها قليلة ، وقد هوّنها الله علينا لكي نقوم بها في استمتاع ولذة ، وأنا شخصياً أقوم بكل عبادات الإسلام كلمة بشروطها وكل ما ينبغي لها من إسباغ الوضوء وطهارة البدن والخشوع والقنوت والخلوص لله سبحانه وتعالى فلا يستلزم ذلك كله متى نصف ساعة في اليوم . ثم أفرغ بعد ذلك للقيام بما أحب أن أقوم به من عمل لخدمة نفسي وأهلي أولاً ثم لخدمة الإسلام والمسلمين عن طريق العلم والبحث ونشر التور .

وإنني لأعجب من مؤلفينا القدامى الذين كتبوا في الصلاة مثلاً مجلداً كاملاً فيه مئات الصفحات ، وأسأل نفسي : ألم يكن أولى بأولئك الفقهاء أن ينفقوا هذا الجهد مثلاً في دراسة المياه ومصادرها ، وكيف نحصل عليها وكيف ننقيها ونسوقها في الأنابيب حتى نستخدمها في الوضوء والغسل والصلاة ونظافة البدن كما فعل أهل الغرب ! ليس هذا أفضل من كتابة المجلدات في أنواع المياه ، وما يصلح منها للوضوء وما لا يصلح ، وكم مقدار الماء اللازم للوضوء ، ومتى تفسد المياه ومتى لا تفسد ، لقد فعل غيرنا هذا — وهم غير مسلمين — فدرسوا المياه ويسروها وساقوها على

النحو الذى نراه نحن اليوم فيسروا علينا صلاتنا وكل حاجتنا إلى الماء ، وجعلوا وضوءنا أيسر وأظهر وعلمونا كيف نسوق الماء على هذا النحو ، وجعلونا بهذا الجهد أقرب إلى الطهارة والنقاء .



وكل هذا الذى اخترعه أهل الغرب فى شأن المياه كنا نحن نستطيع أن نخترعه لو لم تكن نظرنا إلى العلم سلفية على النحو الذى كان ، فإن أهل العلم عندنا بعد عصر الفقهاء والمشرعين الكبار الذى ينتهى فى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) جعلوا دأبهم فى العلم النظر إلى الوراثة ، وفاتهم أن رسول الله ﷺ كان ينظر إلى الأمام دائماً ، ورسالة الإسلام التى حملها إلى البشر كانت تفتح أمام البشر عصراً جديداً ، والقرآن نفسه يعلن ذلك ويقول إن من أكبر أسباب الكفر هو التمسك بآراء الأقدمين والسير على مناهجهم فى الحياة . ولقد صور الله سبحانه موقف المتمسكين بما كان عليه آباؤهم وكيف أنهم يقفون جامدين مكانهم لا يتقدمون فى قوله : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف : ٢٢ .

وقد يتصور الناس أن هذا لا ينطبق إلا على الكفار بالله ، ويفوتهم أن الجمود — أيما كان — لابد أن يقود الإنسان إلى حالة لا يكون هناك فرق فيها بين من يؤمن بالله ومن لا يؤمن ، لأن العلم فى طبيعته تقدم ، والعالم الذى لا يتجه بعلمه إلى الأمام لابد أن يتأخر ويصبح جاهلاً أقرب إلى الكافرين ، فهؤلاء الشيوخ الذين نظروا دائماً إلى الوراثة وتمسكوا بالمأثور وتأموا عليه كانوا يخرجون فعلاً على الإسلام ، فبعد القرن الرابع الهجرى أصبح الكثيرون جداً من الشيوخ على درجة من الجمود لا تصدق معها أنهم مسلمون ، ونحمد كل شيء أمامهم حتى صارت أية مخالفة للمأثور الموروث بدعة ، والبدعة هى كل شيء مبتكر أو مبتدع ، وهذه المخترعات التى نراها اليوم إنما هى مبتدعات أو بدع ، فكيف يريوننا أن نصدق أن رسول الله ﷺ قال : كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ! لقد ألف فقيه أندلسي من أهل القرن الخامس الهجرى هو أبو بكر الطرطوشي كتاباً سماه « البدع » وقال إنها كلها خروج على الإسلام . فأنت إذا لبست ثوباً لنا خرجت على الإسلام ، وإذا فرشت مسجداً بسجادة طيب خرجت على الإسلام وإذا تاجرت مع غير مسلم

خرجت على الإسلام وهكذا . أفلا يصدق على مثل هذا الرجل قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً لَّهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ ١ وهذا الشيخ ترك وطنه الأندلس وهاجر من بلدته طرطوشة وانتقل إلى المشرق ليعيش في رغد وأمان ، وقد فاته أن هذه الهجرة التي قام بها هو وأمثاله من الشيوخ أضرت بالإسلام أسوأ من أي بدعة ذكرها ، لأن شيئاً من الأشياء لم يضر بمصير الأندلس أكثر من هجرة الشيوخ وأعيان الناس وأغنيائهم ، لأن أعلام الناس هؤلاء عندما هاجروا إلى بلاد الإسلام طالبين الأمان تركوا وراءهم الفلاحين والعمام وأهل الحرف والأسواق ، هؤلاء مساكين يحتاجون إلى قيادات تثبت ظلوهم وتقوى عزمهم ، وإذا كان أهل السياسة قد خاتوهم وتخلوا عنهم ، أقما كان من الواجب على أهل العلم أن يظلوا في الأندلس فيجمعوا الناس حولهم وينظموا صفوفهم ويقوموا بعزمهم ويقودوهم في الصراع في سبيل الوطن الأندلسي ، وماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم إلا ناسا من الناس التفوا حول رسول الله وأخذوا عنه الإسلام وقبضوا منه روح الجهاد . لقد جمعهم الرسول حوله وعلمهم الجهاد في سبيل الله ، وقادهم في المعارك وأرسل بعضهم في السرايا واتصر بهم الإسلام . وأهل الأندلس أنفسهم كانوا دائماً - وإلى آخر مراحل الصراع - قوما أولي عزم وبأس وبسالة وإقدام على القتال ، ولكن كانت تنقصهم القيادة والعقول المفكرة المدبرة . وما كانت جيوش التصاري التي انتزعت الأندلس من المسلمين إلا فلاحين وزراعا وأهل أسواق دعاهم القساوسة إلى القتال وجندوهم وحشدوهم في جيوش القادة والأمراء والملوك وكسبوا بهم المعارك ، وعلى طول تاريخ الإسلام نجد أن بدايات الحركات الإسلامية والتحريرية الكبرى كانوا شيوخاً مؤمنين ، ولكنهم ليسوا جامعين ، فدعوا الناس إلى النهوض وجمعوا صفوفهم وقادوهم في المعارك ضد أعداء الإسلام - كما نجد على طول تاريخ المغرب - أو كسبوا إلى دعواتهم أمراء من أهل العزة والنخوة ، ومن اتحاد الجانبين قامت نهضات إسلامية كبرى كما نرى في الحركة السلفية التي قادها محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود ، وهي مفخرة من مفاهيم الإسلام في العصر الحديث . وجدير بالقول هنا إن هذه الحركات الإسلامية الكبرى نظرت إليها الفقهاء التقليديون الذين يرون كل دعوة جديدة بدعة ، وكل بدعة في النار ، وبالفعل قال فقهاء مصر والدولة العثمانية إن الدعوة السلفية الوهابية ضلالة وكفر ، وأبدوا الدول في حربها معها ، ولكن الله سبحانه نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

• • •

ومادامنا في مجال البحث عن أسباب تدهور المسلمين ، فننقل منذ البداية إننا
أخطأنا في فهم ثلاثة أشياء رئيسية ، فكان هذا الخطأ سبباً في كل خطأ وشر جاء
بعده .

فأما السياسة فلإننا إذا نظرنا إلى تعرف رسول الله وقباده للجماعة الإسلامية نجده
لم يدخل السياسة أو يتبع أساليبها ، بل يحيل إلى أحياناً أن أكبر الغايات من تكوينه
على هذا النحو الأخلاقي الكامل ثم تكليفه بالرسالة وإنزال القرآن الكريم عليه وقيامه
بإنشاء الجماعة الإسلامية على النحو الذي أنشأها عليه كان تخليص الإنسانية من
السياسة وأساليبها وأخلاقها ، وعقيدة التوحيد في ذاتها التي يقوم عليها الإسلام
تعارض مع السياسة ، فحين إذا تأملنا عقيدة التوحيد في ذاتها وسألنا : ماذا يفيد
البشر من التوحيد ؟ لوجدنا أن الجواب هو إزالة الخلافات بين البشر حول المعبود
وجمعهم نحو الإله الواحد ، فإذا هم اجتمعوا حول خالق الكون سبحانه لم يعد بينهم
خلاف حول العقيدة ، ولذلك أمر المسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا
يتفرقوا ، لأن اجتماع المؤمنين حول الله سبحانه هو أساس قوة مجتمعهم ، ومزالت
وحدة العقيدة عند المسلمين إلى يومنا هذا هي أساس قوة العالم الإسلامي ، وأنا
هنا أنظر إلى التفاف المسلمين حول الإيمان بالله خالق الكون سبحانه وإيمانهم برسوله
(صلوات الله عليه) وتصديقهم بكل ما جاء في القرآن الكريم ، فلرسول الله
أحاديث كثيرة تقول إن الإنسان إذا آمن بالله ورسوله وكتابه فقد عصم نفسه من
النار ، فأما ما عدا ذلك من الخلافات في الرأي فلا تكفر ، وبين المسلمين خلافات
كثيرة حول مسألة الخلافة ، وهي مسألة سياسية . ولا أرى ما يدعو أو يبيح أن
نكفر مسلماً لأنه يرى في الخلافة رأياً يختلف عن رأي غيره ، وقد أضر المسلمون
بأنفسهم أشد الضرر بسبب إعطاء مسألة شكل الخلافة هذه أكثر مما تستحق ، فما
دام المسلم لم يتطرق إلى مذاهب غلاة الشيعة ممن يشركون بالله إشراكاً واضحاً
فإنهم في حدود الإسلام ، وليس لنا عليهم سبيل ، وعلى الله سبحانه حسابهم .
ثم إن كل خلافات المذاهب لم تنته إلى نتيجة رغم الحروب والدماء ، ونحن اليوم
نأسف على ما كان بين الصفويين الفرس والأتراك العثمانيين من الحروب المهلكة ،
وما أدى إليه ذلك من مبالغة الصفويين في التحمس لمذهبهم الشيعي ، ثم ما كان
من ارتعائهم في أحضان الإنجليز للاستعانة بهم على الأتراك العثمانيين . لقد انتهى الصدام
الأول بين الجانبين برد الفرس إلى بلادهم وإخراج بلاد العراق من سلطانهم وإعادته

إلى المجموعة العربية التي يتنسب إليها ، وبعد ذلك كان ينبغي البدء في الصلح بين
الجانبيين ، وتصور ما كان يمكن أن تفيدته الأمة الإسلامية لو أن الفرس تصالحوا مع
الأتراك وتوقفت الحروب بين الجانبين ، فإلى ذلك الحين (منتصف القرن الخامس
عشر الميلادي) لم يكن الشيعة في هضبة إيران إلا أقلية ضئيلة ، وكان من الممكن
أن تزداد قوة مع الزمن ، فحضور ماذا نجم عن استمرار الأتراك العثمانيين في حرب
الصغويين والتوسع في بلادهم طوال عصر سليمان القانوني ، فهذا في ذاته دفع الفرس
إلى الاستعانة بالروس — بعد الإنجليز — على الأتراك ، واضطر الأتراك إلى نقل
جماعات كبرى من مقاتليهم من جبهة القتال في الغرب الأوروبي إلى الجبهة الإيرانية
الشرقية ، فهذا أدى إلى تفوق الروس على الأتراك العثمانيين وتغلبهم على الأتراك في
جبهتهم الشمالية ، وعداء الروس للأتراك العثمانيين كان آخر الأمر وبالا على تركيا
بل كان أكبر أسباب تدهورها .

ذلك أن رسول الله ﷺ في تكوينه للأمة الإسلامية وقيادتها في مكة أولا ثم
في المدينة المنورة وضع للرياسة والقيادة — والسياسة جملة — نهجا جديدا يختلف
عن كل ما عرفته الإنسانية من قبل . ذلك أن الله سبحانه علّمنا أرسله بالإسلام
أراد من الإسلام أن يكون حلا جديدا لم يسبق لكل مشاكل الإنسانية وأولها
المشكلة السياسية ، لأن الإنسان يعيش على الأرض جماعات ، وكل جماعة منها تحمل
التكليف الذي وضعه الله على اكتاف البشر باختيارهم وهو عمران الأرض ، وهو
الأمانة التي عرضها الله سبحانه في قوله ﴿ إِنَّ عَرْضَنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا وَحِيمًا ﴾ الأحزاب : ٧٢ — ٧٣ .

ولما أتيت بهاتين الآيتين لأنهما تكملان ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحياة على
هذه الأرض إنما هي استجابة للتحدي الذي ألقاه إبليس في وجه الإنسان عندما رفض
السجود لآدم ، لأنه اعتقد أنه خير منه لأن الله خلق إبليس من نار وخلق الإنسان
من طين ، وقد نسي إبليس أن الله ميز الإنسان بميزة كبرى على سائر خلقه وهي
النفخة الإلهية التي منحت الإنسان العقل وهو القوة التي يفهم الإنسان بها الأشياء
ويفكر فيها ويختار من بينها الطريق الذي يعينه على النصر في معركة التحدي وهي

معركة اعمار الأرض وكل عمل يقوم به الإنسان في طريق هذا العمران يعتبر عملاً صالحاً ، ولا معنى لأن نقصر الصالحات على العبادات ، لأن العبادات الإسلامية في مجموعها سهلة يسيرة ، وهي في مجموعها خير معين للإنسان على كسب معركة التعصير ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة حق معلوم للسائل والمحروم في أموال الناس ، وإذا كانت الصلاة هي حق الله على الناس فإن الزكاة هي حق الناس على الناس ، أما الصيام فهو تزكية للنفوس وتطهير لها من أدرانها ومن ثم فهو معين على الجهد والعمل والفضائل ، والحج هو تجمع المسلمين بعضهم إلى بعض في وقت معين من كل عام عند بيت الله ، حيث يخرجون من ميزانهم الدنيوية ويلبسون لباساً واحداً بسيطاً يذكرهم بمجانبيهم الإنساني ، وهناك يتفكرون بين مواضع مفررة في أوقات مقدرة . وكل حاج يقدم هدياً يأكل منه الفقراء والمساكين ، وبعد أن يقضى المسلمون مناسك الحج يكون بينهم تبادل منافع من تجارات وصناعات أو أفكار وآراء . لأن أمة الإسلام لا ينبغي أن تفقد أبداً الشعور بأنها أمة الله سبحانه التي تجتمع على الخير وتتعاون على المعروف وما فيه تقدم الإنسانية .

كان لابد أن يضع الله لهذه الأمة الإسلامية نظاماً جديداً شاملاً تخفى به مساوئ التنظيم السياسية التي قامت عليها دول الجاهلية ، وكل جماعة بشرية سابقة على الإسلام في الزمان فهي جاهلية بالقياس إلى الإسلام الذي هو الهدى والنور . لهذا قاد رسول الله ﷺ أمة الإسلام بشيء غير السياسة علمه إياه ربه الذي وصفه بأنه مبشر ونذير وهادٍ وداعٍ إلى الله بإذنه وسراج منير ، ولم يصفه قط بأنه سياسي أو قائد دولة .

ذلك النظام الجديد الذي سار عليه محمد ﷺ في قيادة أمة يدخل في مجموع ما يمكن أن نسميه بالهدى ، فالأمة الإسلامية متساو بعضها مع بعض ، لا طبقات فيها ولا مراتب ، ولا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى . والتقوى ليست هي الخوف من الله ، لأننا لا نخاف الله لكي نتقيه ولكننا نتقيه لأننا نحبه ، والذين يخافون الله هم الذين يحالفونه ويعصونه ويخشون عقابه ، أما الذين يعتصمون بحبل الله ويسمرون في طريق هداه فهم الأتقياء أو أهل التقوى ، وهم مراتب المسلمين ، وهذا معنى إسلامي جديد لللفظ ، ومن المعروف أن الإسلام أخذ ألفاظاً قديمة وأعطاها معاني جديدة ، وهذا هو المصطلح الخاص بالإسلام . وتلك هي الأخلاق الإسلامية .

والسياسة لا تدخل في التقوى ، لأن السياسة هي الخيل والأساليب التي يتبعها طلاب الحياة والسلطان أو المال ، وهي لا تعرف الأخلاق ، فكل ما يوصل إلى الغايات الشخصية أو السياسية مشروع ، وكبار السياسيين في التاريخ كانوا رجالا بلا أخلاق ، وانظر مثلاً رجالا من أمثال ميتريخ أو بسمارك أو تشرشل ، ومن ماثور كلمات عفا الأخير قوله : « إن السياسة يحرسها حارسان من الكذب » وفي أثناء التحقيقات مع رجل من رجال السياسة السرية الأمريكية في قضية الأسلحة التي بيعت لإيران وزعموا أنهم أخذوا أثمان يبيعها وأرباحها وأعطوها لأعداء الحكومة اليسارية في نيكاراغوا في أمريكا الوسطى ، وهي حكومة أتباع رجل شيوعي يسمى ساندينو قال ضابط كبير من كبار ضباط المخابرات وهو أوليفر نورث : « إننا نعمل في نصرة سياسة بلدنا ، ولا نحاسنا أحد هل الأساليب التي نتبعها . لأنكم تعلمون أن السياسة لها غايات ولكن ليس لها أخلاقيات ، أو على الأقل ليس لها الأخلاقيات التي تريدون أنكم محاسبين عليها ، وأنتم أهل سياسة وتعرفون أن ما أقوله صحيح . وأنتم لا ترضون أن يحاسبكم الناس على أساس الأخلاقيات التي تتحدثون عنها اليوم » . وعندما كان أهل السياسة في ألبا يحاكمون سفراط ويتهمونهم بافساد أخلاق الشبان قال في خطابه المشهور لهم : « إذا كنتم نحاكمونني على أساس أخلاقياتكم السياسية فلا شك في أنني أستحق الموت ، ولا يفزعني أن تحكموا عليّ بالموت » .

وهذا الطراز من السياسة الذي كان سائدا قبل الإسلام ثم عاد فاستشرى بعد الإسلام وأصبح قاعدة العمل السياسي اليوم هو الذي تحاشاه رسول الله ﷺ ولم يعرفه قط ، وعندما تجمع حوله المشركون القرشيون من السياسيين الذين كانوا يسودون المجتمع المكي ويستغلون الناس ويفسدونهم وأرادوا الاحتيال عليه واجتذاه إلى ناحيتهم وعرضوا عليه الخيرات والمراتب العالية ورفض ، لأن ذلك كله يتناق مع الإسلام .

أما الطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ سواء في تسيير أمور جماعته الداخلية أو قيادتها في صراعها مع الشرك وأهله فهو طريق الأخلاق الإسلامية وكلها مشتقة من الهدى ، فالهادي لا الأشمحاء كانت تقود الناس في المجتمع الإسلامي أيام الرسول ، وما نسميه نحن بالسياسة كان أخلاقا فاضلة ، فأناس متساوون بعضهم مع بعض مساواة حقيقية لا يتفاضلون إلا بمكارم الأخلاق ، ورسول الله يقود جماعته قيادة جماعية ، فقيما عدا قواعد الدين والعبادات وما تتضمنه الآيات القرآنية من

أوامر ونواها فكل شيء في أمة المدينة كان يدور جماعيا ، فقد انتخب أهل المدينة اثني عشر نقيبا ليتعاونوا مع رسول الله ﷺ في إدارة الجماعة ، ورسول الله تبارك وتعالى مع العمل ملكات المهاجرين ومن انضم إلى أمة الإسلام من العرب من غير الأنصار وصار يهبط إلى كل رجل بما يستطيعه وما يتفق مع مواهبه ، وهكذا أحاطت برسول الله ﷺ جماعة ممن يحسنون قيادة الأمور ، وكان صفى رسول الله من بين هؤلاء هو أبو بكر الذى تلقى درس أخلاق القيادة الإسلامية من رسول الله وسار على دربه ، وبعد أنى بكر بجبهه بقية المهاجرين والأنصار متساوين في الملكة الاجتماعية ولكن لكل منهم قدراته وملكاته ، حتى عمر بن الخطاب لم يكن له في المجتمع المدنى أيام الرسول تلك الملكة التى تنصورها ، إنما كان عمر صفى أنى بكر وتلميذه ، ولكننا لا ندين له أيام الرسول مكانا أفضل من مكان على بن أبى طالب أو أنى عبيدة عامر بن الجراح أو سعد بن عبادة وكان الرسول يعرض كل أمر من أمور الجماعة للمناقشة وتبادل الرأى فلا يتخذ قرارا في موضوع يهم حياة الجماعة إلا بموافقتها كما رأينا رسول الله يعرض موضوع دخول معركة « بدر » على الجماعة التى خرجت معه في طلب العير ، لأن الموقف تغير وأصبح واضحا أن القتال واقع . ومن ثم فلا بد أن توافق الجماعة على ذلك ! وفى ذلك المجلس التاريخى نرى رسول الله ﷺ يحرص على أن يسمع رأى المهاجرين ثم تحدث المقداد بن الأسود ولم يكن أوسيا أو خزرجيا ولكنه كان من قضاة من حلفاء الأنصار الذين كانوا يعيشون في المدينة حلفاء لأهلها من الأوس والخزرج وكأنهم منهم ، وكانوا جماعة كبيرة من المسلمين ذوى المواهب ، من ههنا وبلى وجهاء وبلقين وغيرها من فروع قضاة التى كانت تعيش في الحجاز شمالى المدينة المنورة وتمتد شمالا إلى بلاد الشام وجنوبا حتى ينبع على شاطئ البحر ، فلما تكلم المقداد باسم جماعته وأعلن استعدادهم الكامل لخوض المعركة ، ثم تكلم سعد بن معاذ الأشهل الأوسى باسم الأنصار من الأوس والخزرج ، فلما اطمأن رسول الله إلى موافقة مجلس الشورى على القتال اتخذ قرار دخول المعركة ، ورسول الله فعل مثل ذلك عندما خرج بأصحابه لإداء العمرة واعترضه المشركون القرشيون عند الحديبية ، فهنا نرى أيضا أن رسول الله عندما تبين غياب عثمان بن عفان في مكة وأرجف للمسلمون بأن القرشيين قتلوه أحس أن الموقف قد تغير وأن الأمة تواجه الآن احتمالات الحرب ، فجمعها للمشاورة ، فأجمعوا على دخول الحرب إذا اقتضى الأمر ذلك وكانت بيعة الرضوان .

وكان هذا دأب رسول الله ﷺ في قيادة الجماعة : التشاور مع الأمة في كل أمر يهمها من أمور الدنيا ، والشورى منصوص عليها ، في القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى أمر الرسول في القرآن بأن يشاور المؤمنين ، بل إن رسول الله ﷺ عندما كان يريد أن يخرج في غزاة كان يستعد هو ، ولا يعلن عن حروجه إلا قبل الخروج بقليل ، لأنه كان ينفذ خطة كبيرة واسعة المدى ، ولا بد له من السرية في أحيان كثيرة ، وبدلاً من أن يجمع الناس في مجلس سرى كان يخرج بنفسه مع أئى بكر وبعض من نذروا أنفسهم للخروج مع رسول الله ﷺ في المغازى ، ثم ينتظر خارج المدينة ، ويشيع الأمر ويتلاحق بالرسول من يريد دون ضغط أو أمر ، ثم يسير بمن حضر . ولم يحدث أن لام رسول الله ﷺ أحداً على عدم الخروج معه في الغزاة إلا في ثوك ، وهى غزاة حاسمة تعين منعطفاً في تطور أمة المدينة ، وهى آخر غزاة كبرى قادها الرسول ، وأعقبها سورة التوبة أو براءة التى قررت مجموعة من المبادئ الأساسية في تنظيم أمة الإسلام وجماعتها ، وسورة براءة أو التوبة هى بإجماع معظم مؤرخى القرآن آخر سورة أنزلت على رسول الله من سور القرآن الكريم ، وفيها — فيما أرى — تقرر أن الجهاد فرض عين ، لا فرض كفاية ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى لام الثلاثة المخلفين عن الخروج للجهاد بدون عذر وعاقبهم ، والإنفاق عن سعة في سبيل الله فرض عين ، أيضاً بمقتضى ما يرد في هذه السورة العظيمة . والله سبحانه وتعالى عندما قرر أن الجهاد والإنفاق فيه فرضان على المسلمين جميعاً أراد أن تسير الأمة على ذلك فيما بعد وبخاصة بعد وفاة الرسول (صلوات الله عليه) . ولا أدرى كيف جاء الفقهاء ، بعد ذلك وأسقطوا عن المسلمين واجب الجهاد العيسى ، لأن إسقاط ذلك الواجب ألحق بأمة الإسلام ومستقبلها ضرراً بالغاً ، ومن ثم فإن ذلك فقه سيء غير مقبول .

والإهمال فرضية الجهاد على المسلم كان سبباً في أضرار جسيمة لحقت بالأمة ، فإن إعفاء الناس من الخدمة العسكرية في سبيل الجماعة جعل الدولة الإسلامية في حاجة إلى مقاتلين ، وتلك هى الفرصة التى استغلها معاوية بن أبى سفيان لمصلحته ، فإن الخليفة الشرعى وهو على بن أبى طالب وجد نفسه في الحماز بلا جند ، لأن جند

(٥) ، وأمرهم شورى بينهم (النورى — آية ٣٨) .

(٥) ، وشاورهم في الأمر ، (آل عمران — آية ١٥٩) .

الدولة كانوا متفرقين في الأمصار ، وعمر بن الخطاب كان يجعل الجهاد « فرض عين » وكان لا يأذن لعمرى مسلم في أن يتخلف عن الجهاد ، وكان ينبغي أن يتم بتفتين هذه المسألة ، ولكن الفتوح كانت ماضية على قدم وساق في أيامه ، فلم يجد هو ضرورة تدعو إلى التفكير في وضع نظام للجهاد ، فإن الناس يتدقون على ميادين القتال من تلقاء أنفسهم لأن الإيمان كان يملأ القلوب فترك الأمور تسير في مجراها في تلك الناحية ، وهذا كان الخطأ فلا شيء من أمور الأمة ينبغي أن يترك ليسير حسبما اتفق . وكان رسول الله ﷺ لا يترك شيئاً من أمور المسلمين دون تنظيم ، وكان يناقش مع المسلمين بعد كل غزوة ما وقع فيها ويستخرج القواعد السليمة المتنبية من التجربة والقائمة على روح الإسلام ، وسرى في الفصل الخاص بدستور المدينة كيف أنه كان دائم الاجتماع وقادة المسلمين الذين نستطيع اعتبارهم أهل شورا لمناقشة الموضوعات والخروج بالقرارات التي يرضيها الجميع . فإذا أقروا مبدأ أمر على بن إلف طالب بأن يسجله ، ومن هذه التسجيلات تكون ما عرف « بالكتاب » أو « الصحيفة » الذي سميناه دستور للمدينة أو دستور أمة المدينة . وهذا الدستور يقرر الكثير من شؤون الحرب والجهاد والنفقة عليه . ومن الأمور التي ناقشها واتخذ فيها قرارات حاسمة مسألة يهود المدينة الذين حالفوا الأمة الإسلامية أول الأمر ، وكان الرسول عظيم الأمل في دعوهم أمة الإسلام فأذن لهم في حلف الأمة ، وفي إحدى مواد الدستور الأولى سمح لهم بالقتال مع المسلمين والاشتراك في النفقة . ولكنهم لم يقاتلوا مع المسلمين قط ، لأن حلفهم لم يكن صادقا ، فلما كشف بنو قينقاع عن نفوسهم ، ووجد الرسول ألا مفر له من إخراجهم من المدينة تغير الموقف بين المسلمين واليهود ، ثم كان الخلاف بين المسلمين واليهود بعد « أحد » وقضى على بنى النضير ثم على بنى قريظة بعد أخذنق ، وكان هؤلاء هم الجماعات اليهودية الكبرى في المدينة ، وبقيت بعد تصفيتهم جماعات يهودية صغيرة مخالفة للقبائل المسلمة ، فوجد الرسول أنه لا بد من النظر في أمر هذه الجماعات ، فنظر المسلمون في ذلك الموضوع وناقشوه واتخذوا فيه قرارات نجدها في جزء كامل من أجزاء دستور المدينة .

مثل هذا كان لا بد أن يفعله عمر بعد الفتوح ودخول جماعات كبيرة من أهل الأمصار في الإسلام ، وكان لا بد أن تنظر جماعة الشورى في ذلك وتتخذ فيه القرارات ، ولكن عمر في الغالب أهمل الشورى أو هو قصرها على نفر من أصحابه ،

فكان يستشيرهم دون الآخرين ، وهذا يخالف لسنة الرسول ، وكان التزام السنة يقتضى المحافظة على الشورى وتنظيم أمرها وعرض كل مسائل الأمة عليها لتتخذ فيها القرارات المناسبة كما كان الحال في أيام الرسول . ولكننا اتبعنا السنة في أمور وتركناها في أمور أخرى ، وكان هذا مما أضر بالأمة ضررا بالغا فقد كان من الضروري مثلا أن ننظر الشورى في أمر المسلمين من غير العرب وتضع القواعد السليمة لاستعراهم وإسلام من يريد الإسلام منهم . أما أن نترك الأمور تجري كيف نشاء في هذا الموضوع فكان شديد الضرر بأمة الإسلام وفتح الباب أمام الفوضى والارتجال والفوضى والارتجال ثم الاستبداد أصبحت قواعد العمل في دولة الإسلام .



ومن الأخطاء السياسية الكبرى التى وقعنا فيها مسألة الخلافة ، فالخلافة كان ينبغي أولا أن تكون نابعة من جماعة الشورى ، وكان من الأخطاء الجسيمة أن اعتبر الخليفة حاكما بأمره يتصرف كيف يشاء ، وإذا هو أراد أن يستشير استشار وإذا أراد أن يتخذ القرار اتخذ ، وأبو بكر وعمر كانا خليفتين صالحين لأنهما يطبعهما كانا صالحين ومسلمين صادقين ، لا لأن النظام في ذاته كان صالحا فقط فليس من المعقول ولا مما يتفق مع طبيعة الإسلام أن يحكم هذه الأمة كلها رجل واحد ، وأن يحكمها دون حدود لا من سلطان أو زمان . ونحن أنقشنا اليوم لا نرضى بذلك في دولنا فرئيس الدولة ليس مطلق السلطان يقرر ما يشاء ولا معقب على ما يقرر ثم إنه لا يحكم دون حد زمني ، فلا بد من تحديد المدة ، ومن الممكن تجديدها ، في حدود أيضا ، أما أن يتولى الخليفة الحكم إلى أجل غير مسمى فخطأ لأنك إذا أقمت حاكما مطلق السلطان غير محدد بزمان فقد أوجدت بذلك حاكما مستبدا ولا يغير من هذا الوضع أنك تسميه خليفة ، فهو ملك مطلق السلطان على أى حال ، وليس أضر على الأمم من الحاكم المطلق السلطان الذى لا تحده حدود أو قيود ولكننا نعرف أن ذلك كان من أكبر أسباب تدهور دول الإسلام .

ثم إن عمر عندما طعن وأيقن بالموت اختار ستة فحسب من المسلمين وترك لهم أمر اختيار خلفه ، وقال إن الأساس الذى اختار أولئك الستة على أساسه أنهم هم الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فهل هؤلاء الستة فحسب هم الذين توفى الرسول وهو عنهم راض ؟ ولماذا يكونون من قريش وحدها ، هل لدينا حديث صريح

جميع عليه يقول إن الخلافة في قريش وحدها ؟ وإذا كان هناك حديث للرسول في هذا المعنى فلماذا أهمله الأنصار في مناقشتهم لأبي بكر وعمر في حديث السقيفة ؟ وهل توفي رسول الله وهو غير راض عن سعد بن عبادَةَ مثلاً . لقد كان هذا الرجل من أكثر المسلمين إخلاصاً للذين وللرسول ولأمة ، فقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ، وضمن غزاة أو سرية إلا تبرع فيها بالمال الكثير ، ولو أننا أحصينا مكارمه لوجدناها تفوق أضعافاً كل عظماء عثمان بن عفان ، ولكن مؤرخينا يضللوننا ويقولون مثلاً إن عثمان قام بنصف نفقات جيش « العسرة » وهذا غير صحيح ، وفي هذه الغزاة وغيرها كان إتفاق سعد بن عبادَةَ أضعافاً إتفاق غيره ، ثم إنه كان حريصاً يوماً بعد يوم على أن يرسل إلى رسول الله ومن إلى جوارحه من أهل الصفة طعامهم ، هذا إلى جانب ما كان يقدمه ابنه قيس بن سعد بن عبادَةَ . فكيف لا يكون هذا الرجل ممن توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ مع أنه هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام » .

ألم يكن أفضل لأمة الإسلام لو سارت الشورى كما كانت عليه أيام الرسول ؟ وأليست هذه هي السنة ؟ ألم أننا نتبع السنة فيما نشاء ونخالفها فيما نشاء ؟ لقد كانت الشورى نحو ثلاثين رجلاً منهم اثنا عشر من الأنصار ومثلهم تقريباً من المهاجرين والبقية من أهل المدينة ممن لم يكونوا مهاجرين ولا أنصاراً . ومثل هذا العدد من فضلاء الصحابة كان لابد أن يحسنوا الرأي بأحسن مما جرى في اجتماع السنة ، لأن عبد الرحمن بن عوف تصرف في هذه الاجتماعات تصرفاً يؤخذ هليه ، فقد بدأ فأخرج نفسه من احتمالات انتخابه خليفة ، ثم مضى يسأل أصحابه الباقين إن كانوا مستعدين للسير في أعقاب رسول الله وأبي بكر وعمر ، فأما رسول الله فمفهوم وهو على العين والرأس ، ولكن لماذا يلزم الخليفة الجديد باتباع نهج أبي بكر وعمر مع أنهما كانا مختلفين في كثير من المسائل وبخاصة مسألة قسم العطاء بين المسلمين ، فقد كان أبو بكر يرى التسوية بين المسلمين في أنصبتهم من العطاء لأن هذا — كما قال — معاش والتسوية فيه أحسن ، أما عمر فقد فرق بين الناس وقال إنه لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه ، وفرق بين الناس بحسب القرابة فأعطى آل بيت رسول الله ﷺ أكثر مما أعطى غيرهم ، فرق بينهم في ذلك أيضاً مع أن رسول الله لم يكن يأخذ من مال المسلمين شيئاً . وكان لا يعطى آل وأهل بيته

إلا النصيب الضئيل الذى قرره لهم الله فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد كان نادرا ما يعطى آله شيئا ، فأى الرايين يتبع الخليفة إذن : رأى أبى بكر أم رأى عمر ؟

ونحن عندما نعيد التفكير فى مثل هذه الأمور فإن دافعنا ليس النقد بل نحن نبحث هنا عن سبب الخلل فى نظام الأمة الإسلامية . لقد كانت الأمة تسير على خير نظام دستورى شورى أيام الرسول ، واستمرت الأمور تسير سيرا حسنا أيام أبى بكر وعمر بقوة الدفع أولا ثم بسبب تميز الرجلين ، ولكن حياة الأمم لا ينبغي أن توكل إلى الظروف . وكان لابد إذا أردنا أن نقول إننا سرنا على السنة أن نكون قد اتبعنا السنة حقا ، أما أن نتبعها حيننا نشاء ونهملها فيما نشاء فقد كان هذا سبب الخلل . ولا يظن أحد أن اتجاهنا هذا فى الكلام فيه قلة توفير لبعض الصحابة ، وما شاء الله أن يكون هذا موقفنا ، فنحن نحمل الصحابة (رضوان الله عليهم) بأكثر مما يحملهم أى مسلم تقى مؤمن ، ولكننا نفرق — فى كل من الصحابة — بين جانبيه كصحابى . فهذا عندنا فضل من الله وميزة كبرى وجانبه كإنسان . فإن الصحابة كانوا سواسية فى الصفة الشريفة ، ولكنهم لم يكرنوا سواسية فى المواهب والخصال . وقد آن أن نتخلص من بعض المفهومات القديمة التى ورثناها عن السلف دون تفكير مثل قولنا إن عشرة من الصحابة ميثرون بالجنة دون غيرهم . وهذا غير صحيح ، فحن لانجد سعد بن معاذ فى أولئك العشرة مع أن رسول الله قال إن سعد بن معاذ فضلا فى الجنة .

ونحن لا اعترض لنا على الخلافة ، فهى نظام رياسى كغيره . ولكن كان ينبغي أن تكون تابعة من الشورى ، لأن جماعة الشورى هى أساس السلطة كلها فى أمة الإسلام ، فهذه أمة شورية ، وأهل الشورى هم الذين يختارون رئيس الجماعة . ثم إن مدة الرياسة ينبغي أن تكون محددة والأمة هى التى تقرر مدتها وتقرر إن كانت تجدد أو لا تجدد .. والأمة الإسلامية نفسها — كما نراها فى دستور المدينة — ليس من الضرورى أن تكون وحدة سياسية واحدة . بل من الممكن أن تكون وحدات سياسية مختلفة ولكنها متآخية مترابطة تحت راية الإسلام وعقيدته وشريعته وميزانه الخلقى ، فقد أقر رسول الله ﷺ مملكة داخل أمة الإسلام وهى مملكة ابني الجندى فى عمان ، لأنهما دخلا فى الإسلام وأمتا بعقيدته وشريعته وأقاما الصلاة وآتيا الزكاة وأحسنا استفعال المعامل على الزكاة المرسل من قبل رسول الله (صلوات الله عليه) .

وأقر رسول الله رئيس قبيلة كبير داخل أمة الإسلام هو المنذر بن ساوى في ناحية البحرين لأنه كان مؤمنا بالإسلام متبعا شريعته وكان أهل ناحيته راضين عنه . وفي دستور المدينة وفي كتب رسول الله ترى أن الأمة الإسلامية مرنة جدا ، فمن الممكن أن تتكون من إمارات وملكيات ورياسات ومن الممكن أن يكون فيها أكثر من خليفة ، كل منهم في ناحية على أن يكونوا متآخين متعاونين فيما بينهم ، وعلى ألا تقع الحرب بينهم أبدا ، فالإسلام لا يعرف الحرب إلا دفاعا عن دار الإسلام ، وفيما عدا ذلك فإن الحرب الوحيدة التي يعترف بها الإسلام هي الجهاد ، وهي الحرب في سبيل الإسلام . وهي ليست حربا يقصد منها إرغام الناس على الدخول في الإسلام ، فلا إكراه في الدين ، ونحن مهما فعلنا فإننا لا نهدى إنسانا ، لأن الهدى هو الله ، وإنما الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول بين الناس ودخول الإسلام ، لهذا حارب المسلمون الفرس والروم لا لإدخالهم في الإسلام بل لأنهم كانوا يحولون بين الناس ومعرفة الإسلام ، فأزالهم المسلمون وأوصلوا الإسلام للناس في إيران والشام والعراق ومصر ، وعرفوا الناس بالإسلام ثم تركوهم بعد ذلك يدخلون الإسلام إذا اقتنعوا به ورغبوا فيه ، وقد كان أهل المغرب وثنيين فحاربهم المسلمون لأن الإسلام لا يقر الوثنية ، وعندما عرف أهل المغرب الإسلام دخلوا فيه بل أصبحوا من جنوده البواسل ، وقد اشتركوا مع العرب في فتح الأندلس لأن حكومته (وهي من القوطيين) كانت تحول بين الناس ومعرفة الإسلام . فلما أزال المسلمون هذه الحكومة وعرف الناس الإسلام فأسلموا وهكذا . وكل ما فعلته دول الخلافة بعد العصر الراشدي من إرغام المسلمين جميعا على الطاعة لها كان خطأ ، ولم يكن الغرض منه إلا الحصول على الأموال ، وكل ما وقع بين دول المسلمين من حروب كان مخالفا للإسلام . فلا يجوز للمسلم أن يحارب المسلم . وقد وضع الإسلام قواعد الصلح بين المسلمين إذا هم اختلفوا فيما بينهم ، ولكن دول المسلمين نسبت هذه القواعد وجعلت تاريخها حربا دائمة فيما بينها مما آل بها كلها إلى بوار .

• • •

أما عدم تحديد مدة رئاسة الرئيس ، أيما كان لقبه : خليفة أو أميراً أو سلطاناً ، فقد كان من أكبر المصائب التي ابتليت بها أمة الإسلام . ولا يجوز أن نقول إن أمة الإسلام لم تعرف أن تحديد المدة ضروري ، لأن الرومان قرروا هذا المبدأ وشرحوه

في قوانينهم ، ولا يعقل أن مشرعى المسلمين جهلوا ذلك ، فقد ترجمت لهم الكتب من اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وغيرها ، وكانت مسألة تحديد مدة الحاكم والموظف الكبير أساسية جدا في القانون الروماني حتى إن كبار مؤرعي الرومان من أمثال سالوس وجوزيفوس ومارسيلوس اميانوس قالوا إن فساد الدولة الرومانية كله جاء من محاولة يوليوس قيصر تخطي مدة الرئاسة ، فقد كانت الرئاسة عند الرومان سنتين ، وكان الذي يمنحها هو مجلس الشيوخ ، لأن الأمة عندهم كانت الأصل أما الرئاسة فهي الفرع ، فلما تولى الرئاسة يوليوس قيصر وأذن له مجلس الشيوخ في حرب القبائل الجرمانية ومضى يحاربها أعجبه الرئاسة وأحب أن يتخطى المدة ، فجعل رأيه كلما انتهت السنتان أن يقول إن خطر الجرمان لا يزال قائما ولا بد له من الاستمرار في حربهم وطلبوا أن يمدوا له سنتين ، فلما توالى المد وطالت المدة قلق الرومان ورفض مجلس الشيوخ أن يمد له فصار يحبسه نحو روما ، وعبر حدود بلاد الرومان الشمالية عند نهر يسمى الرويكون ، فاعتبر مجلس الشيوخ يوليوس قيصر خارجا على الدولة ، ومن ذلك الحين أصبحت عبارة : « تخطي الرويكون » تعني كسر القانون وتخطيه .

فلما استقر يوليوس قيصر بحبوشه في روما خاف الشيوخ وسكتوا على مضض ، ولكن بعضهم وعلى رأسهم صديقه بروتس قرروا قتله لتخليص بلادهم من الطاغية ، وقتلوه في الخبر المعروف ، وكان من بين قاتليه مارك انطونيوس صاحب كليوباترا ، ولكن نقرأ من قادة يوليوس قيصر ، وعلى رأسهم اكتافيوس أغسطس غضبوا له وهضوا يقاتلون قتله حتى فضوا عليهم ، وأصبح اكتافيوس أغسطس رئيساً دائما أو صاحب الأمر (امبراطورا) ومن ذلك الحين تحولت دولة الرومان من جمهورية أو دولة عامة ، ملك أهلها أجمعين ، إلى امبراطورية ، أي أنها تحولت من دولة شورية إلى دولة استبدادية ، ومن ذلك الحين بدأ تدهور الدولة الرومانية ونزعها الطويل .



أما عندنا فقد بدأ التدهور بسبب عدم تحديد المدة من تاريخ مبكر جدًا . فإن عثمان بن عفان عندما صارت إليه الخلافة على النحو الذي صنعه عبد الرحمن ابن عوف أسلم الأمر لآل بيته ، لأنه عندما تولى كان قد تخطى السبعين من عمره ، وكان مؤمنا صادقا حقا ولكنه في حياته لم يشترك اشتراكا فعليا في جهاد ولا هو

عرف شعبون الأمة ، إنما هو كان في ذلك كله مطيعاً لرسول الله ولأبي بكر وعمر . ولكن الأذى الكبير أتى من أنه كان من بنى أمية ، وبنو أمية كانوا من عيد شمس أنذ أعداء بنى هاشم ابن عبد المطلب ، ولم يكن العداء بين الجانبين قديماً من أبيهم الحاملية — كما يقول المؤرخون — ولكن العداء الحقيقي كان من أبيهم موقعة بدر .

فإن العداء بين بنى هاشم وبنى عبد شمس — فرعى قريش الكبيرين — لم يكن قديماً أو عنيفاً بالدرجة التي يصوره بها مؤرخونا القدماء وخاصة المقرئ في كتاب « النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » فقد كان أحدهما قريباً من الآخر حتى نادى محمد ﷺ بالقرآن والإسلام . بل حتى بعد ذلك كان كبار بنى أمية وعبد شمس معتدلين إلى حد كبير في عدائهم لرسول الله والمسلمين ، بل كان عتبة ابن ربيعة كبير بنى عبد شمس يهتل المعتدلين اللذين يبغضون الإسلام ولكنهم لا يرون مواجهته بالقوة ، إنما كان يرى أن يترك محمد ﷺ ليواجه العرب ، فإذا انتصر عليهم كان لبنى عبد شمس كسب من ورائه لأنهم من كبار القرشيين ، وعند الخروج لمركة بدر ، كان عتبة معارضاً لأبي جهل عدو الإسلام الأكبر ، وكان عتبة يرى رأى أبي سفيان صخر بن حرب الذي نجا بالعير ، وكان يرى لهذا أنه لم يعد هناك معنى لخروج قريش بجيش كبير والقيام بمظاهرة تظهر للعرب أن قريشا ما زالت سيدة العرب وأن محمداً وأصحابه لم ينالوا منها شيئاً ، وعتبة كان لا يرى معنى لذلك ، لأن المهم أن قريشا أخذت عمرها ، وكان الرجل يخاف كذلك من نتائج الحرب إذا وقعت على قريش ، وأنه إذا قتل ناس كان ذلك فليضاً على وحدة القبيلة ، لأن الذين سيقتل منهم ناس لن ينسوهم أبداً ، ولن يستريحوا حتى ينتقموا لهم ، ونبداً سلسلة من العداوات والتارات الخطرة داخل القبيلة ، ولم يتردد أبو جهل في مهاجمة عتبة ، وقال إنه لا يريد حرب محمد والمسلمين لأن حنظلة بن عتبة مسلم مع محمد ﷺ وهو يخشى عليه أن يقتل .

ولكن رأى أبي جهل غلب ، وسار الكفار للحرب ووقع اللقاء في سهل بدر ق ١٧ رمضان سنة ٢ هـ (١٥ مارس ٦٢٤ م) وهنا تغير كل شيء ، لأن المسلمين انقضوا على المشركين وحطموهم حطماً ، وقتلوا سبعين من كبار القرشيين ، وكان يست بنى عبد شمس من أحفل بيوت الكفار بالمصيبة ، فقد قتل منهم ومن حلفائهم اثنا عشر رجلاً فيهم عتبة بن ربيعة سيد بنى عبد شمس وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه

الوليد بن العاص ، وهذه الحسارة أثرت في بيت بني عبد شمس أثرا بعيدا ، ولكن الأنكى من ذلك أن الجانب الأكبر من هؤلاء ماتوا إما بسيف على بن أبي طالب أو شارك في قتلهم ، وبه في هذا البلاء العظيم عمه حمزة بن عبد المطلب ، فأما حمزة فقد أدركوهم ثأرهم في « أحد » وبقي على بن أبي طالب يحمل كراهة بني عبد شمس كلها ، ثم إن عليا فعل مثل ذلك في « أحد » فقد كان عليا أسدا من أسود الإسلام ، وسيفه نصر الإسلام أعز نصر عرفه .

من ذلك الحين أصبح على بن أبي طالب عدو بني عبد شمس الأكبر وهم إذا غفروا لغیره ما فعله بهم إلا أنهم لم يغفروا لعل قط ، وظلت قلوبهم حافلة بكراهته توافقة إلى الانتقام منه ومن بنيه .

* * *

لهذا كله نفهم كيف استقبل بنو أمية خلافة علي بن أبي طالب استقبالا سيئا ، وعلى كان قد قتل أخا من إخوة معاوية في « بدر » هو حنظلة بن أبي سفيان ، وكان أولاد أبي سفيان بن حرب قد بلغوا مبلغا كبيرا من القوة والغنى طوال أيام أبي بكر وعمر ، وقد بدأ صعودهم أيام الرسول ﷺ فقد كان معاوية شابا ذكيا مجتهدا قارنا كاتباً ، وقد قرّبه رسول الله إليه عقب إسلامه مع أبيه وأخيه زيد وبقيّة آل بيتهم عام الفتح ، فهم من مسلمي الفتح وهم من المؤلفة قلوبهم . ولكن معاوية صح إسلامه وأحب الرسول واقترب منه وقرّبه الرسول وجعله من كتّاب الوحي ، وإذا نحن نظرنا إلى أسماء كتّاب كتب الرسول لوفود العرب سنة ثمان وتسع هجرية وجدنا أن معاوية كتب الكثير منها ، وقد تعلم معاوية هو وأخوه الأكبر زيد بن أبي سفيان من القرب من رسول الله الشيء الكثير ، فقد كان رسول الله مدرسة كبرى ، ومعاوية بطبعه كان مؤهلا للسياسة متطلعا إلى القوة السياسية ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من بني عبد شمس ، وهم هنا يختلفون عن بني هاشم ، فقد ورث بنو هاشم الجانب الروحي من هاشم بن عبد مناف كما طوروه ابنه عبد المطلب بن هاشم الذي كان زعيما روحيا وهو بالي الركن الثالث من أركان قوة قريش وهو الدين الوثنى الجاهلي الذي يسمى أحيانا بدين عبد المطلب ، أما بنو عبد شمس فورثوا الجانب المالى التجارى من أخلاق هاشم بن عبد مناف ، وهو الذى بنى امجد التجارى المالى لقريش .

وفى أيام أبى بكر يظهر بو عد شمس فترى زيد بن أبى سفيان ، الأخ الأكبر معاوية على رأس أحد الجيوش الفاتحة للشام ، ومع زيد سار الكثيرون من بنى عبد شمس ، وكان لهم نصيب عظيم فى فتوح الشام حتى قال المقرئى : « إنك لو رفعت حجراً فى بلاد الشام لوجدت تحتها شهيداً من بنى عبد شمس » . وعندما تولى يزيد أقام عمر بن الخطاب أخاه معاوية مكانه بل جعله على كل بلاد الشام وأطلق يده وتسامح له بالكثير مما لم يكن يأذن فيه لغيره من الظهور بمنظر الفخامة والقوة ، وقد استغل معاوية هذه الفرصة واستكثر من بنى أمية فى بلاد الشام ولولاهم الولايات وأعطاهم الأموال ، وأتم هو فتح بلاد الشام إلى مداحل آسيا الصغرى وفتح قبرص وأسكنها المسلمين ، وتقرّب معاوية من قبائل العرب النازلة فى الشام وبخاصة قضاة وفرعها الأكبر كلب بن وبرة ، وكندة وفرعها الكبير من السكون وطىء ولحم وغطلفان وعذرة والهمر بن قاسط . ومعاوية هو الذى قسم بلاد الشام إلى أقسام عسكرية هى الأجناد وأقام عليها رجالاً من بنى أمية وحلفائهم ، ومعاوية كان رجلاً موهوباً فى شئون الإدارة والمال . وعندما استشهد عمر بن الخطاب كان معاوية أقوى وأقضى رجل فى الدولة ، ولهذا فعندما صارت الخلافة إلى عثمان أصبح معاوية أقوى من الخليفة نفسه ، وخاصة أن عثمان عهد فى معظم الأمور إلى أهل بيته ومعظمهم من بنى أمية . وعندما استشهد عثمان لم يكن معاوية مستعداً للتنازل عن المركز الكبير الذى صار إليه ، وكان أهله وحلفاؤه يحيطون به فى بلاد الشام يؤيدهم الكثير من رؤساء القبائل العربية فى بلاد الشام ، وقد عرف معاوية بالسياسة والمال كيف يجعلهم جيشاً خاصاً لنفسه وأهل بيته . والكثيرون جداً من عرب الشام لم يكونوا يعرفون أنساب قريش ، ولدنيا ما يدل على أن معاوية وآله نشروا بينهم فكرة أنهم — بنى أمية — أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ والكثيرون منهم لم يسمعوها بعل بن أبى طالب . هذا إلى جانب ماله الكثير وبقيته الدائمة .

* * *

ونلك كانت الحقيقة التى غابت عن على بن أبى طالب عندما تولى الخلافة ، فقد كان لا يعلم أنه خليفة لا تؤيده فى الحجاز قوة عسكرية كافية ، وكان لا يعلم أنه من بين ولادة الدولة من هم أقوى منه وأعز نفراً وأكثر مالاً . وقد تولى على فى ظروف عسيرة جداً ، فإن الكثيرين من الصحابة كانوا يفضلون خليفة سهلاً لنا غير حازم بعد عمر بن الخطاب ، وقد خافوا أن يسر فيهم على بسيرة قوية مثل

سيرة عمر أو سياسة تشبهها ، وكانت أمواتهم كثيرة وكانوا توافين إلى الاستمتاع بها راغبين في الخروج إلى الأمصار للاستمتاع بالحياة ، ولا ضير عليهم في ذلك فإن ذلك من حقهم ، وقد غاب عن الكثيرين منهم أن مواقفهم كصحابة تجعلهم دائماً قادة الناس ، وهذه القيادة تفرض عليهم التزام الخط العمري أو ما يشبهه ، فإن أمة الإسلام كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً ودخلت فيها أُمم كثيرة في حاجة إلى فدوة إسلامية وقيادة أخلاقية . وعلى كان يفهم ذلك ويحس به ولكن الكثيرين غيره من الصحابة كانوا لا يدركونه ، وبعضهم اعتزل الحياة والعمل عندما قامت الفتنة ، وبعضهم الآخر جرفته السياسة والقادات الجديدة فلم يدرك كيف يتصرف .

والشيء الذي غاب عن الكثيرين هو أن الكثيرين من العرب الذين قاموا بالفتنة وساروا إلى المدينة لمناقشة الخليفة لم يكونوا ثائرين على عثمان وحده بل على الصحابة أجمعين ، ومعظم أولئك الثائرين لم يكونوا يعرفون إلا أن الدولة دولة الصحابة والقوة قوتهم ، وقد كان هؤلاء العرب يستمتعون — إلى منتصف خلافة عثمان — بدخول كبيرة جداً من الغنائم حتى قُدِّر دخل الجندي العربي — أيام عمر وإلى منتصف خلافة عثمان — بثلاثة آلاف دينار ذهبي في العام ، وهذا دخل كبير جداً تعود العرب معه الإنفاق الكثير والعيش عن سعة إن لم نقل عن ترف ، وكلهم تزوجوا أو تسروا بنساء البلاد المفتوحة وأنجبوا الأولاد الكثيرين ، ومن المعروف أن العربي مسرف متلاف للمال لا يكاد يدخر شيئاً .

وفي منتصف خلافة عثمان انتهت فتوح البلاد الفنية التي تدر الغنائم الوفيرة ، ففى الشرق دخلنا في طخارستان وحرب الترك وهم قبائل بدوية لا يحصل المقاتل منهم على غنائم تذكر ، وفيما عدا الأسرى وروؤوس الماشية لم يكن هناك شيء ، وبعض هؤلاء الفاتحين كانوا قد تزوجوا مثنى وثلاث في العراق وفارس وخراسان ، وكثر عيالهم واحتاجوا إلى المال الكثير . وفي ناحية الغرب انتهينا بالفتوح إلى المغرب الأوسط ، وهي أيضاً بلاد قبائل من المقاتلين والرعاة ، ولم تكن للغنائم منهم كثيرة ، وكان موسى ابن نصير مثلاً لا يخرج من هؤلاء إلا برؤوس السبي والماشية ، أما المال من الذهب والفضة وما كان يمكن أن يباع ويؤتى المال فكان قليلاً .

وتلك هي الأزمة التي واجهت الجند العرب في منتصف خلافة عثمان ، وكان الجند قبل ذلك لا يكادون يحفلون بالعطاء ، لأن معظم الذين قاموا بالفتنة كانوا

من العرب الذين دخلوا الإسلام في زمن متأخر فقلت أنصبتهم من الأعطيات على أساس القاعدة العمرية في قسم العطاء ، ولو أن عمر نعد القاعدة البكرية التي كانت تسوى بين الناس في العطاء لأنه معاش فربما لم تكن القصة قد بلغت هذا المبلغ ، ولكن هذا الجند — معظمهم لم يكن يعرف الصحابة أو فضلهم — وجدوا أنفسهم صفر اليدين تقريبا ، لأن عطاء هذا الطراز من الجند كان ما بين عشرة إلى عشرين درهما ، وكانوا في معسكراتهم يسمعون أن هناك في المدينة ناسا ما بين رجال ونساء يبلغ عطاء الواحد منهم ستة آلاف درهم ، وكان أولئك الجنود هم الذين يأتون بهذه الأموال التي تقسم على الناس فسارت منهم وفود إلى المدينة لكي تناقش الخليفة في أوضاعها ، والخليفة كان بعيدا جدا عن إدراك تلك الأوضاع فهو أولا رجل كبير السن شديد التقوى لا دخل له في الأموال أو الأعطيات ، ومن ناحية أخرى كان القائمون بالأعمال والأموال أهل بيته وهؤلاء لم يكونوا مستعدين للتنازل عن شيء مما كان بأيديهم .

ولهذا فعندما وصل أولئك الناس إلى المدينة لم يجدوا أحداً من أهل الخلف والعقد مستعدا للإصغاء لهم أو إدراك أزماتهم ، فالحليفة بعيد جدا عنهم ورجاله كانوا أبعد ، وبعد كلام قليل في مسائل لا تهم أولئك الجنود في الصميم مثل جمع القرآن وإحراق ما سوى المصحف العثماني من المصاحف وتوسيع أرض الحمى وضرب عمار بن ياسر دخلوا في صميم الموضوع وتكلموا في الأعطيات وطلبوا إعادة النظر فيها وإن كانوا قد استنوا كبار الصحابة وأهل بيت النبي ﷺ وأمهات المؤمنين .

وكان لابد أن تقف المناقشات بينهم وبين الخليفة عند نقطة ما ، فإن الخليفة لا يستطيع الاستجابة إلى ما يطلبون ، وهم من جانبهم لا يستعملون العودة إلى مواطنهم دون مال .



وهنا ، وفي ذلك الطرف العصيب طلبوا منه الاستقالة ، وهنا فوجئوا بأن هذا الرجل غير مستعد للاستقالة . ولو أن عثمان كان وحده فربما كان قد ترك الخلافة ، فقد كان رجلا بالغ الورع والتقوى ثم إنه كان يقارب الثمانين من عمره ، ولكن المشكلة كانت في أهله الذين كانوا يحيطون به ويحرضونه على البقاء في منصبه ، وهنا يقول عثمان عبارته المشهورة : « لا أعلم قميصاً قمصنيه الله ! » ، فكأنه كان يرى

أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أقامه خليفة ، وهذا حق . ولكن بإرادة الناس ، فهذه أمة المسلمين لا أمة الخليفة ، وكما اختارت الأمة خليفتها فلها أن تعزله إذا هى رأت ذلك ، ثم إن عثمان كان قد جاوز فى الخلافة ست سنوات وهى فترة كافية لدى حاكم متخبط ، ومن المعقول أن يستقيل وتنتظر الأمة فيمن تنتخبه مكانه . وحلول على بن أبى طالب وغيره من الصحابة التدخل ولكن بنى أمية رفضوا وحرصوه على أن يثبت فى موقعه ، ولا شك أنهم كانوا على صلة بمعاوية ومن معه من الأمويين فى الشام ومن معه من الجند والأموال .

وفى مثل هذه الظروف العصية من المعقول أن تضيق الدنيا فى وجوه بعض أولئك الجند الغاضبين فتتمد أيديهم إلى الخليفة وتضيقه ، فهؤلاء كانوا جندا أجيالا فيهم عنف وفسوة ، ثم إن أزمته كانت تغير حل . وهذه — فيما نرى — يمكن أن تكون حقيقة ما وقع : قتل الخليفة ولكن بيد مجبولة ، قلته الظروف التى أحاطت به والنظام القاسى الذى تولى فيه ، فقد كان لابد أن توضع القواعد لولاية الخلافة وكان لابد من تحديد سلطة الخليفة ومدة خلافته . أما أن يعين أى رجل ويوضع فى ثوب عمر بن الخطاب وبطالب باتباع سيرته فظلم دفع ثمة عثمان ثم على بن أبى طالب . أما القول بحكاية ابن السوداء اليهودى الذى تجرد للايقاع بين المسلمين ومضى يلقي الفتنة بين جماعاتهم فى العراق والشام ومصر والحجاز ومضى كأنه روح شريرة أفسدت ما بين العرب وجعلتهم يقتلون خليفتهم فحديث أساطير لا يقبله أحد ، بل فيه إهانة للعرب ، فأتى ما يخرج الإنسان به منه أنهم قوم أغبياء لو سذج يلعب بعقولهم رجل يهودى واحد .

وإذا كان ولابد أن نبحث عن قتل عثمان فلنقل إنهم بنو أمية : صدروا هذا الرجل الخليل وتركوه يواجه الثائرين وحده ويدفع الثمن من دمه لكى يحتفظوا بما جمعوه ووصلوا إليه . وكانوا دون شك يعرفون أن وراءهم معاوية وبقية بنى أمية فى الشام ، ومعهم من الأموال والجند ما يستطيعون أن يحرزوا به الدولة كلها . أما مطالبة على بن أبى طالب بعد ذلك بقتله عثمان فظلم واضح وجزء من المؤامرة الكبرى .

والسبب الأكبر فيها هو عدم ضبط مسائل الحكم والنظام السياسى للجماعة ، فليس فى الدنيا أخطر على الدولة من غموض نظام الحكم وقواعده وحدوده ، والرومان

— كما قلنا — عرفوا ذلك ومنعوا التشريعات الإدارية للدولة ، وعندما قامت أول جمهورية في العصر الحديث وهي الولايات المتحدة الأمريكية بذل رجالها — بعد الاستقلال — جهداً كبيراً جداً في ضبط نظام الدولة وتحييد السلطات ومدد الحكم وقواعد توليه لإدراكهم هذه المسؤولية . وقد حددوا مدة الرئاسة بأربع سنوات وضبطوا القواعد لتوليها بصورة شرعية سليمة . وقد كانوا أذكي وأبعد حالاً منا فجعلوا دولتهم اتحادية ، أى تتكون من وحدات سياسية مستقلة داخلياً ، ومتحدة في السياسة الخارجية والدفاع والقوانين التى تمس مصلحة الجماعة . وكل ولاية حرة في اختيار رئيسها وهو الذى يمثلها في مجلس الشيوخ الاتحادى ، وهو السلطة الكبرى في البلاد ، ورئيس الجمهورية ينتخب انتخاباً حراً في كل الولايات لأنه رئيس الاتحاد ، وسلطاته واسعة جداً ولكن مجلس الشيوخ لابد أن يوافق على كل القرارات ، ومسئولية الرئيس كاملة وخطيرة ، فهو أكبر رئيس في الدنيا ولكنه يقف بين يدي مجلس الشيوخ موقف المرؤوس ، وهو قوى جداً ما دام يلتزم القانون والأخلاق . ولكن ياوله إذا هو خالف القانون أو كذب أو اقرف شيئاً يمس الأخلاق . وكل ولاية تنتخب محافظاً أو حاكماً لها من بين أهلها ، وهو حاكم فعلى للولاية يرأس الجهاز الحكومى للولاية وبخاصة البوليس ، وللولاية أن تضع ما تشاء من القوانين وتنقذها ما لم تتعارض مع قوانين الاتحاد . وهناك مجلس نواب للدولة ولكن سلطته لا تصل إلى سلطة مجلس الشيوخ لأن مهمته الأساسية هى التنسيق بين الولايات وقوانينها ومالياتها وصناعاتها والقانون هناك مستويان ، فهناك قوانين محلية لكل ولاية ، ولكن القضايا الكبرى تحال على المحكمة الفيدرالية أى الاتحادية .

وقد أفادت فرنسا من ذلك النظام عندما قامت ثورتها ونشأت جمهوريتها وإن ظلت دولة واحدة لا اتحاد ولايات لأن الوحدة الفرنسية قديمة جداً ومنذ قيام الجمهورية الخامسة برئاسة شارل دى جول سنة ١٩٥٢ زادوا سلطة رئيس الجمهورية فأصبح رئيساً فعلياً قريباً في السلطة من رئيس الولايات المتحدة وزيدت مدة رئاسته إلى سبع سنوات قابلة للإعادة مرة واحدة ، أما مدة الرئاسة في الولايات المتحدة فأربع سنوات يمكن إعادتها . وفي وقت الحرب يمكن أن تمد مرتين أو ثلاثاً وقد حدث غذا مرة واحدة أيام فرانكلين ديلانو روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية .

وحريات الناس في كلا البلدين مكفولة : حرية العمل والرأى والتعبير ،

والموظفون مفيدون في تنفيذ قراراتهم بقوانين حاسمة ولا يمكن تخطي القانون ، لا للدولة ولا للأفراد . وأول من ضرب المثل في تطبيق القانون في الولايات المتحدة هو جورج واشنطن بطل التحرير ، ولكنه بعد مرتين رفض الثالثة ليضرب المثل : ترك الدولة وكل سلطان وعاد إلى مزارعه في فرجينيا وأصبح مواطناً عادياً ، وكذلك الحال مع كل رؤساء الولايات المتحدة .

• • •

هذه القواعد كلها موجودة في الإسلام وكان رسول الله ﷺ يطبقها ببساطة تدعو للإعجاب ، فحكومة الأمة جماعية ، وهناك هيئة من الرؤساء يختارها الناس أو الرسول تنظر معه في مسائل كل يوم ، والأمة كلها جيش فهي أمة جيش ، ولأمة في أيام الرسول وظيفتان رئيسيتان : إحكام تطبيق شريعة الإسلام داخلها والعمل على نشر الإسلام ، وأي جماعة تدخل الإسلام بحرب أو طوعية تصبح جزءاً من الأمة ، ولكن يريد أن يحفظ دينه من رجالها أن يحفظ به على أن يؤدي الجزية ، وهي ليست ضريبة ولا مهانة فيها ، لأن الإسلام نور وهدى من الله فلا يدخله إلا من هداه الله فهو نعمة كبرى ، والنعم لا تفرض بالقوة ولكن يحصل عليها من يستحقها يهدي من الله ، فإذا لم يدخل الإسلام إنسان فمعنى ذلك أن الله لم يمنحه هذه النعمة ، ومن ثم فمن الخطأ أن تحاول إدخال الناس في الدين بالقوة ، والذين يكرهون المسيحيين لأنهم مسيحيون ويعملون على إدخالهم في الإسلام مخطئون ومحتدون على إرادة الله ، فالإيمان منطقة لا سلطان فيها إلا الله : ﴿ ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ﴾ (المائدة آية ٤٨) ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (البقرة آية ٢١٣) وهذه آية معجزة المعنى من الله سبحانه ، وما قرأت لها تفسيراً مقنعاً من أحد المفسرين .

هذا ما كان ينبغي أن يحدث يوم اجتماع سقيفة بني ساعدة : النظر في كتاب الله وسنة رسوله والتناقش في هدوء ثم اتخاذ القرار . أما الذي تم فكان مأساة ، ولا يشفع فيه أن الذي انتخب كان أباً بكر ، لأن أباً بكر كان نادرة وكذلك كان

عمر ، ولكننا لا نعيد كل يوم أباً بكر أو عمر ، وفي أى مناسبة نختار رجلاً من طراز أقل تكون الكارثة ، وهذا هو الذى حدث . لقد ذهب أبو بكر وعمر إلى هذا الاجتماع ومعهما أبو عبيدة ، وكانت المحافظة على الإسلام والسير به إلى الأمام تملأ نفس أبى بكر وعمر ، ولكتهما كذلك كانا حريصين على قريش ، وقريش كانت دائماً قبيلة أنانية لا يعنىها إلا أمر نفسها ، وكان العرب لا يحبونها لهذا السبب ، والعرب لم يحبوا من قريش إلا رسول الله ﷺ ونفراً قليلاً من أمثال علي بن أبى طالب وأبى عبيدة عمر بن الجراح ، أما القبلة فقد كانت فيهم الأنانية القرشية التى لم يحبها الناس أصلاً . ومن كل بطون قريش لم يحب الناس إلا فرع بنى هاشم إكراماً لرسول الله . وحتى الشجرة النبوية كان فيها الكثيرون ممن لا يستحقون شرف الانتساب إليها . ونحن المسلمين انتخبنا أباً بكر خليفة بغير حدود أو قيود وجعلناه رئيس الجماعة غير منازع ولا مساعل ولا محدود المدة فقد وضعنا على رأس الأمة ملكاً مطلقاً ، ولم تظهر عيوب ذلك في أيام أبى بكر وعمر فقد كانا نادرين ، ولكنه ظهر في أيام عثمان . وظهر بشكل بشع جداً لأن عثمان كان رئيس بيت من قريش تتمثل فيه الأنانية القرشية بأسوأ معانيها وهو بيت بنى أمية وكان يزعمهم معاوية ، ومعاوية كان بالغ الأنانية والحيث والقسوة ، ولا ضير علينا في أن نقول ذلك ، بل ينبغي أن نقول مادام حقاً ، لأننى كما قلت أفرق في الصحابة بين جانب الصحة ، وهو جانب جليل نجدهم وجانب الإنسان ، وهذا الجانب الإنسانى لنا الحق في نفيه ، وقد رأيت ما فعله عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك ما فعله الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله كان خطأ بالغا ، فما دامنا قد بايعنا لعلى في المدينة فكيف ينقضان البيعة بعد ذلك حسداً للرجل وبغيا عليه ؟

لو أننا نظرنا في السنة نظراً سليماً لرأينا أن ما صنعناه نحن المسلمين يوم السقيفة كان سبب كل المتاعب التى لقيتها أمة الإسلام . كانت السنة تقضى بأن تنتخب هيئة الشورى ، وهيئة الشورى كانت تنتخب أباً بكر (أو غيره) وما دامت هيئة شورى قلم يكن هناك خوف من خطأ كبير ، وكان لابد أن نختار هيئة الشورى هيئة التشريع التى تضع نظام الدولة وتقرر مدة الرئاسة وحدودها ونظام انتخابها وسلطاتها وقيود تلك السلطات . وحقوقها وقيود هذه الحقوق ، وكان هذا هو القانون الأساسى أو الدستور الذى يقود أمور الأمة فيما بعد في الطريق الصحيح ، ورسول الله ﷺ وضع للأمة دستوراً ، وضعه بالتشاور مع الجماعة وسير الأمة عليه

والترزم به ، فسارت الأمور عليه سيرا جميلا جدا خلال العصر النبوى .

أما أن يكون الحديث يوم السقيفة عن أمراء ووزراء ، وإصرار قريش على أن تستبد بأمر الأمة كأنها ورثتها عن رسول الله فهذا خطأ ، ورسول الله لم يكن يحكم المسلمين حكم أمير أو رئيس بل كان لا يحكمنا أصلا وإنما كان يرقبنا ونحن نحكم أنفسنا بأنفسنا ويوجهنا إلى الطريق السليم ، وكان صادقا عفيفا متواضعا ، وقد فخر هو بأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وهو أدب أمته فأحسن تأديبها ، وجعل كل شئون الأمة أخلاقا وعلاقات الناس نراضيا ومحبة ، وقد آتته امرأة وطلبت منه الطلاق من زوجها لأنه دمع ، وقد سألها إن كان لديها سبب آخر لطلب الطلاق غير الدماة فقالت : لا والله يا رسول الله ماهى إلا الدماة فإن قيس بن شماس رجل طيب الخلق كريم ، فسأله رسول الله إن كانت مستعدة لأن ترد عليه ما أمهرها بإياه فأبذت استعدادها فتأذاه وسأله إن كان مستعدا أن يأخذ ما دفع ويطلق فاستجاب وتم الطلاق ، ولو عرضت قضية كهذه على فقيه من فقهاءنا لأنكر الطلاق كل الإنكار ، لأنه يتبع قانونا وضعه فقهاء لا يعرفون أن السنة أخلاق فى سنة ١٩٢٩ ، وتسعون فى المائة من قضايانا الشرعية ناشئة من أن الفقهاء لا يتبعون السنة ومع ذلك فإن الواحد منهم لا يزال يفخر بأنه من رجال السنة . وحتى عقود الزواج التى نعقدوها على كتاب الله وسنة رسوله بعيدة عن السنة ، فليس من السنة أن يدخل رجال ويأخذون موافقة الزوجة ويلغونها للمأذون Lieقد العقد لأن السنة هى أنه مادامت المرأة موجودة فلا بد أن يسمعهما المأذون بنفسه ، بل التوكيل فى حالة وجود المرأة يعتبر شهادة أو إقرارا من الولي بعقد الزواج ، وهذا الإقرار غير ضرورى مادامت العروس بالغا عاقلة .

• • •

ومادامنا قد انتخبنا خليفة مطلق المدة والسلطات فقد وضعنا فوق رؤوسنا ملكا مستبدا غاشما ومن هنا جاء البلاء لأننا لا نضمن أن نجد دائما أبأ بكر أو عمر . وعثمان عندما رفض الاستقالة بحجة أن الله سبحانه اختاره خليفة أى ملكا علينا وألبسه ثوب الملكية وسماه القميص خالف السنة والإسلام نفسه مخالفة بشعة ، لأن الإسلام إنما ألى — من الناحية السياسية — ليضع حداً لصور الملوك العاشقين . والذين يقولون إن معاوية هو الذى جعل الخلافة ملكا مخطئون ، لأنها كانت ملكا منذ اللحظة

الأولى ، ولكن أخلاق أبي بكر وعمر أخفقت مساوئها ثم جاء عثمان فلم يستطع ، والخلافة في أيامه أصبحت ملكا في أيدي بني أمية ، ومعاوية لم يفعل أكثر من أنه صارع الناس بهذه الحفيظة ، ولم يكن معاوية أول من أوصى بالخلافة لابنه يزيد وجعلها وراثية ، فإن أنصار علي بن أبي طالب هم الذين نفذوا بإبائه الحسن وريثا له في الخلافة ، أما معاوية فكان ملكا وأوصى بالملك لابنه ووضع قوات الدولة وجنودها في خدمة هذا الملك الوراثي ، ومن ذلك الحين تحول تاريخنا إلى صراع في سبيل الملك والسلطان واستبدادا بأموال الدولة وفضاء على حريات الناس وعدوانا على نفوسهم واستبدادا بأحوالهم وهذا هو الذي أصاب تاريخ المسلمين بالشلل . فلا حرية ولا حقوق ولا كرامات وليس هناك أسوأ ولا أدعى للحرز من التاريخ السياسي لدول المسلمين ، فكلها حتى العصر الحديث غارقة في الدماء ومن أسف أننا تعلمنا قواعد السياسة الإسلامية من غير المسلمين ، وهذا كلام سبغني إليه الإمام محمد عبيد .

وحتى الشيعة جاءت من إقرارنا من أول الأمر لهذا النظام الملكي المطلق ، لأن علي بن أبي طالب كان أصليح المسلمين لولاية الخلافة بعد أبي بكر وعمر ، وبعد مآسى خلافة عثمان ومطالبة اله وهم بنو أمية بوراثة الخليفة أصبح على علي بن أبي طالب أن يدافع عن سلطان نفسه ، وقد أخطأ خطأ بالغا عندما ترك قاعدة ملكه وذهب يطلب الجند والأنصار في الكوفة ، لأن قاعدة السلطان جزء من السلطان وهي رمزه ، ولكن عليا لم يكن رجل سياسة ، ولو كان رجل سياسة لسارع — وفي سرية تامة — فأرسل رجلا من كبار قادته مثل الأشتر النخعي إلى الشام فغلب معاوية في دمشق وانتزع السلطان منه كما فعل أوكثافيوس أغسطس في استرداد السلطان من قنلة يوليوس قيصر ، إنما هو كان رجل دين وأخلاق ومبادئ ، وعندما صار في العراق وجد نفسه بين أجلاف جهلة لم يتفعوه ومعاوية أسرع فضم مصر فأصبح أغنى وأقوى رجل في دولة الإسلام ، والمال والجند هما عماد السياسة ومعاوية اشترى الجند بالمال ، فكان يعطي الجندي مائة دينار في يده ، وجند الشام لم يكرنوا يعرفون من صاحب الحق أو ما هو الحق فصاروا يحاربون للمال ، ثم قتل علي وصار الأمر لمعاوية ، وفي ذلك الحين نشأت جماعة الشيعة تطالب بالخلافة لأهل بيته ، ونشأت حركات هي أبعد ما تكون عن روح الإسلام كالدعوة الفاطمية والقرمطية والاسماعيلية بمذاهبها المختلفة وضاع أمر الإسلام جملة . وأمة الإسلام وفقت عاجزة

فلم يعد لها هم إلا المحافظة على دينها وشريعتها وما استطاعت من حقوقها ، ولكنها عجزت لأن الاستبداد يمر زائر يطفى على كل شيء .

* * *

ونتقل إلى العلم ، وهو الأساس الأكبر لأمة الإسلام فتجد أن الأمة عندما رأت ذلك الاستبداد السياسي الطاغى اجتهدت في النجاة بالعلم والشرعة والقضاء من يد الحكام ، فالذين انتشأوا العلم الإسلامي وجمعوا الحديث الشريف لم يكونوا من رجال الدولة ولا هم سمحوا للدولة بأن تسيطر عليهم وتلك فضيتهم الكبرى فالبحارى ومسلم واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وهم كبار أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد لم يكونوا من رجال الدولة ولا هم قبلوا منها مالاً ولا هم أذنوا لها بأن تتدخل في كتبهم ، وأحمد بن حنبل خاصم يحيى بن معين وهو من كبار رجال الأحاديث لأنه خضع للدولة وقال بخلق القرآن . ومسألة خلق القرآن نفسها ليست بذات بال ، ولكنها مظهر من مظاهر الصراع بين رجال الدين والدولة ، والأمة كلها وقعت إلى جانب أحمد بن حنبل في صراعه مع المأمون والمعتمد لأنها كانت تكره الدولة وتحب أن تتحداها ، ورجال مثل يوسف البويطى وآل عبد الحكيم (وكل هؤلاء مصريون) تحذوا الدولة ووقفوا مع ابن حوئل وفقدوا حياتهم وأموالهم ، وانتصرت الأمة في النهاية ونجت بدينها وشريعتها .

والدولة أرادت أن تسن تشريعا مقتبسا من القرآن والسنة ليكون التشريع في يدها فرفض الفقهاء ، والرجل الذى أشار بذلك التشريع (وهو عبد الله بن المقفع) دفع حياته ثمنا لذلك ، والفقهاء لم يعرضوا على قتله ولكنهم شككوا في عقيدته ، والدولة قتله إرضاء لهم ، ولكنهم لم يرضوا عن ذلك ، واستقل لفقهاء بالتشريع فصاروا يشرعون مستقلين بعلمهم وهذا من مفاخرهم ، والدولة صارت تنفذ أحكام القضاة ، وكان الخلفاء والملوك والسلاطين يقتربون الجنايات حفاظاً على سلطانهم أو في صراعهم بعضهم مع بعض دون أن يتدخل في ذلك الفقهاء ، بل كان الفقيه إذا اقترب من السلطان ودخله وعدمه وأخذ أمواله يخرج من زمرة الفقهاء المتصانين أهل الدين والعفاف ، بل كان يحتقروا بين أهل العلم كما حدث لأبي الحسن على الملوذى ، فقد خدم أمراء البويهيين بكتاب « الأحكام السلطانية » وحلل للأمراء ما أرادوا وحرم ما أرادوا وجوز ولاية المجنون والمعوتة والفاسق ، وجعل الحكم مباشرا

وغير مباشر ، فتحوز ولاية غير الصالح على أن تكون ولاية توكليل فينبى عنه غيره من أهل العقل والقدرة فيجوز حكمه ، وقد أنكر الفقهاء ذلك في عصر البويهيين وكان الماوردي لا يتمتع بأى احترام من فقهاء عصره .

بل حتى مكان ممارسة القضاء رفض الفقهاء أن يكون في مبنى تبنه الدولة ، ومن الواضح أن الحكومات كانت ترحب بأن تقيم دورا للقضاء (أى محاكم) ولكن ذلك كان لابد أن يؤثر في القضاء ، وأقل ما فيه أن تكون وثائق القضايا في مكان هو ملك الدولة ، ففضل القضية أن يارسوا القضاء في المساجد ، لأن المساجد هي بيوت الله ، وهي كذلك بيوت الناس ، وحتى المساجد التي يبينها الخلفاء والسلاطين كانت تصبح ملك الناس حال الفراغ من بنائها فجلس القضاء في ركن من أركان الجامع ووضعوا فيه القمطر وهو دولا ب سجلات القضايا ، وجلس القضاء وأمامهم الناس ، وفي مؤخرة الناس ، وقف أعوان القاضى ، وهم الذين ينفذون أحكام القضاء ، وكان الذى يعين القضاء واحد من كبار العلماء ممن اشتهروا بالعلم الغزير والصلاح والتعاون يعملون في خدمة السلاطين دون أجر ، وكانوا يشترطون ذلك ، لأن أموال الحكام كانت في نظرهم حراما ، وكانوا على حق في هذه النظرة ، فإن أحدا لا يدري من أين يأتي الحكام بأموالهم ففيها الكثير من أموال الظلم والقهر والمصادرات فهي أموال حرام .

وقد حدث انحراف عن هذه القاعدة النبيلة في العصور المتأخرة وهي عصور حكومات المماليك والأتراك وسلاطين المغول ومعاصريهم ، لأن مستوى المجتمع كله هبط ، واختفى الفقهاء العلماء المبتكرون الذين كانوا يشجعون من أمثال الدارقطني والسلفى . وقد ألف شمس الدين الذهبي كتابا سماه « المعين في طبقات المحدثين »^(١) جعلهم فيه أجيالا كل جيل يضم أهل ثلاثين سنة على وجه التقريب ، وقد تنبعت الأجيال فيه فوجدت أن الأجيال ذات القدر فيه تنتهى إلى جيل حدود سنة خمسائة فأهل العلم تحولوا بعد ذلك — غاليينهم المعظمى أقصد — إلى حُفَاط ، أى إلى رجال يحفظون الكتب عن ظهر قلب ويرددون ما فيها دون تفكير أو ابتكار ، وقد كثرت

(١) جلد ٣ . محمد ربيع محمد حرب ، دار الصورة . القاهرة ١٩٨٧ .

هؤلاء حتى عز عليهم العيش ، فأصبحوا يتنافسون في طلب الوظائف لكي يعيشوا ، وhibط مستوى معيشتهم العام هبوطاً بالغا ، وليس في هذا ما يضير الإسلام ، ولكنه العصر وظروفه ومقتضياته .

وكانت سياسة الحكام في الاعتماد على الجند المرتزقة قد أفقرت الدول كلها فقرا مدقعا ، لأن الجنود الذين تشتريهم الدولة وتربيم لتستخدمهم في الدفاع عنها ولترغم الناس بهم على أداء الضرائب لا يلبثون أن يشعروا بأنهم قوة الدولة ، فيتهجون إلى السيطرة على الحكام سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو سلاطين ، وأعدادهم تزداد مع الزمن وكذلك مطالبهم من المال ، فإن أولاد الجندي يدخلون خدمة الدولة ، وأعداد الجيش تضاعف مع الزمن ، ويضطر الحكام إلى زيادة الضرائب ، وتعتمد أيديهم إلى أموال الناس وتكثر المصادر وتتهب أموال التجار ، وشيئا فشيئا تختفي الصناعة والصناعات ، وفي بداية العصر الفاطمي في مصر في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي كانت مصر مشهورة بصناعاتها ، وفي شمال شرق الدلتا فحسب في مدن بحيرة المنزلة كانت هناك مراكز للنسيج ندر الذهب مثل تنيس وديق وشطا ، وكانت مصر تصدر بملايين الدنانير من النسيج الفاخر الذي كان يصنع من القطن أو الكتان مزينا بخيوط الذهب وكان الثوب منها يباع بألف دينار ، وكانت مدن الدلتا والصعيد عامرة بصناعات الخشب والجلود والحديد والنحاس والصابون ، فما زال الفاطميون يفرضون عليها الضرائب حتى أفلست ووزير واحد من وزراء العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين في مصر يسمى ابن كنس — كان أصله يهوديا — كان يطلب من مصانع بحيرة المنزلة بما يعدل الأكراف من قطع النسيج كل عام حتى أفلست وأغلقت أبوابها ، والإدريسي يقول في « نزهة المشتاق » إن مصانع اللجم والمفارش والفرش (السجاجيد) في أحميم وغيرها من مدن الصعيد كانت تفلس عندما مر بها في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

وفيم كانت تلك الأموال تنفق ؟ 1 .. في مطالب الخلفاء وعلى جنودهم وحروب الدولة الفاطمية مع الدولة العباسية . وتلك كانت القاعدة : تحارب الدول الإسلامية بعضها بعضاً وعلى طول تاريخ الإسلام ما تجاورت دولتان إلا تحاربتا دون غاية أو هدف أو معنى غير إطفاء نار الحقد التي كانت تملأ قلوب أهل الدول لحوقها بعضها

من بعض ، فهي كلها دول غير شرعية ، وأصحابها في خوف من رعاياهم ومن جندهم ومن جواربهم ، وحتى أيامنا هذه مازالت معظم دول الإسلام تخارب بعضها بعضا ، لأن الحكام مستبدون غاصبون وصوت العقل مكتوم ، فلم يكن الحكام يقبلون رأياً أو نصيحة فكانت أموالهم تضيع ، وأموالهم هي أموال الناس ، وكذلك كانت حياتهم تضيع ، وكلنا نعرف المستوى الذي وصلت إليه الدولة العثمانية من الفقر والتدهور الأخلاقي والإداري ، فهذا هو ما انتهت إليه كل دول الإسلام في تلك العصور ، لأن هناك حقيقة كبرى تغيب عن أصحاب هذه الدول وهي أن الأمة مصدر القوة ، ولا قوة ولا بقاء لدولة إلا بتأييد من أمتها ، وفي أوروبا في العصور الوسطى كانت الدول مستبدة وغاشمة ، ولكن الخيط كان محدوداً بينها وبين شعوبها ولم تكن تعتمد على الجند الأجانب إلا في النادر ، وفيما عدا ذلك فقد كان الجند من أهل البلد ، وكان الأشراف (وهم حكام الأقاليم) يعتمدون على جنود محليين ، وهؤلاء الجند كانوا في نفس الوقت جند الملوك ، وكان بعضهم يعادى الملوك ويحاربهم ، ولكنهم في الغالب كانوا يحرصون على أن يظلوا على علاقات طيبة معهم . وحتى في صميم العصور الوسطى كان هناك شيء نستطيع أن نسميه بالحياة القومية ، وكان هناك شيء مشترك بين ملوك إنجلترا من أسرة استوارت أو بلا تاجينيت أوهانوفر والشعب الإنجليزي ، وكذلك كان الحال بين الأسر المالكة الفرنسية من آل هيوكاييه والبوربون والشعب الفرنسي وكان الملوك يعملون في خدمة الشعب وفي خدمة أنفسهم في نفس الوقت ، وقد تحالف الملوك في كل من البلدين — وبقيّة بلاد أوروبا — مع أهل المدن والمدن كانت مراكز المال والصناعات ، ولم يكن الملوك ليحتلوا على أموال المدن ومصانعها ، بل كانوا يستلّفون منها المال ويردونه ، فاحتفظت البلاد بمرواتها وعندما جاء عصر الاكتشافات الجغرافية كان الملوك ينفقون على الأساطيل والاكتشافات والفتوحات ، فارتقت البحريات وعظمت السفن وتضخمت الجيوش ، واستطاعت فرنسا وإنجلترا والبرتغال وهولندا أن تستولي على الأراضي المكتشفة وتملكها وتستعمرها ، بل إن البرتغال — وكانت من أصغر بلاد أوروبا — قد تغلبت على المسلمين في المغرب ، وعندما طردوا منه استعمروا شواطئ الجزيرة العربية واحتلوا شواطئ عمان وبلاد الهند الإسلامية وأنزلوا بها دماراً بالغا ، ونحن عاجزون عن الصمود لهم ، ولم يستطع اليعربون أصحاب عمان التخلص منهم إلا بعد خسائر واسعة ومهانات بالغة .

وسبب ذلك كله هو أننا تركنا سنة الإسلام في الحكم الشعبي الجماعي وارتدنا إلى الملكيات الفاسدة في الجاهلية وعادى الحكام أهل العلم واعتدوا عليهم وغرقنا في عالم من الظلم والجهل والذل والقوضى ، وخرجنا — في هذه النواحي — عن الإسلام ولم نحفظ منه إلا بممارسة العبادات دون أن تنبه إلى المعاني الرقيقة التي تتضمنها العبادات في ذاتها ، وفي القرن الثامن الهجري وما بعده كان عندنا علماء أجلاء ولكنهم حفاظ ، يحفظون العلم دون أن يتخلقوا بأخلاقه ، وباستثناء ابن خلدون ، والمقرئزي وأبي المحاسن كان العلماء يقعون بعضهم في بعض بصورة لا تتفق مع جلال العلم الذي يعمر قلوبهم ، وما رأيك في الكلام الذي كان ابن حجر العسقلاني يقوله في السيوطي والكتاب الذي ألفه السيوطي في ذم استاذة السخاوي وسماه به « الكاوي في ذم السخاوي » ؟ !



وقد كان الالتحام بين الملوك والشعوب في الغرب سببا في نهوض العلوم الدينية وهي لا تقل أهمية بالنسبة لحياة البشر من العلوم الدينية ، وقد خفف الله علينا أمر الإسلام ، فليس فيه أسرار ولا تعقيدات ، ولكننا نحن عقدناه ، وألفنا الكتب في هذا التعقيد ، وكنا في القرنين الثالث والرابع الهجريين نؤلف الكتب في الطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك ، فأهلنا ذلك كله بسبب الفقر العام وانخفاض المستوى ، فغلب الجهل وانحط المجتمع كله ، وعندما تلاقنا مع الصليبيين كنا أندادا لهم فعلبتاهم وأخرجناهم من بلادنا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ولكن عندما تلاقنا معهم في القرن التاسع عشر كانوا أقوى منا مرارا وغلبونا بل احتلوا بلادنا .

وجدير بالذكر أننا هبطنا في العصر العثماني إلى مستوى من الفقر لا يوصف ، حتى البلاد التي لم تخضع للدولة العثمانية مثل المملكة المغربية ودولة مغول الهند والدولة الصفوية الفارسية كانت في غاية الفقر ، وكل هذه الدول كانت في مستوى خفيض جدا من العلم ، وفي مستوى أشد انخفاضا في المال فغلبونا في كل ميدان ، والسبب هو ابتعادنا عن روح الإسلام في سياسة الأمة والتصرف في أموالها وفي إيماننا للعلم أو علوم المعاش وهي أساسية ورئيسية وكل دولنا اقترضت الأموال من أوروبا ثم احتلتها أوروبا بحجة استعادة أموالها ، فاستعادوا أموالهم واستغلوا بلادنا وغيرها ومازلنا إلى الآن لا نعي هذا الدرس وعيا تاما .

وأهم ما في هذا الدرس هو الحرية فإن المجتمع الإسلامي أيام الرسول ﷺ كان مجتمعاً حراً يتساوى أفرادُه فيما بينهم مساواة تامة ، وهذه هي قاعدة النجاح ، فقلنا إذا أردنا النبوض الحق أن تتمسك بالحرية فهي قوة للحاكم والمحكوم ، وهي ضمان كل خير وسلامة وعزة ، وبدون حرية لا تقوم أمة ذات شأن .

وبلى ذلك العلوم ، وعلومنا سواء كانت دينية أو دنيوية ينبغي أن تكون علوما نافعة ، فالإسلام دين حرية ودين علم ، وهو ليس في حاجة إلى من يدافع عنه ، فالذين يؤلفون الكتب دفاعاً عن الإسلام ينفقون وقتهم سدى فالإسلام عزيز بنفسه وهو ليس في حاجة إلى دفاعهم . والذين يقرأون القرآن ويحفظون آية ويصبحون : هذه الآية تتحدث عن طبيعة خلق القرآن على آخر ما انتهى إليه أهل العلم في أيامنا ، أولى بهم أن يكفوا عن هذه السطحية ، فمن المعروف أن القرآن يضم كل علوم الدنيا ، وأولى بنا أن نستخرج قواعد العلوم منه لا أن نأخذها من أهل الغرب ، ثم نقول إنها في القرآن ، فمن المعروف أنها فيه ولكننا نحن لسنا من العلم والجدية في شيء .

وجدير بنا أن نذكر أن الأمة الإسلامية كانت دائماً أمة واحدة ، وكل الخلافات كانت بين الحكام ، فلم يحدث قط أن حارب أهل مصر أهل الشام ، ولكن حكام مصر حاربوا حكام الشام وأهلكونا معهم ، وأضاعوا أموالنا وخربوا بلادنا ، وأمة الإسلام لا تزال واحدة ، فلنجهتد في إنهاء خلافات الحكام ، ولتتعاون أئمتنا بعضها مع بعض لكن نهض ونسترجع ما فات ، وإذا كان بعضنا يخدمون الروس ويحاربون إخوانهم المسلمين خدعة للروس في سبيل السلاح الذي يأخذونه منهم ، فلماذا لا يصنعون هم السلاح ؟ وهل صناعته معجزة ؟

أهم شيء — كما قلت — هو الحرية والعلوم ، وأضر شيء بنا هو الاستبداد والظلم والجهل ، ونحن نجرب اليوم الحرية فلتتمسك بها ، وعسانا لا نظن أن أهل السلف كانوا أصلح منا كما نزع ، فإن هذا غير صحيح ، ونحن اليوم خير من أسلافنا ، فليكن فكرنا حاضراً ، وليكن نظرنا إلى الأمام ، فإن النظر إلى الوراء لا ينفع في شيء .

* * *

إذن فالمشكلة عندنا أساسية . منذ البداية أخطأنا الطريق واتجهنا بالحكم انجها

غير إسلامي ، فالإسلام يعارض الاستبداد وينكر حكم الفرد المستبد ، ورسول الله كان يعرف أنانية قريش واستبدادها . وفي أكثر من مناسبة تصدى لحماية الأنصار ونصح عمر بالاعتدال وجدير بالذكر أن عمر لم يكن يتمتع بامتياز خاص أو مكانة خاصة في الأمة الإسلامية أيام الرسول ، وتدخلاته في شئون الجماعة كانت في الغالب عن طريق أبي بكر . وعمر عليك صفحات بعد صفحات من المسيرة النبوية دون أن يمر بك ذكر لعمر . لقد حضر المشاهد كلها مع الرسول طبعاً ، ولكنه لم يقدر إلا سرية واحدة ، وكذلك أبو بكر لم يقدر إلا سرية واحدة ، وكانت الاثنان بعد ست سرايا قام بها زيد بن حارثة ، والغالب أن الرجلين احتجا على تلك الصدارة التي كانت لزيد ، ولم يكن قرشياً بل كان قضاعياً الأصل وأسر واشتره حكيم بن حزام لعتمته خديجة (رضى الله عنها) وأهدته هي إلى رسول الله فأحبه الرسول حباً شديداً ووثق به حتى صار يوصف بأنه حب رسول الله ، وقد أرسله الرسول أميراً لست سرايا متوالية ، فغار منه القرشيون ونحدثوا في ذلك ، وقد صارحهم الرسول بذلك وهو على فراش الموت . وقال موجه الكلام لعمر : إنه عندما اختار زيدا للإمارة « ورمت أنوفهم » وقال إن ذلك حدث لهم أيضا عندما اختار الرسول ابنه أسامة لإمارة البعث إلى الشام ، وزيد كان أول أمير لموتة ، وقد استشهد فيها .

وقد وضعت أحاديث بعد ذلك تنسب للرسول أنه قال إن الإمامة في قريش ، وهذا غير صحيح ، ولو كان الرسول قال ذلك فعلا لما نافس الأنصار القرشيين في الرياسة يوم السقيفة ، بل إن الرسول لم يتحدث في الإمارة أصلا لأنه كان يرى أن قيادة الجماعة ينبغي أن تكون جماعية ، والجماعة الغائلة تختار رئيسها بالشروط التي تراها ، والإشارة الوحيدة الموثوق بها ويمكن تأويلها بأنها إشارة إلى القيادة الجماعية هي قول الله تعالى في سورة (آل عمران : آية ١٥٤) ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ فهي تأتي وسط مجموعة من الآيات يمكن أن نعتبرها أساسا للنظام السياسي للجماعة بعد الرسول ، وغريب جدا من فقهاءنا الأول أن ذلك لم يستوقف انتباههم ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا جبناء ، فقد كان فقهاء القرون الأولى أهل شجاعة وإيمان ، ولكن يبدو أن الفتنة داهمتهم ولم يكونوا ينتظرونها ، ووقعت الحرب الأهلية فروعهم وخافوا على وحدة الأمة ، ثم قامت خلافة معاوية فظنوا أنها نهاية الفتنة وبداية الاستقرار والحكم الإسلامي الصحيح ، ثم رأوا استبدادها والتفاف الجند العرب المرتزقة حول الدولة

الجديدة . وعندما بايع معاوية لابنه ، وتولى يزيد الخلافة يؤيده رجال جبابرة لا يعرفون رحمة ولا براعون ديناً ، أسقط في يدهم وسلموا بأن هذه إرادة الله ، ويسوا من الدنيا جملة وبخاصة عندما رأوا رجلاً مثل الحسين بن علي وآله يقتلون على تلك الصورة المخيفة ، ثم إن فتنة عثمان كانت ثورة على حكم الصحابة . وكان الصحابة رجالاً أتقياء ولكن الملكات السياسية فيهم كانت قليلة . وجاء التابعون وهم قادة الأمة الجدد ، فوجهوا اهتمامهم كله إلى الدين ، وانهك رجال الأمة في الفتوح وتفرقوا في البلاد وهاجر العرب إلى الأمصار وانصرفوا إلى التعريب ونشر الإسلام ، والأمة العربية كانت بطبيعتها قليلة العدد ، فذابت في جماهير المسلمين الجدد في عالم الإسلام تاركين الحكم لطلاب السياسة والطامعين وخاصة بعد أن قامت دولة بني العباس واتضح أنهم ليسوا بأحسن من الأمويين ، والأمة الإسلامية فشلت فشلاً ذريعاً في قيادة الأمور بزعامة قريش ، لأن الفاطميين وهم بيت ثالث من فريش كانوا سواء مع الأمويين والعباسيين في السوء .

وسأتيك الآن بالآية التي أشرت إليها وسط آيات تعزز في مجموعها ما نذهب إليه . وهو محض فرض أو رأى أطرحه للمناقشة :

قال الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْتَدُونَ . وَلَكِنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يُدْعَوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾ — (١٠٥) .

ولو أنك جمعت هذه الآيات بعضها إلى بعض . وفسرت بعضها ببعض ، لرأيت أنها تبصر الأمة بما يمكن أن يقع لها لو تفرق أمر أهلها ، وهي : ذكرهم بنعمة الوحدة والإيمان والإسلام التي أنقذتهم من النار ، ولكننا تفرقنا ونحاربنا فوقعتنا في حفرة النار التي حذرنا الله منها ، ولا نجاة لنا إلا بأن تكون من بيننا جماعة تقيم القانون والمعدل

ونعارب الفساد ، فأولئك هم المفلحون . ونحن نفلح معهم وبهم ، ومرة أخرى يحذرننا الله من التفرق والاختلاف بعد أن جاءتنا البينات ، وعقابتنا على ذلك شديد .

* * *

وقد أطلت الكلام عن أسباب خيبتنا في الطريق وإمكانات عودتنا إلى القوة إذا نحن اعتصمنا بحبل الله جميعا ونهنيينا الاقتراق وسرنا على طريق العدل والحرية والمساواة كما كنا أيام رسول الله ﷺ وخليفته ، فلما ساء في أساسها سياسية ، وعلاجها لا يكون بأن تنسب إلى رسول الله ﷺ أحاديث تتحدث عن الإمامة ومن يستحقها ، ولا معنى للقول بأن رسول الله ﷺ قال إن الأئمة من قريش ، فقد جعلنا الأئمة فعلا في قريش فلم نر إلا شراً وفسادا ، ولا معنى للقول بأن رسول الله ﷺ قال إن الإمامة ثلاثون عاما ثم يفترق أمر المسلمين إذ إنه لا معنى لأن ينشئ رسول الله ﷺ أمة قائمة على الإسلام العظيم والقرآن الجليل لكي تفسد وتنهار بعد ثلاثين سنة ، ولا معنى كذلك لأن ينسب جابر بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ حديثاً معناه أن المسلمين لا ينبغي أن يقبلوا من الناس إلا الإسلام ، فمن أتى قلبس له إلا السيف ، لأن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك . والقرآن الكريم لم يقل إن المسلمين ينبغي أن يدعوا إلى الإسلام بالسيف بل بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتقى الدين بن تيمية لم يكن على صواب عندما أبدى ما يقول إنه وارد في الصحيحين : « أن قوما دخلوا على رسول الله ﷺ فسألوا ولاية ، فقال : إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه وأنه ﷺ قال لعبد الرحمن ابن سمرة : يا عبد الرحمن ، لا نسأل الإمامة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها » فإنه لم تكن في أيام رسول الله ﷺ ولايات أصلا ، إنما كان هناك أمراء الجنود في السرايا ، وهؤلاء كان رسول الله ﷺ يختارهم بنفسه ، ولم تكن لهم مكاسب ولا رواتب . وكانت الإمرة تنتهي بنهاية السرية ، فيعود الأمر لمواطنيها دون لقب . ومع ذلك فإن لقب أمير المؤمنين لم يستعمل أيام الرسول ﷺ إلا مرة واحدة ، وأطلق على عبد الله بن جحش ، والمراد المؤمنون المشتركون معه في السرية . وأما عمال الرسول ﷺ في التواحي فلم يكونوا حكاما لها . وإنما هم عمال الصدقات . ولا سلطان لهم خارجها . ولا كسب لهم إلا ما قرره القرآن لهم في آية الصدقات .

وكلام ابن تيمية في كتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » ليس

الفصل الثاني

عالم الماعز



ميلاد الجماعة الإسلامية :

ولد الإسلام في رمضان من السنة القمرية التي تقابل سنة ٦١٠ للميلاد ، عندما نزل الوحي على محمد ﷺ بأولى آيات القرآن الكريم ، واتصل نزول الوحي على طول حياة الرسول ﷺ ، حتى اكتملت عقائد الإسلام وشريعته وقانونه الخلقى . ثم مضى خلفاء الرسول والعلماء من بعدهم يستكملون تفاصيل المعرفة الدينية وشروط المعاملات ، حتى فصلت أصول الدين والشريعة وشرحت على نحو يحل مشاكل البشر الروحية ، ويبين لهم طريق التصرف في مسائل الحياة اليومية ، ويصلح لكل زمان ومكان . وترك باب الاجتهاد مفتوحاً لمن قدر عليه من أهل العلم والفقه والرغبة في التجويد والتجديد .

وولدت الجماعة الإسلامية الأولى في ١٦ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة -- ٢٠ شتبر ٦٢٢ م -- يوم وصل الرسول ﷺ إلى قباء ، الضاحية الجنوبية للمدينة . فقد خف للقاءه المهاجرون والأنصار ، وبدأت اجتماعاته معهم في دار سعد بن خيثمة حيناً ودار كلثوم بن الهيثم حيناً آخر ، وبدأ الرسول ينظم أمورهم على أساس من مبادئ الإسلام التي تقوم على الأخوة والمساواة .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده الذي أصبح المركز الديني والاجتماعي للجماعة ، وابتنى في ركن من ساحة المسجد حجراته التي أقام فيها بقية عمره ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسي للجماعة ، إذ كان الرسول ﷺ يجتمع هناك وأصحابه ليصرف معهم شئون الجماعة الناشئة ، ثم وضع -- بالتفاهم مع صحابته أيضاً -- المواد الرئيسية الأولى للدستور الجماعة السياسي ، وهي التي نغدها في الفقرات الأولى من « الصحيفة » التي كتبها بين المهاجرين والأنصار ومن معهم من اليهود . وترك الدستور بعد ذلك مفتوحاً ليضاف إليه من الفقرات ما تمس إليه الحاجة ، وما تدعو إليه ضرورات تطور الجماعة من تقنين وتنظيم .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦ يونيو ٦٣٢ م) ، كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، ودخل فيها جميع أهلها . وكان الرسول ﷺ يسوس أمور هذه الجماعة بتطبيق شريعة الإسلام تطبيقاً دقيقاً ، وبالسير على منهج واضح سليم يعتمد على تمثل الإسلام تمثلاً تاماً ، وعلى العدالة والإخلاص المطلق وفهم الطبيعة البشرية والصبر على الناس والعمل الدؤوب وقوة الشخصية مع هبة النبوة في القلوب ، ضارباً للناس بخلفه وسلوكه وتصرفه القدوة الصالحة في كل شيء .

فلما جاء أبو بكر رضى الله عنه حاجته بعض هذه الصفات ، وبخاصة هبة النبوة ، ف شعر بأنه في حاجة إلى قوة تؤيد السلطان الذى ورثه ، وظهر ذلك واضحاً في أزمة الردة . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يملك قياد الناس ويجمعهم بالمهبة وسلطان النبوة ، فكانوا يخرجون الزكاة طواعيةً وعن رضا . ونقول : يخرجونها ، ولا نقول : يؤدونها ، لأن الواقع أن الناس أيام الرسول ﷺ كانوا يخرجون من أموالهم الصدقات وينفقونها في مصارفها التى حددها لهم القرآن الكريم ، فلا يصل إلى المستغنين ، وهم الرجال الذين كان الرسول ﷺ يندبهم لتوجيه الناس في موضوع إخراج الصدقات والتصرف السليم فيها ، إلا نصيبهم القليل الذى يحدده لهم الشرع . فكان لا يصل إلى المدينة إلا نسبة ضئيلة أخرى معادلة لهذه ، وهى قدر قليل . ولهذا لم يكن للرسول ﷺ بيت مال ولا خازن .

قيام دولة الجماعة الإسلامية أيام أبى بكر وعمر :

فلما جاء أبو بكر توقف الكثيرون من العرب عن إخراج هذه الصدقات القليلة ، لأنها لم تكن في رأيهم إلا تعبيراً عن ولائهم لمحمد ﷺ . والأمر عند الكثيرين من المعتنقين ، لم يزد على ذلك ، فأما وقد مضى محمد ﷺ إلى ربه فلم يعد هناك ما يدعو إلى الاستمرار في إخراج الزكاة . ورأى أبو بكر — بماله من بعد النظر وعمق الإيمان — أن يضع المسألة في صورة حاسمة صريحة لا تدع مجالاً للخلاف ، فعُدَّ الامتناع عن إخراج الزكاة انفصلاً عن الجماعة الإسلامية ، وعدَّ ذلك الانفصال خروجاً على نظام الجماعة ولورتداداً عن الإسلام . وعلى هذه الصورة الخطيرة واجه المشكلة بحزم أهل العرب من حوله ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد باستخدام

القوة في إعادة المرتدين إلى حظيرة الإسلام وجماعته . فصدع بالأمر وسار لحرب المرتدين ، وأنزل بهم هزائم قاصمة ، وأرغمهم بذلك على العودة إلى الجماعة . فانتظمت وحدتها من جديد ، وأفاق الغافلون والمستخفون من غفوتهم ، وعرفوا أنهم — الآن — في دولة ذات نظام لا مفر من اتباعه وسلطان لا سبيل إلى الخروج عليه .

وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الجماعة الإسلامية القوة داخل حدودها ، لأن هذه الجماعة كانت محاربة خارج حدودها فقط ، وكان جندها هم أفراد الجماعة أنفسهم ، إذ كانت وظيفتها المحافظة على سلامتها ومد نطاقها بإدخال أقوام آخرين في الإسلام . أما عندما تصدى أبو بكر للقضاء على الردة ، فقد استخدم القوة العسكرية داخل نطاق الجماعة نفسها ، لإعادة وحدتها ومعنى هذا أن سلطان الجماعة أصبح له أداة تحميه وتفرضه في داخلها ، ممثلة في صورة قوة عسكرية تأتمر بأمر رئيس الجماعة ، ويظهر أداة السلطان ظهرت ملامح الدولة وأصبح الخليفة رئيساً سياسياً له سلطان محسوس ، تؤيده قوة عسكرية لا يمكن تجاهلها ، وأصبح لهذه الدولة قواد وعمال وقضاة متخصصون يقوم كل منهم بوظيفة محددة داخل إطار الدولة ويتقاضى راتباً عن عمله ، ويحاسب على عمله . ولذا ذكر هنا أن هذه الأعمال كانت تتم داخل الجماعة أيام الرسول ﷺ دون تخصيص لإنسان لعمل ودون راتب يُعطى . فقد يكلف الرسول ﷺ أحد أصحابه بقيادة بعث ، فإذا انتهى البعث عاد الصحابي إلى صفوف الصحابة وإلى عمله وإلى حياته الأولى . أما أيام أبي بكر فقد أصبحت هذه الأعمال تتم على أيدي موظفين منقطعين لهذه الأعمال .

وعندما استوثق أبو بكر من سلطانه واختير قوة أداة هذا السلطان بالنصر الذي أحرزته في حروب الردة ، اتجهت همه إلى استخدامها في نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بصورة نظامية ، فأرسل جيوش الإسلام لتحمل الرسالة إلى فارس وبلاد الدولة البيزنطية في الشام ، فاختر القادة وأصدر إليهم تعليماته . وهذه هي قواعد النظام العسكري والمطلق الذي سسير عليه جيوش الدولة فيما يلي من الفتوح وظهر إلى جانب خالد بن الوليد قادة آخرون ، لهم صفات للقيادة وفهم للنظام ، وقدرة على تطبيقه ، من أمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم ممن تكرنوا في مدرسة المغازي والسرايا الحمديدية .

وبعد وفاة أبي بكر وتولّى عمر رضى الله عنه فى سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) ازدادت صورة الدولة وضوحاً ، لأن عمر بن الخطاب كان قائداً للرجال ومنظماً موهوباً . ففرض احترام النظام بالحيية والقوة معاً ، وعامل القوّة والعمال والقضاة على أنهم موظفون خاضعون خضوعاً مطلقاً لرئيس الدولة ، وفرض النظام على الناس كافة . فلم يقتصر الأمر على إقرار السلام والنظام داخل الجماعة ونشر الإسلام خارجها ، بل أدخل عمر فى حساباته اعتبارات اجتماعية وتنظيمية عامة واجتهد فى تنفيذها ، من ذلك رفضه الإذن للصحابة فى الانتقال إلى الأمصار ، وبحاسبه العمال على ما يخرجون به من مال شخصى بعد أن يتركوا العمل ، ومطالبته بنصف ذلك على اعتبار أنهم لم يحصلوا عليه إلا بمجاهة الوظيفة ، وكذلك رفضه الإذن للجنود العرب المستقرين فى البلاد المفتوحة فى العمل فى الزراعة ، لا احتقاراً للزراعة والزراعى ، كما يظن البعض ، فإن عمر كان أدقّ فهماً من ذلك ، بل لأن هؤلاء الجنود هم أداة السلطان للدولة ، فمن الخطأ التفریط فيهم . وقد جرى عمر فى ذلك على هدى من عمل الرسول ﷺ ، وهو أن يكون جند الإسلام مستعدين دائماً للزيادة عن حياض العفيدة .

وعلى طول أيام عمر تكاملت أدوات الدولة ونظمها ، سواء أكانت تنظيمية إدارية كتدوين الدواوين — أى إنشاء الإدارات والسجلات — أو تنفيذية كإنشاء وظائف العمال وغيرها ، فى جزيرة العرب والبلاد المفتوحة ، للقيام بالحكم فى أنحاء الدولة وإنشاء وظائف عمال الخراج ، وهم المسئولون عن الشئون المالية فى الولايات ، أو مالية كقواعد توزيع العطاء .

وفرض عمر على كل عمل فى الدولة نظاماً إدارياً أخلاقياً ، ونشدّ فى أخذ الناس بهذا النظام ، فظهرت هيئة الحكومة وقوتها ، ورسخ فى القلوب احترامها .

وتجمعت للدولة أموال : من نصيبها الشرعى فى الغنائم والصدقات ، ومن مبالغ الجزية والخراج ، وأصبح بإمكانها أن تعطى من هذا المال أو لا تعطى ، وأصبح من واجبها الإنفاق على مصالح الرعية ، ومطالبة الناس بالقيام بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وإيقاع العقاب على المقصرين والمخالفين ، وبحاسبة العمال على أعمالهم وعلى ما بأيديهم من أموال ، فاتسع نطاق سلطان الدولة وأخذ يمتد فى نواحي حياة الأفراد والجماعات داخل حدودها .

وكان عمر شديد الرقابة على الناس في ذلك ، لا يفرق بين كبير منهم وصغير ، إذا تعلق الأمر بمصلحة الإسلام والدولة ، وكان هذا مصدر بعض ما نسمع من الكلام عن شدة عمر . وما كان عمر مسرفاً في الشدة ، وإنما كان رجل واجب وعدل وقانون ، وكان إيمانه بالإسلام عميقاً جداً ، وكذلك كان حبه للرسول ﷺ ؛ ولهذا لم يكن يتردد في مطالبة الناس بالقيام بواجبهم وفاء بحق الإسلام ورسوله . ولتخفيف إلى ذلك أن وطأة النظام والحكومة وأعباء الدولة كانت جديدة على الناس ، ففر منها بعضهم ، ولكن الغالبية العظمى منهم ارتضت حكومة عمر وسعدت بها واستمتعت في ظلها بالعدل المطلق والأمان الشامل ، والاطمئنان إلى أنهم يعيشون في رعاية دولة قوية منظمة ، تحكم وفق شريعة سماوية سمحاء وقانون خلفى مستمد من هذه الشريعة ، ونظام سياسي مرسوم بإحكام وإخلاص .

وأجل ما في عمل عمر بن الخطاب أنه شاد بنيان الدولة ، دون أن يدخل تغييراً جوهرياً على الإطار العام للجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعي والخلقي الذي وضعه لها الرسول ﷺ ، واجتهد في استخدام هذا النظام لتقوية الروابط الاجتماعية التي كانت تربط أعضاء الجماعة بعضهم ببعض .

ولم عمل عمر يرجع الفضل فيما امتاز به عصر الخلفاء الراشدين من أن القوة الحقيقية لنظام الجماعة الإسلامية تكمن في متانة الروابط الاجتماعية التي تربط بين أفراد الجماعة ، سواء في ذلك العاملون منهم في وظائف الدولة وغير العاملين . فكان عمر أباً للمؤمنين قبل أن يكون أميراً عليهم ، وكان الناس يلجئون إليه لجوء الابن إلى أبيه ، ويتحدثون إليه حديث الأخ إلى أخيه . وكذلك كان الحال بين كبار رجال عمر ومن فادوهم أو حكموهم ، فقد كانوا أفراد أسرة واحدة .

ويلاحظ أن بعض هذه الروابط كان شيئاً موروثاً ، قام على أساس من المروءة العربية القديمة ، وأن بعضها جاء من المروءة الإسلامية التي نبتت من الدين وأخلاقه ، وبعضها نشأ عن الظروف التي استجدت بعد قيام جماعة الإسلام ودولتها ، كما نرى في شعور الناس بوحدة الجماعة الإسلامية وضرورة المحافظة عليها .

وكانت هذه الروابط عصب حياة وأساس سلامة للمجتمع كله ، بما في ذلك

الدولة التي هي أداة السلطان ، والحكومة التي هي مظهر هذا السلطان^(١) .

الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية :

وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها ، ظلت الجماعة قائمة ، لها قوتها واختصاصاتها ومسئولياتها إلى جانب الدولة . فمعظم المشكلات والنزاعات كان الناس يحلونها فيما بينهم بالتراضي والتفاهم أو التنازل المتبادل ، ومن هنا نفهم كيف أن مدناً كثيرة كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة كان لها قاض واحد ولم يكن هذا القاضي — مع ذلك — مرهقاً بالتقاضي ، لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا في حالات الضرورة القصوى . وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائماً من اختصاص الجماعة بينها الأثرياء أو الناس العاديون ، وتوقف عليها الأموال ، لأن المساجد التي كانت تبنى بأموال الخلفاء والسلاطين كانت قليلة العدد ، إلى جانب أنها كانت في كثير من الأحيان مساجد سلطانية لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار الغنى والقوة والرغبة الشخصية في بقاء الذكر .

ومثل ذلك يقال عن التعليم ، فقد كان كله من شأن الجماعة ، وقلما أنفقت الدولة شيئاً عليه في شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، باستثناء عطايا كان الخلفاء والسلاطين يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة .

وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر ، فإن الدول قلما أنفقت في إنشاء الطرق ، بل كانت خدمات البريد التي نقرأ عنها خاصة بأعمال الدولة ، وكانت

(١) الشريعة — مثلاً — وصحت قواعد للسوات تنصس للرجل الحاسب الأكبر من أسوالم إلى أولاده من بعده ، حماية لهم من الفقر والمجاعة ؛ وما الذي كان يحدث إذا مات الأب دون أن يترك مالا يمس أولاده ؟ هنا تقوم الجماعة الإسلامية بهذا الواجب ، مشترك أفراد الأسرة في القيام بشؤون الأرملة والأيتام . ومن البهائم في المجتمع الإسلامي أن العم والحال والأخ يستولون متغاضون عن مصير أبناء غريمهم المتوفى ، فإذا عجزوا تسع نطاق السهولة طغمت الأسرة كلها القرب . ومثل هذا يحدث في حالات الطلاق ، فإن المطلقة العفيفة في المجتمع الإسلامي لا تلف وحدها في الطريق أبداً ، بل تعود إلى أهلها أو هم يعتنونها مع أولادها ، بل إنه في بعض الأحيان لا يفر المجتمع الطلاق في حالات الص والداح ، ويبرهن الفروج على الاستمرار في الحياة الزوجية حفاظاً على الأولاد ، لأن الجماعة الإسلامية أسرة واحدة كبيرة متكاملة متصلة .

الدول لا تساهم في إنشاء الأساطيل التجارية ورعاية الموانئ ومصالح التجار إلا في النادر .

والخلاصة أنه كان لدينا دائماً كيانات ، كل منهما قائم بذاته : الجماعة الإسلامية ، والدولة الإسلامية .

وكان لكل منهما ذاتيته واستقلاله واختصاصاته وميادين نشاطه .

وفي عهود الحكومات الصالحة نجد الهيئتين متطابقتين ، أى أن الجماعة والدولة تبدوان شيئاً واحداً ، وفي عهد الحكم السيئ أو حكومات القهر والاستغلال نجد الجماعة في طريق والحكومة في طريق .

ومن هنا لا تدهش من الانفصال الواضح الذى نشاهد في حالات كثيرة بين الدولة والجماعة ، أعنى بين السلطة الحاكمة والجماعة المحكومة . وينبغى هنا أن نذكر أن الجماعة الإسلامية قلما عولت في الماضي على السلطة الحاكمة إلا فيما يتعلق بالحماية الخارجية . وقد بدأ هذا الانفصال يظهر منذ قيام الدولة الأموية التى لم يرق نظامها الحكومى على أساس الشورى أو التراضى وإنما فرض على الجماعة فرضاً ، فأنكره الناس جميعاً كنظام ، وأنكروا طريقته فى الوصول إلى الحكم ، ووصفوه بأنه «ملوكية» أو «كيسروية» أو «مُلْك عضوض» ، وكلها تسميات تؤكد إحساس المسلمين بأن هذا الطراز من الحكومات غير إسلامى ، أما النظام الإسلامى عندهم فهو نظام الخلفاء الراشدين الذين انتخبوا لولاية أمور الجماعة الإسلامية انتخاباً حراً ، أو اختارهم نفر من صلحاء الأمة وقادتها ممن يشهد الناس لهم بالإخلاص والديانة والنظر الخالص لمصلحة المسلمين .

والمهم هنا أن نذكر بالنسبة لامتداد الإسلام ما قلناه من وجود مفهومين يسيران جنباً إلى جنب : الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية ، «جماعة المسلمين» التى تنظم أمورها فيما بينها على أساس الإسلام وأخلاقياته ، دون اهتمام كبير بالهيئة الحاكمة وشكلها ؛ ثم «الدولة» أو «النظام الحكومى» الذى يبين على أمور هذه الجماعة سياسياً ويتولى حماية دار الإسلام من عدوان دار الحرب عليها . والعلاقة الواضحة المستمرة بين هذين الكيانين هى العلاقة المالية التى كانت تتمثل في الضرائب التى كان الحكام يجبرونها ليسيروا بها أمورهم وبحلوا مشكلاتهم .

وليس من الضروري أن تكون مشكلات الجماعة واهتماماتها هي ذات مشكلات النظام الحاكم واهتماماته . ففي عهد الفاطميين — مثلاً — كان الحكام شيعيين ، وكان الشعب سنياً يعد الشيعة لوناً من الكفر ، وكان همُّ خلفاء الفاطميين منصرفاً إلى حروب في الشام مع الخلافة العباسية السنية ورجائها ، وكان من الواضح أن هوى المصريين ومعظم أهل الشام لم يكن مع الدولة القائمة وسياستها ، بل كان هواهم سنياً يتناشئ مع سياسة العباسيين أعداء الفاطميين .

وكان رجال تلك الدولة يعرفون ذلك ، ولكنهم لم يكتفوا له ، لأن نظامهم كان يستند إلى جُتَد مرتزقة ، لا يعرفون أهل مصر والشام ولا يعرفهم أهل مصر والشام . ولم يكن في ذلك ما يقلق يال الدولة ، مادام المصريون وأهل الشام يؤدون الضرائب التي يتقاضى الجند المرتزقة أعطياتهم منها ، وهنا بالذات نجد نموذجاً واضحاً جداً من انعدام التوافق بين الجماعة والدولة . ولكنَّ عُمَر الدولة الفاطمية طال بالرغم من ذلك ، لأن الجماعة الإسلامية المصرية والشامية كانت كل منهما تسيّر أمورهما بنفسها ، تاركة جانباً النظام السياسي القائم يسير في الطريق الذي ارتآه لنفسه .

وترجع قوَّة الجماعة الإسلامية وقدرتها على التغلب على الأزمات والنكبات — وما كان أكثرها خلال العصور الوسطى ! — إلى قوة العقيدة الإسلامية وعمق جذورها في النفوس . وهذا بدوره يرجع إلى قيام العقيدة على المنطق الذي يقبله العقل الإنساني ، ويجد فيه حافزاً على العمل والإنتاج وفعل الخير وعزاء عن هموم الدنيا ومتاعها ، ويجد فيه مصدراً للأمل عند المحن والآلام ، ويرجع أيضاً إلى شمول الشريعة الإسلامية وروافدها بحاجات البشر من التنظيم والعدل ، وكذلك إلى إنسانية القانون الخلقي الإسلامي الذي يتسم بالسماحة وإدراك النفس الإنسانية وفهم نواحي قوتها وضعفها ، وذلك كله يجعل المسلم يعيش في الإسلام بالإسلام ومن الإسلام .

وحيثما اتجه نظرنا في عالم الإسلام إلى مطالع العصر الحديث وجدنا أن الجماعة هي الأساس وأن النظام السياسي — سواء أكان سلطنة أو مملكة أو نحوها — لم يكن سوى إطار لهذه الجماعة ، وقد يكون إطاراً صالحاً فيخدم الجماعة ، وقد يكون غير صالح فيؤذي مصالحها ، ولكننا نلاحظ أنه في غالب الأمر كان إطاراً وسطاً ، لا هو بالجيد ولا هو بالسيء ، وإنما هو نظام بين بين ، لا يمتاز بشيء يستلفت

النظر إلا في النادر ، يعيش أصحابه — في نطاقه — حياتهم وتعيش الجماعة أو الأمة — في نطاقه — حياتها .

انتشار الإسلام :

إذن فالتاريخ الحقيقي لشعوب الإسلام هو تاريخ جماعاته أو أمميه في كل مكان ، فهذه الجماعات قد عرفت كيف تنظم أمورها على نحو لا بأس به ، مكن لها — على الأقل — من المحافظة على كياناتها والنجاح من المهالك في ظروف العصور الوسطى ، وقد كانت ظروفًا قاسية يسودها العنف والعصبية والأنانية والجهل ، وبحكمها ميزان خلقي سطحي يقوم على الألفاظ لا على الحقائق . ففي الشرق والغرب كان أصحاب الأمر ومن تعلق بهم من رجال الدين والفكر يتحدثون عن العدالة والفضيلة والتغوى والبر والخير ، في حين أن الكثير حثًا من أفعالهم كان يتناقض مع هذه المبادئ ، فلا يكاد أصحاب النفوذ يقيمون وزنًا لما يتحدثون به عن العدل إذا تعارض مع مصالحهم . وإنما الأمم نفسها هي التي كانت تتمسك بهذه المفاهيم وتجتهد في تطبيقها بين أفرادها على قدر الطاقه . وكان لسان الأمة المعبر عن وجدانها هم المخلصون من أهل العلم والفكر الذين لم يكتفوا قط عن المناذاة بالعدالة والفضيلة والنزاهة حدود الدين .

والمتبع للتاريخ العام لانتشار الإسلام ونشوء ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامي يجد أنه قد تكون : إما نتيجة لفتوح عسكرية مدت نطاق دولة إسلامية إلى مناطق غير إسلامية مما يلها ، أو عن طريق انتشار الإسلام نفسه في بلاد غير إسلامية ، بفضل قوته الذاتية الدافعة وخصائصه نفسها . وعندما نتعمق الموضوع نجد أن الأعمال العسكرية لم تنشر الإسلام وإنما هي مهدت له الطريق أو فتحت الباب أمامه ، ثم انتشر الإسلام بقوته الذاتية في البلد المفتوح . فالأمم الإسلامية التي قامت بالفتوح — وأهمها العرب والترك^(١) والبربر المستعربون في المغرب — لم تفرض الإسلام على

(١) الترك (والجميع أترك) نسبة عامة تطلق على شعوب مختلفة نرسع كلها إلى أصل طورق . ولكنها تعرفت في ساسات شامسة فقد من شرق حصبة إيران إلى عرب الصين . بما في ذلك بلاد التركستان التي تتكون منها حالياً مجموعة الجمهوريات الإسلامية السوفيتية . وقد سمى العرب أول من اتصلوا بهم من الترك الحاقطة ، وسموا بلادهم بلاد هُظُل . ومع الزمن سمى العرب أهل الترك شعوب مختلفة ظل معظمها يعيش على البداوة ، حتى بدأ الإسلام يدخل بلادهم خلال

الناس بقوة السلاح ، بل هي ضمت البلاد سياسياً وعرضت على الناس الإسلام وتركهم أحراراً في أمر الدين ، فمن شاء اعتنق الإسلام ومن شاء بقي على دينة ودفع الجزية ، لأن النظرية الإسلامية العامة كانت — فيما يتعلق بأهل الديانات السابقة — تتبع نص الآية الكريمة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (البقرة ، الآية ٢٥٦) .

والفكرة الأساسية التي سیرت المسلمون في هذا الموضوع هي أن الإسلام نعمة من نعم الله على الإنسان ، فمن أراد الله بحره فتح للإسلام قلبه ففاز به ، ومن لم يفتح الله عليه فلا معنى لفرض الإسلام عليه ، لأن النعم لا تفرض على الإنسان بل ينالها عندما يستحقها ، ولهذا فسواء في مصر أو الشام أو المغرب أو إيران ، فتح العرب البلاد ودعوا الناس لدخول الإسلام وبينوا لهم فضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك يمثلونه على مهل ، وقد كانت هذه السياسة أكثر فاعلية مما لو كان القاطنون المسلمون قد أجبروا الناس على اعتناق الدين ، لأن الذي يسلم طواعية وبمحض اختياره يكون إسلامه صحيحاً شاملاً . ومن هنا نرى كيف أن الإسلام لم يدخل بلداً ثم تلاشي منه ، إلا في حالة الأندلس وصقلية ، وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة^(١) .

العصر الأموي ، وشيئاً فشيئاً دخلت أم الترك كلها في الإسلام ، وانفصلت أملاكها أبواب الرق والخصر ، فأعلنت تسلياً للول المنظمة ، وهاجرت جماعات مها عرباً إلى أراضي الدولة الإسلامية ودخلت في خدمتها في صورة حد مرتزقة ، كما عرف في تاريخ الخلافة العباسية ، ومن ترك جماعات التحت إلى الترحل في أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، مثل جماعة الأتراك المروانيين بسلاجقة الروم ، وآخر جماعات الأتراك التي سارت في ذلك الطوق هم الأتراك الغناتيون ، وسنحدث عنهم فيما بعد .

(١) كان شبه الحرية واسعاً جداً بالنسبة لجماعات المسلمين القليلة التي دخلت ، وكانت أملاك الصغرى في شبه الحرية الأهمية أكثر دائماً من عدد المسلمين ، حتى خلال القرن العاشر الميلادي الذي بلغت فيه دولة الإسلام في الأندلس أوجها ، بل كان الصغرى في الأندلس الإسلامي يحصيه أملاكه إلى أواسد القرن الثالث الهجري ، ولم يصح التسليم أكثرية في أراضي الخلافة الفرسية إلا خلال القرن الرابع الهجري (العاشر من البلاد) وكان لابد من وقت طويل حتى يتم دخول هؤلاء الصغرى في الإسلام ، وبينما كانت تلك العملية مستمرة في طرفها انهار النظام السياسي الإسلامي في شبه الجزيرة أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، وقامت في يواحيه مختلفة دوليات صغرى مسخرة تسمى دول الطوائف أو « ممالك الطوائف » . وقد كان من الممكن أن يستمر انتشار الإسلام برغم ذلك ، ولكن الذي حدث هو أن النظام الصغرى ، الذي حل محل النظام الإسلامي في البلاد التي تعلب عليها حيوة لبرق المسلمين ، حصل على انقلاب الإسلام بالقوة ، ولهذا في ذلك إلى أشد أنواع الاضطهاد والإبادة ، أي أن رجاله عرضوا سياسة استئصال للإسلام ، ولولا هذا ... بسين يعيشون في إسبانيا والبرتغال كما يعيشون اليوم في روسيا ويوغوسلافيا وألمانيا وغيرها ، وكلها بلاد مسيحية ، أما صقلية فإن المسلمين لم يبقوا أيام حكمهم لها إلى إقامة نظام قري شامل يضمن انتشار الإسلام على نطاق واسع .

وإذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي رأينا أن ثلثه فقط دخل في نطاقه نتيجة لفتوح ، والمتبقى انتشر فيه الإسلام انتشاراً سلمياً دون أن يستخدم لذلك أى سلطان . ففى كل بلاد أفريقية المدارية والاستوائية — بما في ذلك السودان النيل — وفي كل جزائر جنوب آسيا وفي جانب كبير من شبه القارة الهندية وفي الملايو وفي كل جزر المحيط الهندي وإندونيسيا والفلبين وبعض بلاد أمريكا اللاتينية نشر الإسلام بقوة الذاتية دون أن يكون لأحد في ذلك كبير فضل .

الأمة أساس الوجود الإسلامى :

وباستثناء الفتوح الإسلامية الأولى — وهى التى تمت خلال القرن الهجرى الأول — كانت العادة أن يمتد الإسلام من تلقاء نفسه فيما يجاور بلاده عن طريق السفار أو التجار أو عن طريق من يفتنون من أهل هذه النواحي إلى بلاد الإسلام ، فيسلمون ثم ينشعون بعد ذلك جماعات إسلامية في بلادهم ، لأن التوسع الإسلامى العسكرى لم يتجدد على نطاق واسع إلا لآخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، كما سئرى .

وفى الغالب كانت الجماعات الإسلامية خارج عالم الإسلام تنظم نفسها طبقاً لقواعد الإسلام ، وكانت تعيش في سلام إلى جوار غيرها من الجماعات غير الإسلامية . وهى فى العادة تمتد شيئاً فشيئاً حتى تشمل الإقليم كله ، إلا إذا جاء عامل غير عادى وأوقف اتساع مداها ، كالذى حدث عندما عملت بعض السلطات الاستعمارية على الحد من انتشار الإسلام فيما احتلته من البلاد الأفريقية والآسيوية ، وذلك عن طريق العمل المنظم لنشر المسيحية بواسطة هيئات التبشير المتخصصة ، تؤيدها السلطات الاستعمارية ، أو عن طريق الحد من حرية انتقال الناس بين إقليم وإقليم ، وحركة انتقال الناس هذه كان لها أثر بعيد جداً في انتشار الإسلام في أفريقية وآسيا .

وسنكتفى هنا بمثال واحد من أثر تدخل السلطات الاستعمارية لإيقاف انتشار الإسلام بالقوة . فقد دخل الإسلام جزر الفلبين مقبلاً من شبه جزيرة الملايو ، ومن الجزائر التى تكونت منها فيما بعد جمهورية إندونيسيا المسلمة ، وكان ذلك خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، وانتشر في جنوب جزيرة مئذناو ، وأخذ يمتد شمالاً .

وفى أوائل النصف الثانى من القرن السادس عشر دخل الإسبان البلاد مستعمرين . ولم تكن أقدامهم تستقر فى الجزر حتى وضعوا خطة سياسية وعسكرية لإيقاف تقدم الإسلام بالقوة ، لكى تجرد المسيحية مجالا للانتشار ، فأعلنوا على مسلمى الجنوب حرباً شواء ، وضعوا فيها كل قوى الإمبراطورية الإسبانية أبهام أوجها السياسى والعسكرى فى عصر فيليب الثانى (١٥٢٧ — ١٥٩٨ م) ولم يستطع الإسبان — مع ذلك — القضاء على الإسلام فى جنوب الفلبين ، وإن كانوا أوقفوا تقدمه نحو الشمال .

وهذه الجماعات الإسلامية التى تنشأ خارج نطاق الإسلام وتنظم نفسها وتوسع حدودها تعطيتنا برهاناً ملموساً على أن الأساس فى الوجود الإسلامى كله هو الأمة الإسلامية أو الجماعة الإسلامية ، فهى التى تمثل الإسلام فى كيانها وتنظم نفسها على أساسه ، وهى على هذا صورة الإسلام ومظهره البشرى الملموس ، وليس معنى ذلك أنها تغطله دائماً غملاً صادقاً ، لأن الإسلام — كعقيدة وشرعة وميزان خلفى — مثل أعلى يحاول البشر الاقتراب منه فيما ينشئون من نظم ، وهم قد يوفقون فى الاقتراب منه أو لا يوفقون . ولكن الإسلام يظل بعد ذلك المثل الأعلى والأمل المرجئ والطريق الواسع للسعادة البشرية .

ومن الخطأ البين — نتيجة لهذا — أن يخلط الإنسان بين الإسلام والمسلمين . فالإسلام هو العقيدة والشرعية والقانون الخلفى ، والمسلمون هم مظهر تطبيق هذا كله على واقع حياة البشر ، والتطبيق قد يكون حسناً وقد يكون غير حسن ، قد يكون صادراً عن علم وقد يصدر عن جهل ، وقد يصدر عن نية حسنة وقد يقوم على نية غير سليمة ، أى أنه تخاضع لكل احتمالات الواقع البشرى والطبيعة الإنسانية بغيرها وشرها . وهو فى كل حالة من هذه الحالات يعبر عن تصرف المسلمين أنفسهم لا عن الإسلام ، فإن جماعة المسلمين قد تتصرف تصرفاً بعيداً جداً عن الإسلام ، ومن ثم فإن تصرفها هذا لا يصحح أن يوصف بأنه إسلامى بصورة عامة . ومن هنا فإن التاريخ الذى نقرؤه — وهو جماع تصرفات أجيال المسلمين — لا يصح أن يسمى بتاريخ الإسلام ، لأنه فى الحقيقة تاريخ للمسلمين . وليس بصحيح كذلك أن نقول مثلاً : الفن الإسلامى أو الموسيقى الإسلامية ، على أساس أن هذه من مبتكرات المسلمين ، والأصح أن يقال : الفنون عند الشعوب الإسلامية ، أو موسيقى الأمم الإسلامية ... وما إلى ذلك .

وفد درس بعض الباحثين الأوروبيين المعاصرين الجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعي على أنها « مدينة » بالمفهوم اليوناني (Polis) وبالمفهوم اللاتيني (Civitas) . وفي كلتا الحالتين نجد أن المدينة جماعة متجانسة من الناس ، تسكن مساحة أرضية معينة ، وتبسط سلطاتها عليها ، وتنظم أمورها بنفسها وفق قانون أو عرف تبتكره ، فهي مدينة ودولة في آن واحد City-State . والباحثون الذين أشرنا إليهم يستعملون مصطلح المدينة الإسلامية La Cité Musulmane في دراساتهم للجماعة الإسلامية ، ويدرسون طبيعتها وتنظيمها على أساس من هذا المفهوم . وقد كانت كل من المدن اليونانية والرومانية تحكم أول الأمر بمقتضى قانون عرفي غير مكتوب ، هو تقليد يراعى بكل دقة ، وأساس هذا التقليد أن نظام المدينة إنما هو تعاقد اختياري بين جماعة متجانسة من البشر الأحرار واتفاقهم على أن يعيشوا معاً متساوين في الحقوق والواجبات . وعلى هذا فإن تلك المدن لبست نظاماً فردياً أنشأه زعيم أو قائد وفرضه على أتباعه ، وإنما عي نظام أنشأه ناس أحرار لأنفسهم ، وهذا هو سر قوتها ، لأنها تعتمد على وعي أفراد الجماعة وإيمانهم بأنهم لايد أن يظلوا رجالاً أحراراً لكي يعيشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم . ولابد لهم من المحافظة على قواعد العدل والمساواة والفضيلة لكي يستمر مجتمعهم زاهراً . وأهم فضائل تلك المدن الإيمان بالحرية والشهامة والاستعداد لبذل الروح في سبيل المحافظة على الجماعة .

الجماعة الإسلامية الأولى مجتمع من رجال أحرار :

والحق أن هذه عى الروح التي كانت تعمر نفوس أعضاء الجماعة الإسلامية الأولى ، في المدينة أولاً ثم في جزيرة العرب بعد ذلك . وهذا هو سر الصحة التي ميزت المجتمع الإسلامي الأولى ، فقد كان الناس فيه أحراراً بالفعل ، متساوين حقاً ، وشاعرين بأنهم أعضاء في جماعة فاضلة تسير على هدى دين سماوي عظيم ، وهي مكلفة بالدفاع عن ذلك الدين ونشره في الآفاق . وفي سبيل ذلك هانت عليهم الأرواح ، فكان الرجل منهم يخرج للجهاد وكأنه خارج إلى سفر عادي بخدوه الأمل . وكبرت همهم فصغرت في نظرهم مشاكل الدنيا وأمورها ، فكان الواحد منهم يتفاوض في مصر فطر كالشام أو مصر في بساطة وهدوء وثقة ، لأنه كان يحس في نفسه أنه أهل للتحدث في عظام الأمور واتخاذ قرار فيها ، وكان يدخل بلداً واسعاً كمصر ، فلا يفقد توازنه ولا يطنى ولا يسلب أحداً حريته أو حقه ،

لأن الإنسان الحر لا يحتدى على حرية الآخرين ، ولا يُنزل الناسَ إلا ذليل النفس ، ولا يظلمهم إلا ساقطُ الحمة . بهذا كان يؤمن أحرار الجماعة الإسلامية الأولى .

ومهما كان الرأى فى فتنة عثمان — رضى الله عنه — فهى من بعض وجوها مظهرٌ لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التى كانت أمورُها تسام بها . وسواء وافق الإنسان الثائرين على اعتراضاتهم أو أنكر الطريقة التى تصرفوا بها حيال السلطة الحاكمة ، فإنه لا بد أن يسلم بأنهم كانوا يؤمنون بأن من حقهم أن يسألوا عما لا يفهمونه من تصرفات إدارة الخليفة وأعمال رجاله . حقاً لقد أدى الأمر فيما بعد إلى كارثة الحرب الأهلية ، ولكن الطريق الذى سارت فيه الأحداث شيء ، ومبدأ محاسبة السلطة الحاكمة على تصرفاتها شيء آخر . وهذا المبدأ فى ذاته لا بد منه لكل مجتمع حر ، وهو ضرورى بل واجب ، ولهذا كان جزءاً من شخصية العرفى الحر الذى زاده الإسلام شعوراً بالحرية والأهمية الشخصية .

وقد انتهت فتنة عثمان — كما هو معروف — بتربع معاوية بن أبى سفيان على عرش الخلافة ، وهو أمر لم يكن يتوقعه أحد . وعلى الرغم من أن جمهور المسلمين لم يرضوا عن الطريقة التى وصل بها بنو أمية إلى السلطان وأنهم أبغضوا أساليبهم فى ممارسته ، فقد ظل هناك خيط موصول بين الحاكم والمحكوم ، لأن بنى أمية عرب من صميم الأرومة العربية ، وكان لحلقى الكبار منهم وتصرفاتهم عربية ، ثم إنهم اعتزوا بالعروية والإسلام اعتزازاً صالح الناس معهم ، فتركوا أمر حسابهم على ما خالفوا من قواعد الإسلام إلى الله سبحانه وتعالى ، ومضوا يعملون معهم فى إعلاء شأن الإسلام وبسط سلطانه . فاستطاع الأمويون أن يلبغوا فى هذا الميدان شأواً يقارب الشأوا العُمَري .

ولكن الأمر ساء على أيام العباسيين ، لأنهم — برغم هاشميتهم — لم ينتظروا إلى الجانب الخلقى فى تصرفاتهم التى وصلت بهم إلى الخلافة وثبتت أقدام أول خلفيتين من خلفائهم ، وكان ذلك بعيد الأثر فى نفوس الناس ، لأنه خيب رجاءهم فى صلاح الحكومة . وإذا كان بنو العباس قد عابوا على بنى أمية أموراً فقد ارتكبوا هم ما عابوا ، ونظروا — أولاً وقبل كل شيء — فى أمر سلطانهم فشكّوه بمن أطاعهم طاعة عمياء من الرجال وأجناس المسلمين . ولقد كانت دولتهم عربية بخلفائها وكبار

رجالها وانجاساتها ، ولكن ذلك لم يمنع الخلفاء من الاستعانة بطبقات من الجند المرتزقة ، كالفرس أولاً ثم الترك بعدهم .

وكان العرب قد تفرقوا في الأمصار وأكلتهم الحروب والبلاد المتباعدة ، كما يقول ابن خلدون . فكثرتهم غير العرب في شؤون الدولة وصفوف الجند ، مما أدى إلى تراجع العرب إلى النصف الثاني ودخلهم في جملة الرعية . وقد عسر العباسيون بذلك خسارة كبرى ، لأنهم لم يستطيعوا تعويض قوة العنصر العربي . وقد كان خروج العرب من القيادة السياسية والعسكرية بعد ثورة المأمون على أخيه الأمين هو النهاية الحقيقية للدولة العباسية ، وعلى الرغم من طول عمر دولتهم بعد ذلك ، وعلى رغم كثرة من اعتمدوا عليهم من الفرس والترك ، فإنهم لم يستطيعوا قطع تلك القوة التي كانت لهم عندما كان محيرة رجالهم عرباً ، وذلك صحيح حتى أواخر حكم الواثق على الأقل فيما بين سنتي ٢٢٧ و ٢٣٢ هـ (٨٤٢ — ٨٤٧ م) .

وبرغم تراجع العرب إلى النصف الثاني ودخلهم في جملة الرعية ، ظلوا — لعروبتهم — قادة الناس ورعوس الجماعة في كل أقطار الإسلام ، عدا إيران . فاشتد بهم ساعدُ الجماعات الإسلامية وتأيدت بهم العروبة في صفوف الجماهير ، فأخذت هذه الجماهير تستعرب وتلبس الشخصية العربية في حين أخذ الحكم يفقد طابعه العربي ، برغم عروبة الخلفاء .

وشياً قشياً أنشأ الفرس والترك الغالبون على الدولة كياناً سياسياً لأنفسهم في إدارتها وجيشها ، وبذلك انتقل السلطان والنفوذ الفعليان إلى أيدي غير عربية وإن بقيت الخلافة عربية في مظهرها .

وهنا ، وخلال العصر العباسي الثاني ، ظهر الانفصال بين السياسة وأهلها وبين جمهور الأمة ظهوراً واضحاً ، وسار كل منهما في طريق .

فأما أهل السياسة فلم يوفّقوا — برغم مرور العصور — إلى اكتشاف الخطأ وإلى العودة إلى حكم الشورى الذي هو لباب فلسفة الحكم في الجماعة الإسلامية الأصلية ، وجدوا في أمكنتهم فلم يتطوروا في شيء برغم كثرة دولهم .

وأما الجماعة الإسلامية فقد جعلت ذابها المحافظة على كيانها سليماً والنجاة من

شروط الحكم ، وحرصت كذلك على الحفاظ على الإسلام ، وهو سر قوتها ، وصارت الجماعة هي مركز القوة برغم ما قاسى أفرادها من إعانت الحكم ، وانقضت على ذلك عصور بعد عصور حتى الأزمان الحديثة ، وكلها عصور ضاعت على أتم الإسلام لأنها لم تحقق خلالها ما كان يرجى لها من تقدم .

امتداد العالم الإسلامى نحو الشرق :

على أساس من هذا التصور للحقيقة أحوال الجماعات أو الأمة الإسلامية ، وليس تاريخها وتطور نظامها السياسى ، نستطيع أن نتبع امتدادها واتساع رقعتها حتى صارت إلى الحدود التى هي عليها اليوم . وسندرس بصورة مجملة كيف دخلت الأقطار المختلفة فى حوزة الإسلام ، وكيف كوّنت فى مجموعها ما يعرف اليوم بأنه عالم الإسلام .

تكوّنت نواة الجماعة الإسلامية فى المدينة بعد وصول الرسول ﷺ إليها فى ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة / يونيو ٦٢٢ م ، وبعد فتح مكة سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م شملت الجماعة الحجاز ونهضة ، ثم امتدت خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول ﷺ حتى شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وتلك كانت حدودها عند وفاة الرسول فى ربيع الأول سنة ١١ هـ / يونيو ٦٣٢ م .

وفى أيام أبى بكر (١١ — ١٣ هـ / ٦٣٢ — ٦٣٤ م) فُتحت الحيرة ، وهى جنوب العراق ، وفتح جزء من الأرض الواقعة إلى غرب العراق ، وفلسطين . وقد دارت واقعة أجنادين ، التى فُتحت أبواب فلسطين للإسلام ، فى أول جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م ، وتوفى أبى بكر بعد ذلك بيومين .

وتولى عمر بن الخطاب فى اليوم نفسه ، وبقدومه يدخل عصر الفتوحات الكبرى فى عتفوانه . فقد فُتحت الشام بعد معركة اليرموك (رجب ١٥ هـ أغسطس ٦٣٦ م) ، وهى فخر انتصارات خالد بن الوليد سيف الإسلام . وأتم أبى عبيدة عامر بن الجراح فتح الشام وفلسطين ، فلم تحل سنة ٢٠ هجرية / ٦٤٠ م حتى كانت بلاد الشام كلها قد أصبحت جزءاً من دولة الإسلام . وكان آخر بلادها الكبيرة فتحاً مدينة بيت المقدس (١٧ هـ / ٦٣٧ م) وقيصريّة

(١٩ هـ / ٦٤٠ م) . وقد عقد عمر بعد ذلك مباشرة مؤتمر الجابية التي تقع إلى الشمال من الرومك بقليل ، واجتمع فيها ورجاله وقواده ، وتشاور معهم في خطة العمل المقبل ، وبعد ذلك مباشرة اتجه إلى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه . وبذلك أكد الأهمية الدينية لذلك البلد عند المسلمين ، وأعطى مثلاً للتسامح الإسلامي لا يقبل الجدل ، فقد أراد عمر أن يؤمن المسيحيين في البلد المقدس على دينهم وحريةهم ومقدساتهم ، وأراد أن يؤمنهم كذلك من كل خطأ في التطبيق قد يقع فيه أى مسلم في عصره أو بعده^(١) . وبينما كان عمر في طريق عودته إلى المدينة كان عمرو بن العاص يجتد في السير بقطعة من القوة الإسلامية ليفتحهم حلود مصر وليضيف إلى تاج الإسلام حويزة جديدة .

ولم يكد عمر يستقر في المدينة حتى بلغه نبأ وفاة صاحبه أبى عبيدة عامر ابن الجراح ، عامله على الشام وقائد قواته فيه سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م . ولم يحزن عمر على أحد من رجاله كما حزن على أبى عبيدة ، ذلك الفهري الجليل الطويل النحيل الصموت الذى كسب للإسلام فتوحاً جلية ، وظل بعد انتصاراته العظيمة يعيش في تواضع بالغ أذهل عمر نفسه عندما زاره في البيت الذى اختاره لنفسه في بيت المقدس ، فلم يجد عنده إلا زاداً قليلاً وقُلَّةً فيها بعض الماء . وهو من غير شك نموذج يديع للإنسان العربى المسلم الجديد الذى سيفتح الدنيا ويدخل بها عصرها جديداً . وقد مات أبو عبيدة في طاعون عمَّواس الذى احتمل الألوف من أهل الشام ، ومن بينهم — فيما يقال — عشرون ألفاً من مقاتلة المسلمين ، كان من بينهم يزيد بن أبى سفيان . فأقام عمر على الشام أخاه الأصغر معاوية ، فبدأ نجم عميد بنى أمية هذا في الصعود .

وفي خلافة عمر أيضاً مات خالد بن الوليد ، ذلك القائد العبقري من بنى مخزوم الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية العربية في الجاهلية . وكان خالد قد دخل في الإسلام قبيل فتح مكة ، وتجلت عبقرية في غزوة مؤتة . ثم ظهر كواحد من أكبر العسكريين في التاريخ عندما تولى الفتوح في فارس أولاً ثم في الشام بعد ذلك أيام أبى بكر ، وكسب انتصارات كبرى في أجنادين وفحل ومرج الصفر ، ودخل دمشق ورفع

(١) وعندما صلى عمر خارج كنيسة القيامة حدد بجملة هذا مكان جامع القدس ، وقرر من ذلك الحين أن يعيش المسلمون في حصارى إخوانا في بيت المقدس وفي كل مكان

فيها راية الإسلام ، وأعقب ذلك بالاستيلاء على بعلبك وحمص وحماة ، وبلغ ذروة نصره في معركة اليرموك ، ودخل أنطاكية مظفراً . ثم عزله عمر بن الخطاب لأول خلافته ، فلم تتغير نفسه ولا تأثر ، وإنما صمم وأطاع ، وتخلّى عما بيده ، واعتزل في صمت وجلال حتى توفى في حمص .

وكان تقدم الجيوش العربية في العراق قد توقف بعد الاستيلاء على الحيرة ، لأن الأعمال العسكرية في الشام استغرقت جهد المسلمين كله ، وبخاصة بعد انتقال خالد ابن الوليد إلى الشام ، وقد انتهر الفرس الفرصة ، وأنزلوا بالمسلمين هزيمة الجسر سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م .

وقد أظهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمناسبة هذه الهزيمة حكمة كبرى لا يصل إليها إلا كبار الساسة الذين يعرفون الطبيعة البشرية ، ذلك أن المسلمين الناجين من الهزيمة ركبهم الحجل ، فاستحووا من دخول المدينة ، لأن المسلمين اعتبروهم قراراً من المعركة ، فاضربوا في قبايلهم ، وأدرك عمر أن ذلك لم يكن عن خطأ منهم ، وإنما كآثرهم العدو ، فلم تكن يدهم حيلة ، بعد أن بذلوا أقصى جهدهم ، فخطبهم عمر قائلاً إنهم لم يفروا من المعركة ، وإنما انحازوا إلى فئة ، أى تراجعوا ليتضموا إلى كتلة الجيش الإسلامى ويعاودوا الهجوم ، وقال : « كل مسلم في جبل مئى^(١) ، أنا فئة كل مسلم لقي العدو فقطع بشىء من أمره فأنا له فئة » (الطبرى ٦٩/٤) . وقد قال عمر ذلك تطبيقاً لقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ . وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرًا إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيبٍ مِنَ اللَّهِ وَنَارَ وَاوْدَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . (الأنفال : ١٥ - ١٦) .

وقال عمر لمعاذ القارئ ، الذى كان قد فرم استحياء : « لا تلبّ يا معاذ ! أنا فئتك ، وإنما انحزرت إلى » (الطبرى ٧٠/٤) .

وأهمية هذا القول من عمر أنه اعتبر الأمة الإسلامية كلها جيشاً واحداً : مَنْ أقام في المدينة ومن صدر للغزو في أى وجهه فالأمة كلها في ميدان القتال ، فإذا أصيبت

(١) أى أسى لا تواضع .

حيلة من حملاتها فإن كتلة الجيش — وهى الأمة — باقية لم تنهزم ، ويستطيع أفراد هذه الحملة الرجوع إليها ليصلحوا من شأنهم ثم يعودوا إلى القتال .

وهذا بدوره يفتح عيوننا على تصور عمر للجماعة الإسلامية على أنها جيش واحد ، وظيفته نشر الإسلام وتطبيق مبادئه فى العالم أجمع .

وعاد النصر إلى المسلمين بعد ذلك ، خصوصا بعد أن تولى القيادة سعد بن أبى وقاص ، تلميذ عمر بن الخطاب الذى ترقى فى مدرسته ، حاكما على القائد البدوى : المشي بن حارثة الشيباني ، فكسب المسلمون نصر القادسية العظيم (جمادى الأولى سنة ١٦ هـ / آخر مايو أو أول يونيو ٦٣٧ م) ، حيث استخدم رسم خلاصة تجارب الفرس فى طرق الحرب خلال مئات السنين ، فلم تثبت لقوة صغيرة من الجيش الإسلامى الذى كان يعمر قلوب أفرادها إيمان عميق شامل بالإسلام . وعندما دخل سعد بن أبى وقاص على رأس جيش الإسلام مدينة طيسفون (كتريفون) التى يسميها العرب : المدائن) كان ذلك إيذانا بموت العصور القديمة كلها بالنسبة لغرب آسيا ووسطها وعلامة انهلاج فجر جديد .

وبعد موقعة نهاوند انفتحت أبواب هضبة إيران للحرب فانساحوا فيها ، وهم دخلوها من ناحيتين : من ناحية الموصل بعد أن فتحوه سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م ، ومن ناحية الجنوب ، عندما دخلوا خوزستان ، وهى بلاد عيلام القديمة التى سماها اليونان القدماء سوزيانا ، وهى تقابل الأهواز أو عربستان اليوم ، صادرين إليها بعد انتصار نهاوند من البصرة والكوفة ، وكاننا قاعدنى الانطلاق الإسلامى فى الشرق .

ومن البحرين فتح العرب إقليم فارس ، وهى البلاد المطلة على شمال شرق الخليج العربى وشرقه ، وعاصمته مدينة إصطخر (٢٩ — ٣٠ هـ ٦٤٩ — ٦٥٠ م) .

وأعقب ذلك فتح خراسان ، وهى الربع الشمالى الشرقى لهضبة إيران ، وأهم مراكزها نيسابور وطوس ومرو وهراة وبلخ .

ومن خراسان وقف العرب على أبواب ما يعرف اليوم بأفغانستان .

ومن إقليم فارس فتح العرب مكران ، وهى الساحل الشمالى لمدخل الخليج

العربى ، وتغدد شرقاً حتى تصل إلى حوض نهر السند فى الباكستان الحالية . وكان العرب يسمون هذه الناحية : بلاد مُلتان (٢٢ هـ / ٦٤٣ م) .

وقد غُت فُوح فارس ، أو كل هضبة إيران ، حوالى سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م ، عندما قُتل يزيد جرد الثالث آخر أكاسرة آل ساسان الذين حكموا هضبة إيران والعراق خلال قرابة اثنى عشر قرناً .

وقد قام بهذا العمل الضخم ما يقرب من أربعين ألف عربى ، استقرت بقيتهم فى الهضبة وعمروها ، وعلى أيديهم أسلمت إيران وبدأت تستعرب .

ومن إيران تفتحت الأبواب أمام العرب فى كل وجه ، فمنها فتح إقليم آذربيجان الواسع الذى يمثل اليوم شمالي غربى إيران وجمهورية كاملة من جمهوريات الاتحاد السوفيتى الإسلامية ، هى آذربيجان .

ومن هناك فتح العرب — فيما بعد — بلاد ما وراء النهر ، وهى ما على بحر قزوين شرقاً .

أثر فتح إيران وبلاد الشرق فى تكوين الجماعة الإسلامية :

بعد أن دخلت هذه البلاد الواسعة دولة الإسلام وانضمت إلى جماعته أخذت تلك الجماعة صورة جديدة ، فقد دخلت فى نطاقها شعوب تفوقها أعداداً وثروات . فمثلاً ، إذا كان أهل الشام عرباً ، أو ساميين فى الأصل ، فإن فتح الشام كان زيادة فى أعضاء الجماعة من جنس العرب نفسه أو من أبناء عمومتهم ، أما الإيرانيون فهـ آريون ، ومن يليهم من جهة الشرق ترك ، وأهل أرمينيا أرمـ ، وأهل آذربيجان ترك ، وأهل مكران هـود آريون .

ومعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية لم تعد عربية خالصة ، بل أصبحت أعداد غير العرب فيها أكثر من أعداد العرب . يضاف إلى ذلك أن هذه الشعوب الجديدة أقيمت على الإسلام إقبالا عظيماً . فقد كان بالنسبة لهم نهاية لشعاب التـرون وظلم الأجيال ، وبداية لعصور العدل والرخاء وتحقيق الآمال . فاندفع رجالها فى دغـر اندفاعاً شديداً ، وزالت أمامه الزرادشتية والمناوية وغيرها من عبادات ذمـر التقليدية ، واتخذ الإيرانيون والأكراد وغيرهم الإسلام ديناً قومياً ومحمداً ﷺ نبياً وهادياً وغلصاً للبشر أجمعين ، وتعلقوا به — ﷺ — وبآل بيته تعلقاً شديداً

ورأى العربُ منهم ذلك فاعتبروهم موالى ، والمولى ليس رقيقاً ولا تابعاً ، وإنما هو حليف ترتبط معه برباطة ولاء ، فهو مولاك وأنت مولاه ، والولاء في العرف العربى الأصل وعرف الإسلام لُحمة كَلْحمة النسب ، ولكن كانت للعرب عليهم سابقة للدين وأصالة العروبة ، فهم العضو الأكبر في أسرة الإسلام ، ولهم رئاسة أدبية ومعنوية ، ولكنهم ليسوا سادة لغيرهم ، لأن الإسلام لا يقر سيادة جنس على جنس .

امتداد العالم الإسلامى نحو الغرب :

ومثل هذه المكانة التى احتلتها إيران في الشرق احتلتها مصر في الغرب . وقد بدأ فتحها في أول الحزم ١٩ هـ / منتصف يناير ٦٤٠ م ، على يد عمرو بن العاص ، وانتهى في ذى القعدة ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ م ، ذلك أن مصر مفتاح المغرب وباب السودان ، ومنها يصل الإنسان إلى أى صقع من أصقاع أفريقيا . وقد دخل الأقباط ، وهم أهل مصر إذ ذاك ، الجماعة الإسلامية أهل ذمة ، أى في ذمة المسلمين وحماتهم . وأخذ الإسلام يفتز قلوبهم ، فحولوا — شيئاً فشيئاً — إلى شعب إسلامى عرى . ومن الفسطاط — وهى العاصمة الجديدة التى اختطها للبلاد عمرو ابن العاص بدلا من الإسكندرية — كان على عمرو أن يختار بين مواصلة الفتوح غرباً أو السير جنوباً ، فاتجه غرباً ليستكمل فتح مصر بالاستيلاء على إقليم برقة — وكان إذ ذاك جزءاً من مصر — وقد تم فتحه بعد فتح الإسكندرية بشهور قليلة .

وفي عهد عثمان ، وعلى يد عبد الله بن سعد بن أبى مرشح ، فُتحت إفريقية ، وهى تقابل القطر التونسى الحالى — فُتحت للمرة الأولى سنة ٢٧ هـ / ٦٤٨ م بعد انتصار سَبِيلَة قرب القيروان الحالية .

ثم أُسست القيروان ، وهى أول قاعدة ينشئها المسلمون فيما سيصبح الجناح الغربى لدولتهم ، وقد أنشئت على يد رجل دخل ميدان التاريخ والأسطورة من باهما الواسع ، وهو عقبة بن نافع الفهري ، وذلك بسبب الحملة الغربية التى قام بها خلال المغرب كله فيما بين سنتي ٦١ و ٦٣ هـ / ٦٨٠ — ٦٨٣ م ، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى — في موضع قريب من مصب نهر تنسيفت الذى تقوم عليه اليوم مدينة مراكش — وأدخل فرسة في ماء المحيط الأطلسى وأشهد الله على أنه وصل

براية الإسلام غرباً إلى حد لا يمكنه التقدم بعده . ثم عاد بمن معه من المجاهدين يشق المغرب شقاً . وعند شهوة قرب بسكّرة — في الجزائر الحالية — استشهد في ميدان الشرف حاملاً راية الإسلام ، سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م .

وقد طالت قصة فتح العرب للمغرب وتوالى فيها الانتصارات والهزائم ، حتى قال بعض مؤرخي المغرب إن بلادهم فُتحت وارتدت اثنتي عشرة مرة ، وقد اشتركت جيوش عربية في ذلك الفتح الطويل الذي دام نحو سبعين عاماً لم يدرك المسلمون خلالها يأس ولا تردد ، وقد قادهم فيه قواد أحلاء تفخر بهم أية أمة على الأرض ، وهم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعفبة بن نافع ، ومعاوية بن حُنيج ، ودينار أبو المهاجر ، وزهير بن فيس الجَلَوِي ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصير ، ذلك المولى الطريف الذي نشأ في جو عرفي ودخل في العرب حتى أصبح عربياً في طباعه وتصرفاته وفروسيته وكرمه الذي فاق كل حد ، وفي احتجاله لأشد المتاعب ، وعلى يديه تم فتح المغرب .

ومنه أخذ طارق بن زياد الإذن في دخول الأندلس فاتحاً ، فدخلها في صيف ٩١ هـ/ ٧١١ م ، واكتسح قوات القوط في موقعة وادي لَكَّة (Lago) ، ثم اندفع بمن معه كالسهم المارق ، فدخل طليطلة عاصمة القوط ، وغادى بعدها شمالاً بغرب .

وهنا تخوف موسى بن نصير من أن يكون استرسال قائده طارق مغامرة بالمسلمين ، فاستوقفه حتى يلحق به ، وعبر بنفسه إلى الأندلس ، فافتتح إشبيلية وماردة وقورية ، والنقى وطارق قرب طليطلة ، ثم سار الاثنان معاً حتى بلغا سرقسطة على نهر الإبرو . ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال البُرت — أو الأبواب التي تسمى اليوم بالبُرتيس — ووقف على أبواب فرنسا ، في حين اتجه موسى غرباً فدخل أَسْتُوريس (Astoria) — وهي الإقليم الذي يطل على خليج بسكاية ، وفتح لك وأيبت Oriedo ، ووصل ساحل بسكاية عند نحيخون (Gizon) ، أي أنه أدرك البحر من هذه الناحية ، ثم عاد . وقد أتم هو وفائده فتح شبه الجزيرة في أقل من سنتين .

واستدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى دمشق ، فترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس سنة ٩٥ هـ/ ٧١٥ م ، فقام هذا باستكمال فتح شرق الأندلس

وغربه ، وجعل عاصمته إشبيلية ، وبهذا يكون ثلاثة من رجال المسلمين قد فتحوا بلداً من أكبر بلاد أوروبا فتحاً كاملاً في أربع سنوات ، وهو أمر لا يكاد يصدق حتى إن الكثيرين من مؤرخي الإسبان لا يزالون يبحثون عن سره إلى اليوم .

وزيد في غرابة هذا السر أن الذين قاموا بحبء الفتح الأول مع طارق بن زياد كانوا من البربر الذين أسلموا قبل سنوات قليلة فقط ، وربما كانت هذه من معجزات الإسلام ، إذ كيف يدخل أولئك الأقوام في الإسلام بهذا الإيمان الضخم بعد أن قاوموه مقاومة عنيفة ؟ ! لكنه سر الإسلام وقوته الدافعة التي تنقل المؤمنين به عن صدق من حال إلى حال ، وتبدلهم خلقاً آخر ، وهل هناك أغرب من طارق ابن زياد ، ذلك المولى البربري الذي حمل راية الإسلام والعروبة وغرزه في قلب بلد من أكبر بلاد أوروبا ، فظلت هناك عالية ترفرف وتظل الدول والحضارات ثمانية قرون ؟ !

وهؤلاء البربر — سكان المغرب من برقة إلى طنجة كما يقول المؤرخون — جنس قوي سليم ، نشأ من مزاج عناصر متوسطية كهذه التي تسكن جنوبي أوروبا ، فهم أبناء عمومة الأيبيريين الذين سكنوا شبه جزيرة أيبيريا منذ القدم ، واختلطت بهم عناصر أفريقية خالصة . فهم في شمال بلادهم وجبالها بيض شقر وسكان جبال أصحاء ، وهم في جنوبها بلو رعاة سمر الوجوه ذوو صلابة وبسالة واحتفال للمشاق . وقد انقسموا بحسب مساكنهم إلى :

— خَصَر يزرعون الأرض ويعيشون مستقرين قرب الساحل وعلى سفوح الجبال الحصية .

— وبلو يرعون قطعانهم من الماشية في الصحارى واليساط .
والأولون يسمون عادة بالبرانس ، والآخرون يسمون بالثبر .
وللوهلة الأولى أقبل البربر على الإسلام إقبال من كان يبحث عن سبيل للخلاص فوجدته ، وأصبحوا في زمن مبكر جدًّا مسلمين مخلصين .

وكان أسرعهم استعراياً واندماجاً في جماعة الإسلام قبائل البلو منهم ، وهم المسلمون بالثبر ، وذلك بسبب التشابه الشديد بينهم وبين العرب في النظام الاجتماعي

القبيل وفي أسلوب الحياة . وهم يسمون أحياناً في نصوصنا باسم زناتة أو الزناتية ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم .

أما الحضرة — أو البرانس — فقد تأخر إسلامهم بعض الشيء ، ولكنه عندما تم كان شاملاً وعميقاً ، فأصبحوا من عمدة المسلمين ، وأولئك الحضرة يسمون أحياناً بالصنهاجيين ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم ، وهي صنهاجة . وقد فتح الإسلام للبربر جميعاً الأبواب للصعود في مدارج الرقي بعد أن استعربوا روحاً وفكراً ، فأنشأوا الدول الكبرى بادئين بتولية الأدارسة . وقد حمل عبيها قبائل غمارة وبرغواطة ، وهما من أكبر قبائل الزناتيين في المغرب الأقصى ، ثم أنشأوا دولة الفاطميين ، إذ كان عمادها قبيلة كتامة من الصنهاجيين ، ثم دولة بنى زهرى الصنهاجيين في أفريقية ، وهى ما يعرف الآن بتونس وشرق الجزائر ، ثم دول المغرب الإسلامية الكبرى : دول المرابطيين فالموحدين فالخلفيين فالمرينيين ، وهى دول إسلامية عربية لها في التاريخ العالمى نصيب كبير .

هذه الدول للمغربة الكبرى هى التى أتمت عملية تعريب المغرب كله وأكملت إسلام أهله ، وكان للمرابطيين منهم النصيب الأوفر في دفع الإسلام نحو أفريقية للحدارية الغربية ، على ما سنرى .

أما الأندلس فيبعد أن تم فتحها ظل الفاتحون العرب والبربر يتحسسون طريقهم نحو الاستقرار في ذلك البلد القاصى الذى يبعد آلاف الكيلومترات عن مركز الدولة الإسلامية في دمشق ، حتى دخل عليهم بعد إحدى وأربعين سنة من تمام الفتح حتى قرشى في الثامنة والعشرين من عمره ، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، وكأنه شخصية من عالم الأساطير ففزت إلى عالم الواقع ، فأنشأ — بجهد وبمسألة وقدرة قادرة تدعو إلى الإعجاب — دولة من أكبر دول الإسلام ، هى الدولة الأموية في قرطبة سنة ١٢٨ هـ/ ٧٥٦ م . وقد بلغ من تعجب العرب ، معاصريه ، مما عمله ، أن لقيه معاصره وعصمه أبو جعفر المنصور خطيفة بنى العباس بـ ٥ صفر فرمى .

وقد عثرت دولة بنى أمية في الأندلس ٢٧٤ سنة ، أى قدر ما عمرت دولة بنى أمية في المشرق ثلاث مرات . ومن الطريف أن المؤرخين لا يذكرون من هذه

السنوات كلها إلا ٢٧ سنة من سنوات الحمل والاضمحلال . أما بقية تاريخ هذه الدولة من قيامها سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦ م إلى نهايتها سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م فكانت عصور قوة وتقدم وعمل حضارى مجيد .

وقد ضعف أمر الأندلس بعد ذلك بسبب اختلاف الرؤساء ، وضياح السياسة ، والحاجة إلى ذلك الطراز من الرجال الذين يوحدون الصفوف ويقودون الناس إلى عظام الأمور ويسرون بالشعوب إلى الرخاء والسلام . وقد زالت من الوجود خلافة بنى أمية في قرطبة في يوم شتاء حزين هو ٢٩ من المحرم سنة ٤٢٢ هـ/٣٠ ديسمبر ١٠٣١ م ، وما أسرع ما أقبل أعداؤها من الشمال يتهبون فرصة الانقسام وضياح الحزم بين المسلمين ، فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، وسقوطها ضاع قلب الأندلس ونحو ثلث مساحتها . ثم توالى الضياح حتى سقطت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في الأندلس ، في يوم شتاء حزين آخر من شهر ربيع الثانى سنة ٨١٧ هـ/يناير ١٤٩٢ م .

وبعد ذلك بخمسة أشهر — في شهر رمضان ٨٩٧ هـ/مايو ١٤٩٢ م — خرجت من ميناء سان لوكر San Lucar قرب إشبيلية السفن الثلاث التى حملت كولومبس إلى الغرب لتعثر في طريقها بأعظم مفاجأة عرفها البشر في تاريخهم الطويل ، وهى العالم الجديد .

وقد كان ذلك الكشف — الذى وصل إليه كولومبس بفضل تجارب العرب وعلومهم التى درسها فى الأسيونة وإشبيلية — حذًا فاصلا فى تاريخ البشر أجمعين .

أما صقلية فكان أمرها أهون من أمر الأندلس ، إذ إن سلطان الإسلام لم يستقر فيها على صورة ثابتة منذ فتحها سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م على يد القاضى الفاتح أسد ابن الترات الذى كان عندما تولى الفتح يناهز السبعين سنة ، إلى سقوطها فى يد النورمان سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م .

وهذان القطران — الأندلس وصقلية — هما الوحيدان اللذان فقدتهما الإسلام فى تاريخه الطويل ، ومع ذلك فقد قام كل منهما بدور حضارى هائل . فمن طريق الأندلس وصقلية انتقل أكبر جانب من علوم العرب ومعالم حضارتهم إلى الغرب الأوروبى ليصب فى تيار الحضارة العالمية . ومن المسلم به أن حضارة العرب الراحلة

لم ينشئها أهل الغرب وحدهم ، وإنما هي شجرة الحضارة الإنسانية التي نشأت أول ما نشأت في مصر وبلاد الرافدين وعلى ضفاف أنهار الهند وسهول الصين ، وتجمعت حصيلتها بعد ذلك في أيدي اليونان والرومان . ثم انتقلت إلى أيدي العرب فحملوا مشعلها ستة قرون متوالية ، ومن أيديهم أدخلها أهل الغرب ليضيئوا إليها بدورهم ، فهي — على هذا — حضارة إنسانية عامة ساهمتنا نحن فيها بأكبر نصيب . والذين ينظرون اليوم إلى حضارة الغرب على أنها حضارة غريبة عنا إنما يطمطون أجدادنا — من مصريين قدماء وعراقيين قدماء وعرب جاهليين ثم عرب مسلمين — نصيبهم الكبير في بناء صرح حضارة اليوم والغد .

وكان انفصال الأندلس وصقلية عن جماعة الإسلام من أقوى أسباب ضياعهما ، فعندما اشتدت المعركة على مصر الأندلس من ناحية وصقلية من ناحية أخرى لم يهتم أحد في عواصم الإسلام المشرقية بما يجري في هذين البلدين الإسلاميين لانقطاع وسائل الاتصال . ولقد تحرك أهل المغرب الأقصى لتجدة الإسلام الأندلسي بعد أن كان الداء قد أعزل ، وكان أول من تقدم بذلك المرابطون ، وقد بذلوا — هم ومن جاء بعدهم من الموحدين وبنو مرين — جهداً عظيماً في سبيل الحفاظ على الأندلس ، ولكن هذه الدول لم تستطع أكثر من تأخير النتيجة المؤجلة ، وقد خسرت هذه الدول في ميدان الجهاد الأندلسي خيرة رجالها ، وكانت هي في ذاتها دولاً حديثة النشأة ضعيفة الكيان الداخلي فأبطلها الجهاد في الأندلس وبجهود المحافظة على كيانها في بلادها ، واستنفدت ذلك عصارة الحياة من كيانها فحقت كل منها وهي بعد في عصر الشباب من تاريخها .

اعتماد الإسلام في أفريقية : المدارية والاستوائية :

ومن المغرب الأقصى أخذ الإسلام طريقه إلى أفريقية المدارية ، وكان أصحاب الفضل الأول في ذلك المرابطون ، أصحاب الدولة المجاهدة المشهورة التي ذكرناها . فإن هذه الدولة قامت على حركة جهاد ديني قادها رجل فريد في بابهِ فوطيحيوس سياسي وديني ، يسمى عبد الله بن ياسين (توفي سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) وأقامها على أكتاف أفراد قبائل لمثونة ومسوفة وجندالة وما إليها من قبائل الصنهاجين الذين كان يعمر قلوبهم الإيمان والرغبة في الجهاد في سبيل الله و « الرباط » على حدود

دار الإسلام لحمايتها من عدوان دار الحرب عليها ومد رواقها إذا وجدوا لذلك سبيلا . وقد تحولت حركتهم إلى دولة ، واستطاع رجالها إنشاء بلدة مراكش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . وبعد إنشاء هذا البلد — الذى يعد من أجمل مدائن الإسلام وأبعدها أثراً في تاريخه — انقسمت دولة المرابطين قسمين :

قسم اتجه شمالاً تحت لواء يوسف بن تاشفين ، وهو الذى وجد شمال المغرب الأقصى ، وعبر إلى الأندلس وساهم في الجهاد فيه وكسب انتصار الزلاقة المشهور سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م .

وقسم قاده أبو بكر بن عمر واتجه جنوباً بحذاء ساحل المحيط فوصل إلى أحواض أنهار السنغال وغمبيا وغينيا ، وبدأ بنشر الإسلام بين أهلها .

وقد كان هذا فتحاً لباب واسع من التوسع الإسلامى في هذه النواحي من أفريقية ، إذ إن تلك الدفعة المرابطية فتحت أبواب أفريقية المدبرة والاستوائية للإسلام ، فنهضت في أثر المرابطين جماعات من المؤمنين المتحمسين لدينهم عمل أفرادها على نشر الإسلام بين الأفريقيين وتعريفهم بمبادئه .

وكما كان المرابطون أعضاء جماعة دينية مجاهدة ، فكذلك كان معظم الذين عملوا على نشر الإسلام في هذه النواحي من بعدهم أعضاء في جماعات دينية من طراز آخر تعرف بالطرق الصوفية . وهى طرق صوفية تختلف في نظامها وأهدافها وطريقة عملها عن الطرق الصوفية التقليدية التى نعرفها أو نقرأ عنها . فهى جماعات من المتحمسين الذين يوجهون همهم ونشاطهم إلى نشر الإسلام خارج حدوده وإلى تعميق الإيمان في قلوب الجماهير داخل حدوده . ولا تقتصر جهودهم على الاجتماع مع الولي أو الشيخ أو الالتقاء في مجالس ذكر يرددون فيها الأوراد والأذكار والرفائق والأحزاب على نغم الموسيقى أو بدونها ، بغية الوصول إلى « الحال » أو « الوجد » ، أى نشوة الصفاء النفسى التى يحسها المرید ، إذا أشرقت نفسه بنور الألوهى في رأيهم ، وإنما هم مجاهدون أيضاً يعملون على كسب الناس للإسلام وتنظيمهم على أسس الأخوة الإسلامية ، أى أنهم صوفية عاملون على نشر الإسلام وتوسيع نطاقه ، صوفية مناضلون .

وهذا الطراز من الصوفية الدعاة أو المجاهدين يكونون في الغالب من أهل القرى

والخللات النائية في الصحارى ، ممن تتوقف حياتهم على التجارة والقوافل — فهم أهل بادية وشظف وصبر وإيمان ومال قليل ، وطبيعة حياتهم تستلزم وحدة تجمعهم ونظاماً يرتب أمورهم ، ورياسة روحية توحد صفوفهم وتمنحهم قوة معنوية تعينهم على حياة الصحراء والرحلة في رمالها ، وسلطة زمنية — أيّاً كان مستواها وشكلها — تنظم أمورهم وتضمن سلامة أموالهم . وهذا كله يبيته لهم انضمامهم إلى مريدى قطب صوفى مثل أبى مدين شبيب بن الحسين الأندلسى (٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م — ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م) أو محمد بن عبد الرحمن الجزولى (توفى فيما بين سنتى ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م و ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م) أو أحمد بن محمد التيجانى (١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م — ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م) .

في كل جماعة من هذه الجماعات نجد للمريدين أو الأتباع أعضاء في نظام يقوم على رأسه رئيس دينى يسمى : الشيخ ، يساعده « خليفة » ويعاونه « مقدمون » يرأسون المريدين . وهذا التنظيم ينتشر أفضى عن طريق الزوايا التى ينشئها رجاله في الواحات والأرياف . ولكل زاوية رئيس . هو المقدم ، وقد يصبح بدوره شيخاً إذا اتسعت الزاوية وزادت أهميتها . و « البركة » التى يقول الصوفية إن الله سبحانه وهبها لمنشئ الطريقة تنتقل إلى الأتباع وفق نظام مقرر . وفي كل زاوية تعقد حلقات الذكر في الليل ومجالس الدروس في النهار .

ويهما في موضوعنا هنا الصوفية الجوالون والمجاهدون من هؤلاء ، وهم في الغالب تجار يخرجون بتجارعتهم مع القوافل ، ويدعون الناس للإسلام في أثناء ذلك ويكسبونهم إليه . وعندما يصلون إلى مركز من مراكز التجارة يجتمعون وإخوانهم من أتباع طريقتهم ، فإذا كثر العدد أنشأوا زاوية ، وهى مسجد صغير ومركز دينى في الوقت نفسه . وعلى مر الأيام تتكون شبكة واسعة تنظم الألواف من الأتباع أو المريدين ، وقد يسمون الأنصار .

وهؤلاء ينشئون فيما بينهم ما يشبه الرابطة التجارية والاجتماعية ، فيختص بعضهم بعضاً بالمعاملة والاتيان والثقة والمصاهرة أحياناً . ومن أراد مشاركتهم مزايا رابطتهم فليدخل فيهم ، وإذا لم يكن مسلماً فلا بد أن يسلم أولاً . وعن هذا الطريق أسلم الألواف بعد الألواف وانتشر الإسلام في كل بلاد أفريقية الغربية الإدارية والاستوائية حتى حوض النيجر ، وقد ظهر من بينهم زعماء سياسيون وفاتحون كبار ، أنشأوا

دولا إسلامية كان لها هي الأخرى أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الأفريقية .

هنا في أفريقيا المدارية نجد أمثلة كثيرة لانتشار الإسلام وتكوينه جماعات إسلامية خارج نطاق بلاد الإسلام ، وهذه الجماعات تكون أول الأمر كالجور متعزلة في دار الحرب ، ثم تتسع رويداً رويداً حتى تشمل بلاداً بأسرها .

وهذه الجماعات — التي لا يؤيدها نظام سياسي — تنظم نفسها على قواعد الإسلام وأخلاقه ، كما فعلت الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة ، والناس فيها يتعاملون على أساس قواعد المروءة الإسلامية . والذين هو الرباط الذي يجمعهم ، وهو الوطن الكبير الذي يلم شملهم ، وهو القانون الذي يحكمهم ، وهم يحسون أن الله سبحانه يرعاهم بفضل وعنايته ، ولهذا فقلما تحتاج هذه الجماعات إلى سلطان سياسي كبير أو بالغ القوة يؤيدهم ، لأن السلطان الديني والأخلاق أقوى وأبعد أثراً من أي سلطان سياسي بالنسبة لهم ، وإلى هذا تعزى القوة الكبيرة التي يمتاز بها المرابطون أو رجال الطرق هناك . وتحكي الحكايات الكثيرة عن عجائب ما كان يتم على أيديهم من إدخال الناس في الإسلام ، فإن بعضهم قام وحده بما لم تقوم به بعثات تبشيرية ضخمة .

وعن طريق الطرق الصوفية أيضاً انتشر الإسلام فيما يعرف اليوم بجمهورية تشاد وغرب السودان النيلي ، قديماً من قَزَّان أو من مصر . وإن الإنسان ليندهش عندما يتبين ضخامة الأثر الذي كان لبلدان إسلامية صغيرة مثل الأبيض والفاشير (في السودان) ، ومرزق في إقليم قَزَّان في ليبيا ، وإسنا في صعيد مصر ، وملقاً في شبه جزيرة الملايو ، فإن هذه المدن الصغيرة ومساجدها المتواضعة وشيوخها المجتهدين وأتباعهم أضافوا لعالم الإسلام أقطاراً بأسرها . فكل ما يقع جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا من بلاد الإسلام إنما هو من إنشاء أولئك المجاهدين الصامتين ، وكل ما يلي الهند شرقاً إنما هو من عمل هذه الجماعات الإسلامية المتطوعة . هنا ، وعندما ننظر إلى الخريطة ، نرى أن هذه الجماعات قد أضافت إلى عالم الإسلام نحو نصفه ، مساحة وسكاناً .

في هذا النصف يدخل السودان ، ذلك البلد الإسلامي الفسيح الذي يمتد من حدود مصر الجنوبية إلى جنوبي خط الاستواء . لقد نشر الإسلام في ذلك القطر الشاسع عرب مهاجرون من جنوبي مصر ، هم قبائل الكنوز أو أبناء الكنز ، وساعدت في

هذه العملية جماعات أخرى من العرب كانت تعبر البحر الأحمر باستمرار إلى الشاطئ الأفريقي. وقد ظهر السودان بمظهره الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، ثم هاجرت إلى السودان جماعات عرب جهينة، وقد أتوا أصلاً من الحجاز، ودخلوا مصر مع الفتح وقد اشتركوا مع غيرهم من العرب في غزوة البجاة في حوالي منتصف القرن التاسع الميلادي وقد انتقلت غالبية جهينة إلى الصعيد، ثم اشتركوا في إسقاط مملكة النوبة المسيحية وزحفوا على أنقاضها إلى كردفان ودارفور، كما تحركوا جنوباً متتبعين مجرى النيل وروافده تجاه الحبشة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهاجرت إلى السودان كذلك بطون من كتانة وقرميش وربيعة — قادمين من مصر، ومن مصر انتقلوا إلى السودان وانضموا إلى جهينة في حملاتهم على البجاة. وقد استقرت ربيعة على حدود النوبة شمال السودان، واحتلّطت بالنوبيين، وإليهم ينسب بنو كنز (الكنوز الذين ذكرناهم) وكانوا يسكنون وادي النيل فيما بين حلفا وأسوان. وانضمت إلى أولئك العرب جماعات من المهاجرين العرب عبر البحر الأحمر من الجزيرة مباشرة. ثم هاجرت حديثاً نسبياً — قبائل عربية مثل الرشيدة، واستقرت في الشمال الشرقي للسودان، لأن تعريب السودان تم عن طريق مصر. فعن طريق النيل وصلت كبريات الهجرات العربية من الشمال إلى السودان، وهذا يؤيد الحقيقة القائلة بالوحدة السكانية والحضارية لوادي النيل، وليس من الضروري — نتيجة لذلك — أن تقوم وحدة سياسية، فإن الوحدة السياسية شكل من أشكال التعاون ليس إلا، أما الأهم فهو الوحدة الحضارية والسكانية.

ومن الممكن أن تكون بعض الهجرات العربية إلى غرب السودان قد جاءت من إفريقية أو المغرب عموماً، وقد يكون هذا هو أصل ما يقال من أن سلاطين دارفور ينحدرون من سلالة بنى العباس، ممن هاجروا إلى المغرب بعد تدهور الدولة العباسية في العراق من إفريقية هاجروا إلى دارفور. ومن المؤكد أن بعض الهلالية الذين هاجروا إلى المغرب انتقلوا بعد ذلك إلى إقليم دارفور في غرب السودان ولكن هذه كلها كانت هجرات قليلة الأعداد، أما الهجرات الضخمة التي عرّيت السودان فقد جاءت عن طريق مصر.

ومن الصعب — على أي حال — أن نتحدث بصيغة التوكيد عن أصول الهجرات العربية

إلى السودان لكن من المؤكد أن معظمها أتت من مصر ، ووصلت إلى السودان بعد إقامة طويلة في مصر ، أى بعد أن تجمعت إلى حد ما .

ومهاجرة العرب من جنوب شبه الجزيرة وشرقها — وبخاصة اليمنيين والحضارمة والعمانيين — هم الذين نشروا الإسلام في الصومال وما يعرف اليوم بتنزانيا وغيرها من بلاد شرق القارة الأفريقية . وهؤلاء العرب كانوا يفتدون إلى هذه السواحل الشرقية في غالب الأمر تجاراً ، وهم دون شك من أمهر تجار الأرض وأقدر رجال الأعمال . ولو وجدوا في الأعصر الماضية حكومات رشيدة واعيّة لمصالحها ومصالح الناس لكان لهم في تاريخ أفريقية وجنوب آسيا والمحيط الهندي عامة أثر أعظم مما لهم بالفعل ، ولما استطاعوا أن يتركوا في التجارة العالمية أثراً لا يقل عن أثر الهولنديين مثلاً .

ولكن في العصور الوسطى كان الكثير من دول العالم الإسلامي عوائق للتقدم وعقبات في طريق النشاط البشري وحرراً على القيم الخلقية التي يقوم عليها صلاح المجتمعات الإنسانية ، ولولا هذا الطراز من الحكومات لكان للإسلام في الدنيا شأن هو أضعاف شأنه اليوم . فإن الجماعات الإسلامية في الغالب جماعات فاضلة ، وليس كذلك الكثير من الدول الإسلامية في العصور الماضية .

ولقد أوغل أولئك العرب في أفريقية الاستوائية من ناحية الشرق ، وكسروا نطاق الغابات الاستوائية واغترفوه ، والشائع أن ذلك النطاق يعد حاجزاً مانعاً لا يمكن للإنسان عبوره ، فاخترقه العرب وتحملوا مشقة ذلك دون كبير عناء ، ووصلوا إلى حوض الكونغو ، وعندما وصل الأوروبيون إلى هذه النواحي وظنوا أنهم اكتشفوها وجدوا أن العرب كانوا قد اكتشفوها قبلهم بأزمان متطاولة ، فأعلنوا على جماعات العرب هناك حرباً شعواء ، ودافع العرب عن تلك النواحي دفاعاً طويلاً ، وخلال القرن الماضي كله تقريباً كان عرب أفريقية هم أبطال الدفاع عن الحرية الأفريقية ، ولهذا أعلن الأوروبيون عليهم حرباً دموية وأخرى غير خلقية ، فاتهموهم بأنهم تجار رقيق وأنهم مستعمرون ، وكل العالم يعرف اليوم أن تجارة الرقيق في أفريقية كانت تجارة أوروية وأن استعمار أفريقية كان أوروبياً . ولم يبدأ الاستعمار الشامل لأفريقية للمدارية والاستوائية إلا بعد أن قضى المستعمرون بالحديد والناز على مقاومة العرب والمسلمين ومن انضم إليهم من أهل أفريقية . ولو فطن الأفريقيون جميعاً لعرفوا أن قومياتهم لا معنى لها ولا سند بدون الإسلام .

ومع العرب يسير الإسلام دائماً ، ففى نواحي أفريقية الاستوائية : فى جمهوريات تنزانيا وملاوى وكينيا وأوغندا وزامبيا وبوروندى والكونغو وغيرها ، وكذلك فى موزمبيق وأنجولا — فى كل هذه البلاد دخل الإسلام وأنشأ جماعات ذات كيان إسلامى مستقل داخل كيان الجماعة المحلية الكبيرة . وهذه الجماعات كانت مستقلة فى الغالب ، لأنها كانت أكثر الجماعات المحلية انتظاماً وتقدماً ، إذ كانت لها مساجدها ، وهى دائماً مراكز دين وثقافة وعلم ، ولها شريعنها السماوية وقضاها ، وأفرادها متعلمون أو يتقودهم متعلمون ، ولهذا فقد كانت تلك الجماعات فى ازدياد مستمر ، فلما استقلت تلك البلاد الأفريقية وقامت فيها الحكومات القومية وهى حكومات نصرانية فى الغالب أقامها المستعمرون وأعدوا رجالها قبل رحيلهم فكانوا — يا للغرابة — أعداء للإسلام بطبيعة ثقافتهم وأديانهم وما ملأ به المستعمرون قلوبهم من كراهية الإسلام . ولكن هذا العداء للإسلام يخف شيئاً فشيئاً عندما يتبين للحكومات هذه البلاد سخف العداء للإسلام دون مبرر . وكانت هذه الحكومات القومية المسيحية قد بدأت بالقضاء على استقلال الجماعات الإسلامية والحد من نشاطها ، ومن تراث عصور الاستعمار أنها تركت فى معظم هذه البلاد حكومات مسيحية برغم أن أكثرية السكان فى معظمها إسلامية .

وهكذا نرى كيف تكونت المجموعات الإسلامية الأفريقية بفضل متطوعين ، أغلبهم جند مجهولوا الأسماء : بعضهم مرابطون وصوفيون مجاهدون فى سبيل الله ، وبعضهم تجار اجتذبوا الناس إلى الدين الحنيف بالمثل الطيب والتقدمية الحسنة وإقامة رابطة تعاون وأخوة بين المسلم الوافد والمواطن المقيم . فإذا عرفنا أن عدد المسلمين فى أفريقية للدولة والاستوائية يعدل عدد المسلمين العرب الأفريقيين ، تبيننا كيف أن للإسلام دائماً من القوة الذاتية ما يجعله ينشر نفسه بنفسه وينشئ جماعاته بما يقدم لها من عناصر البقاء والنظام والقوة .

والآن ، لننظر إلى الجناح الشرق لدولة الإسلام لثرى كيف امتد الإسلام فيه .

امتداد الإسلام فى آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية :

وصلنا فيما سبق بالإسلام إلى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة الهندية المعروف ببلاد السند أو المثلثان ، وهو اليوم جزء من جمهورية الباكستان . كان

ذلك خلال العقود الأخيرة من القرن الهجري الأول / النصف الأول من القرن الثامن الميلادي .

هنا وقفت حدود دار الإسلام مائتي سنة ، لأنه بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م انتهى عصر الفتوح الإسلامية فيها ، فإن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوح أو نشر للإسلام خارج حدوده وإنما كانت دولة محافظة على الموجود عن طريق نظام الحملات الدفاعية أو التأديبية عرفت باسم « الصوائف » و « الشوائف » ، أى حملات الصيف وحملات الشتاء ، وهو نظام عرفه الأمويون إلى جانب نشاطهم الواسع في الفتوح . وهذه الحملات كانت محدودة المدى ، سواء من حيث الحجم أو الزمن الذي كانت تستغرقه .

وعلى أى حال فقد كان الفرق شاسعاً من كل وجه بين « جند بنى أمية » من العرب ، الذين كانوا يخرجون في رحلة حرب طويلة يقطعون فيها آلاف الكيلومترات ويستشهد منهم خلالها مئات بعد مئات ، ويستمر الباقون في السير دون خوف أو ملل أو ضجر ، و « جند العباسيين » مختلفي التكوين ، إذ كان معظم رجاله من المرتزقة من غير العرب ، فقد كان أقصى ما يصل إليه هؤلاء الجند العباسيون مائة كيلو متر في آسيا الصغرى لا يعملون خلالها أكثر من تخريب مدن صغيرة ونهب ضياع أو إحراق مزارع والفوز بغنيمة كبيرة أو صغيرة والعودة مسرعين بالمعطاء .

ولكى يتجدد حماس الفتوح كان لابد من شعب سليم الطبع ، على الفطرة ، كما كان العرب الأولون ، هؤلاء وجددهم الإسلام في الأتراك الذين كانوا يسكنون الجزء الجنوبي الشرقي من التركستان وهضاب أفغانستان وجبالها . وقد سبق أن تكلمنا عن الأتراك^(١) .

والأتراك الذين يعنينا أمرهم هنا كانوا رجالاً أشداء يعيشون رعاة وحيادين في هضابهم وجبالهم العالية عندما وصلهم الإسلام ، قَامَنُوا به إيمان العرب الأولين . وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، نبغ فيهم زعيم يسمى أَلْبُ — بَكِين ، دخل في خدمة السامانيين ، ثم علا أمره فاقاموه حاكماً على

(١) من ٣٦ ما تقدم .

خراسان ، ثم اختلف معهم فاتجه إلى غزنة ، في أقصى بلاد الإسلام شرقاً ، وأنشأ لنفسه — مع إخوانه الأثراك — دولة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م طال عمرها حتى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، وامتد سلطانهم حتى شمل كل أفغانستان وإقليم البنجاب وهو حوض نهر السند .

وهذه هي الدولة الغزنوية التي تعد من دول الفتح في تاريخ الإسلام ، مثلها في ذلك مثل الدولة المراتية في الجناح الغربي للدولة الإسلامية . ومن ملوكها فاتحون عظماء مثل سبكتكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ — ٩٩٧ م) ثم ابنه محمود (٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٩ — ١٠٣٠ م) ، وهو من أعظم الفاتحين في تاريخ الإسلام ، فقد أضاف بجهاده إلى عالم الإسلام قدر ما أضيف أيام عمر بن الخطاب في المساحة تقريباً ، إذ إنه فتح شمال الهند كله بما في ذلك نهر الكنج إلى مصبه ، ووصل بالإسلام إلى سفوح جبال الهيمالايا شمالاً وتسلق مضيق الدكن جنوباً . في كل هذه المساحة الشاسعة زالت الوثنية وحلت محلها عبادة الله الواحد الأحد ، وتلاشت الأصنام وقامت مكانها المساجد ، وكان محمود الغزنوي وفياً لوحدة الإسلام ، فاعترف بالنيحية للخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) وتلقى منه التفويض وخُلع السلطنة ، ولقبه الخليفة في خطاب التفويض بلقب : الأمير . وقد عرف محمود بن سبكتكين « بالغازي » ، وهو أول من حمل هذه التسمية ، وكان يقال إنه أول من تلقب بالسلطان في تاريخ الإسلام ، ولكن الحقيقة أن أول من حمل لقب السلطان كانوا هم السلاجقة بعد ذلك .

وفي أيام الغازي محمود بن سبكتكين أصبحت غزنة من العواصم العظام في بلاد الإسلام ، فازدانت بالمساجد الشامخة والمباني الرائقة . وفي بلاطه ظهر علماء كآبي الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وهو العلامة الموسوعي الذي صلب الغازي في حملته إلى الهند ، وأبي القاسم الفردوسي المتوفى عام ٤١١ هـ وهو الشاعر الإيراني الأكبر ومؤلف الشاهنامة — أي كتاب الملوك — وهو ملحمة شعرية تبلغ ستين ألفاً من الأبيات ، تحكي وقائع أبطال الإيرانيين وملوكهم في عصر الساسانيين خاصة ، وهي تعد من عيون شعر الملاحم في الأدب العالمي . ومن علماء عصره كذلك أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي المحدث المشهور المتوفى عام ٤٥٨ هـ . وكان يكتب بالعربية والإيرانية ، وكتابه المشهور « السنن الكبرى » يعد من الكتب الرئيسية في الحديث الشريف .

ولكن ضخامة الدولة الغزنوية كانت السبب في تفككها ، فانقسمت إلى ممالك يحارب بعضها بعضاً . وبها منها هنا ما كان في الطرف الشرق لأفغانستان وشمال الهند ، فقد كانت عاصمة الغزنويين في شمالي الهند مدينة لاهور . وفي منطقة لاهور نشأت دولة الغوريين ، وهم منسوبون إلى الغور ، من أقاليم جنوبي أفغانستان ، ويرجع نسبهم البعيد إلى أصل إيراني ، ولكن جندهم كانوا أتراكاً وإيرانيين ثم هنوداً فيما بعد . وقد تمكن أمراء الغوريين من إخضاع منافسيهم في شمالي شرق الهند ، ثم وسعوا حدود بلادهم وجعلوا عاصمتهم مدينة دهلي التي تسمى الآن دلهي . وعندما اتسعت دولتهم اتخذ أمراؤهم لقب السلاطين ، وأولهم بهاء الدين سام الذي حكم من ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وهو بعد مؤسس الدولة ، وجاء بعده من كبار سلاطين الغوريين علاء الدين سام الذي حكم ابتداء من سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م ، ثم غياث الدين بن سام وهو الذي نقل عاصمة الدولة إلى دهلي .

وهؤلاء السلاطين ثبتوا الدعائم لدولة الإسلام في شمالي الهند . وغياث الدين هو الذي تمكن من إعادة توحيد كل ما كان خاضعاً للغزنويين ، سواء في أفغانستان أو في الهند ، وإليه يرجع الفضل في إنفاذ دولة الإسلام في الهند من الضياع . فقد كان سلطاناً عظيماً وحاكماً عادلاً ومسلماً مخلصاً ، إلى جانب امتيازاته كفاتح وغارب قضى أحسن سنوات عمره في ميادين الجهاد . وعندما توفي سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠٢ م كانت دولة الغوريين قد أصبحت إمبراطورية واسعة تضاهي دولة الغزنويين وتمتد من غراسان إلى حدود بورما وهضبة الدكن .

وقد فتح سلاطين الغوريين أبواب هذه البلاد الواسعة أمام الإسلام ، فوجد ميداناً فسيحاً خصباً انتشر فيه وأزال الديانات الوثنية والهندوسية في معظم نواحي شمالي الهند ، حتى أصبح الإسلام هو الديانة الغالبة في البنغال والنواحي الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة الهندية حتى جنوبي حيدر آباد ، وعندما انتهت أيامهم تركوا الميدان مهجداً بعدهم لسلاطين دولة المغل .

ولقد حدث بعد أيام غياث الدين بن سام أن تفككت عرى دولة الغورية ، ولم تثبت لدولة الإسلام تلك السيادة التي كانت لها من قبل ، وظل ذلك التفكك زمناً طويلاً ، حتى أتيح لبلاد الإسلام في الهند وأفغانستان التجمع من جديد هل يد

المغل — الذين يسمون أيضاً بالمغول — وهم خلفاء تيمورلنك الصغرى التركى الطائر
الصيت .

وقد حدث بعد موت تيمورلنك أن تفككت إمبراطوريته الواسعة ، وكانت
إمبراطورية بدوية قليلة النظام ، قامت على اكتشاف جماعات من الصغار الأتراك
والمغول والتركمان ، وهى واحدة من عدد من الإمبراطوريات البدوية التى نشأت
فى قلب آسيا ، فى الفياق المترامية شمال جبال قرغورم والهندكوش . وهى أراض
واسعة ذات أعشاب ، ولهذا تسمى الإمبراطوريات التى نشأت فيها : إمبراطوريات
الأعشاب ، وأهمها دولة المون التى قادها أتيلا ملكه فى القرن الخامس الميلادى ،
ودولة جنكيزخان ، ثم دولة تيمورلنك أو تيمور الأعرج . هذا ، وكان تيمور قد
دخل الإسلام دخولاً سطحياً . ولكن خلفائه حاقوا بإلحاقات المغول فى إيران
فاشتد ساعدتهم بهذا الخلف . وكانت الحرب دائرة بين أبنائه وأحفاده ، إلى أن ظهر
من أولئك الأحفاد ظهر الدين محمد الذى عرف باسم بابر .

كان بابر هذا من أولئك القلائل الذين ولدوا فى طالع السعادة ، كما يقولون ،
فإن أباه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنك ، توفى وهو بعد طفلاً ، وكاد العرش
ينتقل إلى واحد من عمِّيه أحمد ومحمود . ولكن الموت غلبهما ، فصفا له الجور ،
واستطاع عندما شب أن يجمع المغول والأتراك تحت لواء واحد .

بدأ بابر حكمه أميراً على فرغانة من بلاد أفغانستان ، وحاول توسيع رقعة مملكته
هناك فلم يستطع فغبر مع رجاله جبال الهندكوش وأفضى إلى سهول الهند الشمالية ،
ونجح من فتح لاهور واستولى على أكرا — لو أجرا — وجعلها عاصمة ملكه ،
ونجح بعد حروب طويلة من توحيد شمال الهند كله تحت سلطانه واتخذ لقب
بادشاہ ، وكان معاصراً لاثنتين من كبار سلاطين المسلمين ، وهما إسماعيل الصفوى
شاه القرس وسليم الأول سلطان الأتراك العثمانيين ، وأثبت أنه أقدر منهما معاً . وقد
أدى للإسلام خدمات كبرى خلال حكمه الذى امتد ثمانية وثلاثين عاماً ، وانتهى
فى جمادى الأولى ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م ودُفن فى كابل ، وكانت أحب بلاد الدنيا إلى
قلبه . وإليه يرجع الفضل فى تثبيت أركان الإسلام وتعميد الطريق لتوسيع رفته حتى
يشمل شبه الجزيرة الهندية كلها . وكان إلى جانب حماسة للإسلام متسامحاً ، لا يرغب
أحداً على اعتناق الإسلام وإنما يُعطى بنفسه المثل الطيب . وكان إلى جانب ذلك

أيضاً مولعاً بإنشاء المساجد الجميلة ، وعلى يده ولد فن العمارة الإسلامية المغولية ، وهو من أجل طرز العمارة في الإسلام . وقد دفعه ولعه بالبناء إلى أن يستقدم المهندس العثماني المشهور « ستان » - الذي يعد من منشئ مدرسة العمارة العثمانية - ليسأله عن أسرار صناعته ، ثم طلب إليه أن يعث له بعدد من تلاميذه . وفي أيامه أصبحت عاصمته أجراً من أجل بلاد الإسلام .

وجاء بعد بآثر سلاطين عظام أكملوا فتح الهند وتوحيدها تحت راية الإسلام ، وأهمهم نصير الدين محمد همایون (٩٣٧ - ٩٦٣ هـ / ١٥٣٠ - ١٥٥٦ م) ، وهو من عظماء الفاتحين ، وجلال الدين محمد أكبر (٩٦٣ - ١٠١١ هـ / ١٥٥٦ - ١٦٠٥ م) الذي كان سلطاناً فيلسوفاً أراد أن يوحد الأديان كلها في دين واحد سماه « الدين الإلهي » ، وقد فشلت محاولته .

وأخيراً جاء شاه جهان (١٠٣٧ - ١٠٧٧ هـ / ١٦٢٥ - ١٦٦٦ م) ، وهو أعظم سلاطين هذه الأسرة . وفي أيامه اشتد تدخل البرتغاليين والهولنديين ثم الإنجليز في الهند . وقد بذل شاه جهان غاية جهده في توسيع رقعة سلطانه ومد رواق الإسلام وحفظ المملكة من التدهور ، ولكن الدولة أخذت تتفكك بعد وفاته ، وانتهى الأمر ، بعد صراع طويل مع الإنجليز ، إلى سقوط البلاد في أيديهم سنة ١٨٥٨ م .

وقد اجتهد الإنجليز - بعد دخولهم - في إضعاف شوكة الإسلام وتقوية العناصر الهندوكية وغيرها من أصحاب الأديان الأخرى . فكانت النتيجة أن تجمعت الهندوكية وثبتت أقدانها من جديد ، وتوقف نمو الإسلام في الهند . وبدأت الحزرات بين المسلمين والهندوس ، ثم اشتدت إلى حد انتهى بالمسلمين إلى تقرير إنشاء دولة خاصة بهم في الهند . وثم لهم ذلك بفضل زعماء عظام من أمثال أحمد خان وتلاميذه ، وأكبرهم الشاعر محمد إقبال والزعيم السياسي محمد علي جتو صاحب اليد الطولى في قيام دولة باكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ م .

ونعود إلى عصر الشاه جهان ، فنقول إنه خلف لنا أثراً مبدعاً هو الـ « تاج محل » الذي بناه لتخليد ذكرى زوجته : ممتاز محل^(١) .

(١) كان اسم هذه الأميرة الشهيرة في التاريخ أرتجمند بانويكم . وقد تزوجها شاه جهان سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م ، وكانت ممتاز بجبال باهر وعلق جميل ورائع ووقاه بصر به اللؤلؤ . وقد وقفت إلى جانب زوجها خلال ما مر

وسلاطين المغل هم الذين فتحوا للإسلام أبواب برمانيا أو بورما .

دعبل الإسلام بورما في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، عن طريق التجار والرحالة من الهند ، وبورما بلاد واسعة مغطاة بالغابات الاستوائية في معظم نواحيها ، مما كان يعد من أكبر عقبات المواصلات هناك في العصور القديمة والوسطى . ولهذا كان اعتماد الناس في الانتقال ونقل البضائع من مكان لمكان على مجاري الأنهار الكثيرة هناك . وهنا نلاحظ كيف امتد الإسلام مع مجاري الأنهار ، فنشأت جالياته في القرى والبلاد على الضفاف حتى وصلت إلى رانجون وهي العاصمة الحالية ، وكان إقليمها فيما مضى يسمى بإقليم بيجو ، ومن المناظر المألوفة هناك مناظر المساجد إلى جانب المعابد البوذية . والبوذية من العقبات الصلبة في سبيل انتشار الإسلام حيثما وجدت ؛ لأنها — بمذاهبها المتعددة — نظام روحي وخلقي مرتبط بنظام كهنوتي ذي مراتب ودرجات محسوبة حساباً دقيقاً ومتأصلة منذ مئات السنين .

به من اهل الكتورة ، وكانت برغم الأثر العظيم الذي كان لها عليه تحرس على أن يكون تدخلها في أمور الدولة في نصره الغير دائماً وسماوية العقول من تأييد الصالحين من القادة وكبار رجال الدولة ، فلم ينكر أحد منهم تدخلها أوصلها . وكانت محار على . وهو الاسم الذي أطلقه عليها المسلمون — وسماه سيدة الحاج — سيدة الدولة التي تنطق بالإسلام دائمة الاهتمام بالمساجد وأهل العلم ، وكان لا يرضى أن ترى الناس يركعون لزوجها ، فلم ترل به حتى أولف هذه العادة عبر الإسلامية ، وحذرت زوجها من نشاط الواسع الذي كان المشركون المسيحيون يقومون به في بلاده ، فاحتج في الحد من ذلك النشاط ، ومن آثارها في الدولة الخلق الفوق المعمرى وسع الشبهة في بلاد الشام من الطول على مقام الخلق الراشدين والحد من بادية معابد هندوكية جديدة في بلاده . وكانت محار على امرأة عطفاً على الفقراء دائمة الصدقات ، وكان حبها عظيماً على الأراذل وصيغفات النساء حتى لقد أعتقت أسراً مطلقاً في تزويج الفتيات للفقرات .

وقد تزوجت محار على في رمان شابها عام ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م وهي تصع مولودها الثالث عشر ، وحزن عليها شاه جهان حزاناً شديداً ، وقرر تخليده ذكرها بإنشاء روضة (أي صرح يحيط به بستان) لتكون مولدا الأخير ، وهذا الصرح هو الأثر الباقي الذي يعرف اليوم باسم « تاج محل » ، وهو في ضواحي مدينة أبرا . وبعد من ربيع القرن الهجري في الدنيا . وقد بناه شاه جهان في الثين وعشرين عاماً وعمل فيه عشرون ألف عامل ، وتبعت نفقة إنشائه . ١٦٩,٩٠٠,٠٠٠ روية حديه .

وكان شاه جهان مولداً بإنشاء والتسوير ، وهو الذي رى أبرا ولاهور ودلي وغيرها من عواصم الإسلام الحديثة بأثر رائعة مثل مسجد أبرا الجامع ومسجد التلاوة والقلعة الحمراء .

انظر أحمد محمود الساعاتي « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم » القاهرة ١٩٥٩ ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ . و ٢١٠ — ٢١١ .

وقد وصل الإسلام إلى شبه جزيرة ملقا المعروفة بالملايو مع تجار العرب الحضارمة والهنود والصينيين وأهل الخليج العربي . وجدير بالذكر أن التيارات الإسلامية الكبرى التي حملت الإسلام إلى بلاد الملايو وأرخبيل إندونيسيا خرجت من موانئ الهند الغربية ، من أمثال قاليقوت وكولام — ماني . فقد كان تجار العرب يخرجون من عدن إلى جزيرة سقُطرى فألى جزر لكَنديف ثم إلى قاليقوت التي كانت أكبر مراكز تجمعهم . وكانوا يخرجون كذلك من صُحار ومسقط — وهما اليوم في عُمان — ومن سِراف وهرمز — وهما اليوم في إيران — ويتجمعون في ذَبِيل ، ومنها يبحرون إلى كِمبابة على ساحل الهند الغربي ومنها إلى قاليقوت . ومن موانئ ساحل الهند الغربي يخرجون في أراكهم متجهين جنوباً ثم شرقاً مارين بجزيرة سَرَنديب وهي تسمى أيضاً : سيلان ، ومن هناك تغشى بهم السفن إلى بلاد الملايو .

ولم يجد الإسلام عقبة في طريقه ، فساد في شبه جزيرة ملقا ، حيث أنشأ المسلمون سلطنات مثل باهتج وبراك وسَلتُجور . ولكن أهمها كلها كانت سلطنة ملقا التي اتسعت حتى شملت الجزء الجنوبي كله من شبه جزيرة الملايو . وقد بلغت تلك السلطنة أوجها خلال القرن السابع عشر الميلادي . وبرغم أنها تعرضت لاحتلال البرتغاليين ثم الهولنديين ثم الإنجليز فإن الأمر انتهى بقيام جمهورية إسلامية حديثة فيها ، وهي جمهورية ماليزيا التي أنشئت سنة ١٩٦٧ م ، وهي تضم شبه جزيرة ملقا — عدا سنغافورة — والجزء الشمالي من جزيرة بورنيو . وهي بلاد إسلامية زاهرة عاصمتها كوالا لامبور ، وهي من أجمل عواصم الإسلام في وقتنا الحاضر .

وقد وصل الإسلام إلى إندونيسيا عن طريق التجار الذين ذكرناهم من قبل ، وكان أول دخول الإسلام هناك في جزيرة سومطرة ، حيث أنشأ المسلمون مراكز صغيرة على ساحلها الغربي أول الأمر . ثم أقبلت سفنهم من ملقا فرسَتْ على الساحل الشرق ، وبدأ الإسلام يتوغل في الجزيرة دون أن يجد عقبة كبيرة . وفي الوقت نفسه وصل دعاة الإسلام إلى جزيرة جاوه وأنشأوا مراكز أخرى . ومن جاوه انتشر الإسلام في جزيرة سليبيز وبورنيو وغيرهما من جزائر إندونيسيا . ولم يجد الإسلام مقاومة إلا في وسط جزيرة جاوه حيث كانت الهندوكية قد ثبتت أقدامها ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت أمام الضغط الإسلامي من كل ناحية . وخلال القرن السابع عشر كانت غالبية جزائر إندونيسيا قد أصبحت إسلامية .

وتعرضت الجزائر الإندونيسية للاستعمار الهولندي ، ومن حسن الحظ أن اهتمامات الهولنديين كانت تجارية ، فتركوا الإسلام ينتشر على مهل ، بل إن الحكومة الهولندية شجعت المسلمين على ذلك ، لكي يشتغلوا بالأموال الدينية تاركيين التجارة والمال للهولنديين . غير أن أهل إندونيسيا — عندما طال بهم الاستعمار وأحسوا باستغلاله — بدأ رجالهم يفكرون في الاستقلال ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، وعندما دخل اليابانيون البلاد أثناء تلك الحرب اجتهد الزعماء المحليون في التخلص من آثار الاحتلال الهولندي . فلما اضطر اليابانيون إلى ترك البلاد ، بعد هزيمتهم سنة ١٩٤٥ م ، تركوا ما كان معهم من سلاح للإندونيسيين ، فكان ذلك معيناً للثائرين من أهل البلاد على الظفر بالاستقلال ، وقد تم سنة ١٩٤٧ م . وإندونيسيا اليوم من أعظم بلاد الإسلام ، وهي أكبر بلاده من حيث المساحة وعدد السكان .

وتتصل بالجماعة الإسلامية الإندونيسية جماعات الإسلام في جنوب جزائر الفلبين . وكان المفروض أن تكون الفلبين بلداً إسلامية ، ولكن الإسلام لم يكسب يدخل من الجنوب وبقيت أقدمه في أرخبيل سولو وعيليج سولو جنوبي جزيرة منداناو حتى وصلت سفن المستعمرين الإسبان في فبراير ١٥٦٤ م (رجب ٩٧١ هـ) إلى الساحل الشرقي لمنداناو ، وشرعت في غزو الجزيرة . وعندما وصلت قواتهم إلى الجنوب اصطلمت بالمسلمين ، وقد سماهم الإسبان : الموروس (Los Moros) ، وهو اسم عام يطلقونه على المسلمين ، وما زال مسلمو الفلبين يسمون بهذا الاسم إلى اليوم . ولم يغلب الإسبان على الموروس ، ولكنهم أوقفوا تقدم الإسلام في الجزائر ، فبقي منحصراً في جزء صغير من جنوبي منداناو ، يشمل نواحي كوتاباتو ودافاو ولاناو وأمبوانجا ومجموعة جزائر سولو التي يسميها الإسبان خولو (Jolo) الواقعة بين الساحل الشمالي لبيورنيو وجزيرة منداناو .

وقد عاد الإسلام إلى النمو من جديد في الفلبين بعد زوال الحكم الإسباني وبجيء الأمريكيين سنة ١٨٩٨ م ثم استقلال البلاد بعد ذلك . ولو وجدت الدعوة الإسلامية العناية الكافية لانفتحت أمامها السبل للانتشار الواسع في تلك الجزائر وغيرها من جزائر المحيط الهادئ .

سير الإسلام لا يتوقف :

والحقيقة التي لا شك فيها هي أن الإسلام منذ أنزل الله القرآن على رسوله الكريم ﷺ لم يتوقف سيره وتوسعه قط . فسواء أكانت هناك دول قوية تعمل على نشره أو لم يكن هناك إلا دول ضعيفة مفككة لا تقوى على الحفاظ على كيائها ، وسواء أكانت جماعات الإسلام آمنة أو محاطة بالأعداء مثقلة بالأزمات ، فإن الإسلام يسير في العادة في طريقه مظلماً ، لا يتأثر بأحوال المسلمين وما يجري عليهم من صروف الزمان .

بل إننا نلاحظ أحياناً أن الإسلام يزداد انتشاره في حالات ضعف المسلمين السياسي ، كما نرى في انتشار الإسلام السريع في أفريقية في أثناء عصور الاستعمار ، سواء في أفريقية أو في آسيا . ولقد كانت عصور الاستعمار الهولندي لإندونيسيا هي السنوات التي تمكن الإسلام لنفسه فيها وكسب أكبر مجموعاته على الأرض ، لأن الهولنديين — كما تقدم القول — أهل تجارة ومال ، وقد أرادوا أن ينصرف أهل البلاد عن النظر إلى المال والتجارة فشجعوهم على إنفاق جهودهم ونشاطهم في شؤون الدين ، بل لوحظ أحياناً أن الحكومة الاستعمارية الهولندية كانت تساهم في نفقات إقامة المساجد وتكاليف رجال البحوث الدينية ، فكان ذلك عمراً على الإسلام والمسلمين ، لأنه أتاح الفرصة للقضاء على الوثنية والبوذية في الجزائر ، فحققت لأهلها الوحدة الدينية التي كانت أكبر سلاح للتحرير وتوحيد الصفوف ، عندما بدأ الإندونيسيون يطالبون باستقلالهم .

وقد كانت الوحدة الدينية هي التي حفظت وحدة البلاد من أن يقسمها المستعمرون — قبل خروجهم — إلى أقسام بحسب الدين ، فظلت كتلة السكان واحدة محتفظة بقواها . وعندما تحقق الاستقلال اتجه الإندونيسيون إلى تحرير اقتصادهم ، وعوضوا في ذلك المضمار ما فقدوه أيام الاستعمار . ومن هنا كان الإسلام بركة على إندونيسيا وأهلها من كل ناحية .

وكذلك كان الأمر في الكثير من البلاد الأفريقية ، وبخاصة تلك التي كان يستعمرها الإنجليز . ففي بعضها ، وبخاصة نيجيريا ، انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبح الدين الغالب على أهل البلاد ، وكان ذلك

من الأسباب التي حفظت لها وحدتها عندما جاء وقت التحرير . وإذا كانت نيجيريا تعد اليوم من أكبر بلاد القارة الأفريقية فإن السبب يرجع إلى انتشار الإسلام فيها انتشاراً واسعاً ، لأن المسلمين هناك كتلة ضخمة تستعصى على التقسيم ، وفي هذه الكتلة الضخمة ذابت الفوارق القبلية فلم تبق إلا أجزاء صغيرة خارج النطاق الإسلامي في نيجيريا ، كما هو الحال في قبائل الإيو التي يزعم البعض أن معظم أفرادها من المسيحيين .

وعنا أيضاً نرى مثالا لفضل الإسلام على الأمم في الحفاظ على وحدتها وتمكين أهلها من تكوين قوة سياسية واجتماعية يحسب لها كل حساب . ولو نظرنا إلى بلاد الإسلام وجدنا أن الإسلام هو سبب قوتها وعنصر بقائها ومصدر حضارتها ومنيع كل غير يعرفه أهلها .

ولا يتوقف نمو الإسلام إلا إذا قام أعداؤه بأعمال هدفها إيقاف ذلك التقدم ، كما لاحظنا في حالة مصر الإسلام في الأندلس وصقلية . وفي وقتنا الحاضر ، نجد أنه في الكثير من بلاد أفريقية التي استقلت توضع سياسات من شأنها الحد من قوة الإسلام وانتشاره واندفاعه ؛ لأن الحكومات الوطنية التي قامت في معظم هذه البلاد مسيحية ، والسبب هو أن المستعمرين حرصوا في أثناء استعمارهم على أن ينشروا المسيحية في البلاد . ومع أنهم لم يكسبوا لها إلا أنصاراً قليلين نسبياً ، فإنهم وجهوا كل عنايتهم في التعليم نحو الجماعات المسيحية ، فأتيج لأفرادها أن يظهر من بينهم ناس متعلمون قادرون على القيام بأعباء الحكم ، وهؤلاء هم الذين يتولون الأمور في معظم تلك البلاد . ومن الطبيعي ألا نلجدهم حريصين على نشر الإسلام ، بل يقلب عليهم اتباع سياسات تعارض انتشاره بوضع الصعاب في سبيل الدعاة له والحد من حركة انتقال الأفراد من مكان لمكان ، وهي حركة يرجع إليها الفضل في انتشار الإسلام في الكثير من نواحي أفريقية ، بل هناك عمليات عنادية صريحة يقوم بها بعض الرجال للسفولين في تلك البلاد ، بتشجيع من مراكز المسيحية ، للإضرار بالجماعات الإسلامية . وذلك يتطلب من جماعات المسلمين في الدنيا أن يواجهوا ذلك الخطر بما هو جدير به من الاهتمام والجهد ، لأن الإسلام وإن كان قادراً على نشر نفسه بنفسه فليس معنى ذلك أن نتركه لمصيره في كل مكان ، وأن ندعه يتعرض لحمولات شريرة قائمة على سياسات مرسومة بإحكام ، هدفها إضعاف الروح القومية في البلاد التي استقلت حديثاً عن طريق إضعاف الإسلام فيها .

إن ذلك واجب على المسلمين ، ليس من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية الحضارية أيضاً لأن الإسلام ركن متين للحضارة البشرية وأساس لتقدم الجماعات الإنسانية . وما من بلد دخله الإسلام إلا بهت فيه روح التقدم والتحضر والنظام . ومن هنا كان العمل على إزالة العقبات من طريق الإسلام خدمة حضارية تسدى للإنسانية كلها ، وهو واجب على المسلمين ، بل هو أشرف واجباتهم كلها .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف - آية ٩) .

الإسلام يخرج ظافراً من كل الأزمات الكبرى التي مرت به :

وليس أدل على قوة الإسلام الغالبة على الخير الذي يسديه لكل جماعة تدخل فيه ، من أن الجماعة الإسلامية الكبرى تعرضت طوال تاريخها لأزمات طاحنة كان بعضها كتيلاً بأن يقضى على أمم وحضارات وأديان ، ولكن أم الإسلام خرجت ظافرة من الأزمات التي مرت بها بفضل الإسلام وحده . وسنضرب لذلك سلا واحداً يفتى عن كثير ، وهو تعرض الإسلام والأمم الإسلامية منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى إلى أواخر القرن الرابع عشر للميلادى لخطر من أكبر ما تعرضت له الأمم والحضارات من أخطار ، وخرجت برغم ذلك ظافرة من الصراع الرهيب الذى دار بينها وبين عوامل الدمار والتخريب من ناحية وعوامل الكراهية والحقد والتعصب من ناحية أخرى ، وتقصد بذلك الخطر الصليبي والخطر المغولى اللذين اجتمعا على بلاد الإسلام فى عصر واحد تقريباً .

وقد كان الخطر الصليبي أول الخطرين ظهوراً ، فإن أم النصرانية عدت الإسلام من أول ظهوره وتوسعه فى أراضى الدولة البيزنطية عدوها الأكبر ، ونظرت إليه دائماً على أنه خطر يهدد مصر المسيحية . فلم تكد أم الغرب المسيحية تولد خلال القرن العاشر الميلادى ، وأحوالها تتحسن خلال القرن الحادى عشر ، حتى تنادت لحرب الإسلام . وبدأت الحرب فى شبه الجزيرة الأيبيرية — أقرب بلاد الإسلام إلى الغرب المسيحي — وانتهزت ممالك إسبانيا النصرانية وإماراتها فرصة انهيار خلافة بنى أمية القرطبيين سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م ، قبدأت قواتها ترحف نحو الجنوب وتتحيف أطراف الأندلس الإسلامى . وانضمت إليها قوات الفرسان وللقائتين من جنوبى فرنسا

وإيطاليا . وشجعتهم البابوية على الاتجاه نحو الأندلس للحرب التي وصفها البابوات بأنها مقدسة أو صليبية ؛ فاشتد الضغط على بلاد الإسلام وأعوزتها الوحدة والقيادة في ذلك الظرف بسبب انقسام نواحها بين ملوك العلواتف الذين كانوا قصار النظر ، فكانت النتيجة سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م . وكان ذلك نذيراً خطيراً بالمصير السيئ الذي أطل برأسه على الأندلس كله في ذلك الحين . ولقد أقبل المرابطون بعد ذلك بقيادة يوسف بن تاشفين واستطاعوا في سهل الزلاقة أن يزلوا بقوات قشتالة وليون هزيمة قاصمة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٦ م أوقفت التقدم النصراني حيناً من الزمن . ولكن الضغط ما لبث أن تجدد ، لأن البابوية حولت الصراع في الأندلس إلى حرب صليبية ، ودعت أُم النصرانية كلها للاشتراك فيها ، فاشتد الصراع في الأندلس واتصلت المعركة بين الإسلام والنصرانية على أرضه .

وبينا كانت معركة الأندلس في طريقها تزداد ضراوة يوماً بعد يوم دعت البابوية أُم المسيحية إلى القيام بحرب عامة على عالم الإسلام في المشرق ، بقصد الاستيلاء على بيت المقدس وأرض المقدسات المسيحية ، كما زعم البابا أوربان (Urban) الثاني ورجاله . واستجاب للدعوة نفر من أمراء الغرب المسيحي ، وتجمعت معهم قوات كبيرة من الفرسان والمقاتلين ، وتظاهروا في ذلك مع الجمهوريات الإيطالية التجارية والدولة البيزنطية . ومعنى هذا أن أوروبا الوسطى والغربية كلها أعلنت الحرب على الإسلام .

وفي غريرف ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م دخلت قوات الصليبيين أراضي المسلمين من شمال الشام واستولت على أنطاكية واكتسحت أراضي الشام ، وفي شعبان ٤٩٢ هـ/ يوليو ١٠٩٩ م اقتحم الصليبيون أسوار بيت المقدس وارتكبوا فيه فظائع كبرى ، حتى يقال إنهم قتلوا سبعين ألفاً . وعقب ذلك مباشرة أنشأوا أربع إمارات صليبية في الشام وشمال غربي العراق . كل ذلك وجماعات المسلمين في الشرق متفرقة مختلف أمرها ، لا يفكر أمير من أمرائها في النهوض لحرب الفرة المعتدين ، ولكن شعوب المسلمين أخلت تنادى حكوماتها بضرورة النهوض لملاقاة الأعداء واستقاذ أراضي المسلمين ، وفي بغداد حاصرت الجماهير الخليفة العباسي وطالبته بالعمل على دعوة زعماء الإسلام للتجمع والنهوض ، وقام خطباء المساجد ورجال الدين في عواصم الإسلام بالدعوة للنهوض ، وخرج « المخطوعة » — وهم الذين نسجهم اليوم « بالفدائيين » — أفراداً وجماعات ، يحاربون العدو ويهاجمونه حيثما استطاعوا . وشيخاً

فشيئاً تنبه نفر من أمراء الموصل إلى ضرورة النهوض لمواجهة الأعداء . وبعد تمهيدات طويلة استطاع عماد الدين زنكى أمير الموصل وحلب النهوض لحرب الصليبيين واسترجع منهم إمارة الرها ، وهى واحدة من إماراتهم الأربع فى الشام ، سنة ٥٣٩ هـ / ١٠٤٤ م وبعد ذلك النصر تحركت جماعات المسلمين للجهاد ، خصوصا بعد أن تولى زعامة الفجاهدين نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الذى استطاع — بعد جهود متواصلة لتوحيد الصفوف ، وسنوات طويلة فى حرب مع قوات الصليبيين استمرت من سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م إلى ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م — أن يوحد الموصل وبلاد الشام ومصر ويجعل منها جبهة واحدة مقاتلة . وعندما توفى نور الدين فى شوال ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، ترك لصلاح الدين الأيوبي عاملة على مصر الطريق ممهداً لكى يكمل الوحدة ويسير بها فى طريق النصر .

لقد أثبت صلاح الدين أنه أعلل لهذه المهمة الكبرى ، فلم تحل سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حتى كانت كل بلاد الإسلام — من العراق إلى برقة — تجتمع تحت لواء واحد . وبفضل الوحدة سار صلاح الدين فى أوائل ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م للقاء قوات الصليبيين فى معركة حامية ، وفى ربيع الثانى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م كسبت رايات الإسلام نصر جليل ، ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس منصوراً واسترده للإسلام . فكان ذلك إيذاناً بالنهاية الحقيقية لكل ما رمى إليه الصليبيون . فقد بدأت البلاد التى ملكوها تتحرر من أيديهم . وعندما مات صلاح الدين فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣ م كان الخطر الصليبي قد انتهى تقريباً ، لأن أطماع الإسلام استيقظت ولم يعد من الممكن أن تنام مرة أخرى حتى يزول كل أثر للصليبيين فى الشام .

والمؤرخون لا يحدوثونا بما فيه الكفاية من الجهد الذى قامت به جماهير المسلمين من أهل مصر والشام والعراق خلال ذلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية . ولكننا رأينا أن الجماهير كانت هى التى شجعت أولى الأمر إلى ضرورة النهوض لمواجهة الخطر ، ولدينا أسماء الكثيرين من دعاة المسلمين الذين قضوا حياتهم متفانين من بلد إلى بلد يخطبون فى المساجد وفى الأسواق داعين الناس إلى الجهاد ، وفى كل معركة من المعارك التى خاضها قادة التحرير العربى الإسلامى الذين ذكرناهم يمدحنا المؤرخون من ألوف المتطوعين الذين كانوا يخرجون من بيوتهم ليجاهدوا فى سبيل

الله دون أجر بل دون نظر إلى أى مكافأة . وكان من أكبر الأسباب التى أدت إلى الحرب الصليبية الثانية جماعات الفدائيين المسلمين . وبخاصة التركمان الذين كانوا ينقضون على جيوش النصارى فيقتلون ويأسرون ، حتى تخلخلت صفوف الأعداء ودخل فى قلوبهم الرعب من المسلمين . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا جهود الجنود المجهولين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية ما تحقق النصر ولا استطاع القواد بقواتهم الرسمية كسر شوكة الصليبيين .

ويتجلى ذلك بوضوح فى أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى قادها الفارس الفرنسى جان دى بريون Jean De Brienne على مصر ، ظناً منه أنه إذا استطاع القضاء على رأس القوة الإسلامية فى القاهرة تمكن الصليبيون بعد ذلك من احتلال الشام كله احتلالاً أبدياً . ففى هذه الحملة نجد أن السلطان العادل الأيوبي — الذى تصدى لمقاومة الخطر الصليبي هذه المرة — بفضل عدم مواجهة الأعداء ، وبنتجه نحو محاولة صرفهم عن وجهتهم بالحيلة والمفاوضات ، وعندما نزل الصليبيون فى دمياط فى سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م بدأ كأن المسلمين لن يستطيعوا الصمود . وتوفى الملك العادل فى أثناء ذلك ، فزاد الأمر اضطراباً ولكن جماهير المسلمين فى شمال مصر أسرعوا للقاء العدو وبدأت معه المعركة وخلخلت صفوفه ، وتشجع الملك الكامل بن الملك العادل وسار لحربهم . ومع ذلك فقد اتجه إلى التفاوض معهم ، وكان مستعداً لتسليمهم بيت المقدس فى سبيل خروجهم من مصر . ولكن جماهير المصريين لجأت إلى قطع الجسور ، فغمرت المياه أرض الدلتا ، وخرج الصليبيون ، وتشجع الملك الكامل ، فسار لحربهم ، وانتهى الأمر بانسحابهم من البلاد دون قيد أو شرط فى رجب ٦١٨ هـ/أغسطس ١٢٢١ م . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى جماهير أمة الإسلام التى لم تشأ أن تتراجع أو تتراجع .

أمام هذا الصمود لم تستطع حكومة الأيوبيين إلا الاستمرار فى الجهاد . وعندما حاول لويس التاسع ملك فرنسا تكرار محاولة جان دى بريون بقيادة حملة صليبية على مصر ، هى الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م ، كان من الممكن أن يحقق ذلك الملك غرضه ، لأن الملك الصالح الأيوبي مات أثناء القتال عند المنصورة شمال شرق مصر ، وأصبحت القوات الإسلامية بدون قيادة . ولكن جماهير المسلمين ثبتت فى الميدان وأعادت فتح الجسور لإغراق قوات الصليبيين ، فكانت النتيجة

انتصار القوات الإسلامية على الصليبيين ووقوع لويس التاسع أسيراً في أيدي المسلمين سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وقد بقيت بعد ذلك جيوب صليبية على ساحل الشام استطاع القضاء عليها سلاطين المماليك ، من أمثال الظاهر بيبرس والسلطان سيف الدين قلاوون الصالحى والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وعلى يد هذا الأخير استرجع المسلمون آخر حصن للصليبيين في الشام ، وهو عكا التى استسلمت في ٢٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ / مايو ١٢٩١ م ، وكانت تلك نهاية الخطر الصليبي على شرق العالم الإسلامي .

وقد حاول الصليبيون إعادة الكرة بالمهجوم على تونس . فقاد الملك لويس التاسع حملة عليها سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م . ولكن رجال تونس وقوات الخليفة المستنصر بالله محمد الحنفى استطاعوا هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم ، وعلى أرض تونس مات الملك لويس التاسع في الحرم ٦٦٩ هـ / أغسطس ١٢٧٠ م وانتهت الحملة الصليبية التى قادها . وبذلك حققت ألوية الإسلام النصر التام فى معركة طويلة بدأت كما ذكرنا فى خريف ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م وانتهت فى صيف ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ، بعد ١٧٣ سنة من الصراع الرهيب المتصل . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى تجمع قوات المسلمين واتحاد شعوبهم لمواجهة الأعداء . حقيقة قامت أوروبا المسيحية بتنظيم حملات صليبية أخرى ، ولكن الخطر الحقيقى كان قد زال .

وفى المراحل الأخيرة من الصراع بين المسلمين والصليبيين ظهر الخطر المغولى . وقد تعودنا أن ننظر إلى ذلك الخطر من زاوية صغيرة ، هى الخاصة بهجوم هولاكو على بغداد وإزائه الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ولكن الأمر يتطلب هنا نظراً أوسع ، لكى ندرك مدى الخطر الذى كان يهدد الإسلام وأهله من ناحية المغول . فإن الذى عرفناه من قوة المغول وقدرتهم على التخريب لا يقاس إلى قوتهم الحقيقية وما كان لهم من أثر خطير عميق فى البلاد التى فزحوها فى آسيا وبعض نواحي شرق أوروبا . وعندما تأخذ فكرة — ولو تقريبية — عن مدى قوتهم وخطرتهم نستطيع أن نبين مقدار نعمة الله الذى كتب لجماعات المسلمين النجاة من خطر كان من الممكن أن يزيلها من الوجود . ذلك جنكيزخان — وهو لقب معناه : سلطان المغول ، أما اسمه الحقيقى فهو : تيموجين بن باطور — كان أكبر

محارب عَظِيم عرفه التاريخ . فقد اجتاحت ، هو وابنه الأكبر أجدای ، فيما بين سنتي ١٢٠٦ و ١٢٤١ م ، بلاداً تبدأ عند سواحل الصين الشرقية ولا تنتهي إلا شمالي البحر الأسود في أوروبا . وجحافل المغول هذه أزالَت دولا كبرى في الصين ووسط آسيا وشرق أوروبا . وعندما تولى ملكهم قوبلاي خان سنة ١٢٦٠ م نقل العاصمة من قرقورم إلى بكين ، وأنشأ إمبراطورية صينية جديدة هي المعروفة بدولة يوان التي امتد حكمها من ١٢٧٩ إلى ١٣٦٨ م .

هذه الدولة المغولية كانت منذ قيامها على يد جنكيز خان خطراً عظيماً يهدد بلاد الإسلام كلها . فقد كانت مطامع جنكيزخان تتجه أول الأمر نحو بلاد المسلمين طمعاً فيما كان يترامى ، إلى سمعه عن ثناها و ثراء بلادها ، ولهذا وجه نحوها معظم قواته . وفي سنة ١٢١٨ م اجتاحت جحافل خوارزم ، وأزالَت السلطنة الخوارزمية الإسلامية . وفيما بين سنتي ١٢١٩ م و ١٢٢١ م استولى المغول على بلاد التركستان ، أي ما وراء النهر ، وغربوا هواصم الإسلام هناك مثل بخارى وسمرقند وطشقند . ولولا أن جنكيزخان توفى سنة ١٢٢٧ م لاستمرت الغارة المظفرة على بقية بلاد الإسلام بنفس العنف والقوة .

وقد هدأت العاصفة فترة قصيرة من الوقت بعد وفاته ، إذ وقع خلاف على وراثة العرش بين ابنه الأكبر شغتاي وابنه الثاني أجدای . وقد صار العرش إلى هذا الأخير — وهو الذي واصل نشاط المغول في بلاد الروس حتى وصلت جيوشه إلى بحر البلطيق واجتاحت المجر — في حين أن الجزء الأوسط من الإمبراطورية المغولية — وهو الذي يشمل بلاد التركستان وإيران — صار إلى شغتاي . وقد تأثر هو وأبنائه بالإسلام ، وعفت حدة غاراتهم على بلاده . وجدير بالذكر أن دهاة المسيحية كانوا قد تسربوا إلى بلاط المغول في بلدة قرقورم ، وعندما اجتمع زعماء المغول لاختيار خلف لأجدای بن جنكيزخان سنة ١٢٤١ م كان هناك مندوب بابوي ، وكان ذلك المندوب يبتعد في أن يصير العرش إلى حبوبك بن أجدای — وكان ذا ميول مسيحية — ولو أن ذلك تحقق لأصبح كل المغول بعد ذلك مسيحيين ، ولكنه توفى سنة ١٢٤٨ م ، قبل أن يستقر له الأمر وصار العرش إلى منجوعخان بن تولوي بن جنكيزخان ، ولم يكن له ميل إلى المسيحية .

وقد انقسم منجوع إمبراطورية المغول مع أخويه : قوبلاي ، الذي تولى حكم

الجناح الشرقي من الدولة ، وهولاكو الذى تولى الأمر فى وسطها وغربها . ونجد هولاكو للاستيلاء على بلاد الدولة العباسية وسار إليها فى جحافل ، ودخل بغداد فدمرها تدميراً ذريعاً سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، وكان فى بلاط هولاكو عند كبير من القساوسة المسيحيين يرضونه على القضاء على بلاد الإسلام قضاء تاماً ، تعزهم فى ذلك إحدى زوجاته ، وكانت نصرانية .

وكانت جماعات المسلمين فى كل مكان تحبب بسطان المالك سيف الدين قطز ، بالمسير لحرب المغول وردهم عن بلاد الإسلام ، بعد أن دخلوها ولحقوا بها غرباً شاملاً . وقد تردد بمالك قطز ، وأدركهم الخوف ، ولكن الجماهير ظلت تضغط عليهم ، وخرج الأكرóf من المطوعة من أهل بلاد الإسلام لحرب المغول حمية لله . وتحمس سيف الدين قطز ، وعندما رأى تقاعس مماليكه قرر للمسير بنفسه ، فلم يسع الآخرين إلا للخروج معه . وهكذا كتب له أن يُنزل بالمغول هزيمة قاصمة عند عين جالوت قرب ييسان فى فلسطين فى سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م ، وهى من المواقع الفاصلة فى تاريخ البشر ، لأنها أنقذت حضارة الإسلام والمسيحية من الدمار ، ولقد شعرت البابوية وبقياء الصليبيين بخيبة أمل لنصر المسلمين وانقطاع الرجاء فى التحالف مع المغول عليهم .

ومع ذلك حاول الصليبيون الاتفاق مع أباقا الذى خلف هولاكو على عرش الدولة المغولية فى إيران سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م ، لأن زوجته كانت مسيحية بيزنطية ، وحفزوه القساوسة الذين كانوا فى بلاطه على محاولة هزو بلاد الإسلام من جديد . فسار إلى الشام ، ودخل حلب وغربها . فنهض للقاتل سيف الدين قلاوون سلطان مصر وأنزل بقوات المغول هزيمة ساحقة أخرى عند حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م . وفر أباقا إلى بغداد حيث تولى بعد قليل .

وخلف أباقا أخوه تكودار ، وكان مسيحياً ، ولكنه أسلم وتسمى بأحمد ورغب فى إنشاء علاقات صداقة مع المسلمين ؛ أسوة بأبناء عمومته — مغول القبيلة الذهبية — وكانت دولتهم تشمل جنوب روسيا والقوقاز ، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام فى عهد ملكهم بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان ، وكان معاصراً للسلطان
بيبرس .

وقد ارتد كزغون ابن أخى تكوتار أحمد عن الإسلام ، وبدأ الاستعداد لحرب بلاد المسلمين بتحريض زوجته النصرانية ، فأرسل سفراً طاف ببلاد أوروبا لتحريض ملوكها على حرب المسلمين متحدين مع المغول ، واستمر هذا طوال حكم أرغون من ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م إلى ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م .

ولكن الإسلام عاد فانتصر ، لأن غالبية سكان دولة إيلخانات إيران كانوا مسلمين . فأسلم غازان ملكهم (٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م — ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م) وحسن إسلامه ، وبذلك انقضى خطر المغول عن الإسلام .

من هنا نتبين أن الخطر المغولى كان أعظم بكثير مما تصور عادة ، وأن الذى أوقف ذلك الخطر لم يكن انتصار الممالك على المغول فى عين جالوت وحمص فحسب ، بل كان الإسلام هو الذى نصر نفسه بفضائله التى غزت قلوب المغول وبقوة شعوبه التى تمسكت به وحفزت السلاطين ورجال الدولة على الدفاع عن الإسلام الحنيف وبلاده .

وكان الذين حملوا دعوة الإسلام إلى أولئك المغول شيوعاً ودعاة نجهل أساميهم ، لكنهم قاموا بعمل جليل عظيم لا يقل عن العمل الذى قام به أولئك الذين كسبوا انتصارى : عين جالوت وحمص ، بل إن المؤرخين يعدوننا أنه فى أيام خانات المغول الكبار ، جنكيزخان وأوجوتى ، كانت عاصمتهم قرقورم حافلة بالمساجد إلى جانب الكنائس التى عمل على بنائها دعاة المسيحية المحترقون ، وكذلك معابد البوذيين الشامانيين ، وهذه المساجد — التى قامت فى قرقورم التى تقع فى وسط ما يعرف اليوم بجمهورية منغوليا الخارجية ، فى شمالي الصين على بعد آلاف الكيلومترات من دار الإسلام — إنما بناها شيوخ غلصون للإسلام قاموا بعملهم مدفوعين بحافظة دينية كريمة . وذلك يذكرنا بأولئك الدعاة المجهولين والصوفية المجاهدين الذين نشروا الإسلام فى أفريقية المدايرة والاستوائية .

وهؤلاء الشيوخ والدعاة كانوا من أبناء أمة الإسلام ، تحركوا للقيام بذلك العمل الجليل بإعانت من محبة الدين وبإخلاص يروع النفس ، لم تدفعهم إلى ذلك حكومة تقدم لهم أجراً ولا هيئات تبشر ترعاهم وتنظمهم وتحميمهم ، وإنما خرجوا محترسين للدعوة لدين الله . وهم من صميم المجمع الإسلامى ، مما يؤكد لك ما ذكرناه مرة بعد مرة فى هذا العرض من أن قوة الإسلام الحقيقية إنما تكمن فى قوة جماعته .

ولدينا هنا مثالاً يفتينا ذكره عن كثير : قفى بلاط قوبلاى خان منشىء دولة
 يوان الصينية التى ذكرناها ، وهى من أعظم الدول فى تاريخ الصين الطويل ، كان
 يعمل عدد من اللوطين من أهل مقاطعة يون — نان فى جنوب غربى الصين ، وكان
 حاكم هذه المقاطعة مسلماً من أهل بخارى ، فمزال أولئك الموظفون يعملون مستعينين
 بالحاكم حتى استطاعوا أن ينشقوا فى تلك المقاطعة الواسعة جالية إسلامية ضخمة
 تمكنت من أن تحول المقاطعة كلها إلى بلد إسلامى ، ومنها امتد الإسلام إلى ما مجاورها
 من مقاطعات الصين الجنوبية والغربية . وهذا هو أصل جانب كبير من ذلك العدد
 العظيم من مسلمى الصين الذين لا يقل عددهم فى وقتنا الحاضر عن ستين مليوناً ،
 وإن كانت الإحصاءات الرسمية التى كانت تذاع تبسط بعددهم إلى عشرة ملايين ،
 وهو أمر لا يقبله العقل أو التصور .

وهكذا نرى كيف أن الخطرين : الصليبي والمغولى تعاصراً وحاولا أن يجمعا على
 الإسلام للقضاء عليه ، ولكن الإسلام نجح من ذلك الخطر المحيط بالردوج ، وخرج
 بعد عشرات السنين من الكفاح المرير أقوى بنياناً وأوسع رقعة وأعز تقرأ .

وهذا كله حدير بأن يذكره المسلمون ليعلموا أن الأزمت والأخطار ليست
 جديدة على الإسلام وأعله ، وأن انتصار الإسلام على الأعداء ، مهما كثر عددهم ،
 وخروجه مظفر من الأزمت والأخطار مهما طالت ، إنما هو أمر عادى فى تاريخه ، لأن هذا
 الدين — الذى ولد فى بيعة معاهدة له هى مكة — لم يزل منذ ميلاده يخالب الأزمت
 ويفتنح المهن ويخرج مظفراً . وتلك آخر الأمر هى الحقيقة الأساسية فى وجود
 الإسلام ، وهى لباب تاريخه لأنه رمز على قوى الخير التى تصارع قوى الشر منذ
 خلق الله الخلق إلى أن يطوى الدنيا وما عليها .

﴿ يُؤْمِنُونَ يُحِبُّونَ لَوْزَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ وَاللهُ فِيمُ نُوْدِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾
 (الصف ، آية ٨) .

الجماعات الإسلامية فى عالم اليوم :

فى ذلك الموجز ذكرنا الجماعات الإسلامية الرئيسية ، وهناك جماعات أخرى أقل
 عدداً لابد أن نشير إليها هنا ، وأعداد أفرادها تتراوح بين ستين مليوناً — كما رأينا

في كلانا عن مسلمي غرب الصين — وعشرين مليوناً ، وهو العدد التقليدي للمسلمين في روسيا ، ومليوين كما نجد في يوغوسلافيا . ولا يخلو بلد من بلاد الدنيا من مسلمين ، فهناك عشرات الألوف في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا . وهناك كذلك ألوف كثيرة من المسلمين في بلاد أمريكا اللاتينية . ومع أنه من العسير علينا أن نأتي بإحصاء دقيق لأعداد المسلمين في تلك البلاد اليوم فسنرى فيما يلي بعض الأرقام عن أعدادهم في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، لنعطى فكرة بسيطة عن أهمية تلك الجماعات . والأرقام التي نقدمها مأخوذة من إحصاء نشره الباحث الألماني رولف رايمرت Rolf Reimer الأستاذ بجامعة باييا في شمال البرازيل ، وهو متخصص في ذلك الموضوع وهذه الأرقام ترجع إلى إحصاء تم سنة ١٩٦٥ م وقد أسلم هذا الرجل وانتقل إلى المغرب وعاش فيه وتسمى باسمه ضياء الدين ، ولابد أن عدد المسلمين قد زاد هناك من ذلك الحين إلى الآن :

الأرجنتين	١٤١٠٠٠	(مسلم)
بوليفيا	٩٠٠٠	(مسلم)
البرازيل	٢٤٢٠٠٠	(مسلم)
شيلي	٨٠٠٠	(مسلم)
إكوادور	٤٠٠٠	(مسلم)
كولومبيا	٥٩٠٠٠	(مسلم)
بيرو	١٩٠٠٠	(مسلم)
غيانا الهولندية	٦٨٠٠٠	(مسلم)
غيانا البريطانية	٨٠٠٠٠	(مسلم)

ويبلغ مجموع عدد المسلمين في أمريكا اللاتينية كلها ٦٥٤٠٠٠ نسمة .

وفي بعض بلاد تلك القارة — مثل غيانا الهولندية — تزيد نسبة المسلمين على ربع السكان ، وفي غيانا البريطانية تبلغ نسبتهم ١٤,٦٪ ، وفي غيانا الفرنسية ١٢٪ ، ولم تدخل في الحساب مسلمي جمهوريات أمريكا الوسطى وهم كثيرون .

ولم نتحدث أثناء ذلك عن مسلمي جمهوريات الاتحاد السوفيتي الإسلامية ، وهي أذربيجان وتركمانيا وأوزبكستان وقرغيز وطاجيك ، وعدد سكانها لا يقل عن ستين مليوناً هم من خيرة المؤمنين ، وهنا الإحصاء تم في سنة هذه الطيمة لكننا

هذا وهي سنة ١٩٨٨ م وفي بلادهم تقع عواصم الحضارة الإسلامية الكبرى المعروفة من أمثال بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها ذات الأثر البعيد في تاريخ الإسلام ، ومن المسير جدا أن نحصل على إحصاء حقيقي لأعدادهم في الوقت الحاضر ، ولكن الذي يمكن قوله هو أن التطور الاجتماعي والحضاري الذي يشمل بلاد الاتحاد السوفيتي منذ بداية رياسة ميخائيل جورباتشوف سنة ١٩٨٧ م لابد أن يشمل البلاد الإسلامية في الاتحاد السوفيتي كذلك . وعن قريب إن شاء الله يعود الإسلام إلى سابق قوته وازدهاره في تلك البلاد وتلاتي — كما ينبغي — لعنة الشيوعية الكافرة التي لم تعد بالخير إلا على الروس أنفسهم .. كان هذا الخير سياسيا عسكريا فحسب ، أما حضاريا وإنسانيا فإن الشيوعية كان لها أسوأ الأثر على الشعب الروسي الذي اشتهر دائما بتعبه الحضاري وتفوقه في معظم ميادين الإبداع العلمي والثقافي والحضاري .

ويمكننا أن نقول — بوجه عام — إن كل الإحصائيات التي تنشر في الغرب عن أعداد المسلمين غير صحيحة . وهناك تعمد معروف للإقلال من عدد المسلمين وتكثير عدد النصارى في كثير من بلاد الدنيا ، وبخاصة في بلاد أترقية ، وذلك لأسباب سياسية معروفة لا تخفى على أحد . ولو أنك نظرت في أية دائرة معارف كبرى وبخست عن عدد المسلمين لوجدت أن الرقم الذي تقدمه لا يتجاوز ٤٠٠ مليون ، في حين أعلن السكرتير العام للمؤتمر الإسلامي العالمي في أكتوبر ١٩٦٩ م أن عدد المسلمين في الدنيا يصل إلى ٧٠٠ مليون ، وذلك تقدير معقول .

وبين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تقارب وتشابه يبرران استعمالنا لمصطلح « العالم الإسلامي » ، فالحقيقة أن المسلمين — على اختلاف أوطانهم — يكونون عالماً خاصاً بهم له خصائصه الاجتماعية والثقافية والمسلم إذا حل في أي بلد إسلامي أحس في الحال بأنه بين أهله ، ووجد نظاماً اجتماعياً مأثوماً لديه وقانوناً أخلاقياً سائداً ليس غريباً عليه .

والسبب في ذلك التقارب الأخلاقي والاجتماعي هو أن كل مظاهر حياة المسلمين قائمة على الإسلام ومستمدة من شريعته . فسواء كان المسلم صهيئاً من أهل يون — نان ، أو هندیئاً من أهل نوذهي ، أو عريئاً من أهل جزيرة العرب ، وسواء تكلم

بالعربية أو لم يتكلم بها ، فهو مشترك مع بقية المسلمين في نظرته للحياة وانجاءه نحو المصنوعات دون الماديات وأخذ به شرعة الإسلام واعتباره عمداً — صلوات الله وسلامه عليه — مثلاً أعلى للإنسان في خلقه وتصرفه في شئون الدنيا والدين .

أما ما نعرفه من خلاف أهل السنة والشيعة الذي يبالغ خصوم الإسلام في توسيع شفته فهو خلاف سياسي عاطفي . فنقطة الخلاف الرئيسية بين السنة والشيعة هي مسألة مَنْ على الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ، وذلك الخلاف لا يدور حول ركن من أركان الإسلام أو عقيدة من عقائده ، لأن أهل السنة والشيعة جميعاً متفقون تمام الاتفاق على تلك العقائد ، أما مسألة الخلافة فقد جاءت بعد الرسول ﷺ ، ولا نجد عنها في القرآن والسنة شيئاً يمكن التصويل عليه ، وكل تنظيمها وشروط من يليها اجتهاد من الصحابة والفقهاء . ثم إن الخلافة نفسها معطلة في وقتنا الحاضر ، ومن ثم فإن أساس الخلاف بين السنة والشيعة منقطع من هذه الناحية أما ما نرى الآن من خلاف بين شيعة آية الله الخميني ومن معه من الآيات من ناحية وأهل السنة من العرب خاصة فهو خلاف تستطيع أن نصفه بأنه شخصي ، لأن آية الله الخميني يحقد على العرب والسنة ، وهو يجتهد في تصفية هذا الحقد بالحرب على العرب وأهل السنة وحماس الكثيرين من أهل إيران له ، حماس وقى لا يلبث أن يزول . فإن في إيران نفسها أهل سنة كثيرين جداً ، وفي البلاد العربية أعداد غفيرة من الشيعة ، وقد عاش هؤلاء وهؤلاء فروناً متطاولة متواطئين متآخين ، فإذا جاء اليوم الخمينيون وتصوروا أنهم متغلبون على العرب ومذلّوهم تحت ستار الشيعة فهذا وهم دون شك ، وسيرون في النهاية أنهم مخبطون وعندما تنتهي الحرب الراهنة ، ويتأكد الخمينيون أنه لا سبيل لهم في الحياة إلا بالأعوة مع العرب ، سينتهي كل شيء ويعود الصفاء .

هناك بطبيعة الحال فرق إسلامية بعيدة كل البعد عن أساسيات الإسلام ، لكنها في الحقيقة فرق شاذة ، محدودة العدد غير قابلة للنمو ، ويرجع شلوغها إلى أن الذين أنشئوها لم يفهموا الإسلام ، وأرادوا أن يدخلوا فيه حاملين عقائدهم الأولى مع إعطائها ظاهراً إسلامياً من القول بالشهادتين . ومادامت هذه الجماعات مغلقة على أصحابها فحن أحرياء ألا نبأ في تقدير خطرهما . وهي قد تحولت مع الزمن إلى

روابط ومصالح اجتماعية واقتصادية بين أفرادها .

والإسلام — كما قلنا — يتمثل في أوضح صورهِ في جماعته قبل أن يتمثل في شكل النظام السياسي الذي يحكم هذه الجماعات . والجماعة الإسلامية مركزها المسجد ، فهو في أصلهِ ليس مجرد مُصَلَّى فحسب ، بل هو مكان اجتماع للمسلمين أيضاً ومركز دراسة وعلم وإعلام ورابطة حقيقية بين الناس ، وبحكمة وملاذ للمسلمين في أوقات الشدة ، ومن هنا فإن وجود المسجد أساسى بالنسبة للجماعة . فالجماعة الإسلامية ، التى لها مسجد أو مساجد ، جماعة متأسكة مترابطة ذات كيان وقوة ومستقبل ، والجماعة الإسلامية التى لا مسجد لها مصورها إلى الزوال .

ومن ثَمَّ فإن واجب المسلمين الأول هو أن يكون لكل جماعة إسلامية — مهما اُغْل عدد أفرادها — مسجد ، ويرتبط بالمسجد الإمام ، وهو الذى يحمي الشعائر ويطبق قواعد الشرع ، ويعمل على جمع شتات الناس ويصبرهم يشئونهم الدينية ، ويزيدهم معرفة وإحساساً بأخلاقيات الإسلام وبأهمية العمل . على حفظ الجماعة الإسلامية الكبرى وتقدمها .

ومن ثم فإن جانباً كبيراً من مستقبل الجماعة الإسلامية على الأرض يتوقف على تكوين الأئمة القادرين على القيام بهذه المهام الكبرى بين الجماعات الإسلامية ، ولا بد لهذا من إعدادهم إعداداً دينياً وعلمياً وإنسانياً ومعاصراً لأن الكثيرين من أولئك الأئمة يعملون للعمل على أسس ماضية وأساليب انقضى زمانها ، فهم يعيشون في الماضي . فإذا خطبوا خاطبوا أجيالاً ماضية ، ولم يكن لهم في أهل الحاضر أى أثر ، وإن معظمهم لا يعرفون لغة غير العربية وعذا أمر مؤسف لأن صراحتها في العصر الحاضر قائم مع أمم غير عربية ؛ فكيف يواجهها ونحن لا نعرف لغة أهلها ، لأننا ينبغي أن نذكر أنهم سيعملون في القرن الحادى والعشرين بكل حضارته ولغاته وتكنولوجياه وعلموه ، وبكل بحره وشره وأخطاره كذلك .

خلاصة :

إن أهم النقاط التى تناولها الكلام نيساً تقدم هى أن الإسلام ولد في مكة عندما

نزل الوحي على الرسول ﷺ بأول آيات القرآن ، وكان طبعاً أن يعمل الرسول ﷺ على إنشاء جماعة للمسلمين التي تؤمن بمبادئ الإسلام وتسير على هدى القرآن وتعمل على نشر العقيدة بين غيرها من الجماعات . غير أن إنشاء هذه الجماعة على النحو الذي يمكنها من القيام بهذه الواجبات لم يم إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة .

وقد عمل الرسول ﷺ على إنشاء الجماعة في أول يوم نزل فيه المدينة معتمداً على نواة المؤمنين الذين كانوا قد سبقوه بالهجرة إلى المدينة واستقروا فيها ، ومحمداً كذلك على النقاء الذين كان قد تم اختيارهم قبيل بيعة العقبة الثانية ، واتخذ ﷺ خطوات إيجابية نحو إعطاء الجماعة الإسلامية هيئتها وقوتها ، فاستحدث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم ابتنى مسجده ليكون المركز الديني والاجتماعي للجماعة . ثم أنشأ حجراته في ركن المسجد ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسي للجماعة .

وبعد ذلك مباشرة ، وضع — بالفهم مع صحابته — دستوراً للمدينة يمثل في الكتاب الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار ومن أراد التعاون مع أمة الإسلام من يهود المدينة . وقد كتب هذا الدستور على مراحل ، وتفصل في فصل خاص من كتابنا هذا كيف تم ذلك . وعلى طول حياته ﷺ كان إيمانه بالجماعة شديداً ، بتنظيم أمورنا وتوجيهها في الطريق السليم الذي يمكنها من أن تكون جماعة حية قوية قادرة على تنظيم أمورنا بحسب مبادئ الإسلام وشريعته وقانونه الأخلاق ، وقادرة كذلك على الدفاع عن الإسلام ومذرواته خارج حدودها ، أي على توسيع نطاق الجماعة نفسها .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وعندما تولى أبو بكر بدأت معالم الإطار السياسي والعسكري للدولة الإسلامية في الظهور على يديه . وجاء عمر بن الخطاب فأكمل ذلك العمل بفضل ملكاته كفائد قادر على توجيه الجماعة في الطريق الصحيح . فأكمل الإطار الإداري للدولة ووضع لها أول نظام مالي عرفه ، وثبت أصول القانون الخلفي الذي يحكم الوظائف العامة ومن يتولونها ، وأحكم الروابط التي تربط الجماعة بالهيئة الحاكمة ، وسار بالمسلمين الخطوات الأولى في ظل إمبراطورية واسعة هامة لكل البشر .

وفي أيام أبي بكر وعمر كانت الجماعة والقولة شيئاً واحداً ، بسبب سيرة الاثنين — الجماعة والدولة — على قانون خلقى واحد والتزامهما مبادئ الإسلام . ولكن أيام عثمان شهدت بدء الانفصال بين الجانبين ، لأن بعض تصرفاته لم تعجب فئراً من أهل الرأى فى الجماعة فنقلوها ، ثم اتسع نطاق النقد وأصبح احتجاجاً ثم تمرداً ، وأدى ذلك إلى وقوع الحرب الأهلية التى انتهت بقيام نظام سياسى هو الدولة الأموية التى فرضت على الناس بالقوة والحيلة . فأنكر الناس الشكل الدستورى لذلك النظام الجديد ، ورفضوا طريقته فى الوصول إلى الحكم . وبدأ الانفصال بين الأمة والحكومة ، وأخذ اليون بينهما يتسع ، ومن ذلك الزمان نجد أمناً دائماً فى كل من المجتمعات الإسلامية كيانين — أحدهما متميز عن الآخر — هما : « الجماعة » و « الدولة » . فإذا كانت الدولة صالحة متبعة شريعة الإسلام وأخلاقياته تطابق الكيانان ، وإذا كانت غير صالحة ظهر الانفصال بينها وبين الجماعة .

لهذا فقد تعودت الجماعات الإسلامية أن تنظم نفسها بنفسها دون الاعتماد الكبير على الحكومة : فالمساجد والتعليم والمواصلات والعناية بالاحتاجين وإعداد الفقهاء وأهل العلم ، كل ذلك كان من اختصاصات الأمة ، أما الحكومة فاقصر عملها على الحماية الخارجية وصيانة الأمن داخل الجماعة ، على درجات متفاوتة من التوفيق فى ذلك والتاريخ الحقيقى للأمة هو تاريخ الجماعات التى تكونت منها ، وإلى جماهير المسلمين يرجع الفضل فى بقاء الإسلام قوياً عزيزاً وفى توسيع رقعته بإدخال شعوب أخرى فيه .

لقد انتشر الإسلام من طريق الفتوح العسكرية والدعوة السلمية . أما الفتوح فلم تنشر الإسلام بصورة مباشرة ، وإنما فحّت له الباب فقط ، وترك الفاتحون أهل البلد المفتوح أحراراً ليتصرفوا إلى الإسلام ويقيموا فضائله ويدخلوا فيه ، لأن النظرية الإسلامية فى هذا الصدد كانت تصدر عن الآية الكريمة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ (البقرة ، آية ٢٥٦) .

ومن هنا نستطيع القول إن الإسلام نشر نفسه بنفسه واتسع مجاله بقوة الذاتية وفضائله . وعلى طول تاريخ المسلمين نجد أن الأمة هى أسس الوجود الإسلامى ، وأن الأمة هى العنصر الدائم الثابت فى حين أن الدولة ونظمها متغيرة وغير ثابتة .

وفي ختام هذا البيان المجلل لتكوين الجماعات الإسلامية ونظمها السياسية ، قررنا أن الجماعة الإسلامية الحققة مجتمع رجال أحرار ، وأن قوتها تعتمد على حرية أفرادها وتمتع كل منهم بحقوقه وقيامه بواجباته .

ومن الواضح أن قيام الإنسان بواجباته نحو المجتمع الذي يعيش فيه متوقف دائماً على النصيب الذي يناله من الحقوق ، فالجماعة التي ينال أفرادها حقوقهم ويتمتعون فيها بحرياتهم المشروعة جماعة نشيطة يقوم أفرادها بأداء واجباتهم حيالها من دفاع ومساعدة صادقة .

ثم تتبعنا بعد ذلك انتشار الإسلام في الدنيا ، بادئين بانتشاره في الشرق وخصه إيران وأفغانستان ووصوله إلى الهند وتركستان أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية . ووقفنا وقفة قصيرة عند نتائج فتح إيران وما يليها شرقاً بالنسبة لتكوين الجماعة الإسلامية ، وقلنا إنها لم تعد عربية وإنما إسلامية عامة يشترك فيها أعضاءها من المسلمين عرباً كانوا أو غير عرب .

وتبعنا انتشار الإسلام في المغرب في العصر نفسه حتى وصوله إلى ساحل الأطلسي ، ثم فتح الأندلس وجنوب فرنسا وبداية تحول شبه الجزيرة الأيبيرية إلى بلاد إسلامية .

واستوردنا بعد ذلك إلى الكلام على انتشار الإسلام في أفريقيا المدار والاستوائية ، على يد المرابطين والمجاهدين أولاً ، ثم على يد جماعات الصوفية والتجويد والدمعة بعد ذلك .

وعُدنا إلى تتبع سير الإسلام شرقاً في الهند وبلاد الترك حتى داخل الصين وذكرنا أهم الدول التركية التي أسهمت في ذلك مثل الغزنويين والغوريين والمغول المعروفين بالتيغوريين ، وتبعنا انتشار الإسلام في بلاد الملايو وإندونيسيا والفلبين

وبينا بعد ذلك أن سير الإسلام وتقدمه لم يتوقف منذ زمن الرسول ﷺ إلى اليوم ، فهو دائماً في اتساع وزيادة ، سواء في عصور القوة أو عصور الضعف ، وهو في وقتنا الحاضر مازال يسير إلى الإمام . ولم يفقد الإسلام في سيرة الطويل إلا قطرين هما : الأندلس وصقلية ، وكان لكل منهما ظروف خاصة أدت إلى ذلك .

وقد تعرضت أم الإسلام في تاريخها لأزمات وأخطار كثيرة متلاحقة ، ولكنها خرجت منها منصوره بفضل قوة الإسلام نفسه وسلامة مبادئه وحيوية تشريعه وقانونه الخلقى ، ثم بفضل تمسك جماهير المسلمين بدينهم . وضررنا مثلاً على مقابلة الإسلام للشذائد ومخروجه منها سليماً بما حدث من أواخر القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين من اجتماع الخطر الصليبي والخطر المغولي عليه . وكان أى خطر من هذين الخطرين كفيلاً بإزالة عالم الإسلام من الوجود ، ولكن الإسلام وأمنه بقيت للأسباب التى ذكرناها .

والتينا أخيراً نظرة عامة على جماعات الإسلام فى أوروبا والأمريكيتين ، وذكرنا أن الإسلام ما زال ينتشر فى كل اتجاه ، رغم أن سياسات بعض الأمم الناشئة فى أفريقيا تضع عراقيل فى سبيل انتشاره ، ولا بد من إزالة هذه العراقيل حتى يستمر سير الإسلام فى تلك القارة ، ولا بد — كخطوة أولى لذلك — من تقوية الجماعات الإسلامية المتناثرة فى العالم ، بتوجيهها إلى تنظيم أنفسها وتوثيق الروابط بين أفرادها ، ومعاونتها على إنشاء المساجد لها وإعداد الأئمة والقادة القادرين على حمل مسئولياتها ، وعلى حمايتها من الضعف والانكماش ، وعلى فتح طريق التوسع أمامها .





مراجع مختارة

الأصول القديمة :

لا يستغنى الباحث في تاريخ الإسلام عن النظر في التاريخ المطول الذى كتبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) وعنوانه « تاريخ الرسل والملوك » (بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم) ، عدة أجزاء ابتداء من ١٩٦٠ م بالقاهرة . وأحسن المراجع في السيرة النبوية الكريمة : « سيرة النبى » لأبى محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) في أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٤٥) ، و « كتاب المغازى » لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٨ هـ / ٨٢٢ م) بتحقيق مارسدن جونز MARSDEN JONES ، القاهرة وكمبريدج سنة ١٩٦٧ في ثلاثة أجزاء .

أما الأقل استفادة من تاريخ الطبرى فهو كتاب التاريخ الذى ألفه على بن أبى الكرم أحمد بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) المسمى : « الكامل في التاريخ » ، وهو — إلى جانب اختصاره — يستمر في رواية الحوادث إلى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد طبع في بولاق بالقاهرة ١٨٣١ ، وطبع بعد ذلك مراراً دون تحقيق علمى . ولهذا فما زالت أحسن طبعة له هى التى قام بها المستشرق تورنبرج TORENBURG في مدينة أوبسالا في السويد .

وهناك مختصرات جيدة تعد من الأصول في تاريخ دول الإسلام أهمها : كتاب « التاريخ » لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح البهقوى (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) ، وهو معاصر للطبرى تقريباً ، ويمتاز بالدقة ونجوى الصدق . وقد نشره المستشرق الهولندى هوتسما HOUTSMA في لندن بهولندا سنة ١٨٨٣ محققاً ، وعلى أساس هذه الطبعة طبع مراراً في البلاد العربية ، وكتاب « المختصر في

أنجبار البشر ، لأبي القفا إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣١ م) ، القاهرة ١٨٩٧ ؛ وطبع بعد ذلك مراراً .

وعلى ذلك مختصران أصغر حجماً ولكنهما يمتازان بالدقة والمعرفة الصحيحة :

أولهما كتاب « الفخرى في الآداب السلطانية » لمحمد بن علي طباطبا الذي يسمى أيضاً بابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) ، وقد طبع في القاهرة طبعة جيدة سنة ١٩٢٧ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مراراً .

والثاني « تاريخ الخلفاء » لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وطبعاته كثيرة في كل البلاد العربية .

ويدخل في زمرة هذه الأصول كتابان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) :

الأول « فروع البلدان » ، وهو يتتبع قيام جماعة الإسلام ودولته واتساعها حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، مع فصول أساسية بمجملته عن بعض نواحي التنظيم الإسلامية : كالديوانين والتفود .

والثاني هو « أنساب الأشراف » ، وهو كتاب تراجم واسع ، ولكن مجلده الأول الذي نشره محمد حميد الله في القاهرة سنة ١٩٥٩ يدور كله حول السيرة النبوية الكريمة ويترجم للكثيرين ممن عاصروا النبي ﷺ ، سواء أكانوا أنصاراً أم خصوماً للإسلام . وللكتاب أجزاء أخرى لم تطبع بعد ، وهو من ذخائر المكتبة العربية التاريخية . وإذا كان كتاب « فروع البلدان » يؤرخ للجماعة الإسلامية ألقياً — أي يتتبع امتدادها واتساع نطاقها — فإن أنساب الأشراف يؤرخ لها رأسياً بالتعمق في حياة الرجال .

وفيما يتصل بتراجم الرجال والنساء ، أي توليخ حياتهم ، فلدينا : كتاب « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد (ت ٢٢٠ هـ / ٨٧٥ م) ، وهو مجموع مختار من تراجم الصحابة والتابعين مصدرة بترجمة واقية مطولة للرسول ﷺ . وهو من المراجع الأساسية في تاريخ الجماعة الإسلامية ، وقد طبع الآن طبعة كاملة في بيروت سنة ١٩٥٨ . ولدينا ثلاثة مؤلفات أخرى في تراجم الصحابة وهي :

— « أسد الغابة في معرفة الصحابة » لابن الأثير الذي ذكرناه ، ط . القاهرة ١٨٦٣ .

— الإصابة في معرفة الصحابة « لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م ، ط . القاهرة ١٩١٠ .

— الاستيعاب في معرفة الأصحاب « لأبي عمر يوسف بن عبد البر الحمري الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) ، وقد طبع في حيدر آباد سنة ١٩٤٠ .

وبالنسبة لتراجم غير الصحابة والتابعين ، لدينا أربعة كتب في التراجم يكمل بعضها بعضاً ، فتعطينا سجلاً حافلاً بالشخصيات الظاهرة في تاريخ الجماعة الإسلامية إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي :

— « وفيات الأعيان » لشمس الدين أبي العباس أحمد بن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) ، نشره محي الدين عبد الحميد في أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٨ .

— « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي ، القاهرة ١٩٥٢ .

— « الوافي بالوفيات » لصالح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، طبع أجزاء منه المستشرق هلموت ريتز H. RITTER ، الآستانة سنة ١٩٣١ .

— « المنهل الصافي والمستوف بعد الوافي » لجمال الدين أبي الحسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) ، طبع منه مجلد واحد في القاهرة سنة ١٩٦٢ .

وأهم الأصول القديمة في تاريخ التنظيم الإسلامية كتب « الأحكام السلطانية » لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م) ، وهو كتاب رئيسي في نظم الدولة الإسلامية وإدارتها . ويليه في هذا المضمار كتب « الخراج » لأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ — ٨٠٨ م) ، وهو كتاب صغير حافظ بالمعلومات والآراء عن النظرية السياسية للدولة الإسلامية على عهد العباسيين ، وكذلك عن الشؤون المالية للدولة .

ولابد للإحاطة بالتنظيم الإسلامية من دراسة مقدمة بن خلکان ، وهو عبد الرحمن

ابن محمد الحضرمي (ت ١٤٠٦/٨٠٨) وقد طبعت مراراً .

ولكى بأخذ القارىء فكرة عن اتساع الدولة الإسلامية في أوجها ، وتربط جماعاتها وما امتازت به أقاليمها ، لابد من الرجوع لكاتب الجغرافية العربية ، ونخص منها بالذكر هنا كتاباً واحداً هو « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن البناء البشارى المقدسى (ت ٣٨٨ هـ / ٩٧٧ م) ، وقد نشره المستشرق الهولندى دى جويه De Goeje بمدينة ليدن بهولندة ، ١٩٠٦ ، وأعيد طبعه بالأوفست .

ويكمل هذه الصورة بعضُ كتب الموسوعيين الذين كتبوا كتباً شاملة هي أشبه بالموسوعات عن عالم الإسلام وما فيه من أُمم وشعوب وما اختلط فيه من حضارات ، وأحسن نموذج لذلك كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، وكتاب « التنبيه والإشراف » ، وكلاهما من مؤلفات أبى الحسن على السعوى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) . وقد طبع الأول مع ترجمة فرنسية في باريس بين سنتي ١٨٦١ و ١٨٧٧ . أما الثاني فقد طبعه المستشرق دى جويه في ليدن سنة ١٨٩٣ ، وطبع في القاهرة ١٩٣٨ .

مؤلفات حديثة :

أما الكتب العربية التي ألقت في العصور الحديثة ، فمن أحسن ما بين أيدينا منها كتاب « محاضرات في تاريخ الدول الإسلامية » للشيخ محمد الحضرمي (القاهرة ١٩١٥ في جزئين) ، وهو يؤرخ للإسلام على طريقة متوسطة بين القديم والحديث . ولهذا فإن له أهمية خاصة .

وعلى ذلك كتاب حسن إبراهيم حسن المسمى : « تاريخ الإسلام السياسي » ، ويقع في ثلاثة أجزاء تصل إلى نهاية العصر العباسي الثاني ، وهو سجل حافل بالحوادث يرويها بطريقة سهلة بسيطة ، ويضيف في كل جزء فصلاً عن الأحزاب السياسية والمذاهب والفرق الدينية ونظرات في الأحوال الاقتصادية ، وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة مرات عديدة ابتداء من سنة ١٩٣٥ بالقاهرة .

ولدينا في تاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية كتب ممتازة لعبد العزيز الدروى

مثل : « مقدمة في تاريخ صدر الإسلام » الذي صدر أولاً سنة ١٩٤٩ وأعيد طبعه في بيروت ١٩٦٠ . و « العصر العباسي الأول » (١٩٤٥) ، و « دراسات في المصور العباسية المتأخرة » ، بغداد ١٩٤٥ ، و « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » (١٩٤٨) وكتاب « التنظيم الإسلامية » (١٩٥٠) .

وكذلك كتاب أحمد الصالح الطل في التاريخ الإسلامي العام : « محاضرات في تاريخ العرب » ، طبع مراراً في بغداد .

وبضاف إلى هذه الكتب كتاب محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، وطبعاته كثيرة ، وهو سيرة نبوية تمتاز بأسلوب أدبي ونظرة شخصية دون تعمق في دراسة أصول السيرة .

على أن كتابين لطله حسين : « الفتنة الكبرى » ، عثمان ، و « علي وبنوه » يمتازان بالأصالة وعمق النظرة التاريخية . وهما من أحسن ما لدينا عن الفتنة الأولى التي مهدت الطريق لنهاية عصر الخلفاء الراشدين .

ومن أكثر الكتب الحديثة توفيقاً في هذا المجال مجموعة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » لأحمد أمين ، وهي كتب ممتازة تلقى ضوئاً ساطعاً على الحياة الاجتماعية والفكرية في عالم الإسلام .

وفيما يتعلق باتساع دولة الإسلام شرقاً وغرباً لدينا الكتب التالية :
- أحمد السادات : « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم » جزعان (القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٩) .

- حسن إبراهيم حسن : « انتشار الإسلام والعروبة في الصحراء الكبرى وشرق القارة الأفريقية وغربها » (القاهرة ١٩٥٧) .
- حسن أحمد محمود : « انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا » ، القاهرة ١٩٥٨ .

- حسين مؤنس : « فتح العرب للمغرب » (القاهرة ١٩٤٨) ، و « فجر الأندلس » (القاهرة ١٩٥٩) ، وفيهما دراسة لاتساع دولة الإسلام غرباً .
- شكري فيصل : « قيام المجتمعات الإسلامية » ، طبع في دمشق مرتين .

- عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدولة الإسلامية في غرب أفريقيا » (القاهرة ١٩٦٤) .

- عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدول الإسلامية في شرق أفريقيا » (القاهرة ١٩٦٥) .

- ف . بارتولد F. BARTOLD : « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٣) .

ومن بين الكتب الجيدة التي ترجمت إلى العربية يعد كتاب « تاريخ العرب » لتعليب حتى ، من أحسن الموجزات في تاريخ دول الإسلام حتى نهاية عصر المماليك ، وكتاب « الدعوة الإسلامية » لتوماس أرنولد THOMAS ARNOLD ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، (القاهرة ١٩٤٧) ، وكتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » تأليف آدم ميتز ADAM METZ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٩٤٧) ، وقد أعيد طبعه بعد ذلك ، وهو من الكتب الأساسية التي لا بد أن يطلع عليها كل دارس لتاريخ الحضارة الإسلامية . وقد ترجم أبو ريدة أيضاً « تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » (القاهرة ١٩٥٨) ، وهو من تأليف المستشرق الألماني يوليوس فلهاروزن JULIUS WELLHAUSEN ، وهو من أهم ما ألف في تاريخ الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي .

والمراجع عن الحروب الصليبية كثيرة نكتفي بأن نذكر منها هنا :

- حسين مؤنس : « نور الدين محمود » ، القاهرة ١٩٦٢ .

- سعيد عبد الفتاح عاشور : « الحركة الصليبية » ، في مجلدين ، القاهرة ١٩٦٣ .

- عمر كمال توفيق : « مقدمات العنوان الصليبي » ، الإسكندرية ١٩٦٦ .

- محمد محمد العروسي المطوي : « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » ، تونس ١٩٥٤ .

وعن الخطر المغولي لدينا كتاب السيد الباز العريني : « تاريخ المغول » .

ولكن أوفى الكتب عن موضوع المغول إلى الآن هو :

HOWARTH (HENRY) History Of Mongols , 3 Vols .

وقد نشر أول مرة سنة ١٨٨٨ ، وأعيد طبعه مراراً بعد ذلك .

GRUSSET (René) : Les Empires Des Steppes, Paris 1928 .

أما الكتب غير العربية التي ألقت عن قيام الإسلام وجماعه وانتشاره في العالم فكبيرة جداً ، تختلف حظوظها من الجودة والإنصاف . ويندر أن يخلو كتاب منها مما لا يرضى عنه القارئ العربي أو المسلم ، بل مما قد يسوؤه . ولكن ينبغي أن نذكر أن مؤلفيها يكتون هذه الكتب لقراءتهم لا لنا ، ومن ثم فهم لا يراعون ما يرضينا وما لا يرضينا . وهم يكتون من وجهة نظرهم أو من وجهات نظر شعوبهم ، وهذه تختلف في الغالب عن وجهات نظرنا . ثم إن هذه هي طرائقهم في التفكير والتأليف ، حتى عن أنفسهم وجماعاتهم وعقائدهم . فهم يتقنون كل شيء ، والكثيرون منهم لا يراعون إحساس الآخرين فيما يكتون . وهم ليسوا عرباً حتى يكتبوا عن شعور عربي ، ولا مسلمين حتى يصدروا عن قلوب مسلمة . وليس من الحكمة أن نمسك عن قراءة ما يكتون ، لأن واجبنا نحو الإسلام والعروبة يطالبنا بأن نقرأ كل ما يكتب عنا وأن نناقشه ونساجل أصحابه ففكرة بفكرة ورأياً برأى ، ولو كانوا أشد الناس تعصباً علينا . ولا ننسَ آخر الأمر أن في الكثير من هذه الكتب علماً غزيراً وفهماً جديداً ومنهجاً علمياً سليماً نفتسه وأسلوباً محكماً في الكتابة نهدي به .

وإليك طائفة من أحسن ما ألف في موضوع هذا الفصل من الكتب :

ABEL, ARMAND : Le Monde Arabe et Musulman , Bruxelles 1960 .

ALLWORTH, EDWARD : Central Asia, A century Of Russian Rule, 1967

BANIMATE, HAIDAR : Visages De l'Islam, Louvain 1958 .

BERQUE, JACQUES : Les musulmans D'hier à Demain, 1960 .

CARDET, LOUIS : La Cité Musulmane, Paris 1954 .

COLES, P. : The Ottoman Impact on Europe, 1968 .

CONTWELL SMITH, WILFRED : Islam In Modern History , New York, 1957

DANIEL, N. A. : Islam, Europe And Empire, 1966 .

MONTEIL, VINCENT : Les Arabes, Paris 1957 .

MONTEIL, VINCENT : Les Musulmans Soviétiques, Paris 1957 .

- MUIR, SIR WILLIAM : The Caliphate, its Rise, Decline And Fall, Edinburgh 1926 .
- NUTTING, ANTHONY : The Arabs . New York , 1966 .
- FLANDBOL , XAVIER DE : Le Monde Islamique , Essai De Geographie Religieuse , 1937 .
- RICE , T . T : The Saljuks In Asia Minor , London 1966 .
- RONDOT , P . : L'Islam Et Les Musulmans D'aujourd'hui , 1958 .
- SALINDERS , JOHN L . : The Muslim World Do The Eve Of European Expansion , New York 1970 .
- STEWART , D . : The Arab World , London 1966 .
- SYKES , PERCY : A History Of Persia , 3d . ED . London 1968 .
- VILLIERS , A . : Sons Of Sinbad , 1955 .



الفصل الثالث

الجماعة الإعلامية الأولى في المدينة



توثيق الصحيفة

أورد في هذا الفصل عن الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة نص الصحيفة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه « يهود » . وقد أوردته مع دراسة موجزة لكي يطلع القارئ على البدايات القانونية والإنسانية والبشورية لأمة الإسلام . وهذه فيما أحسب كانت أول مرة تلقى فيها الوثيقة هذه العناية ، لأن أصحاب كتب الأحاديث من صحاح ومسانيد لم يوردوا النص الكامل لهذه الوثيقة . وبعضهم أهلها تماماً مكثفا بإشارة بسيطة إليها ، كنا نظن أن الوحيد الذي أورد نصها كاملاً هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، فقد أخذ نصها مكتوباً من الإمام موسى الكاظم الذي ورثها عن جده علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وهو الذي كان قد كتب نصوص أجزاءها عند كتابتها عقب الاتفاق عليها واحتفظ بها في قراب سيفه وورثها عنه أولاده وأحفاده .

وجود نص واحد كامل للصحيفة فتح الباب أمام بعض المؤرخين ليشككوا في أصالة هذه الصحيفة مع وضوح أصالتها وأهميتها بالنسبة لتطور الفكر الإسلامي والجماعة الإسلامية .

وقد عثرنا بعد ذلك على نص آخر كامل للوثيقة . ونص ابن إسحاق الذي أوردته ابن هشام مع بعض التعديلات مروى عن زياد بن عبد الله البكائي الذي نقل نص ابن إسحاق كاملاً ، ولكننا عثرنا أخيراً على نص كامل للوثيقة يطابق النص الذي أوردته البكائي وهذا النص الثاني أوردته بن خزيمة فأسنده : حدثنا أحمد بن جنتاب أبو الوليد ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه . وهذا النص مع ذلك الإسناد أوردته فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد .

ابن سيد الناس الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ في سيرته لرسول الله ﷺ المسماة
« عيون الأثر في فنون المغازي والشمايل ، والسير » (طبعة دار الجليل بيروت)
ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٨) .

وأعتقد أن وجود نصين كاملين متطابقين للصحيفة يكتفى لإثبات أصالتها . وإليك
إلى جانب ذلك ما أورده عن نص الوثيقة الدكتور محمد حميد الله في كتابه « الوثائق
السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة » الطبعة الثالثة دار الارشاد بيروت ١٩٦٩
عن نصوص كاملة أو غير كاملة للصحيفة رأها هو ، وأنا أوردها هنا على عهده .
وهو رجل أهل لكل ثقة .

مراجع النص الكامل :

ابن هشام ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢
ابن إسحاق (القطعة التي عثرنا عليها من نصه) ورقة ١٠١ أبو عبيد القاسم
ابن سلام ، كتاب الأموال ص ٥١٧
ابن سعد ، الطبقات (نص جزئ)
ابن زنجويه (كتاب الأموال مخطوطة بوردور في تركيا ، عن الزهري ورقة ٧٠
ف - ٧١ ف (نص جزئ) .
عمر الموصلي ، وسيلة المتبعدين ، ج ٨ ، ورقة ٣٢ ف ، عن ابن إسحاق (نص
جزئ) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٢٤/٣٠ - ٢٢٦ (نص جزئ) .
وانظر عند محمد حميد الله عن النصوص والكفاهات الخاصة بالوثيقة بغیر العربية
ص ٣٩ - ٤١

وفي سنة ١٩٧٨ نشر Robert Bertram Serjeant أحسن دراسة عن هذه الصحيفة إلى
الآن وعنوانها :
The Sunna Moslem , Facts With The Yathrib Jews And The Tahrir Of Yathrib
: Analysis and Translation Of The Documents Comprised In The So - Called Constitution Of Medina
وقد نشرها في :
The Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies
University of London Vol Xli Part I , 1978 10 - 1 - 42

وهي دراسة مستقصاة وجيدة جدا لهذه الوثيقة وأظن أن هذا كله يكتفى لإقناع
القارئ بأصالة هذه الصحيفة التي تشهد كل القرائن بصحتها ، بل إن أسلوبها في
رأي الدكتور طه حسين من أوائل النصوص الثرية في اللغة العربية (خارج القرآن

(الكريم) وغن ممتيون بنصر هذه الصحيفة لأنه يرينا الأصول التاريخية والقانونية والدستورية للأمة الإسلامية . وهذا أساس بالنسبة لمن يدرس تاريخ أمة الإسلام .

تمهيد :

وصل محمد ﷺ إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة (٢٤ سبتمبر ٦٢٢)^(١) . وكانت المدينة عند وصوله سهلاً فسيحاً صخرى التربة ، ولكن مياه الأمطار والسيول المتوالية وعوامل التعرية الأخرى فتت تربته في وسطه ، وخطت فيها مجارى وديان ضحلة ، تحمل في الخريف والشتاء مياهاً كثيرة تفيض في السهل ، فحولت التربة البازلتية مع الزمن إلى أرض خصبة ، وحفل باطن الأرض بالماء . وسهل على الناس العثور على الماء في مواضع كثيرة من السهل ، فانتشرت الزروع في وسطه ، أما جانباه الشوقى والغرقى فقد ظلا هضبتين صخريتين قليلتي الارتفاع تعرفان بالخرثين أو اللاتين^(٢) .

وأقدم من تعرف ممن عمر هذا السهل بطون من شعب قضاة القديم ، وكانت قضاة شعباً كبيراً سكن الجزيرة قبل الميلاد بنحو عشرة آلاف سنة . وكانت جزيرة العرب كلها إذ ذاك أرضاً كثيرة الأعشاب ووفرة المياه والأشجار والزروع ، فعاشت فيها شعوب ضخمة أهمها قضاة هذه وطىء ولحم والأزد وغيرها . ثم أعذت الأمطار ثقل والحضرة تلاكى ، فلم يعد وسط الجزيرة وشمالها بقادريين على حمل الشعوب الكبيرة ، فبدأت هذه تتفكك ، وتحولت إلى قطع قبائلية صغيرة ، ولم يبق على تماسكها إلا قبائل جنوب الجزيرة ، حيث ظلت المياه ووفرة في حضرموت واليمن ، وتوالت هناك دول القتيانيين والسبأين والحمرين الذين شمل سلطانهم وسط شبه الجزيرة أيضاً .

(١) هذا هو التاريخ التقليدى الشائع لوصول الرسول ﷺ إلى قباء ، ولكن المؤرخين هم متفقين عليه . فهناك من يقولون إلى الوصول كان في الثامن من ربيع الأول ، وهناك نوازع أخرى . ويلاحظ أن ١٢ ربيع الأول هو أيضاً تاريخ مولد الرسول ﷺ ، وهناك اتجاه عند الكثيرين من المؤرخين إلى وضع الكثير من حوادث السيرة في ذلك اليوم من شهر ربيع الأول ليمنا بركته .

(٢) مفرد البئرَيْن خَرَّة . وكانت حفرة الشرقية تسمى حرة ولقيم والحرة الغربية تسمى حرة الزرة . أما لفظ لآة فيجاء من العوص لأن معناه الأرض الصخرية المربعة ، فهي والحرة شبه واحد .

ومن هذه الشعوب التي تفككت قضاة ، فأصبحت أوزاعاً متشرة في نواحي شبه الجزيرة . ومن فروعها الكبار التي بقيت بنو بل بن الحاف (الحاف) ابن قضاة ، هؤلاء استقر كثيرون منهم في نواح من شمال شبه الجزيرة وغربها ، ونزل منهم فريق في سهل المدينة وزرعوا وتمولوا . ثم نزلت حول المدينة فيما بعد قبائل مهاجرة من جنوى فلسطين ، فيها الكثير من اليهود ، فاستقرت في أجزاء من الجانب الشرقى من سهل المدينة ، وتكاثر في وسادتها بعض أجزائه بكثرة رجالها وبمهارتهم في الصنائع والحرف والزراعة ، واشتد النزاع بينهم وبين القضاة المتفوقين .

ثم نازعتهم السيادة في السهل قبائل شديدة المراس ، معظمها مهاجرة من الجنوب ، وأهمها الأوس والخزرج ، استطاعوا أن يغلبوا اليهود والقضاة ويسودوا معظم السهل ، ويبدو أنهم تحالفوا أول الأمر مع القضاة ، فلما أصبحت لهم السيادة أنكروا فضلهم واستخدموه في فلاحه الأرض . أما اليهود فظلوا محافظين على مواقعهم في السهل ، فحصنوها بحصون كبيرة تسمى الآطام ، وهى عبارة عن أسوار عالية من الصخر تضم مساحة كبيرة وغيرة الماء ، فتلجأ إليها القبيلة ساعة الخطر . وفي العادة يكون للآطام أبواب ضخمة وتقوم بدخله بعض الأبنية للسكن ، وتقوم على السور أبراج للحراسة . وعن اليهود أخذ الأوس والخزرج الآطام ، فأصبح لكل فرع من فروعهم أطمه الخاص به في وسط الجزء الذى سكنه من السهل .

المدينة قبل هجرة النبی ﷺ إليها :

ولم يوفق الأوس والخزرج إلى وضع نظام لحكومة السهل ، فعاشت فيه مجموعتين قبلتين متجاورتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى ، ونشب النزاع بينهما ، ففكرت الحروب وتعددت الوقائع . وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس ، وكانوا كذلك أكثر أرضاً ومالاً . ولكن الأوس كانوا ذوى شوكة وضروة في الحرب مكنت لهم من الاحتفاظ بمكانهم برغم قلة عددهم . وقد استعانوا باليهود في صراعهم مع الخزرج ، وكان اليهود يرحبون بذلك ويعملون على توسيع شقة الخلاف بين الجانبين ، ويجهدون في تأييد الأوس ما أمكنتهم ذلك . ولم يمنعهم هذا من الوقوف من الجانبين موقف العداء إذا اقتضت مصالحهم ذلك .

تلك هي عاصر السكان الأربعة (القضايعيون والخزرج والأوس واليهود) التي كانت تعمر سهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها . وينبغي أن نقرر أنها بطبيعة تكوينها كانت عاجزة عن الارتفاع بالسهل كما ينبغي ، ونتيجة لذلك عجزت عن الارتفاع برجالها وملكاتهم على نحو قريب مما كان المكيون يصنعون في بلدهم . فكانت مساحات واسعة من السهل متروكة هباءً دون زراعة ، بل دون تمهيد . وكانت الوديان الجافة التي أشرنا إليها تشكل عقبات حقيقية في اتصال أجزاء البلد بعضها ببعض دون أن يستطيع المدنيون إقامة قنطرة أو معبر .

وكان اتصال المدينة بطريق التجارة المار غرباً عسيراً ، فلم يكن ذلك الاتصال ممكناً إلا من ناحية الشمال الغربى فحسب ، أما من الغرب فقد كان الاتصال بطريق التجارة غير ممكن بسبب مرتفعات وعرة لا يخترقها طريق ممدد يسمح بمرور القوافل . أما من ناحية الجنوب — ناحية قباء ضاحية للمدينة الجنوبية — فكانت هناك رمال سائلة لا يسهل على القوافل قطعها . فكانت هذه المدينة — التي تقع على بعد كيلومترات مسيرة شرق طريق من أكبر طرق التجارة العالمية — مقطعة تقريباً عن ذلك الطريق ، وكأنها تقع على مسافة شاسعة منه ، ومن ثم فلم تستطع أن تستفيد منه ، في حين نجح المكيون في أن يجعلوه مورداً رئيسياً لثروتهم ، يدر عليهم أرزاقاً طائلة ويجعل لمدينتهم مركزاً سياسياً كبيراً في الحجاز بل في جزيرة العرب . ومن المعروف أن مكة — بفضل حسن استغلالها لطريق التجارة — كانت قد أصبحت من أزهى مدن الدنيا وأغناها خلال القرن السادس الميلادي ، وهو القرن الذي سبق مجيء الإسلام .

والسبب الرئيسي في قلة توفيق المدنيين في الاستفادة من سهلهم أو من موقعه الجغرافي ، هو أن عناصرهم السكانية كانت متخلفة متدبرة . فكانت القاعدة القضايعية حافلة على اليهود والأوس والخزرج جميعاً ، بسبب استغلالهم لها وعجز أفرادها عن إقامة كيان قبل مستقل لهم يستطيع الثبات في وجه الطوائف الثلاث السائلة . وكان فريق منهم قد اختلط بالأوس ، ونشأ عن ذلك فرع منهم يعد من أقوى فروعهم ، وهم بنو سمالك بن عتيك الذين منهم أسيد بن حُضَيْر الصمغاني الباسل المعروف ، ولكن ذلك الاختلاط بالأوس لم يرفع مكانة القضايعيين فظلوا على وضعهم الذي ذكرناه ، في أسفل السلم الاجتماعي في سهل المدينة .

وكان اليهود موزعين في ثلاث مجموعات قبلية رئيسية هي : بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير . وكانت هناك مجموعات يهودية صغيرة أخرى تعيش في حلف فروع من الأوس أو الخزرج ، فيقال : يهود بنى هوف ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جثشم وغير ذلك . وقد أورد المؤرخون أسماء الكثير من فروع اليهود الصغيرة هذه . وسنجد عدداً منها مذكوراً في الوثيقة التي كتبها الرسول ﷺ بين أهل المدينة ، وستكلم عنها . وكان بعض كبار اليهود يعيشون في أطام خاصة بهم ، كأنهم سادة إقطاعيون : مثل كعب بن الأشرف الذي روجه انتصار المسلمين في بدر ، فمضى يؤلب الناس عليهم ويحذرهم من امتداد الإسلام . وقد قتل هذا الرجل بعد موقعة بدر بقليل .

وكان سهل المدينة كله يسمى : المدينة ، وهي كلمة معربة من اللفظ السرياني « مدينتا » ويراد به البلد وحوزة ، أي المساحة التي تمتد عليها سلطنة . وفي سهل المدينة هذا قامت النواحي المأهولة كأنها واحات متناثرة ، مثل قباء ويثرب والسَّح وسَلْع وُبَيْعَات ، وكان بين المواضع العامرة مساحات من أرض خلاء مهملة لا يسكنها أو يقيد منها أحد .

وكان العداء بين الأوس والخزرج مستمراً وشديداً ، ولم يكن سبب الخلاف هو النزاع على السيادة ، فقد كانت لكل منهما مناطق التي ينشر عليها سيادته ، ولم يكن من عادة القبائل العربية أن تحاول إحداها السيادة على الأخرى في مجالها ، وإنما كان النزاع يقوم على مصادر الماء والواحات خارج منازل القبائل ، لأن الماء كان أساس الحياة والثروة . وفي حالة الأوس والخزرج كانت العدواة نتيجة للخوف : خوف كل منهما من الأخرى ، وخوفهما معاً من اليهود ، ثم خوف أهل المدينة جميعاً من الأعداء الخارجيين . وهذا الخوف ينشأ عادة من قلة التفاهم أو انعدامه بين الجماعات البشرية المتجاورة في مكان محدود .

الظروف المباشرة التي مهدت لهجرة النبي ﷺ :

في مثل هذه الظروف تشتد حاجة المجتمعات إلى الأمان ، ويتمثل الأمان في صورة نظام عادل يتراضى عليه الناس ويطمثون إليه ، يقوم عليه شخص أو أكثر من ذوي الحكمة والعدالة والشخصية القوية ، فيكون هذا الشخص — أو الأشخاص —

ضماناً لتنفيذ ذلك النظام عن طريق سلطان منظم ، ومن الممكن أيضاً أن يتمثل الأمان في صورة شخص قوى ذى فضيلة وقوة يفرض نفسه ويخضع له الناس ، فيتولى الحكم فيهم ويقيم النظام وينشر الأمان . وكان الأوس والخزرج يحشون — دون وعى منهم — عن ذلك الأمان والطريق إليه .

أما اليهود فكانوا في انتظار المسيح الذى يرون في مذهبهم الدينى أنه قادم يوماً من الأيام لينصرهم على العالمين . وكانوا يؤكدون لغيرهم أن ذلك المسيح المخلص قادم لا محالة ، وكانت لهم فيه شروط معقدة يزعم أنبياءهم يعرفونها . وعندما ظهر السيد المسيح في فلسطين أنكروه وكذبوه ، لأنه في رأيهم لم يستوف الشروط التى يعرفونها . وكان اليهود في المدينة يؤكدون لغيرهم أن هذا المسيح إذا ظهر فسيحتزون به على غيرهم ويبلغون به السيادة ، وكان ذلك يثير مخاوف الأوس والخزرج وغيرهم من سكان سهل المدينة .

وعندما كانت الشدة قد بلغت بمحمد ﷺ مبلغها في مكة بعد موت أبى طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها — مما اضطره إلى الخروج إلى الطائف سنة ٦١٩ م ، يبحث فيها عن الاستجابة التى لم يجدها في مكة — كان الأوس والخزرج قد التقوا في معركة دامية عند بُعث انتصر فيها الأوس انتصاراً كبيراً ، فزادت مخاوف الخزرج ، فبحثوا في العام التالى (٦٢٠ م) رسلاً إلى مكة يلتصمون بالحالف والمساهمة من أهلها . وما إن سمع محمد ﷺ بأقْدوم هذا الوفد حتى قصد إليه ليعرض عليه الإسلام — وكان محمد ﷺ مجتهداً أشد الاجتهاد في أداء رسالته ، لا يدع فرصة لإبلاغ الدعوة إلا ابتسرعاً دون أن يعرف الملل ميلاً إلى قلبه — غير أنه لم يجد عند رجال هذا الوفد قبولاً ، لأنهم كانوا مشغولين بمخوفهم الشديد من الأوس .

وهذه المحاولة من جانب محمد ﷺ تضع يدنا على نقطة البداية في اتصاله بالمدينة ، ذلك الاتصال الذى أدى إلى الهجرة ثم إلى قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة . وخطوات الاتصالات بينه وبين أهل المدينة بعد ذلك معروفة ، فبعد عام من اتصاله بوفد الخزرج اتصل (في آخر سنة ٦٢٠ م) بوفد من الأوس ، فلقى عندهم قبولاً ، ووعدهم بأن يبلغوا قومهم وينشروا الدعوة بينهم ويلقوه في بحر عام ليعقدوا معه اتفاقاً ثانياً . فأرسل معهم مندوباً من طرفه هو مُصَنَّب بن عمرو ، لكى يعمل على نشر الإسلام بينهم ويدرس الأحوال في المدينة عن كثب .

قلنا : « ليعقدوا معه اتفاقاً » ، والآن نسأل : ما أساس هذا الاتفاق ؟ والجواب الذى يقدمه لنا مؤرخو السيرة النبوية هو أن أساس الاتفاق كان دخول أهل المدينة في الإسلام ، وتعهدهم بحماية الدين والرسول المبعوث به . وهذا صحيح ، ولكن هذه كانت مطالب محمد ﷺ ، فمافا كانت مطالب أهل المدينة ، والجواب أنهم كانوا يرجون الأمان ، إذ توسم فيه الفريقان — الأوس والخزرج — القدرة على أن يكون واسطة غير وتفاعهم بينهم ، وأحسوا فى أثناء حديثهم معه أنه الرجل المرجى القادر على التأليف بين قلوبهم وجمع كلمتهم على مبادئ الدين السامى الذى شرحه لهم . وأدركوا — منذ الوهلة الأولى — أن هذا الدين فى الحقيقة رسالة سماوية تشبه تلك التى كان اليهود يتحدثون عنها ويهددون بها غيرهم .

وكان من أظهر صفات الرسول ﷺ أن إخلاصه كان ظاهراً فى كلامه ، وأنه كانت له شخصية غالبة قادرة على إقناع من يكلمه بصدق ما يقول ، إلا إذا كان ذلك الغير مصرأ على الإنكار متمسكاً بمصالح شخصية أو قبلية يخشى ضياعها .

والمهم لدينا الآن أن أهل للمدينة الذين اتصلوا بمحمد وتفاهموا معه اتفقوا بصدق فيما أبهفهم به من نبوته . فمالوا إلى الدخول فى دعوته وتأيدوه . وكاف كانت المدينة فى ذلك الحين محطاً لآمال الرسول ﷺ فى إنشاء الجماعة الإسلامية وهى الخطوة الأولى لتثبيت أقدام الإسلام على الأرض . فكذلك تمثلت رئاسة محمد ﷺ لأهل المدينة حلاً لمشكلتهم الكبرى ، وهى الأمان . وكان السبيل إلى ذلك الأمان هو الاجتماع على الإسلام الذى بشرهم به الرسول ﷺ . وقد تطابق المطلبان — مطلب محمد ومطلب أهل المدينة — تطابقاً تاماً بعد من أسعد مصادفات التاريخ . ولهذا دخل أهل المدينة جميعاً — هذا غالبية اليهود — فى الدين الجديد ونظامه ، وأطاعوا محمداً ﷺ بالفعل قبل قدومه عليهم .

وقد ظهر ذلك بوضوح فى « بيعة العقبة الثانية » التى يُفهم منها أن متلوفى الأوس والخزرج اعترفوا بمحمد ﷺ رئيساً لجماعة المدينة كلها ، وإن لم ينص على ذلك صراحة ، ويؤيد هذا الفرض ما نعرفه من دخول عدد عظيم من أهل المدينة فى الإسلام ، قبل هجرة محمد ﷺ إليها . وكان خروج أهل المدينة لفاقته — عندما وصل إليهم — اعترافاً منهم بقيادته لهم .

الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية في المدينة :

إذن فقد كانت المهمة الأولى أمام محمد ﷺ عند استقراره في المدينة وبدئه العمل هي إنشاء جماعة منظمة آمنة في ذلك البلد . وكان الإسلام هو المدخل لقيام الجماعة ، فهو يتضمن عقيدة سماوية سامية كفيفة بأن تجمع قلوب الناس حول لواء واحد ، ويتضمن مثلاً أعلى وعروة وثقى تحفز الناس للعمل وتحبض في قلوبهم الشعور بالأمن ، ويتضمن كذلك شريعة فاضلة متكاملة تضمن الحقوق داخل الجماعة ، وقانوناً أخلاقياً يرتفع بالناس عن فوضى النزاعات الدائمة ويحمي الجماعة من عدوان الكبار على الصغار ، والأقوياء على الضعفاء ، ويحيط أموال الناس وأشخاصهم بسياس قانوني لا غنى عنه في مجتمع مستقر منظم . وهناك — إلى جانب ذلك كله — الرجل الكفيل بتحقيق هذه الآمال كلها وتطبيقها في الواقع ، وهو رسول الله ﷺ ، الذي اختاره الله رسولاً إلى الناس كافة لكي ينشئ الجماعة الإسلامية في الأرض ووعبه الملكات والخصائص الكفيلة بتمكينه من القيام بذلك العمل العظيم .

وقد بدأ محمد في إنشاء هذه الجماعة في الأيام الأولى لوصوله إلى قباء ، فقد خفَّ إليه كبار رجال المدينة وأخذوا يجتمعون معه ليتشاوروا ، واجتمع معه المهاجرون ، وكان عدد منهم قد سكن قباء ، وتفرق الباقون في نواحي المدينة . وكانت نواة تكوين الجماعة أولئك المهاجرين ومعهم نقيب أهل المدينة الاثنا عشر الذين اتخبوا ليلة بيعة العقبة الثانية .

وبمجرد تفكير محمد ﷺ في أن يطلب إلى أهل المدينة الذين قابلوه في مكة في اجتماع العقبة الثانية انتخاب أولئك النقباء ليشركوا معه في تدبير أمر الجماعة المقبلة ، يعطينا فكرة عن تصوره ﷺ لتكوين الجماعة الإسلامية ، فهي جماعة رجال مؤمنين أحرار يتشاورون ويدبرون أمورهم معاً ، ومحمد ﷺ في وسطهم يرشدهم إلى الطريق السوي ، ويوجههم إلى ما فيه خير الجماعة كلها ، وهو لا يقطع دونهم أمراً ، فيما عدا ما يتصل بالشريعة والعقيدة ، فهذه يتلقاها من الله ويلتزمها إياها ويوضحها لهم ويقوم فيها مقام القدوة التي ينبغي للناس .

وانتقل محمد ﷺ إلى وسط المدينة ، واستقر رأيه على المقام في منازل بني عدي ابن النجار الخزرجيين . والخزرج كانوا مغلوبين على أمرهم منذ يوم بُعث ، فاختار

محمد ﷺ للإقامة في حى من أحيائهم نفوية لجانبهم وعزاء لهم عن هزيمتهم ، وكان لابد — نتيجة لهذا — من أن ينسوها . أما ما يقال من أنه نزل فيهم لأنهم كانوا أحواله ، فأمر مستبعد ، لأن أحوال محمد فرشيون ، وربما جاز ذلك القول على أساس زواج هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ من سلمى بنت عمرو التي يقال إنها كانت من بنى غنم بن النجار ، وكانت من كبريات نساء المدينة . ولكن ذلك مستبعد أيضاً ، لأن محمداً عندما كان ينشئ جماعة على أساس من الإسلام ، ما كان ليقيم وزناً في قراراته السياسية للقرابة من أى نوع كان .

نزل محمد ﷺ في دار أوى أيوب الأنصارى ، وكان أبو أيوب من أوساط الخزرجيين ، لا هو بالفتى ذى الجاه ولا هو بالفقر المجهول ، ولو أن رجلاً غير محمد ﷺ تولى رئاسة المدينة منذ أيام قليلة لأقام في دار لأحد كبار أهل المدينة ، لأن ذلك كان يفضى مظهراً من الجاه له أهميته . ولكن الجماعة التي كان يعمل على إنشائها كانت جماعة أوساط ، وفي حياة محمد ﷺ كلها كان هواه مع الأوساط ، ومنهم كان معظم رجاله ومعاونيه ومستشاريه . ولقد كان أبو أيوب رجلاً من عامة الناس عندما نزل محمد ﷺ في بيته ، ولكنه — عندما توفى قرب أسوار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ / ٦٧٢ م أثناء إحدى الحملات التي كان معاوية بن أبي سفيان يرسلها للجهاد في أراضي الدولة البيزنطية — كان قد أصبح رجلاً شهيراً له مكانته في تاريخ الإسلام ، وقد أقيم على قبره جامع عظيم تعاقب خلفاء آل عثمان وأمراؤهم وكبار رجال دولتهم على تجميله والزينة فيه ، حتى أصبح من أجمل المساجد العثمانية ، وفي هذا المسجد كانت تتم مراسم تتويج خلفاء العثمانيين بتقليدهم السيف ، بل أصبح للمسجد من الآثار الطريفة في الدنيا التي يتحدث عنها الرحالة وأهل الأدب في كتبهم . وقد تحدث عنه بير لوتي PIERRE LOTI الأديب الفرنسي الشهير ويحيى حتى الأديب المصرى المعروف . وهذا الذى يلقبه أبو أيوب من الكرامة إنما هو مثال من آثار « لمسة الإسلام » لقلب رجل مخلص صادق من الأوساط .

إنشاء مسجد الرسول ﷺ وأهميته في بناء الجماعة :

وكانت الخطوة الأولى لإنشاء الجماعة هي بناء المسجد ، والمساجد كما قلنا هي رموز الجماعات الإسلامية ومراكزها ، وهذا يتجلى بكل وضوح في إنشاء مسجد

الرسول ﷺ في المدينة ، فقد أنشأه في وسطها تقريباً ، ولم يجعله مصل فحسب ، بل جعله أيضاً مركزاً لتدبير شئون الجماعة ومكاناً لالتقاء أفرادها ، وفي ركن من صحنه الواسع أقام محمد حجراته التي أقام فيها بقية حياته . وفي الطرف الشمالي للجامع أنشأ العريش الذي كان يُعِين ناحية القبلة ، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصُفَّة ، وهي سَقَف أو ظِلَّة مقامه تعرض الجدار ، تحملها جذوع نخل ليجلس تحنها « أهل الصُفَّة » وهم ، كما تذكر كتب السيرة والتاريخ ، نفر من الفقراء أحبوا أن يقضوا حياتهم قرب مسجد الرسول ﷺ للقيام بخدمته والتعب فيه ، ولكن عندما تقرأ أسماء أهل الصفة نجد الكثيرين منهم لا ينطبق عليهم وصف الفقراء ، ويبعد أن يكونوا قد عاشوا من صدقات الناس . فقد كان فيهم أبو ذر الغفاري ، وأبو ذر لا يمكن أن يكون قد عاش على صدقات الآخرين ، وفيهم عمار بن ياسر وعُثْبَاب ابن الأَرث وصُهب الروم ، وهم من الصحابة القديماء . وكانت لهم يديهم المعروفة ، ومن هنا فلا بد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد ووظيفة بالنسبة للمسجد وبالنسبة للرسول ﷺ ، ولذلك هنا أن نفرأ من أهل الصفة كانوا دائماً في خدمة الرسول ﷺ ، يقومون له وللمسجد بأعمال لا يستغنى عنها .

إذن فقد كان قيام المسجد إلهاداً لقيام الجماعة ، فألى جانب وظيفته الرئيسية كمكان للصلاة كان مجمع المسلمين ودار تلويحهم . وهناك يسمعون أخبار جماعتهم وما تحققه من تقدم وما يحيط بها من ظروف وما كانت تقوم به من نشاط ديني وسياسي وعسكري واسع . هناك كان يقيم محمد ﷺ ، رأس الجماعة وقائدها ، وكان رجلاً نشيطاً قلماً يركن للراحة ، فهو دائماً في حركة : نجاه إما غازيا في غزوة من مغازيه أو زائراً الناس أو طائفاً بنواحي المدينة . وقليلة هي الأوقات التي يقضيها ساكناً يتحدث مع أصحابه خارج غرفه ، والأخبار التي تصوره جالساً ساعات متوالية والناس من حوله يسألونه فيجيبهم غير حقيقية ، لأنه كان ينفر من الدعة ، وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم فبالقدر المناسب فقط ، وكان من صفاته الكبرى عندما يجتمع والناس الإنصات وحسن الاستماع . وكان يستوعب المهم مما يسمع ، سواء أكان جالساً في بيته أم خارجاً أم في طريقه إلى النزوات ، وكانت عادته أن يدع الآخرين يتحدثون وأن يطليل التفكير فيما يسمع ولا يتكلم إلا عن روية .

ولم تكن إدارته لشئون الجماعة قائمة على أوامر يصدرها ، بل هل القدوة الصالحة

التي كان يضربها ، فقد كان نادراً ما يصدر أمراً . ولقد حكى خادمه أنس بن مالك أنه ﷺ لم يرفع صوته في خطابه معه قط ، ولا ترك الغضب يستولى عليه مهما أخطأ خدمه ومعاونوه ، ولم يرفع يداً على خادماً أو مولى قط . ولقد كان المناقون من خصوم الإسلام يرتكبون ما يثير ويغضب ، فلا يغضب محمد ﷺ ولا يدع العاطفة تستبد به ، وإنما كان هادئاً دائماً يتصرف في صمت وهدوء وبعد مشاورة أصحابه فيما جل من الأمور .

عمران المدينة :

ولم يكن قيام المسجد رمزاً لقيام الجماعة فقط ، بل كان أيضاً بداية لعمران المدينة ، فامتد شارع مبطن من غرف الجامع إلى جبل متلج في الجانب الغربي من المدينة ، واتصل هذا الشارع شرقاً حتى بقيع القرد الذي أصبح مقبرة المدينة . ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال في اتجاه السطح ، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين . وكان الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل المدينة يسمح له بالتصرف في الأراضي المهملة التي لم تكن تباع أحداً ، ولم يكن يستغلها أحد ، فأعطى المهاجرين والطائرين على المدينة من المسلمين قطعاً من الأرض بنوا فيها بيوتاً ، وسمح لمن يريد أن يعمر قطعة منها بالزراعة بأن يفعل ذلك لحسابه الخاص ، فأقبل على ذلك الكثيرون من القضاة والأسلمة بصورة خاصة ، فأصبحت لهم أراضيهم وزروعهم ، وكان لذلك أكبر الأثر في تحسين أحوالهم وفي عمران المدينة بصفة عامة .

وكانت بعض القطع التي وهبها لرسول ﷺ تصيب نفر لم تكن لهم بيوت واسعة ، فأنشأوا فيها بيوتاً لهم ولأهلهم ، وسميت القطعة بما فيها من البيوت : الدار ، ومع الزمن تصرف أصحابها أو ورثتهم فيما لا يحتاجون إليه من أرضها ، فأصبح مكان بعض هذه الدور أحياء تسمى بأسماء أصحابها ، مثل دار عبد الرحمن ابن عوف ، ودار الزبير بن العوام . وشيئاً فشيئاً ، ومع زيادة الرخاء في المدينة ، كثر إنشاء الناس للبيوت والحدائق — وكانوا يسمونها : الحواط — واتصل عمران المدينة ، فارتبطت الواحات المتباعدة في السهل بعضها ببعض ، وظهرت المدينة كبلد واحد متصل الأجزاء عامر بالبيوت والشوارع والحارات ، مترابط الأطراف ، أهل بالناس .

وعندما توقفت تجارة مكة بسبب سيطرة المدينة على طريق التجارة ، نتيجة لسياسة محمد ﷺ ، اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة ، وأخذت المساحات الواقعة بينها وبين طريق التجارة تتمهد في اتجاه الغرب مارة بوادي العقيق ومسجد القيلتين ، وفي اتجاه الجنوب الغربي مارة غربي جبل عير . وهنا ظهرت أهمية موضع بئر عروة الذي أصبح من ذلك الحين مركزاً تجارياً هاماً ، وأنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسراً للمواصلات . وجدير بالذكر أن محمداً ﷺ تنبه لأهمية القناطر والمعاير فشجع على إنشائها حتى تتصل الشوارع .

وكثر في المدينة الأسواق ، والمراد بها الشوارع التجارية ، وانصرف إلى التجارة كثيرون من أعلى المدينة ، وزاد السكان زيادة كبيرة ، بل كانوا يزيدون باستمرار بسبب إقبال الناس من كل ناحية لسكنى ذلك البلد العامر الآمن . ومن خلال ما يكتبه السهودي في « وفاء الوفا » نتبين كيف كانت أسعار الأرض والمباني وحاجات الحياة ترتفع في المدينة شيئاً فشيئاً ، وهذه كانت بعض نتائج العمران الذي دبّ في البلد والسلام الذي سادته عقب قيام الجماعة الإسلامية فيها . ويعدّ السهودي أسماء المساجد التي بنيت في المدينة أيام الرسول ﷺ ، فنجد عددها كبيراً حقاً ، وإذا نحن اعتمدنا على عدد المساجد كأساس لتقدير عدد السكان ، استطعنا أن نقول إن ذلك العدد تضاعف مرات خلال السنوات القليلة التي أقامها محمد ﷺ في المدينة ، يدير أمرها ويسوس جماعتها ويرسم الخطوط الرئيسية لتنظيم هذه الجماعة التي ستصبح نموذجاً نحتذي به كل الجماعات الإسلامية فيما بعد .

مبدأ المؤاخاة :

ثم دعا محمد ﷺ إلى مؤاخاة المهاجرين والأنصار ، ولا تدرى إن كانت المؤاخاة قد تمت قبل بناء المسجد أو أثناء بنائه ، ويدعو أن هذه الخطوات كلها تمت في فترات متقاربة ، فصعب على المؤرخين ترتيبها زمنياً .

والمؤاخاة من أعظم ما سنّ الرسول ﷺ لتطبيق مبادئ الجماعة الجديدة . ولم يهتم مؤرخونا الاهتمام الكافي بإقامة محمد ﷺ للمؤاخاة ، لأنها ألغيت بعد واقعة بدر ، وفاتهم أنها توقفت كأساس للمواريث ، ولكنها لم تتوقف كمبدأ إنساني اجتماعي أساسي في حياة الجماعة الإسلامية . لأن محمداً ﷺ لم يقرها مجرد إيجاد

وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنما هو قررها ليؤكد لجماعته مبدأ الأخوة في العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة . ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها الذين الذين يروابط أخوة قلبية وإنسانية ومثالية ، لكان لذلك أثره البعيد في تطور العلاقات الإنسانية في داخل الجماعات الإسلامية ، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة على الثبات والسير إلى الأمام ، وبخاصة في أوقات الأخطار والأزمات .

ميلاد دستور الجماعة الإسلامية :

وفي نحو ذلك الوقت ظهرت القطعة الأولى مما يسمى : « الكتاب » — الذي سماه المؤرخون بـ « الصحيفة » أيضاً — وقالوا إن محمداً ﷺ كتبه « بين للمهاجرين والأنصار ، وودع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم » .

ويستلفت النظر هنا أيضاً أن مؤرخي السيرة والنظم الإسلامية لم يهتموا الاهتمام الكافي بهذه الوثيقة ولم يتجهوا إلى أهميتها . أما أصحاب كتب الحديث فقد أهملوها إهمالاً يستلفت النظر لأسباب « فنية » في علومهم ، فهي لم تصل إلينا عن طريق سلسلة إسناد وإنما وصلت إلينا نصاً مكتوباً ، وهم لا يعترفون في علم الحديث إلا بالأحاديث ذات السند الصحيح على منهجهم أما الأحاديث التي وصلتهم مكتوبة — مثل خطابات الرسول ﷺ إلى الملوك ، ومعاهداته وكتبه إلى بعض رؤساء القبائل ومن إليهم — فلم يهتموا بها الاهتمام الكافي . وبالإضافة إلى ذلك فإن النص الوحيد لهذه الوثيقة الذي وصل إلينا مكتوباً ، أننا به محمد بن إسحاق بن يسار ، إمام مؤرخي السيرة (ت ١٥٠ هـ / ٦٦٧ م) . وكان علماء الحديث في عصره لا يميّزونه ، وكانت هناك خصومة بينه وبين مالك بن أنس ، وقد اتهمه هذا بقلة الأمانة في بعض ما روى ، وكان لهذا أثره في موقف بقية المحدثين من نص الوثيقة .

وهناك أمر آخر كان له أثره في صرف المحدثين ونفر كبير من المؤرخين عن هذه الوثيقة ، وذلك أن النص الذي أننا به ابن إسحاق اعتمد على أصليين مكتوبين : كان أحدهما عند محمد الباقر بن جعفر الصادق من أئمة الشيعة ، وكان الآخر عند

عبد الله بن علي بن أبي طالب ، وهذا الأخير هو الذي أعطاه لابن إسحاق ، وكان ابن إسحاق شديد الاتصال به .

وفي عصر بني أمية وأيام بني العباس من بعدهم لم يكن أهل السلطان يرحبون بأى وثيقة تفصل عن طريق أهل البيت ، لأن الغالبية العظمى من المسلمين كانت ترى أن أهل البيت أولى بالخلافة .

وأيضاً انصرف الناس عن الوثيقة لأسباب سياسية . فإن نص الوثيقة يتضمن قواعد سياسية سامية لم يكن الأمويون — والعباسيون من بعدهم — يرحبون بها ، لأنها كانت لا تناسب مصالحهم . وقد ظهرت الوثيقة في العصر العباسي الأول ، عندما كان الاتجاه في الدولة يؤيد السلطان المباشر غير المنازع للخليفة ، على حين تدعو الوثيقة إلى حرية واسعة في تنظيم الجماعة ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وكان العباسيون يحاربون ذلك كله .

ولكن موازين النقد التاريخي تؤيد صحة هذه الوثيقة وأصالتها ، يدل على ذلك أسلوها وانطباع ما فيها على الظروف التي كانت سائدة في المدينة أيام الرسول ﷺ ، بل لقد استشهد الرسول ﷺ ببعض مبادئها أكثر من مرة ، وقد أيد صحتها كل أعلام النقد التاريخي من المؤرخين المعاصرين : شرقيين وغربيين .

وقد سميت هذه الوثيقة في السنوات الأخيرة « بدستور المدينة » ، لأنها في الحقيقة دستور ، أى قانون أساسى للنظام السياسى والاجتماعى للجماعة الإسلامية وعلاقتها بغيرها ، ويتبين ذلك بوضوح في أجزائها : الأول والثاني والرابع .

وقد جرت العادة في كتب التاريخ المعاصرة على تقسيم الوثيقة إلى مواد وتقسيم هذه المواد إلى مجموعات . ومن الواضح أن التقسيم إلى مواد يرمى إلى تسهيل الدراسة ، أما تقسيم المواد إلى مجموعات ف يرجع إلى أن النص الذى بين يدينا لم يكتب في وقت واحد أو دفعة واحدة ، وإنما كتب الجزء الأول — أو المجموعة الأولى — سنة أول الأمر ، وترك النص بعد ذلك مفتوحاً لتضاف إليه المواد التي تدعو إليها الحاجة .

ومن الواضح أن الوثيقة تتكون من مجموعات من المواد كتب كل منها في وقت

معين ، وهناك خلاف بين العلماء في التقسيم والتوقيت ، وهناك كذلك خلاف في عدد المواد عند هذا المؤرخ أو ذاك ، وذلك أمر اعتبارى .

ويمكن أن يقال — بصفة عامة — إن الوثيقة تتضمن ٧٠ مادة تقسم إلى ٤ مجموعات ، وهناك مواد مكررة : إما باللفظ أو بالمعنى . وهذه المواد المكررة تؤيد القول بأن الوثيقة كُتبت على مراحل واحتفظ بنص كل جزء على حدة دون محاولة للتنسيق بين المواد . وقد حرص الذين كانوا يحتفظون بنصها على ألا يحدفوا شيئاً وإن كان مكرراً . ومعنى ذلك أن « الكتاب » أو « الصحيفة » كانت دستوراً مفتوحاً للمدينة يضاف إليه باستمرار ما يستجد من المواد التي يتم الاتفاق عليها .

وسر اهتمامنا بهذه الوثيقة هو أنها تبيّن بصورة لا تدع مجالاً للشك أن الجماعة الإسلامية الأولى أيام الرسول ﷺ كانت جماعة منظمة على أساس دستورى قانونى ، وأنه ﷺ حرص على أن تسير الأمور فى جماعته على أساس قانونى واضح . وربما كان من الأسباب المؤكدة فى ضعف الجماعات الإسلامية بعد أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أن القائمين على أمورهم أهملوا الناحية القانونية الدستورية فى بناء دولهم . وبدون قانون أساسى ، يبين الحدود القانونية للحاكم والمحكوم وبين الحقوق والواجبات ، لا يستطيع أى نظام سياسى أن يعمر طويلا ، مهما كانت قوته فى أول الأمر .

كيف نشأت الوثيقة ؟ :

وهذا بدوره يجرنا إلى سؤال : كيف بدأ تحرير الوثيقة ولماذا ؟ والإجابة عن هذا السؤال على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لنظام الجماعة الإسلامية الأولى . والذي يتبادر إلى الذهن هو أن فكرة الوثيقة نشأت عن الأساس القانونى الذى أراد الرسول ﷺ أن يسير عليه كل عمل يتصل بتنظيم الجماعة^(١) . وعندما ندقق فى الأمر نجد أن الاتفاق الذى تم بين رسول الله ﷺ وممثلى المدينة فى بيعة العقبة الثانية كان اتفاقاً عاماً وشفوياً وغير محدد ، ومن خلال تفاصيل اجتماع العقبة الثانية التى يوردها

(١) « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب ، آية ٢١) .

ابن إسحاق وابن سعد لا نفهم إلا أن ممثلي المدينة بايعوا الرسول ﷺ هل « حرب الأحمر والأسود — أى جميع الناس — وأخذ لنفسه واشترط هل القوم لربه ، وجعل لهم هل الوفاء بذلك اللجنة .

وقد أوجز عُبَادَةُ بن الصامت — وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين مثلوا أهل المدينة فى الاتفاق — شروط البيعة بقوله : « بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة الحرب ، هل السمع والطاعة ، فى عسرتنا ويسرنا ومنشطتنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » (ابن هشام : السيرة ، ط . محيى الدين ج ٣١١/١) .

وهذه ليست شروط اتفاق ولا ما يقارب ذلك ، ومن الواضح أنبيعة العقبة كانت اتفاقاً شفوياً بجملاً اكتفى فيه بالإخلاص فى لنية من الجانبين ، فاقضى الأمر بتثبيت ذلك فى نص مكتوب وتفصيله وتوضيحه بعد أن استقر محمد ﷺ فى المدينة وقامت جماعة الإسلام فيها .

فإذا صبح هذا التفسير ، كانت تلك الوثيقة نتيجة تفاهم ومناقشة بين أهل المدينة ومحمد ﷺ . وهذا هو الذى يعيننا هنا ، ومن أجله وقفنا هذه الوقفة الطويلة إلى حد ما . لأننا نريد أن ننص على أن أساس بناء الجماعة الإسلامية الأولى هو دستورها ، ودستورها جاء نتيجة رغبة محمد ﷺ فى أن يكون للجماعة قانون أساسى متضمن للحقوق والواجبات والحدود والقواعد التى يقوم عليها نظام الجماعة ، وقد اهتم ﷺ بأن يكون ذلك كله مكتوباً فى كتاب بين أيدي الناس ، ليعرف كل منهم حقوقه وواجباته وحدوده وقواعده .

ولابد أن هذا الدستور نتج عن مناقشات وأخذ ورد بين أفراد الجماعة ممثلين فى رئيسها ، رسول الله ﷺ ، وأصحابه من المهاجرين ونقباء أهل المدينة وأصحاب الرأى فيها . ولا يمكن أن يكون ذلك النص قد صدر على صورة أمر صادر عن جهة واحدة ، لأن مواد الدستور تتضمن حقوقاً كثيرة للناس والقبائل المكونة للجماعة . وكما حدث فىبيعة العقبة — عندما تناقش محمد ﷺ مع أهل المدينة مناقشة طويلة انتهت بالاتفاق — فلا بد أن يكون الأمر قد سار كذلك فى إنشاء هذا الدستور . ومعنى ذلك أنه صدر عن أسلم الأسس التى تصدر عنها دساتير الأمم ،

وهي المناقشات وتبادل الآراء . وهو — من هذه الناحية — عقد اجتماعي وسياسي صحيح ، وليس فرضاً من جانب ولا منحة من رئيس لمروسيه .

ومن أصف أن مؤرخينا يحملون الحوادث فيما بين الهجرة وموقعة بدر إجمالاً شديداً ، ومن هنا لم يسجل لنا واحد منهم أى تفاصيل كما دار من مناقشات أدت إلى صدور الجزء الأول من ذلك الدستور .

وقد رأينا أن النسختين اللتين بقيتا من هذه الوثيقة نقلتا عن أصل كان عند علي ابن أبي طالب . وهذا هو الطبيعي ، لأن علياً كان كاتب الرسول ﷺ أول استقراره في المدينة ، ولم يكن كتاب الوحي الآخرون — من أمثال زيد بن ثابت أو أبي كعب أو أنس بن مالك — قد دخلوا في العمل بعد ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن علياً هو الذي كان يكتب للمواد التي يتم الاتفاق عليها ، وهو الذي قام بعمل النسخة الكاملة من النص . ولا يد أنه قد نقلت منها نسخ أخرى للأطراف المتعاقدة ، واحتفظ علي بن أبي طالب بنسخة الرسول ﷺ ، وهي التي بقيت لنا .

ويحدثنا محمد الطهراني في كتابه « الذخيرة إلى تصانيف الشيعة » أنه كانت لدى علي كتابات أخرى ، أى وثائق أخرى ، مما أملاه عليه الرسول ﷺ ، وأنه كان يحتفظ بهذه الكتابات في قراب سيفه . وقد ورثها منه أبناؤه من بعده .

ويحدثنا الرحالة أنه من عادة رؤساء البدو في الصحراء أن يحتفظوا بالوثائق المهمة في قراب السيف ، أو في كيس يعلق في مقبض السيف . ويضيف الطهراني أن نص الوثيقة التي ندرسها الآن كان مسجلاً في « كتاب مدرج عظيم » . ويفهم من هذا أن علي بن أبي طالب كان حافظ سجلات الرسول ﷺ ، أو كاتب سره كما نقول اليوم ، خلال تلك الفترة الأولى ، والنص الذي لدينا بقي من السجلات التي كانت عنده .

والآن نورد نص الكتاب مفسماً إلى أجزاء ومواد ، وينبغي أن ننبه إلى أن هذا التقسيم وهناويته من عندنا .

نص دستور المدينة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم
ولحق بهم وجاهد معهم .

الجزء الأول من الوثيقة :

مادة ١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

مادة ٢ - المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يَغْلُدُونَ عَائِلَتَهُم
بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٣ - ويؤد عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تغدو
عائتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٤ - ويؤد الحارث على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٥ - ويؤد ساعدة على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٦ - ويؤد جُشَم على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٧ - ويؤد النجار على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٨ - ويؤد عمرو بن عوف على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٩ - ويؤد النبيت على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١٠ - ويؤد الأوس على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١١ - وأن المؤمنين لا يتركوا مُفْرَحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء
أو عقل^(٢) .

مادة ١٢ - وأنه لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

مادة ١٣ - وأن المؤمنين المتقين على من بنى منهم أو اجنّى صبغة^(٣) ظلم أو
إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أهلكهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

مادة ١٤ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

(١) الفرح : هو الخفل بالتمسك .

(٢) العقل : هو التعويض الذي يدفع لإنسان عن ضرر أصابه .

(٣) الصبغة : هي السلطة ، ولكن معناها هنا : من ارتكب أى نوع من الظلم أو الإثم أو العدوان .. الخ .

- مادة ١٥ - ولا يتصر كافرًا على مؤمن .
- مادة ١٦ - وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أداناهم .
- مادة ١٧ - وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .
- مادة ١٨ - وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
- مادة ١٩ - وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلّم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم^(١) .
- مادة ٢٠ - وأن كل غزاة غرت معنا يقب بعضها بعضاً^(٢) .
- مادة ٢١ - وأن المؤمنين شيء بعضهم على بعض بما نال دماهم في سبيل الله عز وجل^(٣) .
- مادة ٢٢ - وأن المؤمنين للفقير على أحسن هدى وأقومه .
- مادة ٢٣ - وأنه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .
- مادة ٢٤ - وأن من اعتبط^(٤) مؤمناً قتلاً عن يمينه فإنه قد به إلا أن يرضى ولي المقتول .
- مادة ٢٥ - وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا القيام عليه .
- مادة ٢٦ - وأنه لا يحل لمؤمن نكح ما لا يكرهه الله وآمن بالله واليوم الآخر أن يتصر مُحِيناً^(٥) ولا يؤويه .
- مادة ٢٧ - وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل^(٦) .
- مادة ٢٨ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرجعه إلى الله وإلى محمد .

(١) أى لا إذا اختلفوا على ذلك جميعاً .

(٢) أى أن أفراد الجماعة يشتركون معاً في استئصال ما معهم من دواب الجمل .

(٣) أى يشتركون معاً في تحمل ما يال بعضهم من الحسار .

(٤) قتل .

(٥) المحلث : هو الذى يرتكب جرماً .

(٦) أى لا يعامل مثلاً أو اعتدالاً .

الجزء الثاني من الوثيقة :

- مادة ٢٩ - وأن اليهود يُنْفَعُونَ مع المؤمنين ماداموا محاربين .
- مادة ٣٠ - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم .
- مادة ٣١ - إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
- مادة ٣٢ - وأن يهود بنى النجار مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٣ - وأن يهود بنى الحارث مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٤ - وأن يهود بنى ساعدة مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٥ - وأن يهود بنى جُشَمَ مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٦ - وأن يهود بنى الأوس مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٧ - وأن يهود بنى ثعلبة مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٨ - إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
- مادة ٣٩ - وأن جفنة - بطن من بنى ثعلبة - كأنفسهم .
- مادة ٤٠ - وأن لبنى الشُعْطَةَ مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٤١ - وأن البر دون الإثم .
- مادة ٤٢ - وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- مادة ٤٣ - وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- مادة ٤٤ - وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
- مادة ٤٥ - وأنه لا يتحجر على ثأر جرح^(١) .
- مادة ٤٦ - وأنه من حل فينفسه فلك وأهل بيته إلا من ظلم .
- مادة ٤٧ - وأن الله على أبر هذا .
- مادة ٤٨ - وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
- مادة ٤٩ - وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- مادة ٥٠ - وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
- مادة ٥١ - وأنه لم يَأْثُمَ امرؤ بخلفه .

(١) أى : لابد من تصفية الثارات ، ولا يجوز كتمانها وانتظار فرصة لبرئتها .

- مادة ٥٢ - وأن النصر للمظلوم .
مادة ٥٣ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

الجزء الثالث من الوثيقة :

- مادة ٥٤ - وأن يهرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
مادة ٥٥ - وأن التجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
مادة ٥٦ - وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
مادة ٥٧ - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .
مادة ٥٨ - وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .
مادة ٥٩ - وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
مادة ٦٠ - وأن بينهم النصر على من دهم يرب .
مادة ٦١ - وإذا دُعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فليهم يصلحونه ويلبسونه^(١) .
مادة ٦٢ - وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين^(٢) إلا من حارب في الدين .
مادة ٦٣ - على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

الجزء الرابع من الوثيقة :

- مادة ٦٤ - وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .
مادة ٦٥ - وأن البر دون الإثم .
مادة ٦٦ - لا يكسب كاسب إلا على نفسه .
مادة ٦٧ - وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

(١) أي أن قيادة الجماعة إذا دعيت إلى أن تنقد صلحاً مع عاصمها كان على أعضاء الجماعة أن يوافقوا على ذلك .

(٢) وأعضاء الجماعة إذا دعوا إلى الصلح كان على جماعة المؤمنين أن تستجب للدعوة .

- مادة ٦٨ - لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم .
 مادة ٦٩ - وأنه من عرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم
 مادة ٧٠ - وأن الله جاز لمن بر وأتقى ومحمد رسول الله .

المبادئ التي تضمنتها الوثيقة :

والآن نجمل أهم المبادئ القانونية التي يتضمنها كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة .

الجزء الأول :

واضح أن هذا الجزء هو أول ما كتب من الوثيقة ، وهو أساسها القانوني ، فهو يتضمن المبادئ الآتية :

١ - إن المؤمنين الذين اشتركوا في تكوين أمة الإسلام أو جماعته يكونون وحدة اعتقادية وسياسية واجتماعية واقتصادية قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها من الجماعات .
 ٢ - أفراد هذه الجماعة والوحدات القبلية المكونة لها متكافلون فيما بينهم ، فهم يقومون بمعاونة بعضهم بعضاً في تحمل الأعباء المالية الباهظة ، مثل الاقتداء من الأسر للشخص أو لأحد قرابته وسداد الديون الثقيلة أو أداء ديات القتل أو قصاص الجراحات .

٣ - جميع أفراد الأمة متساوون في الحقوق والواجبات ، وأساس العلاقات بينهم هو المعروف ، أي العرف الجاري الذي يقبله العقل والدين ويرضاه الناس ، و القسط بين المؤمنين ، أي المساواة والعدل بينهم .

٤ - تتكون نواة الأمة من نسع وحدات : واحدة منها اجتماعية وهم المهاجرون ، والثاني الباقية وحدات قبلية من أهل المدينة ما بين أوس وخزرج وغيرها . وكل وحدة من هذه تدخل الجماعة بنظامها الداخلي الخاص بها (على رزعتهم) . وهم يقومون بمسئولياتهم الاقتصادية متعاونين فيما بينهم ، وأساس التنظيم الداخلي لكل وحدة هو العرف الجاري والعدل والمساواة بين أفرادها .

٥ - الأمة في مجموعها مسؤولة عن الأمن الداخلي ، فلا بد لها من محاسبة لكل متحيد أو مفسد من بين أعضائها ، ولو كان ولد واحد منهم .

٦ - الأمة وحدة متأسكة من المؤمنين ، فلا يجوز لأحد أفرادها أن يقتل مؤمناً في كافر ولا يتصر كافرأ على مؤمن .

٧ - أمة الإسلام هي أمة الله ، وهي كلها في ذمة الله أى في رعايته ، وذمة الله التي ترعاها واحدة لا تتجزأ ، ومن ثم فإن أى فرد من أفراد الجماعة يستطيع أن يمنح جوارحه - أى حمايته - لمن يستحق الجوار والحماية ، وفي هذه الحالة تلتزم الجماعة الإسلامية كلها بحماية ذلك الجار وضمان حقوقه .

٨ - ونوكيداً للأخوة والعلاقات الإنسانية بين المسلمين ، ينص ذلك القسم الأول من الدستور على أن المسلمين بعضهم موالى بعض من دون الناس ، فلا ولاء بين مسلم وغير مسلم .

٩ - ومن تبع المسلمين من اليهود فعل المسلمين نصرة أسوة بالمسلمين أنفسهم ، والجماعة تضمن أنه لا يقع عليهم ظلم ، ولا تنصر الأمة عليهم أحداً .

١٠ - وإن يلزم الأمة كلها واحد ، فلا يعقد مسلم أو قبيلة داخلة في الأمة مسلماً مفرداً في حالة حرب ، ولا يتم السلم إلا بناء على اتفاق المسلمين .

١١ - وإذا دخل المسلمون حرباً أو وقع عليهم اعتداء وأصيب بعضهم ، فإن الأمة كلها تتعاون في تحمل التبعات وتعويض الخسائر .

١٢ - ويتيح المسلمون في ذلك أحسن السبل وأقربها إلى الأخلاق الكريمة .

١٣ - وإذا اشتركت مع المسلمين جماعة من حلفائهم في غزوة من الغزوات تعاون أفراد هذه الجماعة بعضهم مع بعض ، وبخاصة في استعمال ما لديهم من الخيل والجمال والمؤن وما إلى ذلك .

١٤ - ولما كانت قريش قد اعتدت على المهاجرين فشردهم من ديارهم واستولت على أموالهم فإن أحداً من سكان المدينة ، حتى لو كان مشركاً ، أى غير عضو في الأمة ، لا يجوز له أن يُجبر لها مالا ولا نفساً ، ولا أن يحول دون أى مسلم أصابه ضرر من الاستيلاء على ذلك المال تعويضاً له عما أصابه .

١٥ - وإذا قتل مسلم مسلماً عمداً فلابد من إعدامه ، إلا أن يتفق مع أولياء الدم على ما يرضيهم . ولابد أن يكون المسلمون جميعاً يداً واحدة عليه ، ولا يصح لهم حياله موقف غير هذا .

١٦ - وإذا آوى عضو من أعضاء الأمة مجرماً أو نصره - سواء أكان من داخل الجماعة أو خارجها - فإن عليه لعنة الله وغضبه ، ولابد أن تقاطعه الجماعة كلها

مقاطعة ثامة ، فلا يقوم تعامل من أى نوع بينه وبين عضو من أعضاء الجماعة .
 ١٧ - وإذا وقع خلاف بين نفر من أعضاء الجماعة ولم يستطيعوا الوصول إلى حل أو اتفاق فلا بد لهم من أن يعرضوا الأمر على محمد ﷺ ، ليقضى فيه بأمر الله .
 ١٨ - وتحديداً للمسئولية تقرر ألا يؤخذ إنسان بخطأ يرتكبه حليف له .

الجزء الثاني :

يضم هذا الجزء ٢٥ مادة (٢٩ - ٥٣) ، كلها خاصة بإلحاق جماعات من اليهود بأمة الإسلام على أساس الحلف والاشترك في الدفاع عن وطن الجماعة . ولا ذكر بين هؤلاء اليهود للقبائل اليهودية الكبرى ، أى بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة ، ولهذا رجحنا أن يكون تحرير هذا الجزء وإضافته إلى الوثيقة قد تم بعد إجلاء بنى قريظة عن المدينة (رجب - شعبان سنة ٦هـ / أواخر ٦٢٧ م) . ومفتاح هذا الجزء كله المادتان ٢٩ و ٣٠ - وقد سبق إيراد نصيهما .

ومن هاتين المادتين نرى أن الأمة غُذت اليهود الذين بقوا في المدينة بعد انتهاء شأن القبائل اليهودية الثلاث الكبرى حلفاء لها ، وأباحث لهم الاشتراك في الحرب معها ، دفاعاً عن المدينة وعلى شرط أن يشتركوا مع المسلمين في نفقات الحرب .

وقد غُذت المجموعات اليهودية التي ورد ذكرها في المواد التالية للمادتين المذكورتين أمةً مع المسلمين ، أى جزءاً من الأمة ، ولكنهم يحتفظون بدينهم . فإذا ارتكب أحد منهم خطأ وقع العقاب عليه وعلى أهل بيته دون غيرهم . ويتضمن هذا الجزء أيضاً مواد تؤكد شروط التحالف وقواعد العمل مع هذه المجموعات اليهودية ، وأنها أن القبيلة المسلمة لا تتحمل نتائج أخطاء المجموعة اليهودية المخالفة لها ، والعكس صحيح .

الجزء الثالث :

أما الجزء الثالث من الوثيقة فيتضمن عشر مواد (٥٤ - ٦٣) فيها تعهدات وتدفقات على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للأمة ووطنها .

فالمادة ٥٤ تقول : إن جوف يعرب حرام لأهل هذه الصحيفة ، أى لا يجوز لهم

الحرب أو إراقة الدماء في داخلها .

والمادة ٥٥ تنص على أن الجار — كالنفس — لا يُضار ولا يُعتدى عليه . وهنا نجد مثالا واضحاً لإقرار دستور الأمة الإسلامية أساساً قانونية مما جرى به العرف في المجتمع العربي .

والمادة ٥٦ تقرر إنه لا تجار حرمه إلا بإذن أهلها ، وهذا أيضاً مأخوذ من القانون العرفي البدوي .

والمادة التالية ٦١ تقول : إنه إذا وقع بين أهل هذه الصحيفة حدث أو شجار خطير فإن الفصل فيه يكون محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أى لرئيس الجماعة . وهذه المادة خطوة بعد المادة ٢٨ الواردة في الجزء الأول ، فهي تحدد التزام أفراد الجماعة بعرض القضايا الهامة ونقط الخلاف التي يخشى أن تؤدي إلى ضرر للجماعة كلها على رئيس الجماعة ، تحديداً دقيقاً .

ويعتقد أن هذا الجزء الثالث مُكب قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم للعمرة خروجه الذي أدى إلى صلح الحديبية سنة ٦٢٩/هـ م . لأن هذا الوقت شهد إقبال كثير من الناس إلى المدينة للسكنى فيها والانضمام إلى جماعتها ، فاقضى الأمر إضافة مواد تضمن النظام داخل المدينة ، وربما خارجها أيضاً فيما حولها ، لأن كثيراً من الوافدين استقروا حول المدينة وطلبوا حق الجوار ففازوا به . ويدخل في هذا أيضاً ما نراه في المادة ٥٨ من النص على أن أعضاء الجماعة ينبغي أن يتحرروا في تطبيقهم لمواد هذا الاتفاق أو الدستور أقرب التفاسير إلى البر والخير ، أى إلى روح الدين .

وبلاحظ بوضوح أن المواد ٥٩ — ٦٣ كلها تنص على أشياء خاصة بقرى وحالة الصلح التي قامت بينها وبين المدينة بعد صلح الحديبية . ونهنا هنا المادة ٦٣ التي تقسم واجب الدفاع عن المدينة على سكانها ، أى على أعضاء الجماعة ، فكل مجموعة مكلفة بالدفاع عن البلد من الناحية التي يسكنون فيها . وربما تطبق هذا أيضاً على الذين نزلوا خارج المدينة وحصلوا على جوارها ، فهؤلاء أيضاً كانوا ملزمين بحماية البلد من أى خطر يأتي من ناحيتهم .

الجزء الرابع :

أما الجزء الرابع (٦٤ — ٧٠) فواضح أنه يتضمن أحكاماً شتى لا يربطها رابط ، كما رأينا في الأجزاء السابقة ، وإنما هي مبادئ قانونية كان الاتفاق يتم عليها وتقرر إضافتها إلى الصحيفة ، فضاف . ولهذا فإننا نجد أن المادة ٦٤ تبدو كأنها تكرار للمادة ٣٦ من الجزء الثاني ، الخاصة بيهود بنى الأوس . ويبدو لنا أنها ليست محض تكرار ، بل هي نتيجة لدخول مجموعة القبائل المعروفة ببني الأوس في الإسلام بعد موقعة الخندق ، فاقضى الأمر النص من جديد على حقوق يهودهم ومواليهم ، ويلاحظ أن هذا النص يطالب أولئك اليهود بالإخلاص التام للأمة .

ولدينا ثلاث مواد : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، تتضمن قواعد خلقية وتنص على أن المعول في تطبيق القانون إنما هو على الروح والأخلاق ، ولا ننسى قبل أن ننتهي من هذا العرض السريع أن نشير إلى الأسس القانونية والخلقية التي تنص عليها المادتان ٦٩ و ٧٠ ، وهما آخر ما لدينا من المواد .

ملاحظات على النظام العام للجماعة :

ولا ندرى إن كانت الوثيقة تنتهي هنا أم أنها كانت تتضمن أجزاء أخرى لم تصلنا . ولكننا نرى بوضوح مما سبق بيانه أنها وثيقة فريدة في بابها في حويلات الإسلام ، فليس لدينا في كل نظم الدول الإسلامية ، قبل العصور الحديثة ، تشريع دستوري يتضمن المبادئ السامية التي تتضمنها هذه الوثيقة ، بل إن أحداً من حكام المسلمين لم يحرص حرص محمد ﷺ على أن تبين الحقوق والواجبات في اتفاق حر واضح كهذا الذي رأيناه في تلك الوثيقة .

ويكفي أنها تترك للوحدات القبلية ، التي دخلت في تكوينها ، الحرية التامة في أن تنظم شعونها على النحو الذي تراه ، مادامت ترحم قواعد شرعية الإسلام ومبادئه الخلقية ، بل إن الجماعة لا تتدخل في الشؤون المالية للوحدات الداخلية في تكوينها ، تاركة ذلك لمسئولية الوحدات . وذلك أساس سليم من أسس التربية السياسية التي حرص محمد ﷺ على أن يقررها في دستور جماعته .

ويمكننا أن نقول — استنتاجاً من النص — إن نظام الجماعة « اتحادى » ، أو ما يسمى في مصطلح اليوم « فيدرالى » ، بمعنى أنه يتكون من وحدات كل وحدة منها مستقلة بنفسها في إدارة شئونها الداخلية ، أما الاتحاد بينها فيكون في مسائل الدين وحمايته ونشره وتطبيق شريعته ومبادئه الخلفية ، وكذلك في شئون الدفاع والحرب والسلام ، أى العلاقات الخارجية .

رسول الله ﷺ يتصرف دائماً تصرفاً قانونياً :

وهذه الوثيقة مما يشهد محمد ﷺ بالعبقريّة السياسية والتنظيمية والقانونية ، إلى جانب ما حياه الله به من جليل الخصال والمواهب التى أهله للنبوّة والرسالة . وهذا بالذكر أن محمداً ﷺ كان رجلاً قانونياً لا يتصرف في شئون الجماعة إلا في حدود الاتفاق القائم بينه وبين أفرادها . وسنكتفى من أعماله الكثيرة بمثالين اثنين يؤيدان ذلك ، برغم أن كل المؤرخين تقريباً يبرون بهما عابرين ، دون أن يفتنوا إلى المعاني الدستورية المسترة وراءهما .

المثال الأول :

هو دعوة الرسول ﷺ أصحابه للتشاور ليلة موقعة بدر . وغالبية المؤرخين يقولون إن الرسول ﷺ أراد أن يستوثق من عزم الأنصار على القتال ، وهذا مستبعد ، لأن الرسول ﷺ كان أعرف بعزيمات الأنصار واستعدادهم للحرب في سبيل الإسلام من أن يحتاج إلى سؤالهم ، ولكن الحقيقة عى أنه خرج بالمسلمين من المدينة على أساس أنهم ذاهبون لمهاجمة قافلة تجارية يقيمون ما فيها ، فلما تغير الموقف وبدا أن القرشيين يريدون الحرب وأن مصلحة الجماعة الإسلامية تستدعى الاستجابة لذلك التحدى ، رأى رسول الله ﷺ أنه لا بد أن يوقف أصحابه على هذا التحول ويصارحهم بأن الأمر الآن أصبح أمر حرب ، ويقول لهم إنه سيخوض المعركة مع المشركين ، ليفرروا إن كانوا مستعدين لخوض المعركة معه . ومعنى ذلك أنه أراد ، قبل أن يدخل المعركة ، أن يكون القرار صادراً عن الجماعة نفسها . فمن أراد الاستمرار معه على الحرب فعل ، ومن لم يرد فهو حر في أن يعود إلى المدينة إذا أراد .

والشال الثاني :

مثال أدل من السابق على صحة ما ذهبنا إليه ، وهو ما وقع عندما خرج الرسول ﷺ للعمرة عام الحديبية ، فإنه دعا الناس للخروج للعمرة . فخرجوا معه ، لا يحملون من السلاح إلا ما لايد منه للدفاع عن النفس في أثناء الطريق . وعند الحديبية تصدى لهم المكبون ، وحالوا بينهم وبين مكة ، فقامت المفاوضات بين محمد ﷺ والمكبين . وخرج الموقف ، وسرت إشاعة بمقتل عثمان في مكة ، فبدت في الجو نذر الحرب ؛ وهنا رأى محمد أن الظروف تغيرت .

وذلك أن أصحابه خرجوا معه للعمرة . أما الآن فإن شبح الحرب يُطلُّ على الموقف . ومن الممكن أن يقع اللقاء بين المسلمين والمشركين ، ولهذا رأى عليه الصلاة والسلام أنه لايد من عرض الأمر كله على أصحابه ليقرروا ما يرونه ، فقد يكون من بينهم من لا يرى الحرب ، ولهذا دعا من يوافقون على دخول الحرب إلى بيعة جديدة ، أي اتفاق جديد ، فكانت بيعة الرضوان .

ولو كان رجلا آخر غير محمد ﷺ لما حفل بعرض الأمر من جديد على أصحابه . ومادام هو القائد والرئيس فليقرر ما يشاء ، وما عليهم إلا الاتباع ، ولكن هذا لم يكن أسلوب محمد ﷺ في العمل . فهو رجل قانوني لا يتصرف فيما يتعلق بالخطط العملية وسياسة المدينة إلا في حدود التفويض الذي منحه إياه أصحابه . فإذا تغيرت الظروف ، فلايد من أخذ تفويض جديد بما يقتضيه الموقف .

والأمثلة على ذلك كثيرة من سيرة الرسول ﷺ وأحاديته ، فقد كان هو الرئيس والقائد والنبى والمرشد للجماعة ، ولكنه لم يكن يسيّر شئونها بإصدار الأوامر بل بإعطاء القدوة الحسنة والتزام القانون وطلب المشورة من الناس . وهو لم يكن يصدر قانوناً ويلزم الناس به ، بل كان القانون يصدر عن الجماعة ويبدأ هو باحترامه فيلتزمه الياقون . ولهذا فإننا مهما بحثنا في دستور الأمة الذي عرضناه فإننا لا نحمد نعتاً على سلطان محمد أو مدى نفوذه ، ومهما قرأنا في السيرة فلن نحمد بصدر أمراً لاتبه الناس من دونه ، وإنما كان إذا أراد من الجماعة أن تفعل شيئاً بدأ بأخذ الرأى للوصول إلى قرار يصدر عن الناس ويتبعونه عن طيب خاطر لأنه يمثل إرادتهم . وكان أيضاً لا يأمرهم بشيء يستثنى نفسه منه ، فإذا أراد الخروج لغزوة لم يصدر

أمرًا بالخروج ، بل استعد وأعلن رغبته في الخروج ثم خرج بمن حضر ، وعسكر قرب المدينة يوماً أو ليلة ربما يتلاحق به الناس . ثم يصدر للغزو بمن تجتمع معه غير ناظر إلى من تخلف . ونادراً ما عاتب أحداً على التخلف ، لأنه كان يكفل الناس في ذلك إلى ضمايرهم . وكان لذلك أبعاد الأثر في نفوسهم .

إدارة الرسول ﷺ للمدينة :

يرى الواضح أن المدينة كانت تدار أيام الرسول ﷺ إدارة حسنة . فقد سادها الأمن ، وعمها الرخاء ، وتضاعف سكانها ، وعمرت أراضيها ، حتى تقاطر الناس إليها من كل ناحية ، وعلى الرغم من كثرة الغزباء في البلد وحدائث عهدهم بالإسلام فإن الأمور داخل المدينة كانت تسير سيراً حسناً ، فالأمن مضبوط وأموال الناس آمنة ومتاجرهم زاهرة ، وكل ذلك لا يتم من تلقاء نفسه ، بل لابد وراءه من إدارة حسنة وترتيب كامل وسلطة محترمة . ولكننا لا نلمح مظهراً للحكومة ولا جهازاً إدارياً ، بل ليس لدينا إداريون أو موظفون متخصصون ، فكيف كان يتم ذلك ؟

كان يتم على أحسن صورة ممكنة ، لأن أحسن الحكومات هي التي لا يحس لها المواطن ثقل ولا عبئاً ، وذلك تماماً ، كما أن أحسن المواطنين هم الذين لا تحس الدولة لهم عبء أو ثقل ، لأن الحكومة الصالحة تخدم المواطن وتسهل له أمور الحياة وتكفل له الأمن والخدمات ، فهي تزيد في راحته ، والراحة هي عدم الإحساس بالمتاعب ، أما الحكومة غير الصالحة فهي التي لا يحس المواطن منها إلا ثقل إدارتها وعبء أجهزتها وكثرة موظفيها وتعدد ضرائبها وقلة ما تؤديه له من الخدمات ، فهو في نصب من أمرها أبداً ، وهي عبء عليه دائماً .

كانت إدارة المدينة أيام الرسول قوية نافذة السياسة والنظام ، فهي ترسل الغزوات والسرايا ، وترعى أسر المجاهدين في أثناء غيبتهم ، وتعنى بهم إذا أصيبوا ، وتتولى أسر من يستشهدون منهم ، وهي تفض المنازعات التي يعجز المواطنون عن قضائها ، وهي تحميهم من الغزو الخارجي ، ولها من الجاه ما يؤمنهم إذا خرجوا منها فيحترمهم الناس في أي مكان كانوا ، لأنهم يهابون سطوة بلدهم ، وهي تنشر الأمن في الداخل وتسرع بالتعمير والرخاء .

وكل ذلك كانت تقوم به فئة قليلة حول الرسول ﷺ ، تعمل في صمت وهدوء وإنكار للذات يدعو للإعجاب ، ونحن نعرف من هذه الفئة أبا بكر وعمر وعثمان وأبا عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة وأخاه محموداً وسعد بن الربيع وكعب بن مالك وأبي بن كعب والحباب بن المنذر ابن الجموح وثابت بن قيس بن الشماس وأبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري والبراء ابن عازب وأسيد بن الحضير وغيرهم . وهؤلاء جميعاً كانوا يعملون في صمت دون حرص على أن تنسب إليهم أعمالهم إيماناً منهم بأن خدمة جماعة المسلمين يراد بها وجه الله سبحانه ، وهو الذي يثيب عليها .

وكان الرسول ﷺ يعهد إلى من يريد — من أهل المدينة — بما يريد ، دون تفريق بين مهاجر وأنصاري ، بل كان يختار لكل مهمة من يقوم بها ، وكان الجميع يسارعون إلى تلبية ما يطلبه إليهم دون تردد ، ويشعرون بالسعادة إذا قاموا بالمهمة ، لأن الرسول ﷺ لم يكن يعهد إلى واحد منهم بعمل إلا أوصاه وزوده بنصائحه ورافقه جزءاً من الطريق ، إذا كانت المهمة خارج المدينة ، وظل يتتبع أخباره وأخبار من معه ويتنظر عودتهم . ولحقاً نجد أن الذين كانوا يقومون بهذه المهام كانوا يقصدون إلى رسول الله ﷺ رأساً عقب عودتهم ليقدموا إليه بياناً بما عملوا ، فكان يدهو لهم ، وكان ذلك عندهم أحسن الجزاء . وإذا كان واحد منهم قد فقد أو أصيب في أثناء المهمة فإن أول ما كان الرسول ﷺ يفعله هو أن يرسل إلى آله يؤكد لهم أنه يرعاهم ويقوم لهم مقام عائلهم الذي أصيب ، وفي أحيان كثيرة كان يطلب إلى من حوله الإسراع بالطعام لعائلة المصاب ، لأنهم سيشغلون بجزئهم عن العناية بأنفسهم . وإذا كان في الأسرة أطفال نجده يسرع باستقدامهم إلى بيته ، حيث يعتنى بهم ويقدم لهم الطعام ، ليظلوا بعيدين عن جو الحزن إلى أن تحف لوعة الأسرة .

وبطبيعة الحال لم يكن الرسول يقوم بكل هذه المهام وحده ، بل كان من ورائه من يقومون بذلك بتوجيه منه أو بناء على قواعد رسمها لهم . وكان الجميع يقومون بواجبهم في سعادة مؤمنين بأمتهم وعقيدها . ولم تكن العادة أيام الرسول ﷺ أن يختص أحد بعمل معين ، وإنما كان رسول الله ﷺ يكلف الرجل بالمهمة ، فإذا فرغ منها عاد إلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وهذا لا ينطبق على المجموعة

التي أشرنا إليها ، فهذه كانت تعمل باستمرار ، ولا يمكن أن تتصور نجاح الجماعة الإسلامية أمام الرسول ﷺ إلا على هذا الأساس .

إخلاص الناس لجماعتهم إخلاص لأنفسهم أيضاً :

ولابد أن نضيف إلى ذلك أن إخلاص أفراد الجماعة كان يرجع أيضاً إلى أنهم كانوا مستفيدين من انتسابهم إليها معنوياً ومادياً . فمعظم أفرادها كانوا قبل إنشائها ، أى قبل دخولهم في الإسلام ، يعيشون هملاً دون وجهة في الحياة أو مهمة يقومون بها ، وإنما كانوا عرباً من أهل الصحراء تنقضى أيامهم وكأنها شُحْب صيف ، لا يكادون يعملون فيها شيئاً ذا بال — غير الحروب والنزاعات — وكلها شرور ومضار .

فما إن دخلوا الإسلام وأصبحوا أعضاء في جماعته حتى أحسوا بأنفسهم ، وشعروا بأن لهم كياناً معنوياً وخلقياً ، وبأن شخصياتهم محترمة ، وأن لهم رسالة جديدة في الحياة . وقد نفث فيهم الإسلام روحاً من العزة والكرامة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وأيقظ فيهم الضمير الإنساني فجعلهم يشعرون بمعنى الحياة وما فيها من خير ، وما يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا تحلى بالفضائل وارتفع بنفسه عن الشرور والآثام .

وكان الواحد منهم عضواً في قبيلة لا تمتاز على غيرها بشيء ، بل لم يكن له وطن ولا مكان معين تحت الشمس ، ولا يشعر بأمان في أى مكان ، فأصبح الآن عضواً في جماعة كبرى ذات قوة وجاه وسلطان ، وأصبح له وطن آمن وبيت وأرض ومال ، وكل ذلك يؤمنه ويحرسه قانون وشرع سماوى ، وله في هذا الوطن الجديد حقوق محترمة ومرعية وأعمال واضحة تعطى حياته معنى وهدفاً . ثم هو قبل ذلك كله وبعده مسلم مؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وهذا في ذاته كان انتقالاً حاسماً في حياة أولئك الناس .

فإذا انتقلنا إلى النطاق المادى الصرف وجدنا أن كل واحد من أعضاء الجماعة كان مستفيداً فائقة مباشرة من دخوله فيها ، فقد تحسنت الأحوال الاقتصادية في المدينة ، وعمرت نواحيها وازدهرت تجارها ، وأصبحت الأرض التي كانت مهملة

من قبل أرضاً مزروعة أو مبنية لها قيمتها ، وحتى الأرضى التى لم ينشأ عليها شيء ولم تزرع زادت قيمتها المالية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يقرره السهمودى فى تاريخ المدينة من ارتفاع الأسعار ووفرة الأطعمة بسبب انتشار الزراعة وتوافر ضروريات الحياة فى أسواق المدينة ، لأن التجارة الكبرى انتقلت إليها . ومعنى ذلك أن أعضاء الجماعة عندما كانوا يعملون بحماس وإخلاص إنما كانوا فى الوقت نفسه يعملون لأنفسهم ، وكان الخير الذى يحققونه للجماعة يعود عليهم منه نصيب . ولقد حدثنا المؤرخون أن الأنصار قبلوا بسرور أن يقاسمهم المهاجرون أموالهم ، ولم يكن ذلك صادراً عن مجرد الرغبة فى المعونة ، وإنما كان الأنصار يشعرون بأن قدوم محمد ﷺ والمهاجرين إلى بلدتهم وقيام الجماعة الإسلامية فيها كان بركة عليهم جميعاً ، فقد تضاعفت أموالهم وثرواتهم ، فهم إذا قاسموا المهاجرين فإنما كانوا يؤدون إلى الجماعة بعض ما جلبته إليهم من الخير .

وكان رسول الله — ﷺ — حريصاً على أن يشعر الناس بأنهم كسبوا كسباً مادياً حقيقياً باشتراكهم فى الجماعة ، فكان دائماً يحض الناس على العمل والسعى والكسب الحلال ، وما رأى رجلاً زاد ماله من الطريق الحلال ، إلا دعا الله أن يبارك له فيه . وكان يسره أن يرى النعمة ظاهرة على الناس ، وما رأى رجلاً مقتدرأ إلا حثه على أن يظهر النعمة ، وما رأى رجلاً رث الثياب مع قدرته على اللبس الطيب إلا عاتبه ، وكان يكره من الرجل أن يحرم أهله وأولاده من التمتع بنعم الحياة فى اعتدال وكال .

ولابد أن نذكر دائماً أن ضمان ذلك كله كان محمداً — ﷺ — بعدله المطلق وتفانيه التام وإيمانه العميق بالإسلام وأمنته ، وحرصه على مشاوراة أصحابه وقدرته على اتخاذ القرار الحاسم السليم فى كل وقت .

حرية الناس هى أساس الحياة فى الجماعة :

يبد أن أهم ما ميز الجماعة الإسلامية الأولى هو الحرية التى تمتع بها أفرادها ، فكلنا نعرف جماعة المنافقين الذين كانوا يعيشون فى المدينة ويتظاهرون بالإسلام أو بصداقة المسلمين ، ويدسّون فى الوقت نفسه للإسلام وأهله ويكيدون لرسوله ﷺ ويحتمون بالأعداء من يهود ، أى واليهود الباقون على دينهم ، ممن كانوا يناصبون

الإسلام العداء بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسولهم ﷺ منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى على جاهليته ، فكأنوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتاع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام وانغذوه حجة من القتل ، وناقضوا في السر ، وكان هواهم مع يهود ^(١) . وهؤلاء لم يكونوا معارضة جديرة بالاحترام كمعارضة صريحة ، ولكنهم كانوا منافقين كذابين يخالفون الأمة في الظاهر ويدسون لها في الخفاء ، ولو عاملهم محمد بالعرف لكان له عذر ، ولكنه — برغم عرفانه بشرهم وسوء نيتهم وأمرهم على الأمة — لم يتعرض لهم بشر وتركهم يقولون ما يريدون . وكانوا يحاولون إخراجهم بالأسئلة التي يحسبون أنها هوبصة عليه ، فيرد عليهم في صبر وحلم ، وما كان ذلك خوفاً من غضب قبائلهم أو من قوة أتباعهم ، فإن قبائلهم نفسها كانت تبغضهم ، بل كان أهلهم يستقلونهم ، ولو أنزل محمد ﷺ بهم عقاباً فما كان أحد لينهض للدفاع عنهم ، ولكنه كان يطيل الحبل لهم ويستعمل الحلم معهم حتى ينكشف أمرهم ويظهر سوء نيتهم وفساد ضمائرهم فيتلاشوا ويسقطوا من أعين الناس من تلقاء أنفسهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان محمد ﷺ يرى أن هذا هو مدى تفكيرهم ، وأن عقولهم لا تستطيع أن تفهم الإسلام إلا على أنه وسيلة لجأ إليها محمد ﷺ وأتباعه للسيطرة على شؤون المدينة ، وهذا أيضاً كان رأى أى جهل في مكة أيام كان رسول الله — ﷺ — يحاول اجتذاب المكين للإسلام ، وكان الرسول ﷺ يعتقد أنه لو منحهم الله نوراً يروا به لدخلوا الإسلام وأخلصوا له ، ولهذا كان يجتهد في إقناعهم بالحسنى وشرح الأمور لهم في صبر . وكان وثيق الأمل في أن هذا النور سوف يصل إلى قلوبهم يوماً ما ، وإذن فالخير كل الخير في الصبر عليهم وإفساح الصدر لهم والإغضاء عن أفاعيلهم ، فإنهم لن يبلغوا بعدوانهم للإسلام شيئاً .

ومعنى هذا أن محمداً ﷺ كان يرى ترك الحرية للناس ليخبر كل منهم الطريق الذي يريده ، وقد رأينا أن المادة ٣٠ من دستور المدينة تقول : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » . وذلك يقرر مبدأ الحرية الدينية داخل الجماعة بأوضح

(١) سورة ابن هشام . ج ٢ ، ص ١٦٠

صورة^(١) . ولنذكر هنا ما أشرنا إليه من أن الرسول ﷺ كان شديد الاحترام لشخصيات الناس ، حتى يخلعه ومواليه ، فكان لا يرفع عليهم صوته ، وكان يتحرج من أن يبرح شعور أى إنسان حتى ولو كان بدويًا طارئاً على المدينة لا يعرف من آداب أهل المدن شيئاً ، فكان الرسول ﷺ يستقبله في رفق ويحدثه في مودة ويراعى شعوره احتراماً منه للشخصية الإنسانية . وكانت معاملته لنسائه مضرب للثل في الاحترام والتقدير ، ولا تذكر لنا صحف التاريخ أنه صدر عنه — ﷺ — ولو في لحظة غضب ، لفظ يمس شعور إحداهن ، ولست بحاجة إلى أن ننص هنا على ما كان من معاملته لأصحابه معاملة الود والمحبة والاحترام لأشخاصهم مع توقيرهم البالغ له ، ومع أنه كان يعلم أنه يستطيع أن يصدر إليهم الأمر فيطيعوا دون مناقشة . إلا أنه كان يفضل دائماً أن يناحش معهم ويأدبهم الرأي ويأخذ برأيهم إذا وجد أنهم يقولون صواباً . وكل ذلك يدل على احترام محمد — ﷺ — للشخصية الإنسانية احتراماً كاملاً ، وتقديره لحرية الناس واعتباره هذه الحريات أساساً من الأسس التي لا يقوم بتيان الأمة بدونها .

ولعل ابن هشام لم يكن مصيباً عندما قال إن المنافقين « ظهروا بالإسلام وانخلوه جنة من القتل » ، فالرسول — عليه الصلاة والسلام — لم يقتل أحداً لشركه ، وابن هشام نفسه يشير إلى حالة أربعة بطون من الأوس ، هم بنو عظمه وبنو واقف وبنو وائل وبنو أمية ، ظلوا على الشرك دون أن يمسه محمد بأذى^(٢) ، حتى أسلموا من تلقاء أنفسهم بعد الخندق ، كما يقول ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » وقد سموا بعد ذلك « بأوس الله » .

وهذا الموقف تجاه المعارضين كان — فيما نرى — أساساً من أسس قوة الأمة وإيمانها العظيم بالإسلام ، فإنه لا شيء يزيد المعارض استمساكاً بمعارضته مثل محاولة إسكات صوته بالقوة ، لأن ذلك يجعله يتصور أنه على حق وأن ما يقوله له قيمة كبيرة ، ولا يلجأ أحد إلى القوة في مسائل الرأي إلا إذا أحس بضعف في رأيه وخوف كبير

(١) هذا هو المبدأ الذي قرره الصحابة . ولكن لما غلبت اليهود وأعلنوا بكيدهم للجماعة الإسلامية كان لابد للجماعة أن تحسم نفسها بهم بإحرامهم .

(٢) سورة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

من أن يغلبه حصومه بالحجة ، فهو يلجأ إلى القوة ليست أصواتهم ويتجنب ملاقاتهم في ميدان المناقشة ومقارعة الحجة بالحجة .

وهذا الموقف الذي اتخذه محمد حيال المعارضين والمناقضين لم يكن محض سياسة منه ، بل كان هو أيضاً موقف الإسلام من غير المسلمين ممن كان لهم دين منزل وما يشبه الكتاب ، لأن الإسلام — كما نرى في القرآن الكريم — دين تسامح وحرية فكر ، وهو نور وهدى من الله ، فهو فضل منه يمنحه لمن يشاء ، وقد بينا فيما سبق كيف كان العرب يعرضون الإسلام على الناس ويصرونهم به ، ثم يتركونهم أحراراً بعد ذلك ليعتفوه عندما يقتنعون به ويفتح قلوبهم له .

أثر الحرية والتسامح في انتشار الإسلام :

وقد كان مبدأ الحرية هذا الذي قرره القرآن في أكثر من موضع ونص عليه دستور الجماعة الإسلامية نصاً صريحاً كما رأينا ، وجرى عليه محمد ﷺ في تسير أمور المدينة ، كان لهذا المبدأ الأثر الأكبر في انتشار الإسلام فيما بعد ، لأن الإسلام ظهر في عصر اضطهادات دينية ومحاولات عنيفة من جانب الدولة البيزنطية وأصحاب المذاهب المسيحية لإرغام الناس على الدخول في دينهم أو مذهبهم .

فلما جاء العرب ودخلوا البلاد تحت راية الإسلام ، ولم يفعلوا أكثر من عرض الإسلام على الناس وتبصيرهم بفضائله ثم تركوهم بعد ذلك أحراراً في اعتناقه إذا شاءوا ، كان هذا الموقف مثار عجب ودهشة من جانب الزرادشتيين والمناويين في إيران والمسيحيين واليهود في الولايات البيزنطية التي ضحها العرب . خافت نفوسهم إلى معرفة الإسلام ، ووقع في نفوس الكثيرين منهم أنه ميزة كبرى ، وإلا لما ضن به العرب على غيرهم — في رأيهم . وهذه الفكرة واضحة في كتابات المسيحيين الذين رحبوا بالعرب وحكمهم مثل يوحنا النقيوس المصري ، وكذلك في كتابات المسيحيين الذين كرهوا العرب والإسلام وإن دخلوا في خدمتهم ، مثل يوحنا الدمشقي^(١) . بل ذهب الغيظ من انجذاب المسيحيين للإسلام نتيجة لتسامح

(١) الذي كان هو ووالده قبله في حاملة اللامب الأخرى منذ أيام معلوبة بن أبي سفيان .

المسلمين قد حاول نقر من فسادة قرطبة و رهبانها إرغام المسلمين على الخروج من
تصميمهم ، وذلك بإهانة الإسلام ومقدساته علنا في الشوارع ، لكي يقتادهم الشرطي
إلى القضاء . وأمن القضاء في التسامح معهم ، فكانوا يحاولون استتابتهم حقاً
لدمعتهم ، فظن أولئك المتصبون أن هذه فرصة جديدة أتيت لهم ليظهروا بمظهر
الأبطال ، فمسكوا بالعداء للإسلام وإهانة مقدساته مما كان يضطر القضاء إلى الحكم
عليهم بالموت ، وقد اشتهر بذلك الراهب يولوج القرطبي Ecolgio De Cordoba
وصاحبه قلورا Kora وكلاهما انتهى أمره إلى القتل بسيف الشرع ، وكانا وأمثالهما
يحسبون أن دماءهم ستدكي غضب النصارى على الإسلام ودولته في الأندلس فتكون
ثورة دامية أو تؤدي على الأقل إلى تنفير النصارى من الإسلام . ولكن الحركة
انخفضت ، وأصدر مجلس طليطلة الديني المسيحي قراراً يأسفه فيه آراء أولئك الرهبان
الذين بلغ بهم التعصب الديني مبلغ الجنون . وعقب ذلك ازداد إقبال الناس على
الإسلام في الأندلس .

الصورة العامة للجماعة الإسلامية الأولى في المدينة :

كانت الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة إذن جماعة سليمة من كل وجه : سليمة
في تكوينها وسياستها الداخلية والخارجية ، وسليمة في قواعد الحكم والعمل التي
سارت عليها . كانت جماعة رشيدة ، كل من فيها يؤمن بها ويعرف واجبه حيالها ،
لأن القرآن يفتح عيون الناس على حقوقهم وواجباتهم ويبين لهم المبادئ الخلقية التي
ينبغي أن تسير عليها الجماعة الفاضلة . وكان محمد ﷺ — يتبع طريق العدل
والإحسان ، فيعطى الناس حقوقهم ويضمن حرياتهم ومصالحهم ، كما رأينا في
الدستور الذي ناقشنا أهم أبوابه ، وليس هناك ما يخفى الناس على أداء الواجب مثل
حصولهم على الحق الذي يقابله ، وقد حصل الناس في المدينة على خير كثير حال
قيام جماعة الإسلام فيها ، فإن انتقال محمد ﷺ إليها وضبطه أموراً نشر الأمان
في ربوعها ، وغزواته وسراياه التي قام بها أو بعث بها أنسها من كل خطر خارجي
ونشرت سلطتها على مساحات شاسعة حولها ، فأمنت الطرق المؤدية إليها وتحركت
تجارتها بعد طول ركود ، وأخذت المدينة تحتل مكانة مكة في التجارة والمال . ومع
الأمن الداخلي والخارجي وانتعاش التجارة تحركت الهمة للإشياء ، وكثر المال في

أيدى الناس ، وأحسوا بنعمة الإسلام كعقيدة ونظام سياسى واجتماعى ، وازداد حرصهم عليه وتمسكهم بالمبادئ التى يدعو إليها ، وارتفعت مهمهم إلى مستوى المركز الذى وصلت إليه جماعتهم ، فظهرت بينهم شخصيات استازت بصفات القيادة والنوحيه وحسن الرأى والتدبير ، وأضفى الإسلام عليهم نعمة التواضع وإنكار الذات والاتجاه إلى عمل الخير .

لهذا نجد أنه ينطبق على مجتمع المدينة أيام الرسول — ﷺ — ما يسميه الفلاسفة : « المدينة الفاضلة » أى المجتمع الخير الذى تسير فيه الأمور على قواعد الحقبة والتعاون ، ويرجع الناس فيه إلى صوت العقل ومصلحة الجماعة . ويندر أن نقرأ فى أخبار المدينة أيام الرسول ﷺ — على كثرتها وتفصيلاتها التى تقدمها لنا كتب السيرة — شيئاً يدل على فساد أو ضعف أو اختلاف شديد بين الناس ، وإنما جدهم متعاونين معاً متطاعين إلى الخير متحدين فيما بينهم متمسكين بالإسلام وناظرين إلى غيره قبل أن ينظروا إلى غير أنفسهم .

وقد كان الأنصار يشعرون بذلك شعوراً دائماً ، فما تحدث أحد منهم إلا ذكر نعمة الله على المدينة وأهلها وما أصابهم جميعاً من الخير منذ حل بهم محمد ﷺ وأظلتهم راية الإسلام ، وعلى طول أيام الرسول ﷺ كان الأنصار أول الناس خروجاً للغزو وأشدهم بلاء فى الميدان ، وبهذا كانوا يعبرون عن شكرهم للنعمة التى حلت بهم مع الإسلام وفضل الله ورسوله ﷺ عليهم .

وهناك فريق آخر من أهل المدينة أحسوا بنعمة الإسلام إحساساً عميقاً وعبروا عن شكرهم له بالتضحية البالغة ، وهو فريق القضاعيين ، من بطون الحاف ابن قضاة . فلقد كانوا مستعبدين ممتنّين قبل الإسلام ، فلما استقر محمد ﷺ فى المدينة اجتلبهم إليه ورفع قدرهم ، وزال عنهم الضيق باعتناقهم الإسلام ، وأصبحوا مساوين لغرهم . ولما كانوا هم معظم من يفلحون الأرض فقد أصبحت لهم الأراضى التى استطاعوا استصلاحها — وكانت كبيرة جداً — سواء داخل المدينة أو فيما حولها . وكان محمد ﷺ قد اتفق مع المدنيين على أن يتركوا له الأرض المهملة التى لا يقيمون منها ، فصرف هو فيها بإعطاء جانب كبير منها للقضاعيين الذين كانوا بحاجة إلى أرض يملكونها ، فانتقل الكثيرون منهم من الفقر إلى يسر الحال ، وكان معظم الذين أفادوا من ذلك من قبيلة أسلم ، فأصبح الأسالة أنصار الرسول

والمهاجرين خاصة ، وقد انتفع بهم عمر أحسن انتفاع ، إذ إنه كان رأس الهيئة المدبرة المنظمة وراء الرسول ﷺ ، فكان يركن إليهم في الكثير من المهام ، وإلى عناية عمر بأمرهم يرجع الفضل فيما قرره الرسول ﷺ من اعتبار الأسألة مهاجرين ، أى تسويهم بقومه . وعندما خرج الرسول ﷺ لفتح مكة لقي منهم بطوناً خارج المدينة ، فقالوا له إنهم ليسوا أقل إخلاصاً للإسلام من أسألة المدينة ، فعذبهم هم الآخرين مهاجرين ، وإن أقاموا في مواضعهم .

أصبح الأسألة القضاة إذن مواطنين كاملين في جماعة المدينة ، وقد أشعرهم هذا بجزء وكرامة ، إذ تخلصوا من استعباد الأُمس . وعندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة — بعد موت النبی ﷺ — كان صوت الأسألة هو الذى رجح كفة أبى بكر في المناقشة حول اختيار خلف للرسول ﷺ . وقد فعل الأسألة ذلك حقراً من أن يعود السلطان في المدينة للأوس والخزرج ، وتعبيراً عن شكرهم محمد ﷺ وللإسلام على ما أتاهم به من نعمة المساواة والكرامة الإنسانية ، إلى جانب ما عاد عليهم من المكاسب المادية .

خلاصة :

تبينا في الفصل الأول قيام الجماعة الإسلامية والأُمس التى ارتكز عليها بنائها ، وعرفنا موقف الجماعة من النظم السياسية التى قامت في بلادها بعد ذلك ، وبينّا كيف وقع الانفصال بين الجماعة من ناحية وبعض تلك النظم من ناحية أخرى في بعض الأحيان ، وأثبتنا أن الجماعة ظلت محافظة — ولو من الناحية النظرية — على المبادئ الرئيسية التى يقرها الإسلام كمعقيدة وشريعة وميزان خلقى ، والنسب طبقها محمد ﷺ مؤسس الجماعة الإسلامية في المدينة .

ثم تتبعنا بعد ذلك اتساع نطاق جماعة الإسلام في كل انحاء ، حتى نشأ ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامى .

ولما كانت الجماعة الإسلامية هى أساس الوجود الإسلامى كله ، فقد خصصنا هذا الفصل الثانى للإحاطة بالجماعة الإسلامية الأولى في المدينة ببساطة تفصيلية ، لئلا نرى الأسس القانونية والخلقية والحضارية التى قامت عليها ، باعتبار أن هذه الجماعة

الأولى هي المثل الأعلى الذي كان ينبغي أن تقتدى به الجماعات الإسلامية كلها فيما بعد .

فبدأنا ببيان الأحوال في سهل المدينة ، قبل أن يهاجر إليها رسول الله وصحابته ، وعرفنا عناصر السكان الأربعة التي سكنت هناك ، وهم : بقايا القضاة القداماء والخزرج ، والأوس ، واليهود ، وتكلمنا عن أحوالهم ، وشرحنا أسباب الخلاف الذي كان قائماً بينهم ، وخرجنا من ذلك بأن أهل المدينة كانوا يبحثون عن الأمان ممثلاً في صورة نظام قانوني وخلقي عادل يقوم على تنفيذ رجل أو رجال من أهل الفضل والحكمة والعدالة والمقدرة . وقلنا إن مندوب أهل المدينة عندما التقوا والرسول في مكة في موسم الحج تبينوا أنه هو القائد الذي كانوا يبحثون عنه ، وأن الإسلام الذي بشرهم به هو ذلك النظام القانوني والخلقي السامي الذي كانوا يبحثون عنه . وكما وجد الرسول ﷺ في المدينة الفرصة لإنشاء الجماعة الإسلامية التي كان يسعى لتحقيقها على الأرض ، فكذلك وجد أهل المدينة في الرسول ﷺ أملهم الذي كانوا في أشد الحاجة إليه ليخرجوا من الفوضى والخلاف التي كانوا يعانون منها . وإلى هذا التطابق الكامل بين مطلب الرسول ﷺ ومطلب أهل المدينة يرجع السر في ذلك الالتحام الكامل بين الإسلام وأهل المدينة الذي كان الأساس المتين لقيام الجماعة الإسلامية . وعلى أساس من ذلك الالتحام بدأت هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، فكان ذلك بدءاً لعصر جديد في تاريخها وصفحة جديدة في تاريخ الإنسانية .

وتبيننا الخطوات التي اتخذها الرسول ﷺ لينشئ جماعة الإسلام — أو أمته — في المدينة ، وتبيناً أنها كانت خطوات سليمة مقدرة بحساب وقائمة كلها على أساس الإسلام ومتجهة نحو إنشاء جماعته . فمنذ اليوم الأول لوصوله — ﷺ — بدأ بالتشاور مع أهل المدينة ممثلين في النقباء الاثني عشر الذين احتاروهم ليلة بيعة العقبة الثانية ، ثم ذكرنا كيف رأى الرسول أن يقيم في منازل بني عدي بن النجار ، وهم بطن من الخزرج . وكان الخزرج إذ ذاك مغلوبين على أمرهم ، فكان قرار الرسول ﷺ إنصافاً لهم ورفضاً لهمتهم ، وحافزاً لهم على التغاضي عن تأثرهم من الأوس .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده ، وهو ليس محض مكان للصلاة ، بل كان مركز الحياة الاجتماعية للجماعة : هناك كانوا يلتقون ويتبادلون الرأي ، وهناك كانوا يسمعون

أخبار جماعتهم ، وعندما بنى محمد ﷺ — حجارته في ركن من ساحة المسجد أصبح المسجد المركز الرئيسي للجماعة أيضاً . ونشوء مركز الجماعة تكونت نواتها السياسية والاجتماعية والعمرانية .

وبينما في فقرة خاصة كيف زاد عمران المدينة ونشأت فيها الشوارع وصفوف البيوت والمساجد والأحياء ، وكيف اتصلت أجزاء السهل بعضها ببعض وعمرت الأجزاء التي كانت متروكة مهملّة ، فارتفعت أسعار الأرض والمباني ، وكثر الناس في المدينة ، واتصلت بطريق التجارة خوافرت فيها حاجات الحياة ورخصت أسعار الأطعمة بالسّاع الزرّاعة ، وزاد إنتاج الناس للأقمشة وما إليها . وهذا ما يعبر عنه — بالمفهوم الحديث — بزيادة الإنتاج ، وهو من العلامات المؤكدة لنجاح الجماعات الإنسانية وصلّاح نظمها ومبادئها الخلقية .

وتكلّما عن مبدأ المؤاخاة الذي قرره الرسول ﷺ ، وبينما أنها لم تكن مجرد مؤاخاة محاربين بأمناء لتحسين المركز المالى للمهاجرين ، وإنما كانت مؤاخاة إنسانية واجتماعية ، مؤاخاة في الدين والوطن كما نقول اليوم .

بعد ذلك درسنا دستور المدينة — أى قانونها الأساسى — الذى يمثّل في الكتاب الذى كتبه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن انضم إليهم من اليهود الذين كانوا يعيشون في المدينة ، وبينما كيف أن هذا الكتاب وثيقة دستورية من الطراز الأول ، حددت فيها المبادئ الأساسية للكيان السياسى والإنسانى للجماعة .

وقد أوردنا النص الكامل للوثيقة ، وذكرنا طرفاً من تاريخها وكيف تكونت وكيف وصلت إلينا ، ثم ناقشنا المبادئ التى تضمنتها واحداً واحداً ، سواء أكانت سياسية أم تشريعية صرفة أم حلقية أم اقتصادية . ولا يمكن أن نوجز هنا ما قلناه هناك لأنه بطّعه موخر في النص ، فيراجع في موضعه .

وختتما الكلام عن الوثيقة بإلقاء نظرة إجمالية على النظام العام للجماعة الإسلامية في ظلها ، وقررنا في فقرة خاصة أن نشوء هذه الوثيقة صدر عن التفكير القانونى لرسول الله ﷺ وانحائه إلى أن يتصرف دائماً في حدود قانون محدد معروف . وضررنا لذلك متالين من السيرة النبوية بدلان على أنه — ﷺ — كان لا يتصرف في الشؤون السياسية إلا بعد التشاور مع أصحابه ليصدر القرار عن الجماعة نفسها ،

وإذا خرج الناس معه لمهمة معينة ثم تغيرت الظروف تغيراً يمكن أن يؤدي إلى الحرب ، فإنه — ﷺ — كان يطرح الموضوع على الناس في مناقشة عامة ليقرروا فيه ما يرون بحسب الظروف الجديدة ، فقد يكون فيهم من لا يريد الحرب ويفضل العودة إلى المدينة . حدث هذا ليلة موقعة بدر ، وعندما اعترض القرشيون طريق المسلمين عند الحديبية وهم يريدون قضاء العمرة . ففى كلتا الحالتين لم يكن الناس قد خرجوا مع الرسول للحرب ، فلما تغيرت الظروف وأصبح وقوع الحرب محتملاً طرح الرسول الأمر للمناقشة العامة ، فمن أراد دخول الحرب ثبت معه ، ومن لم يشأ كان له أن يعود أدراجه .

وتحدثنا بعد ذلك عن إدارة الرسول — ﷺ — لشئون الجماعة وبينما أنها كانت إدارة سليمة حكيمة ، فساد الأمان والرخاء ، وعلا جاه المدينة وجماعتها بين الناس ، وأقبل العرب للانضمام إليها من كل ناحية ، وبينما كيف جعل الرسول ﷺ أهل المدينة يديرون أمر مدينتهم بأنفسهم ، وكيف أنه لم يتح إلى خلق كيان أو جهاز إدارى متخصص ، بل كان يعهد في المهمات إلى من يراه قادراً على ذلك من الصحابة ، فإذا قام الصحابي بما كلف به عاد إلى صفوف الصحابة وإلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وقلنا إن السر في ذلك كان القدوة الصالحة التي كان محمد ﷺ يضربها للناس بعمله ، فهو نفسه كان يعمل باستمرار ، وكان لا يأنف حتى من العمل بيده ، فكان يخدم نفسه بنفسه ويشارك في بناء المسجد بيده ، وفي وقعة الخندق اشترك مع الناس في العمل ، وكان يشارك في الحراسة الليلية ، فإذا اشتد به اليرد دخل خبائه ليستدفق بعض الشيء ثم يعود إلى الحراسة والإشراف على الخندق .

وأشرنا إلى الفئة القليلة من الصحابة الذين كانوا يعملون معه ليل نهار حسيبة لله ورسوله ﷺ ، وكان على رأس هذه الجماعة عمر بن الخطاب وأبو بكر ، فكان أفرادها يتفدون ما يرسم الرسول ﷺ من الخطط في صمت وإنكار للذات .

وبينا كيف أنه — ﷺ — كان حريصاً على العمل عارفاً بقدر العاملين مقدراً فضلهم ، فلم يكلف مرة واحداً من الصحابة بعمل إلا أوصاه وأعطاه تعليماته وربما رافقه جزءاً من الطريق ، ثم ظل ينتظره بعد ذلك . وذكرنا أمثلة من حرصه على أصحابه ومراعاته مشاعرهم ورعايته لأمرهم ، وبيننا كيف أنه — في حالات

استشهاد من يستشهد منهم — كان يستفد الأيتام ويرعاهم بنفسه أو يوحي بهم بعض أصحابه ، وكيف كان يحرص أشد الحرص على مواساة أراذل الشهداء .

عرفنا كذلك كيف كان إخلاص الناس في الوقت نفسه إخلاصاً لأنفسهم ، لأن كل خير تناله الجماعة ينالهم منه نصيبهم العادل .

وضررنا الأمثلة على اهتمام الرسول ﷺ بأن تتحسن أحوال الناس الاقتصادية وتظهر عليهم نعمة الإسلام والانضمام إلى الجماعة .

وحصصنا فقرة للكلام على أن الحرية كانت أساس الحياة في الجماعة ، وضررنا أمثلة على حرص الرسول ﷺ على أن يتمتع كل أهل المدينة بحرية الرأي ، حتى ولو كانوا من المنافقين ، وبيننا كذلك كيف أنه كان حريصاً جداً على احترام شخصيات الناس وكراماتهم ، فلم يصدر عنه قط ما يمس شعور الناس أو يهرج إحساسهم .

وبينا بعد ذلك أثر الحرية في بناء شخصيات أفراد الجماعة ، وكيف أصبحت جماعة الإسلام — نتيجة لذلك — مجتمع رجال أحرار ذوي اعتزاز بدينهم وجماعتهم وأشخاصهم ، وإلى هذا الاعتزاز ترجع الانتصارات التي كسبوها في ميادين الشرف والجهاد والحكم والإدارة .

وأضربنا إلى ذلك ملاحظة عن مدأ التسامح — وهو مظهر من مظاهر الحرية — وكيف أدى إلى زيادة انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه .

وحتمنا الفصل بصورة عامة للجماعة الإسلامية التي أسسها الرسول ﷺ — في المدينة مابين حصائصها وفضائلها ، وأوصحنا أنها كانت صورة واقعية طبيعية لما تحيله الفلاسفة وسموه « المدينة الفاضلة » ، وبيننا كيف كان المواطنون فيها مقدرين للهمة التي أصابوها في ظلها . وضررنا مثالبين لذلك بإخلاص الأنصار للأمة التي شاركوا في إقامتها في بلدهم وعرفان الأمالة المقصاعين لفصل الإسلام وأمتة عليهم .



مراجع مختارة



أصول قديمة :

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم : « الكامل في التاريخ » ،
طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، ج ١ .

ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد : « حوامع السيرة » بتحقيق إحسان
عباس . القاهرة ١٩٥٧ .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد : « كتاب الطبقات الكبرى » ، بيروت
١٩٥٧ ، الأجزاء الثلاثة الأولى .

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد البر البزري : « الدرر في اختصار المغازي
والسير » ، تحقيق شوقي صيف ، القاهرة ١٩٦٦ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو العدا إسماعيل : « البداية والنهاية » ، القاهرة ١٩٣١ ،
الأجزاء الأربعة الأولى .

ابن هشام ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعافري البصري : « سيرة النبی
ﷺ » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين .

الحراعي ، أبو الحسن علي بن محمد : « الدلالات السمعية على ما كان في عهد
الرسول ﷺ من الحروف والصائغ والعمالات الشرعية » ، مخطوط بدار الكتب
المصرية (التيمورية ١٩٣٨ — تاريخ) .

الدياربركري ، حسن بن محمد بن الحسن : « تاريخ الخميس في معرفة أنفس
نفس » ، المطبعة الوهية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

السمهودي ، نور الدين علي بن محمد بن جمال الدين : « وفاء الوفا بأخبار دا

- المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، القاهرة ١٩٢١ .
- السهيلى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله : « كتاب الروض الأكنف » ،
القاهرة ١٩١٤ .
- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : « تاريخ الرسل والملوك » بتحقيق محمد أبى
الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦١ .
- المقريزى ، تقي الدين أحمد بن عثى : « إمتاع الأسماع » ، ج ١ ، القاهرة
١٩٤١ .
- النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : « نهاية الأرب فى فنون
الأدب » ، طبعة دار الكتب المصرية - الأجزاء ١٦ - ١٧ - ١٨ ، القاهرة
١٩٥٥ .
- الواقدى ، أبو عبد الله محمد بن واقد : « كتاب المغازى » بتحقيق مارسدن
جوتز ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ .

مؤلفات حديثة :

- أحمد إبراهيم الشريف : « دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول
والثانى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أحمد إبراهيم الشريف : « مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول » ، القاهرة
١٩٦٥ .
- الألوسى ، السيد محمود شكرى البغدادى : « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال
العرب » .
- عباس محمود العقاد : « عبقريّة محمد » . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٧ .
- عباس محمود العقاد : « مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- محمد حميد الله : « مجموعة الوثائق السياسية ، من عهد الرسول والخلفاء
الراشدين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، القاهرة ١٩٣٥ .

- محمد حسين هيكل : « في منزل الوحي » ، القاهرة ١٩٣٧ .
 محمد عزة درودرة : « عصر النبي عليه السلام » ، دمشق ١٩٤٥ .
 محمد ليبب البتانوني : « الرحلة الحجازية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩١١ .

مراجع غير عربية :

- BLACHERE, Regis : Le Probleme De Mahomet . Paris 1952 .
 BUHL, FRANTS : Das Leben Mohammeds , Heidelberg , 1955
 DEMOMBYNES , GAUDEHROY (M) : Mahomet , Paris 1957
 MONTGOMERY WATT (W) : Muhammad At Mekka , Oxford 1953 .
 MONTGOMERY WATT (W) : Muhammed At Medina , Oxford 1956
 MONTGOMERY WATT (W) : Muhammad , Prophet , And States - Man , Oxford 1965
 SERJEANT (R B) : The Constitution Of Medina , In The Islamic Quarterly , Vol VIII



الفصل الرابع

ملامح المجتمع الإسلامي



الطابع الغالب على المجتمع الإسلامى :

فى الفصل الأول من هذا الكتاب بينا كيف أن الجماعة — أو الأمة — هى أساس كيان الوجود الإسلامى ونظمه ، فإن عبادات الإسلام كلها ذات طابع اجتماعى ، والإسلام لا يعرف الرهينة أو الانقطاع للعبادة ، إذ إن غاية الدين هى سعادة البشر فى الدارين ومعاونتهم فى الوصول إلى حياة أفضل . فالصلاة — مثلاً — تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فهى طريق للأخلاق الكريمة ، إلى جانب كونها قرينة إلى الله تعالى ، وغير الصلوات ما يؤدى جماعةً ، والمساجد أمكنة التقاء للمسلمين بعضهم مع بعض ، ليقوى فى قلوبهم الشعور بالجماعة ، والمسجد يسمى أيضاً : « الجامع » أى الذى يجمع بين الناس ليقفوا بين يدى الله صفواً واحداً فى أوقات معلومة ، يعظمونه ويسألونه . والمساجد كذلك دور دراسة ودور قضاء ، وكانت تستعمل فى بعض الأحيان مراكز لبعض الأعمال ذات الطابع العام ، مثل توزيع الأراضى على المتقربين ، أى متعهدى الضرائب ، والمساجد كذلك مراكز إعلام ، فالمقرؤون أن أخبار الجماعة الإسلامية ينهى أن تبلغ للمسلمين من منابر المساجد فى اجتماعات تعقد لهذا الغرض أو فى عتبات الجمعة والأعياد . وهذا هو — على الأقل — ما كانت الأجيال الإسلامية الأولى تفعله . وكان هناك فى بعض المساجد ، كمسجد قرطبة الجامع ، موضع معين يخلف عنده الناس أمام الشهود على صدق ما يقولون أو على ارتباطهم بتعهداتهم ، وكان هذا الموضع يسمى : « مقطع الحق » .

أما بقية عبادات الإسلام — كالزكاة والصوم والحج — فجانباها الاجتماعى — أو الجماعى — وانصح لا يحتاج إلى بيان .

وليس أدل على الطابع الاجتماعى لعبادات الإسلام من أنها تدخل فى نطاق الشريعة . والشريعة هى الطريق ، فكأن العبادات فى صميمها طريق لكمال الإنسان

وسعادته ، لا مجرد طقوس تؤدي لذاتها ، كما هو الحال مع طقوس معظم الأديان الأخرى .

ومن الواضح أنه لا دين بغير ناس يؤمنون به ، لأن الدين طريق ، ولا طريق بغير سائلة ، والإسلام — بالذات — لا يتمثل أبداً في صورة رجل منقطع للعبادة في البرية ، كما نرى في غيره من الأديان ، ولقد عبر الرسول الكريم ﷺ عن ذلك أصدق تعبير ، حيث قال : « نَصَبْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى مَجَالِسِ الْمُسْلِمِينَ سَاعَةً خَيْرَ مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ عَامٍ » .

وتلك ميزة للإسلام كبرى ، فهو دين حياة ومجتمع ولقاء وأخذ وعطاء .

ولهذا فإن محمداً — ﷺ — لما بادر إلى إنشاء الجماعة الإسلامية لأول نزوله المدينة ، لم ينشئها في صورة نفر من الحواريين أو الدعاة يخرجون « لصيد الرجال » ، كما يحكون من قول السيد المسيح — عليه السلام — لبطرس الحوارى ، وإنما هو أنشأها في صورة مجتمع إنسانى عادى يضم الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وملكاتهم . وبينما نجد السيد المسيح — فيما يحكى المسيحيون — يسر وسط حواريه ، لا يكاد يتكلم إلا معهم ، فإذا تكلم مع غيرهم عُدَّ ذلك أمراً غريباً ينطوى على حكمة بالغة ، وكلامه كله رموز ومجازات وكنائيات تحمل معانى شتى ، نجد محمداً ﷺ يعيش وسط الناس جميعاً كواحد منهم ، يتحدث إلى كل من يريد أن يستفسره في أمر ، ويتكلم كلاماً واضحاً مفهوماً ، يحل للناس مشكلاتهم . وكان يشاركهم هواظفهم ، حتى كان يداعب الأطفال بكلام يناسبهم .

ولم يكن في حياته — ﷺ — تكلف أو مظهر مميز خاص ، فهو يأكل ما تيسر له من الأطعمة المباحة ، فيشبع من الطعام الجيد إذا صادف الطعام الجيد ، ويكتفى بتجمرات إذا لم يجد إلا القنرات ، وهو يلبس كذلك ما تيسر له دون تكلف ، فإذا تيسر له ثوب غالى الثمن لبسه ، إلا إذا كان حريراً . والغالب عليه أنه كان يكتفى بثوب بسيط يفصله بيده ويجلس بجواره إلى أن يجف ، لا لكي يراه الناس يفعل ذلك أو مظهراً بالتقليل ، وإنما لأن هذه كانت طريقته في الحياة .

ومن الصفات المميزة له ﷺ في هذا المجال أنه كان لا يشتتى شيئاً غير موجود ، فهو يأكل ويلبس ما حضر ، لا يراعى في الحالين إلا النظافة . وكان — ﷺ —

من أحرص الناس على النظافة في كل شيء . فهو يغسل كل يوم ، حتى في الأيام
الباردة ، وبمسلم ثوبه يده ، ولا يزال طول اليوم يوحياً وينظف أسنانه بالسواك
تو الحلال ، حتى أصبح السواك — وهو « فرشاة » الأسنان العربية — سنة من سنته
مباده .

وقد رأينا في دستور المدينة أنه كان — في الواقع — تنظيمًا للتكافل الاجتماعي
الذي نحن بصده ، وقد لاحظنا أن الناس في هذا النظام كانوا لا يكادون يحتاجون
إلى حكومة مركزية ، لأن ترابط الناس في المجتمع الإسلامي — على أساس المبادئ
الواردة في دستوره — كان كفيلاً بتسيير الأمور سيراً حسناً ، إذا راعى الناس الالتزام
بمبادئه .

بناء المجتمع :

كل المجتمعات القديمة والوسيلة مجتمعات طبقية ، أي أن الناس ينتظمون فيها
طبقات بعضها فوق بعض .

على قمتها يتربع رئيس الجماعة — ملكاً كان أو قائداً — هو وأهل بيته .

وتليه طبقة أهل الحكم ، يحتل كل منهم مركزاً من مراكز القوة ، وتقاس أهمية
هذه المراكز بقربها أو بعدها من رئيس الجماعة ، فقد يصل إلى القوة ناس عن طريق
المصاهرة لصاحب السلطان أو تقديم المال له . ويتمتع أصحاب مراكز القوة هؤلاء
بمراكز ومستويات اجتماعية تحمل منهم طبقة ممتازة تتمتع بأكثر قدر من خيرات البلد .
ويدخل في طبقة أهل القوة كبار رجال الدين بما يتمتعون به من سيطرة روحية على
الجماعات وبما يملكون — بحكم التنظيم الديني — من أموال وعقارات أحياناً ، وطبقة
أهل المال من التجار وأصحاب الأراضي والأموال وحواشي أهل القوة .

وبلى هؤلاء جميعاً جمهور الناس ، وهم كتلة شعب الجماعة من صناع وزراة
وموظفي الدولة وصغار التجار وصغار رجال الدين وأهل الحرف الصغيرة غير الثابتة
من الحمالين والكارين والخدم وألوف كثيرة من السوق ، أي الذين يقضون كل
وقتهم في الأسواق دون عمل واضح معين ، فهم جمهور مسائل يدخل في جملة
المسولون والمشعوذون واللبصوص .

وهذا التنظيم الاجتماعي الطبقي ورثته المجتمعات الإنسانية المتحضرة من العصر القليل البدائي في تاريخ التطور الاجتماعي البشري ، فقد كانت القبائل الأولى تعتمد على محارب قوى يسودها ويوجهها ، ويساعده في ذلك — وينافسه على السلطان في الوقت نفسه — نفر من المحاربين ذوي القوة والجرأة والبأس ، وهؤلاء يحيطون برئيس القبيلة الذي يحدد لهم أمكنتهم على أساس تقديره للمكانهم أو خوفه منهم .

ثم إن هذا التنظيم البدائي كان سبب الفساد الذي استشرى في النظم السياسية والاجتماعية القديمة والوسيطه ، وأدى بها إلى الزوال ، واحداً بعد الآخر ، لأن استمراره يؤدي دائماً إلى تجمع مطرد للسلطات في يد صاحب السلطان وحاشيته حتى يصبح كل شيء في المجتمع رهناً بأمره . وإذا استطاع بعض الملوك الأقوياء أن يهضمو بمسؤوليات هذا السلطان فإن الغالبية كانت تعجز عن ذلك ، فتسرب القوة إلى طبقة أهل الحكم والحاشية ، وتتوزع السلطة وتضيع المسؤولية ويصبح الأمر سباقاً نحو السلطان والغنى من جانب جماعة من المجهولين الأتانيين الذين يستهترون بالحقوق ، فيزداد جمهور الناس فقراً ويذهب اليأس في نفوسهم وتضيع هيئة الدولة وتتعلم سلطة القانون ، وتسود القوضى ويتمهد الطريق لدولة جديدة تحمل محل الأولى .

وليس من الضروري أن تكون هناك أسباب معينة لفساد هذا النظام في هذا البلد أو ذاك ، لأن الفساد طبعى حال مرور الزمن ، كما يشيخ الكائن الحي بمرور الزمن أيضاً ، دون أن تكون هناك أسباب خاصة للشيخوخة عند كل مخلوق على حدة . وما التشريعات الصالحة إلا وسائل لوقف التطور الطبيعي للأنظمة نحو الفساد ، كما أن الأدوية وألوان العلاج ليست إلا وسائل لوقف فعل الزمن في الكائن الحي أو تخفيف أثره .

وقد حاول الناس والمفكرون تلاق أسباب فساد ذلك النظام الطبقي العام بإيجاد ضوابط وروابط تحدد سلطة الرؤساء وأهل الحكم وتقلل من حدة التنافس الوحشى حول السلطة ومراكز القوة والمراكز الاجتماعية ، وتحمى حقوق الناس وتؤمنهم من عدوان الأقوياء . وهذه المحاولات هي التي نسميها « التشريعات » . وقد مرت الإنسانية بنجارب كثيرة في ميدان التشريع ، لكنها لم تصل إلى شيء معقول مضمون في عبارة آفات النظام الطبقي إلا في العصور الحديثة ، عندما استنار الناس وتعلموا ،

وأقدمت الجماهير على الثورة ضد طغيان أهل السلطان ، وقد بدأ ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وتمثل أول الأمر في صورة الثورة الفرنسية التي فتحت الأبواب لإصلاح نظم الحكم وفلسفاته .

وتشذ عن ذلك المجتمعات القبلية ، لأنها وإن كانت منقسمة أيضاً إلى رؤساء متميزين وأتباع ليس لهم من الأمر إلا القليل فإنها لم تتعرض للفساد على الصورة التي جرت في المجتمعات غير القبلية ، فإن حياة البداوى القاسية على الضعفاء والعاجزين عجزاً مطلقاً أولاً بأول ، فلم يبق على قيد الحياة إلا من له حظ — ولو قليلاً — من القوة والقدرة واليسالة واحتال المتاعب ، ومن هنا قل التفاوت بين الناس من هذه النواحي وساد مبدأ المساواة والتقارب بين الناس في المستوى الاجتماعي والإنساني . ثم إن المجتمعات القبلية — بطبيعتها — مجتمعات فقيرة لا تملك من مصادر الثروة إلا عبون الماء وحقوقاً مكتسبة بالقوة على مساحات معينة من الأرض ، أما الأفراد فتقوم ثرواتهم على التخيل والماشية والجمال مما لا يدر مالا حقيقياً ولا يمكن صيانته من العدوان صيانة تامة ، وحيث لا مال يُجمع ويكسب ولا أراضى خصبة تدر الخير الوفير على أصحابها فلا سبيل إلى التنافس الشديد ، لأن المال مدار التنافس الأكبر بين الشر ، فهو أساس القوة والجاه . وحتى إذا سعى الإنسان للحصول على القوة والجاه فإنه يفعل ذلك للحصول على الثروة ، وذلك كله منعدم في المجتمع الصحراوي ، إذ إن المال الكثير نفسه غير ميسور ، وكذلك لا سبيل إلى الجاه البعيد تبعاً لذلك .

ولهذا كله ظل الفرد في المجتمع القليل محتفظاً بكيانه الإنساني ، فلم يتعرض لصلف أصحاب السلطان والثروة ولم يهبط إلى هباء الفقر المطلق وذله . حتى أسرى الحروب الذين كانوا يصبحون أرقاء وعبداً لم يظفروا في المجتمع القليل عبيداً إلا بالاسم ، لأنهم كانوا يمارسون صنائع ويؤدون خدمات لا يستطيع القيام بها أفراد القبيلة ، فأصبحت لهم بذلك فائدة واضحة ووظيفة رفعت مكانتهم الاجتماعية .

وفي القبائل العربية الجاهلية — كما نعرفها — كان هناك شيوخ وأهل رأى وامتياز كانت لهم الصدارة بحكم ما امتازوا به من ملكات طبيعية . ولكنهم لم يكونوا طبقة أشراف أو نبلاء ، وإنما كانوا سادة في أنفسهم لا سادة على غيرهم ، يحترمهم إخوانهم في القبيلة لمكانتهم وخصالهم الممتازة .

المجتمع الإسلامى مجتمع لا طبقى :

ولقد ولد الإسلام فى هذا المجتمع السليم البنيان نسياً ، الذى انعدمت فيه الطبقات ، فاحتفظ كل إنسان فيه بمكانه الاجتماعى . وهذا ولاشك كان جاسماً من الحكمة الإلهية التى وضعت رسائلها فى مجتمع سلم من الآفة الكبرى للمجتمعات ، وهى ضياع القيم الإنسانية وانتقال القيم إلى الثروة والجاه ، مما يجر إلى الفساد والتدهور الاجتماعى وشيوع الظلم وانهار الحكومات ، كما رأينا .

وقد قامت دعوة الإسلام — فى جانبها الاجتماعى — على أساس مساواة الناس ، بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العروة أو الجاه أو الوضع الاجتماعى ، ولا يزال القرآن يردد هذه الدعوة حتى انقطع السبيل إلى قيام مجتمع إسلامى ذى طبقات ، وقد رأينا أن محمداً — ﷺ — والصحابية من حوله كانوا هم المثل الأعلى فى ذلك ، فقد وهبه الله الثبوة وصفات الامتياز التى أهله لها وبلغ من الجاه ما لم يبلغه غيره فى مجتمعه ، ومع ذلك فقد كان بين الناس كأحدهم ، والقاعدة العامة التى كان يسير عليها هى الحديث الشريف : « المسلمون سواسية كأسيان المشط ، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

وكان من نتيجة ذلك أن نمت المجتمعات الإسلامية بدون طبقات متحاجرة أو متمايزة ، حتى عندما قامت دولة الإسلام واتسع نطاقها وكبرت ثروتها وعظم خلفاؤها ، لم يصبح أولئك الخلفاء وأهل بيته ورجال دولتهم طبقة أعلى من الناس ، بل ظلوا — برغم اتساع نفوذهم وضخامة ثروات بعضهم — ناساً كغيرهم ، لا يتميزون بشيء فى التنظيم الاجتماعى العام . بل إنه فى البلاد الإسلامية التى كانت قبل الإسلام بلاد طبقات اجتماعية متحاجز بعضها عن بعض — كإيران والهند — عا الإسلام الطبقات محواً ، فلم يعد فى إيران رجال يزعمون أنهم من المرازية أو الإصبهنيين القدماء . وفى كل بلاد الإسلام فى الهند زالت الفوارق بين البراهمة الممتازين ، والمبتوذنين الذين كان أهل الطبقات الممتازة يحذرون الاقتراب منهم ، حتى كان أحدهم يعاقب إذا مر ظله على ثوب رجل من البراهمة .

وحى فى العصور التى سادت الدولة فيها طبقات التجار — الذين سلبوا الخلفاء كل سلطة حقيقية — نجد أن أولئك المسيطرين ملكوا السلطان وسادوا الدولة

وتصرفوا في الأموال ، ولكنهم لم يسودوا المجتمع ، أعنى أنهم لم يصبحوا طبقة اجتماعية متميزة بذاتها عن غيرها ، ولم يعترف الناس لأفرادها بأى امتياز اجتماعى أو إنسانى ، وهذا يختلف عما نجده في المجتمعات الإقطاعية الغربية في نفس العصور ، من وجود طبقة نبلاء يحمل أفرادها ألقاباً مميزة لهم مثل : دوق وكونت وماركيز وبارون . وهذه الطبقة كانت تملك الأرض ومن عليها من الناس ، إذ كان هؤلاء يعدون أتباعاً أو أفضالا vassals ملزمين بالطاعة والخضوع ، وكان أهل طبقة الأشراف أو النبلاء هذه يحيطون بالملوك ويقاسمونهم السلطان حيناً ويتفلسفونهم فيه حيناً آخر ، ويرفعون عن الاختلاط بالشعب من صناع وزراة . ويدخل في نطاق الأشراف طائفة رجال الدين — من الكاردينالات الذين يسمون بأمراء الكنيسة — وأساقفة ممن يدورون في فلك سيد دنى كبير ، هو البابا الذى يعد نفسه ظلاً لله في الأرض ومعصوماً من الخطأ .

الإسلام هو أساس اللاطبقية :

لم تعرف المجتمعات الإسلامية شيئاً من هذا ولا قريباً منه ، لأن الإسلام حارب الكبرياء والغرور والاستعلاء والارتفاع عن الناس ، وقرر مبدأ المساواة الكاملة بين الناس ، فلا يتفاضلون إلا بالتقوى . وحتى في هذا كان التفاضل أمام الله وحده لا بين الناس .

ولهذا اتجهت هم الطامعين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى الصعود الاجتماعى عن طريق التقوى والعلم ، لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة ، آية ١١) ، ولأن الرسول — ﷺ — قال : « لا فضل لعرق على عجمي إلى ما تقوى » ، ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . ولهذا تنافس الناس تنافساً شديداً في طلب العلم ، لأنه كان الطريق الواضح المحترف به للرقى الاجتماعى . ولما كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً بغير حواجز اجتماعية فقد كان في استطاعة أفقر الناس أن يشق طريقه صاعداً في المجتمع عن طريق العلم والفضيلة والتقوى ، حتى يصل إلى أرق الدرجات . وهؤلاء العلماء وأهل التقوى كانوا سادة المجتمع حقاً ، يعترف الناس بامتيازهم وفضلهم ويسلمون بربابيتهم دون أن يكونوا مع ذلك طبقة اجتماعية .

في ذلك المجتمع اللاتطبقى عاش الناس متساوين من الناحية الاجتماعية لا يتميز ذو جاه أو ذو مال على ضعيف أو فقير ، من حيث القيمة الإنسانية — نعم ، اختلفت مراكز الناس الاجتماعية بحسب مستواهم من العلم أو المال أو الجاه ، فهذا لا مفر منه في أى مجتمع ، ولكن بينا كان للأشراف في أوروبا محاكم خاصة بهم ، لكيلا يقفوا مع غيرهم أمام القضاء العادى ، لم يعرف المجتمع الإسلامى إلا قضاء واحداً يقف أمامه الجميع ، والقضاء يصدر عن أحكامهم على الجميع سواء ، حتى الأئمة من كبار رجال العلم والفقهاء كانوا لا يشعرون بأنهم يمتازون على غيرهم بشيء ، برغم تسليم الناس لهم بالصدارة والتقدم .

وعلى طول العصور الإسلامية كانت أمام خيال كل مسلم سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا — برغم ما آتاهم الله من العلم والقوة والحكم — يعيشون بين الناس دون أن يشعروا أنهم يمتازون بشيء ، ودون أن يعدهم الناس ممتازين عليهم بشيء .

ومعنى هذا أن تكوين المجتمع الإسلامى كان تكويناً سليماً صحيحاً ، أما ما نشاهده في بعض المجتمعات الإسلامية في عصور الاضمحلال السياسى من اتساع المحوة بين الأقوياء وغير الأقوياء ، فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور المجتمع الإسلامى نفسه وخروجه على طبعه وتغير شخصيته ، فلا نزاع في أن المجتمع الإسلامى في العصور التركية والمملوكية المتأخرة كان مجتمعاً منحرفاً عن الطبيعة السليمة للمجتمعات الإسلامية كما وصفناها .

ولم يعرف المجتمع الإسلامى كذلك فوارق الجنس أو اللون ، وهذه كانت من أكبر خصائص المجتمعات التى قامت على الإسلام . وهذه حقيقة معروفة مسلم بها ، لا تحتاج منا إلى أكثر من هذه الإشارة .

جواهر الناس ونظم الحكم التى قامت في العصور الوسطى :

رأينا كيف قام نظام الجماعة الإسلامية في عهد الرسول — ﷺ — على أساس اشتراك الأمة كلها في القيام بالواجبات التى يتطلبها تنظيم الجماعة وتأمينها والسير بها في الطريق السوى ، ورأينا كذلك كيف سارت الأمور على هذا المنوال السليم أيام أبى بكر وعمر ، فكانت الجماعة الإسلامية — بالفعل — صاحبة القول في كل ما يتصل بشؤونها الكبيرة والصغيرة ، وترجع عبقرية أبى بكر وعمر إلى إنهما استطاعا

إقامة بناء الدولة وسلطانها دون أن يحيا تنظيم الجماعة أو ينتقضا من قوتها وسلطانها على نفسها .

ولكن تجربة الثورة على الخليفة عثمان ، وما وقع فيها من مقتل خليفة جليل ، وما أعقب ذلك من حرب أهلية لم ينتج من شرها أحد ، هذه التجربة كانت قاسية في حداثتها وحاسمة في النتيجة التي أفضت إليها ، فقد صارت الخلافة إلى بيت كان المسلمون إذ ذاك يرونه أبعد البيوت عن استحقاق هذا الشرف العظيم ، وهو بيت بنى أمية الذين طاموا عارضوا الإسلام وأهله .

حقاً لقد أثبت بنو أمية أنهم جديرون بالمسؤولية الكبرى التي حملوها ، ووسعوا دولة الإسلام وأكسبوها جاهاً عظيماً ، ولكن جمهور المسلمين ظل يرى فيهم بيتاً غاصباً لسلطان ليس من حقهم ، وأبغض الناس خلقاً بهم بغضا شديداً فيما عدا واحداً منهم ، هو عمر بن عبد العزيز . وعاب ظنهم في السياسة وأهلها ، وبخاصة عندما اعتمد بنو أمية على القوة العسكرية القبلية اعتقاداً كاملاً ، وأوقموا الخلاف بين العرب المضربة والكلبية ووسعوا قوتهم^(١) وصرفوا الأمور بحسب ما تطلبت مصالح بينهم

(١) قامت الدولة الأموية على اكتساف عرب الشام ، وكانوا عدداً عظيماً من القبائل القوية التي هجعت الشام أو هاجرت إليه بعد الفتح واشترك بعضها في الفتح في فارس ومصر وغيرها ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد عرف كيف يكسب ولا يؤلف العرب الأعداء ، فأبدوا ورضوا أن يلقبوا صحنه ما كان يدعو إليه .

وكان في ذلك الحشد مشربون كثيرون وثنيون أكثر ، وكانت معظم القبائل المصرية في الشام من قبس حملا من مصر ، صمواء قيسية ، أما الحمير فكانت غالبية قبايلهم تسمى بالكلبية ، وهم عروق عديدة من شعب الأردن القديم ، هاجروا إلى الشام واستقروا به قبل الإسلام ، وانصبت إليهم بطون كثيرة من الحمير الذين استقروا في الشام بعد الإسلام . ويعرف القيسيون أو الطبريون بحرب الشمال ، والكلبيون أو الحميريون بحرب الجنوب .

ولم يعرف العرب قسب أنفسهم إلى مصر وغيره ، أو إلى حمير وكنان ، أو إلى عرب حملا وعرب حبوب ، حتى قامت دولة بني أمية . فإن معظم قوات معاوية بن أبي سفيان كانت كلبية بنية .

وعندما مات معاوية وقع خلاف بين بطون لكلبية بنية ، ولكن مروان بن الحكم نجح في جمع كلهمته حول في مؤخر جمع في الحامية في ذي القعدة ٦٤ هـ / يونيو ٦٨٣ م وعرضهم ثم ترشيحه للخلافة ونقلها من البيت السفلي إلى البيت العلوي . وكلهم أمويون يتسبون إلى لبنة الأكبر بن عبد حمير .

ولم يرض القيسيون المصريون عن ذلك ، فأبدوا خلافة عبد الله بن الزبير ، ولقد هم وعين من غير حمير : الضحاك بن قيس ، وعاصم مروان بن الحكم لمريم وأوقع بهم وقتل الضحاك بن قيس في موقعة د مرج رطط في الحرم ٦٥ هـ / أغسطس ٦٨٤ م . وعقب ذلك طاردت الدولة القيسية في صعب وقسوة ، فوشت الحروب بين قيسية المصرية والكلبية البنية في كل ولايات الدولة تقريباً . وكان لذلك الحرب الأهلية أسوأ الأثر على مصير العرب في العراق مثلاً ، حيث أضعفتهم الحروب وأكلت قوايلهم حتى لم يبق للعرب هناك إلا نصيب قليل من القوة . وإلى هنا ترجع ظاهرة توقف استعراش العرب بعد أن كانت قد سارت فيه سيرة حمير . وكانت هذه الفتنة تعصى أيضاً على عرب الأندلس ، لولا أن تغلبتهم بعد الترجع الداخل سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م صحن صموغهم وأخذ النصر العربي من الثلاثي في الأندلس . =

ودولتهم في المقام الأول ، غير مراعين — في أحيان كثيرة — ما كان جمهور المسلمين يتمسكون به من قواعد العدالة والإنصاف وتقديم مصلحة الجماعة وإنكار الذات ، مما تعودوه في أيام أبي بكر وعمر .

وكان أكثر ما صرف الناس عن الولاء لبني أمية ذلك السلطان المطلق الذي تركه الخلفاء لرجال دولتهم وولايتهم : من أمثال زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وخالد ابن عبد الله القسري والمهلب بن أبي صفرة وآله ، وكان هؤلاء ملوكيين أكثر من الملك — كما يقولون — فكانوا لا يترددون في العدوان على الناس وعلى أموالهم في سبيل البيت الحاكم ، فقتل جمهير الناس من السياسة وأهلها بأسا شديداً ، وساء ظنهم بالحكومات والحكام عموماً .

وزاد في نفور الناس من السياسة وأهلها عدوان بني أمية المتكرر على أهل البيت وإقدامهم على إراقة دمايتهم ، وتعد مأساة كربلاء سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م تاريخاً فاصلاً في علاقات شعوب الإسلام بحكوماتها . فإن الاعتداء في هذه الحالة لم يقع على الحسين بن علي وآله أو على أهل البيت فقط ، وإنما وقع على أمة الإسلام كلها لشدة تعلق المسلمين برسول الله — ﷺ — وأهل بيته ، ولأن العدوان وقع على الحسين دون ذنب جنه ، وتم قتله ومن معه في صورة اغتيال بشع مجرد من كل إنسانية ودين ، فقد المسلمون ذلك عدواناً على الأمة كلها ، ونظروا إلى المعتدين على أنهم أعداء لجمهور المسلمين ، وزاد إيمانهم بذلك ما جاء بعد الحادث المروع من جرائم أخرى عدها المسلمون عدواناً عليهم وعلى دينهم ، مثل مهاجمة جنود بني أمية للبيت الحرام في مكة ، ورميم الحرم بمحاربة المجانين والنار والنفط ، ووفور شيء كثير من ذلك على الكعبة وانهدام جزء من بنائها واحترقه (ربيع الأول ٦٤ هـ / أكتوبر ٦٨٣ م) .

ولم تعلم جماهير المسلمين في ذلك العصر الأول أن هذه هي السياسة ومنطقها في المصور الوسطى كلها : صراع دموي لا يعرف قانوناً خلقياً ولا بهم إلا بالمصالح

— وقد مال الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) إلى التيسية فقصيرة دون الكلية مهمة ، وأراد أن يحدث بذلك تغييراً حقيقياً في السياسة الداخلية للبيت الأموي ، وانصرف عن مجسد الكتلين واحتشد على القيسيين . فإزداد الصراع بين الجانبين حدة ، ونشطت القاعدة القبلية التي قامت عليها قوة بني أمية ، وكان ذلك من أكبر أسباب سقوطهم . وبعد أيام بني أمية تلاشى الصراع بين القيسيين والكتلبيين حتى انقضى .

المباشرة للأحزاب المتناحرة على السلطان . ففي الغرب أيضاً كانت الاعتداءات متكررة على المقدسات والكنائس ، بل كانت الكنائس هي الضحية الأولى التي يقع عليها عدوان المتحاربين لنهب ما فيها من الذخائر . وقد كانت نتيجة هذه الحوادث وقوع الانفصال بين الأمة والحكومة ، وبين الأخلاق والسياسة ، وبين الدين والدولة ، فاعتبرت الأمة نفسها حامية الأخلاق وراعية الدين من عدوان الدول وأهلها ، وابتعدت عن السياسة حفاظاً على الأخلاق والدين .

وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعي للأمة الإسلامية — كما رأيناه في دستورها — كان لا يدع للحكومة مجالاً كبيراً في حياة الجماعة ، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمراقب والخدمات كان من مسؤوليات جمهور الناس دون الحكومة ، ولم تكن هذه مسؤولة إلا عن الحماية من الأخطار الخارجية وتأمين الداخل بالشروط ومن إليهم ، فإذا ذكرنا أن هذين الواجبين كانا في حقيقة الأمر دفاعاً عن الدولة نفسها وأصحابها نبيهاً أن قيام الدولة بهما لم يكن خدمة خالصة للناس والجماعة . ولهذا قل حماس الناس للاشتراك في جيوش الدول ، وجرت عادة المجاهدين والغيورين على دينهم من جماهير المسلمين أن يشتركوا في الجيوش الغازية في دار الحرب منطلعين ، حسية لله تعالى ، دون أن يتقاضوا من الحكومة رزقاً أو عطاءً — وهؤلاء هم المَطْعُوعَة — أو أن يربطوا على حدود بلاد المسلمين لحمايتها ، ولأنك هم أهل الرباطات والمخاريس على الثغور ، ولقد قاموا دائماً حرساً على حدود بلاد الإسلام وعاشوا مجاهدين وماتوا شهداء ، وكانوا جنوداً مجهولين في كل حال . وإلى هؤلاء المطعوعة والمرابطين من أبناء أمة الإسلام يرجع الفضل في الكثير من الانتصارات التي كسبتها جيوش الإسلام في دار الحرب .

أثر ذلك في نفسيات الجماهير الإسلامية :

من هنا نتبين كيف سارت الأمور في بلاد الإسلام على هذا النحو الذي يصعب علينا اليوم تصوره : الدولة وأهلها وجندنا في جانب ، والأمة وشعرها في جانب ، لا يقوم بينهما اتصال حقيقي إلا في موضوع الضرائب التي كانت تُجَبى من الناس للدولة ، وفي بعض نواحي الإدارة التي لا بد فيها من اتصال بين الحاكم والمحكوم كالقضاء ، فإن القضاء كانوا دائماً من أبناء الشعب ، لأن التعليم كله كان شأنًا من شئون الأمة ، والقضاء كانوا خيرة المتعلمين ، ولا تستطيع الدولة أن تعين في وظائف القضاء إلا من أولئك المتعلمين ، لأنهم كانوا رجالاً حاصلين على العلم والخلق

مؤهلين لهذه الولاية الخطيرة . فكانت الأمة تكوّن القضاة وترشحهم للولاية ، وتقوم الدولة بعد ذلك بتعيينهم في وظائف القضاء . أما « الوزارة » و « الحجابة » و « الكتابة » و « ولاية الأعمال » في المراكز والولايات فكانت الدولة تختار لها من تريد من رجالها وحواشيا المتعلقين بها . وفي أحيان كثيرة نجدهم من الأجانب ، مثلهم في ذلك مثل الكثيرين من الحكام أنفسهم ، وما نرى من الصلات بين أهل الحكم والشعراء والأدباء لم يكن مرده إلى إعجاب أهل الحكم بالملكات الشعرية والأدبية في ذاتها ، وإنما مقياسه ما يرضيه الشاعر أو الأديب على أهل الحكم من جلال يفضل شعره ونثره ، فإن لم يفعل فقلما يصيب من غير الحاكمين شيئاً يذكر .

وقد اكتسبت الأمة من تلك الحال روحاً من الاعتماد على النفس ، مكنت لها من السر في طريقها في حوالك العصور الوسطى ، وتعلم الناس كيف يديرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون حاجة إلى عون من حكومة ، خصوصاً عندما ساءت الأحوال وتدهورت مستويات الحكم خلال العصر العباسي الثاني . ففي العراق ومصر والشام — مثلاً — تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجري وما بعده إلى أداة وظيفتها الرئيسية جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم ، ولم يعد بين رجال الحكومات في هذه البلاد إلا قليلون جدّاً ممن ينظرون للمصلحة العامة أو يخدمون الجمهور خدمة صحيحة ، وكان على الناس أنفسهم أن يديروا مصالحهم ويرعوا شئونهم على قدر ما استطاعوا .

أفراد الشعب يصلون إلى مراكز القوة عن طريق العلم والدين :

وقد اتجهت الظروف السياسية في العالم الإسلامي إلى تسلط أصناف الجند على الحكم ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، نتيجة لاعتماد العباسيين على الجند المرتزقة أكثر فأكثر عاماً بعد عام : الخراسانية الإيرانيين أولاً ، ثم أصناف الترك بعد ذلك . وهذا كان له ردّ فعل بعيد المدى ، وعو اتجاه الموهوبين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى العلم لبلوغ القوة والجاه ، فأقبل أهل الطموح منهم على العلم بشغف شديد ، وقامت مراكز العلم في كل بلاد الإسلام ، وكثر الشيوخ والطلاب . وقد كانت هناك دائماً قلة طلبت العلم لذاته ودرست القرآن والحديث بدافع التقوى والعاطفة الدينية الحالصة ، ولكن الغالبية قصدت من الدراسة فتح أبواب المستقبل وشق الطريق إلى المراكز العالية ، وأصبحت أقصى آمال أوساط الناس

وعامتهم أن يظهر من بين أبنائهم فقيه يتدرج في الوظائف حتى يصل إلى القضاء أو الكتابة في دور الإنشاء أو الوزارة . وكثر في الناس المنصرفون إلى طلب علوم تدبر المال كالطب والعقابر والأعشاب ، وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو أرباب الأقلام — كما كانوا يسمون — حتى أصبحوا يناظرون الحكام والقادة والمخارين أو أرباب السيوف .

وعن هذا الطريق — طريق العلم — وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى نصيب طيب من السلطان والجاه ، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام النواحي — وكلهم كانوا من الأجاس التي احترفت الحرب واحتكرت شئون الحكم في العالم الإسلامي — قام « الوزير » و « الكاتب » و « كتاب ديوان الإنشاء » و « أهل الحساب والشئون المالية » و « القضاة » و « الفقهاء » و « أهل العلم » و « الشيوخ » . وكان هؤلاء يقيضون على نصيب كبير من زمام الحكم فعلا ، وهذا النصيب هو الذي استطاعت أن تصل إليه وتحكره الجماهير في مختلف بلاد الإسلام .

وكان رجال الحكم جميعاً ، ما بين سلاطين وحكام وأرباب سيف وأرباب قلم ، يتعلقون — ولو بالاسم — برمز السلطان الإسلامي الأعلى ، وهو الخليفة الذي فقد كل سلطان فعلي ، ولكنه احتفظ بكل جواهره الدينية ، حتى طلب الأمراء والسلاطين من الأقطار البعيدة الدخول في طاعته .

وبهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقاً واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن عناصر من المرتزقة ما بين أتراك ومماليك ، ممن استأثروا بالحكم في الجناح الشرق لعالم الإسلام كله . وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب في تحسين الأحوال العامة في المجتمع . فهم الذين ظلوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشريعته وعلومه ومبادئه وأخلاقه وراثته المعوى ، ويدكرون الناس بالمثل الإسلامي الأعلى الذي ينبى السعى لإدراكه ، وقد ألفوا في ذلك نأليف كثيرة جداً ، الكثير منها على أعظم جانب من القيمة العلمية ، وقصوا أعمارهم يعلمون العلم وينشئون أجيالا من الشباب المتعلم الواعي لحقائق الإسلام لتمسك بمبادئه ، واستطاعوا — إلى جانب ذلك — أن يثبتوا مكانهم ويفرضوا إرادتهم بما كسبوا من تعلق الناس بهم ونظرهم إليهم على أنهم زعماءهم وقادتهم ومعلموهم ، مما أجبر أهل الحكم على احترامهم ، فاستطاع الشيوخ وأهل العلم —

سواء من تقلد تلك الوظائف منهم ومن ظل بعيداً عنها — أن يردوا المطالم عن الناس ويصوّبوا تصرفات الحكام ويقرّبوها إلى مفهوم الإسلام .

وعندما نقرأ الكتب الأساسية التي تؤرخ لعالم الإسلام وتطوره خلال العصور الوسطى — ابتداء من تاريخ الطبري إلى تاريخ الخبزي — نرى حط العلماء موارباً ومصاهياً لحط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم . وباستثناء بعض الممتازين من أهل الحكم في العصور العباسية المتأخرة — ابتداء من القرن الرابع الهجري — وسلاطين السلاجقة الأول ، ثم كبار الأتابكة ، مثل عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي ، وكبار المماليك من أمثال سيف الدين قطز وركن الدين بيبرس وسيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم — باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم ، نجد أن معظم ما مال شعوب الإسلام من غير كان الفضل راجعاً فيه إلى أهل العلم هؤلاء ، سواء من ولى منهم المناصب أو من اكتفى بجاه العلم وقّع بركن في داره أو في مسجد ومضى يدرس ويؤلف ويعلم الناس ويحاطب أهل الحكم في مصالح المسلمين ويرد الأذى عنهم .

المتصوفة ووظيفتهم السياسية والاجتماعية :

وقد تعلق عامة الناس بأولئك شديداً ، وقصدوهم للاعتناء بعلمهم ولدفع الأذى والمضرة عن أنفسهم . ولكن تعلقهم كان أشد بطراز آخر من أهل العلم والدين ؛ سار أصحابه في طريق الزهد والتصوف والبعد عن الدنيا للوصول إلى الله تعالى ولإدراك الحق الذي يأتي منه ، سبحانه ، فتحاً على المجتهدين من عباده .

والمتصوفون في تاريخنا نوعان :

نوع أصيل سار في طريق العلم سير العلماء ، واحتشد في الطلب حتى حصل العلم الغرير ، ومالت نفسه إلى الزهد واحتقار الدنيا ، فانخلع عنها وخلص للعبادة والمجاهدة الصوفية ، كما نرى عند الخارث بن أسد الخامس (ت ٢٤٣ هـ) وأبي نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ) وأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) وعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ) وأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وعبي الدين ابن عري (ت ٦٣٨ هـ) .

والتنوع الآخر اتجه إلى العلم حتى حصل منه زائداً يسيراً ، ثم انصرف إلى المجاهدة الصوفية (أى إنفاق الوقت الطويل في التعبد والتجهد ورياضة النفس ، لكسر جاهها ، كما يقولون) عن إخلاص أو بدون إخلاص ، وسعى إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه عوارق أو كرامات ، فالتفت حولهم العوام ونسكوا بهم نسيكاً شديداً ، وصانعهم الحكام إما عن جهل بحقيقة الدين أو عن غيب ، للسيطرة على قلوب الجماهير . ونجد ذكر نماذج من هؤلاء في كتب كثيرة ، مثل « تليس إليس » لأبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى ، و « طبقات الصوفية » لعبد الوهاب الشعرانى . وكل من الكتابين يضم صوراً شتى مما كان يعمل هذا الطراز من الصوفية الشعبيين أو « الأولياء » كما كان الناس يسمونهم ويتصورونهم .

ولكن نفراً من الصوفية الصادقين اتجهوا اتباعاً عملياً ، فكفّوا من مرهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً خلقياً قومياً وتبني منهجاً محدداً في العبادة ، فيجتمع المريدون وشيوخهم في أوقات معينة بعد الظهر والمساء للذكر والقيام بعبادات وأذكار يقومون بها معاً ، وسموا تلك العبادات التى يمارسونها والنظام الذى يحكم جماعتهم : « طريقتهم » الخاصة بهم ، وشيئاً فشيئاً تحولت الطريقة إلى شيء أشبه بجمعية دينية واجتماعية ، ثم تكامل لكل منها — مع الزمن — نظام إدارى وفنى دقيق ومعقد أيضاً .

فوجد أعلى الطريقة مرتين كأنهم أصحاب وظائف محددة : فهناك « شيخ السجادة » و « المرشد » و « الملقم » و « النقيب » و « الخليفة » ، و « الترجمان » و « المريد » ، وهذا الأخير هو الصوفى أو الدرويش العادى المبتدى ، ونجد لكل من هؤلاء مكانته واختصاصاته . والانتقال من درجة إلى درجة له شروط ومراسم ، مثل حفل تقليد المريد العادى « الحزقة » ، وخرقة الورد وخرقة التبرك وما إلى ذلك . وقد أثبت بعض منشى هذه الطرق أو من تولوا أمورها أنهم يتمتعون بملكات تنظيمية ومالية كبيرة ، فانتظم أمر الطريقة ورجالها وامتلكت الرهانات والزوايا والدور والعقار والمال ، وأغدق عليها الحكام الأموال وصححوا لشيوعهم بالشفاعة والوساطة عندهم . وتجمع الصوفيون — بصفة عامة — بجاه عظيم في المجتمع ، وصار بعضهم أولياء ، ينسب الشعب إليهم الكرامات ، ومن هنا أصبحوا ذوى قوة سياسية

اجتماعية كبيرة ، حتى لقبهم العامة « السلاطين » ، كما نرى في حالتي السلطان الحنفى والسلطان أبى العلاء فى القاهرة .

ودخل عامة الناس فى هذه الطرق منتسبين ، لأنها كانت تفتح لهم طريقاً لاثقاء أذى الحكام والتصلين بهم . وكانت الطريقة توحيد صفوف جماعات كبيرة منهم وتجعل لهم وزناً اجتماعياً وسياسياً ، ثم إن انتسابهم إليها كان يشيع العاطفة الدينية من ناحية ويتيح لهم وسائل للتخلص من الملل وفراغ الوقت من ناحية أخرى ، وذلك بالحصول على وجوه من التسلية مثل الاشتراك فى الأذكار والأوراد والإنشاد فى حلقات الذكر بحركاتهم المعروفة ، وإحياء الموالد وأعياد الشيوخ والأولياء ، وما يصاحب ذلك كله من مسرات ومشاغل أقل ما فيها أنها كانت تعين الناس على التخلص من ملل الوقت الطويل وتنسبهم متاع حياتهم إلى حين .

وشيثاً فشيئاً تصبح الطرق الصوفية روابط بين أهل الحرف ، فيصبح الذين يأخذون « العهد » على شيخ الطريقة — أى المنتسبون إليها — « إخواناً » ، يحكمهم شيخهم اجتماعياً وخلقياً ، فهو يبارك اتفاقاتهم ويقوم بدور الشاهد على تنفيذها . وإذا احتاج واحد منهم إلى قرض مالى توسط له الشيخ ، بل هو يتدخل فى كل شئ حتى الزواج والطلاق والمواليد ، ونتيجة لذلك تمتع الكبار من أهل الطرق بسلطان عظيم ، وعاشوا فى رغد وخير عميقين . وحازت بعض الطرق ثراء واسعاً ، ولكنها قامت كذلك بوظيفة اجتماعية وسياسية أساسية . وفى الوقت الذى وهنت فيه إطارات الحكم وبلغ فسادها أقصاه ، ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى ، حفظت هذه الطرق بعض حوائب المجتمع من التناقص . ومكنت لجماعات كبيرة من الناس فى المدن والأرياف من أن تجد طريقها فى تلك العصور ، وبخاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين تهدمت فيها فعلاً كل إطارات الحكم القديمة التقليدية وعاش الناس تحت رحمة الأقدار .

ظهور طائفة أصحاب الكرامات ومدعى الولاية ودلائله الاجتماعية :

ونحن نتعجب اليوم عندما نقرأ أخبار طائفة من المنتسبين للصوفية ومن الذين يدعون الولاية ويظهرون كرامات فى تلك العصور ، فقد كان الناس يصدقونهم ، بل كان بعض الحكام يراعونهم ويخافونهم أحياناً . ولكن عندما ندرس الظروف العامة

لحياة الناس في تلك العصور تنضح لنا حقيقة تلك الطائفة ، وتبدو لنا ظاهرة منسجمة مع واقع الأحوال في تلك الأيام .

ولابد أن تؤكد أولاً أن التصوف الحقيقي عبادة خالصة وتكمل روحي ، وحال كبار الصوفية في الغالب مستور وبعيد عن التظاهر حتي عن الملاحظة العادية ولكن طائفة انصببت إلى التصوف ظهرت وجعلت التعبد شيئاً مظهرياً يمارسه صاحبه أمام الناس أو على صورة يتناقل الناس أخباره ويصبح « شهرة » ، كما كان الناس يقولون في مصطلحهم إذ ذلك . وهذا شيء لم يظهر ولم ينتشر أمره إلا في عصور التدهور السياسي والاقتصادي في العالم الإسلامي . وهو يختلف عن تصوف الطرق الكبرى التي كان لها أثر بعيد في تنظيم المجتمع والمحافظة على إدارته وربط الجماهير بقواعد دينهم وأخلاقهم ، كالطرق الشاذلية والجيلانية والرفاعية . وقد أشرنا إلى الدور الذي قامت به هذه الطرق .

أما تصوف « الشهرة » وما يرتبط به من ادعاء الولاية وحصول الكرامات فأمر يختلف عن تصوف التعبد الحق وتصوف الطرق المنظمة ، وهو من مظاهر عصور الاضمحلال ، فإلى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لا نسمع كثيراً عن هذا الطراز من الأولياء الذين يهرون أنظار الجماهير ويستولون عل إعجابهم بما يأتون من الأعمال الخارقة للمألوف .

والسبب في ذلك أن الناس في عصور ازدهار الدولة الإسلامية واستقرار الأمور كانوا يعيشون في أمان : سواء من ظلم الحكام أو من تعدى اللصوص عليهم ، فإذا نزل بهم ظلم وجدوا السبيل إلى دفعه ، لأن أجهزة الدولة كانت قوية سليمة ، وكانت حالة الناس المعنوية عالية إلى ذلك الحين ، والسبب ذاته كان الناس في أمن من اللصوص وطرق الليل وقطاع الطرق . وكانت أحوالهم الاقتصادية طيبة في الجملة ، وأبواب العمل والكسب مفتحة ، ومن ضاقت عليه سبل الرزق في ناحية استطاع الانتقال إلى ناحية أخرى من دولة الإسلام الواسعة . وكانت خزانة الدولة عامرة بالمال ، فلم تكن تنظر إلى ما في أيدي الناس ، فظهرت عليهم النعمة وكثر الأوساط واليايسر من أهل الحاجر والصناعات والحرف ومن إليهم ، ممن يؤمنون بالعمل ويقوم على جهودهم رخاء المجتمعات .

فلما احتل ميزان الدولة نتيجة لاعتداء الخلفاء على القوى العسكرية وحدها ، ثم تحول جيش الدولة كله إلى جيش مرتزق تزداد تكاليفه ويزداد سلطان رجاله على الحكم يوماً بعد يوم ، تطرق الفساد إلى أجهزة الدولة وضعف صوت الحق والقانون ، لأن القائمين بالحكم كانوا يضطرون إلى الإغضاء عن اعتداءات الجند على الشعب وقوانينه ، وفي الوقت نفسه كان الجنود المرتزقة الذين يدخلون جيوش الدولة أجراء متكسبين ، لا يلتبون إذا كثرت أعدادهم أن يشعروا بأنهم ليسوا أداة القوة فحسب بل القوة نفسها ، وأن الخلافة التي تستخدمها هي أداتهم في الحصول على الأموال . شيئاً فشيئاً يفرض الجند للمرتزقة وقادتهم سلطانهم على الدولة ويطالبون بالمزيد من الأموال مع قلة غنائمهم في الدفاع ، وذلك لميول روحهم المعنوية وانعدام القيادة الصالحة ، فتضطر الدولة إلى زيادة مبالغ الضرائب وتبتكر الجديد منها . وهذه الضرائب كلها يدفعها الأوساط ، وهم عصب الاقتصاد في كل زمان ومكان ، لأن الفقير للدفع لا يدفع ضرائب بسبب فقره ، والعنى ذا الجاه لا يدفع ضرائب ، لأنه يدخل في رمة الأقوياء ذوى الامتيازات ، فيقع العبء كله على الأوساط ومستأثر الناس . شيئاً فشيئاً يعجزون عن الأداء ويحل بهم الفقر ، ومن كان منهم صاحب مال أخفاه حتى يسكت عنه جباة الضرائب ، وهنا نجد أن مقادير الجباية تهبط هبوطاً مستمراً ، وتغند يد أهل الحكم إلى أموال الأغنياء كذلك ، فتكثر المصادرات ، وينتفى الأمر بتحول المجتمع كله إلى مجتمع فقير يسوده الخوف وقلة الأمان على النفس والمال .

في هذه الظروف التي سادت بلاد الجناح الشرق كله لدولة الإسلام في العصور المتأخرة أحست الجماهير أنها بحاجة إلى حماية وسبيل للأمن ، لأن الإنسان لا يستطيع العيش في ظل الخوف والتهديد المستمر . والأمان هو المطلوب الأول ، ولكل كائن حي . ومادام الناس قد يسوا من المخلوق ، فإن قلوبهم كلها انجذبت إلى الخالق سبحانه : يفرعون إليه في كل ملمة كبيرة أو صغيرة . وإذا كان المتعلمون والعلماء يجدون الطريق إلى الله في العبادات وقراءة القرآن والحديث وقراءة كتب العلم ، فإن حمائم الناس يبحثون دائماً عن المظهر الملموس للإيمان ، من مثل ضريح رجل من أهل البيت أو رجل من أهل الصلاح . وإذا كان المسلم المستنير يجد الأمن في قلبه بقراءة القرآن والقيام بالعبادات فإن العوام لا يطمئن إلا إذا حمل القرآن المكتوب في صورة حجاب أو نسيمة . وإذا كان المستنير يجد الأمن في قراءة الفاتحة

فإن الرجل من العوام في تلك العصور يحتاج إلى أن يمسك شبك مسجد أو ضريح ، لأنه لابد أن يمس شيئاً أو يرى شيئاً .

هنا يظهر الصوفي الشعبي الذي يتيه بذكائه إلى مطالب الناس ، ويرى حاجتهم إلى الرموز الملموسة فيجعل من نفسه رمزاً ملموساً يؤمن به الناس : يصلي بصوت مسموع جداً ، ولا يسير في الطريق إلا وهو يتمتم ويقرأ ، ويزعم أنه صائم الدهر ، ويلجأ إلى تعذيب نفسه بمرأى من الناس في سبيل الله ، كما يزعم ، كأن يقضي الليل كله قائماً يصلي حتى تنورم رجلاه أو يسير حافياً على الشوك طلباً للنوبة في زعمه . وهو يمارس ذلك كله أمام الناس أو على صورة تصل إليهم أخبارها ، فيقع في نفوسهم أنه واصل إلى الله أو ولي من أوليائه ، يستطيع الاتصال به سبحانه والتوسط للشفاعة عنده ، وهذا بشق لنفسه طريقاً ، ويصبح من أركان الحياة والمجتمع ، ويحيط به الأتباع والمرتدون ، ويتقاطر الناس إلى داره بالهدايا ، فيأخذ ما يريد ويعطي من حوله ما يريد ، ويشتهر بأنه صاحب كرامات ، يمشی على الماء ويطير في الهواء ويخاطب العجملوات ، مما ذكره العلماء . وكان ذلك بطبيعة الحال يجر الحير إليه وإلى أتباعه ، وبرغم ما يكون في الكلام عن كراماته من اختراع أو مبالغة فإن ذلك يجعل الجماهير تتعلق به ، ويصبح بالنسبة لهم أملاً ورمزاً على الأمن الذي يملكون به ، فهو — في زعمهم — يحميهم من الظالمين ومن عت الشياطين هم ومن نكبات الزمان .

والذي يهنا هنا أن أدعياء الولاية هؤلاء كانوا يستطيعون — في كثير من الأحيان — حماية الناس من ظلم الحكام وعسفهم ، لأن الحكام في تلك العصور كانوا جهلاء يتخدعون بما يسمعون عن أدعياء الولاية ، فيسعون إلى رضاهم بالاستجابة لشفاعتهم وإحاطتهم بمظاهر الاحترام وحضور مجالس الأوراد معهم . وكان من الحكام الأذكياء من يتظاهر بالتعظيم للولي تحيياً إلى الجماهير ، وفي بعض الأحيان كان الولي المزعوم يحمل الحاكم الظالم الجاهل ، فيحاول تهدئة الجماهير ، عنيداً في تقديم الخدمات لهم وفي حمايتهم من مظالم رجال الحاكم ، فيكسب لنفسه جلاءً ويعطف القلوب على الحاكم الذي يؤمن بالأولياء .

وسواء استطاع أن يقدم للناس خدمات ملموسة أم لم يستطع ، فإنه ظل في نظرهم — في تلك العصور — أملاً وحماية من شرور الدنيا وطريقاً إلى الله سبحانه

وتعالى . وهذا كله يرفع معنوياتهم ويثبت إيمانهم ويطرد اليأس من قلوبهم ، لأنهم لم يكونوا يطلعون على حيل أصحابهم . وهو — عندما يتوفى — نزداد مكانته ومنفعته ، لأن ضريحه يؤدي لهم نفس الوظيفة الاجتماعية دون أن يكلفهم . ولهذا فقد خلقت لنا عصورنا الوسطى حشداً هائلا من أضرحة الأولياء والصالحين ، ما بين صادقين وغير صادقين ، وهذه الأضرحة هي الأثر الباقي من الظروف الاجتماعية المليئة بالخوف والمتاعب التي كان أحدادنا يعيشون في ظلها .

وخلاصة الكلام هنا أن صوفية الجماهير هؤلاء كانت لهم في عصورهم — برغم كل شيء — وظيفة سياسية واجتماعية ، وكانوا في كثير من الأحيان وسطاء بين الحكام والناس ، وبخاصة إذا لم يكونوا من الذين يدعون الكرامات والخوارق .

وإذا صرفنا النظر عن الصوفية الشعبيين وجدنا جاهلاً وشأناً لبعض الصوفية مثل أبي سعيد بن أبي الخير (ت ٤٤٠ هـ) الذي كان الحكام يراعونه ويخافونه إذا نزل مع أصحابه في ناحيتهم فيكفون عن الظلم ، وربما سعوا إلى رفع المظالم ، وكان من العادى أن ينزل أبو سعيد في ناحية ، فيستدعى حاكمها ويؤنبه على مرأى من الناس ويرغمه على رد الحقوق إلى أهلها . ومهما يكن من شيء ، فإنه — بفضل هؤلاء الصوفية — ظل إيمان الناس بالفضائل قوياً وتعلقهم بالدين عميقاً ، وإنه لمن الغريب أن الكثيرين من عامة الصوفية ، بل من الأدعياء بينهم ، عملوا على تقوية إيمان الناس ، وصانوهم من كثير من المفاسد . وعندما اختفت الظروف التي أدت إلى ظهور تلك الطائفة ، وهي ظروف الجهل والخوف والفقر ، اختفوا هم أيضاً ، لأنهم كانوا نتيجة لظروف اجتماعية معينة .

ونحن إنما نتكلم هنا عن الصوفية الشعبيين ، الذين كانوا يمارسون نشاطهم بين جماهير الناس اجتذاباً لهم نحو الدين وسعياً من جانب بعضهم إلى المنافع الدنيوية . والواقع أن هذا الطراز من الصوفية كان ظاهرة اجتماعية أدت إليها ظروف سياسية واجتماعية شرحناها بتفصيل ، وقد كان لهم مكان واسع في مجتمع العصور الوسطى .

ولكن كان هناك دائماً صوفيون مخلصون ، نبع تصوفهم عن إيمان عميق ، وقضوا أعمارهم زاهدين في الدنيا ومتاعها زهداً حقيقياً ، مقبلين على عباداتهم ورياضاتهم ومجاهداتهم ، دون أن يخفلوا باستلقات الجماهير إلى أحوالهم مع الله ، ووصلوا عن

طريق مجاهداتهم إلى حالات رقيقة من الصفاء الروحي والإشراق النفسى بالأنوار
الروانية .

وقد كان هؤلاء الصوفية الصادقون أهل علم ودرس ومعرفة واسعة بالإسلام ،
عقيدته وشريعته ، مثل الإمام أبى حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١٦ م) ، الذى
تقلب حياته فى التفكير والبحث والتقلب أليماً تقلب ، وكان صاحب لمصنفات الكبيرة
فى علوم الدين ، مثل « المستصفى » فى علم الأصول و « إحياء علوم الدين » فى
كل نواحي المعرفة الدينية ، وهو الكتاب الذى أتم تصنيعة أثناء عزلة وغربة استمرت
سنتين كثيرة ، هذا إلى جانب مصنفاته الكثيرة فى المنطق وفى بيان آراء فلاسفة اليونان
ومن تابعهم (كتابه « مقاصد الفلاسفة ») والرد عليهم (كتابه « تنهايت
الفلاسفة ») ، ومثل الشيخ محبى الدين بن عربى (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) الذى
كان صوفياً موهوباً درس علوم الإسلام فى مسقط رأسه ، مرسية ، ثم فى المربة
ثم فى غرناطة ، ثم مالت نفسه إلى الزهد والتصوف ، فبدأ يطلب العبادة والزهاد ليأخذ
عنهم ويعيش مع مريديهم ، وقضى بقية عمره بعد ذلك صوفياً جوالاً لا يحيط فى
بلد إلا رحل عنه إلى آخر ، حتى لقد دخل القسطنطينية وقابل إمبراطور الروم ونال
إعجابه . وقد حج مراراً وحاور فى مكة سنين طويلة ، فى أثناءها ألف كتابه الحليل
المسمى « بالفتوحات للكية » وهو ديوان التصوف الأكبر . وكتب ابن عربى كتباً
ورسائل كثيرة جداً يعد كل منها من عبون الأدب للصوفى الصادق ، وكان شاعراً
وله ديوان فى الحب الإلهى يسمى « ترجمان الأشواق » .

وكان لابن عربى أثر بعيد فى الفكر الإسلامى والمسيحى ، فإن آراءه وتأملاته
كانت نقطة البداية لمذاهب صوفية وفلسفية كبرى ، وفى العرب درسه فلاسفة
المسيحية الإسكولاستيون من أمثال راييموندو لوليو (Raimundo Lulio) ودانس
سكوتوس (Denis Scotus) . وأخذ عنه مذهبه التصوفى صوفى مسيحى مشهور ، هو
القديس يوحنا ذو الصليب Saint Jean De La Croix صاحب المذهب المشهور فى
التصوف المسيحى باسم مذهب الإشراق أو النور .

الصوفية والفقهاء :

وقد وقع خلاف شديد ودائم بين الصوفية — بصورة عامة — والفقهاء ، لأن

الصوفية أنكروا الرياسة الدينية للفقهاء الذين يتفقون العمر في دراسة علم الظاهر وحفظ كنهه ، في حين أن الصوفية — كما يقولون — يتمتعون بروح العمل وبحقائق المعرفة ، وهم قد وصلوا — بالمجاهدة والإخلاص في العبادة — إلى الله سبحانه وتعالى وأخذوا منه العلم مباشرة ، وكان بعضهم يثيرون غضب الفقهاء بقولهم : « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت » ، يريدون أن الفقهاء يدرسون العلم على الشيوخ ويأخذونه عنهم جيلاً بعد جيل ، أما الصوفية فيأخذون علمهم عن الله سبحانه فتحاً منه وفضلاً .

والحق أن فقهاء العصور المتأخرة فتحوا على أنفسهم أبواب النقد والتحدى ، لأنهم جحدوا في مكانهم ، واقتصروا جهدهم على حفظ النون والشروح وتأليف الحواشي ، وتعلقوا بالتقليد الحرق تعلقاً شديداً ، حتى أصبح الواحد منهم يقضى العمر كله دون أن تصدر عنه فكرة جديدة ، ويؤلف الكتاب الكبير فلا تخرج مادته عن أقوال مجموعة ومرسوسة بعضها إلى جانب بعض ، دون محاولة لتكوين فكرة طريفة أو رأى مبتكر ، واستمروا على ذلك في مجالس تدريسهم حتى كادوا ينقطعون عن الواقع انقطاعاً تاماً . ومع أنهم حفظوا تراث العلم الديني من الضياع في تلك العصور ، فإنهم لم يتقدموا بالمعرفة تقدماً يذكر .

وفي الوقت نفسه تحول معظم الفقهاء الكبار إلى موظفين في الدول ، وطلبوا الوظائف وولاية الأوقاف وتناقصوا في ذلك ، واشتد حرص بعضهم على الخيرات والمكاسب ، واضطروا إلى مسaire أهل الحكم ، محافظة على مراكزهم ، وأغضوا عما كان يفترقه بعض الحكام من المظالم ، وبذلك تخلوا عن واجباتهم الأساسية حيال المجتمع ، وتراخوا في الحماية التي كانت جماهير الناس تنتظرها منهم — وهي دفع الظلم عنهم والتصدي للمفسدين من الحكام لوقف فسادهم — وانفصلوا عن الناس ، فخلا المكان الفسح الذي كان ينبغي أن يحتلوه في المجتمع . وهذه — بطبيعة الحال — أحكام عامة تنطبق على الغالبية ، ولا يجمع ذلك من أنه كان هناك دائماً شيوخ أجلاء حافظوا على سمعتهم وظلوا مخلصين للعلم منصرفين إليه متساوئين عن بذل النفس لنيل رضا الحكام ، فهؤلاء كانوا موجودين دائماً في الجماعة الإسلامية ، وحفظوا مكانهم رؤساء لجماهير الناس ورموزاً على العلم والكمال والإخلاص والخلق الإسلامي الكريم .

والمهم لدينا أن هذا الفراغ الذى حدث عن تحلى غالبية الفقهاء عن وظيفتهم الرئيسية فى المجتمع ، هو الذى أتاح الفرصة لأولئك المتصوفين لكى يملأوا الفراغ ويقوموا بالدور الذى ذكرناه ، وبطبيعة الحال لم يكن الفقهاء محقّقين كل الحق فى غضبهم على أدعياء الولاية ، لأنهم ما داموا قد تخلّوا عن مكانهم فقد كان لابد أن يملأه غيرهم .

حياة المدن :

فى الفصل التالى ، الخاص بالنظام الاقتصادى للمجتمع الإسلامى الوسيط ، ستحدث — فى شيء من التفصيل — عن المدن الإسلامية وأحوال الناس فيها ، لأن المدن كانت مراكز الحياة الاقتصادية . وهذا فسكتفى هنا بالإشارة إلى أن عالم الإسلام كان دائماً عالم مدن ، فى كل ناحية منه قامت المدن الكثيرة الغاصة بالسكان الخافضة بدوافع النشاط . وربما كان ذلك بحكم أن الإسلام يدعو بطبيعته إلى التجمع والتعاون والاشتراك فى العائش .

وقد وُلدت جماعة الإسلام فى مدينة ، أى أنها نشأت مدينة النظام والروح ، وقد لازمها ذلك الطابع فيما بعد ، فكان العرب يسكنون المدن فى كل بلد نزّلوا فيه ، وكانوا يفضلون ذلك على الانتشار فى الأرياف أو على المعيشة فى أرض الحشائش للعرى . وفى البلاد التى لم يجدوا فيها مدناً مناسبة لهم أنشأوا مدناً تتفق مع مطالب حياتهم فى عصر امتدادهم الأول ، وهو عصر انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة ، فكانت المدن العربية الأولى تجمع بين خصائص الحياة المدنية والحياة الصحراوية ، فكانت محلات قريبة من مواطن الكلا لمرعى الجمال والخيول ، وأمثلة ذلك نجدناها فى البصرة والكوفة والقروان .

ولكن المدائن التى اجتذبت العرب بعد ذلك أكثر من غيرها كانت هى المدن القديمة التى طوّلت الأعصر ودامت على الزمان بفضل ميزانها الطبيعية وعناية أهل العصور القديمة بها . وقد تناول ابن خلدون الكلام فى ذلك فى فصل من المقدمة عنوانه « فى أن البائ والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى ما كان قبلها من الدول »^(١) .

(١) المقدمة . ص ١٩٦٧ مبروت ١٩٦٧ ص ٦٣٧ وما بعدها

أما السبب في عاية الأمم القديمة بالمدن فهو أن حضارتها كانت حضارة مدن ، أى أن الحياة والسلطان والثروة فيها تتركز في المدن ، فزادت عناية دول العالم القديم بشؤونها ومراقبتها وظلت المدن عامرة قرونًا متطاولة ، كما كان الحال في مفسس وطيبة في مصر ، وطيشفون — وهى « المدائن » — التى كانت عاصمة الأكاسرة الساسانيين ، وكما كان الحال في أثينا وروما .

وقد استوقف نظر ابن خلدون إسراع الخراب إلى المدن في العصور الإسلامية ، وعالج ذلك في فصل آخر من المقدمة عنوانه « في مبادئ الخراب في الأمصار »^(١) . وابن خلدون يرد السبب في ذلك إلى نظريته الأساسية التى تذهب إلى أن حضارات البشر — بكل مظاهرها — تولد وتنمو حتى تبلغ أوجها ، ثم لا بد أن تنحدر وتضمحل بعد ذلك ، طبقاً لقانون عام ينطبق على حياة البشر وكل ما يعملونه . وهذا القانون يتلخص في أن ابن خلدون يشبه الدول والحضارات بالأحياء ، فكما أن كل حي يمر بمراحل متعددة ومحتومة تبدأ بال ميلاد وتنتهى إلى الشيخوخة ثم الموت ، فكذلك الدول والحضارات وكل مظاهر العمران تولد وتنمو ، حتى تبلغ أوجها ، ثم لا بد أن تنحدر بعد ذلك . وهو في دراسته لتدهور المدن لا يزيد على أن يطبق قانونه تطبيقاً حرفياً ، فيقول : « فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ، ففقدت الإجابة في البناء والإحكام والمغالة فيه بالتنسيق » .

أما السبب الحقيقي في تدهور المدن في معظم بلاد المسلمين في العصور الوسطى فهو أن المدن — على ضخامتها وأهميتها — منشآت ضعيفة لا بد لها من عناية مستمرة وعمل دائم حتى يتصل ازدهارها . وحياة أى مدينة على الأرض رهينة بمراقبتها ، وكفاية هذه المرافق لحاجات السكان ، والعناية المتصلة بها للمحافظة عليها . فلا بد من نظام لتزويد المدينة بالأطعمة على صورة مستمرة وبأسعار معقولة ، ولابد من نظام لإمداد سكانها بالماء الصالح للشرب ، ومن العناية بالشوارع والمحافظة على اتساعها حتى لا يجور الناس بالأبنية عليها ، فضيق حتى تصبح ممرات بين البيوت ، وقد تسد فتتحول إلى أزقة . ولا بد من تنظيف الشوارع ورصفها لئلا تتحول إلى برك وحفر وأكوام من تراب ، ولا بد من جهاز منظم لنقل فضلاتها إلى أماكن بعيدة

(١) مقدمة ص ٦٤٠ .

عنها . ولا غنى للمدينة عن تنظيم لإطفاء الحريق ولحمايتها من فيضانات الأنهار ، وما إلى ذلك . ولابد للمدينة من منشآت عامة تتناسب مع حجمها وعدد سكانها وأهميتها ، مثل دور الحكومة والإدارات البلدية والقناطر والجسور والمخازن والمساجد وغيرها ، بل لابد للمدينة الكاملة من منشآت للهو والتسلية ، لأن الجماهير بطبيعتها تحتاج إلى ذلك ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة فيها ، لأنها تصرف الجماهير عن البحث عن وسائل تسلية ضارة بهم وخطرة على المجتمع .

وكل ذلك لا يتم إلا إذا كان للمدينة هيئة مسئولة عنها قائمة بشئونها ، كالمجالس البلدية ، ولابد كذلك من أموال كثيرة مرصودة لصيانة البلد ومراقبته ، ومن عمال مدربين على ذلك .

وقد كانت دول العصور القديمة شديدة العناية بمجالس المدن وكل ما يلزم للمحافظة عليها زاهرة نظيفة منظمة ، وهذا واضح من الآثار الباقية منها إلى اليوم ، وقد وصلت العناية بالمدين في تلك العصور إلى أوجها في روما ، حيث نجد لكل مرفق من مرفق البلد نظاماً خاصاً للمحافظة عليه ولتسييره سيراً طيباً ، وبخاصة النظافة وإيصال المياه للبيوت وضمان الأقفاد والحراسة النهارية والليلية ، بل العناية بالحدائق والبساتين العامة وما إلى ذلك .

فإذا انتقلنا إلى النظم التي وضعتها الدول الإسلامية لم نجد فيها أى مكان للعناية بالمدين ، غير نظام الشرطة ، فلا أنشئت لها مجالس بلدية ، ولا عين له موظفون للعناية بأمرها ، ولا رصدت أموال للإتفاق منها على مراقبتها . والشئ الوحيد الذى لدينا — إلى جانب رجال الشرطة — هو وظيفة المحتسب ، وهو مراقب الأسواق والأسعار والموازين والمكاييل ، وربما راقب أمور الأخلاق أيضاً . ولكن المدينة — كمدينة — لا تدخل في اختصاص « المحتسب » .

وكان من أثر ذلك أن المدين أهملت إهمالاً كبيراً ، واقتصرت الخدمات فيها على ما كان الناس يقومون به من عناية صاحب كل بيت بيته . وقد يُعفى سكان الحارة أو الزقاق بحارتهم أو زقاقهم ، أما الشارع الكبير فلم يكن هناك من يعنى به . حتى المساجد ، وهى المنشآت الرئيسية للعبادة ، كانت العناية بها موكولة للجمهور . وبينما كان أهل العصور القديمة ينشئون القناطر الحجرية الضخمة على الأنهار في المدن ،

لم تنشئ الحكومات في مدنا قناطر ، واكتفت بجسور القوارب ، فكان لابد أن تضمحل المدن شيئاً فشيئاً . فضيق الشوارع مع الزمن وتعالى أكوام القمامة على جوانب الشوارع ، ولا يخفى الطريق من المله الذي يطرحه الناس فيأسن ، ونجد أنفسنا أمام الظاهرة التي يسميها ابن خلدون « وباء المدن وعفونتها » ، كأنه يظن أن المدن — بطبيعتها — لابد أن تكون وبيئة عفنة حالية للأمراض ، وأن الصحة لا تكون إلا في حياة الحلاء والأرياف .

ويستثنى من ذلك كله الأندلس ، حيث عنت الدولة وأهل المدن بمدنهم ومرافقها ، فظلت راهرة نظيفة . وأمثلتها كثيرة في قرطبة وغرناطة وإشبيلية ومرسية وغيرها .

ونتيجة لذلك نجد أن حياة أهل المدن كانت تسير دائماً من سيئ إلى أسوأ ، حتى في عصور القوة والازدهار . فالشوارع تضيق والمباني تهدم شيئاً فشيئاً ، ولا يوجد من يزيل المتهدم منها ، لكثرة الثروة وصعوبة الاتفاق معهم على البيع أو الإصلاح ، فينتج الراغب في البناء إلى ظاهر البلد . وهكذا يموت قلب البلد ويتحول إلى خرائب شيئاً فشيئاً . ومن الظواهر المعروفة أن مدناً كبرى ، كبيداد والقاهرة ، كانت — يرعم اتساعها والدور المتداعية مزدحمة الأسواق بالنهار وخوقة بالليل ، متعبة لسكانها ، غالية أسعارها غير مأمونة لسكانها . وكل ذلك ناتج عن عدم وجود أجهزة تعنى بالمدن وتحافظ عليها .

ثم حلت عصور الضعف السياسي والفوضى والمظالم ، فازدادت أحوال أهل المدن سوءاً ، وكثرت عليهم المغارم والضرائب والمظالم ، فلم يعد يتمتع بالحياة في المدن الكبيرة إلا سكان الأحياء التي يعيش فيها أهل الحل والعقد ، ممن كانوا يستطيعون اتخاذ الخدم والحرس للمحافظة على أحيائهم نظيفة مأمونة صالحة للسكنى . أما بقية الناس ، فلم يكن في حياتهم ما يسر ، ولم يستفيدوا شيئاً من الميزة الكبرى التي عيشتها المدن لسكانها ، من توافر الحاجات وتفاق الأسواق ووفرة المال وتحقق الأمان بالأسوار العالية والقرب من أهل السلطان وكثرة الأغنياء الذين ينفقون الأموال عن سعة ووجود شتى الصناعات والحرف وما يحتاجه الناس لتيسير حياتهم وإسعاد أنفسهم وذويهم .

وقد فرق الجغرافيون والرحالون العرب بين العواصم وبقية المدن ، فسموا الأولى : « القواعد » أو « الأمصار » ، فهم يقولون مثلاً إن دمشق هي قاعدة الشام أو مصر ، أما بقية المدن فتوصف الكبار منها بأنها « بلدة ذات مبر » أى يقوم فيها مسجد جامع ، فيه إمام وخطيب يتقاضيان راتبهما في الغالب من خزانة الدولة . وخطبة الجمعة في مثل ذلك المسجد لها طابع رسمى ، لأنها لابد أن تتضمن دعاء لولى الأمر في الإقليم ، فإذا وجدت مدن صغيرة أخرى تابعة للكبرى سميت باسم نواتها ، وعلى ذلك القرى ما بين كمرة وصغيرة . وعلى أى حال فإذا استشيا القواعد أو « العواصم » وبعض الموانئ ، فقد كانت بقية البلاد قرى كبيرة أو صغيرة ، ومعظمها كانت مراكز زراعية أو مراكز مواصلات .

وكانت عادة العرب إذا اختطوا مدينة أن يبدأوا بإنشاء المسجد الجامع في الوسط وقبائه قصر الإمارة ، والمسافة الواقعة بينهما تعين بداية شارع يمتد في الجهتين فيكون محور البلد . ويقوم شارع متعامد معه ، يلتقى به عند الجامع ويتصل إلى نهاية البلد من الطرفين . ويبنى الناس بيوتهم ، وتقيم الحكومة مبانيها على هذين الشارعين ، ويقوم الناس بإنشاء الدور ، فلا تلبث الصورة العامة للمدينة أن تظهر . وفي بعض الأحيان كانوا يركون حول المسجد وقصر الإمارة مساحة واسعة مستديرة ، كأنها ميدان عظيم يبنى الناس البيوت حوله ، محافظين على الشارعين اللذين أشرنا إليهما . وعندما تصل للمدينة حذاء معقولا من الامتداد يقام سور يدور حول البلد ، وتكون بواباته الرئيسية هي نهايات الشارعين الرئيسيين . وبين تلك الشوارع الرئيسية تحتد شوارع أخرى تبدأ من المركز وتنتهى عند السور .

وفي العادة كانت الأسواق تنشأ في الجانب الذى يقوم فيه الجامع ، وكانت عبارة عن شوارع ضيقة يختص كل شارع منها بحرفة من الحرف ، وكانت ملتقيات الشوارع يسمى الواحد منها : « السويقة » ، وكانت توجد بين شوارع الأسواق شوارع جميلة ذات مبان ظاهرة التفتى نسمى : « القيساريات » تخصص للمناجر الغالية ، كالأقمشة الممتازة والجواهر وأدوات الترف وما إليها ، وحول الأسواق كانت تقوم أحياء العامة . أما في ناحية قصر الإمارة فكانت تقوم منازل رجال الدولة والأغنياء وأهل السلطان . وفي الغالب يراعى شئ من النظام في مبانى البلد في أول إنشائه ، ثم يختلط الأمر بعد ذلك وتضيق الشوارع وتأخذ أحوال المدينة كلها في السوء كما ذكرنا .

وفي حالات قليلة جداً وضع العرب تصميماً لإنشاء البلد ، كما حدث بالنسبة لبغداد والقاهرة ، ولكن غر البلد لم يلبث في كلتا هاتين الحالتين أن خرج عن التصميم الأصلي ، فأخذ البلد ينمو بحسب حاجات أهله ومطالب الحياة فيه .

أما بغداد — مدينة السلام أو المدينة المنورة — فقد اختار موضعها ووضع تصميمها أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م) على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وأرادها أن تكون مدوّرة ، وأنشأ حولها سوراً دائرياً ضخماً ، ولكن البلد تخطى ذلك السور وامتد في سرعة في اتجاه النهر خاصة ، ثم تخطاه إلى الضفة الشرقية .

وأما القاهرة فقد بنيت في الأصل لتكون مدينة ملوكية ومعسكراً ومقاماً لخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم وجنودهم وحواشيهم . وقد وضع خططها جوهر الصقل سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م . وعلى ذلك ظلت مقصورة على أهل الحكم والجند أكثر من قرن ونصف ، فقد زار الإدريسي الجغرافي مصر سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، أرى بعد إنشائها بمائة وسبع وأربعين سنة تقريباً ، فلم يذكر القاهرة إلا بالاسم ولم يدخلها . وإلى آخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، كانت العاصمة الحقيقية للبلاد هي القسطنطية ، ولم تنجح القاهرة — كمدينة — إلا عندما انفتحت أبوابها للناس واتصلت بالقسطنطية وزحفت غرباً نحو النيل حتى ارتكزت على ضفته .

وفي أوائل القرن التاسع عشر لم يكن يسكن القاهرة أكثر من ستين ألف نفس بحسب تقدير رجال الحملة الفرنسية ، وكان هذا العدد يزيد إلى ثمانين ألفاً بالتهار بسبب الوافدين من أهل القرى المجاورة للبيع والشراء ، ولم يزد سكان الإسكندرية على خمسة آلاف نفس . وهاتان — القاهرة والإسكندرية — كلتا من كبريات المدن . وبين هذين الرقمين تراوح سكان بقية العواصم العربية ، مثل بغداد ودمشق وحلب والقدس في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي .

والميزة الكبرى لهذه العواصم ، برغم ما ذكرناه من مناعب العيش فيها ، أنها كانت مدناً إسلامية عامة ، يدخلها ويسكن فيها من يشاء من المسلمين دون أن يتمتع من ذلك مانع أو ينظر إليه أحد على أنه غريب . فكثير الوافدون عليها للتجارة أو لطلب العلم في مجالس العلماء أو في المساجد أو في بيوتهم أو في المدارس ، عندما قامت المدارس ، أو لطلب الرزق أو لزبارة أضرحة الصالحين والأولياء أو لشراء السلع التي

لا توجد إلا في المدن الكبرى أو للبحث عن طبيب ماهر أو دواء نادر . ولهذا حفلت تلك العواصم بالغرباء وكثرت فيها الخانات لنزولهم ، وكانت الخانات — وهي فنادق بلادنا في العصور الماضية — مرتبة منظمة ، فيها الرقيع المستوى الذي يحصل النازل فيه على كل وسائل الراحة والترف ، وفيها الرخيص الذي ينام نزلأوه جميعاً في قاعة واحدة على حُصُرٍ ويتغطى كل منهم بما معه من غطاء أو ملبس ، وتحيط بالخان في العادة دكاكين كثيرة تباع الطعام . وقد وصف لنا هذه الفنادق رحالة العرب ، ووصفها أيضاً رحالة الأوروبيين من أمثال إدوارد ولیم لين EDWARD W. LANE وبوهان بوركهاردت JOHANN L. BURCKHARDT ؛ وقد أثنى هذان الأخيران على فضائلها .

وكان مجتمع المدن غير متجانس ، يختلط أهل البلد بالغرباء من كل جنس ولون ، ويتجاور فيه أهل العلم وأرباب الحرف والتجار الصغار والكبار ، وتمتلى مساجده بالطلاب والعلماء ، وكان فقراء الطلاب ينامون أحياناً في أروقة المساجد ، وكان القائمون عليها لا يرفضون السماح لعابر بقضاء الليل فيها .

وقد قامت هذه المدن بدور عظيم في تاريخ الجماعات الإسلامية ، لأنها كانت رموزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وإذا كانت القرى وصغار المدن تصور الطابع المحلي في كل ناحية فإن كبار المدن كانت تصور العالم الإسلامي جملة . وبرغم كل ما ذكرناه من عدم العناية بها واضمحلال أمرها بمرور السنين ، فقد قامت فيها العمائر الجميلة من مساجد وقصور وأسيلة وأضرحة وسقايات وصهاريج للماء ، أى أنها كانت مراكز للحضارة الإسلامية ومواضع لالتقاء المسلمين وفي هذه المدن قامت الحضارة الإسلامية بمظاهرها الفكرية والمادية .

أهل الحرف ونقابتهم :

لا تعرف العصور الوسطى العامل بمفهومه في العصر الحديث ، فلم تكن هناك — إلا في الموانئ — مصانع كبيرة يعمل فيها مئات العمال أجراء عند صاحب عمل ، إنما كان العامل صاحب عمل في نفس الوقت ، فهو يعمل في بيته أو في دكان صغير ، يساعده صبيان لا يمدون عمالاً عنده ، لأنهم كانوا أشبه بالتلاميذ ، يتعلمون منه الصنعة ويخدمونه في نفس الوقت ، ثم يستقل كل منهم بنفسه بعد ذلك . ولم يكن

انتقال العامل من صبي إلى معلم يتكلف كثيراً ، لأن أدوات العمل كانت قليلة ورخيصة . وفي أكثر الأحوال كان الصبيان هم أبناء المعلم نفسه ، يرون منه صناعته ودكانه وعملاته أيضاً . وكان الصانع ، أو صاحب الحرفة ، يقدر أتعابه بنفسه ، بحسب مهارته أو قدراته ، فقد كان بعض النساجين يتقاضون أجوراً لمصنوعاتهم تصل إلى مئات الدراهم في الثوب الواحد . ومن المعروف — أو من القواعد المعروفة فيما يتصل بالأجور — أن صاحب الحرفة الماهر هو دائماً الذي يحدد أجره بنفسه . أما الذي يتحكم فيه الناس وأصحاب الأعمال فهو العامل غير المتفنن والوسيلة الوحيدة لحماية العمال في كل مكان هي رفع مستواهم الفني والحرفي ، وهذا وحده يكفي لرفع أحوالهم وتحسين مستواهم .

أما النقابات التي انتشرت في عالم الإسلام في العصور الوسطى المتأخرة فلم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت إيطارات وتنظيمات مهنية اجتماعية تجمع طوائف من الناس ذات مصالح مشتركة ، وهي لم تكن مقصورة على العمال ، فكانت للأشراف — مثلاً — نقابات (وهم جماعات يتسبون إلى نسب إسلامي حليل) ، كالأشراف العلويين أو الأشراف البكريين (ملالة أي بكر الصديق) وكانت وظيفة هاتين النقابتين وأمثالهما رعاية الأسرة المرتبطة بالنسب المشترك وإدارة أوقافها وما إلى ذلك .

ويتجلى الطابع الاجتماعي للنقابة من تسميتها بالعشيرة ، ولفظ العشيرة نفسه يدل على رابطة اجتماعية بين أفرادها ، فكان رئيس النقابة يلقب بشيخ العشيرة ، وهو لقب يحمل إلى الذهن معنى رب الأسرة ، وبالفعل كانت النقابات في البلاد العربية في العصور الوسطى أسرة واحدة تربط بين أفرادها روابط القرابة والمصاهرة منها إلى روابط المهنة والمصلحة المشتركة ، فكان النقيب والدأ لجميع أعضاء العشيرة ، وكانت كلمته مسموعة في كل ما يقومون به من زيجات ومصاهرات ، وعندما كان عضو من أعضاء النقابة يطلق امرأته — مثلاً — كانت المطلقة تلجأ إلى شيخ العشيرة ليعمى في ردها .

وكانت النقابة أو العشيرة أيضاً رابطة دينية ، فلا بد أن ينسب أفراد النقابة جميعاً إلى نفس الطريقة الصوفية ، فيكونوا جميعاً شاذليين أو جيلاليين أو تيجانيين وما إلى ذلك ، ويندر أن يسلك عضو النقابة طريقاً آخر ، بل كان أخذ العهد على شيخ آخر يعد خطئاً حسيماً أشبه بخيانة العشيرة . وكان هذا الانتساب للطرق الصوفية

يلزم أفراد العشيرة بسلوك ديني واجتماعي محدد ، فلا بد من أداء الصلوات في أوقاتها ، ولا بد كذلك من تجنب الفواحش والتزهد عما يشبه الحرمة أو يمس الدين أو يخذل المروعة . وليس معنى هذا أن أعضاء عشائر الصناعات كانوا نماذج للفضيلة والسلوك الديني السليم ، بل كان هذا هو المفروض . وعلى الرغم مما كان أولئك الناس يرتكبونه من خطايا — كهمهم من الناس — إلا أن انتسابهم إلى الطريقة كان أشبه بالضمير الصامت داخل نفوسهم ، وهذا في ذاته أمر عظيم ، لأنه كان سياجا صان الكثير من دعائم المجتمع من أن تتصدع .

وكذلك كانت نقابات العمال تنظيمات وظيفتها المحافظة على مصالح العاملين في نفس الحرفة ، وتحديد مستوى العمل فيها والزام الراغبين في الدخول فيها بمهج معين في الدراسة والتدريب والصناعة . فلا بد أن يقضى الغلام عدداً من السنين « صبياً » دون أجر ، بل كان يظل عدداً من هذه السنين خادماً للمعلم في الدكان والبيت قبل أن يبدأ في تعلم شيء ، ثم يصبح « شقالاً » بأجر زهيد ، ولا يصبح معلماً يسمح له بفتح دكان وتقبل أعمال إلا بعد أن ينقضى عليه في الحرفة ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة سنة .

وكانت تربط أعضاء النقابات بعضهم ببعض تقاليد وقواعد سلوك يلتزمون بالسيرة عليها ، فللمعلم على الشقالين والصبيان عنده حقوق لا يمكن تجاهلها ، من احترامه وخدمته والأمانة في معاملته ، ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل . وكان النقيب مكلفاً بالحديث إلى السلطات باسم النقابة التي يرأسها . ونظراً لحاجته إلى قوة تؤيده كان لابد له من الانتساب إلى طريقة صوفية . وفي الغالب تتبع النقابة كلها طريقة واحدة ، فتكون شاذلية و تيجانية أو رفاعية مثلاً . وكان مركز النقيب في المجتمع مرتبطاً بنوع النقابة التي يرأسها ، فنقيب التجار مثلاً كان دائماً من الشخصيات الرئيسية في المجتمع ، فهو على العادة رجل غنى من بيت كبير ، وهو يضمن للحكومة ورجالها حاجتهم من الخاخر بالسعر المقبول .

وكانت نقابات المهن مسئولة عن مستوى المهنة ، بحيث يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى إلى النقيب في حالة محاولة العامل خداعه أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة النقص والعيب . وقد عرفت هذه النقابات كيف تحافظ على مستوى الصناعات في البلاد من التدهور ، وإليها يرجع الفضل في المحافظة على تقاليد صناعية جميلة مازلتنا

يرى نماذجها فيما يسمى بالصناعات التقليدية ، كالنجارة الدقيقة وصناعة الحاس « المكثت » والحديد المشغول والقماش المطرر وأشغال الصدف وما إلى ذلك .

وكان المعلمون أو « الأسطوات » (أى الأساتذة ، كما كانوا يسمون) هم الذين يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة في حالات الخلاف . وكانت العلاقات الثقافية لها جانبها الاجتماعي ، فالمعلم له مقام الوالد على « صبياته » و « شغاليه » وهو يشترك في تزويجهم ، ويتوسط في خلافاتهم العائلية ، وفي الأنايب يكون زواج أهل الحرفة فيما بينهم .

ويدهش الإنسان عندما يرى كثرة ما أُلّف أهل الحرف المسلمون في حرفهم ، فما من صنعة إلا ولدنا وعنها كتب كثيرة ، ولا يقتصر هذا على الصناعات الكبيرة كالبناء والحداة والنجارة ، بل لدينا كتب عن صناعات الجلد وعمل أدوات الموسيقى وصناعة أدوات الكتابة وصناعة الورق والزجاج والصياغة وسك النقود حتى « فن الطبخ » ، وهذه الكتب في العادة تتناول الحرفة من كل نواحيها ، أعى ما يتصل بأصول الصنعة وأصنافها وموادها الخام ومستويات الجودة فيها ، وفي حالات كثيرة يتناول المؤلف الناحية الشرعية من موضوعه ، كما نرى في بعض الكتب المؤلفة عن المبانى والعمارة وكذلك الكتب الخاصة بسك النقود . وهذا يدل على أن العامل المسلم في العصور الوسطى كان رجلاً متعلماً يمارس صنعه على أصول مقررة مسطورة في كتب ، فلو لم يكن هناك عمال يقرأون هذه الكتب المؤلفة في فئتهم لما أُلّفها أحد ، لأن أسلوب معظمها يدل على أن مؤلفيها كانوا من رجال الصنعة الممارسين لها ، يكتبون لأهل صنعة مثلهم ، فهم يستخدمون المصطلح الجارى بينهم والعبارة التي لا يفهمها إلا العمال أنفسهم . بل إننا وجدنا أن بعض كبار الصناع من أهل الصنعة الرفيعة ، الذين اضطلوعوا بعمل النقوش في قاعة كبرى أو سقف عسشى مزين مزخرف ، يحرصون على أن يكتبوا مفتاح زخرفة القاعة أو السقف في ظهر أحد الألواح الخشبية المستعملة ، ويتصر في ذلك المفتاح على الألوان الأصلية ، حتى يمكن إعادتها إلى أصلها إذا حال فلك اللون .

ولولا هذه النقابات والعمال الذين أنشأوها لاندثرت الصناعات الجميلة التي أضفت على مجتمعنا طابع الفن الذى لا غنى عنه لمجتمع متحضر ، ولولا هذه النقابات لضاعت تقاليد هذه الصناعات خلال العصور الوسطى المتأخرة . وإن من يتأمل

بلادنا وما حلفته لنا فيها العصور الماضية من الآثار يجد أن معظمه من عمل أولئك الصناع .

فالمساحد والقصور الباقية وما تطوى عليه من روائع العمارة والمهندسة وزينتها وقوشها ومنابرها ومشربياتها وسقوفها وأعمال الخشب والمعادن والرخام ، كل ذلك يدل على روح في أنسيل وذوق شرق بديع . وتقسيمات الزخارف وبديع التصاوير التي لم تقتصر على الخشب ، بل وجدت على الخزف والزجاج والحجر والمعادن ، كلها تدل على مهارات فنية وصناعية مازالت إلى يومنا هذا جديرة بالإعجاب ، ولصناع المسلمين مهارة في نحت الرخام والأحجار الصلبة لا تقل عما نلحه عند اليونان والرومان .

وكذلك النسيج الجميل الذي اشتهر به الكثير من بلاد الإسلام ، فقد كانت بعض نماذجه ترقى إلى مستويات لا تقل عما تخرجه أحسن مصانع النسيج المعاصرة .

وإن الإنسان ليرى زخارف « التاج محل » في مدينة أجرا بالهند ويقارنها بزخارف القصور في المغرب في مدن تطل على المحيط الأطلسي ويتعجب كيف استطاع « تقليد » في واحد أن يسود في مساحات شاسعة كهذه دون أن يلقي من الرعاية إلا حرص الصانع الفنان نفسه على مستوى صناعته وعناية بعض السلاطين والأمراء وسراة الناس .

ولقد استطاع الصناع في بلاد العالم الإسلامي أن يقوموا بكل حاجات بلادهم من الأشياء المصنوعة ، برغم ما يبدو عادة على مجتمعا في العصور الوسطى من تواضع الصناعة وقلة المصنوعات ، فهم قدموا للناس كل ما لزم لهم من المنسوجات بكل أنواعها ، سواء كانت صوفية أو كنانة أو قطنية أو حريرية ، بل أخرجت المناسج في الهند وإيران والشام ومصر واليمن أقمشة رقيقة متقنة راحت في العالم كله ..

وقد استوردت أوروبا من بلاد الإسلام منسوجات شتى ، راجت في أسواقها بأسمائها التي تدل على أصولها .

فعرفت أوروبا قماشاً حريرياً رفيعاً سمي بالفستيان Fustian ، وأصله مصنوع في فسطاط مصر ، ومن هنا جاء اسمه . وقد جودت أوروبا بعد ذلك صناعته وصدرته

إليها في القرن الثامن عشر الميلادي ، فكانت تصنع منه أرفع أثواب النساء ، حتى
سمى ثوب المرأة نفسه في مصر بالقمستان .

وعرفت أوروبا البقمس الذي يصنع في دمشق ، وسمى في أوروبا بالدماسك
Damask وكانت توجد منه أنواع شتى .

واستورد الإيطاليون الحرير الموصل الرفيع ، وشاع في أوروبا باسم المسلمين ،
وصنعوه في بلادهم ، واستوردناه نحن بهذه الصورة الأوروبية للاسم Misline سواء
أكان حريراً خالصاً أم مخلوطاً بشيء من الصوف .

ومثل هذا حدث للحرير البغدادي ، فقد كان الإيطاليون يحرفون اسم بغداد إلى
بالداكو Baldacho ، ونسبوا إلى اللفظ ذلك الحرير البغدادي الرفيع فسموه :
بالداكينو Baldachino ، أي البغدادي ، واستعملوه بصورة خاصة في الكنائس كستار
يفصل بين المذبح وبقية الكنيسة . ثم ذاع استعماله ، نظراً لأنه ثقل كالثقل ، للظلة
التي كانت ترفع على أعمدة فوق الأسيرة لتسدل منها الكلل ، وعلى هذه الصورة
استوردناه نحن بعد ذلك من أوروبا قتلنا : سرير بيتكان .

واستوردوا كذلك قطنيات حرراء وريقة من غرناطة كانت تسمى بالغرناطيات
Granadines ، وقد بنى الاسم يطلق على لون القماش الأحمر الداكن ، فقلنا إن لونه
جريناد Grenade أي غرناطة .

وأخذوا من إيران قطيفة حرراء مما كان يصنع في تفتازان وسموها بالتافتا
Taffeta ، وما زلنا نحن نستعمل هذا اللفظ في مصطلح النسيج فنقول ثوباً من
التافتا .

وكان الناس يصنعون في حبي العنابية في بغداد قماشاً ممتازاً — والعنابية منسوبة
إلى صحابي جليل هو عتاب بن أسيد — فوصل هذا النسيج إلى أوروبا وسمى :
العنابي Atabi ، وقلد صناعته الأندلسيون وصدروه إلى فرنسا حيث عرف باسم
تابي Tabi .

هذه أمثلة قليلة تدل على الكثير ، إذ الحقيقة أن العالم الإسلامي — من أقصى
شرقه إلى أقصى غربه — كان حافلاً بالناسج والنساجين الذين أخرجوا للناس كل

صنف من النسيج وسدوا حاجات مجتمعهم عن قدرة . وإذا نحن قرأنا كتاب جغرافيا عربيا مثل « أحسن التقاسيم » للمقدسي أو « نزهة المشتاق » للإدريسي ، دهشنا لكثرة البلاد التي اشتهرت بنسيجها ، وفي مصر وحدها عددا أكثر من عشرين بلداً من أقصى الدلتا شمالا عند دمياط وتيس وشط ودبقو ، إلى أعلى الصعيد عند أخميم ، كلها كانت تصنع أنسجة ممتازة نشير منها هنا إلى الكتان الرقيق الممتاز الذي كان يصنع في شمال الدلتا والستر الضخمة التي كانت تصنع في أخميم وكان طول الستر منها يصل إلى عشرين متراً وعرضه إلى خمسة عشر متراً قطعة واحدة ، فتأمل المنسج الذي كان يستطيع إخراج هذه الأحجام من نسيج القطن !

وحدير بنا أن نذكر أن الأقمشة كانت معلودة من أعيان الثروة ، فكما كان الرجل يدخر المال — ما بين ذهب وفضة — فكذلك كان يدخر الأقمشة والثياب ، لأنها كانت لا تفقد قيمتها ، فكان الناس يبيعونها ويتفننون بشمها إذا احتاجوا إلى المال ، ولهذا كان الخلفاء والسلاطين يخلعون على الناس الثياب كما يعطونهم المال ، وكان كل رجل ميسور يحرص على أن يكون لديه ثياب ، أي صندوق أقمشة وثياب مصنوعة — فهذه كانت مالا مدخراً — كما يفعل بعض الناس اليوم إذ يقتنون السجاد العجسي الغالي الثمن .

واستطاع صناع المسلمون أن يسدوا حاجات مجتمعهم من كل المصنوعات ، سواء أكانت أدوات حرف أم أنية بيوت أم أسلحة حرب أم مصنوعات ترف ، كأدوات الزينة والعطور وأواني الذهب والفضة .

وأنتن المسلمون صناعة الورق بأنواعه والصابون والزجاج المبسوط والمفرغ والبللور والخزف والقاشاني والأثاث الخشبي ، وبرعوا في الصناعة الدقيقة ، كما سنرى في الفصل الخاص بالفنون . وحتى القرن الثالث عشر الميلادي كان تجار الشرق والغرب يقدون على بلاد الإسلام ليشترؤ البضاعة الجيدة والمصنوعات الرائقة من كل صنف .

ومع أن ذلك كله انضمحل بصورة واضحة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن المستعمرين الأوروبيين الذين دخلوا بلاد الإسلام ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي (في الهند) ثم غزوا بقية بلاد الإسلام بعد ذلك ، وجدوا صناعات زاهرة في كل مكان دخلوه . وكانت مهمة الاستعمار الأولى هي القضاء على

الصناعات المحلية ، سواء في الهند أو إندونيسيا أو الملايو أو إيران أو العراق أو مصر أو الشام أو المغرب ، قضى الأوروبيون — بناء على سياسة مرسومة — على كل الصناعات المحلية ، لكي يحولوا تلك البلاد إلى أسواق لمصنوعات بلادهم . ولم تعد الصناعات إلى بلاد المسلمين إلا في عصور الاستقلال .

أحوال الزراعة والمجتمع الريفي :

ونتقل من هذا إلى الكلام عن أحوال الزراعة ، وهم كانوا غالبية أهل البلاد الإسلامية ، بل غالبية أهل الأرض حتى اليوم . والزراعة عمل صبر وجهد واحتمال ، لأنّ الزارع دائماً في خدمة الأرض وما يزرعه فيها ، وهو — بحكم انتظاره للمحصول وتوالي أزمته الزراعة — مرتبط بالأرض ، فيقوم بينه وبينها لرباط وثيق ، فهو لا يفارقها إلا إذا أجبره على ذلك مجبر ، وهو يحتمل في سبيل الأرض الكثير من المتاعب والمظالم .

وقد حسب الناس أن ذلك من الفلاح ذل واحتمال للهوان ، ولكنه في الحقيقة صبر على العمل واحتمال لمتاعبه وتضحياته ، وقد أودى الفلاح بسبب ذلك أذى كبيراً من الحكام الذين سيطروا على الفلاحين عن طريق التسلط على المحاصيل بوجه عام ، وكذلك جياة الضرائب أساعوا إلى الفلاح إساءة كبرى ، وكانوا في العصور الوسطى من آفات المجتمع ، لأنهم كانوا في العادة يجمعون من الفلاح أكثر مما يؤدون إلى الخزائنة ، وقد عُذّوا أحياناً في عداد المغضوب عليهم من الدين ، ونظراً لما كانوا يفترونه من عسف وظلم وسرقات كانت أموالهم تعد أموالاً حراماً يتخرج أهل الديانة من أخذها ، وسلكتهم المسيحية ضمن الحافظين الذين سيطر عليهم في جهنم ، وسواء في الشرق أو في الغرب كان المكّاسون والعشارون يعدون من الأشرار .

وبينما هنا أن تقرر أنه برغم المتاعب الكثيرة التي كان الزارع يلقيها على أيدي الحكومات في بلاد الإسلام جميعاً ، فإنهم وصلوا عملهم في صبر واحتمال ، واستطاعوا أن يقدموا للمجتمعات كل حاجتها من الأغذية . ولم تقتصر الزراعة في بلاد الإسلام على المحاصيل الاقتصادية وإنما تناولت أيضاً الشجريات بأصنافها

والقواكه والزهور والأعشاب أي النباتات الطيبة . وقد مارس المسلمون زراعة هذه الأصناف عن علم دقيق ، وجرى الفلاحون على قواعد ثابتة في عملهم الزراعي . ولم يخل أي بلد إسلامي من تهويمات زراعية يسجل فيها أوان زرع كل محصول ، ومتى يقوم الزارع بكل عمل خاص بهذا النبات أو ذاك ، وتتحدث هذه الكتب كذلك عن آفات الزراعة وما ينبغي أن يعمله الفلاح لحماية محاصيله منها .

ومعنى ذلك أن الزراعة لم تكن عرض عمل تقليدي ورمته أجيال الزراع بعضها عن بعض ، وإنما كانت في كل بلاد الإسلام تقريباً علماً وفناً تطبيقياً ، ولدينا الكثير من كتب الفلاحة العربية كالتي وضعها ابن وحشية وأبو العباس بن الرومية وأبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي — الذي عاش في الأندلس في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي — وأبو عبد الله بن بصّال الطليطل ، وهو أيضاً من أبناء القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد اشتهر هذا الرجل بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الفراس ومكافحة آفات الزرع ، وقد وصل إلينا كتابه المسمى « بالفلاحة » وهو — دون شك — من أحسن الكتب العلمية التي ألّفت في الزراعة قبل العصور الحديثة . وكان ابن العوام تلميذاً لابن بصّال ، وقد ألف كتابه المسمى أيضاً : « الفلاحة » ، وكان من جلائل المؤلفات التي وصلت إلى أوروبا وترجمت إلى لغاتها ، بل تُرجم هذا الكتاب مرتين : مرة في القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية والعبرية ، ومرة في العصر الحديث ، إذ ترجم إلى الإسبانية ونشر سنة ١٨٠٢ م . وإلى آخر القرن التاسع عشر الميلادي كان كتابُ ابن العوام من المراجع المعتمدة في كليات الزراعة في إسبانيا . وتبين لنا عقلية العلمية إذا نحن قرأنا فقرة من مقدمة كتابه يقول فيها : « ومعنى فلاحة الأرض هو إصلاحها وغرس الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها ، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها ، وإصلاح ذلك وإمداده بما ينفعه ويجوده ، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه ، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والدون منها ، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع منها ، من الشجر والحبوب والخضر ، واختيار النوع الجيد من ذلك ، ومعرفة الوقت المختص بزراعة كل صنف فيها ، وكيفية العمل في الزراعة ، وفي الغرس ، ومعرفة أنواع المياه التي تصلح للسقي ، ومعرفة الذبول وأصلحها ، وكيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غرسها » .

ونتيجة لهذا التناول العلمي للزراعة كان مستوى فلاحة الأرض في بلاد المسلمين

مستوى رفيعاً عالياً ، فقد زرعوا كل أصناف الحبوب والفواكه والحمضيات ، وجلبوا أصول النباتات الاستوائية وزرعوها في بلادهم وجادت على أيديهم ، ومعظم الفواكه التي عرفتها أوروبا — كالبرتقال والشمش والخبث والبرقوق والموز — إنما عرفتها عن طريق العرب ، وعن طريقهم أيضاً عرفوا القطن والأرز والزيتون والزعفران وغير ذلك . وكثير جداً من الزهور الشائعة الاستعمال في أوروبا وصلت إلى بلادهم عن طريق المسلمين . ويكفي أن نذكر هنا الورد بأنواعه والياسمين والدالية والدلبان — التي تعرف باسم تيوب Tulip — وغير ذلك كثير .

فلما تركنا الزراعة وفنونها وانتقلنا إلى الفلاحين ومجتمع الريف وجدنا أن الفلاحين في طول البلاد الإسلامية وعرضها عاشوا في ظروف متماثلة تقريباً ، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماثل الحياة العائلية فيها . ومن المعروف أن المجتمعات الوسيطة في الشرق والغرب كانت مجتمعات زراعية مغلقة على نفسها ، غفى القرن الثالث أو الرابع الهجري / التاسع أو العاشر الميلادي ، كانت الهند والعراق ومصر والشام وما يعرف الآن بإيطاليا وفرنسا ، كلها ، بلاذاً زراعية تتكون من مزارع متصلة وألوف القرى ، أما المدن — بصورتها التي نعرفها في العصر الحديث — فكانت العواصم ، أما بقية المدن فلإنها كانت إذ ذاك قرى كبيرة لا يميزها عن غيرها إلا اتساع مساحتها ، ولم تشذ عن ذلك إلا عواصم الأنهار من مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقروان وفاس وقرطبة وباريس ولندن وروما . فهذه المدن القليلة كانت تقوم فيها مظاهر العمران المدني من قصور شاهجة لأهل الحكم وأهل القوة واللال ومبان لإدارات الحكومة ومساجد أو كنائس فخمة ومعسكرات للحرس والجنود ، تدور حول ذلك كله أسوار عالية ذات أبواب ضخمة .

وهذا العدد القليل من المدن لا يمنع من القول إن المجتمعات الوسيطة كانت مجتمعات زراعية ، وإن الغالبية العظمى من الأهالي كانوا يعيشون في قرى صغيرة متشورة في الأرض نثراً . وكانت هذه القرى كلها مغلقة على نفسها تماماً ، فيندر أن يدخلها غريب ، وقلما يغادرها أحد من أهلها إلا إلى قرية مجاورة ، ونادراً ما كان أهل القرى يزورون العواصم ، وكذلك كان يندر أن يزور أهل المدن تلك القرى إلا إذا كانت لهم أملاك في زمامها أو كانوا جباة ضرائب أو من عمال الدولة . فعاشت القرى حياتها للمغلقة جيلاً بعد جيل ، لا يعرف الناس عن حياتها إلا فكرة عامة عن المحاصيل التي تزرع في الأرض حولها ، ولا تعرف الدولة عنها إلا مقدار

المال الذى يبنى أن يؤديه أهلها ، حتى أصحاب الإقطاعات فى القرية لم يكونوا يعرفون عنها إلا ما يقوله لهم عنها وكلاؤهم ، وقبلما كانوا يقولون الصدق .

وقد كانت هذه الحياة المقفلة سر قوة القرية وثباتها ، فقد ظل التكوين العائلى فيها قوياً يحكم كل ناحية من نواحي الحياة فيها : يصون الأسر من التفكك ، ويحول دون الفساد ، ويعمل على تسيير الأبناء والبنات فى طريق الآباء والأمهات . وفى هذا المجتمع تمسك الناس بالدين والعادات والتقاليد تمسكاً شديداً ، فكان مجتمع القرية أقوى وأثبت من مجتمع المدينة . واحتفظت نواحي العالم الإسلامى بشخصياتها المحلية فى قرأها ، ومضت القرون على القرى وكأنها لا تمضى . ومن الغريب أن عواصف الحوادث أو الثورات والحقن قد تحطم المدن الكبيرة وتقضى على معظم محاسن العمران فيها ، ولكنها تمجز عن القضاء على قرية صغيرة خافية فى بطن الريف أو مسترة فى ليحف جبل ، لأن الغزاة لا يتوقعون عندها ، ولأن أهلها يغادرونها عند الخطر ويختفون فى الأوعار والقفار حتى تنقضى الغارة ، ثم يعودون ليواصلوا حياتهم . ودور القرى البسيطة يسهل إعادة بنائها بكلفة قليلة ، فى حين تعسر إعادة بناء المدينة . وهذه القرى الصغيرة هى التى حافظت على جماهير أُم الإسلام خلال ليل التاريخ الطويل .

والقرى هى التى تغذى المدن بالعنصر البشرى السليم ، فقد كان الطامعون من شباب القرى يارحونها إلى المدن ، طلباً للعلم أو العمل أو فراراً من السأم ومطء وقع الحياة ، وهذا التيار من الهجرة إلى المدن هو الذى يمدد بالعناصر السليمة العفية التى تجدد دم الحياة فيها .

وقد عرف أهل القرى دائماً كيف يدافعون عن كيانتهم وينجون بأنفسهم من مظالم الحكام . وكان لهم فى ذلك أساليب وأخلاق شتى قد يشكو منها أهل المدن ، ولكنها فى الحقيقة وسائل النجاة من مساوئ الحكم وتوازى الزمان ، وما حيلة أهل القرى إذا كان دأب أهل المدن والحكام فى كل زمان ومكان الطمع فى أهل القرى واستضعافهم والنظر إلى ما فى أيديهم ؟

العالم الإسلامى عالم متعلم مثقف ...

العلم والعلماء والكسب والمكبات :

من الخفايا المقررة أن الإسلام حث الناس حثاً شديداً على طلب العلم ، وفى كل كتاب متداول عن فضائل الإسلام تجد المؤلفين ينصون على الآيات الأولى من سورة العلق التى تبدأ بكلمة « اقرأ » ، وتتضمن كلمات « علم » و « يعلم » و « القلم » ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام دين علم ، وأن مجتمعه ينبغى أن يقيم على العلم ، وقد أطلال الناس فى الكلام على هذه الناحية مما يغنيا عن الوقوف عندها طويلا .

وهناك آية أخرى تأمر المسلمين بأن تكون معاملتهم كلها كتابة ، وهى الآية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة ونصها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَمْتُمْ بَيْنَ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ فَابْكُوه ﴾ ، وهى تكمل آية سورة العلق وغيرها من الآيات التى تحض الناس على طلب العلم وترفع قدر العلماء وما يفصلها ويبيها من الأحاديث النبوية الشريفة كقوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ، فإذا فحنت أى كتاب من كتب تراجم العلماء — وهى كثيرة جداً — وجدت صفحات طويلة من أحاديث الرسول — ﷺ — فى الحث على طلب العلم وتكريم العلماء وبيان فضلهم وما ينبغى أن يتحلوا به من صفات وفضائل ومسؤوليتهم أمام الله سبحانه وتعالى .

ولكن آية الأمر بكتابة العقود والاتفاقات والمبايعات لم تغفل عما هى جديرة به من اهتمام الفقهاء ومفسرى القرآن ، مع أنها الأساس الذى قامت عليه ظاهرة من أهم ظواهر المجتمعات الإسلامية وخصائصها المميزة .

ذلك أن هذا الأمر أوجب على المسلمين تعلم الكتابة ، لأنه ما من إنسان إلا يتابع أو يتعاقد ويعقد الاتفاقات على طول حياته مهما كان ذلك قليلا ، ولا ندرى ما السبب فى أن الفقهاء لم يستجروا هذا الحكم من الآية الكريمة ، والأغلب أنهم اعتبروا تعلم الكتابة فرض كفاية ، فما دام فى الأمة من يقرأ ويكتب فهو يغنى عن الباقين .

والحق أن تعلم القراءة والكتابة فى الماضى كان عسيرا كل العسر ، ثم إنه كان

قليل الفائدة إلا أن اشتغل بالعلم أو بوظائف الدولة أو تولي الولايات أو كان تاجراً يحتاج إلى الكتابة كل يوم . أما الفلاح في أرضه فقد تقضى الأعوام دون أن يحتاج إلى كتابة ورقة أو قراءة وثيقة ، وشبه بذلك العامل الصغير في مصنعه والتاجر صاحب الدكان المتواضع أو الجالس في السوق بشيء من بضاعة تسد حاجاته ، أما ما نهم نحن به اليوم من الاطلاع وقراءة الكتب فما كان يقبل عليهما إلا المشتغل بالعلم أو الميسور الحال الذي يستطيع شراء الكتب ، ثم إن الكتب كانت قليلة وغالية وما كان يستطيع اقتناءها إلا من ملك مالا زائداً على حاجته ينفقه في هذا الترف . أضف إلى ذلك أن القارئ الكاتب إذا انقطع عن القراءة والكتابة زمناً طويلاً أو شك أن ينسى ما تعلم ، وهذه كانت حالة الغالبية العظمى من السكان ، فما كانت تهمس حاجتهم إلى كتابة شيء أو قراءة ورقة إلا في النادر ، ولهذا لم يكن الناس يحرصون على التعلم .

ولكن الأمر بكتابة كل اتفاق أو مبيعة أو دين جعل من الضروري أن يكون في كل جماعة من المسلمين من يقرأ ويكتب ، فلم يكن يخلو بيت في مدينة من عدد من الذين يكتبون ويقرأون ، وما حلت قط قرية من عدد منهم . وفي العصر الذهبي للحضارة الإسلامية — الذي امتد من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر الخامس الهجري — تزيد إقبال الناس على العلم والعمل ، وقامت الدول المحلية الكثيرة واحتاجت إلى موظفين يعملون في إدارتها ، فكثر المتعلمون كثرة زادت على الحاجة . وفي كتابات أدباء هذا العصر تتردد الشكوى من كثرة المتعلمين العاطلين ولحاحهم على رجال الإدارة في طلب العمل ، وفي مقامات أبي القاسم الحريري مقامة نشرح كيف لجأ واحد من أولئك المتعلمين للعاطلين إلى حيلة بالغة في التعقيد ليحصل على عمل ، وذلك بسبب زيادتهم على حاجة المجتمع زيادة كبيرة .

وعلى الرغم من تلك الزيادة فإن المتعلم كان له دائماً مركز ممتاز في المجتمع ، فسواء أكان غنياً أم فقيراً ، صاحب عمل أم متعطلاً ، فإنه كان دائماً موضع احترام وتوقير ، ونتيجة لحث القرآن على التعلم وعلى إحادة القراءة والكتابة على الأقل نجد أن المتعلمين في كل مكان كانوا سادة الناس وأصحاب الرأي فيهم ، ولهذا فقلما نجد مسلماً يطمح إلى تعليم ابنه ، وبخاصة إذا كانت فرصة التعليم قد فاتته هو ، أما كبار الشيوخ والقضاة والفقهاء فكانوا بالفعل رؤساء الجماعات الإسلامية وقادتها .

في تلك العصور كان التعليم في أوروبا نادراً ، فيها كان هارون الرشيد يعد من أجلة العلماء — إلى جانب مركزه السياسي الديني — وينظم شعراً جميلاً يجعله في عداد المجيدين من الشعراء ، وكان قصره منتدى لأهل العلم والأدب من كل مشرب ، كان معاصره شارلمان لا يعرف من القراءة والكتابة إلا رسم اسمه حيث يعينون له فيما يقدمون له من وثائق الدولة . وكان معظم رجال دولته وكبار فرسانه مثله ، وعندما تحدث « أنشودة رولان » بفضائل رولان بطل تلك الملحمة الذائعة الصيت تذكر أنه كان يقرأ ويكتب ، كأن ذلك كان شيئاً نادراً ، وبينما كانت الكتب متداولة في الأيدي في كل مكان في بلاد الإسلام لم تكن توجد في الغرب إلا في الأديرة .

وقد كان التعليم — كما قلنا — مسئولية الشعب لا الدولة ، فكان الناس يحرصون على أن يكون في شارعهم أو حيهم أو قريتهم كتاب أو أكثر يقوم بالتدريس فيه فقيه يعيش مما يتقاضى عن التعليم ، وكان الفقهاء المعلمون كثيرين جداً في كل مكان ، حتى كانوا أشبه بطبقة خاصة من الناس لها خصائصها ولباعها . وقد سخر منهم الجاحظ في كتاباته وحمل عليهم ابن حوقل في رحلته المعروفة بصورة الأرض ، ولكن أبو حيان التوحيدي تصدى للدفاع عنهم وحمل على خصومهم ، وأثنى عليهم ابن حزم وقال إنه مهما بدر منهم من أخطاء فإن الله سيبيهم عن سعة بما يعلمون الصبيان قراءة القرآن ، والكثيرون جداً من كبار الشعراء وأهل الأدب ورجال السياسة بدأوا حياتهم معلمين ، لأن مهنة التعليم كانت تضمن المعاش لصاحبها ولو أن هذا المعاش كان دائماً ضئيلاً ، إلا إذا أسعد الحظ المعلم فقام بالتدريس لأبناء رجل من علية القوم أو أهل السلطان ، فيكون ذلك سبيله إلى الخلاص من فقر المهنة والدخول في وظائف الدولة والصعود فيها .

وإذا كان المعلمون بهذه الكثرة فلا بد أن المتعلمين كانوا كثيرين جداً ، وبالفعل ندر أن يكون هناك تاجر متوسط الحال قما فوقه أو صاحب وظيفة أو رجل ذو مال إلا علم أولاده وأرسلهم إلى الكتاب أو أتي لهم بالمؤدين في البيت ، ومع أن هذا التعليم كان يقتصر على تحفيظ القرآن أو جزء منه والقراءة والكتابة والحساب إلا أنه كان يفتح الباب أمام الصبي ذى الاستعداد لكي يسير في طريق العلم بعد ذلك ، إذا كانت له رغبة .

وكانت العادة أن الطالب الذى يأنس في نفسه القدرة على الاستمرار في الدرس يتجه — بعد إقناع القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومعرفة الحساب — إلى المساجد الكبرى في أقرب مدينة إليه ، وهناك يجتهد الشيوخ يقرؤون على تلاميذهم ، فيجلس في حلقة من يختاره منهم ويواصل دراسته ، ثم ينتقل إلى العاصمة ويستمر في دراسته حتى يبلغ من العلم ما يريد . ولا ننسى على وجه التأكيد هل كان الطلاب يؤدون إلى الشيوخ مالاً أولاً يؤدون ، مقابل الدراسة ، ولكننا وجدنا — على أى حال — ما يدل على أن بعض الشيوخ كانوا يتقاضون أجراً عن كل كتاب يقرأه الطالب عليهم ، بل من الشيوخ من جمع مالاً له شأن من إلقاء التلاميذ .

وجدير بالذكر أن هذا النظام — على بساطته وعفويته — كفى حاجة المجتمع من العلم ، فقد خرج علماء ممتازين ما زلنا نفخر بهم ، وقد سارت بهم الحركة العلمية سيراً متفقلاً قروناً طويلة ، على الرغم من أنه لم تكن هناك سلطة حكومية أو غير حكومية ترعاه وتنظم شئونه ، فما كان في نظم الحكومات في تلك الأيام رجال مسئولون عن العلم والتعليم ، ولا وجدت في عالم الإسلام هيئات تشرف على العلم والتعليم كما كانت الكنيسة الكاثوليكية — مثلاً — تشرف على العلم بل تموله عن طريق الأديرة وهيئات الرهبان مثل الجيزويت (اليسوعيين) والفرنسيسكان والدومينيكان ومن إليهم ، وكانت البابوية قيمة على العلم فكان يختص به واحد من الكرادلة . وكانت البابوية والأديرة تجمع المال للتعليم ، ومع هذا كله فما وجدت المدارس في الغرب إلا بعد القرن العاشر الميلادى ، وما كان يلتحق بها إلا الراغب في الانضمام إلى سلك الرهبان ، ولم يكن يتعلم إلا أبناء عليّة القوم من أدواق وأكناد (جمع كُند وهو الكونت) وبارونات ، أما بقية الناس فما كان أحد منهم يحرص على علم أو تعلم ، بل ما كان يحتاج إلى ذلك أصلاً لأن قس كنيسه كان يقوم له بما يريد من القراءة والكتابة .

لهذا نقول إن العلم كان من خصائص الجماعات الإسلامية ، فقد حفلت بالعلم والعلماء من كل مستوى وفرع ، وعلى الرغم من أن الناس لم يكونوا يكسبون من الكتب إلا الذكر الطيب ، فقد غاض عللنا بالكتب ولؤلؤات القيمة ، وجدير بالذكر أن رجلاً مثل محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ والتفسير لم يتفاض شيئاً عن كتابيه العظيمين هذين ، ومع هذا فما كان يترك يوماً يمضى دون أن يكتب عدداً

من الصفحات قرره على نفسه كأنه فريضة أو دين للمجتمع . وكذلك عز الدين ابن الأثير صاحب التاريخ الخفيل ومعجم الصحابة العظيم القيمة ، ما كسب درهما من شيء كتبه . وقُل مثل ذلك في عامة المجتهدين من المؤلفين ، بل إن أحد علماء الأندلس ألف كتاباً في القراءات ، فأرسل إليه أمير ناحيته ألف دينار جائزة وطلب إليه أن يضيف في فاتحة الكتاب ما يفهم منه أنه ألف هذا الكتاب للأمير مجاهد العامري فرفض الرجل ورذ المال وقال إنه لا يستطيع أن يكذب ، ضاً ألف الكتاب لهذا الرجل أصلاً .

ويدهش الإنسان — لهذا — من اهتمام الكثيرين جداً بالتأليف رغم قلة ما كان يؤتيه من كسب مادي ، ولا يعلل هذا إلا بشغف شعوب الإسلام بالعلم وإيمانهم به ، فما تركوا ناحية إلا ألغوا فيها الكتب الكثيرة ، وإذا افترضنا أن الناس كانوا يكسبون شيئاً من المؤلفات في العلوم التي يكثر عليها إقبال الناس — كالفقه والحديث والتفسير والشريعة واللغة والأدب — فما الذي كسبه الأزرقي مثلاً من تأليفه في « تاريخ مكة » ؟ ، وما الذي أفاده السهمودي من كتابه في « تاريخ المدينة المنورة ومشائها » ؟ ، وماذا كسب ابن حوقل من وصف رحلته للسماة بصورة الأرض ؟ ، أو ابن حزم من « طوق الحمامة » — وهو كتاب في الحب وطبيعته — أو من كتاب « جبهة أنساب العرب » وهو كتاب ضخيم ومجهد في أنساب القبائل العربية ؟ ! أو ماذا أفاد سليمان بن جليل من كتابه في « طبقات الحكماء » ؟ ! أو ابن صاعد الأندلسي من كتابه المسمى « طبقات الأمم » وهو كتاب فريد في تاريخ العلوم عند أهل الأرض ؟ !

لا شيء غير العناء ، فما كانت هناك حكومة ملكة لتعوض الأزرقي عن تعب ، ولا بلدية للمدينة تكافئ السهمودي ، وما كانت هناك جمعية جغرافية أو أكاديمية تكافئ الجغرافيين والرحالة على عملهم ، وهكذا . بل الثابت أن الكثير من هذه الكتب جلبت المتاعب لأصحابها ، لأن الناس لم يكونوا يحسنون الظن بمن يدرسون شيئاً غير علوم الدين واللغة ، ويرون في الطب والفلك والرياضيات والفندسة مروقاً عن الدين وخروجاً عن طريقه ، حتى لقد أودى ابن رشد بسبب انصرافه إلى شرح فلسفة أرسطو ، واضطر ابن سبعين إلى الانتحار عندما تزايد الشك في إيمانه بسبب كلامه في الفلسفة والمنطق ، رُمي علي بن يونس الفلكي الرياضي بالجنون ، وعوقب الحسن بن الهيثم لاشتغاله بعلم الطبيعة والبصريات ، وغير ذلك كثير . ومع ذلك

فقد ألف أولئك الرجال — وغيرهم كثيرون — في العلوم والرياضيات غير مبالين بالمعقوبة ، لأن إيمانهم بالعلم كان أقوى من إرهاب الناس .

وإذن فقد كان عالم الإسلام يحب التعليم ويقبل عليه ، ويكرم العلماء ويوفرهم ويرفعهم إلى مراتب القادة والزعماء ، وكان عالماً يؤمن بالعلم ، يخلص الناس فيه للعلم ويطلبونه ويتحملون متاعبه وتضحياته — وأخطاره أحياناً — دون تردد . فنحن نقرأ لبعضهم كلاماً لا نجري نحن على قوله اليوم ، برغم ما نقول من أننا في عصر الحرية والنور ، وأين رجل كابن خلدون يقول في العرب هذا الكلام الذي نجهده في مقدمته ؟ ولكن ابن خلدون قاله غير هيب ، لأنه أراد أن يبين به قومه إلى عيوبهم ليتلافوها ، فهو يحب العرب ولهذا أهمه أمرهم ومضى يبحث في شئونهم ويقول ما يؤمن به دون حرج ؛ ومثل هذا لا يصدر إلا عن رجل يؤمن بالعرب أولاً ثم يؤمن بالعلم ثانياً ، ولو لم يكن يحب العرب لما عناه أمرهم وما كلف نفسه مشقة تقديمهم وتوجيههم . ولا غربة في ذلك فقد كان ينحدر من أصل عريق عريق ترجع جذوره إلى حضرموت ، ثم هاجر أهله إلى الأندلس ونزلوا لإشبيلية وكان لهم فيها شأن كبير ، وولد هو في تونس سنة ١٣٣٢ م في عصر عصيب مليء بالأخطار ، فجاب أقطار عالم الإسلام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولقى في المشرق قسور الملك وفي الأندلس الملك بدرو القاسي ملك قشتالة الذي كان يجتهد في القضاء على غرناطة ، وعمل الرجل في غرناطة والمغرب وتعقبه خصومه فعاش في ظلال الخوف زمناً طويلاً . وفي أثناء فترة حرب فيها إلى واحة بسكرة — في الجزائر الحالية — كتب مقدمته التي تعد من روائع الكتب في تاريخ الفكر البشري . ولم يأمن إلا في السنوات الأخيرة من عمره ، حيث استقر في مصر وتولى قضاء الجماعة للمذهب المالكي حتى توفي معزاً مكرماً سنة ١٤٠٦ م .

وابن خلدون واحد من هؤلاء الأفاضل الذين وصلوا إلى القمة في فروع العلم في العصور الوسطى كلها في الشرق والغرب على السواء ، وهو يحمل لواء التاريخ والاجتماع ، وبضاهيه في ذلك أبو زكريا الرازي في الطب ، وأبو علي ابن سينا في الطب والفلسفة ، والشريف الإدريسي في الجغرافيا ، وأبو بكر الخوارزمي في الرياضيات ، والحسن بن الهيثم في الطبيعة والبصريات ، وأبو القاسم الزهراوي في الجراحة ، وأبو زكريا العولم في النبات ، وابن التيناء في الحساب ، وأبو الريحان

البيروني في التاريخ القديم والآثار ، ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل في الفقه ، وغيرهم كثيرون .

أضف إلى ذلك الموسوعيين الذين نهضوا وحدهم بتأليف موسوعات في فروع شتى من العلم ، كابن سينا الذي ألف كتاب الشفاء واختصر كل جزء منه بعلم من العلوم ، وأبو الريحان البيروني الذي ألف وأبدع في كل علم تقريباً ، والموسوعيين الثلاثة ابن فضل الله العمري والنويري والقلقشندي ؛ وأصحاب المعاجم ونكتفي بأن نذكر منهم هنا اثنين : ابن منظور الأفرنجي المصري ، محمد بن مكرم (١٢٣٢ — ١٣١١) صاحب « لسان العرب » ومحمد بن محمد مرتضى الزبيدي ، صاحب « تاج العروس » (١٧٣٢ — ١٧٩١) ، وكل من هذين المؤلفين معجم ضخيم جامع شامل للغة العربية ، وقد قام كل من هذين الرجلين بعمل لا ينضب مثله اليوم إلا انجماع اللغوية التي يعمل فيها عشرات العلماء .

وقد ألوع المسلمون باقتناء الكتب وتنافسوا في ذلك حتى كان أثاث البيت لا يكمل إلا بمكتبة ، وقد أتفق بعض الناس في اقتناء الكتب ثروات طائلة . وقد ضمت المكتبات العامة في بغداد بضعة ملايين من المجلدات أهلك معظمها هولاكو قائد المغول . وقل أن نجد مدينة في عالم الإسلام لا توجد فيها مكتبة عامة ، وكانت المساجد تقوم بهذه الوظيفة ؛ فكان الأمراء وأفراد الشعب يشترون الكتب ويودعونها خزائن الكتب في المساجد ويوقفونها للاستعمال العام . وعلى الرغم مما أصاب الكتب العربية من الكوارث على يد المغول من ناحية والإسبان من ناحية أخرى والحرائق من ناحية ثالثة وما لا بد أن يصيب الكتب من السرقة والتلف والفساد واقتراض الأرضة (وهي حشرة تأكل ورق الكتب) من ناحية رابعة فقد بقي لنا من المخطوطات العربية ما يقرب من ثلاثة ملايين في المكتبات العامة ، غير ما يحتفظ به الناس في بيوتهم . هذا ولم تخلف العصور الوسطى الأوروبية من المخطوطات إلا ما لا يزيد في مجموعه على خمسين ألفاً . وقارن بين هذين الرقمين تجد بين يديك دليلاً شاهداً يؤكد ماقلناه من أن عالم الإسلام كان عالم علم ونور^(١) .

(١) انظر — [إلا هذه الفترة من العلم والتعليم في عالم الإسلام — الفترة الحامية بالمسلمين والعالم للحارسي من هذا الفصل .

سلامة الأسرة في المجتمع الإسلامي :

وللقرى وأهلها وحافظتها يرجع جانب كبير من الفضل في المحافظة على الأسرة الإسلامية تماسكة سليمة من الآفات . فالحن المتوالية التي هزت كيان المدن وأهلها والغارات الكثيرة التي نزلت بالعالم الإسلامي ، وما نتج عنها من القضاء على الأئوف التي لا تحصى من السكان ، وما صاحب ذلك من قتل الرجال أو أسرهم وسبي النساء ليعهن بعد ذلك رفيقا ، كل هذه عرّضت الأسر في المدن لزعزعة كبيرة . ويكفي أن نتصور ما أصاب المدن الإسلامية من جراء أهوال غارات المغول وما أنزلوه بالبلاد من المذابح وما أحرقوه من الدور وما شردوا من الأسر ، ويكفي كذلك أن نفكر فيما أصاب مدن الشام وشمال العراق نتيجة لتوغل الصليبيين فيها وسيطرتهم عليها وانتهاكهم للحرمت ومحاولتهم ذلك حتى تكون لدينا فكرة واضحة عما أصاب مجتمعات المدن خلال العصور الوسطى عندنا من أذى وغريب وما حل بالأسر نتيجة لذلك .

وهما يجدر أن نشير إلى الأوبئة والمجاعات التي اجتاحت بلاد الإسلام في القرون الوسطى المتأخرة ، فالوباء الأسود الذي طاف ببلاد الإسلام في القرن الخامس عشر احتل معه من أهل الشام ومصر والعراق ثلثهم ، وأصبحت البلاد بعد ذلك بأوبئة أقل مدى من ذلك ، هلك فيها الأئوف بعد الأئوف ، حتى كادت المدن تحرب . ومن المعروف أن بلاء الأوبئة أو المجاعات يكون في المدن أكثر منه في الأرياف ، بل كانت العادة عندما ينزل الوباء أن يهرب الناس إلى الأرياف . فلو أن مستقبل العالم الإسلامي توقف على أهل المدن لكانت حالته في نهاية العصور الوسطى تدعو إلى اليأس من بعث جديد . ولكن القرى ومزارع الريف احتفظت بكثرة السكان سليمة وحافظت على كيان الأسر . ففي أواخر القرن الثامن عشر لم يزد سكان الشام على مليون نسمة ، معظمهم كان في القرى والأرياف ، ومثل ذلك يقال عن فلسطين التي لم يكن قد بقي من سكانها إلا مائتا ألف ، ومصر وقد هبط سكانها إلى أقل من ثلاثة ملايين .

ولقد تحطمت تحت وطأة مثل هذه الحن شعوب كثيرة في العصور القديمة والوسيلة ، كما نرى في انهيار المجتمعات في الصين والهند الصينية والهند مرة بعد مرة ،

وانحلال المجتمع قروناً متطاولة حتى تناح الفرصة لإعادة التكوين ، أما أم الإسلام
فمهما حل بها من النكبات فإن كيانها الاجتماعي يظل ثابثاً ، متاسكاً ولقد انهار
المجتمع الروماني تحت ضربات الشعوب المتبريرة التي غزت الإمبراطورية الرومانية منذ
القرن الرابع الميلادي ، أما عالم الإسلام فلم تنفكك وحدة مجتمعه تحت ضربات
مغول جنكيزخان وهولاكو وما فعلوه في إيران والعراق والشام ، وهو يفوق بكثير
ما فعله للتيربرون من قوط وندال وفرنجية وغيرهم يبلاد الدولة الرومانية .

والسبب في ذلك هو أن الخلايا التي يتكون منها المجتمع الإسلامي — وهي
الأسر — خلايا قوية متاسكة تستعصى على الفساد ، لأن الإسلام يحصن الأسرة
بضمانات تحميها من التفكك ، وهو يقدم لها تشريعاً سليماً يحفظ حقوق كل فرد
فيها ويصون حقوق الأولاد والزوجات في حالات وفاة العائل أو في حالات الطلاق .
فقبل الإسلام مثلاً كان بعض الناس يقتلون أولادهم حشية العجز عن القيام
بشؤونهم ، فنهى الإسلام عن ذلك ، وذكر الناس بأنهم ليسوا هم الذين يرزقون
أولادهم وإنما هو الله سبحانه وتعالى ، وكان الرجل قبل الإسلام إذا مات وضع أخوه
أو إخوته أيديهم على تركته وأصبحت الأرملة والأولاد تحت رحمة المقادير ، فأوقف
الإسلام ذلك وصان حقوق الأرملة والأولاد ، وحدد لها بكل دقة . وكان الرجل
قبل الإسلام إذا أراد فراق زوجته أرسلها إلى بيت أهلها وانتهى الأمر عند ذلك ،
فنهى القرآن مرة بعد مرة على علاقات المودة والوفاء بين الزوجين . وثبّن للناس
أن الزواج ليس صفقة تعقد ثم تنفض وفقاً لمزاج الرجل ، بل هو رباط مقدس
ومسئولية الرجل فيه لا تنتهي عند عدم رغبته في استمرار الحياة الزوجية ، وجعل
الزواج جزءاً من النظام العام للمجتمع الإسلامي ، وألزم للمسلم الصالح يسلك فاضل
واضح في حياته اليومية ، ونهى الناس أشد تنبيه على ضرورة العناية بالأولاد وتحتيتهم
لبناء مستقبل سعيد لهم ، حتى أصبح من المسلّم به في كل جماعة إسلامية أن الجماعة
رفقية على الحياة الزوجية لأفرادها مسئولة عن سلامتها ، وكل من عاش في القرى
الإسلامية في أى مكان يشعر بالقوة العظيمة التي تتمتع بها الأسر ، بفضل عناية
المجتمع بالمحافظة على الأسرة وتسييرها وفق ما يقضى به الشرع الإسلامي وما تستلزمه
المروءة الإسلامية . ولقد دخل الإسلام المغرب مثلاً ، فوجد الناس مستعدين لبيع
من أحبوا من أولادهم لأداء الجزية أو لسداد الدين . وكان ذلك عادة عندهم ،
فتوقف ذلك بعد دخول الإسلام ، ولم نعد نسمع به بعد ذلك أبداً . وفي كل

المجتمعات الآسيوية خلال العصور الوسطى كان بيع البنات أو إهداؤهن أو المقايضة بين أمراً مألوفاً ، إلا في المجتمعات الإسلامية ، فحيثما أسلم الناس سلمت الأسر ونجحت البنات والنساء من مهانة البيع وذل الاسترقاق .

وقد ضرب الرسول ﷺ — بحياته الخاصة أصدق المثل على المحبة العائلية ورعاية الأقارب وذوى الرحم ، ونص القرآن الكريم على أن الفقراء من ذوى القرى يدخلون في نطاق من يستحقون الصدقات ، وتوسع الرسول ﷺ في ذلك ، حتى أجاز إنفاق الجانب الأكبر من الصدقات على المحتاجين من الأهل . وأصبحت حقوق أفراد الأسرة بعضهم على بعض جزءاً لا يتجزأ من الأساس الخلقي الإسلامي العام . وأصبحت رعاية الأسرة والبر بها - زعماً من إسلام الرجل ، ومن ثم فقد اكتسبت الأسرة في المجتمع الإسلامي قوة لا مثيل لها في غيره من المجتمعات ، وبلغ الأمر أن أصبحت رعاية الأسرة وتربية الأولاد والقيام بشئون الوالدين المسنين واجب الرجل الأول بل الوحيد في أحيان كثيرة . وفي نواحي العالم الإسلامي كله يعيش الآباء لأولادهم فحسب ، ويضحي الناس بأموالهم في سبيل أقرابهم . وهذا لا تجده في أي مجتمع آخر . ولم تقتصر مسؤولية الأب عن الأولاد على سن الطفولة أو الصبا ، بل هي امتدت حتى شملت حياة الأولاد كلها حتى بعد أن يكبروا وتصور لهم أسر .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان للأسرة الإسلامية من فضل في المحافظة على سلامة المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، ونضيف أن ذلك أتقذ البلاد الإسلامية في نواح شتى من التفكك والضياع في العصور الحديثة . وأظهر مثال لذلك الجمهورية الجزائرية التي نزل الفرنسيون بلادها سنة ١٨٣٠ م ، ولم تخل سنة ١٨٥٠ م حتى كانوا قد حازوها كلها وبسطوا عليها سلطاناً سياسياً فرنسياً خالصاً ، وأحلوا قوانينهم محل شريعة الإسلام ، وحاولوا قدر ما استطاعوا اجتذاب الناس إلى القوالب الاجتماعية الفرنسية ، وبخاصة في تنظيم الأسرة . ولكن الأسر الجزائرية رفضت أن تستجيب لهذه الدعوة ، وصانت أولادها من إطلاق العنان في التعارف والتجاشي والرفص وما إلى ذلك . ولقد زين الفرنسيون للناس التشريعات الفرنسية بكل سبيل ، وعلى الرغم من السيطرة الفرنسية السياسية الكاملة ، فإن المجتمع الجزائري ظل إسلامياً سليماً متماسكاً ، لأن الخلايا الأسرية كانت سليمة ، فمرت بها عواصف الاحتلال الفرنسي ومضت غير مخلفة أثراً . وكان ذلك من أقوى الأسباب في عجز

الفرنسيين عن الاحتفاظ بسلطانهم على الجزائر ، وفي تمكين هذه البلاد الإسلامية من استعادة استقلالها .

وقد تبين من دراسة تفاصيل ثورة التحرير الجزائرية ، التي استنفذت من برائن الاستعمار بلداً يعد اليوم من مفاخر الجماعة الإسلامية الكبرى ومن أهم دول البحر الأبيض المتوسط ، أن جانباً كبيراً من الفضل في احتفاظ ذلك الشعب بشخصيته الإسلامية العربية ، برغم كل ما حاوله المستعمر للقضاء على هذه الشخصية ، يرجع إلى المرأة الجزائرية المسلمة التي تمسكت بالإسلام في قوة وإيمان عميقين ، فلم يجرفها تيار المدنية الفرنسية ولا خدعها بريق الحضارة الأجنبية ، فما أسرفت في زينة ولا ضربت بتقاليد شعبها عرض الحائط ، بل احتفظت بأداب الإسلام وأقبلت على أولادها تعلمهم الصلاة والصيام وتحفظهم ما تيسر من القرآن الكريم وتقص عليهم ما تعرف من سيرة الرسول ﷺ ، فنشأ الأولاد جزائريين مسلمين ، يؤمنون بمجد أمتهم وبأن الإسلام الجليل يوجب بهم أن يخلصوا وطنهم من سيطرة الأجنبي المحتل ، وعلى هذا ثبتوا حتى استقل وطنهم .

مراتب الناس في المجتمع :

قلنا إن المجتمعات الإسلامية كانت مجتمعات تخلو من الطبقات الاجتماعية المتمايزة المتحاجة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يكون في الناس أغنياء وفقراء ، وموهوبون وغير موهوبين ، وأصحاب جاه وضياء ، ومتعلمون وغير متعلمين . فنشأ عن ذلك مالا بد منه من اختلاف الناس بعضهم عن بعض وتفاوت حظوظهم من المكانة في المجتمع . وظهر نوع من التصنيف الاقتصادي والفكري للناس هو الذي يعنيه مؤرخونا عندما يتحدثون عن « أقسام » الناس أو « طوائفهم » . فيقول المقرئ مثلاً ، في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » : إن الناس بإقليم مصر — في الجملة — على سبعة أقسام :

القسم الأول : أهل الدولة ،

القسم الثاني : أهل اليسار من تجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة ،

والقسم الثالث : الباعة ، وهم متوسط الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب

البر » ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ،

والقسم الرابع : أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرف ، سكان القرى والريف ،

والقسم الخامس : وهم جُلّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ،

والقسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن ،

والقسم السابع : ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السوّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

وهذا — كما هو واضح — تقسيم للناس بحسب حرفهم وصناعاتهم أو بحسب مستوياتهم الاقتصادية ، فهو ليس تقسيماً إلى طبقات اجتماعية ، فالمعروف أن المال يروح ويجيء ، وكذلك السلطان والقوة ، فقد يكون رجل غنياً اليوم وفقيراً غداً ، وقد يكون صاحب وظيفة وسلطان في يوم ثم يفقد ذلك في يوم آخر .

وأما الطبقات الاجتماعية — كما نعرفها في المجتمعات الأوروبية والآسيوية — فتعبر مستويات من الناس لا يختلطون بغيرهم مهما اختلفت ظروفهم المالية أو مراكزهم الرسمية . ففي المجتمع الأوروبي الوسيط مثلاً يظل الدوق أو الكونت أو الماركيز شريفاً نبيلًا ولو كان مفلساً ، وهو مهما بلغ إفلاسه لا يتنازل بمصاهرة غيره من أهل الطبقات التي يراها أدنى منه مهما بلغوا من الثروة .

وأما هذه التقسيمات في المجتمعات الإسلامية نجدها عند من تعرضوا لدراسة المجتمع من كتّابنا مثل عبد الرحمن بن خلدون في « المقدمة » وأبي الحسن الماوردي في « الأحكام السلطانية » وعبد الوهاب السبكي في كتاب « معيد النعم وميد النعم » . وخلاصة كلامهم جميعاً في أمر تقسيم المجتمع هو أن المراتب العليا خاصة بالخلفاء والسلطين ويلهم جماعة الوزراء وكتاب ديوان الإنشاء والقواد ، ثم يجيء بعد ذلك مياسير التجار ، ثم الفقهاء والقضاة والشعراء ، ثم نل ذلك طبقات العاملين من الصناع وصغار التجار والكارين والملاحين ومن إليهم وقد يلحق بهم صغار الجند ، وفي بعض الأحيان يضيفون إليهم المحسولين .

وإذا نحن تأملنا هذا التقسيم تبين أن مولزين الناس في العصور الوسطى كانت تعطى الصدارة للطبقات غير المنتجة وتحمل الطبقات المنتجة في آخر السلم ، فإن الخلفاء والسلطين والوزراء والقواد وكتّاب دار الإنشاء غير منتجين من الناحية

الاقتصادية ، وإنما هم — في أحسن حالاتهم — منظّمون لإنتاج الآخرين . وقد أدخلنا فيهم القواد ، لأن قواد تلك العصور كانوا حُماة البيوت الحاكمة قبل أن يكونوا حُماة أوطان ، وبخاصة في العصور المتأخرة ، ولهذا فقد كان أولئك المحاربون في جملة أهل الطبقات الممتازة غير المشجعة والتي تعيش على عمل الطبقات المنتجة . وهذا الكلام لا ينطبق على الدول ، في أول نشوئها وعلى المجتمعات البدوية . فأما الدول الجديدة فسلطانيها ومحاربوها في نشاط وعمل دائمين ، لأن الدولة كلّها في دور التأسيس ، وأما المجتمعات البدوية فلم تعرف المراتب أو الأقسام الاجتماعية ، بل لم تعرف توزيع الأعمال ، فكل أفراد القبيلة من البدوى البسيط إلى رئيسها متساوون من حيث النصيب في العمل أو المستوى الاجتماعي .

ومهما قرأنا في صحف التاريخ عن امتياز بعض الناس على بعض أو تسلطهم على غيرهم في المجتمعات الإسلامية بحكم سلطانهم السياسي أو مركزهم الاجتماعي ، فإن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال امتيازاً إنسانياً ، ولا يعنى أن الذين يعلنون أنفسهم ممتازين كانوا يمارسون على الناس أى حق من حقوق الامتياز أو السيادة ، حتى السلاطين والخلفاء لم ينظر الناس إليهم قط على أنهم أفضل منهم ، وإن كانوا يخافونهم أحياناً ويطيعونهم في معظم الأحيان . وبدهى أن مرجع ذلك إلى الإسلام الذى سوى بين الناس تسوية حقيقية وجعلهم في مرتبة واحدة أمام الله سبحانه وتعالى ، وهذه ناحية واضحة كل الوضوح ، فلا نحتاج منا إلى تفصيل أكثر .

المراة فى المجتمع الإسلامى :

عند النظر في مركز المراة فى المجتمعات الإسلامية ينبغى أن نفرق بين أحكام النساء فى الإسلام وتصرفات المجتمعات الإسلامية حيال المراة . فمن الواضح أن الإسلام سوى بين الرجل والمراة فى الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية ، وإذا كانت هناك فوارق فى نصيب كل منهما فى الموارث أو فى أحكام الزواج فإن لهذه كلها أسبابها ومنطقها الواضح الذى نجله مشروحاً بجلاء فى كتب المتخصصين فى الشريعة الإسلامية . وفيما عدا ذلك لا فوارق بين الجانبين .

أما حجاب المراة وحجزها فى البيوت ووضع القيود عليها فظواهر اجتماعية تحتاج منا إلى توضيح موجز هنا .

ففى عصر النبى — ﷺ — لم يكن هناك حجب للمرأة أو حبس لها فى البيت وقصر لها على أعمال محدودة معظمها فى خدمة الرجل نفسه أو فى خدمة البيت . فقد كانت المرأة تعمل فى الميدان إلى جانب الرجل ، حتى فى حروب النبى — ﷺ — نسمع أن النساء ، مثل أم عمارة الأنصارية وغيرها ، كن يخرجن إلى الميدان لا لتضميد الجرحى فحسب بل للاشتراك — أيضاً — فى الحرب الفعلية . وفى معركة أحد كانت أم عمارة هى أول من ثبت إلى جانب النبى ﷺ وحارب معه حتى تجمع المسلمون حوله من جديد . وفى معركة الأحزاب أقامت صحابيات كرميات حجاباً لإسعاف الجرحى ، وكن طول الوقت غاديات رائحات فى إسعاف الناس بالماء والعلاج والدواء . ولدنيا نص يثبت أن عمة النبى ﷺ صفية بنت عبد المطلب اشتركت فى القتال الفعل بنفسها ، وكانت عمات الرسول ﷺ ، وبخاصة صفية التى ذكرناها وأروى وعاتكة بنات عبد المطلب يعملن بنشاط بالغ فى مكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكان لهن نصيب عظيم فى تمهيد مكة للإسلام . وإذا كان هناك شك فيما قام به العباس بن عبد المطلب فى هذه الفترة فى خدمة الجماعة الإسلامية فإن ما قامت به هؤلاء السيدات الجليلات لا شك فيه ، ولهن النصيب الأوفى فى تهية نفوس المكين لقبول الإسلام . وتدل الأحاديث الكثيرة على أن النساء كن يدخلن على الرسول ﷺ ويسألنه ويأخذن مكانهن فى مجلسه ، وفى أسواق المدينة كانت السيدات يرحن ويقفون فى قضاء حوائجهن فى كمال تام وحرية كاملة ، حتى بعد نزول آية الحجاب^(١) . ومن الواضح أن آية الحجاب نزلت فى نساء النسي ﷺ خاصة ، فهى وما يليها كلها موجهة إليهن دون غيرهن ، نظراً لمكانتهن الخاصة فى الجماعة الإسلامية .

أما الآيات الأخرى التى توجب الحجاب — فى رأى مجتمع العصور الوسطى — فليس فيها أمر واضح بتغطية الوجه : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُدْرِكْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾^(٢) ، لأن الزينة ليست قطعاً الوجه ، وكذلك الجلب لا يعنى الوجه أيضاً . فالأمر هنا خاص بالكمال والحشمة وعدم الترخص فى اللبس أو لبس الزينة

(١) الأحزاب ، آية ٥٣ .

(٢) النور ، آية ٣١ .

المتيرة ، إلا في حضور من لا يتخشى عدوانه من الرجال . أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَمُؤْمِنِينَ يُذْنِبِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِضْنَ فَلَا يُوْذَنَ ﴾^(١) فهو أمر خاص بالتقاليد الاجتماعية في المدينة ، لأن الجوارى والإماء كن يتعرضن فیرسلن ملابسهن في السير ، فربما انكشف بعض الجسد ، فكانت الحرائر والمقاتل ونساء الأمر المحترمة وبناتهن يضمنن ملابسهن على أجسادهن استمساکاً بالحشمة والتزام الكمال ، فنزلت الآية تؤكد عليهن في ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾^(٢) فهو خاص بنساء النبي أولاً ، ثم إن التاريخ الواقعي في المدينة لا يدل على أن نساءها لزمْنَ البيوت بعد نزول هذه الآية ، وإنما هو أمر عام يراد به ألا تخرج المرأة من بيتها لحض التمشي في الطرقات ، بل تمضي لشأنها وتقضي مصالحها وتعود في كمال ، وهذا هو الذي نراه في المجمع الإسلامي إمام الرسول ﷺ بعد تطبيق هذه الآية . ولم يقل أحد في أى جماعة محترمة إنه من المفيد أن تتسكع النساء في الطرقات دون مرور أو ضرورة .

وأخبار الجماعة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ — والخلفاء الراشدين حافلة بالأخبار التي تدل على أن المرأة كانت تتحرك في حرية وتخرج لشأنها وتخطب من تريد من الرجال في حواراتها دون حرج ، ملامت ملتزمة بالحشمة والكمال . وانظر إلى عشرات الأحاديث التي تتحدث عن نساء سألن الرسول ﷺ في مسائل بمهمهن فأجابهن في تفصيل كبير ، فكيف كن إذن يخرجن من بيوتهن ويقصدن الجامع ويدخلن مجلس النبي ﷺ لسؤاله ! وفي الجزء الخاص بالنساء من طبقات ابن سعد أخبار كثيرة تؤيد ما نقول من حرية النساء ، ولا نجد فيها أخباراً يفهم منها أن النساء في فجر الإسلام كن حبسات البيوت أو أن وجوههن كانت محجوبة .

ولم يكن النساء يعيشن على هذه الصورة من الحجاب طوال العصر الأموي ، أي إلى نهاية العصر العربي الخاص من تاريخ الجماعة الإسلامية . بل يعيش معظم نساء الأمة ، وعن الفلاحات ، في معظم بلاد الإسلام — وإلى يومنا هذا — سافرات

(١) الأعراب ، نه ٥٩ .

(٢) السورة نفسها ، آية ٣٣ .

غير محجبات ، وعن يشتركن في العمل مع الرجال ويختلطن بهم في الأسواق ومناكب الحياة ، هذا بالإضافة إلى ما نعلم من أن نساء القرى والأرياف أقرب إلى روح الدين من مجتمع المدن .

إذن من أين أتى الحجاب الثقيل الذي يفرض على المرأة أن تعيش عصرها خلف ستر وقبود وسدود ، بل يجعلها تعمل سجناء معها إذا خرجت ، ففسير داخل ثوب مفرغ عليها ، كأنه القبة لا تنفس فيه إلا ثقبان للعينين واستنشاق الهواء ؟ وما الذي جعل المرأة المسلمة تبدو في المفهوم العامي وفي القصص الشعبي إنساناً شريراً لا يفكر في غير المكائد وتدبيرات السوء ؟

أما الحجاب الثقيل وسجن الحياة فقد أتيا في عصور الاضمحلال عندما سيطر المستبدون والظالمون على شعوب الأمم وساموا أفرادها سوء العذاب . في هذه العصور ساد الناس جهل شديد ، فلم يعد يعرف حقائق الإسلام إلا نفر يسير من أهل العلم ، فانتشرت في الناس مفهومات كثيرة خاطئة لا عن الإسلام وحده بل عن كل شيء في الوجود . فبينما كان الناس في العالم الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري يعرفون أن الأرض كرة ويعرفون التعليل المنطقي والعلمي لذلك ، نسوا هذه الحقيقة في القرن السادس فما بعده ، فغلب على بعضهم تصور أن الأرض مسطحة ممتدة في كل اتجاه يحيط بها جبل قاف . وكذلك أخذ عامة الناس العلم بالإسلام عن أدعياء العلم وعن قوم انتسبوا إلى الصوفية وليسوا منهم ممن يزعمون لأنفسهم خوارق الأعمال . وعن طريق ذلك الجهل شاعت بين الناس آراء غريبة عن الإسلام ، بل متنافية لروحه . في تلك العصور راح القول بأن الإسلام يفرض على المرأة حجاباً ثقيلاً ويلزمها كسوتها ، لا تفارقه إلا إلى قبرها . وساعد على رواج هذه الآراء سيادة أصناف الترك والمغول وغيرهم من الأجناس التي تعودت أن ترى في المرأة متاعاً يشتري ويبيع ويحفظ في البيوت خذراً من أن يعدو عليها السراق وقطاع الطرق ومن إليهم ، وبخاصة إذا كانت شابة ذات جمال . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الأمن كان في اضطراب مستمر ، فلم تكن الطرقات مخوفة للنساء وحدهن ، بل لكل الصغار والأطفال والضعفاء .

وبسبب اتعدام الأمن في الطرقات وشيوع الجهل اهتم الناس بالمحافظة الشديدة على نساءهم ، ومن هنا جاء الحجاب الثقيل وسجن البيوت في المدن الحاضرة خلال

العصور الوسطى المتأخرة ، فلم تعد امرأة حرة تخرج إلى الطريق إلا في حراسة شديدة ، أما اللائي كنّ يظهرن للناس ويسرن في الأسواق دون حرج كبير فهن الجوارى والإماء ، لأنهن كن معدودات في تلك العصور من جملة المتاع ، ومعظم من نسمع أخبارهن من النساء في كتب تلك العصور لم يكن من الحرائر بل من الجوارى والقيان ، فيما عدا بعض نساء السلاطين والكبراء ممن بعدننا عنهن المؤرخون والرحالة .

وفي مثل هذا الوضع السيء — أعنى في الظروف التي فُرض على النساء فيها حجاب ثقيل ومسجن وراء الجدران — نشط ذهن النساء في البحث عن الوسائل للتخلص من تلك القيود أو لإيجاد أنواع من التسلية يمكن ممارستها في الخفاء وفي ظلام المقاصير ، لأن الحياة على تلك الصورة مستحيلة بالنسبة لأى إنسان ، لأن الإنسان بطبعه مفكر ولا يطيق القيود للأمد الطويل ، ولابد أن يدفعه ذكاؤه إلى البحث عن منافس ومهارب أو عن وجوه من التسلية ينسج فيها الحياة الضيقة التي يعيشها ، فابتكرت النساء أساليب كثيرة للتفرغ من أنفسهن وإفراح الجمال الضيق المتاح لهن ، وتغلبن بالحيلة والذكاء في أحيان كثيرة على سوء ظروفهن ، وعن معذورات في ذلك ، فانتشرت في الناس أقوال وحكايات عن « حيل النساء ومكائدهن » وخبثهن ، كما نرى في أقاصيص « ألف ليلة وليلة » .

وفي كثير من الأحيان توصلت النساء بالعجائز في الوصول إلى ما طلبن من التسلية والفرار من الحياة الراتبة المملة ، بل القاتلة ، لأن العجوز تخرج وتروح وتغدو دون حرج ، فهي ليست بمطمع ، وهى تدخل البيوت وتجلس إلى النساء ، فكانت العجائز سبيلا للاتصال بين النساء والعالم الخارجى . وأتاح ذلك للنساء فرصاً للتسلية وملء الفراغ والعتور على حوافز للنحاة والعمل ، ولا ينبغي أن ننسى أن الحياة كلها كانت بالنسبة للإنسان العادى في تلك الأعصر وجوداً فائراً مليئاً بالمخاطر والمتاعب ، وأن الإنسان — ككل كائن حى — لا يحتمل البقاء طويلاً في وجود فائر ممل أو ملء بالمخاطر ، فلا بد له من الهروب من الملل والخوف ومن إعمال الحيلة في ذلك .

هذه هى الظروف العامة التي فرضت على المرأة الحجاب الثقيل وحبستها بالقيود وهى ظروف — كما نرى — لا دخل للإسلام فيها ، فإن الإسلام دين حرية وحياة ، لا دين قيود وسدود . والذين ردوا ذلك كله للإسلام أخطأوا خطأ شديداً ، وينبغى

— كما قلنا — أن نفرق بين الإسلام — كمقيدة ومبادئ وشريعة — وتصرفات المسلمين ، ففى أحيان كثيرة يتصرف المسلمون عن خطأ وبحسب ما يحسبون ويحسب من ينظر إليهم أن تصرفهم صادر عن الإسلام .

وفيما عدا ذلك عاشت النساء فى نطاق أسرهن حياة كريمة يسودها الاحترام والمحبة سواء من الزوج أو من الأولاد أو من بقية الأقارب . ولقد عاشت المرأة فيما كان يعرف بالحريم ، وهو الجزء من البيت الذى لا يسمح للغرباء بولوجه . وليس من الضرورى — كما يظن البعض — أن يكون الحريم مأوى لعدد من النساء يتبعن رجلاً واحداً عن طريق الزواج أو التسترى كما تزعم التصورات الغربية للحياة فى المجتمعات الإسلامية .

ولقد وجدت نساء الأسر — ما بين شابات وغير شابات — وسائل شتى للتسلية والتفريج عن النفس ، فبالغن فى شكليات الزواج وأعراسه وأطلن مدتها وأكثرن من رسومها تضييماً للوقت ، وبالغن كذلك فى شكليات الوفيات ، من المآتم الطويلة ومناسبات مرور الأسبوع الأول أو الأربعين يوماً الأولى على الوفاة ، وخرجن إلى المقابر واتخذن فيها الغرف بحجة مصاحبة الميت العزيز من وقت لآخر ، وما هى فى الحقيقة إلا وسائل تسلية وهروب من الفراغ والملل . وقل مثل ذلك فى زيارة أضرحة الأولياء والصالحين ، فكل هذه حركة فيها ذهاب ورجوع وخروج إلى الطريق ورؤية الناس والتخلص من ساعات طويلة من النهار ، وفى أحيان كثيرة تكون زيارة الضريح آخر ما يقصدن إليه . وابتكرن حفلات « الزار » ، بقصد الشفاء من الأمراض النفسية أو الكآبة وما إلى ذلك . فكن ينظمن حفلات كبرى فيها موسيقى ورقص وحركة وغناء وتعصيد لشوق النفس إلى الحركة والتسلية .

وبرغم القيود الكثيرة التى فرضتها على المرأة عادات وتقاليد وظروف لا تمت إلى الإسلام بصلة ، كان للمرأة المسلمة دائماً مكانها الكبير فى المجتمع ، فهى ربة البيت وسيدة الأسرة ، وسلطانها كبير فى كل ما يتعلق بشئون الأسرة . ومن هنا كان أثرها فى المجتمع كله ظاهراً قوياً ، فما أكثر المساجد ومنشآت البر والإحسان التى أنشأتها نساء ووهبها للمجتمع ، وما أعظم المكان الذى كانت تحتله المرأة فى الشعر والفن عامة . ولم يخلُ عصر من نساء عالمات أو عابدات متصوفات كان هن فى المجتمع كله المكانة الكبرى .

ويكفى أن تضرب لذلك مثالين نأخذهما من أقصى العالم الإسلامي غرباً وشرقاً : فإن مسجد القرويين الذي نشأت على أساسه جامعة القرويين — أقدم جامعات العالم الإسلامي — كان من إنشاء سيدة جليلة شريفة هي فاطمة الفهريّة ، من سيدات البيت الإدريسي العلوي ؛ وفي أجراً ، في شمال الهند ، يقوم ضريح نذكارى جليل هو « التاج محل » الذى بناه السلطان شاه جهان لذكرى زوجته أرجند بانويكيم التى غالما الموت وهى في شرح الشباب على ما ذكرناه .

المسلمون جميعاً أمة واحدة :

وقد تشابهت شعوب الإسلام في معظم الخصائص الاجتماعية في علمها الواسع ، لا تعرف حدوداً بين قطر وقطر . ولم يقتصر الشعور بذلك على المثقفين الذين كان لديهم تصور — دقيق أو غير دقيق — لاتساع العالم الإسلامي ووحدة ، بل ربما كان أفراد الشعب العاديين أكثر تسليماً بحقيقة وحدة العالم الإسلامي من سواهم ، فإذا نزل القاهرة أو دمشق أو بغداد أو مكة رجل من المغرب أو الأندلس عده الناس أنحاً لهم ، ما دام مسلماً ، ولم ينظروا إليه على أنه أجنبي عنهم ، وبخاصة إذا كان من أهل العلم أو من أهل التقوى والصلاح ، وحتى فارق اللغة لم يكن بأبه له أحد ، لأن الناس كانوا يعرفون أن المسلمين أمة وشعوب شتى : فهم الأتراك والإيرانيون والهنود ومن إليهم ممن يغلب أنهم لا يعرفون من العربية إلا القليل ، وفيهم المغاربة أو الأندلسيون الذين يتكلمون لهجات خاصة بهم من العربية ، وكذلك لون البشرة لم يكن يستلفت الاهتمام ، ففي القاهرة مثلاً كانت جاليات الغانيين والسودانيين كبيرة ، وكان للغانيين سفير يتحدث باسمهم لدى السلطان ، وقد عرف ابن خلدون أحد أولئك السفراء وتحدث عنه ووصفه بصفات الدين والفضيلة والعفة .

وكانت القاعدة عند الجماعات الإسلامية جميعاً أنه مادام النزول الغريب يقول إنه مسلم فهو مصدق فيما يقول ، وهو أخ لهم في الدين والوطن ، فكانوا لا يبحثون وراءه ولا يشكون في أمره ، وقد استغل ذلك الكثيرون من رحالة الغرب الذين اندسوا بين المسلمين لكي يكشفوا أسرار حياتهم وينقلوها إلى أبناء جلدتهم ، ومن أولئك كان نفر كبير من الكارهين للإسلام الذين ألحقوا أضراراً كبيرة بالمجتمع الإسلامي وأذاعوا أخباراً وأوصافاً سيئة كاذبة عن الإسلام وشعوبه . ويزعم هذا

النفر من الواغليين في بلاد الإسلام أنهم استطاعوا خداع من اتصلوا بهم في بلادنا ، لأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية ويمسنون التظاهر بالإسلام . ولم يكونوا قط بحاجة إلى هذا الادعاء ، فإن المسلمين لا يشترطون إتقان اللغة العربية في المسلم ، وهم يمسنون الظن بكل من يقرر أنه مسلم وينطق بالشهادتين . وكل إنسان بعد ذلك موكول إلى ضميره ونيته . ومن أكبر أمثلة هؤلاء الرحالة دومنغو باديا Domingo Badia المعروف باسم « على بك العباسي » ، فهو قد زار العالم العربي وطاف بنواحيه فيما بين سنتي ١٨٠٣ م و ١٨٠٧ م ، وعاد إلى موطنه مدينة برشلونة بإسبانيا ونشر رحلة فيها من المغالطات شيء كثير .

وتجلى ظاهرة وحدة العالم الإسلامي بأجلى صورها في كتب الرحالة ، من أمثال أبي القاسم بن حوقل النصيبى وخمس الدين المقدسى وعلى بن سعيد لغزرى وأبى الحسين بن جبير وأبى عبد الله محمد بن بطوطة . فهؤلاء جميعاً يتحدثون عن عالمتنا الإسلامى الواسع ويخبرونا كيف تنقلوا بين بلاده دون أن يشير أحد منهم إلى حدود أو اختلاف في الأوطان أو الجنسيات . ويستثنى من ذلك ما نجده عندهم من الكلام عما كان الناس يلقونه من رجال المكوس في داخل البلاد وعلى حدودها . ولكن الحقيقة أن وجود رجال المكوس (الجمارك) على الحدود لم يكن يعنى أن العالم الإسلامى مقسم إلى بلاد شتى ، وإنما كان وجودهم جزءاً من التنظيمات المالية العامة للدولة في العصور الوسطى ، وهى نظم كانت بغية إلى الناس ، لأن الموكلين يشعرون المال في دولنا الماضية كانوا يرصدون حياة الضرائب على كل خطوة من الطرق على حدود البلاد وفي داخلها بدافع الجشع وسوء التدبير .

وهذا الشعور بالوحدة الإسلامية هو الذى يملأ نفوسنا ، ونحن نقرأ كتاب الرحالة الطلقة الغامر العجيب أبى عبد الله محمد بن بطوطة الذى ولد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ، وما إن بلغ العشرين من عمره حتى بدأ سلسلة رحلات طويلة لم يسبقه إلى مثلها أحد . فقد حج أربع مرات وزار في رحلاته تونس وليبيا ومصر والعراق وإيران والأناضول وشبه جزيرة القرم . وفي إحدى رحلاته صحب قافلة إحدى الأميرات البيزنطيات (الروميات) ودخل معها القسطنطينية ، ومن ثم انتقل شمالاً فدخل روسيا ووصل إلى قرب مدينة كييف . وبدلاً من أن يعود إلى بلاده بعد هذا السفر الطويل غرَّ بلاد القوقاز ودخل أذربيجان ثم بلاد ما وراء النهر وأطال المقام في بخارى ، وانتقل إلى أفغانستان ، ودخل الهند عن طريق ممر خير ، فوصل

حوض الكنج والبراهماوترا ووصل دهلí عاصمة سلاطين المغول ، حيث طال مقامه وتولى القضاء . ثم سمحت نفسه الاستقرار ، فسار حتى بلغ مدراس على الساحل الشرقى للهند ، ومن هناك ركب البحر فنزل بجزر ملديف إلى الجنوب الغربى من جزيرة سيلان وعمل هناك قاضيا بعض الوقت . ثم انتقل إلى جزيرة سيلان ، وبعد راحة يسيرة ركب البحر ثانياً وعاد إلى بلاد السنغال ، ومنها أبحر مرة أخرى متجها نحو الجنوب الشرقى ، فزار ملقا في بلاد الملايو ، وواصل رحلته البحرية حتى دخل كانتون في جنوب الصين ، وهناك أقام في جاليها الإسلامية زمناً طويلاً .

ثم عاد أدراجه فمر بسومطرة ، ومن هناك انجبت به السفينة إلى شرق أفريقيا ، فزار زنجبار ، ثم اخترق أفريقية الاستوائية والمدارية ووصل إلى تمبوكتو أكبر سوق تجارية في حوض النيجر الأوسط لتلك العهد . ومن هناك عبر الصحراء الكبرى فدخل المغرب الأقصى من الجنوب ، ثم وصل إلى مراكش ، ومضى في مسيره حتى وصل إلى فارس ، وهناك ألقى عصا التسيار ، وجعل يتحلىث عن رحلته العجيبة التى استغرقت ستاً وعشرين سنة ، فأمر السلطان المرنى أحد كتّابه بأن يستمل ابن بطوطة وصف الرحلة ويسجله ، فكان لنا من ذلك كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهو أمتع وصف رحلة قام بها إنسان بعد ماركوبولو الرحالة البندقى الأشهر ، فقد توفى ماركوبولو سنة ١٣٢٤ م ، وتوفى ابن بطوطة سنة ١٣٧٨ م .

وقد وقفنا باين بطوطة هذه الوقفة الطويلة بعض الشئ ، لأن وصف رحلته يقدم لنا برهاناً ناصحاً على حقيقتين مهماتنا :

الحقيقة الأولى : أنه يقول إنه لم يمر في هذه الرحلة الطويلة إلا بأهم وجاليات إسلامية ، ولم يطلع عليه الفجر فى يوم من أيام الرحلة إلا على أذان المؤذن ، ولم يسم مرة إلا بعد صلاة العشاء فى جامع ، فرحلته ترسم لنا الإطار الواسع لعالم الإسلام الواحد فى القرن الرابع عشر الميلادى .

والحقيقة الثانية : أنه يقرر أنه لم يشعر بأنه غريب فى أى بلد من هذه البلاد التى نزلها ، على كثرتها وتباعد ما بينها ، بل لقد تأهل هذا الرجل — أى تزوج — فى كثير من هذه البلاد ، فكان أنه أعطى برحلته تلك برهاناً عملياً على أن أمة الإسلام فى العالم كله أمة واحدة .

ولا يسع الإنسان ، وهو يقرأ وصف هذه الرحلة ، إلا أن يشعر بالإكبار نحو الإسلام الذى نشأ فى بلد صغير ، هو مكة فى وسط الصحراء ، ومن هناك اتسع وعبر الرمال والقياق والسهول والجبال والبحار والمحيطات ، وأنشأ لنفسه هذا العالم الواسع الذى يسميه الرحالة الجغرافى للقدسى « مملكة الإسلام » . والمقدسى لا يكف فى صفحات كتابه عن الفخر بمملكة الإسلام هذه التى طاف بأرجائها وزار نواحيها وشعر فى كل رحلاته بأنها مملكته هو ، ومملكة كل مسلم ، ووطن كل موحد بالله شاهيد برسالة محمد ﷺ .

وابن بطوطة — برحلاته تلك — إما كان يضيف حيوطاً إلى ذلك النسيج الضخم الذى يتكون منه العالم الإسلامى ، فالحقيقة أن الذين صنعوا هذا العالم الإسلامى هم : محمد — عليه الصلاة والسلام — الذى وضع أساس الجماعة الإسلامية فى المدينة ، ثم جاء من بعده الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية ورجال بعض الدول الإسلامية الناعمة التى نمدت عنها ، وأتم البناء ووسع مدها وأضاف عمقاً إلى ذلك العالم الإسلامى الدعاة والصوفية المجاهدون وأهل الطرق والتجار ، ولكن الذين ربطوا أجزائه بعضها إلى بعض وشتوها برباط اللغة الواحدة والعلم الواحد وعمقوا مفهوم الوحدة لدى الناس ، كانوا هم أهل الرحلة من العلماء وطلاب العلم وأهل الرحلة من الحجاج والصالحين والأولياء ، ثم أهل الرحلة من التجار والملاحين .

فأما الحجاج فقد كانت قوافلهم تشق أرجاء ذلك العالم الإسلامى فى مسيرة دائمة لا تتوقف ولا تبالي بالعقبات الطبيعية من جبال وصحارى وبحار ، ولا تترأخى بسبب أخطار الحروب والقتل والفتن ، فقد كان حجاج بيت الله الحرام ، من الأندلس والمغرب والسودان والصين والملايو ، يخرجون فى رحلة الحج قبل مواعده بعام أو أكثر أو أقل ، ومعنى هذا أنه — فى كل وقت تقريباً — كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام أو تعود منه ، ألوفاً بعد ألوف من الناس يخرجون من أطراف الأرض الأربعة ، ووجهتهم بيت الله الأكرم ، وهم فى مرورهم بالمدن والواحات يذكرون الناس بوحدة الدين التى تجمع بعضهم إلى بعض . والكثيرون منهم كانوا يسفرون بعد الحج أبناً شاعوا من بلاد الإسلام .

فكان قوافل الحج كانت أسلحة عاريت قوية تشق الأرض الإسلامية وتقلب تربتها وتأذن للشمس العقيدة فى أن تتخللها فى عمق وتبعث فيها الحياة . وهذا — ولا

شك — كان في تقدير الخائف سبحانه حينما فرض على أمة الإسلام الحج إلى بيته الحرام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْكُلُونَ وَجُلًا وَعَلَى كُلِّ ضَائِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا مِنَّمْ اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَكْمَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴾ (الحج ، آيتا ٢٧ و ٢٨)

أما طلاب العلم فلم يكتفوا عن الرحلة قط في طلب العلم وحضور مجالس العلماء ، وكان يكتفى أن يظهر حدث جليل في بلد مثل بخارى أو تشرت حتى نجد الطلاب من الأندلس والمغرب ومصر واليمن راحلين إليه للسمع عنه ، وكان أهل العلم في رحلة دائمة ذاهبين من بلد إلى بلد ومتقايين من مجلس علم إلى مجلس علم ، ناسحين برحلاتهم خيوطاً جديدة في نسيج علمنا الإسلامي . وكان طلاب العلم هؤلاء ألوفاً كثيرة عمقوا برحلتهم شعور الناس في العالم الإسلامي الشاسع بأنه عالم واحد في الدين والتفكير واللغة ، فهم مسلمون عرب في مصر ، وهم مسلمون عرب في سمرقند وفي تمبوكتو ، والناس يروّهم ويتصلون بهم ويحسون — وهم يتحدثون إليهم — أنهم بالفعل أعضاء أسرة ضخمة واحدة هي أسرة الإسلام .

وقريب من هذا كان نصيب التجار والملاحين وبخاصة من أهل اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشواطئ الخليج العربي ، فهؤلاء الملاحون المهرة حملوا راية الإسلام إلى أرض بعيدة في شرق أفريقيا وجنوب آسيا وجنوبها الشرق . وكانت سفنهم الجملية الصغيرة — نسبياً — تحمل المسلمين من شاطئ ومن ميناء لميناء ، فتؤكد بذلك وحدة « عالم الإسلام » . وكم من ملاح حسن الإيمان أسلم على يده العشرات من أهل أفريقية وآسيا لأنه ضرب لهم مثلاً صالحاً بخلقه الطيب ومعاملته الشريفة ، وكم من تاجر بسيط نزل بجزيرة نائية في المحيط — مثل جزيرة سيشل أو موريس — لبيع ويشترى ، وراه الناس يصل ، فاستفسروه عن دينه ، فحدثهم عنه فأسلموا على يديه ، فربح بهداية الناس أضعاف ما كسب من البيع والشراء .

أما الصالحون والأولياء فإنهم عمقوا الإيمان بالإسلام كما ذكرنا ومدوا له الجذور البعيدة في الجماهير . ولا شك في أن أولئك الصالحاء — الذين تقوم قبورهم وأضرحتهم ما بين كبيرة وصغيرة في تواحي العالم الإسلامي كله — قد قاموا بوظيفة دينية وحضارية واجتماعية كبرى في أزمانهم وما بعدها .

هؤلاء جميعاً نسجوا في صير طويل وعمل دؤوب نسيج ذلك العالم الإسلامي الواسع الذي نعيش فيه اليوم ، وهم جميعاً من صميم أمة الإسلام الواحدة .

غير أن شعور الناس في العالم الإسلامي بسعة علمهم وبأنه معظم المعمور (على حسب علمهم) أهمهم ثقة بالنفس واطمئناناً إلى المصير أعاناهم على الثبات أمام عن كانت جذيرة بأن تزلزل قلوب البشر . وفي الغرب المسيحي وفي العالم البوذي كان القساوسة والكهنة هم الذين يثيرون قلوب الناس في أوقات الهن ، أما في عالم الإسلام — حيث لا قساوسة ولا كهنة — فكان هذا الشعور باتساع رفة الإسلام وعظمة أمة محمد ﷺ هو الذي يثبت القلوب ويقوى الثقة بالنفوس ويؤكد للناس أنه مهما حدث فإن أمة الإسلام بخير .

على أن المسلمين أسرفوا في هذا الشعور ، حتى إنهم لم يحفلوا بالخطر الغربي عندما ظهر وأخذ يغير على بلادهم . وكان لا بد من أن يمر وقت طويل لكي يفيق الناس من الاطمئنان المطلق الذي أسلمهم إلى النوم ، ويتزلوا إلى عالم الواقع ويواجهوا التحدي الغربي بكل أخطاره .

أهل الدمة في المجتمع الإسلامي :

أشرنا — في سياق كلامنا عن انتشار الإسلام — إلى أن المسلمين لم يحاولوا إرغام أحد على اعتناق الإسلام ، بل وكلوا الناس في ذلك إلى اقتناعهم ، وقلنا إن هذه السياسة زادت إقبال الناس عليه وحببتهم فيه ، فدخلوا فيه أفواجا في كل البلاد التي دخلت في إطار مملكة الإسلام . ولكن بقيت في كل بلد إسلامي جماعات ممن لم يصل الإيمان إلى قلوبهم أو فضلوا البقاء على أديانهم السابقة .

أما الذين أحبوا أن يظلوا على الوثنية فإن الإسلام لم يقبل منهم ذلك ، وكان لا بد أن يدخلوا دين الله . وأما اليهود والنصارى فقد فعلهم تسامح الإسلام ، وسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم ومواصلة حياتهم داخل الجماعة الإسلامية ، باعتبار أنهم « أهل ذمة » أي يعيشون في رعاية الجماعة الإسلامية ، مع أداء الجزية في مقابل ما تمتعوا به من حقوق المواطنة في الوطن الإسلامي الكبير ، وكذلك لقاء الحماية التي أضفاها عليهم الإسلام ، والأمان الذي نعموا به في ظله ، وفي مقابل إعفائهم من الواجبات الحربية للدفاع عن أرض الإسلام .

وقد منحهم القرآن الكريم هذا الحق وفصله فقهاء المسلمين ووضعوا القواعد الشرعية التي تنظم علاقة اليهود والنصارى بالجماعات الإسلامية ، وكذلك وضع رجال الدول نظم تطبيق هذه المعاملة عليهم . ونجد ذلك كله مفصلاً في كتب « النظم الإسلامية » ، مثل « كتاب الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام ، و « كتاب الخراج » لأبي يوسف يعقوب قاضي الرشيد ، و « كتاب الخراج » لقدامة ابن جعفر ، و « كتاب الأحكام السلطانية » لأبي الحسن علي الماوردي ، وغيرهم كثيرون . وأساس التسامح مع أهل الذمة هو أنهم « أهل كتاب » ، أي أهل ديانة سماوية لها كتاب منزل . ومع أن الإسلام لا يقر بصحة نصوص الكتب المقدسة التي تداولها النصارى واليهود إلا أنه عدهم « أهل كتاب » يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . وقد انضم إلى اليهود والنصارى في تلك المعاملة جماعة « الصابئة » الذين كانوا يعيشون في العراق وفي نواح أخرى من دولة الإسلام ، إذ طلبوا المعاملة بالمثل وقالوا إن لديهم كتاباً منزلاً ، وقد سلم لهم الفقهاء بالحق في تلك المعاملة على أساس أن « الصابئين » المذكورون في القرآن الكريم مراراً إلى جنب اليهود والنصارى .

وفيما عدا الجزيرة العربية لم يخل بلد إسلامي من جماعات كبيرة أو صغيرة من المسيحيين وأعداد أصغر من اليهود . وفي بعض البلاد ، كمصر ، يكون السكان المسيحيون — وهم الأقليات — واحداً على أحد عشر من مجموع السكان ، وكانت نسبتهم في الشام قريبة من ذلك قبل الحروب الصليبية ، ثم زادوا على هذه النسبة في أثناء تلك الحروب وبعدها ، وفي الأندلس كانت نسبتهم عالية حتى إن أعدادهم كانت تعادل أعداد المسلمين في بعض النواحي مثل طليطلة والأشبونة ، أما في المغرب كله فقد تلاشوا تماماً بعد الفتح الإسلامي ، وفي العراق كانت هناك جماعات منهم معظمهم من « النساطرة » من بقايا نصارى الحيرة وخران . وكان هناك الأرمن في شمالي العراق ، ومسيحيتهم بقية من سيطرة الدولة البيزنطية على تلك النواحي .

أما من يوجد من المسيحيين في بقية بلاد المسلمين — مثل السودان وإيران والهند وإندونيسيا — فهم جماعات محدثة نشأت في ظل الاستعمار الغربي في العصور الحديثة . وفي الكثير من بلاد أفريقية اليوم يسير الإسلام والنصرانية جنباً إلى جنب ، لأنهما دخلا وانتشرا في تواريخ متفاوتة في العصور الحديثة ، وأمثلة ذلك نجد في ملاوي وزامبيا والكونغو وكينشاسا وأوغندا وغيرها . ففى هذه البلاد يرجع دخول

الإسلام في صورة ظاهرة إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أما بلاد أفريقية
المدارية وبعض بلاد أفريقية الاستوائية ، مثل الكاميرون والجاويون والكونغو برازافيل ،
فقد دخل الإسلام فيها قبل المسيحية بزمان طويل ، ولكنه لم يصل إلى أن يصبح
دين الغالبية من السكان إلا في نيجيريا وتشاد والنيجر وغانا وتوجو وداهومى وغينيا
والسنغال . وفي أفريقية المدارية بلاد كل أهلها مسلمون ، مثل الصومال ومالي
وموريتانيا . ووضع الإسلام بالنسبة للمسيحية في هذه البلاد كلها في حاجة إلى أن
يُدرس من الوجهة العملية دراسة إحصائية واجتماعية .

وكان « أهل الذمة » يعيشون في بلاد الإسلام في أمان وفق نظام ديني ومالي
خاص ومعروف وهو نظام « أهل الذمة » . ولا ينبغي أن ننسى أن المسيحيين من
أهل البلاد الإسلامية يعدون من الناحية القانونية مواطنين أصلاء في تلك البلاد ،
إلا ما كان من هجرة بعض جماعات النساطرة من إيران أو من أراضي الدولة البيزنطية
في العراق ، فهؤلاء كانوا جالية أجنبية لمدة طويلة .

وقد اندمجت الجماعات المسيحية من أهل البلاد الإسلامية في الحياة الإسلامية
العربية العامة ، فاستعربوا لساناً وفكراً ، حتى كتبهم المقدمة تُرجمت إلى العربية .
وبهذه اللغة أقيمت الصلوات في الكنائس والمعابد . وعلى الرغم مما عرفت به
الجماعات اليهودية من الانفصال عن المجتمعات التي تعيش فيها ، فقد اندمج يهود
المجتمع الإسلامي في بقية السكان واختلطوا بهم واستعربوا في كل شيء ، وقد دلت
مجموعات الوثائق اليهودية المعروفة باسم « الجنيزة » (وقد عثر عليها في معابد اليهود
ومنشآتهم الخيرية الخاصة بجماعتهم ، كاللاجيء وأمكنة الاجتماع في مصر وفلسطين
بصفة خاصة) ، دلت هذه الحقائق على أن يهود البلاد الإسلامية كانوا بالفعل قد
استعربوا تماماً واندمجوا في الحياة العلة حولهم . ولم يبدأ انفصالهم عن السكان إلا
في العصر الحديث في ظل الاستعمار عندما شعروا بأن السيادة السياسية أصبحت
في أيدي الأوروبيين .

ونعود إلى وثائق « الجنيزة » ، فنقول إنها تؤكد ما كنا نعرفه من أن يهود البلاد
العربية والإسلامية كانوا يعيشون في تسامح تام حتى وصلوا إلى مكانة طيبة من الغنى
والجاه وشغلوا الوظائف الرئيسية ، لا في بلاد الأندلس وحدها بل في كثير من البلاد
الإسلامية الأخرى . ولم يصل اليهود إلى مثل هذا الوضع في أى مجتمع غير المجتمع

الإسلامي في العصور القديمة والوسطى . فبينما كانوا يُضطهدون أشد الاضطهاد في الغرب ويرغمون على الحياة في أحيائهم التي عرفت بالخارات أو « الجيتو » فإن اليهود في البلاد الإسلامية عاشوا أحراراً غير مقيدين إلا بما يلزمهم به النظام العام بصفتهم « أهل دمة » . وقد قضى الأوروبيون على معظم من كان في بلادهم من اليهود في العصور الوسطى ، وهبطوا بالبقية إلى مستوى الأرقاء أو أخرجوهم من المجتمع وجعلوهم سكاناً يعيشون خارج المدن ويتجمعون قرب أمكنة الأسواق وفي مواضع معينة من الموانئ . ولو أن العرب المسلمين عاملوا اليهود هذه المعاملة لما بقي من اليهود أحد اليوم .

وما يزعمه كتاب اليهود من أنهم ينقسمون إلى شعبين كبيرين : الإشكنازية والسفردية ، وأن الأولين هم من بقايا اليهود القدامى الذين عاشوا في الغرب من أيام الدولة الرومانية وانضمت إليهم بعد ذلك جماعات من يهود بلاد الخزر ، وأن الآخرين — السفرديين — هم الذين عاشوا في بلاد الإسلام أو هاجروا منها إلى بلاد المغرب ، وما يزعمونه كذلك من أن الإشكنازيين أرق وأكثرتقديماً ، كل هذا غير صحيح ، وقد وضعت عقول الصهيونيين لأغراض سياسية ، أما الحقيقة فهي أن ٩٠٪ من يهود أوروبا أصلهم ممن عاشوا في بلاد الإسلام — خصوصاً في الأندلس — فنجوا في ظل الإسلام مما أصاب غيرهم ، ثم انتشروا في الدنيا . ومعظم اليهود الذين يزعمون أنهم من أصول صقلبية أو بوليفية أو ألمانية أصلهم البعيد من بلاد المسلمين ثم ادعوا لأنفسهم هذه الأنساب ، ومملكة الخزر اليهودية — التي يُقال إنها ازدهرت في القرن الثاني عشر الميلادي — أسطورة ولا أسس لها من الصحة .

والحقيقة أن اليهود في العصور الوسطى لم ينجسوا الملبأ والأمان إلا في بلاد المسلمين ، بفضل تسامح الإسلام ، فسلموا وكثروا وعمولوا . واليهود الذين هربوا من الاضطهاد المسيحي في الغرب لجأوا إلى الأندلس ، حيث عاشوا في أمان ونظموا أنفسهم في وحدات اجتماعية تعيش في أحياء خاصة بها في المدن ، وكان ذلك باعتبارهم ، لأن أحداً في بلاد الإسلام لم يرغم اليهود على أن يعيشوا في أحياء خاصة . وفي الأندلس بلغ اليهود مركزاً ممتازاً حتى اتخذ منهم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) وزيراً وسفيراً هو حسلبي بن شيروط ، وكان منهم نفر من أهل ثقة ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ / ٩٦١ —

٩٧٦ م) ، مثل إبراهيم بن يعقوب الطليطل الذي كان يرسله في مهام كثيرة في أوروبا .

وقد انقلب أولئك اليهود على مسلمي الأندلس دون ميرر ، عندما بدأت كفة الإسلام تشيل هناك ، ودخلوا في خدمة النصارى وعاونوهم على المسلمين الذين تولوا حمايتهم بالأمن ، وهذا من غرائب النفس اليهودية والسلوك اليهودي ، فبينما نجدهم في كتبهم يذكرون فضل المسلمين عليهم وإتقادهم من الفناء على أيدي القوط في الأندلس ، وبينما نراهم يعدون طارق بن زياد من أبطال تاريخهم لما كان من إتقادهم على يديه ، إذا بهم يبررون انقلاب أجيالهم الماضية على المسلمين ، بل يزعمون أنهم غريون أو أقرب إلى المسيحيين .

وعيناً نحاول أن نفهم السر في عداوة اليهود المتأصلة للعرب ، وهي هداوة لا ترجع إلى ميلاد الصهيونية أو إلى ما قصده ورثوا له في ألمانا هذه من العنوان على فلسطين ، فإننا نجد في كتبهم التي كتبت أيام عصر النهضة الأوروبية ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر ، عدا غير طبيعي للعرب والإسلام . وقد علل المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون LOUIS MASSIGNON هذه الظاهرة بأنها راجعة إلى حسد اليهود للعرب على ما بلغوه من المجد واتساع الملك بالإسلام . واليهود يعرفون أنهم أبناء عمومة العرب ، وفي كتبهم المقدسة ما يشير إلى زعم أنهم أقرب إلى الله منهم ، ولهذا فقد أنكروا على العرب أن يختار الله رسوله ﷺ منهم ، وأن يبلغوا بدينهم الإسلامي ما بلغوا من اتساع الملك ، في حين أنهم — أي اليهود — كانوا في الحضيض إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادي . ولهذا فهم يغفرون للبشر جميعاً عدوانهم عليهم وظلمهم لإياهم ، إلا العرب : لا ينسون أن العرب امتازوا عليهم وسادوهم بفضل الإسلام قرونًا بعد قرون !

أما المسيحيون من أهل البلاد الإسلامية فقد عاشوا دائماً مواطنين كراماً وقاسموا المسلمين من الحياة وحلوها وظهر من بينهم علماء ومفكرون في كل ميادين الفكر العرفي وكتاب وشعراء ، وإذا كانت قد نزلت بهم نوازل أو أصابهم أذى من الحكام فقد نزل بالمسلمين وأصابهم مثل ذلك ، فقد كانت العصور الوسطى المتأخرة عصور ظلم ومتاعب للجميع .

أما ما نقرأ في بعض النصوص من أن للمسيحيين واليهود كانوا يلتزمون بليس

ملابس معينة يعرفون بها من غيرهم ، فلم يحدث إلا خلال فترات قصيرة على أيدي
حكام لم يفهموا الإسلام فهماً صحيحاً ، ولم يتشدد المسلمون — بصفة عامة —
في أن يشدد المسيحيون على أوساطهم ذلك الحزام المسمى « الزنار » ، وحتى في
الأوقات التي ألزموا فيها بذلك فإن جمهور المسلمين لم يروا غرابة أو شيئاً عظمياً
أن يكون الإنسان مسيحياً . أما ما يسمى بالوصبة القُمرية التي تأمر المسلمين بمعاملة
أهل الذمة معاملة قاسية فوثيقة مشكوك في أمرها ، ومن المؤكد أنها وضعت في
العصور الوسطى المتأخرة ونسبت إلى عمر ، لأن عمر لم يتخذ حيال غير المسلمين
إلا إجراء واحداً ، وهو إخراجهم من الجزيرة العربية حتى لا يكون في الجزيرة دينان
يتصارعان . وكان إخراجهم بعد أن خالفوا ما اتفقوا عليه مع المسلمين ، كما فعل
مسيحيو نجران . ولقد كان عمر هو الذي أسرع ليتسلم بيت المقدس بنفسه ، صيانة
لمن فيها من المسيحيين وحفاظاً على مزاراتهم وبخاصة كنيسة القيامة . وفي أيام عمر
وضعت القواعد العامة لمعاملة أهل الذمة في دولة الإسلام ، ولست نجد فيها ما يشبه
ما في هذه الوثيقة من الأحكام العنيفة التي يتلقى بعضها مع المعروف من رفق الإسلام
وإنسانيته . ومن سوء الحظ أن مثل هذه الوثيقة تؤخذ على أنها وثيقة أممية تحدد
معاملة الذميين في بلاد الإسلام في كل العصور ، والإسلام وعمر بن الخطاب منها
بريثان .

وإن من يقرأ النصوص التاريخية طوال العصور الوسطى ليجد أن المسيحيين كانوا
يعيشون في إخاء تام مع المسلمين ، وكانت بين الجانبين علاقات مودة وتعاون تظهر
بأجلى صورها في أوساط أهل العلم والطب . فلو أننا تصفحنا كتاباً مثل « طبقات
الأطباء » لابن أبي أصيبعة لرأينا كيف كان علماء المسلمين وأطبائهم يتعاونون مع
إخوانهم من علماء النصراني واليهود ، ويأخفون عنهم ويقبلون شبانهم تلاميذ لهم ،
بل هم كانوا يتعاونون معاً في تأليف الكتب وفي الأبحاث في موضوعات الطب
والأدوية خاصة . أما ما كان من الصداقة بين الشعراء وأهل الأدب المسلمين
والمسيحيين فأظهر من أن تقف عنده ، ويكفي أن نقرأ كتاباً مثل « شعراء
النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعي لنرى كيف نبغ من بين نصارى البلاد
العربية والإسلامية عدد ضخم من الشعراء لا تقل مراتب بعضهم عن مراتب أكبر
شعرائنا الإسلاميين .

خلاصة :

حاولنا في هذا الفصل أن نعطي صورة عامة للمجتمع الإسلامي وملاحظه البارزة ، ووقفنا طويلاً عند بعض ما بدا لنا أنه غير مشرق من تلك الملامح لتتعرّف إلى حقيقته وبكشفت أسبابه ، فإن الكشف عن الحقائق أو البحث عن الأسباب يظهر لنا أن تلك النواحي غير المشرفة كانت ردود فعل أو راجعة لظروف قاسية ألمّت بالمجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى ، وخصوصاً المتأخرة منها ، فإن عامة الناس في تلك العصور غلب عليهم القنور لتشابه الأليم خلال عصور طويلة ، ونشأ عن ذلك اهتمام الناس بصفات الأمور أو السطحي منها ، وربما كانت تلك الظروف أيضاً هي التي مالت بالناس نحو العنف والقسوة ، بدافع الخوف على النفس والمحافظة على الكيان بكل وسيلة . ومن المعروف أن اليأس وانعدام الأمان يدفعان الإنسان — والكائن الحي عموماً — إلى التصرف بطريقة تخرج به على مألوف ما عهد منه . وعندما تتدهور الظروف حول الإنسان ينحط مستوى تفكيره وتساءل ردود الفعل التي تصدر عنه . وهذا هو تفسير مظاهر القسوة التي تقرأ أخبارها في حوليات العالم الإسلامي في عصور المماليك . وهذا أيضاً هو تفسير الفساد الذي شمل رجال الحكومات ومال بهم إلى إهمال الواجب وإلى الرشوة وما إلى ذلك مما ينتج عن الأنانية المطلقة ، وهي مظهر من مظاهر الخوف والشعور بعدم الأمان وقلة الثقة بالنفس وبالفقر وموت الشعور الإنساني .

درسنا في هذا الفصل ست عشرة ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية الإسلامية في العصور الوسطى ، رأينا أنها تُجَبِّل ملامح ذلك المجتمع وخصائصه المميزة له وبخاصة في أواخر العصور الوسطى .

فبدأننا بالكلام على غلبة الروح الجماعية أو الاجتماعية على كل مظاهر الحياة الإسلامية ، وضرربنا لذلك أمثلة من تفكير الناس في المجتمعات الإسلامية تفكيراً جماعياً في المسائل التي تتعلق بمصالح جماعتهم ، ورددنا ذلك إلى روح الإسلام التي تدعو الناس إلى الترابط والتساند والعمل معاً ، بل إن عبادات الإسلام نفسها عبادات جماعية أو ترمي إلى ربط الناس بعضهم ببعض وتقوية أواصر الأخوة والتعاون بين المسلمين ، وضرربنا لذلك مثلاً بالصلاة .

ثم ناقشنا موضوع بناء المجتمع بصفة عامة ، وبيننا كيف ظهرت الطبقات في مجتمعات البشر ، وكيف أن كل المجتمع الإنساني في العصور القديمة والوسطى كان مجتمعاً طبقياً ينقسم الناس فيه إلى طبقات متحاذية متنايزة ، فيما عدا المجتمع الإسلامي الذي استاز هل غيره من المجتمعات بأنه لم يعرف الطبقات ، فكان الناس يعيشون فيه متساوين أمام الله وأمام القانون ومتساوين فيما بينهم ، أى أنهم متساوون في كل النواحي الإنسانية ، وهذا لا يمنع من أن يكون هناك قراء وأغنياء ، وأصحاب جاه وناس مجردون من السلطة والجاه ، وموهوبون وغير موهوبين ، فهذا شيء طبعى — لا مفر منه — في مجتمعات البشر ، ولكن تلك التفاوت في الثروة وحفظوط الناس في الحياة لم يؤد قط في المجتمع الإسلامي إلى انقسام الناس إلى طبقات ، حتى الخلفاء والسلاطين وأهل القوة والمال لم يكونوا طبقة ممتازة هل غيرهم بميزات يحترف بها المجتمع ، كما نجد مثلاً في طبقات النبلاء في أوروبا أو طبقة الساموراي في اليابان أو سادة الحرب War Lords في الصين أو البراهمة في الهند . وبيننا كيف أن الإسلام عا الطبقات غملاً في كل جماعة آمنت به ونظمت نفسها هل أساسه ، ووقفنا بعد ذلك وقفة قصيرة عند ظاهرة استقلال الجماعات الإسلامية عن التنظيم السياسية التي حكمتها في العصور الوسطى ، وما أدى إليه من تقوية روح الاعتقاد هل النفس عن الجماعات .

وشرحنا بعد ذلك كيف أن جماهير الناس التي حيل بينها وبين الاشتراك في السياسة اشتراكاً إيجابياً مباشراً وجدت الطريق إلى السلطان بواسطة الدين والعلم ، فوجد الفقهاء وأهل العلم طريقهم إلى مراكز القوة وحازوا نصيباً كبيراً من السلطان السياسي ، إذ إنه كان منهم القضاة والمفتون وأهل الشورى والوزراء والكتّاب والصوفية والشعراء وأهل الأدب ، وهؤلاء جميعاً كانوا رؤساء الناس وشيوخ المجتمع المعترف برياستهم عند الجماهير .

ووقفنا وقفة طويلة عند الصوفية والزهاد وما كان لهم من وظيفة سياسية واجتماعية ، وناقشنا ظاهرة الأولياء وأصحاب الكرامات وبيننا أنها ظاهرة اجتماعية أدت إلى ظهورها ظروف سياسية واجتماعية عامة ، وبيننا أنهم — برغم الرأى الشائع عند المثقفين اليوم — قد قاموا بوظيفة اجتماعية وسياسية لها أهميتها . وعندما اختفت الظروف التي أدت إلى ظهور تلك الطائفة اختفت هي أيضاً .

ونحن قد نينا إلى أن ذلك لا ينطبق إلا على عدد قليل من الذين يتسبون للتصوف ، ولكنهم قصروا عن حال الصوفية المخلصين الصادقين الذين انصرفوا إلى العبادة والمجاهدة والرياضات وأعمال الخير انصرافاً تاماً ، فكانوا نوراً أضاء لأهل عصورهم غياهب الظلام والتأخر أثناء العصور الوسطى والمتأخرة .

وتحدثنا حديثاً مفصلاً عن قطاعي المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وهما : قطاع المدن وأهلها ، وقطاع الريف وسكانه من الزراعة .

فحدثنا عن المدينة الإسلامية وظروف الحياة فيها والأسباب التي أدت إلى اضمحلال المدن ، وتناولنا في كلامنا أحوال الصنائع ونقاباتهم .

وفي كلامنا عن المجتمع الريفي تحدثنا عن الملاحين والظروف القاسية التي عاشوا فيها ، وبيننا كيف استطاعوا برغم ذلك ، أن يقوموا بمسؤولياتهم كاملة حيال المجتمع الذي كانوا عماده الاقتصادي ، لأن الاقتصاد في العصور الوسطى كان يعتمد أساساً على الزراعة والزراع ، أما الصناعة فلم تصبح عماداً من عمد الاقتصاد إلا في العصور الحديثة . وأضافنا في أثناء ذلك فقرة قصيرة عن الزراعة وما بلغه المسلمون في ميدانها من علم وتقدم .

وعزونا نجاة المجتمعات الإسلامية الوسيطة من الظروف العصيبة التي مرت بها إلى سلامة الأسرة ، وهي الخلية الأساسية للمجتمع . وبيننا كيف أن الإسلام أحاط الأسرة بسياسة قوية من الحماية والتأمين وجعلتها بحق أساس المجتمع وصخرته الصلبة التي يقوم عليها .

وأضفنا فقرة عن مراتب الناس في المجتمع الإسلامي ، وقلنا إنها ليست طبقات اجتماعية ، وإنما هي تقسيمات على أسس وظيفية أو مالية .

ووقفنا وقفةً طويلة عند المرأة في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وشرحتنا كيف أن الحجاب الكثيف والقيود الثقيلة التي فرضت على النساء لم تظهر إلا في العصور الوسطى المتأخرة ، نتيجة لسيادة الجهل وقلة الأمان واضطراب أجهزة الحكم ، وسيطرة أصناف الترك والمغول من الآسيويين الذين تعوخوا معاملة المرأة في مجتمعاتهم الأولى على أساس أنها متاع يباع ويشتري .

ونعُدُّنا كذلك عن أهل الدعة في المجتمع الإسلامي ، وبهذا كيف كانوا يعيشون منمتعين بتسامح عظيم منحهم إياه الإسلام ، وجرت على تطبيقه شعوبه وحكوماته ، وأشرنا إلى أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد في العصور الوسطى الذي استطاعت الأقليات الدينية أن تعيش فيه بسلام . في حين أن شعوب أوروبا لم تكن تسمح لمسلم بالمقام فيها إلا بكل مشقة . أما اليهود الذين عاشوا في أوروبا فقد عاشوا تحت ذل بالغ واضطهاد مستمر على حين عاشوا في سلام وعزة وكرامة في بلاد الإسلام . وأشرنا بهذه المناسبة إلى فضل المسلمين على اليهود ، وكيف أنقذوهم من الفناء في أثناء العصور الوسطى ، فكانت النتيجة أن انقلبوا عليهم وأصبحوا ألد أعدائهم متكزين كل فضل أو جميل للعرب والمسلمين ، وقد ذكرنا لبعض العلماء رأياً في تحليل هذه الظاهرة .

ونعتمدنا هذا الفصل بالكلام عن وحدة العالم الإسلامي ، ونعُدُّنا عن أولئك الذين حققوا فكرة الوحدة بين نواحيه وعمقوا مفهومها وأعطاها قوة العقيدة ، وهم الحُجَّاج ، وأهل العلم وطلابه ، والرحالة ، والصوفية ، والتجار . وأوضحنا الدور الحيوي الذي قامت به هذه الطوائف في تقرير حقيقة وحدة العالم الإسلامي .





مراجع مختارة

هذا الفصل الذى كتبناه عن ملاح العالم الإسلامى يمكن اعتباره من أوائل المحاولات فى كتابة تاريخ اجتماعى للإسلام ، وقد جمعنا مادته من حشد عظيم من الكتب والمراجع ، لأنه لا توجد كتب خصصت لهذا الموضوع . ومن حسن الحظ أن لدينا فى العصر الحديث دراسات جيدة لنواح مختلفة من أحوال المجتمعات الإسلامية وتاريخ تطورها ، وسنكتفى فيما يلى بذكر أهم الكتب التى تتضمن مادة داخلية فى موضوع المجتمع الإسلامى وملاحه وتطوره .

أصول :

أهم مرجع فى ذلك الموضوع هو « مقدمة » ابن خلدون المشهورة وطبعاتها كثيرة ، نخص بالذكر منها الطبعة التى أعدها على عبد الواحد وافي مع شروح وتعليقات ضافية ، ونشرها فى القاهرة ابتداء من سنة ١٩٦٢ . ونشر هنا إلى فهارس طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ التى وضعها أسعد داغر ، فهى تعين القارئ على تتبع أفكار ابن خلدون والمؤلفات عن « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » كثيرة أهمها كتاب طه حسين بهذا العنوان نفسه ، وكتاب « ابن خلدون وراثته الفكرى » لمحمد عبد الله عيان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٥ .

ومن المؤلفين الذين يقدمون لنا مادة طيبة عن المجتمع الإسلامى ونظمه تقى الدين المفريزى ، فى كتابه « الخطط » و « إغاثة الأمة بكشف الغمة » . أما « الخطط » وطبعاتها كثيرة ، وأما « إغاثة الأمة » فقد نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشبال فى القاهرة سنة ١٩٤٠ والكتاب الثانى ، يرغم صغر حجمه ، من أحفل

ذخائر المكتبة العربية بالمعلومات عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للأمم الإسلامية ، وبخاصة مصر في العصور الوسطى .

ويجد القارئ مادة طيبة عن الأحوال الاجتماعية في كتب الأدب الرئيسية مثل : « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، « الكامل » لأبي العباس المراد ، و « العقد الفريد » لأبي عمر أحمد بن عبد ربه ، وكتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مثل « البخلاء » ، و « البيان والتبيين » وكذلك رسائله الصغيرة مثل « فضل السودان على البيضان » و « التبصرة في التجارة » و « مناقب الأتراك » و « دم أخلاق الكتاب » .

ومن المراجع التي لا يستغنى عن الإلماع في دراستها من يريد تعرف أحوال المجتمع الإسلامي مؤلفات أبي الحسن علي المسعودي ، وبخاصة « مروج الذهب » (طبعة باريس مجلدين ١٨٦١) . و « التبيين والإشراف » (طبع في لندن سنة ١٨٧٤ طبعة محققة ، وطبع بعد ذلك مراراً في البلاد العربية) .

ولكتب الجغرافيين والرحالة أهمية كبرى في هذا المجال ، ونشر منها إلى :

ابن بطوطة : « تحفة النظائر » ، بتحقيق ديفريميري وسانجينيستي (C. DEFREMERY & R. SANGUINETTI) ، باريس ١٩٢٦ .

ابن جبير : « الرحلة » ، بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

ابن حوقل النصيبى : « صورة الأرض » في مجلدين ، الطبعة الثانية ، لندن ١٩٤٦ .

ابن رسته : كتاب « الأعلام النفسية » ، بتحقيق دى غوى ، لندن ١٨٦١ .

الإصطخرى : كتاب « المسالك والممالك » ، بتحقيق دى غوى أيضاً ، لندن ١٩٧٠ .

الشريف الإدريسي : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، ولم ينشر هذا الذخر القيم في صورة نص متكامل إلى الآن ، ولكن معظم أجزائه نشرت منفردة ، وترجمت إلى اللغات الأوروبية ، فليبحث القارئ في المكتبات عن الموجود من كتب الشريف الإدريسي بالعربية وغيرها . واسم الشريف الإدريسي يكتب بالإنجليزية تارة Edrisi وتارة Idrisi .

عد اللطيف البهنّادى : كتاب « الإفادة والاعتبار » ، وهو كتاب صغير حافل
بالفائدة وقد نشر مراراً في البلاد العربية وأوروبا .

المقدسى : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، بتحقيق دى غوى ، ليدن
١٨٧٧ .

ولا يستغنى القارئ عن الرجوع إلى الموسوعات العربية الكبرى الثلاث وهي
« مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري و « صبح الأعشى » للفلقشدى
و « نهاية الأرب » للنويرى ، وقد نشر من كل منها أجزاء صدرت كلها عن دار
الكتب المصرية في القاهرة .

ونشير هنا إلى « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » مؤلف مجهول ، حققه
ونشره سعد زغلول عبد الحميد في الإسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وكتاب « بحاسن مصر
والقاهرة » لابن طهيرة ، بتحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ .

ومن أهم المراجع الغنية بالمادة في موضوعنا كتب الأحكام وأهمها « كتاب الأموال »
لأبى عبيد القاسم بن سلام (القاهرة بدون تاريخ) و « الاحكام السلطانية »
للمارودى ، القاهرة ١٨٨٠ ، و « كتاب الخراج » لأبى يوسف يعقوب فاضى
الرشيد (القاهرة ١٨٨٤) ، وكتاب « الخراج » لقدامة بن جعفر ، وقد نشرت
منه قطعة على يد دى غوى في ليدن ١٨٨٩ .

ويعد كتاب أبى الريحان البيرونى للسمى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في
العقل أو مردولة » (نشره إدوارد سخاو E. SACHAU في لندن سنة ١٨٨٧ م)
من عيون المؤلفات في أحوال أم الهند خاصة ووسط آسيا عامة ، وقد قدم ملخصاً
ممتازاً لأهم ما ورد فيه عن أحوال الهند ونظم أهلها نقى أحمد في كتابه القيم « جهود
المسلمين في الجغرافيا » ، وقد ترجمه إلى العربية ونشره مع شروح ضافية محمد فتحى
عثمان ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ونشير هنا إلى عدد من الكتب تجمع أخباراً قصاراً أو طوالاً عن أشخاص معينين
أو عن الناس عامة ، وهذه الكتب حافلة بالمعلومات عن تنظيم المجتمع الإسلامى
وأحواله ، ومثال ذلك « نشوار الحضارة » للقاضى المحسن بن على التنوخى ،
و « المستجد من فترات الأجواد » له أيضاً ، و « كتاب الوزراء » لأبى هلال

الصائى ، و « رسوم دار الخلافة » له أيضاً ، « وسيرة أحمد بن طولون » لليلى ،
و « مرآة الزمان » لمسيط بن الجوزى ، و « تليس إبليس » لأبى الفرج بن الجوزى .
وهذه كلها أمثلة فحسب ، لأننا فى حاجة إلى أن نعد بيليوغرافيا (مراجع)
لتاريخ الاجتماعى والاقتصادى للأمم الإسلامية ، ولذلك نكتفى بهذا القدر الآن ،
ونشير إلى أننا سنذكر عدداً آخر من هذه الكتب فى مراجع الفصل عن التنظيم
الاقتصادى .

أبحاث حديثة :

أحمد مختار العبادى : « مشاهدات ابن الخطيب فى المغرب والأندلس » ،
الإسكندرية ١٩٦٢ .

حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والاجتماعية بشكل
خاص ، القاهرة ١٩٣٣ .

حسين مؤنس : « فجر الأندلس » ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد عبد العزيز سالم : « تاريخ مدينة الحرية الإسلامية » ، بيروت ١٩٦٩ .

سيدة إسماعيل الكاشف : « مصر فى فجر الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمد الطيب النجار : « الموالى فى العصر الأموى » ، القاهرة ١٩٤٩ .

صالح أحمد العلى : « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن
المجرى الأول » ، بغداد ١٩٥٣ .

كتب غير العربية :

ARNOLD (THOMAS) & GUILLAUME (ALFRED) : The Legacy Of Islam . oxford 1913 .

وهذا الكتاب يضم مجموعة قيمة من الأبحاث عما وصل إليه المسلمون فى شتى
نواحي الحضارة البشرية وما خلفوه لغيرهم . ويهنا هنا الفصلان التاليان :

MYSTICISM By R.A. NICHOLSON & Sir THOMAS ADAMS .

LAW AND SOCIETY By DAVID DE SANTILANA .

- GIBB , HAMILTON A R . : Structure Of The Religious Thought Of Islam . London , 1944 .
- KHADDURY , M . : The Nature Of The Moslem State ; In Islamic Culture , 1945
- LAMM : Cotton In Medieval Textiles Of The Near East . Paris , 1937 .
- LeVy , Reuben : An Introduction To The Sociology Of Islam . 2 Vols . London , 1931 - 1933 .
- MARCAIS WILLIAM : L'Islam Et La Vie Urbaine . Paris , 1938 .
- MEZ , ADAM : Die Renaissance Des Islam .

وفد أصبح هذا الكتاب من أهم مراجعنا عن الحضارة الإسلامية بفضل الترجمة الممتازة التي قام بها له محمد عبد الحادي أبو ريدة ونشرها في القاهرة في طبعات متوالية ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٦٨ .

TRITTON , S : The Caliphs And Their Non - Moslem Subjects . Oxford 1913 .

وهذا الكتاب أيضاً أصبح من ذخائر المكتبة التاريخية العربية بفضل الترجمة التي عملها له حسن حبشي ونشرها في القاهرة بعنوان : « أهل الذمة في الإسلام » .



الفصل الخامس

التنظيم الاقتصادي



تمهيد :

للمصطلحات الاقتصادية — كالتجارة والبيع والشراء والقرص والكسب والخسارة وفشركة — كثيرة في القرآن الكريم ، وقد رد بعض الباحثين الغربيين ذلك إلى أن الإسلام ظهر في بيئة تجارية هي البيئة المكية ، ولهذا تأثر بها وكثرت فيه ألفاظ التجارة ومصاتها . وهذا تفرج بعيد عن الصواب ، لأن القرآن لم ينزل للمكيين وحدهم بللغة مناسبة لهم ، ولم يتأثر بالبيئة التي نزل فيها لأنه أنزل للناس كافة باللغة التي يفهمها الناس كافة مكيين وغير مكيين ، عربا وغير عرب .

وإنما استعمل القرآن هذا المصطلح في بعض الأحيان لأنه واضح يفهمه كل الناس ويؤدي إليهم الفكرة على أحسن صورة . خذ الآيات التالية على سبيل المثال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تصحبكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومسكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (الصف : ١٠ — ١٣) فهذه آيات واضحة كل الوضوح يفهم بها الإنسان أنه بإيمانه وجهاده يشبه من يعقد صفقة هو الكاسب فيها كسبا وطمحا لا شك فيه ، وماذا يريد الإنسان أكثر من العيش خالداً في مسكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، وبالإضافة إلى ذلك يؤتيه الله النصر العزيز والفتح القريب في هذه الدنيا .

ولا بد أن نلاحظ أن القرآن الكريم — في مثل هذه الآيات — يأخذ اللفظ المعادى ذا المعنى المادى الجارى بين الناس ، ويرفعه إلى مدلول معنوى وقيمة روحية

وخلفية ، وهنا نرى مثلاً للسمو الذى يرتفع به مستوى الحياة الإنسانية بفضل الكتاب العزيز .

لشبهه إذن أن يكون نوارده المصطلحات والمفاهيم التجارية في القرآن صدقاً للميزة التجارية الملكية أو المدنية ، ولكننا لا ننسى أن كثيرين من كبار الصحابة كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، والعباس بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، وأبو سفيان بن حرب ، وغيرهم كانوا من أهل البيع والشراء والقوافل ، بل كان رسول الله ﷺ قبل البعثة تاجراً ، وكان تاجراً أميناً ناجحاً ، وعن طريق أمانته وتجارته في التجارة تزوج السيدة خديجة وأنشأ لنفسه مالا ومركزاً تجارياً ، فهو ﷺ لم يعتمد على مال السيدة خديجة ولا هو عاش عليه ، كما يحب بعض الناس ، ولدينا ما يثبت أنه ﷺ عندما تزوجها كان ميسور الحال يعيش في رغد . وعندما مالت نفسه إلى التبعيد والوحدة ، لما أراد الله إكرامه به من البعثة والرسالة ، لم ينصرف عن إدارة شؤونه التجارية ، فكان يقوم بذلك فيما هذا شهر رمضان ، ولم يتوقف عن التجارة إلا بعد البعثة ، إذ انصرف إلى رسالته بقواه كلها ووهبها وقته أجمع .

ولهذا كان — صلوات الله عليه وسلامه — كثيراً ما يستخدم مصطلح التجارة ومفهوماتها في حديثه إلى الناس وشرحه المسائل لهم ، وعندما التقى أول جماعة من أهل المدينة واستطاع أن يتفق معهم سمي الاتفاق « بَيْعَةُ الْعَقِيَّةِ » ، وكذلك سمي الاتفاق الثاني بينه وبين مثل أهل المدينة قبل الهجرة بسنة واحدة . « والبيعة » هنا معناها الاتفاق الكامل بين الناس . ومن ذلك الحين أصبح الرجل إذا أراد دخول الإسلام « بايع » محمداً ﷺ ، أى عقد معه الاتفاق الكامل ، وشروطه واضحة بينة ، فالرجل من جانبه يتبع ما أنزل الله على محمد ﷺ ، وفي مقابل ذلك يهديه الله سواء السبيل في هذه الدنيا وبه الجنة في الآخرة ، كما هو واضح من الآيات التي أوردناها آنفاً من سورة الصف .

وليس معنى ذلك أن الدخول في الإسلام أخذ دائماً صورة صفقة مباشرة من هذا النوع ، لأن الغرض من استعمال المصطلح ، أول الأمر ، كان هو تقريب مفهوم الدخول في الدين السماوى للناس لم تكن لديهم فكرة واضحة عن الأديان السماوية وجلال مغزاها ومبناها ، إذ إن التدين عند الجاهليين ، حتى عند الموحديين منهم ،

كان سطحيا من جهة ، وكان الكثيرون يقدسون أصناماً من جهة أخرى ، يعتقدون
 قتها تقربهم إلى الله . ومن هنا نرى أن الإسلام بمفهومه الرفيع وما تضمنته من قيم
 روحية كان شياً جديداً حدثاً على العرف الجاهلي ، حتى رؤساء المكين ، من أمثال
 عتبة بن ربيعة والحكم بن هشام — للعرف بأبي جهل — والوليد بن المغيرة ، لم
 يستطيعوا إدراك تلك المعاني الروحية في القرآن ، وظلوا يفسرون الدعوة المحمدية
 على طريقتهم الجاهلية ، فحسبوا أن محمداً — ﷺ — كان يريد من وراثتها جاهاً
 ومالاً أو تأييد قومه بني عبد المطلب وبني هاشم ، ولم يستطيعوا تخطي المستوى
 العقل لأهل مجتمعهم إلى آخر حياتهم ، وكان ذلك هو السبب الأكبر في فشلهم
 لنيل الإسلام .

وفي غمار حروب الفتوح وأحداث قيام الدولة انصرف القرشيون — أولئك
 المحاربين للماضين — عن التجارة والبيع والشراء ، واشتغلوا بالحرب والسياسة ، ولكن
 التجارة ظلت أعظم أعمال الرجال وموارد الرزق ، ومن الواضح أن الإسلام — بعد
 امتيلائه على الشام — سيطر على أهم طرق التجارة في العالم ، وعندما امتد بعد
 ذلك غرباً فضم مصر والمغرب والأندلس وصقلية ، قبض المسلمون على حوض البحر
 الأبيض المتوسط ، وكان يجمع تجارة الدنيا . وقد كان للموقع الجغرافي لجزيرة العرب
 أعظم الأثر في تيسر انتشار الإسلام شرقاً وغرباً ، فهي بطبيعة وضعها تسيطر على
 ممرين كبيرين هما : البحر الأحمر وبحر العرب ، وعلى خليج هام هو الخليج العربي ،
 وبامتداد الإسلام إلى الشام والعراق و إيران في الشرق — بالإضافة إلى البحر الأبيض
 المتوسط في الغرب — أصبح المسلمون يملكون قلب العالم المتمدين كله إذ ذاك ،
 ويشرفون على تجارة تمتد من بحر الهند إلى المحيط الأطلسي ، ودخلت في حوزتهم
 وتحت مسؤوليتهم معظم الطرق التجارية في الدنيا ، وإذن فإن تجارة العالم أصبحت
 في أيدي المسلمين .

التجارة والتجار :

ولهذا كان من الطبيعي أن نجد التجارة قد أصبحت من أكبر موارد الكسب في
 بلاد الإسلام ، ومن حسن الحظ أن العرب أنفسهم كانوا يتصفون بميزات وملكات
 تجارية . وإذا كان رؤساء المكين والقرشيين قد انصرفوا بعد الإسلام إلى السياسة

والحرب ، فإن جمهور الناس في الحجاز كان يطبعه جمهور تجار ، وعندما حدثت الهجرات الكبرى من الجزيرة إلى الأمصار انتقلت جماعات كبيرة من العرب ، من ذوى القدرات التجارية ، إلى البلاد الإسلامية ، وهناك استقرت في المدن ، وأخذت تمارس عملها التجارى على نطاق أوسع بطبيعة الحال . وقد كان اليمنيون وأهل جتوى جزيرة العرب أكثر اهتماما بالشئون التجارية من المكين والحجازيين ، فلم يلبثوا أن سيطروا على قطاعات واسعة من النشاط التجارى في نواحي الدولة الإسلامية .

وخلال القرن الثانى الهجرى نرى بوضوح كيف أن التجار اليمنيين والحضارمة والعندين والعُمانيين كانوا منتشرين في كل مكان . وعندما نتبع العرب الذين هاجروا من الجزيرة إلى الأمصار نلاحظ أن أولئك العرب الجنوبيين كانوا يفضلون دائماً للوانى والمراكز التجارية ، ومهما قيل عن مهارة الإيرانيين أو أهل البحر الأبيض المتوسط في الشئون التجارية ، فإننا نجد أن أولئك العرب استطاعوا منافستهم في ميدان التجارة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية ، من الأندلس إلى الهند ، وحيثما قلبنا في كتب الرحالة أو الأعمال الأدبية التى تتحدث عن البيئة المحلية ، وجدنا أن أغنياء التجار وأصحاب الأموال كانوا في كثير من نواحي الدولة الإسلامية من أصول عربية جنوبية ، بل نلاحظ أنه كانت مهم أسر كاملة تشتغل بالتجارة في نواح شتى وتتعاون في ذلك .

وإذا كانت الصناعة قد ظلت في أيدي أصحابها من أهل البلاد ، فإن التجارة كانت دائماً قسمة بينهم وبين العرب . ومن المعروف أن التاجر يربح من السلعة المصنوعة أشغال ما كان يربحه الصانع نفسه ، لأن الصانع في تلك العصور كان يعمل بيده ، وكان تحويله للمادة الخام التى تصل إليه تحويلاً بسيطاً لا يمكنه من أن يبالغ في تقدير الثمن الذى يبيع به ، في حين أن التاجر كان يحمى على حاجة الناس إلى السلع وصعوبة الحصول عليها في أحيان كثيرة ، بسبب سوء الأحوال واضطراب الظروف السياسية ، فكان يستطيع أن يفرض السعر الذى يريد . ولا بد أن نشير هنا إلى أن التجار كانوا درجات ، من حيث نوع العمل واتساع مده . ومع أن التاجر الكبير صاحب المتجر الواسع كان يحقق أرباحاً أكبر ويحدد بنفسه السعر الذى يبيع به ، فإن التاجر الصغير المتسوق كان هو المسيطر الفعلى على أسواق التجارة وصاحب القول فيما يروج وما لا يروج .

كانت الأقمشة تكون معظم التجارة ، وكانت من كل صنف . فقد حفل العالم الإسلامي ، كما قلنا ، بالمدن التي اشتهرت بالنسيج الممتاز من الحرير أو الصوف أو القطن أو الكتان ، ولكن مدن النسيج الكبرى كانت في مصر والشام وإيران واليمن . أما النسيج العادي الذي يستعمل كل يوم فكان يصنع في كل مكان تقريباً . وكانت المواد التي تصنع منها الأقمشة ترتب كما يلي من حيث الأهمية التجارية : الصوف فالكتان فالقطن فالحرير ، فكان الصوف هو أكثر الأقمشة توافراً في الأسواق ، وكان يدخل في صناعة معظم الأقمشة الأخرى ، يتسبب قليلة أو كثيرة ، أما الكتان فكانت رعايته ومعالجته لاستخراج حيوطه شائعة في بلاد كثيرة ، أهمها مصر ، حيث كانت تزرع منه مساحات واسعة من الأراضي ، ثم يجرى إعداد وبرته التي تشبه الشعر وتباع خاماً أو منسوجة . وكان القطن معروفاً ، ولكنه كان قطن الشجر أي الذي تنتجه أشجار كبيرة بخلاف الأعواد الحالية التي ابتكرت في العصور الحديثة . ولم يكن الناس قد مهروا في زراعة أشجار القطن أو تهجين أشجار تخرج أقطاناً ذات تيلة طويلة ، ولهذا فعل الرغام من شهرة القطن وكثرة نوارده ذكره في النصوص فإن أمكنة زراعته كانت محدودة ، معظمها في الهند ومصر ، ومن مصر انتقل إلى المغرب والأندلس . وبعد القطن من النباتات التي عرفها الأوروبيون وراج استعمالها عندهم عن طريق العرب ، والميزة الكبرى للنسيج القطن في تلك العصور أنه كان نسيجاً رخيصاً حيثما توافرت مادته الخام ، فكان ثوب القطن يباع بشمس أقل من ثوب الكتان ، على الرغم من توافر الأقمشة الكتانية في كل مكان تقريباً .

أما الحرير فكان استعماله قليلاً ، وكان معروفاً في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وقد اشتهرت بنسجه عدن ونجران ، ولكنه كان قليل الاستعمال جداً في البلاد العربية قبل الإسلام ، وكان العرب يحملونه إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان يجد سوقاً نافقة . ومن الملاحظ أنه كان هناك عزوف في البلاد الإسلامية عن استعمال الحرير ، فقد أثر عن النبي — ﷺ — أنه رفض أن يلبس جبة^(١) من حرير أهديت له ، كآته — ﷺ — كان يرى في استعمال الحرير ترفاً يحمل بالرجل التقى أن يتحاشاه . ولكن استعمال النساء للحرير كان شائعاً ، وهنا لا نجد من جانب الفقهاء أي ملاحظة على استعماله . وقد استعمل

(١) الجبة — وراى عنه ثوب يأتى من صلب أو كتان شطوط ، المصاحح المبر ، ج ١ ص ١١٨ .

الحرير — برغم ذلك — الكثير من الخلفاء والأمراء وأهل السلطان وسراة الناس ، ومن هنا كانت له سوق نافقة في كل مكان برغم ارتفاع أسعاره .

وفي أول الأمر كانت الدولة البيزنطية تحتكر تجارة الحرير ، لأن الطريق التجارية الرئيسية التي تمهله من بلاد الصين كانت تمر بهضبة إيران فشمالي العراق قاسياً الصغرى ، فلما قامت الحروب بين الدولتين البيزنطية والقارسية قبل الإسلام انقطع طريق هذه التجارة ، وفل الحرير في أسواق أوروبا . وعندما قامت دولة الإسلام ، وبسطت سلطانها على قلب العالم القديم والوسيط ، أصبح طريق البر الذي يمر بإيران مأموناً ، فعاد وصول الحرير بانتظام إلى الدولة البيزنطية وأوروبا ، ولكن الطريق الأهم للحرير كان طريق جزيرة العرب الذي يبدأ عند عدن في الجنوب ويمر باليمن فنهامة فالحجاز ويستمر حتى فلسطين والشام ، وقد عرف للمكيون قبل الإسلام كيف يحافظون على طريق التجارة هذا ، ويجعلونه من أعظم طرق التجارة العالمية ، وجنوا من وراء ذلك ثروات واسعة . وقد استمر ذلك بعد الإسلام ، فظل طريق الحجاز طريقاً تجارياً رئيسياً يتنافس طريق إيران فيما يتصل بالحرير ومصنوعات الصين .

أما تربية دودة القز خارج بلاد الصين فلم تحدث إلا في القرن السادس الميلادي على بعض الأقوال ، والتاسع على أقوال أخرى . فقد تمكن راهبان من إخراج دود القز من الصين ، ومن ثم عمل الناس على تربيته في نواح شتى من البلاد الإسلامية وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اشتهرت بذلك إيران فكانت مراكز نسيجه الكبرى في مدائنها مثل تُستَر ، ومَرُو ، والرى ، وهمدان ، وكرمان شاه ، ونيريز ، وشيراز ، وغيرها كثير .

ونشير هنا إلى ما ذكرناه في فصل سابق من أن النسيج كان يعد من عبون الثروة ، وكان الناس يستعملونه كوسيلة في البيع والشراء ، لأن أثمان الأصناف الحيدة منه كانت ثابتة لا تتغير بمرور الوقت ، فكان الناس يدخرون الثياب والأقمشة لوقت الحاجة ، ومن هنا فقد كان إقبال الناس على شراء النسيج بأنواعه مستمراً ، سواء احتاحوا إليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد نقداً مدخراً ، وبخاصة إذا كان من الأصناف الغالية ذات القيمة الدائمة وكما كان الناس يدخرون الذهب والفضة والجواهر فكذلك كانوا يدخرون الثياب الغالية ، وكانوا يثقون بقيمة النسيج الجيد أكثر من ثقتهم بالعملة ، لأن العملة قد تنفش أو تقص أو تزد ، أما الثوب فظاھر

يستطيع الإنسان فحصه باليد والعين ، وإذا كان يدخل في نسجه خيوط ذهب وفضة لم تصعب رؤية ذلك ، لأن المعادن غير القضة والذهب لم يكن قد تقدم فن صياغة الخيوط منها ، إنما كانت الخيوط تصنع منها فقط .

النشاط التجاري في العالم الإسلامي :

وكان العالم الإسلامي عالماً منتجاً وافر النشاط ، ولو أن النظم الإدارية فيه كانت أصلح مما كانت لتضاعف إنتاجه واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيه ، وقد أنتج صناع العرب في كل ميدان تقريباً ، ولم يقصر التجار ما بين صغار وكبار في توسيع مدى معاملاتهم التجارية . وعرفوا كيف ينظمون أمورهم المالية فيما بينهم دون حاجة إلى تدخل السلطات ، فعاملوا بالبيع نقداً ومؤجلاً ومنتجماً على أقساط يتفق عليها ، وعرفوا السفائح ، وهي التي نسميها اليوم « الكمبيالات » ، و « الصكوك » التي نعرفها اليوم باسم « الشيكات » ، بل إن لفظ *cheque* الإفرنجي عرف عن لفظ « صك » العرب ، وعرفوا خطابات الضمان والحسابات المفتوحة وغير ذلك من صور التعامل المالي ، وإن لم يعرفوا المصارف أى البنوك ، لأن المصارف لا يمكن أن تقوم إلا برعاية الدولة وضمانيها . وكانت ثقة التجار بلوهم قليلة ، لأن رجال الدول كانوا طامعين في أموال التجار دائماً . وجدير بالذكر أن المصارف في البلاد الأوروبية كانت مؤسسات فردية ، ولم تكن تقوم بعمليات واسعة النطاق ، وإنما كان يقام في كل سوق منتزعة كبيرة مجلس حولها الصرافون للقيام بالعمليات المالية ، وهذه المنتزعة هي أصل البنوك الحالية ، لأن الراغب في المعاملة مع الصرافين كان يجلس على كرسي طويل أمام المنتزعة عرف باسم *bank* ، وهذا هو أصل البنوك والمصارف . ولم تكن عمليات الصرف في الأسواق الإسلامية تختلف كثيراً عن ذلك ، ولكنها تطورت في الغرب تبعاً لتطور الظروف السياسية العامة ، في حين أنها لم تتطور في بلاد المسلمين لتوقف الأنظمة السياسية عن التطور .

وكان التجار ينظمون أمور التعامل فيما بينهم ، فيضمن بعضهم بعضاً في بضاعة أو قرض أو دفع مؤجل وما إلى ذلك ، وتتولى النقابات تقديم الضمان اللازم إذا كان التاجر من ذوى الأمانة المعروفة . وفي أحيان كثيرة كان التجار يعقدون معاملات مالية ذات حجم كبير ، وكل منهم يعيش في بلده بعيداً عن الآخر . وقد ذكر

ابن حوقل الرحالة أنه رأى عند تاجر في أودغشت ، في أقصى جنوبي المغرب ، سكا على تاجر آخر في سجماسة يبلغ ٤٢ ألف دينار ، ومع أن ابن حوقل يذكر ذلك كأنه أمر غير عادي ، فإنه في الحقيقة كان شيئا عاديا بين كبار التجار ، فإنهم كانوا يرسلون البضائع الكثيرة لتباع على ذمة التجار في البلاد البعيدة ، ويحتفظ لهم بالثمن عند أصحابهم من التجار حتى يستطيعوا التصرف فيه . وعن طريق التعاون والائتمان هذين استطاع تجار المسلمين أن يقوموا بعمليات واسعة النطاق دون حاجة إلى نقل الذهب والفضة من مكان لمكان .

وجدير بالذكر أن جزءا كبيرا من العمليات التجارية في العالم الإسلامي كان يتم عن طريق الحاجاج وطلبة العلم والرحالة ، لأن الحاج الذي لا يملك كل تكاليف الرحلة كان يحمل معه من بلده ما يستطيع حمله من البضائع ، فإذا وصل إلى بلد آخر باع بعض ما معه واشترى بجزء من الثمن صنفاً أو أصنافاً من التي يشتهر بها ذلك الموضع وينفق على نفسه فرق الثمن ، فإذا وصل بلداً آخر قام بعملية أخرى من هذا النوع وهكذا . وإذا تصورنا أن أعضاء القافلة كانوا مئات ، وفي بعض الأحيان ألوفاً ، استطعنا أن نكون فكرة عن ضخامة العمليات التي كانت تقوم بها القافلة الواحدة عن طريق العمليات الصغيرة التي ذكرناها . وبهذه الطريقة استطاع الكثيرون جداً القيام برحلة الحج وتحمل نفقاتها ، واستطاع كثيرون آخرون القيام برحلات لطلب العلم والسماع على الشيوخ ، فأفادوا غيرهم بذلك واستفادوا . ولا ننسى هنا المثل الشائع الذي يقول : إن الحج زيارة وتجارة .

وكانت البضائع — كما ذكرنا آنفاً — تباع في أسواق مخصصة ، فكل بضاعة السوق الخاص بها ، يقصده من يريد من الناس ، ولكل طائفة من التجار تعمل في صنف معين — كالجلود أو التوابل أو الأقمشة — نقابة ، وتجمع النقابات كلها نقابة كبيرة تسمى « نقابة التجار » ، يرأسها تاجر عظيم ذو مال كثير يعرف باسم « الشاهيندر » ، وهذا الرجل كان دائماً ذا مكانة مرموقة عند أهل الحكم والناس ، فقد كان يتولى تزويد أهل الحكم بما يحتاجون إليه من البضائع وبخاصة الغالية منها ، وكان في الوقت نفسه يقوم بخدمة النقابة بالوساطة عند أهل الحكم لرفع الظلم وتخفيف وطأة رجال الإدارة . وكان يساعد « الشاهيندر » عدد من التجار يتولون معه تصريف الأمور الخاصة بطائفة التجار ، وهؤلاء هم الذين كان الناس يلجأون

إليهم للسؤال عن التجار الأجانب ومراكزهم وقدراتهم المالية ومستواهم الخلفي في المعاملة وما إلى ذلك . وكان هذا النظام موجوداً في العالم الإسلامي ، وبفضله نشطت التجارة وتشجع التجار على البيع والشراء . وكذلك كَفَّ الحكام أيديهم عن التجار ، نظراً للفوائد التي كانت تعود عليهم من وراء اكتساب ثقة التجار وحسن ظنهم ، ولم يكن يمد يده إلى أموال التجار إلا حاكم قصير النظر .

وكانت نقابات التجار هذه تبدو على أوضح صورها في الموانئ ، حيث كانت النقابة تقوم بإنشاء مخازن للبضائع وإقامة الحراس عليها ، وفي أحيان كثيرة جداً كان التجار في الميناء يتعاونون على بناء السفن .

طرق التجارة ومراكزها :

كانت طرق التجارة تشق العالم الإسلامي كله في كل اتجاه ، ولكن الطرق لم تكن معبدة أو مرصوفة ، وإنما هي طرق قديمة تعارف الناس سلوكها في الانتقال من بلد لبلد ، فقامت عليها المحلات الخاصة بإيواء المسافرين وتقديم الطعام لهم وما إلى ذلك ، وكل شيء كان يشتهه بالطمع .

وفي البلاد الوفيرة المياه كانت الطرق تسلك مسافات معينة تمر بمدن معروفة . أما في البلاد الصحراوية فإن طرق التجارة كانت تتبع خطوطاً تعينها آبار المياه ، وفي البلاد المأهولة العامرة كان أهل القرى ورجال الدولة يضمنون سلامة القوافل مادامت في مناطقهم ، لقاء مبالغ كانت تؤدى للحراس أو لشيوخ القرى . أما في الطرق الصحراوية فكانت القوافل تسير في أمان القبائل المضاربة على مراحل الطريق ، وكل قبيلة تستقبل القافلة عند حدود منازلها ويرافقها دليل من رجالها حتى تخرج من منازل القبيلة ، لقاءً يُجْعَل يسمى « الجفارة » . وفي العادة كانت القوافل تقوم بالعمليات التجارية الخاصة بالقبائل النازلة على الطريق ، فتشتري منها الأصناف المنتجة محلياً كالصوف أو النسيج أو الملح أو الجمال أو القمح ، وتحضر لها البضائع التي تحتاجها من الخارج كالأسلحة والآنية . وكانت هناك جماعات معروفة من الأدلاء يعرفون الطرق وما فيها في كل ناحية . وكانت القافلة إذا خرجت من ناحية استأجرت دليلاً يسيّر بها مسافة معينة ، ثم يولاهها دليل آخر وهكذا . وكان الأدلاء معروفين ومضمونين ، إما من ناحية شيوخ القرى وتجارتها أو من ناحية شيوخ القبائل .

وفي بعض الأحيان كانت القوافل تسير في طرق نحرسها الدولة لأنها طرق البريد ، تقوم على مسافاتها « الرُّد » ، وهي محطات يقيم فيها موظفون يأمرون للدولة موكلون باستقبال خيل البريد والعناية بها وحراسة حامل البريد . وفي بعض الأحيان كانت ترصد فيها خيل لكي يستبدل حامل البريد بالخيل للخدمة أخرى مستريحة . ولكن ذلك كان قليلا . وجدوا بالذكر أن البريد كان مخصصا لحمل بريد الدولة فقط وبعض رجلاها ، أما ما كان الناس يبعثون به من رسائل فكان الغالب أن يحمله الأفراد ويقوموا به خدمة من بعضهم لبعض .

وكذلك كانت للملاحة البحرية الإسلامية طرقها المعروفة في بحار العالم ، وكانت موانئهم على سواحل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وعلى سواحل بحر العرب (جنوب الجزيرة العربية) من أعمر موانئ الدنيا بالنشاط حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت سفن المسلمين تصل إلى الهند والملايو وإندونيسيا والصين والفلبين عن طريق خطوط ملاحة منتظمة معروفة ، فكانت السفن تخرج من عبادان قرب البصرة إلى سيراف إلى هرمز إلى ذُيَل على الساحل الشمالي الغربي للهند ، ثم إلى قاليقوت (كلكتا) ، وهنا كان الميناء الكبير الذي تلتقي فيه سفن العرب المقبلة من البصرة ومن عدن . ومن عدن كانت تخرج السفن إلى سواحل شرق أفريقيا فتصل إلى سفالة (موزمبيق الحالية) ومدغشقر وزنجبار (تنزانيا اليوم) وإلى بر العمم (الصومال الآن) . وكانت تخرج أيضا إلى الهند وتلتقي وسفن المسلمين الأخرى في قاليقوت . ومن هناك كانت تبدأ الرحلات إلى بلاد الملايو وجزيرتي جاوة وسومطرة ثم بلاد الصين ، حيث كانت للمسلمين جمالية كبيرة في خاتقو (كانتون) بل وصل تجارهم إلى بكين (شان بالق) .

وقد أخرجت بلاد الخليج العربي وبلاد العرب الجنوبية — من عدن إلى حضرموت إلى عمان — أخرجت أعظم ملاحين في تاريخ الإسلام من أمثال سليمان المهري وشهاب الدين أحمد بن ماجد ، ولم يكن هؤلاء ربابة بحر مهرة فحسب ، بل كانوا علماء لهم المؤلفات والدراسات الكثيرة في علوم البحار وفنون الملاحة البحرية ، ولدينا الآن ثروة طائلة من مخطوطات ابن ماجد يعدها علماء الغرب أنفسهم من أحسن ما ألف في علوم البحار حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي .

وأحمد بن ماجد هو الذي دَلَّ الملاح البرتغالي فاسكو داجاما على الطريق البحري

من مائتدى على شاطئء أفريقية الشرق إلى فالققوط ، وقاد بنفسه السفن البرتغالية إلى هناك . ولم يكن أحمد بن ماجد يدرى أنه فتح بذلك أبواب بحار آسيا للبرتغاليين ، فجلب بذلك شراً بعيد المدى على تجارة المسلمين وبلادهم في بحار آسيا .

ومن مؤلفات ابن ماجد وغيره من مؤلفينا عرفا أن العرب هم الذين ابتكروا الإبرة المغناطيسية واستعملوها في الاستدلال على الجهات في البحار . لقد أخذ العرب حجر المغناطيس عن أهل الصين ، ولكنهم تنبهوا إلى أنه إذا أخذت قطعة رقيقة مستطيلة من الحديد المغنط وعُلقت من وسطها بحيث انحبه أحد طرفيها نحو الشمال . فكانوا يصنعون صفيحة رقيقة من ذلك الحديد على هيئة سمكة ويلفونها في الماء فينتجه رأس السمكة نحو الشمال ، وقد قرأنا هذا الوصف عند أبي الحسن على المسعودى في كتابه « مروج الذهب » ، وحدثنا مؤلف عرقى آخر هو شمس الدين أحمد بن محمد المقدسى بأن ملاحى المسلمين في بحار آسيا كانوا يستعملون بخراطط بحرية تعرف عندهم باسم « الدفاتر » ، وكانوا يحملون معها كراسات تفسر ما في الخراطط تسمى « راجاجانات » أى المرشادات البحرية .

المعاملات المالية :

لا يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام عن النقود الإسلامية ونظم المعاملات المالية ، فهما بلهان واسعان من الأبواب التى أبدت فيها أتم الإسلام والعروة كفاية متميزة ، وسكتفى هنا بذكر بعض النقاط الأساسية في هذا الميدان الواسع ، ولا بد أن تنبه إلى أن الكثير من تفاصيله مازالت قيد البحث والدراسة .

كان أساسُ المعاملات المالية الدينار الذهبى والدرهم الفضى . والوزن الأساسى للدينار متضال من الذهب الخالص ، أى أربعة جرامات وربع الجرام ، وكان وزن الدرهم متضالاً أيضاً ولكن من الفضة ، والنسبة بين قيمة الدينار وقيمة الدرهم هى النسبة بين قيمتى الذهب والفضة ، وكان من الطبعى أن تختلف هذه النسبة بحسب ما كان في كل من الدرهم والدينار من الفضة والذهب الخالصين . فأما الدنانير فما كان الناس يقبلون في عيارها الذهبى أى نقص ، فإذا نقص وزن الدينار حبة واحدة عدوه زيقاً وأخذ الصيارفة بنسبة ما فيه من الذهب ولم يقبلوه على أنه دينار أصلاً . وكان أولئك الصيارفة يعرفون الذهب وعيابه بنظرة واحدة أو بحكه بمبرد دقيق .

ولم يكن الناس يشتررون الدنانير للتعامل بل للادخار ، فيما عدا الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة . ولهذا فلم تكن الدنانير جارية في الأسواق للتعامل ، وإن كانت أساس النظام النقدي .

أما المعاملة الجارية فكانت بدراهم الفضة ، والفضة لا تحمل التداول في الأيدي إذا خلط بها معدن آخر كالنحاس أو البرونز ، ولهذا فقد كان المفروض أن الدراهم — حتى أعلاها عياراً — ليست صافية ، وكان العرف أن الفضة لابد أن تمثل ٧٧,١ من الوزن الصافي للدراهم ، ولهذا فلم تكن نسبة قيمة الدرهم إلى الدينار هي نسبة قيمة المعدنين النقيين أحدهما إلى الآخر ، بل اختلفت بحسب ما في الدرهم من الفضة . وفي أول الأمر قدروا الدينار الصحيح بأربعة عشر درهما صحيحة ، ثم نقصت قيمة الدراهم الجارية في المعاملات حتى وصلت نسبة الدرهم إلى الدينار إلى ١ : ٢٤ ، وكان هذا هو العرف الجارى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ثم انفرط العقد وهبطت النسبة إلى ١ : ٤٠ ، وربما أكثر ، وأخذت الفضة الصحيحة تختفى من التعامل ، ولم تبق إلا الزيف .

وعلى أى الأحوال فقد مرت بالعالم كله أزمة في الذهب والفضة بلغت ذروتها في أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . فقد تضربت المناجم المعروفة وأخفى الناس مالدبيهم من الذهب والفضة ، ثم انفجرت الأزمة في القرن الحادى عشر بالعثور على مناجم في وسط أوروبا وشمالها ، ونتيجة لفتح المراتلون للطريق إلى أفريقية المديارية من ناحية الغرب ، وكانت مياه أنهار أفريقية المديارية تحمل كمية لها قدرها من التبر ، فاعتمد الناس على ذلك المنبع الجديد في بلاد الإسلام ، ولهذا استطاع « المراتلون » و « الموحدون » من بعدهم إصلاح العملة وتصحيح عيارها ، وأصبح الدينار المراتبى من أكثر العملات احتراماً في الشرق والغرب ، وقد عُرف هناك باسم Muravda أى « مراتبى » ، وجرى به التعامل في العالم كله ، بل لقد عرفنا على دنانير مراتبية في العالم الجديد .

أما « الفلوس » — وهى العملة النحاسية — فلم تظهر في العالم الإسلامى إلا أيام السلطان الأيوى الكامل ابن العادل (١٢١٨ م — ١٢٣٨ م) ، فقد كانت نتيجة التناقضات الباهظة التى تحملتها مصر والشام للقيام بما احتاج إليه صلاح الدين للقضاء على قوة الصليبيين أن شح الذهب والفضة في الأسواق بصورة عامة ،

واختفت الدراهم من الأسواق ، وسكنت حكومة الكامل عملة نحاسية عرفت بالفلوس — واحدها فلس — وطرحها في الأسواق ، فاخفى المعدنان النفيسان من جمال التعامل تماماً . وباختفائهما اختفى الأساس القانوني لقيمة الفلوس نفسها ، فبينما كان السعر القانوني ٤٨ فلساً للدرهم ، هبطت قيمة الفلوس وسعرها حتى وصل الدرهم إلى ١٥٠ فلساً في العصر المملوكي الأول ، أي أن العملة الجارية هبط سعرها إلى الثلث ، ولم يعد من الممكن أن يهبط أكثر من ذلك ، لأن وزن النحاس في مائة وخمسين فلساً كان يساوي أكثر من درهم . ومن حسن الحظ أن قيمة النحاس كمعدن لم تكن قد تكشفت بعد ، وكان أقصى ما يصنعه الناس منه الأواني وبعض أدوات البيوت ، فظلت الفلوس في التداول ، وهي مع هبوط قيمتها وتقل وزنها وسيلة تعامل على أي حال .

ونتيجة لهذا عاد الناس إلى التعامل على أساس المقايضة ، فالفلاحون مثلاً لم يكونوا يحرصون على الحصول على الفلوس ، وإنما كانوا يبادلون محصولاتهم الزراعية بما يحتاجون إليه ، فيأخذون القماش ويدفعون ثمنه قمحاً أو فولاً أو شعيراً أو بيضاً . وأخذت الدولة معظم ضرائبها من الفلاحين محصولات عينية ، ودفعت جانباً كبيراً من الرواتب لمحاصيل ، وفي بعض الأحيان اتخذت أرغفة الحيز أساساً لتقدير جانب كبير من راتب الموظف ، وقد عرف هذا الجانب بـ « الجراية » ، فكان كل موظف يتقاضى جراية يومية من الحيز إلى جانب راتب من الفلوس .

والميزة الاقتصادية الوحيدة في تلك العصور الوسطى المتأخرة ، أي ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، هي أن مقادير الذهب والفضة الموجودة في البلاد كانت تظل فيها ، فقد كانت البلاد لا تستورد من الخارج إلا قليلاً من الأشياء ، ولم يحدث الاستيراد على نطاق زاد على الإيراد إلا في أواخر الدولة المملوكية الثانية ، عندما توفقت تجارة الهند فانقطع عن البلاد أكبر مورد للذهب والفضة ، وفي الوقت نفسه استمر الممالك يشترون ممالك وسلعاً أخرى من بلاد الغرب ، كالحديد والأخشاب والنحاس والأسلحة لاستعمالها في حاجاتهم الخاصة ، فتسرب مخزون الذهب والفضة عند الممالك وفي خزائن الدولة بسرعة ، وكانت نتيجة ذلك إفلاس مصر والدولة المملوكية عامة من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . وعندما استولى الأتراك العثمانيون على مصر لم يكن في خزائن الممالك مدخرات من هذين المعدنين النفيسين .

وقد عرف المسلمون كل صور التعامل المالى التى ظهرت فى العصور الحديثة ، ولكن فى صورة بدائية وغير منظمة تنظيمياً تاماً ، فكان الصراف فى السوق يقوم بالكثير من أعمال البنوك الحالية ، فكان يقوم بتغيير العملة سواء أكانت محلية أو أجنبية ، ذهبية أو فضية . وكانت العادة أن التاجر المعروف إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدله رقاعاً أو أوراقاً عليها طابع (ختم) الصراف يسجل فيها الحد الأقصى الذى يستطيع التاجر أن يتعامل به ، وبهذه الرقاع يشتري ما يريد ويعطى البائع منها ما يساوى قيمتها . ويذهب الناس بهذه الرقاع إلى الصراف ليأخذوا قيمتها النقدية ، وكان الناس يفعلون ذلك تفادياً لحمل مقادير كبيرة من العملة معهم أثناء وجودهم فى السوق وتعرضهم للصوص فى الرحلة ، وكذلك ليوفرُوا الوقت الذى يضيع فى فحص العملة للتأكد من سلامتها فى كل حالة شراء . وفى آخر مدة السوق يعمل التاجر حسابه مع الصراف ويأخذ المتبقى له أو يدفع الرائد عليه ، وهذه أشبه بعمليات « خطابات الضمان » .

وكان « الجهايزة » — جمع جهيز — أوسع ثروة وأقدر من الصرافين على القيام بالعمليات المالية الكبيرة المعقدة . وكان بعض التجار يودعون عند الجهيز عشرات الألوف من الدراهم ويأخذون عنها رقاعاً يتعاملون بها على مدى طويل ، وفى بلاد شتى . وكان الجهيز يقوم بعملياته فى بيته أو دكانه ، حيث يعمل فى خدمته كتبة وحاسبون ، وتوجد عنده خزائن . أما الصراف فكان يجلس على منضدة فى السوق . ومعنى ذلك أن « الصراف » كان أعلى مرتبة من « الجهيز » . ومن الممكن اعتبار الجهيز مؤسسة مالية تقوم بعمليات واسعة المدى وترتبط بمؤسسات مماثلة فى بلاد أخرى ، ويقوم بين هذه المؤسسات نظام متعارف فى الصرف والدفع ، فكان التاجر يشتري فى البصرة مثلاً ويدفع الثمن فى صنعاء أو القاهرة عن طريق « الجهايزة » .

وكان الجهايزة يقومون فى بعض الأحيان بالعمليات المالية للأمرأه وكبار الحكام والأغنياء ، بمن كان من العصر عليهم أن ينقلوا مبالغ مالية كبيرة من مكان لمكان أو يحتفظوا بأموالهم فى بيوتهم خوفاً من اللصوص أو رجال السلطة ، فكانوا يكتبون « رقاعاً » — أى أوامر صرف — بأى مبلغ ، فيقبض الناس قيمتها من « الجهيز » فى المكان الذى يحدّد فى الرقعة ، ثم يسوّى الرجل حسابه مع الجهيز فيما بعد ، وكان الجهايزة يقومون بمهمة الوكلاء الماليين لكبار التجار والولاة ، فكان التاجر إذا أراد السفر أخذ معه « سَفْتَجَةً » — أى خطاب ضمان — يبين فيها المبلغ الذى

يستطيع التاجر التعامل في حدوده . وبهذه « السفنجة » وفي حدود مبلغها ، يستطيع التاجر أن يشتري ما يشاء ويوقع أوراقا بقيمة ما يشتري ، ويتولى التجار تسوية الحساب مع الجيهذ فيما بعد ، وكان ذلك كله يتم بضمان من نقباء التجار في كل بلد .

وكان محمد بن طنج الإخشيد والى مصر « جهابذة » في بغداد ، فكان يكتب للناس سفاتج في الفسطاط ، فيقبضون بمبلغها في بغداد ، وقد اعتمد الرحالة الفارسي ناصر خسرو (ت حوالي ٤٥٢ هـ) في بعض رحلاته على خطابات ضمان كتبها تجار من أصدقائه إلى وكلائهم في بلاد بعيدة ليدفعوا له ما يحتاج إليه من المال .

وفي بعض البلاد ذات النشاط التجاري الواسع ، كالبحيرة وأصفهان وحلب ، كان للصرافين سوق خاصة تم فيها كل العمليات المالية التي يحتاج إليها التجار .

وهناك رأى سائد عند مؤرخي العصور الوسطى في الغرب يقول إن معظم الجهابذة والصرافين في بلاد الجحاح الشرق لدولة الإسلام كانوا من اليهود . وهذا غير صحيح ، لأن أعظم المالين في العالم الإسلامي كانوا — في الغالب — من المسلمين والحضارة والبصريين والفرس . فقد اشتهرت هذه الشعوب بالكفاءة المالية المتناوذة عند تجارها ورجال المال فيها ، وهذا لا يمنع القول بأن بعض الصرافة والجهابذة في بلاد الإسلام كانوا يهوداً ، ولكنهم لم يكونوا أمهر من غيرهم ولا كان لهم احتكار لشئون المال .

وقد كان من المنتظر أن تتركز العمليات المالية في بلاد الإسلام في أيدي النصارى واليهود ، بسبب القيود الكثيرة التي وضعها الفقهاء على الصرف — وهو التعامل المالي — ليسوا أصغر الثغرات على الربا والمرايين ، ولكن الذي حدث أن تجار المسلمين استطاعوا أن يقوموا بكل العمليات المالية دون أن يتعدوا الحدود التي وضعها كتب الفقه . أما في أوروبا فقد سيطر اليهود على أكبر جانب من النشاط التجاري خلال العصور الوسطى ، لأن الكنيسة الكاثوليكية حرمت الربا الفاحش ، وعدت الاشتغال بالتجارة والتعامل المالي من الأمور التي تمس سلامة الإيمان وتشوب إخلاص المؤمن لدينه ، وضيق الخناق على التجار ، حتى وُضِعَ التجار — في بعض الأحيان — في زمرة اللصوص والخارجين على الدين . وكانت نتيجة ذلك أن ترك ميدان التجارة والمال لليهود زمناً طويلاً ، وكان معظم اليهود الذين تولوا هذه الأعمال

في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى من أصول أندلسية ، لأن يهود الأندلس كانوا يعيشون بين المسلمين ، فكانوا متعلمين ؛ في حين أن القليلين من اليهود الذين بقوا في أوروبا من أيام الدولة الرومانية كانوا جهلة غير متعلمين .

وكما تجمع البنيون والحضارمة والعمانيون وأهل الخليج وأهل البصرة والإيرانيون بسمعة مالية عظيمة في شرق المملكة الإسلامية ، فقد امتازت بعض الجامعات الإسلامية في هذا الباب في غربها ، وأهم هؤلاء هم أهل الأندلس ، وبخاصة أهل السواحل الشرقية والجنوبية ، فكان أهل موانئ مرسية وألمرية ومالقة وبنسبة وبجاية يسيطرون على أكبر جانب من النشاط التجاري في غرب البحر الأبيض المتوسط كله ، وكانت جالياتهم منتشرة في كل الموانئ الإسلامية حتى طرابلس والإسكندرية ، بل قامت هذه الجاليات بإنشاء موانئ كثيرة في المغرب مثل الجزائر ووهران وتلمسان ومرسى الدجاج . ومن هنا كانت العملة الأندلسية هي العملة السائدة في نواح كثيرة من غرب البحر الأبيض المتوسط لسلامتها وصحة وزنها .

وفي بلاد المغرب اشتهر القيروانيون بمهارتهم في تنظيم القوافل التجارية الضخمة التي تعبر الصحراء إلى أفريقية الإدارية . أما أهل السوس — وهو الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى — فقد اشتهروا بالمهارة التجارية في كل مكان ، وإليهم يرجع الفضل في نشاط التبادل التجاري بين العالم الإسلامي وشمال الصحراء الكبرى وجنوبها . وما زال السوسيون يتمتعون بهذه السمعة الطيبة إلى الآن في كل نواحي المغرب .

غير أننا ينبغي أن نذكر أن أحجام المعاملات المالية في بلاد الدولة الإسلامية ارتبطت بدرجة الأمان التي استطاعت النظم السياسية السائدة أن توفرها لرعابها ، ولم تكن تلك الدرجة عالية في معظم الأحيان ، لأن تلك النظم لم تكن عاجزة عن تأمين الأموال والتاجر فحسب ، بل كان رجالها خطراً على التجارة والأموال ، لا يتورعون عن مذبذبهم إلى أموال الناس — وبخاصة التجار — ظلماً وعدواناً . وما حققه التجار بالنسبة إلى أحوال الدول التي عاشوا في ظلها كان كثيراً جداً ، فقد قاموا — برغم كل شيء — بأكبر نصيب من النشاط الاقتصادي العالمي من منتصف القرن السابع إلى نهاية العصور الوسطى .

وقد تحيم على العالم الإسلامي في أواخر العصور الوسطى ركود اقتصادي عام ، يرجع إلى أن مستوى النظم السياسية التي تولت الحكم كان دائماً في هبوط . وإذا

أخذنا الجناح الشرقى للعالم العربى مثلاً ، وهو الجزء الذى حكمته دولة واحدة ابتداء من العصر الفاطمى ، أى منذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وجدنا أن الأحوال المالية لمصر والشام والحجاز واليمن كانت أحسن فى العصر الفاطمى مما كانت عليه فى العصر الأيوبى الذى تلاه . وهذا بدوره أحسن من العصر المملوكى الأول ، والحال فى هذا الأخير أحسن من أحوال العصر المملوكى الثانى ، فإذا تقدمنا فى العصر التركى وصلنا إلى حضيض الانهيار الاقتصادى والسياسى .

وقد انتهى عصرُ المماليك البحرية نهايةً هزيلة بموت آخرهم زين الدين أمر حاج سنة ١٣٨٢ م ، وحل محلهم عبيدهم المماليك البرجية الذين لم ينته حكمهم إلا بالغزو العثماني سنة ١٥١٧ م . وكان عصرهم عصر اضمحلال سياسى وخلقى أيضاً . وقد قُدر خراج مصر — أى لإيراداتها — سنة ١٢٩٨ م (بعد بدء حكمهم بست عشرة سنة) بمبلغ ١٠,٨١٦,٥٨٤ ديناراً ، وحوالى سنة ١٥٢٠ م ، أى بعد انتهاء حكمهم بثلاث سنوات فقط ، كان الإيراد ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار فقط ، أى أن المستوى الاقتصادى للبلاد التى اهتمت بهم هبط إلى العشر ، وهم المسئولون عن ضياع تجارة الهند من أيدي المسلمين واتجاه الفريين إلى البحث عن طرق أخرى يصلون عن طريقها إلى آسيا ويحصلون على تجارتها ، وهذا البحث أدى بهم إلى الكشوف الكبرى التى قفرت بالغرب الأوروبى إلى الأمام قفزات لا تصدق ، فى حين سارت بلادنا فى طريق تأخر لم يكن منه بد .

الدول الإسلامية والاقتصاد :

فى الشرق والغرب على السواء كانت الدول فى أوائل العصور الوسطى حرباً على الاقتصاد ، وضياً يتعلق بنا نحن المسلمين — نقول إن كل الدول — دون استثناء — ابتداء من العصر الأموى كانت وظيفتها نهب شعوبها وإفقارها وحرمان الناس من وسائل العمل والإنتاج ، وقد كانت سياسة الأمويين رفيعة بالناس بعض الشيء فى بلاد الشام التى اعتبروها — بصورة عامة — ملكاً للبيت الأموى وتقاسموا خير أراضيها ضياعاً وإقطاعات ، واعتبروا أهلها موالى ومقطعين ، ولكن فى مصر مثلاً كان مجموع الخراج الذى تأخذته الدولة أربعة ملايين قو أربعة ملايين ونصف المليون من الدنانير فى السنة ، وهذا هو الحد الذى وقف عنده الفلاح المصرى الذى عرف

تجارب السنين أن يقرر ماذا يدفع للدولة وكيف يمنع الدولة من أن تأخذ أكثر ومن زمن بعيد جدا قال مؤرخ روماني لرجال دولته : « لا تحاولوا أن تأخذوا من الفلاح المصري أكثر مما يريد هو أن يدفع ، فهو ماهر جدا هنا ، فلتأخذوا منه ما يدفع » .

والحقيقة أن الفلاح المصري كان يعرف دائما كيف يتفق مع جاني الضرائب على أن يتخلص من أي زيادة في الضرائب ، فإذا كان يدفع خمسة قروش عن النخلة في السنة ، ثم زاد الحاكم ضريبة النخل إلى عشرة عرف الفلاح كيف يتفق مع جاني الضرائب على إنقاص عدد النخل إلى النصف لكيلا يدفع في النهاية إلا ما كان يدفعه قبل . ولكن هذا لا يمنع من القول بأنه كان يدفع في العادة ضعف المقرر ، فإذا كنا نقرأ أن مصر كانت تؤدي أربعة ملايين دينار في السنة لدولة الخلافة فمعنى ذلك أنها كانت تدفع ثمانية ملايين أربعة تذهب لخزانة الدولة وأربعة كانت تضع في الطريق ما بين رشا وهدايا وسرقات شتى . وكانت مصر هنا أحسن من غيرها . فقد كانت العادة أن يدفع الناس ما بين خمسة وستة أضعاف المقرر ، ومعنى ذلك أن الدولة ورجلها كانوا يهبون الناس نهباً .

وفي أوروبا تغير الحال مع الزمن ، فقد أدرك الملوك هناك أنه من مصلحتهم أن يدعوا أموالا في أيدي الناس ليعملوا ويبيعوا وتزداد أموالهم فيدفعوا أكثر ، ومعنى ذلك أنهم أدركوا الحقيقة التي أدركها آدم سميت وأثبتها في كتابه « ثروة الأمم » The Wealth Of Nations من أن ثروات الأمم لا تقاس بما يملكه الملوك أو الحكام ، وإنما بما يملكه الحكام والناس ، بل إن ما يملكه الناس أهم ، لأن الملوك لا يستطيعون الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، ومن ثم فهم عاجزون عن تنمية الثروة أما الشعوب فهي قادرة على ذلك ، ومن ثم فإنه كلما زادت الثروة في أيدي الناس زادت إمكانيات النمو الاقتصادي للبلد ، فإذا نما اقتصاد البلد نجت تبعاً لذلك ثروات الملوك ، لأن تلك الثروات تأتي من الضرائب التي يدفعها الناس . وكلما كان الناس أغني كانت ضرائبهم أكثر .

هذه الحقيقة لم يتيبها حكام المسلمين قط ، وكل حكومات المسلمين في العصور الماضية قامت على أساس استنزاف أموال الرعية ونهب أقصى ما تستطيع من أموال الناس تحت أسماء ضرائب معظمها غير شرعية وغير إنسانية في أحيان كثيرة ، وأحيانا

كان يتم الاستيلاء على أموال الناس عن طريق المصادرة والنهب السافر دون حياة . ومن المعروف أن الذين يستطيعون إقامة الأعمال وإنشاء المتاجر والأموال يكرمون دائماً من أصحاب الذكاء والقدرة على تنظيم العمل وسياسة الناس والحساب والتقدير ، فكان هؤلاء إلى جانب أصحاب الفكر والعلم والاطلاع هدف الحكام يصادرونهم ويستحلون أموالهم ويسجنونهم ويقتلونهم خوفاً على عروشهم أو طمعاً في أموالهم ، ومن ثم فقد حرمت أئمة الإسلام في الغالب من خيرة مواهبها ولم يعش إلى جانب الملوك إلا الصغار والمسالون والسلبون .

ولا ننسى كذلك أن الزراع والعمال كانوا يحملون عبء ضرائب باهظة جعلتهم يكتفون بالعمل الضروري لسد الرق دون نظر إلى ما سوى ذلك لأن أي ربح رائد على الحاجة يعرضهم للمتعاب والمطالبات . وأصدق مقال لذلك الفلاح المصري الذي كان يستطيع أن يستخرج من أرضه خيراً كثيراً ويعيش في مستوى طيب ويؤدي للدولة إلى جانب ذلك حقها ، ولكن طمع الحكام والجبابة اضطره إلى القنوع ببيت تعيش من الطين ليس فيه إلا الضروري جداً من مطالب الحياة حتى ينجو من أذى الحكام ، لأنه ليس في بيته شيء يمكن أن يكون محلاً لطمع أحد . وفي هذا الشكل الحزين من الفقر وجد الفلاح أمانه .

ولم تكن أحوال العمال والفلاحين في غير مصر أحسن حالاً ، وكل ذلك نشأ عن ظلم الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك ووزراء ورجال خراج أو جباة ضرائب بينما كان عالم الغرب قد تخلص من نكبة الفقر منذ انتهى أهله إلى حقيقة أن العروة الحقيقية للأمة هي ما يملكه الناس لا ما يملكه الحكام فحسب ، وتحالف الملوك مع التجار والعمال والزراع على أمراء الإقطاع فنشأت المدن ، وهي مراكز العمل والتجارة وحصل أهلها من التجار والصناع على امتيازات وحقوق من الملوك ، بل أنشأت المدن لها قوات عسكرية لحماية أهلها وأموالهم من العدوان . وفي هذه المدن التي بدأت تظهر من القرن السادس عشر الميلادي نشأت الحضارة الأوروبية الحديثة التي قامت على عقلية عملية وتجارية وصناعية ، ووضعت تشريعات خاصة بها كانت هي أساس القوانين المدنية الحديثة . وفي هذه الظروف أترى أهلها وكثرت أموالهم وازدهرت أحوالهم .

وفي هذه الظروف زادت رؤوس الأموال في الغرب ونشأت الصناعات وتطورت

العلوم وأخذت وجهة عملية ، بمعنى أن العلوم فيها اتخذت وجهة عملية وخرجت من نطاق الفكر النظري المحدود فانجذبت الجامعات إلى دراسة العلوم والطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والتجارة وخلال القرن الثامن عشر الميلادي دخلوا في عصر الانقلاب الصناعي الذي نشأت معه الصناعات الضخمة في الحديد والنحاس والمعادن وظهرت الآلات وتضاعف الإنتاج وكثرت رؤوس الأموال ونشأت جماعات العمال ، وفي القرن التاسع عشر الميلادي دخل العصر الصناعي في دور التضخم وتطورت الحكومات إلى النظام الجديد . ومن بين الصناعات التي أزهرت كانت صناعة الآلات الحربية والأسلحة النارية بشتى مقاييسها من المسدسات والبنادق إلى المدافع ، ونشأت الجيوش الحديثة التي تستطيع الغزو والفنك والاستعمار ، ونشأت كذلك البواخر والسفن والبوارج المسلحة بالمدافع الضخمة ، وأنشئت لذلك كله المدارس والمعاهد والأكاديميات .

هذا كله تم بينما كان العالم الإسلامي نائماً في ظلمات العصور الوسطى ، لأن الحكومات أفقرت الشعوب ثم افقرت هي بدورها وأصبح الملوك لا يجدون الأموال الكافية لجندهم المرتزقة . وغير مثال لذلك الدولة العثمانية التي كبرت وتضخم على غير أساس شعبي أو قاعدة علمية . فأصبحت في النهاية طبلاً أجوف ضعيفاً يتهاوى أمام ضربات الروس والمجر والآنجليز والفرنسيين .

لقد فوجيء العالم الإسلامي بهذه القوة الهائلة تواجهه وتنزل به الضربات وهو عاجز حتى عن الدفاع عن نفسه . وكان ما متحكه في فصل عصر الركود من تدهور مخزن وبشع في أحواله وانهار حكوماته وضباب دوله ثم تعرضه للاستعمار .

وذلك كله نشأ عن السياسة المالية الخفية التي سارت عليها دول الإسلام منذ البداية ، فهذه السياسة انتهت بإفقار الشعوب من ناحية وأدت إلى وقوعها في مهاوى الجهل والعمى النظري الذي لا ينفع من ناحية أخرى . وذلك كله أن من أن المشرعين غاب عنهم — عندما قامت دولة الخلافة — أن يجدوا مدة حكم الحاكم ومجال نفوذه . فاتتهى الأمر إلى الاستبداديات التي رأيناها ، وهذه هي سبب البلاء الأكبر كما رأينا ، وهي التي لو فقت عالم الإسلام في عصور الركود .

خلاصة :

من البدهي أننا لا نستطيع — في فصل واحد — أن نتناول كل المسائل المتعلقة بالأحوال الاقتصادية لعالم الإسلام خلال تاريخه الطويل ، وبخاصة أن الأبحاث

والدراسات المتعلقة بالنواحي الاقتصادية قاصرة جدًا ، بل هي ما زالت في مهدها فيما يتعلق بماضى الشعوب الإسلامية ، ولهذا فقد اكتفينا بالحديث عما رأينا أنه يمثل الموضوعات الرئيسية لمثل ذلك البحث ، وكان الجهد متجهًا نحو إعطاء صورة عامة عن الأحوال الاقتصادية في بلاد المسلمين ، والنشاط الذى قامت به في ذلك المجال جماعات السكان المختصة بشئون المال والاقتصاد والتجارة .

فبدلًا بالكلام عن التجارة والتجار ، فأعطينا فكرة عامة عن النشاط التجارى العام في عالم الإسلام مع الإشارة إلى تلك الشعوب الإسلامية التى امتازت بنشاط تجارى ، سواء كان بريًا أو بحريًا ، وتكلمنا عن التجار في العالم الإسلامى وكيف كانوا يكوّنون مجموعات متخصصة من الناس في المدن والموانئ ، يتعاونون فيما بينهم على تزويد الناس بما يحتاجونه من الحاصلات والمصنوعات ، ولهم في ذلك أساليب متفق عليها وتقاليد مرعية بينهم ، مهما اختلفت بلادهم . وتحدثنا عن الأتسعة على اعتبار أنها كانت أكبر مادة من مواد التعامل التجارى ، فتكلمنا عن مراكز صناعة النسيج في العالم الإسلامى ، سواء في مصر أو إيران أو العراق أو اليمن ، وما اقتصت بأنواعه كل ناحية منها ، وركزنا الكلام على صناعة نسيج الكتان في مصر ، والقطن في إيران ، والحرير في العراق واليمن . وليس معنى ذلك أن كل بلد من هذه البلاد اقتصى بنوع معين من النسيج لا يصنع غيره ، فالحقيقة هي أن النسيج كان يصنع في كل بلاد الإسلام ، أما ما ذكرناه فيعين ناحية الامتياز فقط لهذه الناحية أو تلك .

وتكلمنا عن النشاط التجارى فدرسنا أحوال التجار وتنظيماتهم والأساليب التى كانوا يعمرون عليها في تسير أمورهم ، سواء من ناحية الحصول على البضائع وتصريفها أو من ناحية إدارة الأعمال نفسها .

وأعقبتنا ذلك بالكلام على المعاملات المالية ، فتحدثنا عن النقود التى كانت جارية في التداول في العالم الإسلامى ، وحاولنا تقدير قيمتها ، وأعطينا فكرة عن مستوى الأسعار في تلك العصور .



مراجع مختارة



أصول :

- ابن الأثير : على بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) : « الكامل في التاريخ » ، المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٣٣ .
- ابن يبرة ، منصور بن يبرة الذهبي الكامل : « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » بتحقيق محمد فهمي ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٦ أو ٦١٧ هـ / ١٢١٩ - ١٢٢٠ م) : « رحلة ابن جبير » بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى : « كتاب صورة الأرض » ، جزعان ، بتحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .
- ابن خردادبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : كتاب « المسالك والممالك » بتحقيق دي جويه ، ليدن ١٨٨٩ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) : « المقدمة » ، بيروت ١٩٦٧ .
- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، ج ٤ ، القاهرة ١٨٩١ .
- ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد (ت ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) : « كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد » ، بتحقيق فؤاد .
- « حلاوة الاختصار في أصول علم البحار » (مخطوطة باريس) .
- وانظر عن مخطوطات مؤلفات ابن ماجد ، كتاب د . أنور عبد العليم فيما على .

— أبو الفدا ، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة : « المختصر في أخبار البشر » ، القاهرة ١٨٩٤ .

— أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ — ٨٠٨ م) : « كتاب الخراج » .

— الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » مأخوذة من كتابه « ثروة المشتاق في اختراق الآفاق » ، بتحقيق رينهارت دوزي REINHARDT DOZY ودي جويه DE Goeje ، ليدن سنة ١٨٦٦ .

— أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، نشرها وحققها أدولف جروهمان ، وترجمها إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، ج ١ (القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ (١٩٥٦) ، ج ٣ (١٩٦٢) .

— بزرگ بن شهریار : « عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره » ، بتحقيق فان دير ليث VAN DER LYTH ، ليدن ١٨٨٨ (أعادت طبعه مكتبة الثني في بغداد ١٩٦٦) .

— البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر : « كتاب النقود » ، نشر هذه القطعة من كتاب « فروع البلدان » الأب أنستاس ملري الكرمل في كتابه « النقود العربية وعلم التُمَيَّات » (أي قطع النقود) القاهرة ١٩٣٩ .

— الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : « كتاب التبصر بالتجارة » بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب ١٩٣٥ .

— الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : « كتاب الوزراء والكتاب » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٥ .

— الحكيم ، أبو الحسن علي بن يوسف (النصف الثاني من القرن ٨ هـ / القرن ١٤ م) : « الدوحة المشبكة في ضوابط دلو السكة » ، بتحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ .

— الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ — ١٤٩٥ م) :

«الروض المعطار في خبر الأقطار» ، نشر المواد الخاصة بالأندلس منه ليفي مروفنسال ، ليدن — القاهرة ١٩٣٦ .

— الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف : « كتاب مفاتيح العلوم » القاهرة ، ١٩٢٥ .

— الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) : « محاسن التجارة » ، القاهرة .

« نخبه الدهر في عجائب البر والبحر » ، بتحقيق ميرن MEHREN لبيزج . ١٩٢٣ .

— سلسلة التواريخ بتحقيق رينو RENAUD .

— سليمان التاجر (كتب حوالى ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) : « رحلة التاجر سليمان » بتحقيق جابريل فيران GABRIEL FERRAND ، ١٩١٢ .

— سهراب المعروف بابن سراييون : « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة » بتحقيق هانز فون مجيك H. VON MZIK (فيسا ١٢٢٩ . أعادت طبعه مكتبة المتن في بننداد) .

— السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : « تاريخ الخلفاء » ، القاهرة ١٩٣٢ .

— الشافعي ، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ / ٦٩٦ م) : « كتاب الديارات » ، بيروت ١٩٦١ .

— قدامة بن جعفر ، أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت ٣٢٧ هـ / ٩٤٨ م) : نبذة من « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » بتحقيق دى جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

— القلقشندي ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : « صيغ الأعشى في صناعة الإنشا » ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣ .

— الماوردي ، أبو الحسن علي بن حبيب البغدادي البصري (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م) : « الأحكام السلطانية » ، القاهرة ١٨٨١ .

— المسعودي ، أبو الحسن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) : « كتاب مروج الذهب » ، طبعة باريس (١٨٦١ / ١٨٧٧) . و « كتاب التنبيه والإشراف » ، (القاهرة ١٨٣٨) .

— المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت حوالى ٣٨٨ هـ / ٩٧٧ م) :

• أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ، ليدن ١٩٠٦ (أعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد) .

— المقرئى ، نقي الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) : • المواظ والاعتبار في ذكر الخطوط والآثار ، ، القاهرة ، ١٨٥٤ ، وأعيد طبعه بعد ذلك .
• إغاثة الأمة بكشف الغمة • بتحقيق زيادة والشبال ، القاهرة ١٩٤٠ .
• كتاب شذور العقود في ذكر النقود ، ، نشره أنستاس الكرملى في كتابه الأنف الذكر ، ١٩٢٦ .

— ياقوت الحموى : • معجم البلدان ، ، طبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٠٦ .
— اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) : • كتاب البلدان .

مؤلفات حديثة ومترجمات إلى العربية :

— آدم ميتز A. MEZ : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى • ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، في جزعين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ .
— أنور عبد العليم : • ابن ماجد للملاح • (سلسلة أعلام العرب رقم ٦٣) ، القاهرة ١٩٦١ .

— بلاشير ، ريجيس R. Blachère : • مختبرات من آثار الجغرافيين العرب ، ، باريس ١٩٣٦ .

— جورج فضل حورائى : • العرب والملاحة في المحيط الهندى ، ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٦٧ .

— حافظ وهبة : • جزيرة العرب في القرن العشرين ، ، القاهرة ١٩٣٠ .
— حسين فوزى : • حديث السندباد القديم ، ، القاهرة ١٩٤٣ .

— حسين مؤنس : • تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، ، مدريد ١٩٦٧ .
— كراتشكوفسكى (إغناطيوس يوليا نوتش) KRACHKOVSKI : • تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ، في جزعين ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٩ .

— نفيس أحمد : • جهود المسلمين في الجغرافيا ، ، تعريب فتحى عثمان ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

– نقولا زيادة : « الجغرافيا والرحلات عند العرب » ، بيروت ، ١٩٥٠ .
 – يسرى عبد الرازق الجوهري : « دراسة لتاريخ الكشف الجغرافية » ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

مراجع غير عربية :

AHMAD ZAKI PASHA : Une Seconde Tentative Des Musulmans Pour Découvrir , L'Amérique ,
 Dans "Bulletin De L'Institut D'Egypte" , 1921 .

AHMAD ZAKI WALIDI : Der Islam Und Die Geographische. Wis - Senschaft , Geographische
 Zeitschrift . 1934 .

DE LA RONCIERE , CHARLES : La Découverte De L'Afrique Au Moyen - Age Cartographes
 Et Explorateurs , Le Caire 1934 - 1925 -

DUBLER , CESARE : Abu Hamid El Granadino y su Relacion De Viaje Por Tierras EURO -
 Americanas . Madrid 1953 .

REINAUD , M . : La Géographie D'Abul - Fida , 2 Vol . Paris , 1922 .

FERRAND , GABRIEL : Le Tuhfat Al - Albab De Abu Hamid Al And - Alusi , Paris , 1925 .

HEYD , W . Histoire Du Commerce Au Moyen - Age , Paris . 1885 - 96 ; Reprint 1967 .

JWAIDEH , WADIE : The Introductory Chapters Of Raku's Mudjam Al - Bukdan , Leiden , Brill ,
 1959 .

KRAMERS , J . H . : Geography And Commerce , a Chapter In : The Legacy Of Islam , Oxford
 Un . Press , 1931 .

LEVI - Provençal , E . : Las Ciudades y Las Instituciones Urbanas Del Occidente Musulman En La
 Edad Media , Tetuan , 1945 .

MAQBUL AHMAD : India And The Neighboring Territories In Nuzhat Al - Mushtaq , Leiden ,
 Brill , 1964 .

MIELI , ALDO : La Science Arabe Et Son Role Dans L'évolution Scien - Tifique Mondiale , Leiden ,
 1939 .

الفصل السادس

الفنون عند المسلمين



الفنون تعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمخاليق :

للفنون في تاريخ الأمم دور كبير جدير بأن يقف عنده مؤرخ المجتمع الإسلامي ويعطيه ما هو جدير به من عناية ، لأن الفنون — دون سائر وجوه النشاط البشرى — إنتاج إنساني خالص يصور روح الشعب الذي صدر عنه وإحساسه وذوقه ومستواه الثقافي والاقتصادي في أحيان كثيرة ، وسواء أكان الفنان مبدعاً موهوباً ينتكر أسلوباً جديداً في التعبير الفني ، أو كان صانعاً فناناً يحتذى في عمله قواعد وتقاليد موروثة لا يتعداها ، فإن هذه الحقيقة لا تتغير . لأن الفنان المبتكر يعطى التعبير الفني عن الإحساس الشعبي طابعاً مميزاً شخصياً أو قد يوجهه وجهة جديدة ، والفنان الصانع يحافظ بعمله على تقليد فني متوارث نابع أيضاً من طبيعة الشعب الذي ينتسب إليه ، ولا بد من الإخلاص والإتقان في كل حالة ، لأن الفن — في صميمه — يقوم على الصدق والإخلاص كما يقوم على الإتقان .

وقد ظن أهل المحافظة على الموروثات أن الإنتاج الفني شر ينبغي تجنبه ، أو تعبير عن غرائز فاسدة ينبغي محاربتها أو سترها على الأقل ؛ ومن عباراتهم للأتورة في ذلك الحال : « إن الإنسان لا ينبغي أن يشتغل بما لا ينفع أو بما يشغله عن العبادة والتفكير في الله » . وقد فاتهم أن التعبير الفني جزء من طبيعة الإنسان بل الكائن الحي نفسه ، فإن الإنسان إذا غشى قلبه من الضروري أنه يفعل ذلك لأنه خليق أو قائل الرزاة أو حارج على الحشمة ، بل هو يغني لأنه إنسان .

وكذلك الحال في التصوير والنحت وغير ذلك من ضروب التعبير الفني ، فكلها تصدر عن الطبع البشري الذي يميل إلى الجمال ونصوير الجمال ومشاهدة الجمال ومحاكاته . والإنسان البدائي الذي خلف لنا رسومه على جدران الكهوف وعلى الصخور في البرية لم يكن خليعاً ولا قليل الحشمة ، وإنما كان محض إنسان أحس

بالجمال فشعر بإنسانيته ، ودفعه هذا الشعور إلى التعبير عما يحس فأمسك بما نيسر له من مادة يخط بها ، ورسم ما جادت به قريحته ، وكان ذلك من أوائل خطواته نحو الرق .

ومن المعروف أن الغناء والرقص عنصران أساسيان من حياة الشعوب البدائية التي لا تزال تعيش في عالمنا الراهن ، وهي كذلك جزء هام من حضارة أرق الأمم ؛ لأنه حيثما وجد إنسان فهناك تعبير فني ، أيما كان مستوى ذلك الإنسان من الرق والحضارة وأيما كان مستوى ذلك التعبير .

ولهذا كان من الطبيعي أن تكون للمجتمعات الإسلامية فروعها من كل نوع . وقد اتسعت ميادين هذه الفنون بقدر اتساع عالم الإسلام ، واختلقت أشكالها بقدر اختلاف طبائع شعوبه ، فنحن هنا أمام ميدان واسع متشعب الأطراف متعدد الصور والأشكال ، فهو يشمل المنشآت المعمارية والرسم والتصوير والزخرفة والموسيقى والغناء وأشكالا كثيرة تصنع بها أدوات منزلية أساسية كالسجاجيد والمشكاوات والصناديق ، وأدوات أخرى مما يستعمل للزينة الصرفة كالتعليق أو الأطباق التي تصنع من الخشب المخرم أو للزينة بالصدف والعاج أو من الفخار والخزف والزجاج . ويتجلى الإنتاج الفني الإسلامي كذلك في طرز معينة يزين بها قنسيج الغالي ، وغلافات الكتب وكتابة خطوطها وزخرفة صفحاتها أو تحليتها برسوم كبيرة أو صغيرة مما يعرف بالمنمنات . ويشمل ذلك الميدان صناعة الآلات الموسيقية وأشكالها ، وكذلك جانباً كبيراً من الإنتاج الأدبي ، وبخاصة ما يستعمل منه في الغناء الجماعي أو الفردي وغير ذلك كثير .

وهذا المجال الواسع للإنتاج الفني يشمل جميع نواحي حياة الشعوب الإسلامية على وجه التقريب . وهو مع اختلاف أشكاله وصوره له وحدة خفية وشخصية واضحة تميزه عن غيره ، فبكفى أن نرى قطعة صغيرة من عمل جرت فيه يد الفنان المسلم حتى نعرف أننا تأمل شيئاً صاغته يد فنان مسلم ، وسواء أكان ذلك الشيء نافذة مسجد في سلطنة بروناي في شمال جزيرة بورنيو ، أو قطعة حلد مشقول من عمل صانع فنان مغربي من أهل مدينة مراكش ، أو نعمة من يُشرف أبدهه موسيقي تركي ، أو صورة بستان رسمه مصور إيراني ، أو منبراً خشبياً صنعه نجار فنان مصري ، فإن هذه الأشياء كلها يجمعها طابع واحد ، ولا يمكن أبداً أن نخفى علينا

صفتها الفنية الإسلامية . وهذه هي الحقيقة الرئيسية التي يجب أن تنبئ إليها في مستقبل كلامنا الموجز عن فنون الشعوب الإسلامية ، وهي أنها فنون ذات شخصية فنية متميزة تنطق بحقيقتها ولا يمكن أن تلتبس بغيرها .

ميلاد الفنون الإسلامية :

وقد نشأ الفن الإسلامي كله عن فيض العاطفة الدينية عند المسلمين ، فقد كان في بدايته تعبيراً عن الإحساس الديني . وقارئ القرآن الكريم لا يزال يصادف في آياته ما ينبيه إلى الإحساس بجمال الكون ، ويدعوه إلى تأمل بديع صنع الله . وفي كثير من الآيات القرآنية تشعر بأن الخلق كله إبداع فني عظيم فياض بالجمال^(١) ، ولا غرابة — لهذا — أن يكون القرآن نفسه منبعاً من منابع الإلهام الفني عند المسلمين .

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الفن والدين ، فإن عمارة المساجد هي أصل فن العمارة الإسلامي كله ، وقد نشأت الزخارف الإسلامية لزينة النوافذ وملء فراغ الجدران وتجميل السقوف ، وقد روعي فيها أن تكون أشكالاً هندسية

(١) جاء في كتاب مبادئ الفلسفة والأخلاق (د . محمد عبد الحادي أبو ريدة من ٢٤٧ ، ٢٤٨) : « تكلم القرآن عن جمال السماء ، عن ربهما بما هما من كواكب » و« عنهما آياتاً بأنها مصابيح » وتكلم عن الشمس والقمر ، والحلقة تكلم عن النساء على نحو يعت في نفس التأمل شعوراً بعبقريتها وجمالها الفائق والامتداد الكبير ، وهذا ما يسمى بالخيال الرياضي عند بعض علماء تقدير الجمال (لكانويل كالت) .

وتكلم القرآن عن ربه الأرض بعد أن يتر بالهياة هونت فيها كل روح صبح ، وتظهر فيها آثار الخلقة الكواكب ، وأشار إلى ما يكون هناك من حدائق ذات بهجة ، وتكلم عن ربه الأرض بالجمال على اختلاف ألوانها ، وتكلم بعض آيات القرآن نوحى للسامع بأن يرسم لوحة للسموات حتى يتكلم عنها

وتكلم القرآن عن ربه الهياة الدنيا وأن الدنيا محوطة لجمالها وروبتها ، بل هو يشير إلى الشر وماله من ربه عذابة .

ولم يخل القرآن من إشارة إلى التجربة الحسائية للذلة التي يسي فيها التأمل للجمال عن نفسه (س ٣١/١٢) .

وقد تبه بعض العلماء (العرالي) هذه التجربة واصبرها حالة شاد في إدراك الجمال .

ويؤيد من القرآن أن كل شيء في العالم له جمال ، لأنه صبح الله أسس الخلقين ، الذي « أتق كل شيء » و« أحسن كل شيء خلقه » . وقد رسم القرآن مناظر جعل وحسن في الحياة الأخرى .

هذا إلى أن طريقة التعبير القرآن تشعروا بالجمال الموصى . فالأعمال الحرة توصف بالحبس وهي « حبس » ، و« نافذ تنطق له الأسماء الحسنى » .

أر نباتية حتى تبعد ابتعاداً حاسماً عن تصوير الشخص ، واستعمل المسلمون الكتابة كوسيلة زخرفية حتى يستطيعوا التفنن في كتابة آى القرآن والأحاديث النبوية وأسماء الخلفاء الراشدين والصحابة . حتى الألوان التي استعملها المسلمون تحروا أن تكون قد وردت في القرآن الكريم كالأخضر والأحمر والأصفر والذهب والفضة ولون السماء وهو الأزرق . وقد بلغ من براعة المسلمين في صناعة الأصبغة التي عملوا بها وسومهم أو لونوها بها أننا نجد اليوم ألواناً معروفة بنسبتها العربية ، فيقال مثلاً : اللون الأزرق العربى Bleu d'arabie والأخضر العربى الزمردى Emerald Arab green والأصفر الصحراوى Sahara yellow .

وفى بعض الأحيان نجد أن الفنان المسلم يستعمل الزخارف والأشكال ليصور ما يخاطر بباله وهو يقرأ آى القرآن الكريم ، كما ترى في زخارف قاعة السفراء في قصور الحمراء في غرناطة بالاندلس (جنوب إسبانيا) ، فهي تصوير زخرفى للآيات ٣ — ٦ من سورة تبارك التي تسمى أيضاً سورة الملك وهى السابعة والستون من سور الكتاب الأكرم .

ومثل هذا يقال عن موسيقى الشعوب الإسلامية التي تسمى أحياناً بالموسيقى العربية ، فقد نشأت في الأصل ترتيلاً وإنشاداً دينياً ومحاولة لتجويد القرآن الكريم ، ثم اتسع مجالها بعد ذلك . وليس معنى هذا أن الأصول الفنية للموسيقى العربية كلها دينية إسلامية ، فإن تلك الأصول نبتت من مناهل شتى ترجع إلى أصول حضارات الشعوب التي تكون منها عالم الإسلام ، ففيها عناصر مصرية وإيرانية وهندية وبيزنطية وأفريقية وعربية جاهلية سابقة على مجىء الإسلام ، ولكن العاطفة الإسلامية احتوتها وسيطرت عليها وأعطاها طابعاً دينياً لازماً بعد ذلك برغم تشعب مياديتها ، وإلى يومنا هذا ما زال الغناء العربى لوناً من الترتيل والترجيع والتجويد ، فيما عدا بعض الحديث من الأنغام التي غلب عليها الطابع الأوروبى .

وهذه الصلة الوثيقة بين الروح الإسلامية والإنتاج الفنى في الشعوب التي آمنت بالإسلام صلة طبيعية منطقية نجد ما يشبهها في العالم المسيحى ، فهناك أيضاً ولد الفن الغربى في مهد الدين ، فكانت الكنائس والأديرة ميدان الابتكار في العمارة ، وفيها — قبل غيرها — ظهرت طرز العمارة الرومانية والقوطية والنورمانية

والموريسكية المُنْجِيَّة وما إليها ، وعلى جذران الكنائس أو في لوحات عُلقت عليها
وُلد التصوير الغربى ، وكان في أول أمره تصويراً لمشاهد من الكتاب المقدس ، وفي
الصلوات والإنشاد الكنائسين ولد جانبٌ كبير من الموسيقى الغربية .

وذلك كله طبعى ، لأن الفن تعبير عن الإحساس وتصوير له ، وليس في أحاسيس
البشر ما هو أعمق وأجمل من الإحساس الدينى ، ولقد قال الموسيقى الأشهر
سباستيان باخ : « إن شعورى بجمال الخالق يصل إلى أقصى عمقه عندما أجلس
إلى الأرغن في الكنيسة وأعزف مقطعاتى أو متابعاتى » .

الفنون الشعبية والفنون المصقولة :

وعند دراستنا لتاريخ أى فن من الفنون عند أى أمة من الأمم ، ينبغي أن نلاحظ
أنه وجد دائماً نوعان من التعبير الفنى : نوع شعبى ساذج ، ونوع مصقول مهذب .

فالشعبى ما يصدر عن جمهور الناس بالفطرة ، من إنشاد جماعى أو فردى ،
وعزف يهتم قبل كل شيء بالإيقاع ، لأنه يصاحب الرقص ، وغناء بسيط يتهاشى
مع بعض وجوه العمل ، كالخداء أثناء السفر ، وإنشاد العمال أثناء العمل ، وغناء
الفلاحين في الحقول ، وعزف الراعى لاستدعاء الغنم أو الجمال ، وقرع الطبول
لحشد الناس إلى الحرب ، أو الرجز أو الرجز للذين يصدران عنو الحاطر عن أبناء
الشعب دون تكلف أو تصنع ، وتصلوير الخواطر التى لا تخلو منها تقاليد أى شعب
من الشعوب ، والتماثيل التى يصنعها الناس ما بين بدائيين ومتقدمين ؛ وهذه — فى
مجموعها — نسمى بالفنون الشعبية *folk arts* وقد تسمى بالفولكلور *folklore*
(المأثور الشعبى) .

أما النوع المصقول فهو فى الأصل ضرب من الفن الشعبى ، يصوغه أفراد بلغوا
مستويات متفاوتة من الثقافة والعلم ، وينتجه اهتمامهم إلى أن ينشئوا إنتاجاً فنياً رفيعاً
مصقولاً ، وتنتفح أمام أهله أبواب الإنتاج الفنى المنهجي المنظم ، كما نرى فى الشعر
الموزون المقفى على البحور ، والنثر الفنى ، والموسيقى المنهجية التى تقوم على علم
النغم ودراسة للأصوات وأشكالها ودرجاتها .

وقد عرفت شعوب المسلمين هذين الضريين من الفن ، فتجدهما دائماً جنباً إلى جنب . فعاش الرجز ثم الزجل والموشح إلى جانب القصيدة ، وعاشت أغاني الشعوب الجماعية إلى جانب مقطوعات المغنين المحترفين ، وعاشت رسوم مناظر الحياة الشعبية على جدران البيوت ، إلى جانب روائع الأعمال الفنية في زينة المساجد والقصور ولوحات بهزاد وسلطان محمد وتماتيل محمود مختار .

ومنضمن هنا كلامنا النوعين معاً ، لضيق المجال أولاً ، ثم إن الانتماء الثقافي العالمي اليوم ينجمه إلى صياغة طراز واحد من الفن ، شعبي ومصقول في آن واحد .

وجدير بالذكر أن أهل الفكر في العصور الوسطى كانوا يضعون حدّاً فاصلاً بين ما يعتقدون أنه الشعر والنثر الحقيقيان الجديران بالدراسة والتقدير ، والإنتاج الأدبي الشعبي من قصص شعبي وزجل وموشح ، ولهذا فقد كانوا يرفضون أن يدخلوا في مؤلفاتهم كلاماً عن « ألف ليلة وليلة » أو عن قصة « الظاهر بيبرس » أو « الأميرة ذات الحمة » أو « تغرية بنى هلال » . وكانوا يحرصون كذلك على ألا يوردوا شيئاً من أزجال ابن فرمان أو عبادة بن ماء السماء ، ظناً منهم أن ذلك إنتاج فني وضع غير جدير بأن يحفظ به . ولكن الأمر تغير تغيراً حاسماً في أيامنا هذه ، وتبين أن حكايات « ألف ليلة وليلة » مثلاً هي أذيع الآثار الأدبية العربية في العالم وأكثرها أثراً في الفكر العالمي ، وكذلك الموشحات الأندلسية كانت ذات أثر بعيد في نشوء الشعر الفرنسي في جنوب فرنسا . والحقيقة أن الإنتاج الفني الشعبي قد يبدو ساذجاً وغير مصقول ، وربما بدا لنا جافاً أحياناً ، ولكنه في الحقيقة صادق ونابع من طبيعة الحياة نفسها دون تكلف أو تصنع ، ومن ثم فإن أثره في النفوس أوسع مدى من أثر الإنتاج الأدبي المصقول الذي لا يخلو — في الغالب — من تكلف وتصنع ولا يتلوه إلا عدد قليل من الخاصة .

ميلاد فن العمارة عند المسلمين — المساجد الأولى :

وفد ولد فن العمارة الإسلامي في المدينة المنورة بمولد مسجد النبي — ﷺ — في العام الأول للهجرة ، فهو وإن كان إنشاء بالغ البساطة يتضمن الحد الأدنى الضروري لإقامة شعائر الدين ، إلا أن تصميمه جمع معظم العناصر التي ستكون منها المساجد فيما بعد ، والتي ستكون ميدان الابتكار والتجويد للمعماريين

المسلمين ؛ ففيه بيت الصلاة ، والصحن ، والقبلة ، والمحراب ، والمئبر ، وهذه هي الأجزاء التي لا يستغنى عنها جامع إسلامي . أما الأجزاء الأخرى — مثل المئذنة والقبية والمبضأة والمقصورة — فمحسنات ابتكرت فيما بعد ، وهي لا تكون عناصر أساسية في الجامع ، ومن هنا فإنه يبدو غريباً أن ذلك المسجد النبوي البسيط قد حدد هيئات المساجد العامة فيما بعد .

بُنِيَ مسجد الرسول ﷺ بالمدينة أول مرة في السنة الأولى للهجرة (٦٢٢ م) ، وقد أعيد بناؤه بعد ذلك مراراً ، لأن ذلك المسجد تطور مع تطور الدولة الإسلامية . ومن هنا فإن للراحل التي تم بناؤه عليها تعد أجزاء أو مظاهر من التطور العام للحضارة الإسلامية .

وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لأن كبار معاجدنا تعد أجزاء من تاريخنا الحضاري والسياسي ، ونلاحظ أنها مرت في سلسلة من التطور موازية لسلسلة التطور السياسي والحضاري . ولنأخذ مثلاً مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، فقد بنى أول الأمر على هيئة مستطيل طوله ٧٠ ذراعاً وعرضه ٦٣ ذراعاً ، وجعل جداره الشمالي (طوله ٦٣ ذراعاً) ناحية القبلة ، وكانت إذ ذاك بيت المقدس أي إلى الشمال ، وبمحاذاة ذلك الجدار أنشئت ظلة أو عريش مغطى بسعف النخل ومرفوع على جنوع نخل ، وكانت هذه الظلة لا تزيد في الاتساع على ست أذرع ، أي أنه كان يحملها حوالي ستين جذع نخلة . وفي العادة يسمى الجزء المغطى من المساجد ببيت الصلاة ، وعلى ذلك جزء واسع غير مغطى يسمى بالصحن . وفي أيام الرسول ﷺ كان الناس يتجمعون ويتلاقون في الصحن ، أما الصلاة فكانت تقام في بيت الصلاة ، إلا في أيام الجمع فقد كان بيت الصلاة والصحن يستعملان للصلاة . وقد أنشئت في الجدار المقابل لجدار القبلة ظلة أخرى أقل عمقاً من الأولى ، وتلك هي الصفة التي كان يأوي إليها أهل الصفة . وإلى شرق تلك الظلة ابني الرسول ﷺ — حجراته التي عاش فيها بقية عمره ، وقد بنيت في صف واحد وأبوابها كلها تفتح على صحن الجامع ، ولم يكن لها كلها أبواب بل كان بعضها مغطى بستارة نخل محل الباب . وفي جوف بيت الصلاة وضعت حربة تعين اتجاه القبلة ، وسمى موضع هذه الحربة بالمحراب . وإلى يمين المحراب بنى شيء أشبه بسلم من يضع درجات ، ينتهي بموضع صغير كان الرسول ﷺ يلتقي حطبه من عليه ، وهذا هو المئبر . وقد بنيت جدران الجامع

باللبن . أما الأذان فكان ينشد من أعلى غرفة حفصة أم المؤمنين ، وهذه هي الصورة الأولى للمثناة . وعلى هذه الصورة كان المسجد يمثل الحالة الحضارية في المدينة أول ما أنشئ المسجد ، وقد وسع المسجد أيام الرسول ﷺ نظراً نحو الجماعة الإسلامية .

وفي عهد أبي بكر جدد بناء المسجد على نفس الخطوط التي كان عليها أيام الرسول ﷺ ، ولكنه استبدل بجلوع النخل والجريد غيرها .

وفي أيام عمر أعيد بناء المسجد ، فاستبدلت بجلوع النخل أساطين من لبن ، وجعل سقف بيت الصلاة من الخشب بدلاً من الجريد . وحافظ عمر على بساطة المسجد ، فأمر البناء ألا يُحمر ويصفر حتى لا يفتن الناس . وزاد عمر في طول المسجد وعرضه ، فأصبح الطول ١٣٠ ذراعاً والعرض ١٢٠ ذراعاً (الفراع = نصف متر تقريباً) .

وقام عثمان بن عفان بتجديد المسجد سنة ٢٧ هـ/٦٤٩ م ، فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والجص ، وجعل عمله من الحجارة المنحوتة وسقفه بخشب الساج . وأشرف زيد بن ثابت على البناء ، وفتح نوافذ مرتفعة في الجدارين الشرقي والغربي قريبا من السقف .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك ، قام والده على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وإعادة بنائه فيما بين سنتي ٨٨ و ٩١ هـ/٧٠٦ - ٧٠٩ م ، فبنى المسجد كله بالحجارة المنحوتة ، وزيد في عرضه ، وجعلت له أبواب خشبية جميلة . ومعنى ذلك أن المسجد تماشى مع نمو الجماعة الإسلامية وتطورها إلى إمبراطورية ، وقد استندى ذلك زيادة مجنبتين على الجانبين الشرقي والغربي للمسجد ، تتكون المجنبة الشرقية من أربعة أروقة تحملها أربعة صفوف من الأعمدة ، أما المجنبة الغربية فكانت من ثلاثة أروقة تحملها ثلاثة صفوف من الأعمدة . وفي الناحية الجنوبية أضيفت مجنبة ثالثة يزيد عمقها على جوف بيت الصلاة ، ومعنى ذلك أن المسجد أخذ بالفعل صورة قرية من صور المساجد الإسلامية الكبرى مع المحافظة على شكله العام وشخصيته .

وفي أيام الخليفة العباسي المهدي أعيد بناء المسجد على هيئة جديدة ، فأصبح

مستطيلاً مساحة ١٦٥×٢٢٥ ذراعاً ، يتوسطه صحن ، يحيط به من الشمال بيت صلاة عميق ، ومجتبان : شرقية وغربية ، ومجبة ثالثة جنوبية .

وقد احترق هذا المسجد سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م ، وأعيد بناؤه على نفس الميكل ولكن بحجارة مصقولة ، وأدخلت فيه أعمدة من الرخام بلغ عددها ٢٩٠ عموداً ، ووضعت له أبواب خشبية جميلة ، وأضيفت له مثانة عالية . ومعنى ذلك أن هذا الجامع تطور خطوة خطوة مع تطور الجماعة الإسلامية ودولتها ، ولا يزال يتطور إلى يومنا هذا .

والمسجد النبوى الشريف الحالي أنشئ في أيامنا هذه ، وهو يصور أعلى مستوى بلغته الهندسة العربية ، وهو أيضاً مثال من مساجد أخرى كثيرة تطورت بتطور الجماعة الإسلامية بحيث يعد تاريخها رمزاً على تطور الجماعة الإسلامية من حوها . وهذا يصدق على مسجد البصرة الذى اختطه عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ/٦٣٥ م ، ولم يجعل له جداراً بل أحاطه بخندق ، وجعل سقف بيت الصلاة فيه القصب والجريد مرفوعاً على جلول النخل ؛ وينطبق أيضاً على ثالث المساجد الجامعة في تاريخ الإسلام ، وهو مسجد الكوفة الذى اختطه سعد بن أبى وقاص سنة ١٥ هـ/٦٣٦ م وأعاد بناءه زياد بن أبيه سنة ٥١ هـ/٦٧٠ م ، وعلى مسجد عمرو بن العاص في القسطنطينية ، وهو رابع المساجد الجامعة في تاريخ الإسلام ، وقد بنى أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وعلى المسجد الجامع في القيروان الذى بنى أول مرة على يد عقبة ابن نافع فيما بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ - ٦٧٥ م .

فهذه المساجد الجامعة وغيرها مما أنشئ في عواصم الإسلام بعد ذلك تطور بناؤها مرة بعد مرة وسار موازياً لتطور الجماعة الإسلامية نفسها .

وقد اكتملت العناصر الفنية للمساجد قبل نهاية القرن السابع الميلادى ، فقد أنشئت المحاريب المنجوفة وظهرت المآذن وأمكنة الوضوء والمقصورات ، بل ولدت القباب الإسلامية بإنشاء قبة الصخرة ، وكذلك أدخلت المحاريب المزخرفة في نفس الوقت . ومن ذلك الحين لم يدخل على المساجد الإسلامية عنصر أساسى جديد ، وإن كان كل واحد من العناصر التى ذكرناها قد تطور على حدة في كل ناحية من بلاد الإسلام تقريباً .

المساجد تجمع بين عنصرين متناقضين (البساطة والجلال) :

ولم يعرف تاريخ فن العمارة الإسلامى طُرُزاً عامة يسود كل منها عالم الإسلام كله في فترة معينة ثم يحل محله طراز آخر ، كما نرى في طرز العمارة الأوروبية الرومانية والقوطية وطرز النهضة والركوكو وما إلى ذلك ، ولكن لدينا طُرُزاً إقليمية يعمل كل منها طابعاً محلياً متأشياً مع التقاليد المعمارية لإقليمه ، فهناك الطراز الأموى والعباسى والمساجد المصرية والمغربية والأندلسية والإيرانية والهندية والتركية والمملوكية ، وقد يتطور كل واحد من هذه الطرز في ناحيته التى نشأ فيها ، ولكنه يظل محتفظاً بطابعه الخاص . وقد تشيع عناصر عمارة من هذا الطراز أو ذاك في عالم الإسلام كله ، ولكن ذلك لا يغير شخصية الأثر العمارى نفسه ، فيظل المسجد المملوكى مملوكياً — مثلاً — برغم اقتباسه المقتبسة التركية .

وبرغم هذا الاختلاف في أشكال المساجد فإن الروح العامة لها تظل واحدة . والمسجد الإسلامى في كاتو في شمال نيجيريا هو المسجد نفسه في طشقند ، والسبب في ذلك أن نقطة البداية واحدة ، والمقاصد الرئيسية من بناء المساجد واحدة كذلك . وقد رأينا ميلاد المساجد في المدينة المنورة وكيف أنها كانت محض أمكنة مخصصة للصلاة ، ورأينا كذلك كيف تطورت المساجد بما يلائم الطفرة الواسعة التى حققتها الدولة الإسلامية ، فانتقلت من البساطة إلى الفخامة والجلال ، مما استدعى هدمها وبناءها مرة بعد مرة ، مع المحافظة على طابع البساطة الأول .

وتلك عى المشكلة الرئيسية التى واجهت — وما زالت تواجه — المماريين في إنشاء المساجد ، لأن المسجد — كفكرة — لا يقبل التغير ، فلا بد أن يظل مكاناً للصلاة فحسب ، دون أن تضاف إليه أجزاء أساسية كالتي نغدها في الكنائس المسيحية مثلاً ، كالمذبح وغرف القساوسة والشماسية ومكتب القس المشرف على الكنيسة وأمكنة لحفظ سجلات الكنيسة وأخرى لحفظ ذخائرها ، ومكان لكى يغير فيه رجال الدين ملابسهم ليتخلوا ثياب الصلوات والقداس المختلفة الألوان والأشكال مما اقتضى أن تكون الكنائس أمكنة للصلاة ومكاتب إدارية ودور محفوظات ، وربما أنشئت إليها مساكن للقس ومساعديه ، ولهذا نجد الكنائس كثيرة الأبنية متعددة الغرف والأجنحة .

ومع أن المساجد استعملت على طول العصور الإسلامية لأغراض أخرى إلى جانب الصلاة ، فكانت دوراً للقضاء ومجالس لأهل العلم ، إلا أن ذلك لم يقتض إدخال أى تعديل جوهرى على المبنى ، فكان القاضي يجلس فى ركن من أركان الجامع يحضر للقضاء ، وكان الشيوخ يجلسون للإقراء وحولهم تلاميذهم مفرقين فى نواحي بيت الصلاة أو الصحن ، وهكذا ، ومن هنا ظل المسجد محافظاً على طبيعته وشخصيته الرئيسية .

وقد أراد العماريون أن يضيفوا على ذلك المبنى البسيط الذى لا يحتمل الزيادة جلالاً وفخامة يتناسبان مع نمو الجماعة الإسلامية ودولتها ، وقد توصلوا إلى التوفيق بين هذين المتناقضين بطرق شتى ، مثل تغطية السقوف وتضخيم الجدران والتأنيق فى أوضاع الأعمدة وأشكال أقواسها والابتكار فى أشكال المحاريب والنابر والظنن فى هياكل القباب والمآذن ، ولجئوا كذلك إلى استخدام مواد نبيلة بدلا من المواد العادية ، فاستبدلوا بالطلوب اللبن الطوب المحروق أو الحجارة المنحوتة ، واستبدلوا بهذه الحجارة النقوش ، واستعملوا أعمدة الرخام وتفتتوا فى قواعدها وأبدانها وتيجانها وطبقاتها ، واستعملوا الأخشاب العالية كالساج (وهو الماهوجانى) والصنوبر والسنديان بدلا من خشب الأشجار العادية ، وزحرفوا الخشب ، واستعملوا الألوان ، وجعلوا حنايا المحاريب من الرخام الملون ، وزينا الجدران بالتوافذ ذات الزجاج الملون . وابتكروا أشكالاً من الأقواس الصماء تزين الجدران ، وفى بعض الأحيان نهدمهم نعدوا استخدام قطع ضخمة من الحجر الجبرى للصقوف فى بناء جدران عالية بحيث يرتفع السقف عشرات الأمتار ، مما يجعل المصلى يشعر وكأنه يمشى فى فراغ واسع يملأ القلب خشوعاً ورهبة .

هذا إلى التفتن فى إنشاء القباب وتزيينها من الداخل بالزخارف ومن الخارج بزخارف النقاشات ، وتفتتوا كذلك فى أشكال المآذن . وهكذا عرف العمارى والفنان المسلمان كيف يفسحان لفتنهما المجال للابتكار والتخليق مع المحافظة على طابع البساطة الذى لا بد منه للمساجد ، وفى هذه الناحية نستطيع القول بأن العماريين المسلمين عرفوا كيف يتكروا أشكالاً هى الغاية فى الفخامة والروعة دون أن يمسوا جوهر المساجد .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تطور فن العمارة الدينية فى الإسلام ، فإن المسلمين

أنشأوا عشرات الأكواف من المساجد ، ومن هذا الحشد الخافل من بيوت الله تبرز
بضع مئات تعد بالفعل أعمالاً فنية جديرة بالتسجيل والتأريخ . وما زلنا ننتظر أن
ينشر أطلس عام يسجل لنا هذه المساجد ويصورها ويبين نواحي امتيازها الفني ،
فهذا عمل لا بد أن يتم . وقد ألف الناس كتباً كثيرة عن المساجد الإقليمية ، ولكن
الذى يفتقنا هو كتاب عام عن المساجد الإسلامية .

وستكتفى هنا بالكلام عن الخصائص الفنية المميزة لمدارس العمارة والفن
الرئيسية ، ولا بد قبل ذلك من أن تقول كلمة يسيرة عن أثر عمارى يحتل مكانة
ممتازة في تاريخ العمارة الإسلامية ويعين خطوة انتقال حاسمة في تاريخها برغم أنه
بنى في عصر مبكر ، وهو قبة الصخرة في مدينة القدس .

تم بناء قبة الصخرة — التى تسمى أحياناً بمسجد الصخرة — في عهد عبد الملك بن
مروان ، الذى يعد من أكبر المنشئين في تاريخ الإسلام ، ويقال إنه أنفق في بنائه
خراج مصر لمدة سبع سنوات ، أى حوالى ٣١ مليوناً ونصف المليون من الدينار ،
وهو مبلغ مبالغ فيه حتى عندما نعرف أن الدينار العربى في عصر عبد الملك يساوى
نصف الدينار الكويتى أو العراقى ونصف الجنيه الإنجليزى .

وقد أنشئت هذه القبة لكي تحمى الصخرة ، وهذه الصخرة هى عبارة عن قبة
جبل موريا ، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٢٧,٧٠ متر وعرضها من الشرق
إلى الغرب ١٣,٥٠ متر ، وهى صخرة كانت مقدسة قبل الإسلام ، وتذهب
الروايات الإسلامية إلى أن رسول الله — ﷺ — عندما أسرى به ليلاً من مكة
نزل عند قبة الصخرة ، وهناك صلى لله سبحانه وتعالى قبل أن يخرج به إلى السماء
من جوارها ، ولهذا فعندما فتح المسلمون مدينة القدس حرص عمر على أن ينشئ
بناء فوق الصخرة ليحميها من الشمس والمطر .

والغالب أن هذا البناء كان ظلة من الخشب ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك
قرر أن يبنى حول الصخرة وفوقها بناء عظيماً ، وبطبيعة الحال استخدم في إنشائه
عمالاً وصناعاً من أهل الشام ممن تعلموا في مدرسة الفن البيزنطى . ولما كان القصد
من البناء إقامة قبة فوق الصخرة ، فقد كان لا بد أن يستخدم العماريون أعظم
ما لديهم من الخبرة الفنية لكي يقيموا ذلك البناء ، فأقاموا بناء معقداً ذا ثمانية أضلاع
يحيط بالصخرة على مسافة منها من كل ناحية ، وفي داخل هذا البناء أقاموا جداراً

آخر موازياً له ، ولكنه يرتفع على أعمدة وأساطين لا على جدران ، وما بين الجدار الخارجى وهذا البناء الداخلى مساحة واسعة تستعمل مطافاً يمر فيه الناس حول الصخرة ويقومون فيه صلواتهم ، ولذلك تسمى قبة الصخرة بمسجد الصخرة أيضاً ، وفوق أعمدة ذلك البناء الداخلى أقيمت قبة عظيمة مرتفعة هى التى أعطت البناء اسمه .

وقد زخرفت جدران مبنى القبة الداخلية والخارجية بالنقوش الملونة على أحسن صورة ، ويزيد فى قيمة هذه النقوش أنها صنعت فى الغطاء الرخامى الذى يطنن به الجدران فى كل ناحية . فأما الزخارف الموجودة خارج المبنى فكلها عربية ، وهذه أول مرة نرى فيها الزخارف العربية الجميلة وما تتضمنه من أشكال هندسية ونباتية متداخلة هى الغاية فى الجمال ، وفى أعلى الجدران — قبل القبة — أضاف العماريون نوافذ تقوم على بوائك زخرفية صغيرة زينت بالزجاج الملون .

وبعد اقدار العمارين المسلمين على إنشاء هذا الأثر الجميل من دلائل العبقرية الفنية العربية ، وهذا المبنى — بما فيه من الزخارف والألوان وما استعمل فيه من المواد — كان عملاً فنياً فتح أمام العمارة الإسلامية أبواباً واسعة من التطور فيما بعد ؛ وقد تم بناء هذا المسجد فيما بين سنتى ٦٦ — ٧٢ هـ / ٦٨٥ — ٦٩١ م .

الفن الأموى فى المشرق :

نقطة البداية فى هذا الفن العمارى هو مبنى قبة الصخرة الذى ذكرناه والمسجد الأقصى فى صورته الأولى . وجدير بالذكر أن المسجد الأقصى يقوم على المساحة نفسها التى يقوم فيها مسجد الصخرة ، وكان أول من أنشأه عمر بن الخطاب ، ولكن بنائه الحالى يعود إلى عصر الوليد بن عبد الملك ، فقد أعاد بنائه سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م وإن كان هناك من يقولون بأن الذى بناه كان هبىد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م . وقد أعيد بناؤه بعد ذلك مراراً عديدة ، ولكن هيته — التى تعد نموذجاً للعمارة الأموية المشرقية — هى التى كانت له أيام الوليد بن عبد الملك . وكان يتكون من بيت صلاة واسع يقوم سقفه على تسعين عموداً من الرخام ، ويتألف من عشرة أروقة متوازية كلها تسير فى اتجاه القبلة ، ويقوم السقف فوق الأعمدة مرفوعاً على أقواس نصف دائرية ، وترتبط الأقواس بعضها إلى بعض أربطة

خشبية ، وقيل السقف صف من التوافذ الصغيرة يتخذ منها الضوء إلى داخل الصحن .

أما المسجد الذى يهد — إلى الآن — نموذجاً حياً للعمارة الأموية الشرقية ، فهو المسجد الأموى بدمشق ، وما زال باقياً إلى اليوم محفظاً ببيته العامة ، وهو دون شك من أعظم ما أنشأ المسلمون من مساجد وأكثرها فخلة ، وقد بدىء فى إنشائه أيام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م ولم يتم إلا سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م . وكانت مقاييسه على عهد الوليد ١٦٠ × ١٠٠ متر ، وبيت الصلاة فيه عمقه ٣٦ متراً ، ويتكون من ثلاثة أساكيب ، والأسكوب هو صف الأعمدة الذى يوازى جدار الخراب ، أما صفوف الأعمدة الرأسية على جدار الخراب فتسمى بالبلاطات ، والممرات بينها تسمى بالأروقة . وبيت الصلاة يبدو فى هذا المسجد قليل العمق بالنسبة إلى عرض المسجد ، فهو لا يكون إلا الثلث تقريباً ، ونتيجة لذلك فإن الإنسان إذا دخل المسجد وواجه جدار القبلة يشعر بأنه فى إيوان مستطيل لا يتناسب طوله مع عرضه .

ويحتل هذا المسجد مكانة بارزة فى تاريخ العمارة الإسلامية ، نظراً لما يمتاز به بيت الصلاة من فخامة ورواء وارتفاع فى السقف وتناسق فى الأعمدة والأقواس ، وكذلك بسبب القبة الصغيرة التى يزدان بها سقفه . وربما كان صحنه من أجل صحنون المساجد الإسلامية ، فإن طوله ١٢٥ متراً وعرضه ٦٠ متراً ، ويحيط به من جوانبه الشرقية والغربية والشمالية مجنبات من رواق واحد ، وتقوم على أعمدة رخامية تحمل أقواساً دائرية تزيناها من أعلى توافذ صغيرة ، يفصل بين كل اثنين منها عمود رخام أو سارية ، وأرضية الصحن كلها مفروشة بالحجر المصقول ، ويمتاز هذا المسجد بزخارف وكتابات هى الغاية فى الجمال والرواء ، ويهد نموذجاً للفن الإسلامى فى دوره الأول ، عندما كان متأثراً تأثراً واضحاً بالعملة البيزنطية .

وتمتاز المساجد الأموية كلها بالرفانة والجلال والأصالة والمتانة ، فإن السنين تعبر بهذه العمائر فلا تتأثر ، وتحفظ بروائها الأول مهما مر بها الزمان أو تعاقبت عليها الأحداث ، حتى الفسيفساء التى تزين جدرانها تظل باقية على حالها ومحفوظة بألوانها . ولا تعرف هذه المساجد الإسراف فى الزينة والزخارف والألوان ، وإنما يحمدها

كله على التناقض بين خطوطها وعلى ما تمتاز به من مهابة ، وكذلك على المواد الثبيلة التى تبني بها .

ويدخل فى نطاق العمارة الأموية القصور التى كان الخلفاء والأمراء يتخذونها فى الصحراء ، لينعموا فيها بمظاهر من الحياة البدوية البسيطة من ناحية ، وليلتقوا للذئابم العنان بعيدا عن أعين الناس من ناحية أخرى .

ولدينا من هذه القصور نوعان : البوادي وهى قصور ريفية بسيطة فى تكوينها ، يتألف الواحد منها من بيو كبير للجلوس ، وغرفتين جانبيتين الغالب أنهما للنوم ، ومجموعة من الغرف الصغيرة الأخرى ، وأكبر ما يميزها هى الحمامات . ومثال هذه القصور قصير غمرة الذى اكتشفه الباحث ألويس موسيل سنة ١٧٩٨ م ، وهو من بناء الوليد بن عبد الملك ، وهيئة العامة كما وصفنا ، وكان فيه حلمان على الأقل ، وقاعات الحمامات واسعة عالية السقف مبطنة بالرخام إلى ارتفاع مترين ، وعلى ذلك أحزمة من التماثيل الزخرفية من الفسيفساء ، وغالبا يمثل مناظر اللهو والمتاع . وكان الماء يجلب لذلك القصر من بئر عميقة ، ويساق فى أنابيب ترفعه إلى أعلى البناء ، وهناك يصب فى الأحواض ، وكانت هناك أنابيب للماء الساخن وأخرى للماء البارد .

أما النوع الثانى من القصور الأموية فهو نوع الحيرة ، ونموذجه الذى عثرنا عليه هو قصر المشتى ، وهو قصر كبير على الجدران والأسوار ، واسع الأبعاد ، وقد أقيم داخل أسوار حصن من الحصون الرومانية ولم يكن قصر الحيرة يستعمل دار لمروراحة فى أثناء نزعات الصيف كما كان الحال مع البادية ، وإنما هو قصر ملكى كبير يقضى فيه الخليفة وقتاً يدير الأمور بعيداً عن زحمة الناس فى دمشق .

وقد ورث الأمويون فى الأندلس الاتجاه نحو بناء هذه القصور ، فأنشأ عبد الرحمن الداخل قصر الرصافة شمال قرطبة واتخذ الأمراء ورجال الدولة الحيرات فى ضواحي العاصمة .

وكلا نوهى البوادي والحيرات يصور لنا العمارة المدينية خلال العصر الأموى ، وهى عمارة تمتاز بجلال المظهر وفخامة الهيئة ، والزخرفة المحددة واستعمال

الفيلسوف ، والاحتباس دون حرج من الفن البيزنطي ، وإطلاق الحرية للفنان ليؤلف من هذه الاقتباسات ومن مبتكراته طرازاً خاصاً .

العمارة في العصر العباسي :

لم يبق من آثار العمارة العباسية في بغداد والرقعة وواسط وغيرها من مدن العراق إلا نزر يسير ، لأن المباني كانت تقام باللبن في معظم الأحيان وبالطوب المحروق في أقلها . وكانوا يستعملون ضخامة الجدران عن صلاية الحجر ، فقد يبلغ سمك الجدار بضعة أمتار أحياناً ، فأسوار مدينة بغداد كانت تبلغ ستة أمتار في العرض في أسفلها وأربعة في أعلاها ، بحيث كان فارسان يستطيعان السير على السور جنباً إلى جنب ، وكانوا يطلون البناء من الداخل بالجص ويطبقون سقفوف المساجد والأبهاء الواسعة على أعمدة من الخشب ، وكذلك كانت السقوف خشبية ، وهذه كلها مواد لا تحمل البقاء طويلاً . ومعظم نياي بغداد كانت مبنية على هذا الشكل ، ولهذا وعلى الرغم مما كان للبلد من ضخامة وفضامة إلا أن منشأته قد زال معظمها من الوجود ، فلم نعد من آثار العباسيين فيها إلا على أطلال لا تعيننا على تكوين صورة عن تخطيطها الواقعي ، ولهذا فإن ما نجده في الكتب من وصف عماراتها قائم على النقل أو التخيل .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن أبا جعفر المنصور وعماريه وضعوا خطة المدينة على أن تكون مدوّرة ، يقوم في وسطها ميدان فسيح في مركزه للمسجد الجامع وقصر الإمارة ، ويشق البلد شارعان رئيسيان هما عبارة عن محورين (أفقي ورأسي) يتلاقيان في الوسط ، وينتهي كل من الشارعين ببوابتين عند السور ، وبين كل نصفى قطرين تمتد شوارع أخرى من الميدان الداعل إلى السور دون أن تكون لها أبواب فيه . وكان السور نفسه دائرياً عريضاً كما قلنا ، وقد حصن بأبراج مدوّرة يقوم فيها الحراس ، وكانت الأسوار مزودة بفصل بينها فصيل أو خندق . وقد خصص الجزء الجنوبي الشرق من البلد للأسواق وسمى بالكرخ ، ولكنه لم يلبث أن تخطى السور وامتد حتى بلغ نهر دجلة وعبره إلى ضفته الشرقية ، وقبل نهاية حكم المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م) نجده يأمر بإخراج الأسواق كلها من البلد حتى لا تغطي على هيئته الملوكية ، ولم يلبث الكرخ أن زاد في الحجم على المدينة نفسها .

وكان للعباسيون غرام بهذه المدن ذات الأشكال الهندسية ، فقد ابنتى المنصور نفسه مدينة على هيئة حلوة الحصان جنوبى الرقة ، ولم تمر هذه المدينة طويلا برغم أن هارون الرشيد اتخذها مقاما فيما بين سنتي ١٧٠ — ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ — ٨٠٩ م .

وبلغ من ضيق بغداد بسكانها أن البلد في عصر المتعصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ — ٨٤٢ م) ثامن خلفاء بنى العباس لم يعد يحمل جند الخليفة الأتراك الذين كان عندهم يتزايد ، وقد غر منهم أهل بغداد نفورا شديداً وكثر الاحتكاك بينهم وبين الناس ، فرأى للمتعصم أن يبتنى لنفسه وجنده مدينة ملكية على ضفة الدجلة غير بعيد من بغداد ، وتلك هى سامراء — أو سر من رأى — التى ظلت عاصمة الخلافة نصف قرن تقريبا من سنة ٢٢٤ إلى ٢٧٠ هـ/ ٨٣٨ إلى ٨٨٣ م ، ولم ينادرها الخلفاء عائلتين إلى بغداد إلا عندما شعروا بأنهم أصبحوا فيها أسرى جندهم الأتراك . وقد بنيت سامراء بالطوب الأحمر ، ولهذا بقيت معاملها ، وقد كشف الأثريون عن جزء كبير من أثارها ما بين مساجد وقصور وحمامات ومعسكرات وشوارع فخمة واسعة ، مما يدل على أن فن عمارة المدن تقدم تقدما بعيدا فيما بين إنشاء بغداد وإنشاء سامراء ، وهى مدة أقل من القرن .

ولدينا فكرة واضحة عن مسجد بغداد الجامع ، وبخاصة بعد أن جدد الرشيد بناءه بالطوب الأحمر ، فلاحظ أنه — مع المحافظة على لظيفة العامة للمساجد الإسلامية حتى ذلك الحين — جدت فكرة إحاطة الصحن بأقواس مستديرة أو مديية تقوم على دعائم من الطوب ويطل ذلك كله بالجص ، أما المئذنة فكانت في هيئة برج مستقل عن المسجد . ونعقدنا للمراجع أنه كانت تقوم فوق قصر المنصور قبة هائلة مطلية باللون الأخضر من الخارج ، ولكننا لا نعرف كيف كانت هذه القبة على الحقيقة .

وقد بقيت لنا آثار مسجد المتوكل فى سامراء ، وقد بنى فيما بين سنتي ٢٣٢ و ٢٣٨ هـ/ ٨٤٦ — ٨٥٢ م . وهو دون شك أكبر مسجد بنى فى الإسلام ، فإن مقامه ١٥٦×٢٤٠ مترا مما يجعل مساحته ٤٠ فلتا ، وعمق جوف بيت الصلاة ٦٢ مترا يتكون من تسعة أسكيب تقوم على تسعة صفوف من الدعائم موازية لجدار القبلة ، وبكل صف منها ٢٤ دعامة . أما بلاطات بيت الصلاة فعددها ٢٥ بلاطة ، وكانت الدعائم مرصعة بالقاعدة طول كل ضلع منها متر . وارتفاعها ١٠

أمتار ونصف للتر . وعدد دعامات بيت الصلاة ٢١٦ دعامة . وكان يحيط بصحن المسجد الفسيح مجنبات في جهاته الثلاث تفتح كلها بيوالت مديية على صحن الجامع الواسع ، وكان للجامع ستة عشر باباً . ومما يمتاز به هذا الجامع منارته — أى معذنته — الحلزونية وتسمى بالملوية ، وهى تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٣ متراً وترتفع في الجو ٥٠ متراً فوق سطح القاعدة ، وكان الصعود إليها عن طريق مصعد حلزوني يسير بالحدار خفيف حتى يصل إلى موقف الأذان .

وعلى غرار مسجد سامراء بُنى مسجد ابن طولون في شمال القسطنط فيما بين سنتي ٢٦٤ — ٢٦٦ هـ / ٨٧٧ — ٨٧٩ م ، وهو أصغر من جامع سامراء بكثير ولكنه يتبع في عمارته نفس الأسلوب ، فهو يتكون من بيت للصلاة عمقه ٤٠ متراً تقريباً ، وصحن واسع تحيط به مجنبات في جهات الشرق والغرب والشمال ، يتكون كل منها من رواقين . واتساع الصحن ١٠٠×١٠٠ متر ، بتوسطه بناء صغير ذو قبة ، وهذا البناء هو للوضأة . ويطل بيت الصلاة وكذلك المجنبات على الصحن بيوالت تقوم على دعامات حجرية مزينة بتوافذ زخرفية ، أما المثلثة الملوية فتقوم خارج المسجد عند جداره الشمالى ، وما زال جامع ابن طولون باقياً إلى اليوم محتفظاً بهيئته العامة برغم ترميمه مراراً .

وقد اتبعت القصور في العصر العباسى الأسلوب العمارى نفسه الذى يقوم على أبهاء مكشوفة ، تحيط بها عمد تحمل أقواسا نصف دائرية أو مديية ، وخلف الأقواس تقوم الغرف ما بين كبيرة وصغيرة ، ويربط البهو بالهو رواق ، وبعض هذه القصور مبنى بالحجر ، مثل قصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة للتوكل المعروف بالجوسق في سامراء ، وكلها بنيت على هذا الطراز وقرشت أرضها بالحجر ، وقد تزين الجدران بالقسيساء أو الجص النقوش ، وربما زينت بكوات صماء زخرفية . وكانت حدائق تلك القصور تزين ببرك الماء ، ولديها قصيفة للبحرى يصف فيها قصر الجوسق بعد أن خربه للجند ، ولم يستوقف انتباه الشاعر الكبير شيء مثل بركة القصر فأطال الكلام فيها .

وقد أحييت العمارة العباسية الفن الساسانى في كل صوره ، فانتعشت الفنون الفرعية الداخلة في فن العمارة كالقسيساء ومرمعات القاشانى والرخام المصقول والخشب المشغول . وقد اختلطت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطى التى تأصلت

من أيام بنى أمية ، وشيئا فشيئا نلاحظ تكون الفن الإسلامي الخالص على أساس من تلك العناصر المتنوعة التي تمازجت وتآلفت مع الذوق العربي الإسلامي ، ونشأ عن ذلك الطراز العربي العملى العام الذى يمتاز بمخالفته المعروفة من الأعمدة الكثيرة التى تحمل أقواساً نصف دائرية أو مدببة يتوالى بعضها فى إثر بعض داخل البناء ، فيشبه أن يكون غابة من الأعمدة الرفيعة المرتفعة والأقواس الرشيقة ، ويمتاز كذلك بالجدران العالية المزينة بالأفاريز الزخرفية التى تقوم زخارفها على أشكال هندسية ونباتية ، وقد يضاف إليها أفاريز من الكتابة الزخرفية ، وتمتاز كذلك بالسقوف الخشبية المزخرفة الملونة .

أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك :

وقد تعددت مدارس العمارة الإسلامية خلال العصر العباسى وما بعده ، فشأت طرز عمارية متباينة فى الهيئات والتكوين ، ولكنها كلها متشابهة فى الروح والجو العام الذى يسودها ، بحيث تستطيع أن تحكم بمجرد رؤيتك لمبنى عربى بأنه عربى مهما اختلف طرازه ومكانه وزمانه . ونحن نميز فى تاريخ العمارة الإسلامية عدداً من المدارس ، أهمها المدرسة المصرية التى ولدت فى جامع القسطنطين الذى بناه عمرو ابن العاص أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وقد جُدد بناؤه مراراً عديدة بحيث اختفت تماماً هيئته وعمارته الأصلية الأولى . ولكن تاريخ ذلك الجامع وتطور بنائه يعد تاريخاً للعمارة الإسلامية فى مصر ، وآخر من جدد بناءه على الخطوط الأصلية عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . أما مسجد القسطنطين الحالى فبناه حديث بنى فى أوائل القرن العشرين ، ولا يمثل الجامع القديم فى شيء . ولكن أثر عمارة جامع القسطنطين الأول نجده فى الكثير من المساجد الصغيرة التى بقيت محتفظة بهيئتها منذ العصر العباسى ، وهى قليلة . ومع أن جامع أحمد ابن طولون الذى تكلمنا عنه أنشئ على غرار جامع سامراء ، إلا أنه أخذ من الطراز المصرى المثل الأقواس الدائرية ، وأعمدة الطوب ، واستقامة الخطوط ، والهيئة المربعة للمبنى العام بما فى ذلك صحن الجامع .

وقد بدأ فن العمارة المصرى يستقل بنفسه خلال العصر الفاطمى فى مصر . (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ/٩٦٩ - ١١٧١ م) فإن الدولة الفاطمية — التى ولدت

مصرية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصري أن يتضح ويأخذ صورته المعروفة التي نجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهي مساجد أفادت من كل التقاليد العمرانية التي وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من باب إلى محراب ، حتى وحدت الزخارف المستعملة نجدها شائعة فيه متكررة ، من الأشرطة الزخرفية المنقوشة بالحجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكرراً في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده مكرراً في النوافذ المفتوحة في أعلى جدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقي إلى الآن من مثذنة هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه للمساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من الفسيفساء ، أما المآذن فرفيعة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقفان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفي .

وقد بلغ ذلك الطراز المصري صورته الكاملة في المساجد المملوكية المعروفة ، التي وصلت بهذه العناصر العنصرية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التي نرى غماذجها في مسجد السلطان قلاوون الذي بنى سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبيمارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع جدرانه المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدرانه الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مدببة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوالتك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التي تتألف من ثلاثة أدوار من النوافذ الزخرفية التي تغطيها ستر من الرخام الزخرفي . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تمتاز به المساجد المملوكية الكبرى ، مثل مسجد الوردني في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبايك زخرفية مغطاة بستر من الرخام المنحوت . وخلال العصر المملوكي يصل ذلك

مصرية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصرى أن ينضج ويأخذ صورته المعروفة التي نجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهي مساجد أفادت من كل التقاليد المعمارية التي وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من باب إلى محراب ، حتى وحدت الزخارف المستعملة نجدها شائعة فيه متكررة ، من الأشرطة الزخرفية المنقوشة بالخجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكررا في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده مكررا في النوافذ المفتوحة في أعلى حدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقي إلى الآن من معبده هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه المساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من الفسيفساء ، أما المآذن فخريفة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقفان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفي .

وقد بلغ ذلك الطراز المصرى صورته الكاملة في المساجد الملوكية المعروفة ، التي وصلت بهذه العناصر المصرية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التي نرى غملاجها في مسجد السلطان قلاوون الذي بنى سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبيمارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع حدراته المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدراته الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مديبة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوالتك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التي تتألف من ثلاثة أدوار من النوافذ الزخرفية التي تغطيها ستر من الرخام الزخرفي . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تمتاز به المساجد الملوكية الكبرى ، مثل مسجد البردني في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبايك زخرفية مغطاة بستر من الرخام المنحوت . وخلال العصر الملوكي يصل ذلك

الطرز إلى ذروته التي تمتاز من الخارج بالمآذن العالية والقباب السائفة التي ما زالت إلى الآن تغطي لمنظر مدينة القاهرة طابعها الإسلامي المعروف .

وهناك المدرسة المغربية التي ولدت فيسا بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ — ٦٧٥ م عندما بنى عقبة بن نافع جامع القيروان ، وقد جدد بناء هذا الجامع مرات كثيرة آخرها سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م على يد إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بني الأغلب . ويعرف هذا الجامع في العادة باسم جامع عقبة ، ومع أنه قد أعيد ترميمه بعد ذلك مرات عديدة ، إلا أنه ما زال يحتفظ بطابعه العام الذي كان له أيام الزيادة السادسة التي أدخلت على مناه في أيام إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بني الأغلب سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م . ويتكون هذا المسجد — كغيره من المساجد — من بيت صلاة وصحن ، ولكن بينما نجد في المساجد المشرقية أن صحن الجامع المكشوف يقع في وسط المبنى ، يحيط به بيت الصلاة من ناحية القلة ومجتمعات من بقية النواحي ، نلاحظ في مسجد عقبة — ومعظم مساجد المغرب والأندلس — أن الصحن هو محض امتداد مكشوف لبيت الصلاة ، أي أن المبنى ينقسم قسمين : قسما مغطى هو بيت الصلاة ، وقسما مكشوفاً هو الصحن ، وسور المسجد يدور عليهما معاً . أما المآذن في مساجد المغرب والأندلس فنجدها في الجدار المقابل لجدار القبلة ، وهي في الغالب تكون جزءاً من السور .

المسجد الجامع في القيروان يعد من أجمل المساجد الإسلامية وأظهرها شخصية ، فإن بيت صلاته عميق يبلغ جوفه ٣٤ متراً ، وطول جدار القبلة ٧٢ متراً ، أي أن مساحة بيت الصلاة المغطى شاسعة تبلغ ٢٤٤٨ متراً مربعاً . ويتكون بيت الصلاة من ١٧ رواقاً ، الرواق الأوسط عظيم الاتساع وأعلى من بقية الأروقة ، وهو يؤدي رأساً إلى المحراب ، أما بقية الأروقة فهي ثمانية على اثنين وثمانية على اليسار ، وتقوم عليها أقواس عالية نصف دائرية تعتمد في الداخل على أزواج من الأعمدة الرخامية ، أما في نهاية بيت الصلاة المطل على الصحن فإن الأقواس تركز على أعمدة رخامية مؤيدة بدعام من الحجر . وفوق الرواق الأوسط المؤدى إلى المحراب تقوم قبتان جميلتان صغيرتان الحجم نسبياً ، ولكنهما غاية في الجمال .

ويعد مسجد عقبة آبا المساجد المغربية كلها ، فكلها تسير على نفس النظام ، وإن كانت تختلف في أشكالها وأحجامها ودرجاتها من الفخامة والغنى . ومن ميزات

الطرز المغربي الأخرى أن المآذن — وتسمى هناك بالصوامع أو المنارات — تبنى على هيئة الأبراج . وفي العادة تكون الصومعة بناء قائماً بذاته إلى جوار للمسجد ، وأبدان الصوامع تتكون من ميان من ثلاث طبقات في الغالب ، كل طبقة منها أضيق من التي تحتها ، ويزين الصومعة في أعلاها قبة صغيرة . ومن ميزاته أيضاً تزيين جدران المساجد من الخارج بزخارف تنقش في الحجر ، أو بنوافذ زخرفية تصنع من الرخام أحياناً ، وتزين جدران القبلة بالفسيفساء ، وكثيراً ما يكون الخراب من الرخام .

وقد بلغ ذلك الطراز المغربي أوجه في العمائر الموحدة السامقة ، ما بين دنيّة وغير دنيّة . والكثير منها باق إلى اليوم في مدن المغرب الكبرى ، وبخاصة في فاس وسلا ومراكش . وبعد جامع الكتّبة في مراكش من مساجد الإسلام الكبرى وأعماله الفنية الخالدة ، وكذلك مسجد القرويين في فاس . وفي مراكش أيضاً تقوم مقابر السعديين ، وهي أضرحة ومساجد بلغت الغاية من الجمال وتمتاز بالفخامة والروعة . وإلى السعديين أيضاً — وهم الدولة التي حكمت المغرب من ٩٦١ هـ إلى ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — يرجع الفضل في بناء أسوار مدينة مكناس وبواباتها العالية المحملة بالزينة والزخارف الملونة ، وقد أنشأ سلاطين السعديين هذه الأسوار واليوابات تحليداً لذكرى طردهم للبرتغاليين من المغرب وتحرير أرضهم منهم .

أما الطراز الأندلسي فيعتبر من أجمل الطرز العمارة الإسلامية وأظهرها شخصية . وقد مر هذا الطراز بأدوار مختلفة أثناء تطوره الطويل على طول تاريخ الأندلس ، منذ ضحه سنة ٩١ هـ/٧١١ م على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حتى سقوط غرناطة في ربيع الأول ٨٩٧ هـ/يناير ١٤٩٢ م . ويعرف الدور الأول بطراز عصر الخلافة الذي ولد سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م ، عند تمام جامع قرطبة الأول على يد عبد الرحمن الداخل . والخصائص المميزة لطراز عصر الخلافة هي الفخامة والجمال مع المحافظة على رصانة البناء ووقاره ، فالجدران حجرية عالية وحجارتها مصقولة ، وداخل المسجد — أي بيت صلاته — يتكون من ساحة واسعة تنقسم إلى أروقة تسير كلها في اتجاه القبلة ، والرواق الأوسط أوسع من الأروقة الجانبية .

وفي الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأوسط ، لدينا خمسة أروقة إلى اليمين وخمسة إلى اليسار تقوم على أعمدة تحمل أقواساً مزدوجة نصف دائرية مبنية من الطوب الأحمر والحجارة معاً على هيئة زخرفية جميلة . وقد لجأ

العمارون إلى عمل هذه الأقواس المزدوجة لكي يرفعوا سقف الجامع ، ليتناسب الارتفاع مع مقاييس الجامع الأخرى . وقد زاد عبد الرحمن الأوسط في ذلك المسجد زيادة كبيرة تمت سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م ، ولم تكن الزيادة في العروض وإنما مده الجامع طولاً ناحية الجنوب ، واقتضى ذلك نقل جدار المحراب مسافة عمقها ثمانية أقواس . وقد تحرى العماريون أن تكون الزيادة مطابقة تمام المطابقة في هيئتها العامة وتفصيلها لبناء المسجد الأول . وفي أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بنيت قنطرة تعرف بالسباط ، تؤدي من قصر الإمارة الذي يقع مقابل واجهة المسجد الغربية إلى المسجد الجامع في موازاة المحراب ، وكان السباط فوق شارع قرطبة الرئيسي المسمى بالهجة العظمى ، الذي يبدأ عند ضفة الوادي الكبير ويمر بين القصر والجامع ثم يتجه شمالاً إلى أسوار البلد . وكان الأمراء يستعملون هذا السباط للانتقال من القصر إلى الجامع دون أن يمروا في الطريق .

وقد زيد مسجد قرطبة الجامع مرة ثالثة أيام عبد الرحمن الناصر ، وقد تمت الزيادة سنة ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م ، وانقضت هذه الزيادة هدم جدار المحراب ومد الجامع إلى الجنوب ١٢ قوساً . وبني جدار جديد يعد محرابه آية من آيات الفن الإسلامي ، لأنه ليس مجرد حنية عادية وإنما هو مقصورة من الرخام في الغلبة من الرواء ، ومدخلها أشبه بباب مسجد ، وقد زينت بالفسيفساء بزخارف وكتابات بالغة الروعة .

وقد حافظ العماريون — الذين أنشأوا زيادة عبد الرحمن الناصر — على الوحدة الفنية للمبنى كله ، مع التنفيع البعيد في أشكال الأقواس المزدوجة . وفي سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م أضاف المنصور محمد بن أبي عامر زيادة جديدة تبلغ نصف ما بناه بنو أمية قبل ذلك ، وكانت الزيادة على نفس الأسلوب الذي اتبع في بناء المسجد كله ، وبهذا أصبح بيت الصلاة في ذلك المسجد أكبر بيت صلاة لمسجد في عالم الإسلام ، إذ تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة . وللمسجد صحن مكشوف في ناحيته الشمالية تبلغ مساحته فدانين ، وتزين هذا الصحن المكشوف أشجار البرتقال ، ولهذا يسمى ببو النارج ، وهو الصحن الوحيد في عالم الإسلام الذي زرع فيه أشجار بموافقة الفقهاء . وسقف هذا المسجد من الخشب المزين بالنقوش من كل صنف ، وفوق البلاطة المؤدية إلى المحراب والبلاطتين المحيطتين بها من الجين والشمال تقوم ثلاث قباب

صغيرة تعد برغم صغر حجمها من أجمل القباب الإسلامية ، وقد استعملت فيها الأقواس الحجرية المقاطعة التي تعد أساساً من أسس الطراز العمارى القوطى ، ومن الثابت الآن أن مسلمى الأندلس هم الذين ابتكروا ذلك الطراز .

وقد استمر العمل فى زيادات ذلك الجامع ٢٥٠ سنة ، ولهذا فهو بعد سجل البيت الأموى الأندلسى ، فيندر أن نجد أميراً أمويّاً فى الأندلس لم يضيف إلى ذلك المسجد شيئاً ، وتبلغ مساحته كله (بيت الصلاة والصحن) ٢٢٥٠٠ متر مربع ، فهو — على هذا — أوسع المساجد الإسلامية الباقية إلى اليوم .

وخلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ولد فى الأندلس طراز العمارة المدجنى ، وهو منسوب إلى اللدجنين ، أى للسلمين الذين أقاموا فى بلادهم بعد أن سقطت فى أيدي النصارى . وهذا الطراز يمتاز بأن مبانيه تعتمد أساساً على الطوب المحروق ، حتى زخارفها كانت تصنع من ذلك الطوب بوضع صفوفه فى أوضاع مختلفة ، وكذلك كانت الأعمدة فى داخل المباني من الطوب المحروق ، وقد تغطى بالجص من الداخل ثم تزين بنقوش معقدة وجميلة فى أن واحد تغطى الجدران على مساحات واسعة . ويمتاز ذلك الطراز أيضاً بالأقواس المدبية ، أو أقواس حدوة الحصان التى تعتمد إما على دعائم من الطوب الأحمر أو أعمدة رقيقة مزدوجة . وقد ساد هذا الطراز الأندلس كلها بعد سقوط خلافة بنى أمية ، فبنيت به الكنائس والتقبل من المساجد ، وعن هذا الطراز تطور الطراز المورسكى وهو منسوب إلى المورسكيين Los Moriscos ، وهو لفظ إسباني معناه العرب أو المسلمون الصغار . وهو طراز يعتمد على صغر المباني ورشقتها دون فخامتها أو جلالها ، ونموذجه المشهور قصور الحمراء فى غرناطة التى بناها بنو الأحمر ملوك غرناطة ٦٢٩ — ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ — ١٤٩٢ م ، وهى تتكون من مجموعات متوالية من الأبنية والمرات والفرج الصغيرة والأبنية المكشوفة تزينها البرك ، وكل جزء فيها مثقل بالزخارف والنقوش من كل صف ، وتمتاز بالجواست الجميلة الأنيقة التى تقوم على عمد رقيقة من الرخام ، كما نرى فى بهو السباع وهو من أشهر الآثار العمارية فى الدنيا .

وفى الجانب الشرق من هالم الإسلام نجد الطراز الإبرانى . المشهور ببواباته العالية المكسوة بالرخام ذات الأقواس الزخرفية المدبية ، والقباب العالية الكبيرة القطر المزينة

من الخارج بالزخارف على القاشاني ملونة وغير ملونة . وصحون للمساجد الإيرانية
 قبة مرتفعة السقف تحمد على دعائم من الحجر وأعمدة الرخام معا . والناير
 الإيرانية آيات من الفن الزخرفي الجميل تضلوع في جمالها للناير المغربية التي يعد
 بعضها أملا فية خالدة كاملة ، حتى لقد كتب هنري تيراس HENRI TERASSE
 كتاباً عن منبر واحد منها وهو المنبر القديم لجامع الكُتبية . ومآذن هذه المساجد
 الإيرانية منارات عظيمة الارتفاع ، يصل بعضها إلى ثلاثين متراً في الجو ، وتتمدد
 فيها مواقف الأذان .

فما العمارة الإسلامية التركستانية والمهندبة فتمتاز بقاياها العالية الكثيرة وبواباتها
 الرخسعة العالية ذات الأقواس المدية المزينة بالقاشاني للزخرف الملون ، وهي تعد من
 تسمية استمراراً وتطوراً للفن الإيراني وللتقاليد الفنية الهندية القديمة في قالب إسلامي .
 ومما كانت المساجد الهندية لا تمتاز بالارتفاع ، فهي تمتاز بالقباب الرائعة الكثيرة
 وللمآذن التي تبنى على زوايا الجدران الخارجة للمسجد كأنها الأبراج ، وتزين
 الجدران في الداخل والخارج بالرخام وصفائح المعدن التي تغطي بها أحياناً رؤوس
 الأعمدة ، وفي بعض الأحيان تلون المساجد من الخارج بألوان زاهية تجذب الأنظار .

ويدخل في جملة المساجد الهندية والإيرانية الأضرحة أو الروضات ، وقد شاع
 إنشاءها والتفنن فيها في إيران والهند . والروضة عبارة عن مسجد صغير يمتاز بقبابه
 ومآذنه ، تحيط به في العادة روضة واسعة تزينها برك الماء . ومما ذاج الروضات المشهورة
 في شرق العالم الإسلامي روضة السلطان همايون في دلهي وقد بنيت سنة ١٥٢٥ ،
 وروضة التاج محل في أجرا ، وقد سبق أن ذكرناها . ومن أشهر المساجد الإيرانية
 مسجد الشاه عباس في أصفهان ، وقد بنى في القرن السابع عشر وهو من إنشاء
 العمارة أستاذ على أكبري أصفهاني ، ويمتاز هذا المسجد ببوابته العالية ذات القوس
 المدبب المغطاة بالرخام والمزينة بالقاشاني الملون ، ويمتاز كذلك بقبته العالية تزينها
 معدنتان جهيلتان ، والقبة مغطاة من الخارج بالقاشاني الأخضر المزين بالزخارف .

ومن طرز العمارة الإسلامية المشهورة الطراز التركي العثماني ، الذي نشهد أنه
 الجميلة في بروسة والآستانة وأدرنة وغيرها من المدن التركية . ويمتاز هذا الطراز
 بكثرة القباب ما بين كبيرة وصغيرة في الجامع الواحد ، ويمتاز كذلك بمآذنه الرفيعة
 الطويلة التي تروق النفس برشقتها وانطلاقها في الهواء . ودخل المساجد التركية يمتاز

بفخامة ترويع النفس ، تقوم على الأهراس الضخمة العالية ، والقباب المرتفعة ، والدعامات الحجرية السمكية ، ومجموعات النوافذ تزين أعلى البناء وتفيض النور بداخله . ومن أشهر المساجد العثمانية مسجد السلطان سليمان ، وهو من بناء العمارة التركى الأشهر سنان الذى وضع أساس فن العمارة التركى ، وقد بناه فيما بين سنتى ١٥٥٠ و ١٥٥٦ . وقد توفى سنان سنة ١٥٧٨ ، وهو يعد من كبار المعماريين فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، ومبانيه — التى تمت كلها خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر — تضارع أعظم المنشآت التى بناها المعماريون الإيطاليون فى عصر النهضة ، ومن مساجده المشهورة شاه زادة والمحمدية والسليمانية وجامع بايزيد ، وكلها تضارع مسجد آياصوفيا فى الفخامة والجلال . ومن تلاميذه محمد آغا بن عبد المؤمن ، وهو أيضاً من كبار المعماريين فى تاريخ الإسلام ، ومن أعظم مساجده مسجد السلطان أحمد فى الآستانة وقد بنى فيما بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٩ .

الفنون الصغيرة عند المسلمين :

يراد بالفنون الصغيرة الأقمشة والأنسجة المزركشة بأنواعها ، سواء أكانت ملابس أم سترأ أم مفارش أم سجاجيد أم بسطاً ، والأدوات المعدنية ما بين نحاسية وبرونزية وحديدية أحياناً — بشرط أن تكتسى حلة فنية وتصبح قطعاً فنية لا مجرد أدوات منزلية — ومصنوعات العاج المشغول والخشب المزخرف والمحل بالعاج والصدف والأبنوس والزخارف المختلفة ومربعات القاشافى وأوانى الفخار والخزف بأنواعها ، أى أن الفنون الصغيرة تشمل كل تلك المصنوعات التى تستخدم فى الحياة اليومية أو فى الحرب أو فى زينة البيوت ، وتصلح فى الوقت نفسه لتكون من أدوات الترف وأعمال الفن ، مما يسمح للفنان بأن يضى عليها من ابتكاره أو يعطيها صورة فنية خالصة .

وقد أبدع أهل الصناعة والفن من العرب والمسلمين قطعاً فنية فريدة من هذه الأدوات كلها ، والإبداع هنا لا يتجلى فى إتقان الزخارف وبراعة خطوطها وانسجام ألوانها فحسب ، بل فى دقة الصناعة نفسها ، فقد نبغ المسلمون فى صناعة الأنسجة حتى أخرجت مناسج مصر ثياباً كاملة لا يزن ثوب الرجل منها أكثر من خمس

لوقيات ، واقتدروا على نسج ثياب فيها يحيط من الذهب وأخرى من الفضة ، وهذه الثياب الغالية هي التي كانت تزخرف وتخل بالرسوم .

وفي متاحف الآثار في العالم اليوم قطع بديعة من نسيج مصر القاطمية من الكنان ، ونسيج إيران القطنى مزخرف بالحريز تعد من المعالم البارزة في تاريخ النسيج في العالم . ويمكن أن نذكر هنا أن إيران كانت تصنع أحسن صنوف الخمير ، ومصر كانت تنتج أحسن نسيج كتاني في العالم في حين أخرجت مناسج اليمن والعراق أجمل حريز في الدنيا في العصور الوسطى ، وقد كانت قواعد الصناعة الإيرانية في الخمير هي التي اقتبسها الأوروبيون عندما أنشأوا صناعة نسيج الخمير في بلادهم .

ومن أمثلة البراعة في صبغة المعدن تكفيث أولي النحاس والفضة بحيط من الذهب تلحم في المعدن وتعطى أشكالا وصوراً زخرفية غاية في الإبداع ، وكذلك تطعيم الخشب بالعاج والصدف ، وتزيين الآبنوس بالذهب والفضة . وفي متاحف الفن الشيء الكثير من روائع الصناديق والعلب الإسلامية التي أبدع فيها الفنانون المسلمون .

وقد بلغ المسلمون في صناعة الزجاج شأواً عظيماً ، فصنعوا الزجاج المبسوط الذي يستعمل في التوافذ والأبواب ، وصنعوه أبيض وملوناً ومتقوشاً ، وأبدعوا في صناعة آنية الزجاج من كؤوس وأكواب غاية في الرقة وزينوها بالميانة ، وعرفوا كذلك كيف يصنعون البلمور — أى الكريستال — الصال الأبيض واللون ، وصنعوا منه الأكواب والأباريق ، وأتقنوا كذلك صناعة الخزف الساذج والخزف ذي الريق المعدل وكذلك مربعات القاشالي وأدواته ، وزينوا ذلك كله بالثقوش والرسوم والكتابات الزخرفية . وفي متاحف الفن العالمية مجموعات من جلود الكتب تغتن المسلمون في صناعتها وزخرفتها بالذهب والألوان الزاهية وبخاصة اللونين الأزرق والأحمر . ولدينا كذلك غاذج رائعة من سجادات الصلاة من إنتاج بلاد الإسلام كلها ، أما أفراد المسلمين بإنتاج أحسن السجاجيد في العالم فأمر مشهور لا يحتاج إلى بيان ، وأشهر البلاد التي امتازت بصناعة السجاجيد والبسط إيران والتركستان والهند . وفي المغرب يصنعون قُرْشاً بسيطة من الصوف في غاية الجمال تسمى بالزرواني (المفرد زُرَيْمَة) .

التصوير والنحت عند المسلمين :

يذهب كثيرون إلى أن الإسلام يحرم التصوير ، ومع أننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يؤكد هذا الرأي ، بل لا نجد حديثاً شريفاً موثقاً بصحته يمنع المسلمين من التصوير والنحت ، إلا أن الكثيرين من الفقهاء نصوا على ذلك التحريم ، فضلاً لباب عبادة الأصنام بصورة نهائية في مجتمعات المسلمين .

ولكن التصوير عند المسلمين — مع ذلك — حقيقة واقعة ، فارتج الشعوب الإسلامية حائل بالرسوم والتماثيل من كل نوع ، ولم تكف جماهير المسلمين في كثير من مواطنهم بعمل تماثيل صغيرة ، للتسلية والزينة أو للعب الأطفال وما إلى ذلك ، بل نبغ من بين المسلمين رسامون ومصورون ونحاتون يعدون اليوم من أعلام تاريخ فن التصوير العالمي ، من أمثال بهزاد وسليمان محمد وأستاذ محمدى ورضا عباسى وغيرهم . ولدينا في حمراء غرناطة لوحات ملونة تسمى بلوحات الملوك العرب ، رسمت في القرن الرابع عشر للميلادى على نحو من الدقة والإتقان في تصوير الأشخاص والمناظر لم تصل إليه أوروبا إلا في القرن السادس عشر الميلادى ، سواء في إيطاليا أو هولندا ، مما يؤكد لنا أن فن التصوير الأوروبي ولد في الحقيقة على يد مسلمى الأندلس ، وهذا موضوع لا بد من دراسته وإظهار فضل العرب فيه .

ويستوقف لنظر أن فن التصوير نشأ عند المسلمين نتيجة لحبهم للقرآن الكريم ، ورغبة الأثرياء منهم في الحصول على مصاحف محلاة بالزخارف والألوان ، مما جعل الخطاطين والمزخرفين يحكفون على عمل هذه المصاحف وإنفاق الوقت الطويل في إعدادها وكتابة عخطوطها بالذهب وزخرفة الصفحات بالوحدة الزخرفية الملونة . ويتجلى ذلك كله في الصفحات الأولى من المصاحف وفي فواتح السور .

وسواء في مصر أو الأندلس أو إيران ، نجد أن كتابة المصاحف وتزيينها بالزخارف هي نقطة البداية في فن تصوير الكتب بالرسوم الصغيرة التي تسمى بالمنمنمات ، فقد تطرق الفنانون من إعداد المصاحف المزخرفة إلى إعداد نسخ من الكتب التي يزداد إقبال الناس عليها إذا كانت مصورة مزخرفة برسوم صغيرة لمشاهد من النص أو برسوم توضحه ، وأكثر الكتب قابلية لذلك كانت كتب الأدب القصصى مثل كتاب كليلة ودمثة ومقامات أبى القاسم الحريرى والمشاغمة وقصص ألف ليلة . ومن أطرف

الكتب المصورة لدينا سورة نبوية كريمة صور صانعها كل المشاهد التي لا يظهر فيها رسول الله ﷺ ، وفي هذا المخطوط نرى تصاوير ألق جهل وألق لعب والوليد ابن المغيرة وغيرهم من أعداء الإسلام وعلى رأسهم إبليس ، الذي يبدو في تلك الصور مجتمعاً مع الكفار يميزه عنهم قرنان يبرزان من جبينه .

وقد اشتهرت في عالم الإسلام مدرستان في عمل الكتب الفاخرة المصورة : المدرسة المملوكية وهي تمنى قبل كل شيء بالخط نفسه ، فتأتى في كتابة النصوص وتزيين العناوين بالزخارف الملونة ، وتقف عند ذلك الحد ؛ ثم المدرسة الإيرانية التي ولدت خلال العصر العباسى الثالث وظهرت أعمالها في تصوير مناظر الكتب ومشاهد ما تقص من أحداث ، وعن هذه المدرسة ولدت المدرسة الإيرانية الصفوية التي ظهرت أيام الصفويين في إيران في بلدة هراة في عهد الشاه إسماعيل الصفوى ، وهي في أصلها مدرسة مخطوط أى مدرسة خطاطين تطورت مع الزمن شيئاً فشيئاً . ومن المعروف أنه ظهرت في إيران وشمال الهند مدرسة خطاطين ممتازين أيام دولة المغول تسمى مدرسة الخطاطين التيمورية .

من هراة انتقلت مدرسة التصوير الإيرانية إلى تبريز عاصمة إيران الصفوية ، وهناك اجتمع عدد عظيم من أساتذة الخط — وبخاصة النسخ والثلث — وتخصص إليهم عدد كبير من المزرعين واللونين ، وقد أبدعوا في عمل مخطوطات مزخرفة تعد من آيات فن الكتب في تاريخ المسلمين . وقد كان لهذه المدرسة أثر كبير في صناعة السجاد ، إذ اشتغل الكثيرون من أساتذتها في وضع تصميمات زخارف السجاجيد الإيرانية المشهورة .

ومدرسة تبريز كانت أساساً لمدارس الخطاطين والمزخرفين التركية والهندية ، فقد كان قيام مدرسة الأساتذة للخطاطين والمزخرفين عملاً من أعمال أساتذة انتقلوا إليها من تبريز وعلموا نفرأ من شباب الأتراك هذا الفن . ونشأت في دهلي مدرسة مشابهة قامت على أصول هندية قديمة ، وكان ذلك في القرن السادس عشر الميلادى .

ونتيجة لجهود مدرستى هراة وتبريز ابتكر فن تصوير الكتب بالزخارف والتمنيمات ، وأقبل عليها جمهور المسلمين إقبالا عظيما قراحت سوقها وزادت حماسة العاملين فيها ، فتقدم فنيهم تقدماً عظيماً . وفي متاحف الفن ومكتبات العالم اليوم

عشرات من المخطوطات المصورة من كتاب كيلة ودنة ومن كتب الرحلات ومن الشاهنامة للفردوسي ومن دواوين الشاعر نظامي ورباعيات الخيام .

وفي مراسم فنان مدرسة المنمنمات ولدت مدرسة من أكبر مدارس التصوير في تاريخ الفنون عند المسلمين . ورأس هذه المدرسة بهزاد ، وأصول تصويره كلها مغولية ، ولهذا نجد صور الأشخاص فيها ذات ملامح مغولية صينية ، وكذلك تصويره للأشجار والزهور والبساتين يسير وفق التقاليد الصينية . وقد عاش بهزاد أيام الشاه إسماعيل الصفوي وأقام في تبريز حتى سنة ١٥٢٠ م ، وهو أول من استبعد المخطوط والكتابات من التصوير ورسم لوحات قائمة بذاتها . والباقي لدينا من تصاوير بهزاد قليل جداً ، ولكن تصاوير تلاميذه من أمثال محمود مذهبي وسلطان محمد ورضا عباسي كثيرة جداً ، وهي من كبار الأعمال الفنية التي لا يخلو من نماذجها تاريخ لفن التصوير في العالم . وقد عاش سلطان محمد أيام الشاه طهماسب خليفة إسماعيل الصفوي ، وهو أول من عمل من رسومه مجموعاً سماه المرقع — وهو لفظ عربي إيراني يقابل ما نسميه اليوم بالأكبوم — جمع فيه رسوماً ولوحات مستقلة بذاتها ، أي ليست متصلة بنص كتاب ، وهي مستقاة من الأماطير والحكايات الشعبية .

وأكبر من نبغ بعد سلطان محمد هو رضا عباسي ، وقد عاش وعمل في أصفهان وأنشأ فيها مدرسة فنية خلال القرن السابع عشر الميلادي . وقد استوفقت لوحاته الأوروبيين عندما وصلت إلى هولندا ، وكان فن التصوير فيها في أوجها في ذلك الحين ، وقد بلغ من إعجاب الأوروبيين بلوحات رضا عباسي أن أصبحت طرازاً جديداً أقبل عليه الناس وقلدوه في أوروبا كلها حتى القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو يركز على صور الشخصوس ومناظر الطبيعة والأكوان .

وإلى جانب هذه المدرسة الإيرانية ظهرت مدرسة التصوير الأندلسية ، وقد قامت في القرن الرابع عشر الميلادي ، ونشأت نماذجها أولاً في تصاوير النسيج والرسوم على الأطباق والأباريق وأكواب الزجاج ، ثم تطورت إلى عمل اللوحات ، ونماذجها كثيرة جداً في متاحف إسبانيا وبقية العالم اليوم ، ومن أسف أن كل فنانها مجهولون لا نذكر منهم واحداً باسمه وإن كنا نعجب بما لدينا من نماذج أعمالهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى لوحات ملوك العرب الموجودة في بعض سفوف قصور الحمراء ، وقد كان هناك من يزعمون أن الذين قاموا برسمها كانوا رسامين إيطاليين

وغدوا على بلاط سى الأحمر فى غرناطة ، ولكن يتضح لنا خطأ هذه النظرية عندما نعلم أننا لا نجد فى إيطاليا خلال القرن الرابع عشر الميلادى كله رسامين يصلون إلى مستوى تصاوير السقوف التى نشير إليها . وهذا يثبت بشكل قاطع أن هذه اللوحات ليست من عمل إيطاليين ، وإنما هى من عمل أندلسيين ، فنحن لا نجد لها ولا نجد هذا المستوى الفنى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى إلا هناك . وقد انطمس الكثير من معالم ذلك الفن التصويرى الأندلسى لأسيلب غير معروفة ، فبينما كانت لدينا تصاوير واضحة على جدران الحمراء وسقوفها حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، اختفى الكثير منها الآن ، ومن حسن الحظ أن عدداً من الرحالة المصورين احتفظوا لنا بالكثير من نماذجها .

وهذه النماذج الأندلسية تقرر بوضوح أن فناً إسلامياً تصويرياً أزهى فى الأندلس خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين أهام من نصر بن الأحمر ملوك غرناطة ، وربما كان لهذا الفن أثر فى ميلاد فن التصوير فى الغرب .

وفى كل بلاد الإسلام تقريباً تطور فن النحت فى صورة الزخارف البارزة على الخشب والعاج والرخام ، ثم استعمل فى صنع تماثيل صغيرة لحیوانات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والملوكية والأندلس ابتداء من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولدينا من نماذج النحت الفاطمى تماثيل كاملة غاية فى الإتقان ، وكذلك لدينا نماذج من النحت الأندلسى لا تقل عن أرقى ما وصل إليه فن النحت الأوروبى حتى القرن السابع عشر الميلادى .

ويجدر بأهل الفن فى بلاد الإسلام اليوم أن يدرسوا هذه التقاليد الفنية التى خلقها الموهوبون من أهل أجيالهم الماضية لابتكار مدارس قومية فى التصوير والنحت تحمل الطابع القومى ، كما فعل محمود مختار عندما استلهم منه من التقاليد المصرية القديمة وصاغ تماثيله على قواعدها ، فكان هذا سبب غلود منه . وجدير بالذكر أن محمود مختار هو الفنان العربى الوحيد الذى أنشأ طرازاً فنياً قائماً بذاته ، يتميز بشخصية وملامح ظاهرة تنطق بأصولها القديمة وتتأشى مع تيارات الفن المعاصر .

الموسيقى عند شعوب الإسلام :

أثارت مسألة الموسيقى والغناء والسماع جدلاً شديداً بين الفقهاء ، فأجاز ذلك

نفر من أئمتهم مثل أبى حامد الغزالي الذى اختص السماع وآدابه بفصل قائم بذكره فى كتابه الأشهر « إحياء علوم الدين » ، وخلاصة رأيه قوله : « وما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس » وقوله : « لا وجه لتحريم سماع صوت طيب » . وحرمة منهم نفر آخر على رأسهم مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعى . وقد تشدد فى التحريم قوم جعلوا محض ترنم الرجل — إذا خلا بنفسه — خطيئة . وبطبيعة الحال يستند كل فريق إلى تفسيرات شتى لآيات من القرآن الكريم ، وإلى أحاديث نبوية كثيرة يختلف العلماء فى الحكم عليها من حيث الصحة وعدمها .

ولكى نفهم مواقف كبار الفقهاء من هذه المشكلة — التى تلبس لنا اليوم أبسط من أن تكون موضع نقاش وأخذ ورد طويلين — علينا أن نضع موضوع الغناء والموسيقى فى عالم المسلمين فى إطارها التاريخى فى أثناء العصور الماضية ، فإن ذلك يفسر لنا لماذا حمل نفر من أئمة الفقهاء على الموسيقى والموسيقين والغناء والمغنين حملة كبرى .

ذلك أننا نحكم فى هذه المسألة على ضوء صورتها ووضعها الحالىين فى مجتمعنا الراهن ، فنحن اليوم نسمع الغناء والموسيقى الجديريين بهذا الاسم من مغنين ومغنيات وموسيقين محترمين لهم سمعة ووقار ، وهم يدرسون فيهم دراسة علمية وفنية شاقة حتى يصلوا إلى مستوى فنى رفيع ، وهم يحزفون أو ينشدون كلاماً أدبياً جميلاً ينطوى على معان إنسانية وقومية رفيعة يقولها شعراء مجيدون . وبعضنا كذلك يستمع إلى ما يعرف بالموسيقى الكلاسيكية الغربية ، وهى قطع فنية رفيعة وضعها موسيقيون موهوبون عبروا بالنغم عن أجل وأرفع ما فى الكون والنفس البشرية . ومنا من يستمعون إلى الأوبرا فى مسارحها ، فيرون ويسمعون أعمالاً فنية جلييلة ، تقوم على قصص رفيعة وتلحين مبدع لا يقوم به إلا رجال موهوبون على حظ كبير من العلم والخبرة بالموسيقى ، وهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد دراسات وصبر ومعاينة . ونحن نستمتع إلى هذا كله ونحن جلوس فى أمكنة مخصصة للسماع على هيئة مسودها الوقار والحشمة واحترام ما يلقى إلينا من فن وتقدير لمواهب الموسيقيين والمشددين دون أن تبدر من جمهور السامعين بوادر خفة أو طيش أو دون أن يصاحب ذلك كله مظهر من مظاهر الخلاعة أو سوء الخلق .

وهذه الصورة الخبيثة عن السماع في يومنا هذا نجعلنا نتعجب كيف يحرم ذلك إنسان لو يرى فيه شيئاً مخالفاً للدين .

ولكن الأمر في العصور الماضية كان يخالف ذلك كل المخالفة ، فإن الغناء والموسيقى كانا مفسورين في الغالب على وسطين من أوساط الناس : الأول وسط القصور التي يحش فيها أصحاب الجاه والمال ، الذين كانوا يستطيعون شراء الجوارى والقيان ويجلسون لسماعهن جلوساً بعيداً عن الحشمة في قصورهم ، ويدعون أصحابهم إلى ذلك السماع ، ويدور الشراب وتبذل الناس نبذاً شديداً ، ويطرحون الحشمة ويقع ما يتنافى مع الخلق والكرامة وكل معنى من معاني الدين .

أما الوسط الثاني فهو دور اللهو والشراب في الأسواق ، وكان الذين يقومون بالعرف والفناء فيها أهل خلاعة وفساد وفجور واحتيال هل المال وإقبال على الشراب ، فكان لا يلم بهذه الأمكنة إلا المتجردون من الحشمة أو طلاب اللهو المبذل أو البسطاء والحمقى ممن يعرضون كرفاهتهم للهوان وأموالهم للتلف ، ولا يخلو الأمر من عراك وشجر بين أشرار يتخذون هذه الأمكنة أو كالأماكن ومراكز لاستغلال النساء والحمقى والمهروب من طائلة القانون .

وأما عامة الناس وأوساطهم وجماعات أهل الريف من أهل الحشمة ؛ فقلما كانت تتاح لهم فرص السماع أو الاستمتاع بالموسيقى ، فيما عدا ما يكون من المناسبات الاجتماعية كالأعراس وما إليها ، وهنا لا تغنى قيان أو مغنيات أو مغنون من أهل الاحتراف ، لأن الغناء في تلك المناسبات الاجتماعية يكون جماعياً ونادراً ما يخرج أهل الحشمة ، ومن ثم فهو لا يدخل في نطاق يعدة للتشددون محرماً ، بل كان يجري أيام الرسول ﷺ — دون أن يلقى استهجاناً .

إذن فالسماع الذي كرهه أهل الفقه هو ما كان يجري في قصور المترفين وفي دور اللهو والحانات ، وهذا كله خليع يغلب عليه النجون والسقوط مما ينفر منه أهل الديانة والوقار والعقل والحرصون على سمعتهم ، وهذه الألوان من اللهو مستهجنة مرفوضة في كل زمان ومكان ، وفي كل مجتمع ، بل هي في أيامنا هذه مقصورة على أهلها يتحاشاها مسائر الناس دون تحذير من فقهه أو تحريم من رجل دين .

وهناك نوعان آخران من الغناء والرقص عرفا في العصور الوسطى ، فأما أولهما فغناء جماعات المغنين والراقصات ممن كانوا يسمون بالغجر أو الغوزى ومن يجرى بجراهم ، وهو لم يرفول بطبعه يمارسه ناس متقلون يسلمون به العوام في الأسواق ويجمعون منهم ما تيسر لهم من المال ، وهم لا يتعففون عن السرقة والموبقات ، وهذا أيضاً يدخل تحت المستهجن الذى يتحاشاه أهل الحشمة وينفر منه أهل الفقه والدين . ومن هنا فموقف العداء الذى وقفه رجال الدين في العصور الوسطى من الموسيقى والغناء موقف معقول ، إذا تصورنا الموضوع على الصورة التى وصفناه بها . وهم لم ينفروا من الموسيقى والغناء لذاتها ، بل للجو غير المحتشم الذى كان يحيط بهما ، ولللكلام الذى كان يقال في الأغاني عندما تغنى على الصور التى وصفناها . أما الموسيقى والغناء في ذاتهما فلم يستكرهما أحد ، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه من الممكن أن تعزف الموسيقى وينشد الغناء بعيدين عن كل تبذل أو انحطاط أو دعوة إلى الرذائل نبيّاً أنه لا حرج على الناس — أياً كان مكانهم من الديانة والصلاح — في السماع للنغم الجميل البيل الذى يعزف ليسمو بالنفس إلى المعالي العالية ، والغناء الذى يتضمن معاني العفة والكرامة والوطنية وما إلى ذلك وينشد في سمع كبريم ووقار شامل .

ونعود إلى الغناء الجماعى الذى يشده الجوالون في الأسواق ، فنقول إن هذا الطراز من الإنشاد وجد إقبالا عند جماهير الناس في كثير من بلاد المسلمين ، مثل الأندلس حيث ارتقى للناس به فلم يقتصر على الغجر والغوازي ، بل أقبل عليه عامة الناس في الأسواق وشاركوا فيه فختلوا بما أهمهم من الأمور وما شغل بالهم من الأفكار ، بل استمال هذا الفن أصحاب الملكات الشعرية المرحفة فابتكروا الزجل ، وهو شعر عامى بدأ الناس يصوغونه على لوزان الشعر الفصيح في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادى ، واشتهر به أول الأمر رجل من أهل مدينة فِكرَة قرب قرطبة يسمى «مقدم بن معافى الضرير» ، وتبعه كثيرون في نظمه ، ثم ابتكر الناس له بجزراً وأوزاناً خاصة وجعلوا منه فناً شعرياً أصيلاً ينبغ فيه رجال ممتازون من أشال «أبى بكر هبابة بن ماء السماء» ثم «أبى بكر بن قرمان» ، وهذا الأخير عبقريه شعرية حقيقية صوّر في أترجاله مجتمعه وحياة الناس من حوله على صورة لا نجدها في أى عمل أدبى آخر .

وبينا كانت العادة أن ينظم الناس الشعر ثم يضعوا له الألحان ، نجد أن الأمر كان على العكس مع الرجل : كان الرجالون يأخذون أنغاماً شعبية سائرة وينظمون لها الكلام على نحو يتفق مع طريقة إنشاد هذه الألحان . فهناك مدخل تغنية الجماعة معاً ، ثم يغنى منشد منفرد أشطاراً قد تكون أربعة أو ستة على روى واحد ، وهذه الأشطار تسمى الغصن ، وعلى ذلك شطران على روى المدخل يسميان الحرجة ، ثم يغنى الجميع المدخل ، وينفرد المنشد المفرد بعد ذلك بإنشاد غصن آخر مثل الأول ، تليه حرجة ، ثم الإنشاد الجماعي . وبعد إنشاد بضعة أغصان يغنى المنشد حرجة نهائية تسمى القفل ، يعقبها الإنشاد الجماعي .

وقد شاع الرجل بعد ذلك شيوعاً عظيماً في الأندلس ثم في المغرب ، ومن هناك انتقل إلى المشرق . وكانت له سوق نلققة ، فأقبل عليه الناس وكثر الرجالون وصانمو الألحان لها ، بحيث أصبح الرجل والأغاني التي تقوم عليه أساس فن الغناء الشعبي في كل مكان في العالم العربي والإسلامي .

ومع الرجل نشأ الموشح ، وهو — إذا أردنا إعطاءه تعريفاً مبسطاً — زجل يكون بالعربية الفصحى ، غير أن خرجته قد تكون بالدارجة أو بالمجمية ، أي بلغة غير عربية كما كان الحال بالأندلس . وقد لقيت الموشحات ، إقبالاً عظيماً وانصرف إلى صياغتها شعراء كبار امتازوا بها وتفتتوا فيها ، وكما انتقل الرجل من الأندلس إلى المشرق فكذلك كان الأمر مع الموشح : انتقل هو أيضاً إلى المشرق وشاع استعماله فيه ، واستمر الناس يوشحون ويلحنون الموشحات حتى زمن قريب .

وقد انتقل الرجل والموشح إلى الغرب الأوروبي وظهر في جنوى فرنسا حيث ظهرت أرجال وموشحات بروفانسية — والبروفانسية هي اللغة الفرنسية التي كانوا يتكلمونها في جنوى فرنسا — وظهر شعراء رجالون ووشاحون بين أهل هذه البلاد ، وتكونت فرق من المنشدين الشعبيين تغنى هذه الموشحات البروفانسية عرفوا باسم التروبادور *les troubadours* . وانتقل هذا الفن إلى إيطاليا ، وظهرت هناك جماعات المغنين الشعبيين التي عرفت باسم التروفاتوري *gli trovatori* ، وانتقلت كذلك إلى ألمانيا حيث عرفت باسم المينيسنجر *die minnesinger* أي منشدي اللقطعات ، وفي إنجلترا عرفوا باسم المينستزل *the minstrels* .

وهذه الأغاني الشعبية لم يخل منها شعب عربى أو إسلامى ، بل أى شعب على الأرض ، وهى لا تخضع لإباحة أو تحريم لأنها ليست لها خلاصا ، وإنما هى جزء من حياة الشعوب ، فإن الشعوب تعمل وتغارب وتغنى ، وأغانيها هذه صورة لنفوس أهلها وتصوير لمشاعرهم وتفرج هن نفوسهم ، وهى جانب مهم من القولكلور الذى نشرنا إليه ، وهى من هنا أصيلة فى الغالب وموسيقاها طبيعية غير متكلفة ، لأنها جزء من حياة الشعوب ، فالفلاحون ينشدون أغاني الحقول ، والملاحون ينشدون قشيد البحر ، والرعاة ينشدون أناشيد الرعاة ، والعمال ينشدون ألحانا على وقع حركاتهم فى العمل ، وهذه الأغاني والأنغام الشعبية هى المنبع الذى تنترف منه وتستوحيه الموسيقى الأصيلة لأى شعب من الشعوب .

وبالنسبة للعرب ، كان غناؤهم الشعبى الأصيل هو الحدا أو الحلو ، وهو إنشاد قنطد الجمل أو راكبه على وقع خطواته فى الرمال ، وهو غناه ساذج لطيف تستريح له الأذن وتأس به الجمال أثناء السير ، وقد ابتكر له العرب أناشيد رفيقة جميلة تتماشى معانيها مع طبيعة الحياة الصحراوية .

وقد انتقل الحدا مع العرب إلى كل بلد ذهبوا إليه ، وصبوه فى تيار الموسيقى الشعبية فى كل مكان ، وما زال حيا إلى اليوم فى كل نواحي صحراء جزيرة العرب وفى كل النواحي الصحراوية فى العالم الإسلامى ، بل نجد صورة منه اليوم فى بلد لم يعد عربيا وهو البرتغال ، فإن الغناء القومى الأصيل هناك يسمى الفادو Fado وهو فى الحقيقة لفظ الحلو العربى .

وهناك نوع آخر من الموسيقى والغناء فى البلاد الإسلامية قام حوله جدل طويل هو إنشاد الصوفية ، وقد أنكر غالبية الفقهاء هذا الغناء وما يصاحبه من حركات يأتى بها الصوفية لضبط الإيقاع تتناقض مع الخشوع الضرورى للعبادة ، وحملوا على الصوفية حملة شديدة لهذا السبب ، ولم يقل بجواز ذلك إلا قليل من الأئمة مثل أبى حامد الغزالي فى فصل خاص من « إحياء علوم الدين » عنوانه « آداب

السماع . وجدير بالذكر أن الغزالي خالف الفقهاء التقليديين في موقفهم من الصوفية ، لأنه هو نفسه كان ذا نزعة صوفية ظاهرة .

والحقيقة أن بعض طوائف الصوفية أسرفت في الإنشاد الجماعي أو الفردي وفي الرقص الذي يصاحبه ، فصارت أفكارهم أقرب إلى التسلية والغزل المؤديين إلى الفساد ، وبخاصة عندما أصبح ذلك الإنشاد جزءا من الاحتفالات الشعبية المصاحبة لموالد الأولياء ، فصار الإنشاد والرقص سبيلا للفساد . ولكن هناك طوائف من الطرق الصوفية التركية — مثل المولوية والبكتاشية — جردوا الغناء والرقص حتى أصبحا فنين مستقلين عن العبادة ، وقد وصلوا بهذا التجويد إلى نوع يعد من أرق رقصات الباليه الجماعي ، وحتى الحرب العالمية الأولى كان السائحون في مصر وتركيا يحرصون على شهود رقص الدراويش الدوّارين في خاتقاواتهم ، لأن ذلك الرقص كان تسلية وممتعة . وقد احتفظ الرقص الفولكلوري التركي المعاصر بمشاهد من ذلك الرقص الطريف .

العلم الموسيقى عند المسلمين :

ولايد للباحث في الموسيقى عند المسلمين أن يدرس الناحيتين النظرية والعملية للموسيقى كلا على حدة ، لأن فلاسفة المسلمين وعلماء للموسيقى عندهم درسوا الموسيقى وألقوا فيها على أساس نظرى بحث ، لا علاقة له بالموسيقى المطبقة للسموعة . فهم يدرسون النغم وماهيته وأنواعه ومطابقة هذه الأنواع للطبائع الأربع ، فقد قسموا المواد التي خلقت منها الأشياء إلى أربع مواد ، هي : الماء ، والهوا ، والتراب ، والنار . وقالوا إن الإنسان أيضا مركب من أربعة عناصر مقابلة للمواد الأربع وعى : الدم ، والنفس ، والجسد ، والروح . وقالوا إن طبائع الأجساد البشرية أربع مقابلة لهذه ، هي : الحرارة ، واليبوسة ، والرطوبة ، والصفراء .

وهذه الطبائع الأربع تسمى أيضا بالأمزجة ، فكل إنسان مزاجه وهو الغالب

على تركيبه من هذه الأربعة . وعلى هذا الأساس قالوا إن العود هو الآلة الموسيقية الكاملة ، لأنها تتركب من أربعة أوتار تقابل الطابع أو الأمزجة الأربعة ثم استرسلوا في الكلام عن الأنغام والأصوات وربطوها بالكون والنجوم ، وساروا في ذلك مدى بعيدا .

وقد أخذ العرب هذا العلم الموسيقى النظرى عن اليونان ، ثم استقلوا بأنفسهم فأنشأوا فيه المقالات والكتب ، وكلامهم يدور حول الإيقاع والصوت والنغم وقياس كل من الأصوات والأنغام . وأول من ألفت في ذلك من العرب ابن يسنج الذى عاش في الحجاز وتوفى فيما بين سنتى ٨٦ و ٩٦ هـ / ٧٠٥ و ٧١٤ م ، وقد اعتمد في كلامه على نظريات فارسية وبيزنطية واتخذ أساسا لقياس الأنغام ، هو السلم الموسيقى القيثاغورى ، وهو يختلف عن السلم الموسيقى المعروف اليوم في أن أنغامه الكاملة أربع أنغام تتخللها أنصاف وأرباع أنغام . وقد تناول هذا السلم بالتعديل إسحاق الموصلى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م وأبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وقد اتخذ المسلمون سلالم موسيقية أخرى .

وقد ألفت في النظريات الموسيقية عدد كبير من المسلمين ، وكان أول المجيدين منهم يونس الكاتب المتوفى سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م كما ذكر ابن النديم في كتابه المعروف باسم « الفهرست » . ولكن إمام المؤلفين في النظريات الموسيقية من العرب هو أبو يعقوب يوسف الكنتلى ، وهو فيلسوف العرب الأول والأكبر في آن واحد وقد توفى في سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م ومؤلفاته في الفلسفة والطبيعات والرياضيات تعد بالعشرات ، منها سبع رسائل في العلم الموسيقى استصنى فيها غير ما عند اليونان والفرس وأضاف من عنده مادة عربية وافرة ، وواصل عمله تلميذاه السرخسى (ت ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م) ومنصور بن طلحة بن طاهر .

ثم ألف في الموسيقى ثابت بن قرة الحاراني المتوفى سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م ومحمد ابن زكريا الرازي (ت ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م) ، ولكن العلم بالموسيقى العربي بلغ ذروته عند أبي نصر الفارابي ، وكان فيلسوفا جليلا وموسيقيًا ممارسا في نفس الوقت ، ومؤلفاته في الموسيقى تعد من الأصول الكبرى في العالم الموسيقى في تاريخ البشرية ، وقد أتم عمله تلميذه البيهقي (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م) ، وهو أعظم من ألف في الرياضيات والموسيقى من المسلمين .

وقد أفرد « إخوان الصفاء » في رسائلهم التي ألغت في القرن العاشر الميلادي ، فصولا لدراسة كل ما وصل إليه المسلمون في النظريات الموسيقية ، ولم تظهر بعد ذلك إضافة جديدة بالذكر إلا رسالة « المدخل إلى صنعة الموسيقى » التي أوردها الفيلسوف الأشهر أبو علي بن سينا في موسوعته الفلسفية المسماة به « كتاب الشفاء » .

وعلى الرغم من ضخامة الجهد العلمي الذي قام به المؤلفون النظريون في الموسيقى ، فإننا ينبغي أن نقرر أن عملهم كله ظل نظريا بحثا فلم يطبق على الواقع المستعمل ، وفيما عدا مناقشتهم الطويلة حول انتقال الأصوات عن طريق أمواج دائرية تنسع وتضعف كلما ابتعدت عن مصدر الصوت ، واعتدائهم إلى دائرة النغم التي تجعل الأنغام يتسلسل بعضها عن بعض ، فيما عدا هذين الجانبين نجد أن الكلام النظري في الموسيقى يدخل في باب الرياضيات والفلك .

وقد ظهرت طبقة من علماء الموسيقى متوسطة بين النظريين والممارسين ، أي رجال مارسوا الموسيقى وصناعة آلاتها بأيديهم ودرسوا النظريات في آن واحد ، وأشهر هؤلاء صفى الدين بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م وهو مشهور بكتابه « الرسالة الشرفية » وكتاب « طرائق الألحان » اللذين يدلان على معرفة حقيقية للموسيقى وتذوق لها ، وقد ضاعت غالبية مؤلفاته ولكن تلاميذه كثيرون ، وقد

عرفنا على قطع من كتاباته في الكتاب المعروف بـ « شرح مولانا مبارك شاه على طرائق الألحان » الذي ينسب إلى شاه شجاع (ت ٦٨٥ هـ / ١٣٨٤ م) .

وبدخل في زمرة أولئك العلماء الممارسين على بن نافع الملقب بزرياب (١٧٣ — ٢٤٣ هـ / ٧٨٩ — ٨٥٧ م) الذي يعد بحق من أعلام أهل الفن والتجديد في تاريخنا الثقافي .

كان زرياب عبقرها مبتكرا في أكثر من ميدان ، وهو لم يؤلف كتابا ولكنه مارس الموسيقى عمليا منذ تعلمذ على إسحاق الموصلي مقنى هارون الرشيد ، وقد غادر بغداد — خوفا من غضب أستاذه — إلى القيروان حيث أقام ردا من الزمن في بلاط الأغالة ، ثم انتقل إلى الأندلس حيث رحب به عبد الرحمن الأوسط وأغدق عليه الصلات . وقد أنشأ زرياب في قرطبة مدرسة موسيقية يعلم فيها الشبان والشابات الموسيقى والغناء ، وكان يجع منهما سليما في تكوين الصوت وضبط الأنغام ومخارج الألحان وتنمية النطق الصحيح ، وهو الذي ابتكر الغناء الجماعي على نظام علمي فني ، وإليه ينسب تكوين أولى الفرق الموسيقية التي يشترك فيها منشغون ومنشادات يغنون جماعات أو فرادى ، وكانت الفرقة من هذه تسمى بالستارة ، وقد تتكون من ثلاثة فما فوق . وكان زرياب يضع للفرقة لحنا موسيقيا كاملا يشتركون فيه جميعا ، وتتفرد المغنيات بصوت . والمغنون بصوت آخر ، ويتضمن اللحن غناء منفردا ، وكان زرياب مخلصا لفنه فلم يهبط إلى مستوى التدامى والحواشي ، ولم يكن يزور القصر إلا لإقامة حفل أو للاتفاق على شيء يتعلق بالموسيقى ، وكان يشترط في تلاميذه والعاملين معه استقامة الخلق وحسن السمات واتساع الثقافة والاعتماد عن التذلل ، فارتفع شأن الموسيقى والموسيقين على يديه وأصبحوا فنانيين محترمين لا مسئين ولا مهرجين .

لقد أصلح زرياب العود وأضاف إليه وترأ خامساً زاد من سعته الموسيقية ، وعود زرياب هو القيثارة الإسبانية أو الجيتارا Guitarra المعروفة ، وهى من أكمل الآلات الوترية . وقد ابتكر زرياب بألحانه موسيقى رفيعة جديدة تقابل — فيما يتعلق بالموسيقى العربية — الموسيقى الكلاسيكية في الغرب ، وهذه الموسيقى تختلف عن الموسيقى الشعبية التى ذكرناها ، وهى التى يغنى بها للتسلية ولإزحاء الفراغ أو لمصاحبة العمل ، فى حين أن الموسيقى الزريرية كان الناس يستمعون إليها كلون من الثقافة العالمية كما هو الحال أيضاً مع الموسيقى الكلاسيكية .

ووصلت هذه الموسيقى الرفيعة أوجها على يد الفيلسوف الموسيقى أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة السرقسلى (توفى سنة ١١٣٨ م) وكان يسمى فى الأندلس بالإمام الأعظم فى الموسيقى ، وقد قال عنه أحمد بن يوسف التيفاشى التونسى فى موسوعته : « واعتكف مدة سنين مع حوار عسنت ، فهذب الاستبلاك والعمل ومزج غناء الصارى ببناء المشرق ، وابتكر طريقة لا توجد إلا فى الأندلس مأل إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها » . وقد ألف أبى الحسين بن الحاسب المرسى كتاباً كبيراً فى الموسيقى جمع فيه معظم ألحان ابن باجة . وابن الحاسب هذا هو الذى قال إن موسيقى أهل الأندلس أول الأمر كانت إما على طريقة الصارى أو على طريقة حللة العرب ، حتى جاء زرياب فابتكر موسيقاه الرفيعة ، ثم جاء ابن باجة فمزج العناصر الثلاثة واستخرج طرازاً فريداً من التلحين ما زالت بقياده معروفة متداولة إلى اليوم فى المغرب تغنيها فرق مدربة متقنة ، إذا سمعها الإنسان اليوم عاد قروناً كثيرة إلى الوراء ، إلى أيام ابن باجة ، أى إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، بل إلى أيام زرياب فى القرن التاسع الميلادى .

ممارسة الموسيقى :

مما يؤسف له أن الموسيقيين المسلمين لم يبتكروا طريقة لكتابة موسيقاهم ، ويقال إن زرياب ابتكر طريقة كان يكتب بها ألحانه ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يثبت ذلك ، وإنما كان المسلمون يعتمدون على السماع ، وهم يسمون تعلم الألحان بالسماع تلقيناً : يتلقن التلميذ من أستاذه القطعة الموسيقية سماعاً ، فيعزف الأستاذ جملة موسيقية على العود ويردها التلميذ إما على العود أو بصوته أو على آلة موسيقية

أخرى ، ثم جملة أخرى وهكذا . وما زالت هذه الطريقة متبعة إلى يومنا هذا حتى في معاهد الموسيقى العالية ، وهى طريقة غير سليمة لأن الموسيقى لا تصبغ علماً إلا إذا دوت ، مثلها في ذلك مثل سائر العلوم ، ثم إن التلقين لا ينقل الألحان في إتقان تام ، إذ لابد أن يقع تحريف ولو بسيطاً ، ومع الزمن تتوالى التحريفات حتى تتغير شخصية اللحن . وإذا أردت أن تأخذ فكرة عما يحدث في عملية التلقين فاستمع إلى أغنية يلقها مغن كبير ، ثم استمع إليها من موسيقى صغير تقرأ اليون التاسع .

ولهذا لم تصل إليها الألحان أنغاماً مكتوبة بل محفوظة في أشعار ، مع بدايات اللحن الموسيقى لكل بيت ، أو بيان الطبقة والإصبع التى تضغط على الوتر ، فيقولون مثلاً إن هذا صوت أو لحن يقضى بالسحر ، أو هو من طبقة اليمّ وحر العراق . وهذه كلها تعديلات غير دقيقة ، والنتيجة أن الألحان تندرج وتنسى أو تحرف تحريفاً شديداً ، ولهذا لا نستغرب إذا رأينا أن أحمد التيفانى يقول في موسوعته التى أشرنا إليها إن بحور التلحين والأصوات في الغناء العربى القديم قد انقرضت في القرن السابع علماً وعملاً . واستعاض الناس عنها في المشرق بطرق أخذوها عن العرس ، وبقرأ أيضاً في الكتاب اللطيف المسمى « كنائس الحائلك » — وهو دفتر جمع الأغاني والألحان التى كانت تغنى في المغرب في القرن الرابع عشر الميلادى — أن الألحان كلها تحورت وتحرفت بصورة أفستت طبعها وغيرت شخصها نتيجة للتلقين المتوالى . ونتيجة للتلقين أيضاً يضيع الكثير من الألحان ، ومثال ذلك أن بولت (جمع بوبة ، وهى الدور الموسيقى أو القطعة الموسيقية) الموسيقى الأندلسية كانت في الأصل أربعاً وعشرين ، ولكن عندما شرع مؤلف « كنائس الحائلك » في جمعها لم يجد إلا إحدى عشرة نوبة فقط .

وقد عرف العرب والمسلمون من آلات الموسيقى عدداً عظيماً ، فقد أخذوا بعضها عن غيرهم من الأمم واخترعوا بعضها الآخر بأنفسهم ، وقد بلغ من كثرة هذه الآلات أن قرر همرى جورج فارس (الاختصاصى المعروف في الموسيقى العربية) أننا لا نستطيع أن نحصى عَشْرَهَا ، ففى مجموعات التوزيعات فقط نجد اليَزْجَر — وهو العود الجاهلى — ويطنه من الخلد لا الخشب . والعود القديم وهو آلة صغيرة تشبه ما يعرف اليوم بالماندولين ، أما العود الذى نعرفه اليوم فيسمى العود الكامل ، وكان هناك عود ضخمة يسمى شاهرود .

وفى عائلة القيثارات — أى الآلات الوترية التى نعرف بالقوس لا بربش الطرب — لدينا الربابة وهى أم ذلك الطراز من الآلات عند العرب ، ومنها تفرعت الكمنجة والمربع والنشك .

وفى الوترية المكشوفة هناك الجَنَك — وهو الهارب — والقانون الذى يسمى أيضاً بالنزعة ، ثم السنطير وهو القانون الصغير .

وفى مجموعة النايات ، لدينا ناي البيم وهو يراع من الخشب طوله متر تقريباً ، ثم الشبابة وهى أقصر من ناي البيم ، والجواق وطوله نحو ثلاثين سنتيمتراً ، والصفارة وهى يراع ذو منقار ينفخ فيه ، أما ما كان يصنع من القصب من النايات فكثير ، مثل الزمر والسترنائى والأزلايى والقيطة والبوق وهو يصنع من المعدن .

وكانت أنواع الدفوف كثيرة تختلف بحسب الحجم والشكل ، وأهمها الطار والدف والدائرة والمثمنة ، ومن الطبول : الطبل والقارة والقصة .

وقد عرف المسلمون الأرغن وسموه الأرعانون نقلاً عن اليونانية ، والأرغن المائى الذى يعمل بضغط الماء ، والدولاب وهو الأرغن الكبير ، والأرغن الصغير الذى عرف باسم الشنيرة .

أما ما يعرف الآن بموسيقى القرب فقد عرف فى بلاد إسلامية كثيرة كالملايو والهند والأندلس وقد قال عنه النيفاشي : « أشرف آلة عندهم — أى عند أهل الأندلس — وأكملها لذة فى الرقص والغناء والوق ، وهو مما يختص به أهل الأندلس ، وهو شكل للزمر عظيم كالبيق ، يدخل فى رأسه قرن ، ثم يدخل فى القرن قصبة ، ثم يدخل فى القصبة جعبة صغيرة ، ولا تزال تتدرج كذلك إلى أن تنتهى إلى قصبة الخنطة تكون آخر الجميع ، ويكون الزمر بها والصناعة كلها فيها ، ويخرج عند العمل أصوات غريبة عظيمة فى غاية الإطراب والإعجاب ، وهذا عندهم من أعظم احتفال آلة الغناء والرقص فى مجلس الشراب » .

ولكننا نعود فنقول إن الموسيقى التى كتب لها أن تبقى سليمة حية فى المجتمعات الإسلامية هى الموسيقى الشعبية التى كانت جماعات المسلمين تعيها فى اجتماعاتها وحفلاتها ، فهذه بسيطة فى نغمها طيعة فى صياغتها ولا يبالغها كبير تحريف عند الانتقال من جماعة لجماعة ، فإذا نالها كان ذلك غامضاً مع تغير النوتة نفسه أو

تطوره ، لأن موسيقى الشعوب مرآة للذوق الفنى المحلى فهى تعرضه دائماً كما هو . وهذه الموسيقى لم تعرف النظريات ولا دخل بها أصحابها فى ميدان التأمل الفلسفى أو الحساب الرياضى ، لأنها ليست بحاجة إلى ذلك ، ثم إن الفقهاء لم يستطيعوا حيالها شيئاً ، لأنها جزء من حياة الشعوب نفسها ، فهى ليست مظهراً لفساد ولا تمهيداً لارتكاب معاصى وإنما هى تعبير شعبى ساذج عن مشاعر الشعوب فى شتى حالات انفعالاتها العاطفية .

لهذا عاشت هذه الموسيقى الشعبية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعوب ، ووصلت إلينا ثروة عظيمة منها . والطريف فى شأنها أن موسيقى المسلمين الشعبية وغير الشعبية كلها تتشابه فى ذوقها ونغمها ، فالموسيقى التى يعزفونها فى العراق تُصنع ويقبل الناس عليها فى المغرب ، والتوبات فى الموسيقى الأندلسية التى يعزفون بها فى المغرب تعد إقبالا فى مصر وتركيا وإيران . وموسيقى المسلمين الإندونيسيين ذات طابع صينى ، ولكنها أقرب إلى المسلمين جميعاً من الموسيقى الصينية الخالصة ، فكان شعوب الإسلام تقاربت فى عالم الإنشاد والنغم كما تقاربت فى عالم العقيدة ومبادئ الأخلاق ومادة الفكر والثقافة .

وناحية الضعف الكبرى فى موسيقى الشعوب الإسلامية أنها عاشت عبرها كله غير مكتوبة تعتمد على التلقين دون الكتابة والتسجيل . حتى كبار قارنى القرآن الكريم ، وبعضهم يتكرر أساليب مبدعة فى القراءة ، لم يفكر واحد منهم فى تسجيل قراءته بالكتابة بالنوتات حتى يحتفظ بها . والأغاني المشهورة التى نسمعها لكبار المغنين والمغنيات فى البلاد العربية لا نجد مكتوباً منها إلا النغمات الرئيسية ، أما البقية فترك دائماً للارتجال وابتكار اللحظة . حتى كبار الموسيقيين الأتراك ، الذين وضعوا الأساس الجارى لما يعرف اليوم بالموسيقى العربية — من أمثال عاشق أفندى — لم يدونوا شيئاً من مشارفهم الجميلة . ومن المعروف أن البشارف هى قطع موسيقية جمع الملحن التركى فيها مجموعات من الأنغام الشائعة فى عالم الإسلام ، ما بين فارسية وعربية وتركية وغيرها ، وصاغها فى هيئة قطع موسيقية كل منها مصوغ على نغم معين من الأنغام ، فيقال إن هذه القطع من المعجم أو عجم عثمان أو التهاوند وما إلى ذلك .

وما زالت الموسيقى العربية والإسلامية كذلك نغمية ، أى تعتمد على النغم المنعرد (الميلودى) الذى يشده المغنى وحده ، أو يعزفه الفريق كله دون أى اتجاه إلى

التلوين النغمي المعروف بالهارمونية التي توسع آفاق الأداء الموسيقي وتقترب بالأنغام من طبيعة الحياة التي يتأني جملها من اختلاف عناصرها وانسجام بعضها مع بعض في آن واحد .

قصون أخرى :

ولا بد من الإشارة هنا إلى ألوان مختلفة من الفنون نشأت ولقيت قبولا عند جماهير المسلمين ، كالتمثيل البدائي الذي كان يصاحب إنشاد القصص الشعبي في المقاهي والأسواق . فقد جرت العادة على أن تمثل بعض مشاهد من القصة ، كفقرات الحولر القياض بالحماصة والشهامة ، أو مشاهد تحدى الظلم والثورة على الجبابرة ، كما نرى في طريقة إنشاد الناس لقصة الظاهر بيبرس ، أو قصة أبي زيد الهلالي ، وهي ملحمة أبطال جمع المؤلف الشعبي فيها مشاهد شتى من الأدب الجاهلي وبطلولات الإسلام ومواقف من الحروب الصليبية وصراع بني هلال مع أعدائهم ، وساقها في نسق جميل يدل على ملكة درامية وإن كان يتقصه الصقل والتجويد . وكان الناس عندما يستمعون إلى الراوي يتلو عليهم فقرات هذا القصص الشعبي ، يظفرون بين الحين والحين بفقرات ممثلة وأخرى ملحنة منشئة ، وقد يشترك جمهور السامعين مع المنشدين في إعطاء القصص صورة تمثيلية ، كما نرى في الفقرات الخاصة بزواج عتر وعيلة عندما يقيم الجمهور بالاشتراك مع فرقة الرواة حفل زواج تمثيلا لا يتخلو من طرافة ، لأن بعض المتفرجين يقوم بدور والد عيلة ويقوم بعضهم الآخر بدور الشهود ، في حين تغني النساء من شرفات المنازل المحيطة بالمقهى أو بمكان الإنشاد .

ويدخل في ذلك ما يسمى بخيال الظل ، وهو فرع مما يسمى في يومنا هذا بمسرح العرائس . وقد نشأ هذا النوع من المسرح الشعبي في الصين ، وامتد إلى الهند وإيران ، وعرفه العرب في القرن التاسع أو العاشر الميلادي ، وقد لقي من جماهير المسلمين — خصوصا في الشام وفلسطين ومصر — قبولا كبيرا ، وزاد الإقبال عليه أثناء العصر التركي وعرف باسم الفراجوز ، وكانت العادة أن تقام حفلاته خلال شهر رمضان كنوع من أنواع التسلية التي يقبل عليها الناس في ليالي الشهر الفضيل .

وكانت الظلال تلقى على ستارة من القماش الأبيض تتدلى من السقف وتوقد خلفها المصاييح ، أما الشخصوس فيتراوح طول الواحد منها ما بين ٢٥ و ٤٠ سنتيمترا ، وكانت تصنع من الجلد أو القماش وتحشى بالقطن وتحرك من أسفل بعضى مثبتة في أعضاء الشخصوس . أما النصوص التى كانت تلقى فكانت نظماً مقفى وقطعاً موسيقية تغنيها جماعات تخصصت في هذا الفن . وكانت الشخصوس تحرك فيها بين الستارة والضوء فتظهر عليها في صورة ظلال سوداء . أما الحكايات التى كانت تمثل بخيال الظل فتقتبس موضوعاتها من القصص الشعبي أو المشاهد الفكاهية في الحياة العلية ، وفي بعض الأحيان كانوا يكتبون النصوص بعناية تامة ويدخلون عليها فيما بعد تعديلات ومجلورات تقتبس من الأحوال الجارية ، فيكون لها وقع لطيف ويضحك منها الناس . وليس لدينا من أسماء مؤلفي هذه الروايات إلا واحد هو محمد بن دانيال ، وكان طبيباً مصرياً عاش في القرن الثالث عشر ، ولم يبق لنا من أعماله إلا قطعة واحدة ، شخصوها مأخوذة من الحياة العامة ، ففيها سكر وطيح ومحال وشرب خيخ ونصاب وما إلى ذلك ، والغالب أن تكون لغة خيال الظل عنيفة ، وربما خارجة على الحشمة ، لأن القصد منها هو إضحاك الجمهور . وقطعة محمد بن دانيال ليس فيها ما يجرح الإحساس ، ومع ذلك حمل عليها الفقهاء حملة شديدة ، ولكن ابن عربى الصوفى الأكبر يمتدحها ويقول إن شخصوها ترمز إلى هياء الحياة ، وإن الأيدي الخفية التى تحركها ترمز إلى يد القدر . وإلى آخر القرن التاسع عشر كانت قطع خيال الظل هى العنصر المسرحى الوحيد الذى عرفناه قبل العصور الحديثة ، وقد اختفى خيال الظل عندما نشأ في البلاد الإسلامية الفن المسرحى .

خلاصة :

تناولنا في هذا الفصل — على وجه الاختصار الشديد — ميادين الفنون التى أبدع المسلمون فيها ، سواء أكانت فنوناً تشكيلية كالعمارة والتصوير والنحت . أم فنوناً تصويرية صرفة كاللوسيقى والقصص الشعبي وخيال الظل وما إلى ذلك . وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن تناول هذه الميادين الواسعة في عالم شاسع كالعالم الإسلامى إلا على سبيل الاختصار الشديد ، الذى يكفى بالإشارة الوحيدة إلى المظاهر العامة دون تعمق أو استقصاء .

بدأنا بفقرة عامة عن مفهوم الفن ، وكيف أنه تعبير عن الإحساس والمشاعر والمعاني ، فبينما كيف أن الفنون ظاهرة إنسانية عامة ، فليس هناك مجتمع إنسانى بدون فنون ، فكما تأكل جماعات البشر وتشرب وتنام ، فهى تغنى وتعرّف وترقص وتتطلب أشكالا فنية جميلة سواء كانت مرسومة أو مشكّلة . وقلنا إنه لا علاقة بين الترف والفنون ، بخلاف ما يظن الكثيرون ممن يعتقدون أن ممارسة الفنون ترف لا تتطلبه الجماعات البشرية إلا فى المراحل العليا لحضاراتها ؛ ومن هؤلاء ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف الأشهر ، وقد فاته أن أكثر الشعوب غناء ورقصاً ورسماً ونحاً عن الشعوب البدائية ، لأن الفن جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان ، وهو ينبع من طبيعة نفسه . وتعرضنا فى هذه المقدمة لمن هاجموا الإنتاج الفنى ورأوا فيه مظهراً للخلاعة أو انحطاط الخلق ، وقلنا إن الفن كله عند المسلمين نابع من القرآن الكريم ، الذى يضم آيات كثيرة جداً تستلقت نظر المؤمنين إلى ما فى الكون من جمال وتناسق ، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم فى ذاته — من حيث صياغته — يعد منظومة بيانية فنية بديعة .

وفى الفقرة الثانية عن ميلاد الفنون الإسلامية ، وسعنا محال هذا الرأى الخاص بشئء التعبير الفنى الإسلامى من القرآن الكريم ، وضربتنا مثلاً لذلك بالألوان التى استعملها المزعوفون والمصورون المسلمون فى أعمالهم ، وهى ألوان تحروا فيها أن تكون قرآنية أى وردت فى القرآن ، وأضفنا إلى ذلك أن موسيقى الشعوب الإسلامية نبتت من ترتيل القرآن الكريم ، وبينما بوضوح الصلة الوثيقة بين الفروع الإسلامية والإنتاج الفنى عند الشعوب التى آمنت بالإسلام .

وفى الفقرة الثالثة تكلمنا عن الفنون الشعبية والفنون المصقولة وبيننا الفرق بينهما ، وقلنا إن كل شعوب الدنيا عرفت نوعى الفن الشعبى والمصقول ، وذكرنا أن مجتمعا الإسلامى شهد تطوراً واسعاً فى ميدان الفنون الشعبية ، لأن ذلك الميدان ظل بعيداً عن نقد المتشددىن ، فى حين أن الفنون المصقولة كانت دائماً هدفاً لتعقيهم ، فبينما لم يتعرض فقيه على إنشاد الحمائم فى الأعراس والمناسبات السعيدة ، نجد أن الكثيرين من الفقهاء أنكروا السماع ، وبرد به ممارسة الموسيقى والاستماع إليها .

وفى الفقرة التالية تكلمنا عن ميلاد فن العمارة عند المسلمين ، ووقفنا عند المساجد الأولى وبخاصة مسجد النبى — ﷺ — فى المدينة المنورة ، وتكلمنا عن هيئته

الأولى ، وتبيننا تطوره العمارى عندما قام الخلفاء بوسيعه أو بهدمه وإعادة بنائه . وقد وقفنا تلك الوقفة الطويلة بذلك الجامع لأنه أبو المساجد الإسلامية جميعاً ، لا من حيث تاريخ احتضانه فحسب ، بل كذلك من حيث هيئته العامة ، فإن أجزائه الرئيسية ظلت هى الأجزاء الرئيسية لكل مساجد الإسلام فيما بعد ، وهى : بيت الصلاة والصحن والقبلة والحراب والمنبر . أما الأجزاء التى أضيفت إلى عمارة المساجد فيما بعد ، وأهمها المئذنة والميضأة والقبعة والمقصورة فمناصر ثانوية دخلت فيما بعد . أما الأعمدة والأقواس والسقوف المزركشة والنوافذ والأبواب فكلها عناصر فنية عمارية عامة توجد فى المساجد وغير المساجد ، وإن كان العرف قد جرى بألا يخلو منها مسجد إسلامى .

وتبيننا — فى فقرة خاصة بفلسفة المساجد عند المسلمين — الفكرة الرئيسية التى حاول العماريون تحقيقها فى مشاتهم ، وهى فكرة الجمع بين عنصرين متناقضين هما البساطة والجلال ، وبينما كيف تمكن العماريون من التوفيق بين هذين العنصرين المتناقضين . وذلك عن طريق تتبع المساحد الجامعة الإسلامية وتطور مآثرها .

وتكلمنا بعد ذلك عن الفن الأموى فى المشرق ، وقلنا إن العماريين فى العصر الأموى ابتكروا طرازاً عمارياً خاصاً أخذ من عناصر شتى غير إسلامية ثم صاغها كلها فى قالب واحد . وقلنا إن بداية هذا الفن توجد فى قبة الصخرة ، ووصفنا بناء القبة وصفا موجزا ، ثم تكلمنا عن المسجد الأموى فى دمشق وبيننا خصائصه ، وانتقلنا للكلام عن المميزات العامة للمساحد الأموية . وأشرنا بعد ذلك إلى العمارة المدنية أيام الأمويين ، وتحدثنا عن السواكى وهى القصور الريفية التى كان ينشئها خلفاء بنى أمية ، والحيرات وهى أيضاً قصور صحراوية لم تكن تستعمل للمتعة فقط بل كان الخلفاء يمارسون فيها أعمال الدولة بعيداً عن صحن قصورهم ، ولذلك فقد كانت أشبه بالحصون .

ونكلمنا عن العمارة فى العصر العباسى ، فذكرنا كيف أنه لم يبق لنا من معالمها إلا القليل لأن معظمها بنى بالطين ، حتى أسوار مدينة بغداد العظيمة وقصر الخلافة فيها وجامع المصور . وأشرنا هنا إلى هندسة مدينة بغداد — التى تسمى بالمدينة المدورة — ونكلمنا عن جامع سامراء الذى بناه الخليفة المتوكل ، ولم يبق لنا منه إلا جدرانته الخارجية التى تشبه الأسوار ، ومعدنته المعروفة بالملوية لأنها ذات سلم

حزونى خارجى . وأشرنا بعد ذلك إلى عمارة القصور فى العصر العباسى ، وكيف أنها كانت نفوذ على أبياء مكشوفة تحيط بها عمد تحمل أقواساً نصف دائرية أو مديبة ، وحلف الأقواس نفوذ الحرف ما بين كبيرة وصغيرة ، وفى العادة يتكون القصر من أبياء كثيرة تربطها — بعضها ببعض — أروقة ، وضرباً أمثلة لذلك بقصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة المتوكل المعروف بالجوسق فى سامراء .

وقد أحييت العمارة العباسية ابن الساسانى فى كل صورة ، فانتعشت الفنون الفرعية الداخلة فى فن العمارة ، كالسيفساء ومربعات القاشانى والرخام المصقول والخشب المشغول . وقد احتلقت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطى التى تأصلت من أبياء بى أمية ، ومن هذه العناصر تكون — شيئاً فشيئاً — الفن الإسلامى الخالص ، الذى يجمع بين تماذج فنية مختلفة الأصول ، ولكنه ينفى عليها قالاً واحداً ويعطىها شخصية متميزة بنفسها .

وتكلمنا عن أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك ، وذكرنا باختصار خصائص كل منها . وقد شمل كلامنا الطرز المعمارية المصرية والمغربية والأندلسية والإيرانية والتركتانية والهندية ، وذكرنا خصائص كل منها وذكرنا أهم العماائر التى نعد تماذج لكل منها ، وحنما هذه الحولة فى ميدان المساجد الإسلامية بوقعة عند الطراز التركى العثمانى المعروف ، وذكرنا أهم نماذجه مثل مسجد السلطان سليمان فى الآستانة ، وأشرنا بهذه المناسبة إلى مهندس العمارة التركى سنان وتلميذه محمد أغا من عهد المومن .

ثم وقفنا وقفة قصيرة عند الفنون الصغيرة عند المسلمين ، وقلنا إن للراد بهذه الفنون الصناعات الدقيقة ذات الطابع الفنى ، التى تتجلى فى القطع الممتازة من السبيج المصروف أو المزركش ، سواء كانت خامة أو مصنوعة ، ملابس أو ستر أو سجاجيد بسيطة أو ملطافس ، وكذلك الأدوات المعدنية ذات الهيئة الفنية ما بين نحاسية وبيرونزية وحديدية ، وتشمل كذلك مصنوعات العاج المشغول والخشب للزخرف والمطلى بالعاج والصدف والآنوس ، والزخارف ومربعات القاشانى وأواني العجار والحرف بأنواعها والزجاج والبكور ، ووقفنا عند كل واحدة من هذه وقفة قصيرة .

وتكلمنا فى إنجاز عن التصوير والنحت عند المسلمين . قلنا إن المسلمين مارسوا التصوير بشتى أنواعه من تصوير المناظر والأشخاص ، وأظهروا فى ذلك بوعاً ،

وما زالت لدينا أعمال فنية قام بحملها مصورون مسلمون ، سواء من إيران أو من مسلمي الأندلس ، تدل بحق على أن التصوير كان فناً محترماً معنياً به من المسلمين في تواجهم العالم الإسلامي كلها . وأشرنا في أثناء ذلك إلى المصور الإيراني بهزاد ومدرسته ، وإلى المصورين الأندلسيين المجهولين الذين رسموا لوحات رائعة في الحمراء ، خلال القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين قبل أن يصل فن التصوير في الغرب الأوروبي إلى أى مستوى . وبعد ذلك تكلمنا عن فن كتابة المصاحف والخطوط بصورة عامة ، وأشرنا إلى أن التصوير بدأ عند المسلمين كفن من فنون زخرفة الكتب برسوم صغيرة تعرف بالشمعات ، ثم استقل بعد ذلك فأنش رسامون لوحات مستقلة بذاتها ، وضرينا مثالين على ذلك بما صنعه سلطان محمد ورضا عباسي ، وهذا الأخير عاش في أصهفان فأنشأ فيها مدرسته الفنية المذكورة في القرن السابع عشر الميلادي ، أما مدرسة التصوير الأندلسية ، فقد أنشأت أيضاً فناً منفرداً عن فن زخرفة الكتب بالشمعات ، ثم استقلت سريعاً ، ومعظم أعمال فنانها ظهرت ورسمت على جدران القصور والمباني . وأشرنا إشارة موجزة إلى فن النحت الذي عرفه المسلمون في صورة زخارف بارزة على العاج والخشب والرخام ، ثم استعملوه في صناعة تماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والملوكية والأندلس ابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

وتكلمنا بعد ذلك عن الموسيقى عند شعوب الإسلام ، فأشرنا إلى الجدل العنيف الذي دار حول موضوع السماع ، وذكرنا كيف أن كثيرين من الفقهاء حرّموه ، أى حرّموا الموسيقى والغناء ، وحاولنا أن نجد تعليلاً مقبولاً لموقف الفقهاء هذا ، وذلك بشرح الظروف التي كان الغناء يمارس فيها في العصور الوسطى ، وقلنا إن هذه الظروف لم تكن كريمة ولا مناسبة للحشمة ، ومن ثم فإن موقف الفقهاء من التحريم موقف معقول . وأضافنا أنه ما دامنا الأحوال قد تغيرت وأصبح الغناء يمارس الآن في صورة سليمة وفي جو محشم مناسب لفن جميل ، فإنه لا ضرر في السماع لأنه لا يمهّد الطريق إلى فساد ولا يصاحب أبداً من المظاهر التي ينفّر منها أهل الكمال والأدب .

وأشرنا إلى الغناء الجماعي ، وقلنا إن منه ما هو ساذج طبيعي يفتحه الجمهور في مناسبات الأفراح كالأعراس ، وما يفتحه العمال والفلاحون في أثناء العمل . وهذا وذلك جزء من الحياة نفسها ، وهو ليس ترفاً ولا مظهرًا من مظاهر الفساد ، ومن ثم فإن أحداً من رجال الدين لم يحترض عليه . ومن الغناء الجماعي ما يفتحه محترفون يطوفون بالأسواق ويعرفون بالنجر أو الغوزي ، وجماعات هؤلاء المغنين دقيما غريبة عن البلاد ، فهي جوارح تحترف

الغناء إلى جانب حرف أخرى تقوم بها لكسب عيشها . ومن الغريب أن غناء هؤلاء الحوالين هو الذى أصبح أصلاً لقن الغناء الشعبى الجماعى فى المدن ، فإن أولئك الغنيين يغنون فى الأسواق فيجتمع عليهم الناس ويشاركونهم الإنشاد ، وشيئا فشيئا نشأت عادة الغناء الجماعى فى الأسواق والطرقات .

واحاج الناس إلى ما يتغنون به ، فظهر فن الزجل وهو شعر يصاغ فى اللغة الدارجة ، وقد صيغ أولا على بحور الشعر العرفى ثم استقل ببهور خاصة به . وعن الزجل تطور الموشح ، وهو شعر عرى يصاغ على صيغة معينة تناسب الإنشاد الجماعى ، وقد نبغ فيه الأندلسيون وغنوا به فى الأسواق وفى اجتماعاتهم الشعبية وفى ليالى السمر ، وعندهم انتقل إلى المشرق وإلى أوروبا . وظهرت فى البلاد الأوروبية أشعار شعبية من طراز الموشح والزجل عرفت بأسماء شتى أشهرها غناء التروبادور فى فرنسا .

وانتقلنا إلى الكلام عن الغناء الشعبى عند الشعوب الإسلامية ، وقلنا إن الغناء الشعبى العرفى هو الحداء ، وذكرنا أنه ظل فنا حيا ينشده العرب فى كل مكان عاشوا فيه ، حتى عندما استقروا فى المدن ولم يعودوا يحتاجون إلى حداء الإبل فى السمر ، وأضفنا بعد ذلك إشارة بسيرة عن غناء الصوفية وإنشادهم ورقصهم .

وتكلمنا عن ممارسة الموسيقى عند الشعوب الإسلامية ، سواء كانت الموسيقى الشعبية الجماعية أو الموسيقى الخاصة التى تعزف فى الحفلات مصاحبة للغناء ، أو بدون ذلك . وقلنا إن نقطة الضعف الكبرى فى ممارسة المسلمين للموسيقى عى أنهم لم يهتموا بتدوينها التدوين الكافى ، فظلت معتمدة على السماع والتلقين . وأشرنا إلى أن الأنغام تتحرف ثم تتلاشى مع الزمن إذا اعتمدت على التلقين وحده ، لأن التحريف يتوالى مع انتقال الأنغام من إنسان لإنسان حتى يبعد النغم عن أصله تماما .

وقلنا إن هذا هو السبب فى تلاشى أنغام وقطع موسيقية كاملة ، بل ذكر بعض مؤرخى ذلك الفن أن الموسيقى العربية الأولى التى ظهرت أيام العباسيين العظام — أى فى القرن الثانى وأوائل الثالث الهجريين — تلاشت تماما فى القرن السابع الهجرى . وكان لابد أن يستمر المسلمون أنفاسا جديدة أعجلوها عن إيران أولا وعن تركيا بعد ذلك ، وما يعرف اليوم بالموسيقى العربية ليس فيه من العناصر العربية إلا شئ ضئيل ، والباقي اقتبس من أصول شتى معظمها ليراني وتركى .



مراجع مختارة

كتب عربية ومترجمات إلى العربية :

المراجع الأصلية في موضوعات الفنون عند المسلمين قليلة ، وبخاصة في ميدان المنشآت المعمارية والفنون التشكيلية ، فإننا لم نعتز — إلى الآن — على كتب ألفها عماريون مسلمون في شرح القواعد والأصول الفنية التي ساروا عليها ، فيما عدا بعض كتب بسيرة بالتركية ألفها نفر من تلاميذ المهندس العماري ستان ، وما لدينا من مؤلفات عن المساجد تتناول في الغالب أحكامها الفقهية ، وى المكتبة الوطنية في مدريد كتاب عنوانه « البيان في أحكام البيان » ، ولكن مادته كلها فقهية ، أما المؤلفات عن التصوير فلا توجد ، مع أننا كنا نأمل أن نعتز على شيء ليهزاد أو بعض تلاميذه ، ولهنا فإن عمادنا في هذا الميدان مقصور على المؤلفات الحديثة التي قام بها علماء الآثار ومؤرخو الفن في البلاد الإسلامية .

ونتيجة لذلك فإننا لم نخصص قسماً من هذه البليوجرافيا للأصول — كما هي الخطة في هذا الكتاب — بل أوردنا المراجع العربية والمترجمة إلى العربية من لغات أخرى في قسم واحد .

— إبراهيم جمعة : « قصة الكتابة العربية » ، مجموعة اقرأ رقم ٥٢ ، القاهرة ١٩٤٧ .

— أحمد رشدي صالح : « الفنون الشعبية » ، حزان ، القاهرة ١٩٦٣ .

— أحمد فكرى : « مساجد القاهرة ومدارسها » ، المدخل ، القاهرة ١٩٦١ .

— حسن الباشا : « التصوير الإسلامى في العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٥٥ .

— حسن الباشا : « الفنون الإسلامية » ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥ .

- أبو الحسن منصور بن زيلة : « الكافي في الموسيقى » ، تحقيق زكريا يوسف .
- دهماند : « الفنون الإسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا : « سر الأسرار في الصنعة الشريفة » (الموسيقى) ، ليننجراد ١٩٥٩ .
- زكي محمد حسن : « فنون الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .
- زكي محمد حسن : « الفنون الإيرانية » ، القاهرة ١٩٥٠ .
- سعاد ماهر : « الحصر في الفن الإسلامي » ، القاهرة ١٩٦٤ .
- سعاد ماهر : « الحزف التركي » ، القاهرة ١٩٦٥ .
- سعد الحاداد : « الحياة الشعبية في رسوم ناجي » ، القاهرة سنة ١٩٦١ .
- سعد الحاداد : « الصناعات الشعبية في مصر » ، القاهرة ١٩٦٢ .
- السيد عبد العزيز سالم : « المآذن الإسلامية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها حتى الفتح العثماني » ، القاهرة ١٩٥٩ .
- عبد الرحمن ركني : « السيف في العالم الإسلامي » ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- فارمر ، جورج هنري : « مصادر الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- 'فارمر : « الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- فتّاد صفر : « مطبوعات مديرية الآثار القديمة » ، بغداد سنة ١٩٥٢ .
- الكنتدي : « رسالة في اللحون والنغم » ، تحقيق زكريا يوسف ، دمشق ١٩٤٧ .
- مجدي العقيدى : « السماع عند العرب » ، حلب بدون تاريخ ، جزآن .
- مجر الدين ، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م) : « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ، القاهرة ١٨٦٩ (يقول أحمد فكري إن هذا الكتاب منقول معظمه عن كتاب « مثير العرام إلى زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي المتوفى ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م) .
- محمود أحمد : « جامع عمرو بن العاص » ، القاهرة ١٩٣٨ .
- مصطفى كامل الصواف : « تاريخ الحياة الموسيقية » ، دمشق ١٩٣٠ .
- يحيى المنعم : « رسالة في الموسيقى » ، بتحقيق زكريا يوسف .

مراجع غير عربية :

العمارة الإسلامية بصورة عامة :

BLIX HET, E. : Les Postures des Monuments Orientaux de la Bibliothèque Nationale Paris - 1920 .

CRESWELL, A. : Early Muslim Architecture, 2 vols. Oxford, 1932 - 1940 .

CRESWELL, A. : short account of Early Muslim Architecture. (A Pelican Book) London, 1958

HAMILTON, R. W. : The Structural History of the Aqsa Mosque . Oxford, 1949 .

LEZINE, A. : Le Ribat de Sousse - Tunis , 1956

MARCAIS, GEORGE : Coupole et plafond de la Grande Mosquée de Kairouan . Tunis - Paris , 1925 .

RICHMOND, E. T. : Moslem Architecture London , 1926

العمارة في العصر العباسي :

BELL, G. L. : Palace and mosque at Ukhaider , Oxford , 1914

CRESWELL, A. : Early Muslim Architecture , II . Abbasids , 1940

GODDARD, A. : Les anciennes mosquées de l'Iran - Téhéran - 1936

KUHNEL, ERNST : Islamic art and architecture (translated by Catherine Watson) . London , 1966

العمارة في العصر الفاطمي :

ARATTA, G. : L'architettura arabo - Normana in Sicilia - Milano , 1913 ,

BRIGGS, M. S. : Muhammedan architecture in Egypt and Palestine . Oxford , 1924 .

GRESWELL, A. : Muslim architecture of Egypt , I . Ikhlads and Fatimids . Oxford , 1952

TERRASSE, NENRI : L'Art Hispano-Maurisque des origines au XIII Siècle . Paris , 1933 .

العمارة الإسلامية بصورة عامة :

GOMEZ MORENO, MANUEL : El arte arabe español hasta los Almohades . Arte Mozarabe (Ars Hispaniae , III) . Madrid , 1951

MARCAIS : G . : Manuel d'art Musulman , L'architecture : Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile . Paris , 1626 - 1927 .

TORRES - BALBAS , LEOPOLDO . Arte almohade , Nazri , mudejir (Ars Hispaniae , IV) . Madrid , 1949 .

التصوير الإبرالي :

ANTONIO GARCIA , JAEN : Arte y Artistas Musulmanes . Madrid , 1951 .

SARRE J., UND MITTWOCH , E . : Zeichnungen Von Riza Abbasi . Munch , 1944 .

STECHEUKINE , I . : Les peintures des manuscrits safawis de 1502 à 1577 . Paris , 1959

الفن الهندي الإسلامي :

HAVELL, E. B. : Indian architecture . London , 1914 .

BROWN, PERCY : Indian Painting Under the Moghals . London , 1923 .

BROWN, PERCY : Indian Architecture (Islamic Period) . Bombay , 1964 .

COMMARASWAMY , A. : Mughal painting . Cambridge , Mass ., 1910 .

STECHEUKINE , I. : La peinture indienne à l'époque des Grands Moghols . Paris , 1929 .

الفنون التركية العثمانية :

GABRIEL A. : Les Mosquées de Constantinople . Syria , 1912 .

OTTO-DARN , K. : Türkische Keramik . Ankara , 1960

WILDE , H. : Brusa . Berlin , 1909 .

الموسيقى عند المسلمين :

FARMER , H.G. : Arabian Music . London , 1950 .

: Music (a chapter in the Legacy of Islam) .

Oxford , 1931 .

الفصل السابع
عصور الركود



تمهيد :

إن من يقرأ حوليات مصر والشام والجزيرة العربية من منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ليدعش من الخيوط العام الذي أصاب إطارات النظام السياسي والإداري المملوكي بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م . ومحمد بن قلاوون هو آخر الكبار من ممالك الفترة الأولى الذين سادوا مصر والشام وغرب جزيرة العرب ، وهي فترة للممالك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) التي تعد آخر الإمبراطوريات الكبيرة التي ظهرت في شرق العالم العربي وسبوت أموره أكثر من قرن من الزمان . وقد نلأهم الممالك البرجية ، ودولتهم لم تكن استمراراً للممالك البحرية — كما يظن — بل انحداراً لها وانهاهاً بها نحو الثلاثي والزوال .

وسيادة الممالك نفسها على ذلك الجزء الكبير من العالم العربي أمر له دلالة ، فهي الصورة الأخيرة التي كان لا بد أن يصل إليها تطور نظم الحكم في بلاد العالم الإسلامي ، وهي نظم قامت على حكم البلاد بواسطة قوة عسكرية أجنبية عن البلاد ، سواء كانت مكونة من جند مرتزقة يدخلون في خدمة السلاطين لقاء أجر ، أو من ممالك تُشترى ويديرون على أعمال الحرب ليقدموا أصحاب الدولة . ويدهى أن القوة الحقيقية في هذه الدول إنما كانت تكمن في القوة العسكرية التي يعتمد رجالها عليها .

والذي حدث في نهاية الدولة الأيوبية أن ممالك الأيوبيين — وهم خلفاء صلاح الدين — تنهوا إلى أنهم هم أداة السلطان وعصب القوة ، وعندما بلغ الضعف بسلاطين الأيوبيين انتهت أداة السلطان محل صاحبها في الحكم ، كما يضع الخادم ، المطلق الأمر ، يده على أموال سيده إذا لم يكن لهذا السيد وريث حازم

فادر على حماية تركته . والمفروض أن الأمة هي الوريثة الشرعية للسلطان و بلادها ، ولا بد أن يعود إليها الأمر كلما انتهت ولاية حاكم لكي تختار الحاكم الجديد أو تبدى رأيها على الأقل فيمس يرشحون للولاية ، ولكننا رأينا أن الأمور لم تسر في عالم الإسلام على هذا النظام الطبيعي الشرهي الكفيل باختيار الإمام الأصلح من بين أبناء الأمة . وبدلاً من ذلك لجأ أصحاب السلطان منذ قيام الأمويين إلى حرمان الوريث الشرهي — وهو الأمة — من ممارسة حقه ، واختاروا بأنفسهم الحاكم معتمدين على الإدارة العسكرية التي ذكرناها .

وسواء في حالة الأمويين أو العباسيين ، فإن مبدأ الوراثة طُبِّقَ على أساس خاطئ، يعتمد في كل حالة على قوة عسكرية ، وقد عدت أمة الإسلام انتقال الخلافة إلى الأمويين اعتصاماً للسلطان ، وكذلك كان الأمر في الواقع عندما انتقل السلطان من الأمويين إلى العباسيين ، وما دامت الأمور قد بدت بداية حاطفة فكان لا بد أن يستمر الخطأ مادام أحد لم يتحلى تصحيحه ، وهكذا ظلت أمة الإسلام بعيدة عن الحكم والسياسة .

ونعود إلى دولة المماليك فنقول إن مستوى الحكم ارتفع شيئاً أيام كبار سلاطينها ، ولكن الأمة العربية في مصر والشام والحجاز ظلت دائماً خارج الميدان وقد حيل بينها وبين ممارسة سلطانها . والأمة — كما ذكرنا — هي شجرة السلطان وأصل القوة ، وجذورها هي التي تغذوه ، وأى سلطان يعتمد على جذور أخرى لا بد أن يجف ويموت . وهذا هو الذي حدث خلال الحفبة الأخيرة من سيادة المماليك على قلب العالم الإسلامي في مصر والشام والحجاز : جفت شجرة الحكم ونساقطت أوراقها وأذنت بالسقوط ، وبهم إطار الدولة ، فقد تولى الحكم خلال الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٠ — ٧٨٤ هـ / ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م) اثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده لا تجد من بينهم واحداً يستحق الذكر ، وهبط مستوى الحياة هبوطاً عاماً حتى إنك لتقلب صفحات مطولات من تاريخ مصر في هذه الفترة — كالنجوم الزاهرة لأبي الحسام يوسف بن تغرى بردى ، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لابن لباس الحنفى — فتشعر كأن نيل الحياة قد ركذ ركوداً شديداً في مصر والشام والجزيرة العربية وجزء من العراق ، فلا شيء يحدث غير منافسات مماليك لا يستحقون حتى ذكر أسمائهم على حطام من الدنيا لم تعد نسلوى العناء ، ولم

بعد يشغل بال الحكام إلا التنافس على وظائف ندر المال وبعض الامتيازات ، وهذا
تطوّر المظهر الحقيقي للركود الذى سيسود هذه البلاد ابتداء من القرن الثامن
لميلادى / الرابع عشر الميلادى .

وقيل أن مرسيل فى دراسة أحوال جماهير المسلمين وما أصابها من ركود ، لنقف
وقفة قصيرة فى بداية النحدر وتأمل ما حولنا حتى نستجمع صورة العالم الإسلامى
فى مطلع العصر الحديث .

محسّس دول تقاسم بلاد الإسلام فى مطلع العصر الحديث :

يتفق المؤرخون الغربيون على القول بأن العصور الحديثة فى أوروبا تبدأ من
منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، ففى ذلك الحين — سنة ١٤٥٣ م —
سقطت القسطنطينية فى أيدي الأتراك العثمانيين ، وفى نفس وقت سقوطها بدأت
هبة الفكر والفنية فى إيطاليا ، واشتد ساعد الدول الأوروبية وانتظمت أحوالها
السياسية — وبخاصة فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا — وعظمت ثروات المدن
التجارية الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية .

وقد سيطرت هاتان الجمهوريتان التجاريتان على الملاحة فى البحر الأبيض
المتوسط ، واحتكرتا التجارة فيه مشتركتين مع سلاطين المماليك ، مما دفع بالإسبان
والبرتغاليين إلى البحث عن طرق أخرى للوصول بها إلى بلاد آسيا دون المرور فى
الأراضى المملوكية . وقيل أن ينتهى هذا القرن كانت البرتغال قد وصلت إلى بحار
جنوب آسيا ، وبدأت الصراع مع العرب الذين كانوا يسودون هذه البحار ، لانتزاع
التجارة من أيديهم . وكذلك وصلت سفن كريستوفر كولومبس إلى سواحل العالم
الجديد محققة بذلك أعظم كشف فى تاريخ البشر ، فقد تضاعفت فجأة مساحة
الغرب المسيحى مرات كثيرة ، وانفسحت أمام أهله بلاد واسعة عريضة حافلة
بالخيرات ، وفتحت أمامهم إمكانيات التوسع والتطور والقوة والغنى ، وتحول المحيط
الأطلسى من الحد الغربى للعالم إلى بحر داخلى تكتنفه بلاد غريبة مسيحية من
المجائين ، وأخذت السفن تقطعه غادية رائحة حتى لقد سماه الإسبان — سادة ذلك
المحيط حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى — بالمستنقع (el charco)
استصغاراً لشأنه .

وعقب ذلك الكشف العظيم تزايدت سرعة التطور في العرب المسيحي ، فأخذت بلادهم تخرج — واحدة بعد أخرى — من عالم العصور الوسطى والجهل والعوضى إلى عالم العلم والنور والنظام .

في ذلك الحين كانت تسيطر على عالم الإسلام خمس دول : ثلاث منها شاة عبية كانت تنبئ* بكل غير ، هي دول آل عثمان والصفويين والسعديين ، ودولة في أوج امتدادها وحضارتها هي دولة المغول في الهند ، ودولة في دور الانحدار والاضمار هي دولة الماليك في مصر والشام والجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى دولة الخفصيين في تونس وكانت تلفظ آخر أنفاسها .

وقد أعطينا فكرة عن دولة الماليك ، قلنر مسرعين بالدول الأربع المتبقية :

الدولة العثمانية :

ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الأحداث خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانوا في أول أمرهم يعيشون قبائل طائعة في شرق إيران ثم اتجهوا غرباً واتسب بهم التحوال إلى شمالي بلاد الحرية ، ولم تحسبهم نازلة للمغول التي احتاحت شرق بلاد الإسلام . وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي استجد بهم علاء الدين سلطان الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد أنشأوا لأنفسهم سلطنة في الأناضول مفتطعين بذلك جزءاً من أرض الدولة البيزنطية . وكان غزاة المغول لا يكفون عن الإغارة على أراضي سلطنتهم ، فاستعاثوا بأبناء عمومهم النازلين شرفهم ، فاستحابوا مشرد أن يسمح لهم بالإقامة في شرق آسيا الصغرى فوافقوا على ذلك ، واستطاعوا أن يمدوا سلطنتهم حتى بلدة قونية ، ثم زحفوا غرباً واستقروا في منطقة الأناضول الحالية ، وأقاموا إمارة صغيرة إلى جانب سلطنة أبناء عمومهم سلاجقة الروم الذين كانوا يسيطرون إذ ذلك على معظم آسيا الصغرى .

وفي سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م توفي أرطغرل أمير هذه الجماعة التركية ، وخلفه عثمان وكان أميراً شامهاً فياض الحيوية والنشاط ، قاد قومه إلى الحرب والتوسع في كل ناحية ، حتى قضى لخالل سنوات قلائل على ما كان قد بقي لسلاجقة الروم من قوة ، ومد نفوذه على آسيا الصغرى كلها ونقل عاصمته إلى بروسة قرب ساحل

بحر حريرة . وعثان هو الذي أقام دولة قومه على أساس متين من التنظيم العسكري ،
وشق لهم الطريق إلى المجد ، فأصبحوا من ذلك الحين يعرفون بأل عثان أو الأتراك
العثمانيين .

واستمر الاندفاع في عهد من جاء بعد عثان من الأمراء . الذين اغتزلوا لقب
السلطين وابتكروا نظام الإنكشارية ، وهي فرق محاربة يكونونها من غلمان صغار
مربون تربية عسكرية إسلامية فيشيون جنوداً للدولة متحمسين للإسلام . وكان
الإنكشارية أول الأمر هم صفوة جند الدولة والمندوبين لكل مهمة عسكرية عظيمة ،
وقد أبعدوا من التفاني والإخلاص في الجهاد ما جعل هذه الدولة تقفز إلى صدارة
الأمم في عصرها في وقت قصير . ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي
عبرت قوات الأتراك إلى شبه جزيرة المورة وهي اليونان الحالية ، ووصلت أعمالهم
العسكرية إلى ساحل البحر الأدرياتي . وفيما هم ماضون في أعمالهم ، طرقت أتراك
آخرون — يصاحبهم مغول — أبواب آسيا الصغرى يقودهم تيمور لنك أو
الأعرج .

وكان تيمور الأعرج لئيم ساقها الله على البشر ، إذ كان لا يقل فسوة عن
جنكيزخان وهولاكو . وكانت وجهته أول الأمر القضاء على دولة إيلخانات فارس
وهم مغول من أحفاد جنكيزخان ، وتم له ذلك . ثم دخل العراق وغرب بغداد
سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م ، وفي تكريت مسقط رأس صلاح الدين أنزل بالناس مذبحه
أسرف فيها بالقتل حتى أقام هرماء من جثث القتلى ، وكانت إقامة هذه الأهرامات
البشعة هوايته المفضية إلى نفسه ! وبعد خمس سنوات من التخريب في بلاد الإسلام
اتجه شرقاً وهزم مغول الهند واحتل دعلي حيث قتل ثمانين ألفاً من أهلها . وسار
بعد ذلك إلى روسيا حيث احتل موسكو لمدة ستة ثم عاد إلى بلاد الإسلام فاستولى
على حلب وقتل من أهلها ألفاً ، ثم دمشق حيث أحرق البيوت والمساجد ، وهناك
وقع في يده عبد الرحمن بن خلدون ضمن من وقع من علماء البلد . فحيل ابن
خلدون حتى أفلت من يده في خبر غير طريف قصة في رحلته . وكان تيمور يزعم
أنه اعتنق الإسلام على المذهب الشيعي ، واستأبلاً بلاطه بنفر من غلاة الشيعة الذين
لم يقصروا في تحريضه على السنة وأهلها ، فاشتد على أهل العراق والشام وغرب
البلاد تخريباً فزعماً .

ثم اتجه تيمور ورجاله نحو آسيا الصغرى ، فقد كان الأتراك العثمانيون أهل سنة ، وقد بذل سلطانهم بايزيد جهده في مدافعة جيوشه ، ولكن تيارهم كان جارفا . وفي موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م حصلت هزيمة شهاب الإنكشارية ، ووقع السلطان بايزيد أسيراً ، فجعله تيمور في قفص وسار به يعرضه على الناس ، فمات كمدا .

ومن حسن الحظ أن تيمور لنك توفي بعد سنتين في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وانحلت عروة ملكه . وأما الترك فقد استجمعوا قواهم ونظموا أمرهم من جديد ، لأن هذه كانت أول صدمة يلقونها في تاريخهم ، وكانت دولتهم ، بعد ، هبة فياضة بالحيوية . أما أهل إيران فقد تضععت قواهم إلا في الشمال في نواحي تبريز ، وكان تأييد تيمور لنك للشيعة قد بعث في أهلها حماساً ونشاطاً فطعموا السيادة إيران كلها .

وأما العرب الذين أصابهم بلاء تيمور فقد وهن أمرهم بعد ذلك لتخريب المتوالي على يد جنكيزخان وهولاكو قبل مائة وستين سنة ، ثم جاءت ضربة تيمور قاصمة للظهر فنخرت البلاد ، وهلك من أهلها ألوف بعد ألوف .

واستعاد الأتراك العثمانيون قوتهم خلال سلطنة محمد الثاني المعروف بالفاتح (١٤٥١ م — ١٤٨١ م) ، إذ إنه هو الذي انتزع القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ونقل إليها عاصمة الدولة ، وبذلك زالت من الوجود الدولة البيزنطية بعد أن عمرت أكثر من ألف سنة ، وتحول ملك آل عثمان إلى إمبراطورية ، إذ عرف محمد الفاتح كيف يثبت سلطان دولته على بلاد البلقان حتى ألبانيا ، وأقام مراكز الحدود على نهر الطونة ، وأدخل تيار شبه جزيرة القرم تحت سلطانه .

وأم بايزيد الثاني (١٤٨١ م — ١٥١٢ م) عمل آية في شرق آسيا الصغرى ، وبخاصة على حدودها الشرقية الجنوبية ، وهنا بدأ الاحتكاك بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية صاحبة السيادة على مناطق الحدود بين شمال الشام والجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح أيام سلطنة سليم . في هذه المناطق الجبلية الوعرة التي تفصل بين مواطن العرب والترك والإيرانيين وقع الصراع الحاسم بين الإمبراطوريات الثلاث الكبرى التي تقاسمت شرق العالم الإسلامي في أوائل العصر الحديث ، وكان الممالك — دون أن يدروا — أضعف القوى المتنازعة ، وقد عرضنا لبعض أسباب ضعفهم فيما مضى ، ولهذا كانت دولة الممالك أول من سقط في

الصراع ، فقد قضى الأتراك العثمانيون على قواتهم في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ، وعقب ذلك دخلت كل البلاد التي كانت خاضعة لهم تحت سلطان الدولة العثمانية التي تحولت بذلك إلى إمبراطورية كبرى .

دولة الصفويين :

وفي ذلك العصر أيضاً ظهرت إلى الوجود دولة الصفويين في إيران ، وكان منشعها الشاه إسماعيل سليلاً للشيخ صفى الدين الأردبيل (١٢٥٢ م — ١٣٣٤ م) ، وكان — فيما يقول مؤرخوه — من أحفاد موسى الكاظم سابع الأئمة في نظام الشيعة ، وكان صفى الدين وابنه صدر الدين — من بعده — سنيين ، وكذلك كانت الجماعة الدينية التي أنشأها في الأردبيل سنية .

ولكن حفيده الخوجا على — الذى تولى رئاسة الجماعة من سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م — كان شيعياً معتدلاً ، وجاء بعده ابنه الشيخ إبراهيم شيعياً متعصباً للإثنى عشرية ، فقاد جماعته في صراع مع السنيين في الداغستان ، وخلفه في نفس الطريق ابنه الشيخ حيدر الذى تولى رئاسة الجماعة سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ، ولم يكن أتباعه إيرانيين بل من التركمان ، وقد ابتكر لهم أشیاء زيد من عصبيتهم الشيعية منها قلنسوة حمراء ذات اثني عشرة ذؤابة ، رمزاً إلى الأئمة الاثني عشر ، ولهذا سموا « قزلباشية » أى أصحاب الرؤوس الحمراء . وقد تزوج شيخ حيدر مارتا ابنة أوزون حسن رئيس طائفة الشياه البيضاء التي كانت تحكم نواح غرب إيران ، وكانت أمها مسيحية اسمها دسبينا كاترينا Despina Katrina ابنة كاتولو يوحنا Kato Johannes ملك مملكة طرايزون المسيحية على ساحل البحر الأسود الشرقى . وكان حيدر أميراً متعصباً لشيخته مقاتلاً في سبيلها ، وقد لقي الموت في صراعه مع أهل السنة ، وخلفه ثلاثة من أولاده أصغرهم إسماعيل ، وكانت سبه عاملاً واحداً عندما توفى أبوه .

في ذلك الوقت كان الأتراك العثمانيون يمدون سلطانهم على آسيا الصغرى وشمالي شرق إيران ، فتصدى لهم إسماعيل عندما كثرت سبه وتزعم التركمان الشيعيين في الحرب ، وقد تمكن بفضل شجاعتهم من الاستيلاء على تبرز ، وهناك أعلن نفسه شاهاً لإيران في المحرم ٨٩٨ هـ / يوليو ١٥٠١ م . والشاه إسماعيل هو الذى صيغ

الحركة الصفوية كلها بصيغة شيعية ، وكان الكثيرون جداً من أتباعه سنن أول الأمر ، ولكنه اجتهد في تحويلهم إلى الشيعة الاثني عشرية ، وتصدى معهم لحرب السلطان سليم العثماني الذي كان سنياً شديداً الحماس لمذهبه . وقد وقع اللقاء الدموي الأول بين الفريقين في تشالديران في شمال غرب إيران في رجب ٩٢٠ هـ / أغسطس ١٥١٤ م ، وانتهى بنصر حاسم للأتراك العثمانيين الذين احتلوا تبريز عقب ذلك . ولكن سليماً اضطر إلى إخلائها والعودة إلى تركيا بسبب فتنة وقعت بين صفوف جنده ، وهذه الفتنة هي التي أنقذت الصفويين من الأزمة الخطيرة التي أحاطت بدولتهم وهي بعد في طور النشوء .

هنا بدأت أوروبا تفكر في الاستعانة بالصفويين الشيعيين على الأتراك العثمانيين السنيين الذين كانوا إذ ذاك يتقدمون بخطى ثابتة في قلب أوروبا ، وأرسلت إليزابيث ملكة إنجلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب خليفة إسماعيل في بلدة قزوین عاصمته ، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه نصراني يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين . ولكن دولة الصفويين ضعفت ضعفاً شديداً في أيام طهماسب ، لأن رؤساء الجند من التركان تقاسموا السلطان في إماراتهم وتركوا الشاه وعرشه لمصيرهما في أثناء الصراع الحاسم مع الأتراك .

وعادت دولة الصفويين فانتعشت من جديد في عصر الشاه عباس (٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩) وكان ملكاً عظيماً دون شك ، فهو الذي جدد قوة الدولة العسكرية وسمح لمدرسين من الإنجليز بإنشاء فرق محاربة على النظام الحديث تتكون من الطوفانجية أي الفرسان الذين يستعملون السلاح الحديث ، والطليحية أي المدفعية ، والثقلار أي الفرق الخاصة التي تضاهي الإنكشارية قوة ونظاماً . وبفضل هذه القوات الجديدة استطاع الشاه عباس الثبات أمام الأتراك العثمانيين وتثبيت دعائم دولته وتحويلها إلى قوة يحسب لها حساب ، وقد استعان في ذلك بالسير أنطوني شيرلي Sir Anthony Sherely وأخيه السير روبرت وبعثة بريطانية من الاختصاصيين في شؤون الحروب . وبطبيعة الحال لم يكن للإنجليز من غرض من وراء ذلك إلا تمكين الفرس من الثبات في وجه الأتراك العثمانيين ، حتى تشتد الحرب بين المسلمين ويخلص الأوروبيون من الخطر الذي كان يهددهم ..

المهم أن الشاه عباس أقام دولة قوية عاصمتها أصفهان ، واجتهد دعاء الغرب في تأجيج نار العداوة والكراهية بين المسلمين ، وكانت أذن الشاه عباس مصفية إليهم ، ويقال إليهم هم الذين ألوحوا إليه فكرة تحويل قبر علي الرضا في مشهد وقبر أخته فاطمة في قم إلى موضعين لحج الشيعة ، بدلا من الكعبة المكرمة الواقعة في بلاد سنية . ومن الثابت — على أي حال — أن هذه الفكرة دارت في ذهن الشاه عباس ، وفي الوقت نفسه سمح للمبشرين المسيحيين بالعمل في بلاده ، وفتح ذراعيه للأوروبيين كأنهم طوق النجاة لإيران من جيوشها المسلمين ..

وفي سنة ١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م وبمعاونة الإنجليز استطاع الشاه عباس أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، التي كانوا قد احتلوها واستعملوها مركزاً للسيطرة على بحار آسيا . وعنا أيضاً كانت للعاونة الإنجليزية تهدف إلى القضاء على قوة البرتغاليين في تلك البحار حتى تنفرد بريطانيا وشركة الهند الشرقية بتجارة آسيا . وهذا هو الذي حدث . وعندما توفي الشاه عباس في جمادى الثانية ١٠٣٨ هـ / يناير ١٦٢٩ م بعد حكم ٤٢ سنة كانت إيران قد أصبحت قوة ضخمة في الشرق الأوسط .

وقد وصل الشاه عباس إلى تحقيق أهدافه بذكائه ووطنيته وشجاعته وغير ذلك من ملكات ، ولكنه لجأ أيضاً إلى أساليب دموية بالغة العنف مع منافسيه وكل من عصى منهم خطراً من أبنائه . وعندما اختفت شخصيته العلابية لم يوث خلفاؤه منه إلا القسوة والعنف ، وذلك التقليد البغيض الذي جرى عليه الكثيرون من خلفاء آل عثمان أيضاً ، وهو وضع كل الرجال — أو كل الذكور — من الأسرة الحاكمة الذين يمكن أن يطمعوا في العرش في سجون حياة لا يخرجون منها أبداً ، فكانوا يحبسون مع نسائهم وجوارحهم في بيوتهم من يوم يتولى العرش سلطان جديد إلى أن يموت . والنتيجة أنه عندما كان الشاه يموت لا يبقى حول العرش غير الحدم والحشم ، وهؤلاء هم الذين كانوا يختارون الشاه الجديد على هواهم وبما يناسب مصالحهم .

وأسرع التدهور إلى البيت الصفوي فاسترد مراد الرابع — آخر الفاتحين من آل عثمان — العراق وبغداد واحتل تبريز وأوقع مذبحة بأهل همدان . ووصل تدهور أحوال إيران إلى أقصاه سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٤ م ، عندما اتفق الأتراك العثمانيون

أن تركوا هذا الجزء للإيرانيين ، إذ إن آبار الشول وثرواته الطائلة اكتشفت فيه فيما بعد ، وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من ذلك الجزء يتكون من المناطق العربية من إيران . وهكذا نرى كيف أن دولتين عظيمتين من دول الإسلام في العصر الحديث أنفقتا من الجهد في الحرب فيما بينهما أضخاف ما أنفقنا في حرب العدو غير المسلم ، وقد نسي رجالهما أن المنافسة بين المسلمين — مهما بلغت — فإنها لن تخرج بلاداً إسلامية إلى أيدي غير إسلامية . ولقد تحارب المسلمون بعضهم مع بعض على طول العصور الوسطى ، ثم انتهت حروبهم وبقيت البلاد كلها بلاد إسلام لم يُنتقص منها إلا قدر قليل ، فلما أخذ المسلمون يصادقون غير المسلمين على حساب أبناء دينهم ويأمنون لهم ، بدأت بلادهم تضع وتعد الخطر إلى قلب الكيان الإسلامي نفسه ، ولم ينج من ذلك الشر بلد من بلاد المسلمين .

العرب والأتراك :

تكلمنا فيما سبق عن سوء أحوال دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشام وجزيرة العرب وجزءاً من شمال العراق ، أي معظم الجناح الشرق للعالم الإسلامي . وذكرنا كيف كانت أحوالها قد اضطربت اضطراباً شديداً بعد أيام السلطان قايتباي الذي يعد آخر الكبار من سلاطين المماليك . والحقيقة أنه كان من أسوأ من حكم العرب ، وإن من بقرأ حوليات النصف الأخير من القرن التاسع الهجري / النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي عند مؤرخ ذلك العصر ابن إياس الحنفى ليدعش من القوة الساحقة من الاضطراب والفوضى التي تردت فيها البلاد في عصر المماليك ، والحق أن الدولة كانت قد انتهت منذ أيام السلطان بارسباي ، وما تلا ذلك إنما كان احتضاراً طويلاً .

ولقد كانت دولة المماليك دولة واسعة ، وكان من الممكن أن يكون لها دور كبير في الصراع العنيف الذي كان دافراً إذ ذاك على مصير تجارة الشرق بين البرتغال والجمهوريات الإيطالية ، وعلى مصير الشرق الأوسط بين الصغويين ومن حارب معهم من الترك في ناحية والأتراك العثمانيين في ناحية أخرى ، ولكن دولة المماليك الضخمة لم تكن تعرف مما يجري وراء حدودها شيئاً ، وكان جهل سلاطين المماليك

ورجالهم في تلك الحقبة فادحاً ، والكثيرون منهم كانوا لا يحسنون العربية : لا كلاماً ولا كتابة ولا قراءة ، وما كانوا — طبعاً — يعرفون أى لغة أخرى غير تلك الرطانة التركية المغولية العربية التى كانوا يتكلمونها في قلعة الخيل بعيداً عن عالم الناس . ومن ثم لم يكن لديهم فكرة واضحة عن الأتراك العثمانيين أو الصفويين أو عن الأوروبيين ، وفي جهلهم بأنجاهات السياسة في عصرهم اتجهوا نحو الشاه إسماعيل ملتجئين معه الحلف على ابن عثمان — كما كانوا يسمون سلطان الأتراك — وكان رسلهم أو سفراءهم محالين من المرتزقة يخربون سادتهم فيبيعون أسرارهم للتركي مرة وللإيراني مرة ، ومن ثم فقد كانت مهاجمة الأتراك العثمانيين لدولتهم مفاجأة لهم ، لأنهم — على الحقيقة — لم يكونوا يعرفون شيئاً .

وكان ذلك هو الطبيعي ، فإن أولئك الممالك الذين عاشوا مع العرب في بلادهم قروناً متطاولة ، لم يختلطوا خلالها بأحد ولا تعلموا العربية ولا قبسوا ثقافتها ولا أفادوا من الفرصة التى أتيتهم ، وهى وجودهم على رأس أهم بلاد الشرق العرب وأكثرها موارد وثروات وإمكانات . فعاشوا غرباء عن البلاد وأهلها ، لا ضربت جنودهم في الأرض ولا ربطتهم بأهلها واشجة غير واشجة الدين ، وكان إيمان الممالك إيماناً جاهلاً متعصباً قليل المهتم للإسلام ومزايه ، ومن ثم فقد كان الكثير من تصرفاتهم بعيداً عن روح الدين . ولم ينم لديهم ذلك الحس الذى ينمو عند من يفهم الإسلام ويتعمقه ، ومن هنا فقد نفرت جماهير العرب من الممالك نفوراً شديداً ، وأنكروا حكمهم ، وإن لم يستطيعوا القضاء عليهم ، لأن الدول الباغية التى توالى على هذه البلاد — منذ أيام الطولونيين — حرصت منذ زمن بعيد على تجريد الناس من السلاح وإبعادهم عن الحرب حتى تنفرد الدولة ورجالها بالقوة والسلاح ومعرفة فنون القتال .

فخلال تلك القرون كلها لم يكن أمام أى مصرى أو شامى أو عرقي من الجزيرة أية وسيلة ليتدرب على فن من فنون القتال ، وكان القتال في العصر المملوكي — أى فيما تلا الحروب الصليبية — قد أصبح كله قتال فرسان ، فلا يستطيع المحارب بسيفه على قدميه أن يفعل شيئاً أمام فيالق الفرسان ، مهما بلغ ضعف هذه الفياق . وأمام عجز الناس عجزاً تاماً عن الحصول على أية فرصة للتدريب العسكري ، أو حتى ركوب الخيل ، خرجت الحرب من اهتمامات أمم العرب التى حظعت للممالك ولم يعد أحد من أبنائها يفكر فيها أو يوجه أولاده نحو الخدمة العسكرية . وكان

من المستحيل أن يقبل الممالك في صفوفهم رجلا من العرب إلا أن يكون بدويًا
يخفر لهم ناحية من الواحي أو ساكن جبال يستعصى عليهم إخضاعه فيقتون شره
بتركه في جباله فيظل محصوراً فيها .

ولننصف إلى ذلك أن هذه الدول حرصت على إفقار الناس وأخذ كل ما في أيديهم
من الأموال جرياً على تقليد سياسى قديم جرت عليه الدول الآسيوية العتيقة وورثته
الدول الإسلامية السائرة على الطريق الآسيوى ، وهى أن الرعية الفقيرة رعية
مأمونة ، إذ إن الفقير المدقع مهما بلغ فقره وتعاسته لا يفكر في الثورة على الظلم
ولا يستطيعها ، إنما يفكر فيها مياسر الناس الذين يتمتعون برخاء ماذى ينتج عنه
رخاء معنوى وتطلع إلى الحرية ونفور من الظلم وقطرة على الوقوف في وجهه .

ولهذا كان من الطبيعي أن تزول دولة الممالك أمام أول صدمة عيفة تواجهها ،
وهى عندما زالت خلفت وراءها علماً عربياً فقيراً يائساً لا يملك من إمكانيات التكوين
والتنظيم الاجتماعي إلا القليل . وما حفظ على المجتمع العرف وحدته وكيانه أهام
الممالك إلا الإسلام ومبادئه الكريمة التى حفظت على الأسرة والمجتمعات الإسلامية
وحدها وسلامتها وأخلاقياتها . وكانت الأسرة الإسلامية هى التى أنقذت المجتمع
العرفى من الضياع خلال عصر الممالك ، ومعظم ما ينسب من المساءات ودواعي
التأخر والمظالم إلى العصر التركي يرجع في الحقيقة إلى العصر المملوكى ، فقد كانت
كلها موجودة قبل أن يستولى الأتراك على بلاد العرب . حقاً إن الأتراك لم يستطيعوا
علاجها ولم يتركوا العرب أحراراً ليعالجوا أدواءهم ، ولكن هذه مسئولية أخرى .

والحق أن العرب أصبحوا بخيبة أمل كبرى عندما انتقلت بلادهم من الممالك إلى
الأتراك . لأنهم توقعوا أول الأمر أن تكون الدولة الجديدة مخرجاً من التعاسة التى
سادت في أثناء عصور الممالك . ولقد أدخل الأتراك إصلاحات كثيرة على النظم
السياسية والمالية التى كانت قائمة في البلاد العربية ، ولكن ذلك لم يكن كافياً .
فإن العرب لم يكونوا في حاجة إلى إصلاح النظم الإدارية والمالية التى كانت
تحكمهم ، فهذه النظم لا تعود بالخير إلا على الحكام ، أما بالنسبة للمحكومين فهى
نزيد من عبء الظلم وتعمله ظلماً منظماً أو استغلالاً مالياً منهجياً يجرى على أساس
الضبط والدقة في استخراج الأموال من الناس .

لم يكن العرب في حاجة إلى ذلك ، بل كانوا في حاجة إلى أن يرفع عنهم العبء ويعهد إليهم في حكم بلادهم ، ولهذا فهم لم يستفيدوا شيئاً عندما تركت الدولة العثمانية أمور الحكم في أيدي المماليك ، فكأن العبء قد تضاعف أيام الأتراك ، لأن المملوك كان ينجي من الناس ضرائب مضاعفة بعضها له وبعضها للسلطان . والحقيقة التي لا شك فيها هي أن الأتراك الذين شادوا دولة آل عثمان امتازوا بالقدره على ماحروا على تسميته بالضبط والربط ، أي ضبط الأمن وربط الأموال ، والضبط عندهم قد يتحقق بالعدل والفهم ، وقد يتحقق كذلك بالبطش والقتل والإرهاب ، وهذا أسهل ، ولهذا فقد سلكوا سبيله واستراحوا إليه ، وعهدوا إلى الأمراء الإقطاعيين في كل ناحية إخماد نفس كل معارض واستخراج أكبر قدر من المال من الناس بأي طريق . وبذلك ساءت أحوال الناس وساءت ظنونهم في آل عثمان ، وهبطت الدولة كلها — من حاكمين ومحكومين — إلى درك سحيق .

والحق أنه على الرغم من أن العرب والعثمانيين عاشوا جميعاً في إمبراطورية واحدة من النصف الأول للقرن السادس عشر للميلادى إلى النصف الأول من القرن العشرين ، فإن أحداً منهما لم يعرف الآخر معرفة صحيحة ، والسبب في ذلك أن العرب لا يأتلف مع غيره إلا على أساس العروبة ، ومن خصائصه أنه لا يقبل على الامتزاج بحس آخر ، إذا كان ذلك سيؤدى إلى ضياع لحنه وشخصيته العربيتين . ومهما بلغ من صعب أتم العرب في بعض العصور فإنها لا تفرط أبداً في عروبتها أو لغتها ، وهي عندما تشعر بأن عروبتها ولغتها مهددتان تنكمش على نفسها دفاعاً عن كيانها وترفض الامتزاج أو التعلون .

حدث هذا عندما خضع العرب للأتراك ، وعندما دخل العرب تحت دول الاستعمار . وفيما يتصل بالأتراك نقول إن كلا من الشعب العربى والتركى أراد أن يحتفظ بكيانه ويذيق الآخر في نفس الكيان فلم يتم لأحد منهما توفيق فيما قصد إليه ، ولهذا شقى العرب بالأتراك بقدر ما شقى الأتراك بالعرب . ولكن الذى لا يعرف هو أن حمائر الأمة التركية قاست من حكامها ومظالمهم أكثر مما قاست منهم حمائر العرب ، وعليهما معاً يتلبنى قول شوق : « ولكن كلنا في الهم شرق » .

ولقد أحجم العرب عن دراسة لغة الترك وأحجم الترك عن دراسة لغة العرب . فأما العرب فقد تعودوا أن يروا المسلمين من غير العرب يقلون على دراسة اللغة

العربية ، لغة القرآن والدين ، ولذلك قل أن أقبلوا على دراسة لغة من لغات إخوانهم في المجموعة الإسلامية ، وكأنهم قدروا أن الإسلام بدون عربية أو بدون عروبة لا يكتمل . وأما الترك فقد دخلوا أرض العرب غاليين ، وتوقعوا — لهذا — أن يسارع الآخرون لدراسة اللغة التركية ، وكان فيهم — لأول فتحهم للبلاد العربية — غرور عظيم ساعد عليه أن العرب كانوا في حالة ضعف وتعكك خطيرين ، فلم يجتنبوا غيرهم إلى دراسة لغتهم . ولقد درس الأتراك العثمانيون الإسلام بلغتهم التركية ، وحفظوا من القرآن ما يقيمون به صلواتهم ، وقام بعض علمائهم بترجمة آيات من القرآن إلى التركية ، وفي أول الأمر تمسك كثيرون من أهل العلم فيهم للغة العربية فدرسوها وتوقفوا فيها ، وظهر فيهم علماء يؤلفون باللغة العربية تأليفاً ممتازاً ، من أمثال أبي الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى طائر كبرى زادة المتوفى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م ، وعلى دده بن مصطفى علاء الدين البوسنوي المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ ، ومصطفى بن عيد الله كاتب جلبي المعروف بخاجي خليفة (ت ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م) وغير هؤلاء كثيرون ، ولكن هذه الحركة لم تستمر ، وانصرف الأتراك عن دراسة اللغة العربية والتحرر فيها .

وهناك سبب آخر لجهل الأتراك حقيقة العرب وجهل العرب حقيقة الأتراك ، وهو أنه كانت هناك دائماً جماعات وسيطة بينهما حالت دون أن يتعرف أحدهما إلى الآخر بصورة مباشرة . ففي مصر والشام مثلاً حالت بين الأتراك والعرب بقايا المماليك ومن ترقى معهم وخلصهم من العاملين في جمع الأموال ، وهؤلاء كانوا أعداء لأهل مصر والشام وأعداء للأتراك في نفس الوقت ، وكانوا هم الذين يتوسطون بين الحاتين ويعطون لكل منهما صورة غير صادقة عن الآخر . وفي العراق تولى الحكم باشوات الأتراك ثم ممالك العثمانيين ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك عثمانيين حاليين ، وقد أساءوا إلى الترك بقدر ما أساءوا إلى أهل العراق وفي الحرمين والعجم نزلت الحكم باسم الأتراك أسر محلية من العقاة والطفاة وطلاب الكسب بأي طريق .

ثم إن أسوأ فرق الإنكشارية كانت ترسل إلى الولايات العربية لأنها ليست مناطق حرب عنيفة ، إذ إن الأتراك كانوا يرسلون أحسن طبقات جندهم إلى ولاياتهم الأوروبية وبخاصة على حجة نهر الطولوة وبلاد القرم وجنوبي روسيا والمقوقاز وجبهة الحرب مع إيران ، ومن هنا فإن العرب لم يروا إلا أسوأ الأتراك ، ونتيجة لهذا لم

يعرفوهم على حقيقتهم قط ولا عرف الأتراك العرب على سجيتهن ، فلا عجب أن
جهل كل منهما الآخر ولم يصل أحد منهما إلى فهم الآخر .

ولنصف إلى ذلك أن الدولة العثمانية كانت — منذ فتحها القسطنطينية وتوغلها
في أوروبا — في حالة حرب دائمة ، وبخاصة على الجبهات الرئيسية الثلاث : الجبهة
الغربية في وسط أوروبا والبلقان ، والجبهة الشمالية في روسيا وبلاد الغرم ، والجبهة
الشرقية في مواجهة الإيرانيين . وهذه الحروب المستمرة فرضت على الأتراك تضحيات
مستمرة وكلفتهم ثمناً غالياً من الدماء والأرواح ، وخلال القرنين السادس عشر
والسابع عشر الميلاديين كان عليهم أن يخوضوا حرباً بحرية ضروساً في البحر الأبيض
المتوسط أمام الأسبان والجمهريات الإيطالية ، وقد استطاعوا بهذه الحروب إنقاذ
المغرب العربي من الوقوع في أيدي الإسبان ، ولكن الثمن كان باهظاً ، فقد تحطمت
أساطيل الأتراك مرة بعد مرة ، ومات الألوف من بحيرة رجالهم في مياه البحر ،
وكانت آخر المعارك الكبرى التي خاضوها هناك هي معركة ليبانتو في أكتوبر
١٥٧١ م .

وكل هذه الحروب جعلت الأتراك تحت ضغط متزايد وفي حاجة ملحة للمال
دائماً ، ولهذا اتجهوا إلى عسف رعاياهم سواء في الأناضول أو في الولايات العربية
أو الأوروبية ، مما بغضهم إلى الناس وجعل حكمهم مرادفاً للظلم والاستبداد . وغير
خاف أن المشاكل التي فرضتها الإمبراطورية على الأتراك كانت أكبر من أن يحلوها
وحدهم ، فقد كانوا قوماً عسكريين في المكان الأول . ولم يكن خم باع طويل
في مطاولة المشاكل والبحث عن حلول لها ، وإذا كان العرب يشكون من أن حكام
الأتراك لم يوقفوا إلى حل أية مشكلة من المشاكل العريضة التي كانوا يعانونها ، فإن
الأتراك كانت شكواهم من حكامهم أشد ، وتبعاً لذلك كان العبء الذي حملوه
أثقل بكثير .

ويطيل الأتراك الحديث عن النظم الإدارية التي وضعها سليم الأول وسليمان
القانوني (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) ، وربما كان حقاً أن تنظيمات سليمان أثقلت
الإطار العام للإدارة والمجتمع في الولايات العربية أثناء حكمه من التفكك الكامل ،
ولكن معظم هذه النظم جمد جموداً تاماً ، وأصبحت قواعده في الواقع قيوداً شديدة
الوطأة على الناس ، وقد قام بتطبيقها موظفون أتراك أو محليون لا يتمتعون بمقدرة

أو ذكاه كبير أو أمانة ، أو إحساس بالمسئولية العامة أو القومية ، ومن هنا كان عبء هذه الأنظمة التركية ثقيلاً على الناس .

وإذا ذكرنا أن الدولة العثمانية — بمجموعها — كانت دولة إقطاعية تعهد في الإدارة إلى ناس محليين في كل مكان وتتقاضى منهم مبالغ ضخمة سنوياً وترك لهم نسباً عالية من الأموال لينفقوا منها على جنتهم ، وفي الوقت نفسه كانوا أحراراً في أن يجمعوا من الناس ما يريدون من الضرائب ، إذا ذكرنا ذلك تبين مقدار ما عاناه الناس من المتاعب على أيدي أولئك الحكام الإقطاعيين الذين كانوا في الحقيقة ملتزمين بالضرائب فحسب ، أما الباشا الذي كانت تعينه الدولة إلى جانب الحاكم الإقطاعي فلم يمكن يحكم إلا بالاسم ، وكان الدفردار — وهو الموظف التركي الموكل بتحصيل مال الإقليم — يشترك في الغالب مع الحكام الإقطاعيين في ابتزاز أموال الناس .

ومن الملاحظ — بصورة عامة — أن الحكام المحليين في البلاد العربية لم يتقدموا قط لحماية مصالح رعاياهم إذا وقع عليهم ظلم من رجال الدولة العثمانية ، في حين أن أمثالهم من حكام الولايات المسيحية — مثل الروماني وملكيا وولاشيا وترانسلفانيا — وكانوا مسيحيين ، لم يكونوا يتأخرون عن الدفاع عن بني جلدتهم والثورة على الدولة بملهمهم . وكان فساد أولئك الحكام الإقطاعيين المحليين وتعاونهم مع رجال الدولة في العدوان على رعاياهم هو الذي أسرع بالنظم العثمانية إلى الفساد ، وهبط بالمستوى العام للإمبراطورية العثمانية وأعلىها هبوطاً شديداً .

اضمحلال الدولة العثمانية :

وقد بدأ انحدار الدولة العثمانية من سنة ١١٦٧ م ، وهي السنة التي اعتلى العرش فيها مصطفى الأول ، وقد سار الاضمحلال بعد ذلك قدماً برغم الجهود الضخمة التي بذلها آل كبرلي من الصلحور العظام — أي رؤساء الوزرات — لإنقاذ الدولة ، وبخاصة أولهم محمد كوبرلي (١٥٧٥ — ١٦٦١ م) وثانيهم أحمد فاضل كبرلي (١٦٦١ — ١٦٧٦ م) وكان من عظماء الرجال ، فقد استطاع أن يوقف سير الاضمحلال ، ولكن مأساة الدولة العثمانية الرئيسية كانت تتبع من سببين رئيسيين : الأول أن سلاطينها لم يتجهوا قط إلى تطور الدنيا من حوهم وجمدوا عند مفهوم الدنيا

كما تصوره سليم الأول ، ومفهوم الإدارة كما رسمه سليمان القانوني . والثاني أنهم لم يتنازلوا قط عن الشعور بانهم حنسن ممتاز لا بد أن يحكم ويطاع ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا ، ونتيجة لذلك عزلوا أنفسهم عن الناس في كل ناحية عزلاً تاماً جعلهم غرباء في كل نواحي إمبراطوريتهم ، فلم يؤثروا في الناس ولم يتأثروا بهم ، وقد ظهرت دولة آل عثمان على مسرح الأحداث في مطالع العصر الحديث ، عندما بدأت الدنيا تنفيق من سيأت العصور الوسطى وتسير سيرةً حديثاً نحو التقدم ، في حين وقف الأتراك مكانهم ، فلم نلث تركيا أن أصبحت في مؤخرة بلاد أوروبا من حيث التقدم العلمي والتنظيم السياسي .

ومع مرور السنوات ، نلاحظ أن الدولة العثمانية تحارب حرباً خاسرة في ولاياتها الأوروبية ، وقد أنهكت هذه الحرب قواها وامتنعت حيويتها وجعلتها آخر الأمر دولة فقيرة برغم عظمة مظهرها . ثم إن الدولة العثمانية لم تكن قط دولة ألعها من الأتراك أو العرب ، بل كانت دائماً دولة الخلفاء والسلاطين والقادة والإنكشارية والحكام الإقطاعيين . وكان الكثيرون منهم غير أتراك ، ولهذا فلم يتمتع بحريات الإمبراطورية من الأتراك الأصلاء إلا القليلون ، ولقد دفع الفلاح والصانع والتاجر — من الأتراك — خيرة أموالهم وأرسلوا إلى الميدان زهرة أبنائهم ولم ينجوا من خيرات الدولة بعد ذلك إلا القليل .

ولم يفكر رجال الدولة — بعد آل كوبرلي — في بحث أحوال الرعايا وما آلت إليه إمبراطوريتهم ، فعلا بل ساروا في طريق الخطأ فتضاعفت المتاعب . ولم تكن أمام السلاطين أى وسيلة لمعرفة الأحوال الحقيقية في إمبراطوريتهم ، لأن رجال دولتهم لم يصلحواهم الخبير عن شيء ، وكان الكثير من السلاطين غير صالحين للولاية أصلاً .

وشياً قشياً تنحدر دولة آل عثمان خلال القرن الثامن عشر انحدرأً محزناً ، حتى تصل إلى درك سحيق في سلطنة عبد الحميد الأول (١٧٧٤ — ١٧٨٩ م) ، وكان مسكيناً ضعيف العقل قضى ٤٣ سنة سجيناً في قصره ضحيةً لتقليد خطر جرى إليه سلاطين آل عثمان وشاهات إيران يقضى بحبس كل ذكور الأسرة الذين يمكن أن يتولوا العرش في بيوتهم منذ اليوم الذى يتولى فيه سلطان جديد .. وعلى أية حال ، كان هذا الإجراء أهون مما كان متبعاً قبلاً ، من افتتاح السلطان حكمه يقتل كل إخوته وأبنائهم الكبار ومن يمكن أن يتولى العرش !

أقبل عبد الحميد الأول على الحكم وكأنه مقبل من العالم الآخر : لا يكاد يعرف عن هذه الدنيا شيئاً ، وفي ٢١ يوليو ١٧٧٤م — وهي السنة الأولى لحكمه — وقعت تركيا معاهدة « كُتَشُكْ كِيتَارْجِي » ، وهي وثيقة استسلام مهين أمام روسيا تخطى فيها سلاطين آل عثمان عن سلطانهم على شعب التتر المسلمين ، الذين كانوا يسكنون مساحات شاسعة من بولندا إلى بحر قزوين ، ودخل هذا الشعب القوي تحت سلطان فباصرة روسيا . وتنازلت تركيا لروسيا عن ولايات ضخمة في شمال البلقان ، واعترفت باستقلال ولايات أخرى ، وأخذ الروس حق الملاحة في مضائق البحر الأسود ، وضاعت شبه جزيرة القرم ، وسلم الأتراك للروس بحق حماية المسيحيين الأرثوذكس في بلاد الدولة نفسها . باختصار : بدأت تصفية إمبراطورية آل عثمان ، وانحدرت الدولة العلية إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبدأت روسيا وغيرها من بلاد أوروبا تتحدث في تصفية الدولة نهائياً . هنا بدأت « المشكلة الشرقية » ، وأصبحت الدولة العثمانية في نظر الغربيين دولة مريضة ميتوساً من شفاثها .

ما الذي حدث داخل الدولة ؟ هو بالذات ما حدث داخل الدول الإسلامية السابقة : عدّ السلاطين الدولة ملكاً لهم لا ملك الشعب ، وصرخوا أموراً لمصلحة بيتهم لا لمصلحة الرعية . ولقد صدقوا في الدفاع عن الإسلام ونصروه نصراً عزيزاً ، ولكن دوافعهم إلى ذلك لم تكن ترجع إلى إيمان بأنهم يدافعون عن كيان أمة إسلامية عامة كما كان الأمر مع العرب الأول ، وإنما كانوا يحاربون بحماس شخصي مشكور لذاته ولكنه ليس طويل الأمد ، ولهذا فلم تلبث حماسهم أن تراخت عندما توالى عليهم الانهزامات . وقد اعتمد السلاطين على قوة عسكرية وظيفتها الرئيسية حماية عروشهم ومد سلطانهم وامتنان الرعية بل احتقارها . هنا وقع الانفصال بين الشعوب المسلمة التي كتلت تتكون الدولة منها — ما بين عرب وأتراك وأكراد ومن إليهم — وبين السلاطين وجندهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن الشعوب هي شجرة السلطان ومصدر حياته ، وأن انفصال الحياة الحاكمة عنها انفصال عن الحياة ، ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من أن تموت شجرة الدولة شيئا فشيئا : يتدهور نوع الحكام من الزمن حتى نصل إلى الجهلاء والمعتوهين ، وتسيطر القوة العسكرية على أصحابها وتضع على العرش القاصرين والعاجزين ومن يجري مجرلهم ، وتفسد الروح العسكرية ويصبح الجنود طلاب أرزاق ويفقدون كرامة الجندي وشهامة المجاهد ، فلا تحجلهم المزايم

ولا يستحون من الحروب والتسليم في أراضي الوطن . وعلى هذا تستمر الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى .

والآن نلنفت إلى الدولة الرابعة من الدول التي قامت في عالم الإسلام في مستهل العصور الحديثة ، وهي دولة الممور في الهند .

إمبراطورية ممور الهند بعد السلطان أكبر (١٥٥٦ م — ١٦٠٥ م) :

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ما وصلت إليه إمبراطورية ممور الهند من العظمة والانتساع في عهد أكبر وابنه جاهدجير (١٦٠٥ — ١٦٢٧ م) ، فقد شمل سلطانه شمال الهند كله وكشمير وبلوچستان وقندهار وجزءاً كبيراً من هضبة الدكن . وقد تألفت دولة جاهدجير برواء سلطع وازدانت عواصمها بروائع المساحد والقصور ، ولكن السلطة اعتمدت على الجند المأجورين ، وقد زادت أعدادهم في أيام أكبر وبنيه زيادة هبطت خزانة الدولة ، ثم إن جاهدجير ترك لإدارة الدولة في أيدي جماعة من الوزراء والندماء يأتمرون بأمر زوجته نورجيهان فهوا خزائن الدولة نهبا . وقد شهدت أيامه الحداراً سريعاً لدولة الممور وسلطاهم ، واستطاع الفرس أن يستولوا على قندهار ، وكات ولاية جليلية في شمال اهند ومداخل جبال الأفغان .

وجاء بعده شاه جيهان ، ولم يكن بالحاكم القادر ولكنه كان بناءً تفخر بمبانيه صفحات الفن الإسلامي ، ويقف هذا الرجل في صف واحد مع عظماء المنشقين في تاريخ دول المسلمين ، من أمثال عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعبد الرحمن الناصر الأندلسي وابنه الحكم المستنصر وأبي يوسف يعقوب المنصوري الموحدي ويوسف الأول الغني بالله سلطان غرناطة وسليمان القانوني العثماني ، فقد ابتنى هذا الرجل مدينة ملوكية سميت باسم شاه جيهاناباد ، وزين دعى وأجرأ بمنشآت هي آيات في الجمال ، من مثل مسجد مطيع وروضة التاج محل وكلاهما في مدينة أجزا . وإلى جانب العمارة انتعش التصوير وكتابة الخطوط الجميلة ، وعلى الجملة وصل البلاط المموري في الهند إلى أوج فخامته في عصره الذي امتد من ١٦٢٧ — ١٦٥٨ م . ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن عوامل الاضمحلال كانت نشيطة أيضاً ، وخلف رؤاء القصور وجمال انباني كانت أركان الدولة تهتدم وأموالها تنفد وأطرافها تنفصل

واحداً بعد آخر ، وقد تكلفت ميزانيتها مبالغ طائلة في حملات غير موفقة على قندهار ، وعندما تولى سنة ١٦٥٧ م كانت دولة مغول الهند قد آذنت بالمغيب .

وقد حاول خلفه أورانجزيب (١٦٥٨ - ١٧٠٧ م) أن يتفادى الانهيار . وأوقفه فعلاً بعد أن قام بجهود مضنية ، ولكنه كان رجلاً عيفاً قاسياً كلف رعاياه شططاً ، وكان يأمل أن يستطيع تحويل كل رعاياه إلى الإسلام ، وطارد السيج والراجبوتيين والجاتيين والمراثيين والوشيين في الدكن ، وعب هؤلاء الآخرون في وجهه بقيادة زعيم يسمى سيواحي وبنأييد من الإنجليز الذين عملوا بإرسال الأسلحة النارية والمدربين إلى الثائرين . وقد أراد أورانجزيب أن يخضع الهند كلها لسلطانه ، وبذل جهداً ضخماً في هذا السبيل حتى أوصل الدولة إلى أقصى ما وصلت إليه من امتداد الرقعة ، فشملت الأراضي الواسعة الممتدة من جبال الهندكوش إلى ساحل كروماندل ، ولكن عبء الضرائب كان ثقيلاً على الفلاحين وأهل المدن . وكان نقطة الضعف الكبرى في نظام دولته هي فساد الطبقة العليا من المغول ، فقد تأثروا تأثراً عميقاً بالبيئة الهندية ومالوا إلى الراحة والملذات وأصبحوا عناءاً على الدولة وعنصر فساد فيها .

ولكن العلة التي قررت مصير الإمبراطورية هي التنافس على العرش ، ومن أسف أن دول المسلمين لم تصل قط إلى قاعدة سليمة لتلاقي الأخطار من هذه الناحية ، وذلك راجع إلى أن أصحاب الدول جميعاً نهملوا رعاياهم وأخرجوهم من ميدان المسؤولية السياسية واطمأنوا إلى المرتزقة والمأجورين الأجانب ، وأمنوا إلى الخدم والحواشي ، وأنفوا من أن يستشيروا في أمور دولهم كبار الناس من أبناء الشعب ، ممن كانوا حذرين بتوجيه هذه الدول الوحشة السليمة كما كان الحال في الدول الأوروبية التي أشرنا إليها .

وهذا يصدق على دول العباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم ، وهو من الأسباب الرئيسية في ضياع أمرها جميعاً وقلة ما أدته لأمة العرب من خدمات حقيقية . ولكي نوضح هذه النقطة نقول : إن دول الغرب قامت على أكتاف أسر محلية أو أسر تولدت في البلاد ، وأصبحت ترى نفسها من أهلها وتعتمد على رعاياها في تثبيت أقدامها . ذلك يطبق على بيت هوكاييه في فرنسا ، والنورمان ومن أتى بعدهم في إنجلترا ، وعلى أسرة الهوهنشتاوفن في ألمانيا والهابسبورج في إسبانيا وبعض

بلاد أوروبا ، فهذه الأسر كلها تأصلت في البلاد ومدت جذورها في تربتها واعتمدت على أهلها في ماء حيوشتها ، ومن أهلها احتار ملوكها معاونهم ورجال دؤغم متعاونين في ذلك مع من وجدوا في البلاد من الأسر الأصلية دلت الجاه والمكانة في البلاد .

فبينما قامت دولة العباسيين والفاطميين ومن إليهم بالقضاء على كل من وجدتهم في البلاد عند قيامها من أهل الخلل والعقد والرأى واستصفاء أموالهم وتشريد أهلهم ، نجد كل أسرة من الأسر العربية التي ذكرناها تعترف لأهل الأسر المحلية بخقوقهم بل ترفعهم إلى مصاف الأشراف وتعتمد عليهم في أعمالهم ، فتلتحم الأسرة بالشعب ويزداد طابعها القومي ظهوراً وبذلك يفتول عمرها لأنها تصل نفسها بمصدر السلطة والقوة وهو الشعب ، ويصبح نجاحها نجاحه وفتوحها فتوحه . ولهذا يقال إن الأسرة النورمانية ساهمت في بناء الشعب الإنجليزي ، ولا يقال إن الفاطميين أسهموا بنصيب في بناء الأمة المصرية ، وكل ما يقال في الكتب الحارية — عندنا — خلاف ذلك إن هو إلا أوهام وتصورات لا تقوم على أساس ولا يؤيدها من الواقع التاريخي دليل .

وهذا الخطأ وقعت فيه دول أصيلة كالدولة العباسية ودولة آل عثمان ، فإن دولة بني العباس عربية قامت في الحقيقة على أكتاف عربية وغير عربية ، وكان سيلها إلى القوة والحياة هو الاعتماد أكثر فأكثر على العرب وربط مصالحها بمصالح الجماعة العربية ، والجماعة العربية هنا لا يقصد بها الجنس العرقي وحده بل كل من دخل في كيان العروبة واستعرب وأحسن بالفخر بماضي العرب ومشاركة العرب آلام الحاضر وآمال المستقبل . ولو مدّ أبو جعفر المنصور يده إلى هؤلاء العرب وجعلهم عماد جيشه وأهل مشورته ورأيه لأسرع الحراسانيون وغيرهم إلى الاستعراب وأصبحوا عرباً مع الزمن ، كما أصبح الإسبان عرباً في الأندلس بفضل السياسية العربية الواضحة التي صار عليها أبو أمية الأندلسيون . ولكن أما جعفر المنصور كان رجلاً أنانياً قصير النظر كغيره من منشئى الدول التي ذكرناها ، فجرى وراء مظهر السلطان اخادع ولم ينظر إلا إلى تأييد سلطانه وتثبيت أقدام بيته بأبى طريق ، وأحاط نفسه بجند غير عربى وبمظاهر مملك يسرونى غير إسلامى ، وأصبح خليفة مسلماً يتصرف تصرف ملك جاهلى ، ودفع الدولة كلها بهذا المسلك إلى طريق غير مأمون .

دولة المغول والتدخل الغربى :

طوال العصور الوسطى تمتعت الهند بصيت بعيد كبلد ذى حضارة مرعلة في القدم متعددة الجوانب ، بلد غنى حافل بالخيرات التى تفتح أمام التجار إمكانيات واسعة للعمل والكسب الوفير . والهند كانت بلداً فسيحاً تعيش فيه شعوب شتى تختلف في المزاج والأصول واللغات والديانات . ولم يكن يجمعها رابط حقيقى أو وحدة وطنية ، ومن بين سكانها شعوب ذات ملكات تجارية تسكن السواحل الغربية والشرقية لشبه الجزيرة الهندية وتتولى الأعمال التجارية ، وقد أنشأت هذه الشعوب مراكز التجارة والأسواق وهاجرت منها جماعات إلى الشواطئ الأفريقية وبلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية وأنشأت فيها المتاجر والجاليات ، ومن أهم مراكز النشاط التجارى على الساحل الغربى قابيوط وجؤا وديبل ، أما على الساحل الشرقى فكانت هناك سورات ومدراس وحزيرة بومباى .

وفي المراكز التى تقوم على الساحل الغربى نزل تجار البرتغاليين أول ما دخلوا بخار آسيا في أواخر القرن الخامس عشرى الميلادى ، وقد دخلوا بعنف شديد لأنهم كانوا مسلحين بالبارود ولم يكن أهل البلد يعرفونه ، ولأن سفنهم كانت كبيرة متينة البناء تحتمل الأسفار البعيدة وتحمل الناس الكثيرين والبضائع الوفيرة وتحرك في البحر بسهولة ، فلم يصعب عليهم اجتياح أهل الملاحة والتجارة في جنوب آسيا ما بين عرب وفرنس وهنود ، ثم أقدموا على الاستيلاء على أجزاء من الساحل وإنشاء الحصون وانهازن التجارية فيها ، وفي سنوات قليلة أصبح البرتغاليون يمثلون رعباً لهذه البحار وتهديداً لسواحلها وسفنها واتبعوا أسوأ أساليب القرصنة والعدوان ، فشمل أذاهم كل السفن في حر العرب معتمدين على جزيرة سقطرى التى احتلوها وسيطروا على الخليج العربى من قمرمز واحتلوا كوتشين على ساحل الهند الغربى ، وأصبحت لهم بذلك إمبراطورية تجارية ، وما لبث ملك البرتغال أن أقام لنفسه نائباً له في الهند ومركزه كوتشين . وكان الذى أنشأ تلك الإمبراطورية التجارية البرتغالية هو بيدرو ألفاريت دا كابرال Pedro Alvarez da Cabral ، ولكن أول نائب للملك كان فرانسيسكو دا أليدا Francisco de Almeida (١٥٠٥ م — ١٥٠٩ م) وهو أيضاً أول أوروى تسمح أنه حكم بلاداً شرقية ، وهذا الرجل هو الذى استطاع القضاء نهائياً على سيادة العرب على مياه جنوبى آسيا بانتصاره على الأسطول المصرى في معركة ديو سنة ١٥٠٩ م .

وبينا كان البرتغاليون يمدون سلطانهم ، كان أمراء ممالك الهند في الدكن يحاربون أمراء دولة فيجاياتاناجار الهندوكية ، وقد أقاد البرتغاليون من ذلك ونزلوا شبه جزيرة الملايو وهزموا قواد سلطنة ملقا سنة ١٥١١ .

وقد بلغت سيطرة البرتغاليين على بحار آسيا أوجها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، وكان من الممكن أن تدوم مدى طويلا لو لم يسرف البرتغاليون في استعمال القوة وأساليب النهب والسلب في بحار آسيا ، وقد دفعتهم أنانيتهم إلى أن يحاولوا إقتال تلك البحار أمام الشعوب الأوروبية الأخرى لكي ينفردوا وحدهم بالتجارة الآسيوية ، فحرموا على الهولنديين دخول ميناء الأشبونة وغيره من موانئهم ، فكانت النتيجة أن انجبه الهولنديون إلى الوصول إلى بحار آسيا مباشرة ، ووصلت أول أساطيل هناك بقيادة كورنيليس دي هوتمان Cornelis de Houtemann سنة ١٩٩٥ م ، وقد قطع الرحلة في سنة وثلاثة أشهر . في حين أن سفن البرتغال كانت تصل بحار آسيا في نحو عشرة أشهر . وفي سنة ١٦٠٢ أسست الشركة الهولندية المتحدة للتجارة ورأس مالها ٤٥٠ . ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، وأبدتها حكومة هولندا ولذنت لها في أن تتخذ الأساطيل والقوات العسكرية .

وقد وجه الهولنديون اهتمامهم إلى جزائر الهند الشرقية ، فزلوا على شاطئ جاوه عند باتنام وعيخوا بيتر بوث Pieter Both حاكما للموقع (١٦٠٩ - ١٦١٤ م) . وأنشأ الهولنديون في أثناء ذلك مراكز تجارية في باتنام وجاكارتا التي كانت تسمى إذ ذاك حاكثرا أو بتافيا ، ولكن أعظم حكام الهولنديين في تلك الجزر كان جان بيترزون كوين Jean Pieterzon Coen (١٦١٧ - ١٦٢٢ م) وكان سياسياً محاربا من طراز ألفونسودا ألبوكيرك Afonso da Albuquerque وهو أعظم أمراء البحار البرتغاليين الذين عملوا في بحار آسيا . ومن الطريف أن بطل البرتغال في صراعهم مع العرب في بحار آسيا كانا بجمعلان ألقابا عربية ، فالأول هو ألبيدا أصل اسمه البيضاء وهي غرمة من أحواز شتيرين في البرتغال ، والثاني « ألبوكيرك » اسمه محرف تحريفاً شديداً من الكنية العربية المعروفة « أبو بكر » .

وفي ذلك الوقت دخل الإنجليز بحار آسيا ، شركاء للهولنديين أولا ثم مستقلين بأنفسهم بعد ذلك . وقد اهتم الإنجليز بالهند وركزوا نشاطهم في ولاياتها الشرقية وأنشأوا لأنفسهم مراكز على سواحل كروماندل والكوجرات والبنغالة ، وكما قضى الهولنديون على سطوة البرتغال في بحار آسيا وورثوا أسواقها الآسيوية فقد انتهى الأمر

بقضاء الإنجليز على سطوة الهولنديين في الهند ، وكان ذلك على يد روبرت كلايف ، ذلك الداهية الاستعماري الذي طاق كل من سبقوه ، فقام بتحويل شركة الهند التجارية إلى إدارة إمبراطورية ، وحول القارة الهندية إلى مستعمرة ، فبدأ بذلك عصر الاستعماريين العتاة .

ولكن الوجود البريطاني في الهند يرجع إلى ما قبل زمن روبرت كلايف ، فهذا الرجل كان من أهل النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، في حين أن وثيقة تأسيس شركة الهند التجارية البريطانية ترجع إلى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م ، وهذه الوثيقة صدرت عن الملكة إليزابيث إلى حاكم لندن ونقابة تجارها وكان رأس مالها ٣٠٣٣٣ جنيه ، وقد قدمت لها حكومة إنجلترا كل معاونة . ونحن نقف هنا عند هذه الحقائق لنلفت النظر إلى أنه بينما كان تجار الغرب يجدون المساعدة والحماية والتأييد من حكوماتهم كان تجار بلادنا ضحية حكامهم ، فما وجدوا عند أحد منهم مالا إلا صادروه ، ولا عرفوا لأحد منهم متجراً إلا نهوه ، فكيف والله كان من الممكن أن تقوم للشعوب قائمة ومن فوقهم أمثال أولئك الحكام ؟ !

وقد نشطت شركة الهند وأنشأت لها المراكز في سورات وأجرا وپروتش ، وتملك الإنجليز جزيرة بومباي ، وقد كانت أولاً ملكاً للبرتغال فلما تزوجت كاتالينا دي براجانثا Catalina de Braganca شارل الثاني ملك إنجلترا سنة ١٦٦١ م قدمت الجريرة لزوجها ضمن بائنتها ، فسلمها شارل الثاني للبركة مقابل إيجار رمزي قدره عشرة جنيهات في السنة ، وفي سنة ١٦٨٧ م أصبحت بومباي مركز أعمال الإنجليز في الهند وقامت فرقة من الجند الأوروبيين المرتزقة بحمايته .

ولن نستطرد ها مع تاريخ احتلال الإنجليز للهند ، وإنما يكفي أن نقول إنه في الوقت الذي كان الإنجليز فيه يتوغلون في الهند يوماً بعد يوم ، دخل الفرنسيون باب المنافسة ، وأنشأوا لأنفسهم مراكز تجارية ومعامل حصينة على السواحل ، وكان رجالهم في ذلك القائد المشهور فرانسوا دوبليه Francois Duplax . واشتد الصراع بين الجانبين ، وبدلاً من أن يفتح رجال الدولة المغولية أعينهم على الخطر الذي يحيق بهم انصرف بعضهم إلى حرب بعض مستعنيين بالإنجليز أو بالفرنسيين ، مما أدى إلى القضاء على إمبراطوريتهم وتحولت الهند كلها إلى مستعمرة بريطانية سنة ١٨٥٨ م .

ولما كان المسلمون هم الذين قاموا بأكبر نصيب في مقاومة التدخل البريطاني في الهند ، فإن حكام الهند من الإنجليز جعلوا محاربة الإسلام من قواعد سياستهم في تلك البلاد .

وفي الوقت نفسه كان الهولنديون قد حولوا جزائر الهند الشرقية كلها إلى مستعمرة هولندية ، وتمكن الإنجليز من القضاء على قوة البرتغاليين في شبه جزيرة الملايو وجعلوها مستعمرة بريطانية مركزها سنغافورة ، أما الفرنسيون فقد تمكنوا من الاستيلاء على كل شبه جزيرة الهند الصينية .

وهكذا تدمرت الإمبراطوريات الإسلامية الكبيرة التي كانت قائمة في الجناح الشرق لمملكة الإسلام بعد إزهار قصير أو طويل ، تدمرت وحلفت وراءها أسداء من فتوحات وحروب وأجناد حضارية . فأما الحروب فقد ذهبت مع أمس الدابر ، وأما الأجداد الحضارية فقد بقيت لأنها من بناء الشعوب . وقد خلقت هذه الدول وراءها كذلك شعوباً ضعيفة فقيرة حظها من الشقاء عظيم ، تركتها ضحية لأعداء أقوياء أقبلوا يعقول جديدة وأساليب جديدة وتفكير منظم يرمى إلى القضاء على عالم الشرق الإسلامي وغير الإسلامي ونحوه إلى ميادين استغلال اقتصادي لخدمة الغرب وبلاده .

وكان على هذه الشعوب أن تعمل وحدها لتحرير بلادها والخروج بها من ظلم الاستعمار والخضوع للأجنبي الذي قادتها إليه الدول .

والآن نلتفت إلى الجناح الغربى لدولة الإسلام ، لنرى ماذا جرى فيه في تلك العصور . سندرس الدولة الإسلامية الخامسة التي قامت في عالم الإسلام في مطالع العصر الحديث ، وما اتصل بذلك من أحداث .

بلاد المغرب وما قام فيها من الدول :

خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى تدهورت دولة الموحدين ، وهى كبرى الدول الإسلامية التى قامت فى المغرب خلال العصور الوسطى ، وغرقت فى بحر الخلافات المحلية والتنازع على العرش ، ذلك البحر الذى غرقت فيه معظم دول المسلمين . وكانت دولة الموحدين آخر مظهر للدول الإسلامية الكبرى التى

أقامتها شعوب المغرب التي تنتسب إلى أصول صنهاجية حضرية مستقرة ، ومانتهاء أقيامها سنحت الفرصة. لجماعات الزناتيين للحلول محل خصومهم الصنهاجيين في السيطرة والسلطان ، وكانت أولى هذه الجماعات الزناتية التي سعت إلى السلطان القبائل التي سميت بني مرين ، ومنازلهم الأولى في أرض السهوب الممتدة بين واحتي تاغلت في جنوب المغرب الأقصى وفحيح في جنوب غرب الجزائر الحالية .

وبعد محاولات طويلة استطاعوا بقيادة أول زعمائهم وسلاطينهم أبي يحيى عبد الحق (٦٤٢ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٤ - ١٢٥٨ م) أن يزيلوا آخر خلفاء الموحدين ومسودوا المغرب الأقصى كله حتى طنجة وتطوان في الشمال ، وسيطروا على ممر تازة معتاح المغرب الأوسط ، وثبتوا أقدامهم في طنجة مفتاح الأندلس . ومن ممر تازة - أو تازة - استطاع المرينيون في عهد سلاطينهم الكبار أبي الحسن علي (٧٣١ - ٧٥٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٥١ م) وأبي عنان فارس (٧٥٢ - ٧٥٩ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٨ م) أن يمدوا سلطانهم على الجزء الغربي من الجزائر الحالية ويصلوا بسلطانهم أحيانا إلى تونس . ومن طنجة عبروا إلى الأندلس حيث أنقذوا بنصيب كبير في الجهاد في سبيل الإسلام في شبه الجزيرة إلى جانب بني نصر من الأحمر أصحاب غرناطة .

وكان لبني مرين اهتمام كبير بالمشآت والمباني ، فلا تخلو مدينة في المغرب الأقصى من آثارهم الجميلة ، وما زالت روضة بني مرين قرب شالة أثرا جليلا من آثار الفن الإسلامي البديع برغم ما أصابها من تهمد . والروضة هي المدافن ، وروضة بني مرين مجموعة من الأضرحة والمصليات بلغت الغاية من الجمال والرواء . وفي مدينة تازة - حتى تتوسط الممر المعروف باسمها - أنشأ أبو يعقوب يوسف المريني (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٧ م) مسجده الشهير بقبة الرائعة وثرياه التي تعد من أجمل الثريات التي صنعتها أيدي فنان المسلمين .

وقد اختفى نو مرين من الميدان بعنف كما دخلوه بعنف . أزاحهم عنه وحل عليهم فيه قبيل زناتي آخر عرف ببني وطلّاس ، منازلهم الأولى كانت أراضي السهوب والواحات جنوب طرابلس وأفريقية والجزائر ، ومن هناك انتقلوا خلال القرن الثالث عشر إلى جبال الريف ، ثم دخلوا في خدمة بني مرين وأصبحوا عماد قوتهم العسكرية ، وانتهى أمرهم بأن صاروا أصحاب السلطان في المغرب الأقصى عندما

أعلن شيخهم محمد بن الشيخ نفسه سلطاناً في سنة ١٤٧٢ م وظل يحكم إلى سنة ١٥٠٥ م عندما توفى بعد أن خاض حروباً طويلة وأقام ملكاً قبائلياً مرعزاً ، ولقد كسب هذا الرجل وابنه أبو عبد الله الملقب بالبرتغالي (١٥٠٥ — ١٥٢٤ م) انتصارات متعددة على منافسيهم في المغرب ، ولكنهما فشلا في إيقاف الخطر الأكبر الذي هدد البلاد في ذلك الحين وهو خطر التوغل البرتغالي الإسباني .

البرتغاليون والإسبان في المغرب :

في ذلك الحين كان أمر إسبانيا والبرتغال قد استوى بعد أن قامت في كل منهما دولة قوية موحدة تجمع كل عناصر القوة في يدها ، وكان من أكبر ما حفزهم إلى الحروب والتوسع وجود مملكة غرناطة الضعيفة في جنوب شبه الجزيرة ، ولقد دافعت غرناطة عن نفسها دفاعاً مجيداً ولكنها خسرت المعركة آخر الأمر وانتهى عصرها في الأيام الأولى من ١٤٩٢ م ؛ واستولت على بلادها مملكة قشتالة التي تزعمت ما يسمى في التاريخ الإسباني بحركة الاسترداد (لا ريكونكيستا ها Reconquista) .

وتحسب الإسبان بعد ذلك النصر وتطلعوا نحو المغرب الأقصى الذي سادته الفوضى كما رأينا ، وقام سباق بين الإسبان والبرتغاليين على الاستيلاء على المواقع والمراكز على سواحل المغرب . وحدير بالذكر أن البرتغال كانت أول من استيقظ من بلاد أوروبا وثبه إلى أهمية الأسواق التجارية الخارجية ، وشجعها على ذلك ثبات نظامها السياسي ومهارة رجالها في بناء السفن وقيادة الأساطيل ، وإيمانهم بالمسيحية ، وقد كان البرتغاليون يقومون بأعمالهم ضد بلاد المغرب الإسلامية مدفوعين في ذلك بعاطفة صليبية .

كانت أول ضحية للعدوان الإسباني البرتغالي بلدة تطوان ، وكانت قد نهضت إذ ذلك نهضة كبيرة نتيجة لاهتمام سلاطين بني مرين بأمرها ، فقد ابتوا فيها قصبة منيعة ليستعينوا بها في أعمالهم العسكرية في الأندلس . وقد تجمعت في ذلك البلد حشود من المجاهدين قامت بتأمين السواحل المغربية ومهاجمة أي سفينة معادية تحاول الاقتراب منها ، ويصف مؤرخو إسبانيا هذا النشاط بأنه كان نشاط قراصنة ، مع أن المجاهدين المغاربة — أو غزاة البحر كما كانوا يسمون — لم يهاجموا أي ميناء

إسباني . وفي سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م دبر الإسبان هجوماً عيفاً على تطوان اشترك فيه أسطول ضخيم والكوف من الجلود ، وقد هوجم البلد على حين غرة قتل رجاله وأسر نساءه وأطفاله وهدمت أسواره . ولم تعمر تطوان إلا بعد ذلك بقرن تقريباً ، عندما نزلتها جماعة من المهاجرين الأندلسيين الذي غادروا بلادهم عقب سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

وبعد تحريب تطوان جاء دور سبتة ، ذلك الميناء المعروف الزاهر الذي كان يقوم نشاط تجارى واسع مع مرسيليا وجنوا وبرا ، وفي هذه المرة كان المهاجرون من البرتغاليين : سبروا نحو البلد أسطولا من ٢٠٠ سفينة فيها نحو ٥٠٠٠٠ جندي حاصروا البلد حصاراً شديداً ثم اقتحموه بالمندافع سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م وأنزلوا بأهله مذبحاً بشعة .

وفي سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م هاجم البرتغاليون طنجة ، ولكن أهلها والقبائل المحيطة بها استطاعوا رد عاديتهم فتركوها وساروا نحو بلدة « القصر الصغيرة » في الداخل بين طنجة وسبتة ، ثم وصلوا سيرهم حتى شاطئ « المحيط الأطلسي شمال أصيلا واستولوا عليها واستخدموها قاعدة لأعمالهم العسكرية ضد الشاطئ « الأطلسي للمغرب .

وقد عجز محمد الشيخ سلطان بنى وطماس عن إخراجهم من سبتة أو أصيلا ، فواصلوا نشاطهم وأنشأوا مركزاً عسكرياً قرب آسفى - التى تسمى أيضاً بصافى - سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م ، ومن هناك مدوا سلطانهم حتى أزموور سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٦ م وأنشأوا حصناً لهم عند البريجة الجديدة سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م . وبذلك أصبح شاطئ « المغرب على المحيط الأطلسي شمال الرباط تحت سلطان أولئك الغرّة ، وفي موضع حصنهم هذا أنشأوا بلدة مازغان ، وكذلك أنشأوا مركزاً ثانياً عند رأس غير وسموه سانتا كروز دو كابو دا جير Santa Cruz do Cabo da Guir (١٥٠٥) ، وهذا المركز هو الذى تطور إلى أن أصبح ميناء أغادير اليوم .

وبقدر ما كانت قوات سلطان بنى مرين وسلطان بنى وطماس عاجزة عن حماية شواطئ بلادهم ، كان مهاجرة الأندلسيين الذين نزلت جموع منهم فى شاون -

أو شِفْشَاوَن — إلى جنوب تطوان قادرة على الصمود لكل هجمات الإسبان ، وتمكنت فئة أخرى من مهاجرة الأندلس من تعمير تطوان وإعادة بنائها سنة ٩٠٤ هـ/١٤٩٩ م والتصمود للإسبان . وقبل ذلك الوقت (٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م) سقطت مليلة في أيدي الإسبان وما زالت تحت أيديهم إلى يومنا هذا ، وفي سنة ٩١١ هـ/١٩٠٥ م استولى الإسبان على المرسى الكبير في الجزائر ، ولكن الأتراك العثمانيين استطاعوا إخراجهم منها بعد أن دخلت الجزائر إمبراطوريتهم وتحولت إلى إيالة — أي ولاية — عثمانية .

وفي أيام أبي عبد الله البرتغالي خليفة محمد الشيخ تمكن البرتغاليون من التوغل في المغرب من ناحية أغادير ، واتصلوا بالكثير من قبائل السوس المعادية لبني وُطَّاس وحالفوها . وفي إحدى غاراتهم وصلوا إلى أحواز مراكش وهددوها سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥ م واسترسلوا في توغلهم حتى وصلوا إلى وادي درعة ، وهناك اصطدموا عد بلدة زَغُورَة الخالية بجماعات الصوفية المجاهدين من الطريقة الحزولية بترجمهم رئيس من الأشراف — أي من سلالة الرسول ﷺ — يسمى عبد الله ابن أحمد بن سعد (أو السعدي) ، وقد استطاع الصوفية إيقاف التقدم البرتغالي . وكان نجاحهم في ذلك إيذاناً بميلاد دولة جديدة هي الدولة السعدية ، التي أُنقِذت المغرب الأقصى من العدوان البرتغالي والإسباني .

السعديون الفلاحيون (٩٦١ — ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — ١٦٥٩ م) :

وأصل السعديين من الحجاز ، هاجروا إلى المغرب في القرن الخامس عشر واستقروا في الحبوب في منطقة وادي درعة — آخر أنهار المغرب من ناحية الجنوب — وأصبح منشئ أسرهم عبد الله بن سعد الملقب « بالقلم » من كبار شيوخ الصوفية الحزولية ، وكان أنصاره يسيطرون على ناحية تارودانت ومركزهم تافلات ، ولذلك يسمون الفلاحيين ، وقد أخذوا بتأوشون البرتغاليين حتى ردوهم إلى الساحل ، وعندما توفي عبد الله بن أحمد سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م قام بالأمر ابنه أحمد الأعرج متعاوناً مع أخيه الشيخ المهدي وتمكن من احتلال مراكش سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٣ م مع بقائه في طاعة سلطان بني وُطَّاس ، وبعد خلاف وقع بين الأخوين انتقل السلطان إلى الشيخ المهدي ، وظل أحمد الأعرج حاكماً لمراكش ، وقد استطاع الشيخ المهدي

أن يستعيد أعادير سنة ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ م وأعقب ذلك بطرد البرتغاليين من آسمى وآزمور .

وقد حاض محمد الشيخ صراعاً ضويلاً مع بقايا الوطاسين وولادة الترك العثمانيين في الجزائر ، وكانوا قد حولوها إلى ولاية عنانية ، وقد تحالف محمد الشيخ مع الإسبان حتى يأمن شر البرتغاليين ويرد مطامعهم ، واستطاع قبل وفاته سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧ م أن يضع أسس سياسة المسعدين حتى نهاية أيامهم ، وهذه الأسس تقوم على محاربة الإسبان ضد البرتغاليين والأتراك معاً ، ثم التخلص من سلطان جماعات الصوفية والمرابطيين ، والاعتماد على قوة عسكرية خاصة من عبيد السلطان السود ، يشترتهم من بلاد أفريقية المدارية ويربهم تربية عسكرية تزيد من كفاءتهم الحربية ، ثم وضع نظام سليم عادل للضرائب والجنانيات حتى لا يتقل أمرها على القبائل وأهل المدن . وكانت قبائل المغرب تنفر نفور شديداً من الضرائب مهما قلت مبالغها ، لأنها كانت في نظرهم رمزا على الخضوع والمذلة ، وكانوا يسمونها المقارم ويقسمون البشر إلى أعرة يأخذون المقارم ونذلة يؤدونها ، وهذا واضح من كلام ابن خلدون .

واستقر الأمر للمسعدين في المغرب الأقصى حيناً — بفضل قوته العسكرية التي أسسوها ، وكانت هذه القوة تسمى بالعساكر الخنزلية ، (واخترن اصطلاح معرى يراد به الحكومة) — حتى وفاة عبد الله الغالب سنة ٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م ، وقد خلفه ابنه مولاي محمد المتوكل (٩٨٢ — ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٤ — ١٥٧٦ م) فقام في وجهه الصوفية والمرابطون آمين استعادة سطاتهم الذي رى ومطالبين بإلغاء الخنز مع إسبانيا ، وفي أثناء الصراع معهم عاد من الآمانة عم له هو أبو مروان عبد الملك ومعه قوة من الجيش العثماني وعدد كبير من الفتيين في شئون القتال ، ولم يكن أبو مروان عبد الملك يدخل المغرب مطالباً بالسلطان حتى انضمت إليه جماعات من أهل الطرق الصوفية ، فتمكن من الانتصار على محمد المتوكل فظاهر فاس سنة ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٦ م وأعلن نفسه سلطاناً وأقام أحياه أبا العباس أحمد حاكماً لفاس ، واتبه هو نحو مراكش لئتم له البيعة فيها .

أما محمد المتوكل فقد هرب من البلاد وقام بعمارة تعد من أغرب ما وقع لسلطان مسلم : لحاً أولاً إلى بعض قبائل الأطلس على أمل الحصول على تأييدهم ، ولم ينجح

في ذلك فهرب إلى إسبانيا وطلب تأييد ملوكها له وعرض عليهم في مقابل ذلك أن يكون تابعاً لهم خاضعاً لسلطانهم ، فلم يلق قبولاً ، فأنجبه إلى البرتغال . وهكذا نرى كيف أن التمسك بالسلطان يُخرج طلاب الملك على أخلاقهم ودينهم ، وماذا بعد هذا الترامى المشين على عتبات ملوك النصارى واحداً بعد واحد لجرد الوصول إلى العرش والسلطان !

وتحسب للأمر ملك البرتغال الدون سيباستييان ، وكان شاباً طموحاً جريئاً فظن أنه يستطيع الاستيلاء على المغرب كله عن طريق تأييد هذا المطالب بالعرش ، واستشار في ذلك خاله الملك فيليب الثالث ملك إسبانيا فنصحته بالإقلاع عن تلك المغامرة ، ولكنه لم يستمع ، وصَدَّق ما قاله له محمد المهدي من أن المغاربة إذا رؤوه اتفوضوا عن عمه عبد الملك .

نزل الملك سيباستييان وحليفه محمد المهدي ميناء أصيلا في ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ، وتقدم أبو مروان عبد الملك نحوهم بجموع مجاهدى المغرب وجند المملكة ومن انضم إليه من الأتراك ، وكان الجيش المسيحي يتألف من ٧٠٠٠ من بحيرة الفرسان والمدفعين بينهم ٢٠٠٠ من الإسبان وعدد من الألمان والإيطاليين . وفي الرابع من أغسطس ١٥٧٨ م دارت المعركة في سهل إلى جوار مدينة القصر الكبير يسمى وادى الخازن ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبرتغاليين ومن معهم . وقد قتل في المعركة سيباستييان وغرق محمد المهدي في ماء نهر أراد أن يعبره سائحاً . أما أبو مروان عبد الملك فلم يعش لوى النصر ، إذ كان مريضاً يُحمل في محفة في ذلك اليوم الكبير ، وعندما أقيمت بشريات النصر كان في غمرات الموت ، ولم يلبث أن توفى في نفس الليلة . ولهذا تسمى المعركة بمعركة الملوك الثلاثة ، وتسمى أيضاً معركة الخازن ، ومعركة القصر الكبير . وهى حاسمة في تاريخ المغرب ، لأنها قطعت رجُل البرتغاليين من المغرب فلم يعودوا إلى الطمع في أراضيه ، وبعد ذلك هسنتين قام فيليب الثالث بغزو البرتغال وضمها إلى تاج إسبانيا ونودى به ملكاً عليها في أبريل ١٥٨١ م .

وجنى ثمرات هذا النصر أبو العباس أحمد خليفة أبي مروان عبد الملك ، وقد تلقب بالمنصور ، ولقبه الناس كذلك بالمنصور الذهبي (٩٨٦ — ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ — ١٦٠٣ م) . وهو من أعظم ملوك المغرب وأجلاء أعمه الغرب والمسلمين ، وقد اجتهد في تقوية السلطنة عسكرياً ، فأنجبه نظره إلى الامتداد

جنوباً ووصلت جيوشه المنصورة إلى إقليم غانة — أو بلد السودان كما كان يسمى — وهناك ضم إلى قواته ألوفاً من مقاتلي السودانيين ، وعكف رجاله على تدريبهم على فنون الحرب .

وكانت بلاد غانا إذ ذاك من أكبر موارد الذهب ، فعظم ثراء دولته واتسعت أمامه فرص الإنشاء والتعمير والتنظيم ، فتمتع المغرب في عصره برخاء كبير ، وانتعشت كبريات مدن المغرب من أمثال فاس ومكناس ومراكش وطنجة ، وقد ابتنى المنصور أسواراً غاية في الجمال لمدينة مكناس ما زالت باقية إلى اليوم محتفظة بكل جمالها .

وقد غفل عن أحمد المنصور الذهبي من كل صور التبعية للإمبراطورية العثمانية ، ولكنه استمر محافظاً على الحلف والصداقة مع إسبانيا والابتعاد عن أى عمل لمعاونة بقايا المسلمين المضطهدين هناك ، وكان بلاؤهم قد وصل إلى ذروته في أواخر أيام فيليب الثاني ثم خلفه فيليب الثالث ، وفي أيام هذا الأخير اشتد بلاء ديوان التحقيق وقامت جماعات المسلمين في إسبانيا أشد أنواع الاضطهاد ، وفي سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م صدر الأمر بإخراج بقاياهم من إسبانيا فأقيمت على المغرب منهم ألوفاً بعد ألوفاً .

ومات أحمد المنصور الذهبي سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م ، فإذا بالبناء الضخم الذي شاده يتحطم ، لأن أبنائه الثلاثة — أبا عبد الله للمأمون المعروف بالشيخ ، وأبا فارس الملقب بالوائق ، وزيدان — تنازعوا على العرش نزاعاً محزناً مخرباً . وهكذا نجد دول المسلمين تتحطم على صخرة النزاع على العرش ، ودولة قائمة جليلة كهذه ينهار نظامها لأن أبناء السلطان الثلاثة لا يرضى أحد منهم إلا بأن يكون هو وحده السلطان دون أخويه . وبعد نزاع طويل دام عشر سنوات خلا الميدان لمولاي زيدان فأصبح سلطان المغرب ، وثارت الحروب بينه وبين الإسيان في البر والبحر حتى وفاته سنة ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م .

وخلال هذا الصراع وقعت في أيدي الإسيان سفينة فرنسية كان مولاي زيدان قد أكرامها ليحمل عليها كتبه وذخائره من سلا إلى أغادير ، وغنموا ما فيها ، ومن بين ذلك مجموعة من المخطوطات العربية هي جزء من مكتبة مولاي زيدان ، وكانت تضم نحو ٣٠٠٠ مجلد تقريباً من أحسن المخطوطات العربية ، فأمر فيليب الثالث

ملك إسبانيا بإيداعها مكتبة دير سان لورنزو في مدينة الإسكوريال San Lorenzo del Escorial الذي بناه أبوه . وهذه المخطوطات هي أساس ذخيرة المخطوطات العربية الموجودة إلى اليوم في هذا الدير ، وكان ذلك سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م .

أما عشرات الألوف من المخطوطات التي كانت تملأ إسبانيا أيام العرب فلم يبق منها إلا نزر لا يذكر ، والباقي آتت عليه قيران محاكم التحقيق . وهكذا نرى كيف ضاعت مئات الألوف من مخطوطات علوم العرب على يد طائفة المغول هولاء ، وعندما دخل بغداد ، ومئات ألوف أخرى على يد رجال ديوان التحقيق في الأندلس .

والحق أن تراثنا الثقافي قد تعرض لأعمال إبادة بربرية كثيرة من هذا الطراز ، ومع ذلك فقد بقي منه ذلك الذخر العظيم الذي نجده الآن مفرقاً في نواحي الأرض بملأ مكباتها الكبرى ، وإنه لتراث ضخم لم تشهد الإنسانية قبل العصور الحديثة مثالا له ولا قريباً منه . ولو وهى العرب قدر تراثهم وما قام به أجدادهم من الجهاد في سبيل الإسلام والعلم لما رضى عرى إلا بأن تكون لأمتة الصدارة بين الأمم .

انتهى حكم مولاي زيدان (١٠١٢ — ١٠٣٨ هـ / ١٦٠٣ — ١٦٢٨ م) في ظروف حزينة ، فقد تقلص سلطان البيت السعدي حتى لم يعد يتخطى مدينة مراكش وما حولها ، وأما فاس وإقليمها فقد سيطر عليهما فرع من البيت السعدي وتوالى عليهما سلاطين استقلوا بهما ، وفي كل ناحية تقريباً قامت أسر محلية بعضها عرب من هروغ بني هلال — وبخاصة المَعْقِل — وبعضها من أهل البلاد ، واستمر هذا التفرق إلى آخر أيام السعديين في مدينة مراكش (سنة ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) وفي ناحية فاس ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م . وقد عادت وحدة البلاد على أيدي العلويين ، وهم أيضاً أشرف علويون يرجع نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، دخلوا جنوب المغرب الأقصى مهاجرين في أعقاب غارة وهجرة ضخمة قام بها عرب المَعْقِل في القرن السابع عشر الميلادي ، وجددهم منشئ دولتهم هو مولاي علي الشريف ، الذي استقر مع بنيه وأتباعه في ناحية سجلماسة ، وكان رئيساً دينياً وشيخاً من شيوخ الصوفية المرابطيين ، وعندما توفي في حدود ١٦٦٠ م خلفه ابنه محمد .

ولم يكن طريق العلويين إلى السلطان سهلاً ، ولا كانت المشاكل التي واجهتهم باليسيرة ، فقد نهضوا بالحكم في ظروف عصية ، ووسط فوضى شاملة . فقد توالى

الثورات والانقسامات حتى خيف على مصر الوطن المغرب نفسه ، لأن الأمر لم يقتصر على أخطار التفريق الداخلي بل كان هناك الأعداء الخارجيون : إسبانيا والبرتغال ، وبعد قليل دخلت فرنسا ذلك الميدان . ولقد كان على مولاي محمد الشريف (١٠٤٦ - ١٠٧٣ هـ / ١٦٣٦ - ١٦٦٣ م) ورشيد (١٠٧٤ - ١٠٨٣ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٣ - ١١٣٩ هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م) أن يخوضوا صراعاً عنيفاً مع سلسلة طويلة من المتنافسين في الداخل ، وأن يردوا عن المغرب خطر العدوان الأوروبي ويعيدوا وحدة البلاد ونظامها .

ولكن الأزمان تنحصر ، ومع الأزمان الجديدة تأتي مسؤوليات جديدة وأخطار جديدة . وقد نهض العلويون بمسئولياتهم وواجهوا الأخطار بشجاعة ، ولكن احتلال الفرنسيين للجزائر وتوغل إسبانيا في شمال المغرب الأقصى وضعاً مشكلة المغرب كله وضعاً جديداً .

وبقية هذا التاريخ تتحلى حدود هذا الكتاب ، فقد وصلنا تاريخ المغرب الأقصى إلى صميم القرن الثامن عشر الميلادي ، أي إلى قلب تلك العصور التي تسمى بعصور الركود . فلتقف هنا لتلقي نظرة سريعة على بقية أجزاء المغرب العربي ، استكمالاً لصورة العالم الإسلامي في مطالع العصر الحديث .

الأحوال في أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) حتى القرن الثامن عشر الميلادي :

ونبدأ بأفريقية ، وهي اليوم تغايل جمهورية تونس ومحافظة قسنطينة ونجاية في الجزائر الحالية ، وفي معظم الأحيان كانت تضاف إليها ولاية طرابلس . كانت هذه المساحة دائماً وحدة سياسية ، إلى أن تدخل الأتراك العثمانيون في المغرب وأعادوا تقسيمه السياسي خلال القرن السادس عشر الميلادي .

كانت أفريقية هذه مركز خلافة بني حفص - أو الحفصيين - ابتداء من سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٦ م ، وأبو حفص جدهم الذي ينتسبون إليه هو عمر أثنى - أو المختار - وكان أعظم أنصار محمد بن تومرت مهدي الموحدين (ت حوالي ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م) . وقد استقل أحد أحفاد عمر المختار هذا - وهو أبو زكريا - بأفريقية سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وأنشأ دولة قوية منظمة خلفه عليها ابنه

أبو عبد الله محمد المنصور الذي اتخذ لقب الخليفة (٦٤٧ — ٦٧٦ هـ / ١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) ، وكان ملكاً هماماً تمكن من القضاء على الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م .

بعد المنصور تعاف على عرش الحفصيين ٢٦ خليفة كانت معظم أيامهم نكداً وشقاء وحروباً وفوضى ، حتى انتهى أمرهم سنة ٩٨٢ هـ / ١٢٧٤ م . وقد عرفت البلاد في ظلهم سنوات قليلة من الرخاء والأزدهار ، خصوصاً بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، فقد أصبحت تونس وبونة (عنابة) وبجاية مراكز تجارية كبرى تفقد عليها معنى أوروبا حاملة بضائع الغرب لتستبدل بها خيرات الشرق . وهذا الرخاء اجتذب أنظار الطامعين ، وعلى الرغم من أن ملوك الحفصيين كانوا أهل علم وثقافة إلا أنهم أهملوا اتخاذ العدة العسكرية الكافية لحماية بلادهم من الأخطار .

وفي أيام أبي عبد الله محمد الخامس (٨٩٩ — ٩٣٢ هـ / ١٤٩٤ — ١٥٢٦ م) وانه الحسن (٩٣٣ — ٩٤٩ هـ / ١٥٢٦ — ١٥٤٢ م) ضفت السلطة المركزية عن السيطرة على البلاد ، فقسمت إلى ولايات متفرقة تولت الحكم فيها أسر محلية ، واستقل شيوخ عرب المغفل — وهم فرع من الملالين — بمساحات واسعة من الأراضي في الداخل . وفي هذه الأثناء أقبل الإسبان يستولون على موانئ المغرب وأفريقية واحداً بعد آخر ، فأخذوا للرسي الكبير (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) ووهران (٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) والجزائر (١٥١٠ م) وأنشأوا في الجزيرة المقابلة للجزائر حصناً ضخماً سموه البنون El Penon أي الصخرة ، ثم استولوا على بجاية وطرابلس وحاصروا جزيرة جربة .

في ذلك الحين كان أمر الأخوين الملاحين المسلمين غروج وأخيه عمر الدين — الملقب ببارباروساً أي صاحب اللحية الحمراء — في صعود ، وكان هذان الأخوان ربانين من ربانة البحار أصلهما من ألبانيا ، وهما لما رأيا من سيطرة الإسبان على البحار وجشعهم في بلاد المسلمين ، فأنشأ غروج أسطولاً شحنته بالجهادين ، ومضى مع أخيه يهاجم السفن الإسبانية ، واتخذ من موانئ المغرب الصغيرة مراكز لأعماله ، ورحب المسلمون بسفته في كل مكان ، وتطوع للعمل مع الأخوين ، غروج وعمر الدين ، الكثيرون من الشباب ذوى الحمية ، فلم يلبث أسطول الأخوين أن أصبح

قوة بحسب لما كل حسب في مياه البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م استطاع عروج أن يطرد الإسبان من ميناء الجزائر ، وإن بقوا في الصحرة . ثم توغل في داخل البلاد وهاجم بقواته تلمسان في البر والبحر ، وقد لقي هذا المقاتل الباسل الشهادة قرب تلمسان فهض بالأمر أخوه خير الدين .

وتنتهت الدولة العثمانية هذا البطل ، فأخذته تحت جناحها وخلع عليه السلطان لقب باشا ، وأرسلت له القوات والمؤن ووضعت تحت تصرفه السفن ، وهكذا تطورت الحروب بين الأخوين والإسبان إلى حرب تركية إسبانية لسيادة البحر الأبيض المتوسط .

وقد طال مدى هذه الحرب ، ولكن الأتراك لم يدحروا وسعاً في مواليتهم بما ينغي لها من رجال ومال ، واستطاعوا أحر الأمر إنقاذ المغرب الأوسط وأفريقية من براثن الإسبان ، وهذه من أجل الخدمات التي قدمها الأتراك للجماعة الإسلامية ، إذ حفظوا لها المغرب الأوسط وأفريقية . وقد طالبت الحرب بينهم وبين الإسبان في الجزائر الحالية أولاً ثم في تونس ثانياً ، وفي أثناء هذه الحروب سقط أمراء الحفصيين إلى الحضيض ، وظهر فهم من يرضى بأن ينصبه الإسبان سلطاناً فيحكم باسمهم ويتأيد رجالهم ، وقد انتهت أهتمامهم بانتفاء بنى عبد الواد — الذين كانوا قد طمحووا إلى السلطان وأنشأوا لأنفسهم دولة في غرب الجزائر — وسقوط الحفصيين في تونس .

ففي سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م استطاع خير الدين أن يستولى على عنابة وقسنطينة وصخرة الجزائر ، ثم استولى على تونس وبنزرت وتوغل في الداخل وتمكن من القضاء على حامية إسبانية كانت تؤيد السلطان الحفصي الحسن في القيروان ، وعهد خير الدين في حكومة القيروان إلى رجال الطريقة الصوفية الشاذلية . وفي سنة ١٥٣٥ م أقبل الإمبراطور شارل الخامس — المعروف بشرككان — بنفسه فنزل صقلية وغزا تونس وحلق الوادي La Goulette (والمراد به مصب وادي بيجرة وهو نهر تونس) واستدعى أبا الحسن من الصحراء ونصبه سلطاناً ، وفي مقابل هذه المعاونة تنازل هذا السلطان الحفصي لشرككان عن حلق الوادي وصفاقس والمنستير ، وعن سوسة للملاح الحنوي أندريا دوربا Andrea Dona أمير البحر ، وعندما سار هذا الرجل في حماية الإسبان لاستعادة القيروان وقع في أسر ابنه أحمد فسلم عينيه .

وبعد موت حير الدين قام زميله وحليفته طرغود (أو ضرعوت) لمواصلة عمله فاستولى على طرابلس (٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م) ثم قنصة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م) ثم القيروان (٩٨٥ هـ / ١٥٥٧ م) وأُنزل بالإسبان هزيمة كبرى قرب جزيرة جربة (٩٧٦ هـ / ١٥٦٠ م) .

وكان أمر الأتراك قد استقر في الجزائر ، فجعلوا منها إيالة — أى ولاية — عثمانية يحكمها قائد تركي يلقب بأمر الأمراء نائبكريج ، فتقدم أمير الأمراء يولوج — أو على باشا — واحتل تونس ، ولكن هزيمة الأسطول التركي في ليبانتو سنة ١٥٧١ م قلبت الميزان فعاد الإسبان إلى تونس ، واستولى خوان د' أوسترينا — Juan de Austria — قائد الأسطول الإسباني المنتصر في ليبانتو — على تونس (٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م) ، وأقاموا السلطان محمداً السادس الحفصى . ولكن الأمر لم يطل ، إذ عاد الأتراك فاستردوا هذه البلاد كلها سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م وأزالوا ملك الحفصيين وحلوا تونس كلها ولاية عثمانية .

وكانت طرابلس وأفريقية والمغرب الأوسط كلها ولاية عثمانية واحدة ، كان يحكمها أول الأمر أمير أمراء واحد يقيم في الجزائر حتى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ، ثم قسمت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م إلى ثلاث إيالات يحكم كلاهما وال يلقب باشا ، وفي سنة ١٦٧١ م تحولت هذه الإيالات إلى ولايات عسكرية يحكم كلاهما قائد برتبة أغا ومعه وجاق — أى فرقة — من الإنكشارية ، ثم انتقل الأمر في كل منها إلى رئيس عسكري يلقب داي ينتخبه الأعوان — أى القواد العسكريون — وظل ذلك ساريا إلى الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م .

التدهور السياسى وأسيابه :

كانت تلك هي الملامح البارزة لصورة العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) إلى أواخر الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، وهى القرون التى ظهر فيها بأجلى صورة ما يعرف بهركود العالم الإسلامى . وأهم مظاهره تدهور النظم السياسية القائمة . وفقدانها القدرة على ضبط الأمور في البلاد ، وعجزها التام عن إقامة الحكم العادل أو أى صورة منه ، وفشلها في تمكين المواطنين من العيش الهادئ والعمل المنتج ، ويضاف إليها — في أحيان كثيرة — العجز عن حماية البلاد ، وفقدان

الحكام — في كثير من الحالات — الحياة والشعور بالكرامة أو القومية أو الحماية للدين ، فهم — إلى جانب ما أنزلوه بالناس من ظلم — كان بعضهم يتآمرون على قوطاتهم مع الأعداء . ومن مظاهره البارزة أيضاً ذلك الفقر الشامل الذى حط على الجماعات الإسلامية كلها ، فرزحت تحت عبء باهظ من الضرائب والمغارم استنفدت أموال الناس ، فسيطر عليهم فقر مدقع نرى صورته البشعة فيما كتب الرحالة الذين زاروا عالم الإسلام في تلك العصور .

وصاحب ذلك الفقر يأْسُ تام من تحسن الأحوال ، واستسلام تعيس للمقادير وما تأتى به ، وهبط المستوى العلمى والفكرى فلم نعد نظفر بهذه الشخصيات المحترزة التى عرفناها في التاريخ الفكرى للإسلام منذ ظهوره حتى أواخر القرن الخامس الهجرى على الأقل . وكان من نتيجة ذلك أن ساد اجتماع كله جهل شديد نسي الناس في أثناءه ما كان عند أجدادهم من المعارف والعلوم ، وانتشر الخوف من الشياطين والأبالسة والمخلوقات الشوهاء التى يخلقها خيال الجهلاء والخائفين ، واستسلم المجتمع كله لسبات عميق امتد حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن التدهور والانحطاط شمل التنظيم السياسية وأهلها ، ولكنه لم يمس جماهير المسلمين . فعل الرغبة من سوء الأحوال التى وصفناها فقد ظل المجتمع الإسلامى في كل بلد من البلاد التى مررنا بها سليماً متمسكاً ، لم يفسد نظامه الاجتماعى ولم ينطرق الفساد إلى خلية المجتمع وهى الأسرة .

فيما نلاحظ أنه عندما تدهورت الإغريقية والرومانية والإيرانية ، صاحب تدهورها تحلل أخلاقى شامل تقطعت معه أواصر العائلات وانعدمت الروابط الأسرية الأساسية ، حتى لم يعد للزواج حرمة ولا للآباء على أبنائهم حقوق ، ودخل الفساد في كل ناحية من نواحي حياة الناس ، نلاحظ أن المجتمعات الإسلامية — كما تقدم القول — ظلت سليمة متمسكة لم ينطرق إليها الفساد والخلل ، وظل الناس . برغم فقرهم — يتمسكون بالروعة والدين ومكارم الأخلاق فيما بينهم ، بل إنه كلما ازداد ظلم الحكام وازداد على الناس عبء الفقر ومرارة الحاجة ، ازداد تماسكهم وازداد إيمانهم بمبادئ الأخلاق ، وهذا هو الذى حفظ المجتمع الإسلامى من التفكك برغم الويلات التى مرت به ، وكانت جذيرة بأن نزلته بصورة خطيرة .

وقد اهتمما في ذلك العرض بأن تعطى صورة موجزة — ولكن واضحة — عن التدهور السياسي ، وبينما كيف وصل الحكم إلى مستويات وضيعة تجعل الكثير من الحكام لا يستحون من التآمر على أوطانهم مع أعدائهم وأعداء دينهم . هذا فضلاً عما كان بعض أولئك الحكام يرتكبونه من المظالم والاعتداء على الأموال والأشخاص ، دون أن يردعهم ضمير أو يردعهم وازع من خلق أو دين . والحق أن العروش خلال فترات التدهور هذه قد أذلت أصحابها والطامعين فيها ذلاً بشعاً وهبطت بهم إلى درك سحيق ، وقاتل الله الحكم فإنه — في أحيان كثيرة — يجرّد الطامعين فيه حتى من الشعور الإنساني !

ولم يأت جانب ذلك نرى أمة الإسلام في كل مكان محافظة على سنتها وأخلاقها ومبادئها ، وهذه المحافظة كانت الدرع التي وقّت هذه الأمة من شرور عصور الركود وما جرى فيها وما أعقبها من احتلال أجنبي . وتلك هي الحقيقة الأولى التي نريد أن ننبه إليها الأدهان ، وهي أن التدهور والانحلال شحلا السياسة وأهلها دون أن ينالا من كيان الأمة الإسلامية ، من حواضر الهند الشرقية إلى المحيط الأطلسي ومن شبه جزيرة القرم ، إلى أفريقية المديارية ، فقد بقيت هذه الأمة سليمة وإن بقيت مغلقة على نفسها تعاني من الفقر والجهل آلاماً متظاولة .

وما دام هذا التدهور سياسياً في حقيقته فسنحاول أن نستبين أسبابه الرئيسية :

من البدهي أن التدهور لم يطرأ على دول الإسلام في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، بل هو بدأ قبل ذلك بزمان طويل . ومن المؤرخين من يردون بداية عصور الركود الإسلامي السياسي إلى بداية العصر العباسي الثاني عند نهاية حكم الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ — ٨٤٧ م) تاسع خلفاء بني العباس ، على اعتبار أن الواثق كان آخر الخلفاء العباسيين العظام . ولكن من الحق أن نقرر أن الضعف بدأ قبل ذلك بكثير ، ربما منذ قيام الدولة العباسية ، لأن هذه الدولة — رغم صحامة مظهرها — لم تكن دولة فتوح أو توسع أو سير إلى الأمام بالرسالة الإسلامية الكبرى ، فهي لم تضيف إلى رقعة مملكة الإسلام شيئاً ، وكان ههنا المحافظة على الموحدة ، ومن المعروف في التاريخ أن الدولة التي لا تنمو لا بد أن تتقهقر .

وكان العباسيون مشغولين بمصالح يبتغونها إلى درجة صرفتهم عن مواصلة رسالة الإسلام والتوسع ، ومن المعروف أن الله بعث محمداً ﷺ — بالإسلام ، لكي

يشمل الإنسانية كلها شيئاً فشيئاً ، وفي هذا الاتجاه سار الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية . فبينما نجد الأمويين في أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان يتفقون أكبر جانب من أموال الدولة على الفتوح في المغرب والأندلس وبلاد الأتراك وما وراء النهر ، نجد أن بني العباس يسقطون الفتوح من حسابهم تماماً ، فلا فتوح ولا توسع .

حتى آسيا الصغرى — وكانت على أبواب خلافتهم يربض فيها عدو خطر هو الدولة البيزنطية — لم يفكر العباسيون في أن يزيلوا هذه الدولة البيزنطية ويفتحوا أمام الإسلام أبواب الانتشار في شرق أوروبا . وكذلك لا نجد العباسيين يتفقون أموالاً على إنشاء مبان أو منشآت كذلك التي أنشأها الأمويون وزينوا بها عواصم دولة الإسلام ، وفيما عدا العناية بقتوات العراق والطريق من بغداد إلى الحجاز وتجهيد مسجد الرسول — ﷺ — في المدينة لا نجد للعباسيين إنفاقاً يذكر في مرفق عام . تقول هذا ونحن نعلم أنهم أنشأوا بغداد ، ورعوا حركة علمية كبرى ، ولكنهم أنشأوا بغداد — في الحقيقة — لتكون حصناً لهم ، فهي تدخل بين الأعمال التي قاموا بها لحماية بيتهم ودولتهم ، ومجد بغداد لا يرجع إلى جهد قام به العباسيون وإنما الفضل فيه يرجع إلى حيوية أمة الإسلام وجهدها الحضاري الفكري ، والمأمون لم يصنع الازدهار الفكري في عصره ، بل أمة الإسلام هي التي جعلت المأمون ما هو في التاريخ ، وهي خالقة كل ازدهار فكري عرفته في تاريخها .

وكان معظم إنفاق العباسيين على قصورهم وشئون معاشهم هم ومن حولهم ، وكذلك على جندهم المرتقة سواء كانوا عرباً أو إيرانيين أو أتراك . وهذا الجيش العباسي الضخم لم يكن له عمل إلا حماية الدولة وأصحابها ، ولهذا كان العباسيون يتركون جندهم يحتنون على الناس دون أن يضربوا على أيدي أفرادهم في حزم ، لأن جندهم كانوا في حسابهم أهم من رعيبتهم .

ولم تكن لهذا الجيش الكبير من وظيفة إلا تأمين الملك لبني العباس والقضاء على منافسيهم ومن يهددون عرشهم ، فإن جهود هذا الجيش لم تعد هذه الوظيفة المحددة إلى حماية الحدود كما ينبغي . ففي نواحي أقصى الشرق مثلاً كانت حدود الدولة فرسية لعنوان الأتراك في كل حين تقريباً ، وفي أقصى الغرب انتهى العباسيون بأن تركوا الحكم لأسرة إقطاعية محلية هي أسرة الأغالبة ، ولم تكن للعباسيين حاميات

على الحدود في جنوبي مصر ، أما الحدود التي اهتم العباسيون بحمايتها فهي حدودهم مع الدولة البيزنطية ، وكان هذا أقل ما ينتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة في واقع الأمر ، وهذا هو الذي حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر في نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قواده على شؤون الدولة جملاً من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزقة ، وهو الذي شل نشاط دولة بني العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صنائع في أيدي الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت في حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصاً في النواحي المالية ، فإن نظام الدولة المالي كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالعدالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يسد به الحكام مطامع الجنود ، ومن منتصف العصر العباسي نجد أن وظيفة النظام المالي للدولة العباسية هي دفع رواتب الجنود وتغطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفي زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة في حالة إفلاس .

ولقد أتانا المؤرخون ببعض الأرقام عن جباية الدولة في عصور المأمون والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المتصرف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتاب » لابن عبدوس الجهمي ، أو كتاب « الوزراء » خلال الصافي ، نبين أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجري — كانت تعاني إفلاساً كاملاً ، وكانت مهمة الوزراء هي الاجتهاد في موافاة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التي كانت تعانها الدولة العباسية — وهي الأزمة التي انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية في أساسها ، وعلى صخرة المشكلة الاقتصادية تحطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وعجدهم وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أي نصيب في الحكم معه . حقاً كان الأمويون أيضاً مستبدين بأمور

على الحدود في جنوبي مصر ، أما الحدود التي اهتم العباسيون بحمايتها فهي حدودهم مع الدولة البيزنطية ، وكان هذا أقل ما ينتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة في واقع الأمر ، وهذا هو الذي حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر في نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قواده على شئون الدولة جملاً من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزقة ، وهو الذي شل نشاط دولة بني العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صنائع في أيدي الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت في حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصاً في النواحي المالية ، فإن نظام الدولة المالي كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالعدالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يسد به الحكام مطامع الجنود ، ومن منتصف العصر العباسي نجد أن وظيفة النظام المالي للدولة العباسية هي دفع رواتب الجنود وتغطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفي زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة في حالة إفلاس .

ولقد أتانا المؤرخون ببعض الأرقام عن جباية الدولة في عصور المأمون والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المنصرف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهمياري ، أو كتاب « الوزراء » لخلال الصافي ، نتيقن أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجري — كانت تعاني إفلاساً كاملاً ، وكانت مهمة الوزراء هي الاجتهاد في موافاة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التي كانت تعانيها الدولة العباسية — وهي الأزمة التي انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية في أساسها ، وعلى صخرة المشكلة الاقتصادية تحطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وعظمه وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أي نصيب في الحكم معه . حقاً كان الأمويون أيضاً مستبدين بأمور

الحكم ، ولكن أبولهم كانت مفتحة لمن يريد أن يتحدث إليهم أو يتقدمهم أو يوجه إليهم النصيح من رجال الأمة ، ونذر أن غضب الأمويون على رجل أو آذوه لأنه انتقدهم أو وجه إليهم نصيحة ، إلا إذا كان الناقد منافساً سياسياً ، فهنا كان الأمويون لا يعرفون رحمة ، مثلهم في ذلك مثل أهل الحكم جميعاً في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من الطابع الإسلامي العام للدولة العباسية ، فإن الأمة لم يكن لها نصيب في الحكم على أيهم ، وبخاصة بعد أيام المأمون ، عندما أصبح قصر الخلافة قصراً ساسانياً ، يسيطر عليه أجناب من غير العرب ما بين فرس وأتراك وغيرهم ، هنا يتجلى لنا الانفصال التام بين الحاكم والحكوم ، وهو الانفصال الذي أشرنا إليه في الباب الأول من هذا البحث ، وقلنا إنه كان من أؤكد أسباب تدهور الدول الإسلامية .

وقد وقفنا هذه الوقفة عند الدولة العباسية لسيين : أولهما أنها استمرت تحكم عالم الإسلام — ولو بالاسم — حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، وخلال القرون الخمسة التي عمرتها لم تدخل أي إصلاح أو تعديل جوهري على نظام الحكم الذي سارت عليه ، أما ما حدث من تغير شكل الحكم نتيجة لضعف الخلفاء وما تبع ذلك من انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي قادتهم العسكريين ، ثم تنازلهم عن الحكم الفعلي لرجل له قوة عسكرية تمكنه من الثبات في مركزه وفرض سلطانه على الجنود . فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور نظام الحكم ، ولا يمكن القول بأنه كان تطوراً أو تعديلاً للنظام التقليدي القائم .

لقد حدث ذلك في عهد الرازي (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ — ٩٤٠ م) وهو الخليفة العشرون من خلفاء بني العباس ، وقد سمى ذلك الحاكم بأمره دون الخليفة بأمر الأمراء ، ومن ذلك الحين تحولت الخلافة العباسية إلى نظام رمزي لا يملك ولا يحكم وإنما هو رمز لوحدة أراضي الخلافة ووحدة أمة الإسلام . والواقع أن الدولة العباسية كانت قد تلاشت قبل ذلك بزمان طويل كقوة سياسية فعالة ، واستبد بنواحي الدولة مستبدون عسكريون محليون ، ولكنهم كانوا يسرون على نفس القواعد الاستبدادية التي سار عليها العباسيون في الحكم .

أما السبب الثاني لوقوفنا هذه الوقفة الطويلة بعض الشيء عند الدولة العباسية ، فهو أنها كانت المدرسة التي تخرج فيها أولئك المستبدون المحليون في كل ناحية من

نواحي الدولة ، وهذه المدرسة كانت بدورها امتداداً لنظام الحكم الساساني القديم الذي كان يقوم على تركيز السلطان كله في يد كسرى وإطلاق يده في دماء الناس وأموالهم دون أن يحاسبه أحد على ما يعمل ، فيعتدى على أرواح الناس وأموالهم وحررياتهم وكراماتهم باسم الدولة والنظام ، ويعتمد في الحكم على قوة عسكرية خاصة به من المرتزقين . وهذه القوة العسكرية لا تبالى بما تفعل بالناس — مواطنين وغير مواطنين — في سبيل إرادة الحاكم . ويتولى الحكم في نواحي الدولة ولاية مستبدون يحكمون على طريقة مولاهم من عسف الناس والتعدي على أموالهم وأرواحهم .

وقد ارتد العباسيون إلى هذا النظام من يوم ظهرت دولتهم ، وساروا على ذلك المنهج بخلافه على الرغم من علمهم بما آل إليه أكاسرة الساسانيين نتيجة لاتباعهم إياه ، ومن هنا فإن النظام العباسي كان خطوة إلى الوراء في تاريخ النظم السياسية ، وهو من بعض الوجوه محاولة لبعث العصور القديمة في ثوب إسلامي ، ومن ثم فهو قد ولد ميتاً من أول أمره ، وهذا هو السبب في المشاكل والأزمات التي واجهتها الدولة العباسية ، حتى في أيام الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين . وقد حاولت أمة العرب — بكل ما تسر لها من وسائل — أن تبعث في هذا النظام العباسي روحاً ، فاجتهد العرب من رجال الدولة العباسية في الحفاظ على خصائص الفحولة العربية في الدولة ، وتقدم أولو الرأي والمشورة من علماء المسلمين بخير ما عندهم ، ونشط أهل العلم والفكر في العمل والبحث والإنتاج ، ونشطت الأمة كلها في ميادين العمل ، فساد بلاذ العالم الإسلامي وزانها رواء وصل بها إلى إزهار القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ولكن قواعد الحكم التي سار عليها خلفاء بني العباس وطبقها وزرأوهم — وغالبيتهم من الفرس — لم تلبث أن أوقفت عجلة التقدم ، ومن أكبر أخطار نظم الحكم السيئة أن عيوبها تزداد مع الزمن ، وأعباءها على الناس تنفل يوماً بعد يوم . وإذا كانت الشعوب في النظم الاستبدادية تخضع أول الأمر لمستبد واحد ، يحتمل لأنه واحد ، فإن رجال الحاكم ومعاونيه يتحولون مع الزمن إلى مستبدين على طراز سيدهم ، كل مستبد في ناحية سلطانه وعمله . وهم يتكاثرون في سرعة نظرد مع اطراد ضعف الدولة ، فيفشل العبء على الناس ، وشيئا فشيئا يعجزون عن حمل

العيب، فيبطئ حركة المجتمع رويداً رويداً، ويترأخى الإنتاج حتى يقتصر على الضروري، ويعجز الفقير على المجتمع كله، ومن الفقر تأتي كل المصائب.

وهذه بالضبط هي حقبة الدول الإسلامية التي تكون أصحابها في مدرسة الحكم العباسي الذي ذكرناه، وسواء كانت الدولة في شرق مملكة الإسلام أو في غربها، وسواء ظهرت في القرن الثامن الميلادي أو الثامن عشر الميلادي، فإن هذه صورتها وذلك نظامها وهذا هو مصيرها. وقد وقفنا عند الدول الإسلامية التي ظهرت في مطالع العصر الحديث وأعطينا بعض التفاصيل عنها، لكني يسئني القارئ أيها — كلها — كانت من هذا الطراز: دولا استبدادية لا تحسب للشعوب أي حساب في نظامها أو أعمالها، ونظماً سياسية ليس لها أي أساس دستوري أو سند قانوني أو تنظيم اقتصادي، ومن هنا فإن عوامل موتها كانت تولد معها. وقد رأينا أن الكثير من هذه الدول كانت دولا مجيدة قامت بأعمال جديدة. فلا شك في أن دول الأتراك العثمانيين والصغويين والمماليك ومغول الهند والسعديين كانت دولا عظيمة قامت بأعمال باهرة، ولكنها تحطمت على صخرة النظم الاستبدادية الفاشية التي لا تعرف شعوبها ولا تقيم لحرية الناس ودمائهم وكراماتهم وأموالهم حساباً.

هذا هو الفارق الرئيسي بين الدول التي كانت تحكم في الشرق، والدول التي كانت تحكم في الغرب الأوروبي في القرن الخامس عشر الميلادي وما يليه مثلاً، فقد كانت دول الغرب كلها في ذلك الوقت دولا استبدادية فعلاً، ولكن الاستبداد فيها لم يكن مطلقاً ولا غاشماً كما كان في الشرق. فسواء في إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا فإنه كان إلى جانب الملوك رجال أقوياء، سواء في العاصمة أو الأقاليم، يحدون من سلطانهم ويرغمونهم بالرأي أو القوة على أن يضعوا حدوداً لسلطانهم، وقد قامت بين أولئك الرجال والملوك حروب طويلة انتهت بالفعل بتقييد سلطان الملوك، وإفساح مجال واسع إلى جانبهم لناس لهم حق في إبداء الرأي والاعتراض على الظلم.

وفي كثير من الأحيان انتهى النزاع بين الدول الغربية ومنافسها إلى ظهور بيوت حكم في التواحي تمثل مقاومة إقليمية تنصر على أن يكون لها نصيب في تسير شؤون نواحيها، وهذه الحدود والقيود التي وضعت على السلطان هي أسس الدساتير، وهؤلاء المنافسون لسلطان الملوك في الغرب كانوا هم أيضاً أصحاب طموح إلى السلطان

أيضاً نشأ القانون المدني وقامت الطبقة الوسطى ، وهى أساس التقدم وخميرة الشعوب ، وكل ذلك بحماية الملوك وتأجيلهم لأهل المدن ضد منافسيهم من أمراء الإقطاع ، ولهذا فإننا نجد الملوك وراء كل نهضة فى عالم الغرب ، فى حين لا نجد أن هذه القاعدة تصدق فى الشرق إلا فى حالات قليلة ، وكلامنا هنا ينصب على الماضى دون الحاضر .

وكل ما يمتاز به الغرب على الشرق اليوم — فى مجالات العلوم والنظم العامة والوعى العام — إنما نشأ فى المدن ، ومنها امتد حتى شمل الأوطان بأسرها . وقد ظهر تفوق الغرب على الشرق أول ما ظهر فى ميادين الحرف والصناعات والثروات القومية ، وبينما كانت دول الشرق تقوم ثم تهوى وتزداد القطيعة بينها وبين شعوبها اتساعاً ، كانت دول الغرب تزداد قوة يوماً بعد يوم ، وتزداد الروابط بين ملوكها وشعوبها . أى أنه فى الوقت الذى بلغت الفوضى السياسية أقصاها فى دول الشرق ، كانت دول الغرب تخرج من تلك الفوضى شيئاً فشيئاً ، وقد تعلمت دروساً نافعة ومرت بتحارب لها قيمها ، فى حين لم تنتفع أمة الشرق بتجاربها ، لأن هذه التجارب نفسها كانت تجارب عقيمة ، إذ هى فى مجموعها سلسلة مملة حزينة من تحارب الاستبداد والظلم وإذلال البشر .

ومن هنا يرى كيف كان لقاء نظم الغرب ونظم الشرق لقاء بين شباب وشيوخوخة ، بين نظم قوية حية ونظم بالية فاسدة منهوكة القوى . وقد بينا ذلك صراحة من الصراع الذى احتدم بين المسلمين وغير المسلمين فى البحر الأبيض المتوسط وساحل المحيط الأطلسى ، فى المغرب وفى بحار الهند .

وقد أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ظاهرة انقطاع الاتصال بين الحاكمين والمحكومين ، وقلنا — وهذا رأى مفتوح للمناقشة — إن فتنة عثمان وما أعقبها من انتقال الخلافة إلى بنى أمية ، كان صدمة عينية هزت وجدان المسلمين جميعاً وألقت فى روعهم أن الفتنة واختلاف الناس والتنازع والحروب بين المسلمين لا يمكن أن تؤدى إلى خير ، وأن خير ما يقوله المسلم إذا ثلثت الفتن بين المتنازعين هو أن يتعدى عن الميدان و « يكسر سيفه » كما يقولون ، فلا يجد فى الفتنة يداً ولا يشارك فيها بشيء ، كما فعل سعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرها .

ولا شك كذلك في أن كثيراً من أتقياء المسلمين لم يصدقوا ما رأوا من استعارة الحرب بين الصحابة ، واعتقدوا أن ذلك هو السبب في انتقال الأمر إلى معاوية وآل بيته . ولهذا فقد أجمعت غالبية المسلمين عن الانضمام إلى الخوارج ، على الرغم من أن المعتدلين من هؤلاء كانوا ينادون بالحق ويدعون المسلمين في إحلاص إلى العودة إلى القواعد التي كانت جارية أيام الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر وعمر ، ولم يقعد جمهور الناس عن الانضمام إلى فرق الخوارج هذه إلا خوفاً من أن يؤدي الشر القائم إلى ما هو أسوأ منه إذا مضى المسلمون بخاريون بعضهم بعضاً . وإلى هذا يرجع تسليمهم لمعاوية بالرئاسة ، فهم لم يروا عن معاوية ، ولا سلموا بأن له الحق في الخلافة ، ولكنهم رأوا أن التراضي على رحل وسكون الفتنة هو في ذاته خير ، فاجتمعت الكلمة على معاوية وسكنت الفتنة وقام أمر بني أمية .

ولكن أمر بني أمية قام على يأس من المسلمين شديد ، فما سعد الناس بمعاوية ولا أحبوه ، ولا أحبوا أحداً ممن جاء بعده . ولا شك في أنه هو كان يعرف ذلك ، فقتنع بالخلافة ولم يحاول أن يستجلب رضا الناس لأنه كان يأس من ذلك ، وكان يحس أن الناس لا يرضون به عن تسليم أو إيمان ، وإنما عن يأس وسوء ظن بالدنيا وبالسياسة .

ولطالما تحملت الناس عن « حلم » معاوية ، والحق أن الكلام عن « حلم » أمية العرب أولى ، فإن معاوية ما كان يستطيع الحكم إلا إذا كان حليماً محتجلاً وصبوراً ، ولو لم يكن كذلك لما بقي في الخلافة شهراً ، لأن العرب كانوا في عموامهم ، وكانوا قديريين على أن يطيحوا به وبآله ، ولكنهم خافوا مغية الفتن والحروب ، فأرسلوا حبال العير طويلاً ، واعتصموا بالإيمان والتقوى وتركوا الأمور تجري ، والفتنة أشد من القتل قطعاً .

أما الأثر العميق الذي نتج عن ذلك فهو الشعور العام بأن الحكم غصب واستبداد ، وأن الحكام إنما هم طوائف من الطامعين في السلطان الطامعين إلى مغائمه ، ويغلب منهم وينجز السلطان أشدهم مكرراً أو دهاء وأبغضهم عن التقوى ويقظة الضمير . وما زاد الأمر سوءاً أن بني أمية للمشاركة^(١) لم يحاولوا قط أن يكسبوا

(١) تمرد لهم من بني أمية الفريرين الذين حكموا في الأندلس .

الشرعية لحكمهم ، ولا صحووا مع الناس حواراً ، إنما كانت طريقتهم في علاج مشاكل السياسة هي قطعها . فإذا ناصبهم في الأمر عبد الله بن الزبير فلا مجال للكلام والمناقشة أو التحكيم وإنما العلاج في رأيهم كان استئصال ابن الزبير وأتباعه جملة . وإذا ثار عليهم المختار بن عبد الله الثقفي فلا حل للمشكلة إلا بقتله . وإذا شكوا عرب العراق إلى المجاج متاعبهم التي تقعد بهم عن الخروج لقتال الخوارج ، كان رده عليهم العنف والفسوة والإهانة والسب .

ولم يحدث في التاريخ أن أحل حاكم لنفسه سب رعيته علناً على المنابر واتهامهم إلا في أيام بني أمية هذه ، وإنما لقرأ اليوم خطب المجاج — وبعضنا يتخذها نماذج في البلاغة ، وهي في الواقع كذلك — ومهما افترضنا فيها من البالغة ، فهي تصور لنا أحقر موقف وقفه حاكم من محكومين . وما كان أهل العراق إلا عرماً من أصول عربية ، وما كانوا يقلون عن أهل الشام — وهم عرب أيضاً — لا في شجاعة ولا حمية ولا عراقة نسب ، وكانوا قديرين على أن يقوموا بمثل المهد الذي قام به جند الشام ، ولكن رجال بني أمية لم يحاولوا فهم مشاكل عرب العراق ، ولا هم كلفوا أنفسهم عاء البحث في موضوعهم والخلوس إليهم والاستماع إلى كلامهم والأخذ بالرد معهم ، وإنما هم لحأوا إلى الصف حاسين أن السيف يحل كل مشكلة ، وأن هيئة الحكم تقوم بث الرعب في النفوس ، فصاروا لا ينهض لهم معارض إلا حاولوا القضاء عليه بالقوة ، وفي هذا الطريق أوقعوا بين العرب خلافات وحزازات ، وملأوا قلوبهم أحقاداً ، حتى تقاتل العرب في نواحي الدولة تقاتل العراء ذوى الحقد العميق ، وانتهى الأمر بإنهاء قوى الجميع وعندما تولى أمر الدولة مروان بن محمد الجعدي (١٢٧ — ١٣٢ هـ / ٧٤٤ — ٧٤٩ م) — وكان من الموهوبين من بني أمية — لم يستطع شيئاً واكتسحته قوات أبي مسلم كما يجرف السيل كل مانجده في طريقة ، وحقيقة الأمر أن دعاة بني العباس لجأوا إلى نفس طريقة بني أمية — وهي طريقة السيف والقوة — في صراعهم مع الأمويين ، وفاقوهم في ذلك السبيل فاستأصلوهم استئصالاً .

وقامت دولة بني العباس وسط آمال عراض وانتظار لكثير من الخير ، واشترأت النفوس إلى عودة الأمور إلى الشورى ، حتى تعود الأمة إلى ممارسة حقوقها الطليعة في المشاركة في الحكم ، ولكن العباسيين صارحوا الناس في أول يوم لخلافتهم بأن السلطان لهم وحدهم لا يشركونهم فيه أحد ، يسوسونه بسلطان الله الذي أعطاهم

كما قال أبو العباس السفاح ، فحابت الآمال وأيفن جمهور المسلمين ألا سبيل لهم إلى ممارسة السلطان في دولتهم أبداً ، وتحول طموح الراغبين في السلطان من أفراد الأمة إلى ميدان العلم يحاولون عن سبيله الوصول إلى نصيب من القوة والجاه ، وحرجت الأمة من ميدان السياسة حملة ، وأصبحت رعية تساس كما يساس الراعى عنمه ويتصرف فيها كيف يريد . واستمر الانقطاع الواسع بين الجماعة والدولة ، وأصبحت السلطة أمراً خاصاً بجماعات من المتنافسين ممن تؤيدهم قوة عسكرية ، وقد تكون هذه القوة من أهل البلاد ، وربما لا تكون ، إذ المهم هو أن تكون مخلصه لصاحب السلطان الذى يأمرها ، أما أفراد الأمة فهم أعداء هؤلاء الحد المرتزقة ، فهم لا يعرفون الجند ولا الجند يعرفونهم ، والعلاقة بين هؤلاء وهؤلاء هى علاقة الصيد بالصائد الذى يترصده ليرديه .

ومن المعروف أن الأحوال السيئة إذا لم تصلح فلا بد أن نريد سوعاً مع الزمن ، فهذا النظام السياسى الأموى — ثم العباسى — سارت عليه كل الدول التى حانت بعدهم ، وهو في كل حالة يسوء وتتضح عيوبه وتشتد وطأته على الشعوب ، ولا يزال الأمر يزداد سوعاً حتى يصل إلى الركود السياسى والاقتصادى . وإنما أطلنا الوقوف عند هذه النقطة حتى لا يظن طان أن الانحدار بدأ من أوائل العصر العباسى الثانى — أى من منتصف القرن العاشر الميلادى — عندما سيطر العسكر المرتزقة على أمور الخلافة ، بل إن له أصولاً أعمق وأبعد .

والركود الذى ساد مجتمعات المسلمين منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، إنما بدأ منذ انتقال الملك إلى بنى أمية ، وانتقال السلطان من جماعة المسلمين (كما هو المفروض أن يكون في المجتمع الإسلامى) إلى فئة من الأقوياء المستبدين ، وتصر فهم في أمور الناس دون نظر إلى رأى أولئك الناس أو احتفال بما يريدون أولاً يريدون ، فإن الحكم على هذه الصورة أصبح اختصاصاً ، ومهما حاول أصحابه أن ينحروا العدل فهم غاصبون . ولم يكف المسلمون قط عن الشعور بأن حكامهم غاصبون ، ومظهر هذا الشعور هو هذا الحنين إلى أيام أفى بكر وعمر ، أيام كان الأمر بيد الجماعة الإسلامية ، أيام كان الحكم سائراً في الطريق التى رسمها رسول الله — ﷺ — وسار فيها الشيوخ من بعده ، أيام كانت الجماعة الإسلامية سيدة نفسها ، وليس فوق هذه الجماعة سيد إلا الله . لهذا نجد أن عبد الملك بن مروان — مثلاً — كان يكره

أن يتحدث الناس عن عمر ، وكان لا يستريح لسماع ما يخكى عن عدله ، لأن عبد الملك بن مروان كان يعرف ويحس في نفسه أنه غاصب ، وأن ذكرى عمر تظهر للناس أنه غاصب ، وهذا أمر لا يريد أن يهدم سلطانه للعصوب .

والركود الذى نتحدث عنه إنما هو نتيجة للغصب المستمر لحقوق الجماعة ، واستبداد طوائف من العتاة بأمور الناس واستعانتهم عليهم بالجند المرتزقة الأحانب ، وليس بغريب في هذه الحالة أن نجد الخلفاء والملوك جميعاً — بعد عصر الراشدين — يستعينون علياً بالجند الأحانب المرتزقة ، لأن الحكم كان لا يدور لمصلحة الرعية بل لمصلحة أصحاب العرش ، فهم يؤمنونه بالجند الأجانب ، ومعنى ذلك أن مصالح الجماعة الإسلامية كانت تهمل في كل مكان ، وأن الحكم كان يعتسف طريقه باحتيا عما يؤمنه ويقوى قبضته ، بالاستزادة من المال ثارة ومن الجند ثارة أخرى ، وفي النهاية يهد نفسه بعيداً جداً عن الناس الذين يحكمهم . وهذا لا يكون له مفر من السقوط ، لأن الحاكم — كأي شيء في الوجود — لا بد أن تستقر قدماء على شيء حتى يشعر بالتوازن ، فإذا انعدم هذا الشيء انعدم التوازن ولم يكن من السقوط محالة .

وإذا كانت هذه هي حالة دول المسلمين عامة — وقد رأينا تفاصيل بعضها — فمعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية كانت في غالب الأمر تعيش دون حكومة ، وإذا كان الأب لا يرعى ولده فهذا الولد واليتيم سواء . والحق أن أمور الناس كانت فوضى بصورة دائمة ، وقد اجتهدت الجماعات الإسلامية في تنظيم أمورها على النحو الذى رأيت ، ولكن هذا الاجتهاد كان لا يغطى إلا مشاكل اليوم الحاضرة ، أما مصير الجماعة كلها فلم يكن هناك في غالب الأحوال من يفكر فيه ، ولهذا كان أمرها في تدهور مستمر ، وما نسميه نحن بالركود معناه أن مجتمعاتنا وصلت إلى قرارة الهاوية واستقرت هناك دون حركة . وبالفعل فإنك عندما تقرأ وصف بلد إسلامي مثل مصر في نهاية عصر الركود تجد نفسك أمام صورة مفزعة حفا ، وأمامك وصف وليام لين William Lane للمصريين في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما بدأت محاولة النهوض الأولى . سنشعر وأنت تقرأ بأنك أمام ناس يهيمون على وجوههم في الطرقات دون أن يروا شيئاً ، أمام ناس في حالة ذهول عن الدنيا وما فيها ، تنبحة للعقر الغالب والجوع الكافر والجهل المطلق والظلم المزمن الذى قضى حتى على الإحساس بالعدالة ، وأطفأ ذبالة الأمل في نفس الأحوال .

الركود إذن كان نتيجة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإنكار الشورى ، وقيلم الحكم على أساس الغضب والعنف . لأن الحكم الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى القواد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وحيه الرخاء والرفاهية ، وخنق كل مظاهر الفكر ، وسرى بعد قليل أن هذا الفكر ظل — يرغم كل شئ — حياً ينتظر فرصة البعث ، وإن تمددت آفاقه وضائق مجالاته .

ولما كانت المدن هى مظهر رخاء الجماعات وغناها ، فقد انصب عليها مظالم الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، ومثلوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عنت بالمدن وأهلها ، واتخذت من تجارتها وصناعاتها وأهل اليسار فيها أسلحة ترمى بها عروشها فأفادت العروش وأفادت المدن ، وزادت رخاء وزاد تجارتها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدن التى ينشئها العرب ينتهى أمرها إلى الاضمحلال ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكفيلة بتبثته وسائل الحياة لها ، وأهمها الموقع الجغرافى المناسب ، وضرينا مثالا لذلك البصرة والكوفة وما إليها . وصاحب هذه النظرية هو ابن خلدون ، وهى نظرية خاطئة ، لأن الحراب لم يشمل الكوفة والبصرة فحسب ، بل أصاب مدد البلاد الإسلامية جميعاً ، ففى العصر العباسى الثانى كانت مدنتنا كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى ازدهرت ازدهاراً ظاهرياً فى العصور الفاطمية والأيوية والمملوكية ، لم تلبث أن اضمحلت وغول الكثير من أحيائها إلى حرائب . والإسكندرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يزد سكانها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد النظم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد النظم فقد قضى على الأمان ، وبدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بينما كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جزيرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين المماليك وبكواتهم يبنزون من أهل القاهرة آخر ما يملكون . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاضمحلال المدن فى العصور الإسلامية المتأخرة .

الركود إذن كان نتيجة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإنكار الشورى ، وقيام الحكم على أساس الغصب والعبث . لأن الحكم الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى القواد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وجوه الرخاء والرفاهية ، وحق كل مظاهر الفكر ، وسرى بعد قليل أن هذا الفكر ظل — برغم كل شيء — حياً ينتظر فرصة البعث ، وإن تمددت آفاقه وضائق مجالاته .

ولما كانت المدد هى مظهر رخاء الجماعات وعناها ، فقد اتصبت عليها مظالم الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، ومولوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عنت بالمدن وأهلها ، وانخذلت من تجارها وصناعها وأهل اليسار فيها أسلحة تسمى بها عروشها فأفادت العروش وأفادت المدن ، ورادت رخاء وزاد تجارها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدن التى ينشئها العرب ينتهى أمرها إلى الاضمحلال ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكفيلة بنهضة وسائل الحياة لها ، وأهمها للموقع الجغرافى المناسب ، وضرينا مثالا لذلك البصرة والكوفة وما إليها . وصاحب هذه النظرية هو ابن خلدون ، وهى نظرية حافظة ، لأن الخراب لم يشمل الكوفة والبصرة فحسب ، بل أصاب مدن البلاد الإسلامية جميعاً ، ففى العصر العباسى الثانى كانت مدنها كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى ازدهرت ازدهاراً ظاهرياً فى العصور الفاطمية والأيوية والمملوكية ، لم تلت أن اضمحلت وتحول الكثير من أحيائها إلى حرائب . والإسكندرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يزد سكانها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد النظم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد النظم فقد قضى على الأمان ، وبدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بينما كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جزيرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين المماليك وبكواتهم يبتزون من أهل القاهرة آخر ما يملكون . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاضمحلال المدن فى العصور الإسلامية المتأخرة .

مجتمع فقير تسوده أخلاق الفقر :

إن الآراء التي عرضناها كافية لتصوير الركود الذي استحكم في عالم الإسلام ، وعلى بصورة حطيرة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، واستشرى فيما تلاه . وقد مررنا — في إجمال — بأسبابه ، وتبعناه إلى أصوله البعيدة على قدر ما سمح به المجال .

وقد رأينا أن التدهور كان — في الحقيقة — تدهوراً سياسياً ، أي أنه شمل أهل الحكم والنظم التي ساروا عليها ، وسار مع التدهور السياسي تدهور اقتصادي . وقد رأينا أن نظم الحكم العاسي — وما شأ على غرارها من الأنظمة — كانت ذات أثر سيئ على الأوضاع الاقتصادية ، فلم تلت هذه الدولة أن أفلسست واستدارت على شعوبها تعتدى على أموالها . وقد وصل الأمر إلى سرقة أموال الناس سرقة صريحة باسم المصادرات والمقاسمات ، ولقد بلغت الأموال التي صودرت من الناس أيام الخليفة الراضى ٥,٤٢٢,٣٠٠ دينار و ٦,٠٤٠,٠٠٠ درهم ، وهذه أرقام لا تصدق .

وفي ظل حكومات تعتدى على الأموال على هذه الصورة لا مفر من تردى الشعب كله بين مرائث الفقر ، وقبل الغزو العثماني لمصر والشام بلغ استصفاء الممالك لأموال الناس درحات لا توصف بشاعة ، ولم يكن هناك أضر على أموال الناس من جيوش الخلفاء والسلطين وأدعياء العروش والناشرين على السلطان المركزي . فقد كانت هذه الجيوش تهب البلاد سياً ذريعاً بصورة دورية تقريباً ، ومدد البلاد الإسلامية الكبرى من دهلي إلى رباط الفتح على شاطئ المحيط الأطلسي خربتها جيوش الحكام مرة بعد مرة ، وكذلك تهدمت القرى وتحرفت الزروع في الأرض وقطعت الأشجار ، وأهلكت الحروب البلاد والعباد .

والفقر — كما هو معروف — لا يلد إلا الفقر ، ومن مجتمع فقير لا يتأتى أي خير ، لأن الفقر يجلب معه رذائل شتى ، من سقوط المهيم وفساد الأخلاق والجهل والمرض وصياح المستويات واعداد المعايير وعندنا مثل يقول : « الجوع كافر » ، وهذا حق ، لأن الجوع ليس محض الشعور بالحاجة إلى الطعام بل هو حالة نفسية نجعل الإنسان ينصرف تصرف الخائف المنهوم ، حتى ولو كان لديه ما يأكله ، وفي المجتمعات التي تسودها نفسية الفقر نجد الناس جميعاً يتخلقون بأخلاق الجياع ، حتى

الحاكم وصاحب الأمر تراه يهتف ويعتدى دون حياة ، لأنه وإن لم يكن رجلاً فقيراً إلا أنه تسيطر عليه روح الفقر وأخلاقه .

الركود الفكرى :

والآن وقد عرضنا لنواحي الانهيار السياسى والتدهور الاقتصادى ، وما نتج عنهما من نشوء أجيال فقيرة ترزح تحت كاهل نفسية الفقر وأخلاقياته ، وما ينجم عن الفقر من جهل وخوف وبعد عن الشعور الإنسانى ، نريد أن نلقى نظرة على ما نتج عن ذلك كله مما يوصف بأنه تخلف فكرى .

وتهمنا هذه الناحية لأن العادة جرت عندنا على الاقتصاد فى تصوير الركود على ناحية الإنتاج الفكرى ، فالباس يقولون إننا كنا فى عصور ركود لأن مجتمعنا لم يعد يخرج رجلاً مثل الجاحظ أو ابن المففع أو أى الحسن المسعودى أو أى تمام أو البحرى ، وليست هناك فكرة شائعة هى أوغل فى الخطأ من هذه الفكرة .

ذلك أن الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى لم يصل أذاماً إلى عالم الفكر إلا فى العصور المتأخرة جداً ، وعدد عظيم جداً ممن نفخر بهم من أعلام الفكر فى بلاد الإسلام ظهروا فى عصور الفوضى والاضطراب والإفلاس التى مهدت الطريق للركود ، بل ظهر الكثيرون منهم فى عتفوان عصور الركود نفسه .

فالقرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مثلاً كان عصر اضمحلال سياسى بالغ ، فقد بدأ هذا القرن فى أيام الخليفة المقتدر وهو الثامن عشر من خلفاء نبي العباس (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ — ٩٣٢ م) الذى يقول فى حقه ابن طاطبا فى كتاب « الفخرى » (ص ٢٣٥) : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تحليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول ببلذاته ، فخربت المدينة فى أيامه وعلت بيوت الأموال ، واختلقت الكلمة ، فخلع ثم أعيد ثم قتل » . وانتهى ذلك القرن فى خلافة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) وهو الخليفة الخامس والعشرون من خلفاء سبي العباس ، وهو رجل طال عمره فى الخلافة ولكنه لم يحكم قط ، إذ كان السلطان كله قد انتقل إلى بنى بويه ، وكانوا أسرة من الطغاة المستبدن الذين ثلاثى

عندهم كل مفهوم سليم للحق والعدل والأخلاق ، فسقط الحكم وأهله في عصرهم إلى درك سحيق .

خلال ذلك القرن الحافل بأسباب الانهيار والفوضى ظهر أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) شاعر العربية الأكبر الذي قال في تصوير حال قومه مع حكامهم :

وإنما الناس بالملوك ، وما نفلح عُزْبُ ملوكها عَجَمٌ
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
بكل أرض وطنتها أم تُرعى بعد كأنها غم

وفي ذلك العصر أيضاً ظهر أبو فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ - ٩٦٨ م) ، ذلك الفارس الضائع الذي أنفق عمره كله بين أحلام حادثة بعودة محمد ذاهب لن يعود ، وواقع أليم حزين يصوره هو بقوله :

يا حيرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج ، وأولها
وعحمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ / ٩٧٠ - ١٠١٦ م) ذلك العاطفي الحزين الذين أوجز وصف سوء حال قومه في بيته :

ولم أدر أن الدهر يخفض أهله إذا سكنت قهيم نقوس الضراغم
فهل نافعي أن ينصر المجد عزمتي على هذه العلياء والحال ظالم

وأبو العلاء المعري ، أحمد بن عبد الله من سليمان (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م) ذلك العقل الإنساني الهائل الذي حرمة المقادير نعمة البصر ، ولكنه رأى بنور قلبه فوق ما رأى كل المبصرين .

هؤلاء ومن في طبقتهم ظهرت وعاشوا في عصور الانهيار والاضطراب التي مهدت للحمود والركود . ولم تقصر العبقرية الفكرية العربية الإسلامية خلال القرنين التاليين (الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) عندما ازداد متحدر الانهيار العباسي حدة وخطورة ، فظهر ابن الفارض (أبو حفص عمر بن علي المسعودي) شاعر الحب الإلهي الخالد ، وظل شعراء العربية ينشدون شعراً جبلاً حتى اشتدت حلقة الظلام من حولهم ولم يعودوا يرون شيئاً يستحق أن يقال فيه شعر ،

في هذه الظروف المضطربة التي وصفتها ظهر البوصيري (شرف الدين محمد ابن سعيد) وابن الوردى (زين الدين عمر) وصفى الدين الحلى وأمثالهم .

وتظهر لنا حيوية الفكر العربى بصورة أوضح في ميدان العلوم ، مثل التاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والتصوف وعلوم اللغة ، فضلا عن علوم الدين التي ظل المسلمون يتجولون فيها بغزارة حتى خلال القرن الثامن عشر الميلادى الذى وصل فيه الركود إلى أدنى درجاته . وجانب كبير من الأسماء التي يزدان بها تاريخ الفكر العربى ظهرت في هذه العصور ، فالطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) والمسعودى (أبو الحسن على) وابن مسكويه (أبو الحسن على) وأبو نصر الفارافى ، وأبو على ابن سينا ، وأبو حامد الغزالى ، وأبو بكر الرازى ، وغيرهم كثيرون عاصروا انهيار الدولة العباسية وتداعى الإطارات السياسية والاقتصادية في البلاد التي عاشوا فيها . وفى العصر المملوكى المتأخر ، والعصر التركى ظهر كبار الموسوعيين : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البويرى (ت ٧٣٣ هـ) وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) وشهاب الدين أحمد بن على القلقشنندى (ت ٨٢١ هـ) . وفى علوم اللغة ظهر محمد بن عبد الله بن مالك التحوى (ت ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ م) . وفى علوم الدين ظهر تقى الدين أحمد بن تيمية (٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م) . وفى التاريخ ظهر عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) فيلسوف التاريخ الأكبر ، ثم تلميذه تقى الدين أحمد بن على المقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ومعاصروه أبو المحاسن بن تغرى بردى وأحمد بن حجر العسقلانى وشمس الدين السخاوى .

بل إننا نحد أن الإنتاج الغزير في ميدان العلوم التقليدية العربية استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نفسه ، فمن أبناء هذا القرن الحالك الظلام ابن مرتضى الزبيدى مؤلف « تاج العروس » وهو قاموس رائع للغة العربية لا يتصور الإنسان أن مؤلفه رجل واحد توفي سنة ١٢٠٥ هـ أى قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ثمانى سنوات فقط ، لأن هذه الحملة وصلت مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وكان ابن مرتضى الزبيدى عالماً لعوباً حقاً ، إذ كان يتقن الفارسية والتركية .

وإذا أردت أن تأخذ فكرة عن الفرق الشاسع بين مستوى الحاكمين ومستوى شعب العروبة في ذلك العصر ، فاذكر أن حاكم مصر والشام والحجاز في ذلك الوقت ، هو محمد أبو الذهب ، وكان مملوكاً جهولاً غاشماً لا يعرف لا العربية ولا

التركية ولا الفارسية ، وبقيّة أشخاص الحكام — بعده — كانوا على شاكلته ، فلا
أحد من بينهم واحداً يعكس ولو ظلاً باهتاً من حضارة الأمم التي كانوا يحكمونها ،
ونماذجهم معروفة لنا : إبراهيم ومراد — اللذان خلفاه في الحكم — ومحمد الأتقي
وعثمان الوردى وأمثام ، وهؤلاء جميعاً سيتلاشون هباءً عندما تصدمهم قوات
الحملة الفرنسية ، ولن يبقى في الميدان لمواجهة الغزاة إلا الشعب ورجاله من علماء
الأزهر ، من أمثال عمر مكرم ومحمد افندي ومن ورائهم جمهور الناس ، ثم تبين
أن جمهور الناس كانوا أصلب عوداً وأحسن فهمًا لطبيعة الغزو الفرنسى من كل
فادته ، علماء كانوا أو تجاراً .

وأصدق مثال على ذلك الجمهور المصرى الذى قام ثورة القاهرة في ٢٢ أكتوبر
١٧٩٨ م ، وهى أول صدام فعلى بين أوروبا وشعب عربى ، لأن شرادم الماليك
تطاولت عقب معركة الأهرام في يوليو ١٧٩٨ م . ولقد حمل عبد الرحمن الحبرى
على ثورة القاهرة تلك ولعن من قاموا بها ، لأنه هو نفسه كان يمثل عقلية عصر
الماليك برغم علمه واطلاعه الواسع . وعقلية عصر الماليك هى الصورة الأخيرة
والختمية التى كان لا بد أن تصل إليها نظرية الحكم على طريقة العباسيين : خليفة
أو ملك أو سلطان يعتمد على قوة عسكرية أجنبية حاصلة به ، ليحكم بالقوة شعباً
ويغرمه من كل حقوقه السياسية ، ويخرجه من ميدان السياسة والمسئولية القومية تماماً
ليبتز أمواله .

وقد بلغ من تأصل هذه النظرية أنها أصبحت القاعدة الوحيدة المعترف بها
للحكم ، والذى حدث في ثورة القاهرة على الحكم الفرنسى أن جمهور الناس حطم
هذه النظرية وترك أولى الأمر جانباً وتقدم لمواجهة المحتلين ، وقد تمكن الفرنسيون
من القضاء على هذه الثورة ، ولكن الاحتلال الفرنسى ارتج حتى أساسه ، فقد قتل
في الثورة حاكم القاهرة الفرنسى وعدد كبير من ضباط الفرنسيين وحندهم ودخل
الخوف قلوبهم . وهذا هو المهم ، فما دام العدو قد بدأ بخلاف فقد انتفح الطريق
لغزيمته .

لا نريد — مع ذلك — أن نبالغ في تقدير ثورة القاهرة تلك ، فقد كانت أولاً
وآخرأ مجرد انتفاضة ، ولكنها كسرت حلقة مغرقة شريفة ظلت تدور على أُم الإسلام
نحو عشرة قرون ، وعندما انكسرت الحلقة وتوقف السير الدائرى الرتيب ، شعر

أولو الأمر الذين كانوا يتولون الحكم بنوار . هذا الدور هو الذى يعبر عنه الجبرق
فى حملته النعمة على « الرعاى » الذين قاموا بتلك « الموجة » .

من ذلك الحين كثرت « الموحات » فى نواحي العالم الإسلامى ، إنها الثورات
والانفضاض الشعبية التى صغت عالم الإسلام الناهض اليوم ، كل ثورة منها —
مهما كان حجمها ومداها — أحدثت فجوة فى السد المائل الذى كانت شعوب
الإسلام تعيش وراءه خارج عالم السياسة بعيداً عن المسئولية القومية .

ولقد تبين بعد ذلك أن جماهير أم العروبة والإسلام كانت لا تزال تحتفظ بقواها
وسلامة إطاراتها الاجتماعية ، برغم قرون النفى الطويلة خارج ميدان المسئولية
القومية . فعل الرعم من الفقر المدقع وما جره الفقر من جهل وخوف وركود
للفصاف القتالية ، ظلت المجتمعات الإسلامية سليمة فى تكوينها محتفظة بإطارها
الاجتماعية القائمة على الإسلام وأخلاقياته فلم تنحل روابط المجتمع ولم يتهاون الناس
فى قواعد الشهامة والمروعة والأخلاق . ومن دلائل تمسك الناس بمبادئ الدين
وإحساسهم بأنها وسيلتهم الوحيدة للنجاة من الأخطار التى حاقت بهم ، تسليمهم
قيادتهم لرجال الدين فى كل مكان إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ودخول الجماعات
الكثيرة فى سلك الطرق الصوفية وتمسكهم بشيوخها ونظمها . وقد يتعجب بعضنا
اليوم من تمسك الناس بهذه الطرق فى العصور الحالية والتفافهم حول الأولياء
والصالحين — على الرغم مما هو واضح من أن الكثيرين منهم كانوا أدعياء مشعوذين
وطلاب منافع وحيرات باسم الدين — ولكنهم بالنسبة لأعلى هذه العصور كانوا أوتاداً
تثبت إيمانهم وتشعرهم بقدر من الأمان لا تيسر الحياة بدونهم .

الركود إذن كان ركود النظم السياسية ، والإفلاس كان إفلاسها . ولقد أدى
استمرار هذه النظم وفساد أجهزتها إلى إيقاف حركة التقدم ، قبطت حركة المجتمع
وربما توقفت . وقد أخذت هذه النظم — حتى فى أحسن حالاتها — بالنظرية
الأسبوعية القديمة فى الحكم التى تقول إن الرعاية الفقيرة رعاية مأمونة ، فاجتهدت فى
إفقار الشعوب حتى وصلت بجماهير الناس إلى درك الشظف وما هو دون الكفاف .
وبدهى أن الشعب الفقير لا يفكر فى الثورة على ظالمه ، لأن وسائلها غير ميسرة
له . ولقد أمنت نظم الحكم فى العصور الوسطى من سطوات شعوبها ، ولكن الحكام
لم يأمنوا على أنفسهم برغم ذلك ، وقد رلبت فى العرض السريع الذى مررنا به

حالة الفرع والدفاع عن النفس والحروب المتوالية التي عاشوا فيها ، لأنه فاتهم أن الدرع الحقيقية لأى نظام من نظم الحكم ليس الحند المرتزة ولا عتاة الجنود ، وإنما رضا الناس عن الحاكم وافتتاح أبواب التفاهم والحوار بينهم وبه على الأقل . فإذا لم يتحقق ذلك جفت شجرة الحكم من تلقاء نفسها لانقطاع عصارة الحياة عنها ، والأشجار — كما يقولون — تموت واقفة ، ومعظم نظم الحكم في عصور الركود كانت شجرات ميتة وإن ظلت واقفة .



إلى هنا أقف بالكلام .
وكان لابد أن يكون ختام الكتاب فصلا عن النهضة العربية الراهنة ، لأن تاريخ الجماعة الإسلامية لا يقف — بداهة — عند عصر الركود .

ولكنى تناولت موضوع بقطة العالم الإسلامى وتجدد نشاطه وشبابه في كتاب آخر نشرته من سنوات كثيرة ، هو « الشرق الإسلامى في العصر الحديث » ، ولهذا رأيت أن أقف بالحديث هنا ، وأحيل القارئ بعد ذلك إلى هذا الكتاب .

وقد نقاد المهدد « الشرق الإسلامى في العصر الحديث » ، ولكن صلبه ما زال سليما واثقا بحاجة من يريد أن يعرف كيف صحا عالم المسلمين من سباته .

ولنصف إلى ذلك أن هذه النهضة الإسلامية مترامية الأطراف متعددة الجوانب ، فهى في حقيقتها بحث جديد تناول حياة الجماعات الإسلامية تناولا شاملا عميقا ، فإذا نحن أردنا أن نحيط بأطرافها كان لا بد لنا من كتاب كامل كهذا ، وأعتقد أن إخوانى العاملين على التاريخ الحديث ألقوا في نواحي ذلك الموضوع وأحادوا ، فأغنانا ذلك عن التولج في ميدان له شيوخه ورجاله .

وهذا لا يمنع من القول بأننا نعيد النظر الآن في كتاب « الشرق الإسلامى في العصر الحديث » ونجهد في تعديله وإكاله على النحو الذى يحفظ له مكانه في مكتبة التاريخ الإسلامى الحديث .

خلاصة :

يطلق مصطلح « عصور الركود الإسلامية » على الفترة الطويلة الممتدة من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وهذه الحقبة الطويلة تعنى — بالنسبة لمصر ، الشام والحجاز وجزء من العراق ، أى معظم الجناح الشرق لعالم العرب — الجزء الأخير من عصر دولة « المماليك البحرية » وكل عصر دولة « المماليك البرجية » الذى امتد إلى سنة ١٥١٧ م ، ثم عصر سيادة الأتراك العثمانيين الذى لم ينته إلا فى الحرب العالمية الأولى . وهى حقبة طويلة تزيد على ستة قرون ونصف ، شهدت فى عالم الإسلام كله أحداثاً كبرى وتطورات واسعة المدى . فقد قامت فى أثنائها دول كبرى كتب رجالها صفحات مجيدة من التاريخ ، مثل دولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا والعالم العربى ، ودولة الصفويين فى إيران ، ودولة السعديين فى المغرب الأقصى .

ولقد أدى سلاطين الأتراك العثمانيين والسعديين خدمات جليلة لعالم الإسلام ، فقاموا برد العدوان الأوروبى عن أجزاء واسعة من بلاده ، بعد أن كان خطر ذلك العدوان قد ازداد فى حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئ المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر الميلادي . وكذلك قام سلاطين مغول الهند بجهود كبرى لتثبيت أقدام الإسلام فى شبه القارة الهندية ، ونهض ملوك الصفويين بإيران نهضة قومية بعيدة المدى .

ولكن هذه الدول لم تختلف وراعاها — برغم ذلك — أثراً باقياً فى إصلاح أمور شعوبها أو النهوض بمسواها الفكرى والحضارى ، على غرار ما فعلت الدول الأوروبية المعاصرة لها فى بلادها ، ولم تتحسن فى ظلها أحوال جماهير الناس ، بل لم تغب عنها وطأة الظلم والفقر ، ولم يتقدم المستوى الحضارى فى بلاد الإسلام عما كان عليه قبل قيامها . وباستثناء بعض مظاهر التقدم فى فنون العمارة وما يتصل بها من الفنون الصغيرة ، فإن الصناعة والتجارة والزراعة تدهورت تدهوراً محزناً خلال هذه الفترة الطويلة ، وانكمش الفكر العربى والإسلامى على نفسه ، فلم يعد قادراً على الإنشاء والتجديد ، وقتصرت جهده على الإعادة والتكرار لما فات ، وشرحه والتعليق عليه .

على يلاحظ أن الجماعات الإسلامية جميعاً تدهور حالها وسادها الفقر ، وضرت فيها لهمم ، واقتصرت هم الناس على كسب العيش ومواصلة حياة لا مخرج فيها ولا لذة ولا حال . وألب الناس الظلم حتى لم يعودوا يشعرون بشاعته وذلك وعاره ، وخيم على الناس جهل شديد أسود ، فأصبحوا يعيشون وكأنهم نباتات تنطق على الأرض ، وتظل تحت الشمس فترة من الزمان ثم تموت ؛ أما الحكومات فقد أصبحت طرازاً واحداً سيئاً من الاستبداد والظلم والإفلاس المالي والعجز العسكري .

وهذه هي الظواهر التي جعلت المؤرخين يطلقون على هذه القرون تسمية « عصور الركود » أو الاضمحلال .

وقد حاولنا في هذا الفصل أن نستقصي حقيقة هذا الركود ومظاهره وأسبابه ، مدرستنا أحوال عالم الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل العصر المملوكي الطويل الذي بدأ سنة ١٢٥٠ م ، بعد انتهاء دولة الأيوبيين — وهم خلفاء الناصر صلاح الدين بن نجم الدين أيوب ابن شاذي — ثم عرضنا في إنجاز قيام الدولة العثمانية وضحها في آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، حتى استيلائها على القسطنطينية وإزالة الدولة البيزنطية على يد محمد الثاني الملقب بالفاتح سنة ١٤٥٣ م ، ثم حروبها مع الصفويين الإيرانيين ، واستيلائها على بلاد الشرق العرفي ، وتحويلها إلى خلافة إسلامية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي .

ونحدثنا بعد ذلك عن تدهور دولة الخلافة العثمانية ابتداء من حكم السلطان مصطفى الأول الذي بدأ سنة ١٦١٧ م ، وبيناً كيف استمر هذا التدهور من ذلك الحين برغم الجهود الكبيرة التي قام بها آل كيريلي من الصُدور العظام (رؤساء الوزراء) لإيقاف الاضمحلال . وأوحزنا الكلام عن الأسباب التي أدت إلى ذلك الاضمحلال وحالت دون إيقافه ، وأنها أن الإطار العام للتنظيم السياسي لدولة آل عثمان كان هو الإطار نفسه الذي قامت عليه الدول الآسيوية القديمة واتبعت الدولة العباسية عندما أخذت بالنظم الساسانية في الحكم ، وهي نظم تقوم على السلطان المطلق لصاحب العرش بدون أن تحسب حساباً لحماهير الناس وبدون أن تنتفع بمبدأ الشورى في كل ما يتصل بمصالح الأمة ، وهو مبدأ قرره الإسلام .

ويعتمد السلطان في هذه النظم على قوة عسكرية من المرتزقين وعبيد البيوت الحاكم ، ممن لا تربطهم بالشعوب المحكومة أى صلات إنسانية ولا تقوم بينهم وبين الأرض التي يعيشون عليها أى عواطف قومية . وفي العادة يستعين السلطان أو الخليفة بموظف كبير يسمى الوزير ، مهمته الرئيسية هي الإشراف على جباية أكبر قدر من الأموال من الرعية لكي يسد حاجة الدولة المتزايدة إلى المال .

والسبب في تزايد هذه الحاجة إلى المال هو أن أعداد الجند المرتزقة تزداد مع الزمن وتزداد في الوقت نفسه رواتبهم ، وشيئاً فشيئاً يصبح توفير المال هؤلاء الجند شغل الدولة الشاغل ، وينتج الأمر بسيطرتهم على الدولة إما بصورة مباشرة أو عن طريق قيام قوادهم باختيار الخلفاء أو السلاطين على هواهم .

وهذا التنظيم هو الذي أدى إلى تدهور دول العباسيين والفاطميين ومن ترقى في مدرستهم من حكام الأقاليم الذين استبدوا بنواحيهم وأنشأوا دولا محلية ، وهو أيضاً الذي أدى إلى تدهور دولة آل عثمان وانحدارها ذلك الانحدار المتصل الذي انتهى بزوال سلطانهم من الوجود بعد الحرب العالمية الأولى .

وفي أثناء التدهور في أسلوب الحكم خرجت الشعوب من محالات السلطة والحكم غمماً ، لأن تلك الحكومات نسبت أن قوة الدولة الحقيقية هي في الشعوب وما تقوم به من عمل متصل هو أساس الحياة الاقتصادية وما تقدمه من رجال ذوي ملكات وإخلاص لبلادهم وجنود ذوي حمية يدافعون عن أوطانهم ، وقد تسببت الدول الأوروبية لذلك فاعتمدت على شعوبها ، وربطت نفسها بجهود رعاياها ، فانتعشت وأحدثت طريقها إلى التهور ، في حين انحدرت دول الشرق انحداراً سريعاً مخيفاً .

وتكلمنا كذلك عن أسباب أخرى لتدهور الدولة العثمانية وغيرها من الدول التي قامت في عالم الإسلام في العصور الحديثة ، مثل النزاع على ولاية العرش مما أدى إلى حروب داخلية مخربة دفعت أحياناً بعض الطامعين في العروش إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية . وأشرنا كذلك إلى ظاهرة بعيدة الأثر نشترك فيها هذه الدول جميعاً ، وهي حاجتها إلى المال مما دفع بها إلى الشدة في جمع الضرائب ، وكانت هذه الضرائب تحس من الطبقات العاملة في الأمة ، وهي طبقات الزراع والصناع والتجار ، فكان العبء يزداد ثقلاً عليها يوماً بعد يوم ، وترك الكثيرون من أهل هذه الطبقة العمل هرباً من مظالم الحكام ومطالباتهم المستمرة بالأموال ، مما أدى

إلى تدهور الصناعات التي كانوا يقومون بها ، لأن الصناعة تحتاج إلى مادة خام وأدوات عمل ثم جمهور يشتري الشيء المصنوع ويدفع فيه ما يستحقه حتى يحتفظ الصانع بمستواه .

وفي العصر الذي نتحدث عنه غلت أسعار المواد الخام إلى درجة جعلت الشيء المصنوع على الثمن ، وقلت أدوات العمل وكاد يتعذر المشتري ، فهبطت الصناعات هبوطاً بالغاً وأخذت التقاليد الرفيعة القديمة تتلاشى . ويحدثنا السائح إدوارد لين عن انحطاط مستوى الصناعة في مصر في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي مع وجود الصناع المهرة . وقد عادت الصناعات إلى الانتعاش أيام النهضة السياسية والعمرانية في مصر خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

وفيما يتصل بدول العثمانيين والصفويين والمغول (في الهند) والسعديين (في المغرب الأقصى) كان التصدي للتوغل الأوروبي (الإسباني — البرتغالي في المغرب الأقصى والسواحل المغربية في البحر الأبيض المتوسط ، والبرتغالي — الهولندي — الإنجليزي في بلاد الإسلام الآسيوية) يتطلب من هذه الدول قوات عسكرية ممتازة وذات روح معنوية عالية ، ثم أموالاً طائلة مستمرة للإعناق على الحروب ؛ فأما القوى العسكرية فقد وهن أمرها لأنها في مجموعها كانت قوى مرتزقة تحارب للمال ، وكان المال كما رأينا شحيحاً ؛ وأما الأموال الطائلة فلم يعد لها وجود ، لأن ثروة الأمم — كما قال آدم سميث — تعتمد على جهد الشعوب ومقدار ما تستمتع به من عدل وأمن ، ولم يكن للعدل والأمن وجود في تلك الدول ، ولهذا كله كانت هزيمة هذه الدول أمام قوات الدول الأوروبية الناهضة العنية نتيجة طبيعية للتطور التاريخي الذي ذكرناه في الشرق والغرب على السواء .

وقد رأينا أن تقف وقفة في هذا الفصل لتتبع النظم السياسية في دول الإسلام ، لكي يعرف لماذا انحدرت هذه النظم وساء حالها ، وسارت في الطريق الخطر الذي سارت فيه ، وكان دافعنا إلى ذلك أننا رأينا أن ما يسمى بعصور ركود في تاريخ الجماعات الإسلامية إنما كانت في الحقيقة عصور ركود وتأخر وتدهور سياسي ، وهذا التدهور جرّ إلى الانحطاط في غير ذلك من الليادين .

وقد استعرضنا في هذا الفصل تطور الدول الإسلامية الخمس الكبرى التي كانت في العالم الإسلامي في مطالع العصر الحديث ، وهي دول الأتراك العثمانيين ،

والصفويين ، والمماليك ، ومغول الهند ، والسعديين ، وعرضنا سير الحوادث في بلادها حتى وصولها إلى الغزمية والإفلاس السياسي والعسكري والمالي للأسباب التي ذكرناها .

وأشرنا بعد ذلك إلى نهضة العرب وطبيعتها ومقوماتها ، ووقفنا عند ظهور قيام الطبقات الوسطى من الزراعة والصناع والتجار والملاحين ومن إليهم ، وما كان لقيام هذه الطبقات من أثر بعيد في رفع المستوى الاقتصادي ، ونتيجة لذلك ارتفعت القوى المعنوية وتفتحت النفوس لطلب العلم والعمل ، وقلنا إن أكثر مظهر لذلك كان انتعاش المدن في الغرب وقيام نظمها ، وقلنا إن العالم الغربي الحديث بكل مقوماته ومظاهر قوته العسكرية والاقتصادية والعسكرية إنما ولد في المدن .

وحتمنا الفصل بالقول بأن الركود الذي ساد العالم الإسلامي كان في الحقيقة ركوداً سياسياً وعسكرياً ، أما من الناحية الفكرية فقد ظلت أمة الإسلام محتفظة بقواها وحيويتها وإن تغير شكل إنتاجها الفكري . وتتبعنا هذه الظاهرة في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ، وهي في غاية الاختصار ، ومن ثم فإننا نرجو القارئ أن يعود إليها في المتن .

وقد وقفنا بالكلام في هذا الكتاب عند ذلك الحد ، وكان ينبغي — منطقياً — أن نستطرد إلى نهوض العالم الإسلامي ، لأن تاريخنا لا ينتهي عند الركود . بل أعقبه نهوض واسع المدى ما زلنا نعيشه ، ولكنني استوفيت هذه الناحية في كتاب خاص متداول في أيدي الناس هو « الشرق الإسلامي في العصر الحديث » كتبت فيه تاريخ النهوض وبيّنت عوامله ومظاهره ، ولهذا رأيت أن أحيل القارئ إليه ، لأن النهضة العربية المعاصرة واسعة المدى متشعبة الواسع يحسر التاريخ لها في إيجاز .





مراجع مختارة

مراجع عربية أو مترجمة إلى العربية :

• - أحمد السادق : تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الهندية . جريان ، القاهرة ١٩٥٨ .

• - أحمد مصطفى أبو حاكم : تاريخ الكويت (صدر منه إلى الآن جزآن ١٩٦٧ ، ١٩٧٠) .

• - أرشبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة شفيق غربال ، القاهرة ١٩٥٧ .

• - أرنولد وبلسون : الخليج العربي ، مجلد تاريخي من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ، ترجمة عبد لقادر يوسف ، الكويت ١٩٦٩ .

• - ابن عباس الخنسي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة قديمة بدون تحقيق ، في ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٨ . طبعة محققة بإشراف د . محمد مصطفى وكاله Kahlé ، إستانبول والقاهرة ١٩٣٠ - ١٩٦٢ .

• ابن حَسَنُول ، الوزير أبو العلا (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٨٥ م) : كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد . تحقيق عباس العزاوي . المجلة التركية بأنقرة ، مجلد ٤ ، عدد ١٤ ، ١٥ سنة ١٩٤٠ .

- ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . تحقيق بول رافيس Paul Ravaisse ، وباريس ١٨٩٥ .
- ابن العزث ، جرجس أبو الفرج : مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ .
- ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي : الحوادث الجامعة والتجارت النافعة في المائة السابعة ، ج ١ ، بغداد ١٣٥١ هـ .
- أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر في أخبار البشر . استانبول ١٢٨٦ .
- جورجى زيدان : تاريخ تمدن الإسلامى ، طبعة جديدة مراجعة بتحقيق حسين مؤنس ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .
- جلال مجبى : العالم العربى الحديث ، الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . الإسكندرية ١٩٦١ .
- جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة ١٩٧٢ . هذا هو أحسن ما كتب في تحليل العالم الإسلامى اليوم ودراسة طبيعة انتشار الإسلام واتجاهات هذا الانتشار ومحاوره ، وقد أفدت منه كثيراً في هذا الكتاب .
- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية بأفريقية . القاهرة ١٩٦٣ .
- الحسن بن عبد الله : (ت ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م) : آثار الأول في ترتيب الدول . القاهرة ١٣٠٥ هـ .
- حسن خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، الكويت ١٩٦٥ .
- حسين مؤنس : الشرق الإسلامى في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٩ .

فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية
المزينة في المطبعة) .

مصر ورسالتها ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ (الطبعة
الثالثة المزينة في المطبعة) .

تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، مدريد
١٩٦٧ .

« فزان ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا » ، مجلة
كلية الآداب بالجامعة الليبية . المجلد الأول ١٩٧٠ .

— الحزرجي ، علي بن حسن : العقود الموثوقة في تاريخ الدولة الرسولية : مجلد ٣
من مجموعة جيب التذكارية ، كيمبريدج ١٩١٢ .

— دونالد والبر : إيران بين الماضي والحاضر ، تعريب عبد المنعم
حسين ، ١٩٦٢ .

— روم لاندلو : تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ،
بيروت ١٩٦٦ .

— زاهر رياض : شمال أفريقيا في العصر الحديث : ليبيا — تونس —
الجزائر — المغرب ، ١٩٦٦ .

— سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزعان . القاهرة ١٩٦٣ .

— سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة
١٩٦٩ .

— السلاوي ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ /
١٨٩٧ م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب
الأقصى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .

— صلاح العقاد : المغرب في بداية العصور الحديثة ، ١٩٦٠ .

— صلاح العقاد : المشرق العربي (١٩٤٥ — ١٩٥٨) : العراق —
سوريا — لبنان ١٩٦٥ .

— عبد الرحمن الجبرني : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تاريخ
الجبرني) ، ٤ أجزاء .

— عبد الله بن تليق ، أبو بكر (من أهل القرن الثامن الهجري) : كنز الدرر
وجامع الغرر ، نو الدرر الزكية في أخبار الدولة

التركية ، ٩ أجزاء ، مخطوط رقم ٢٥٧٨ تاريخ مدار
الكتب المصرية .

— على مبارك : الخطل التوفيقية الحديدية لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً
مؤلف ١٣٠٥ — ١٣٠٦ هـ .

— فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المعول الكبير رشيد الدين فضل الله الممداني ،
القاهرة ١٩٦٧ .

— محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ — ١٩١٤)،
القاهرة ، بدون تاريخ .

— محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ، القاهرة
١٩٣٨ .

— محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

— محمد فؤاد شكري : السنوسية ، دين ودولة . القاهرة ١٩٥٠ .

— محمد فؤاد شكري : بناء دولة ، القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس ومحمد رجب حراز : نصوص ووثائق في التاريخ
العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٥٢ .

— محمود الشرقولوى : مصر في القرن الثامن عشر ، دراسات في تاريخ
الجيري ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ — ١٩٦٠ .

— مكى شيكة : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى ،
بيروت ١٩٧٠ .

— وليام لين : للصربون المحدثون ، ترجمة على طاهر ، ١٩٦٣ .

مراجع غير عربية :

- ARNOLD , SIR THOMAS WALKER : The Califat : Oxford , 1924 .
- ATIYA , AZIZ SURIAL : The Crusade in later Middle Ages . London , 1958 .
- BROWNE , EDWARD G . A Literary History of Persia , 4 Vols Cambridge , 1909 - 1930
- CZAPLIKA , M : The Turks Of Central Asia in History and the Present Days . Oxford , 1918
- GAUDEFRY DEMOMBYNES , MAURICE . La Syrie à L'Epoque des Mamelouks . Paris , 1922
- GROUSSET , RENE : L'Empire des Steppes . Paris , 1939
- HANOTAUX , GABRIEL : Histoire de la Nation Egyptienne , 5 Vols . Paris , 1926 .
- HEYD , W : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age , 2 Vols . Leipzig , 1889 .
- HOLDSWORTH , MARY : Turkestan in the nineteenth century ; a brief history of the Khanates of Bukhara , Khokand and Khlwa . Oxford , 1939 .
- HOWARTH , SIR HENRY : History of the Mongols , 3 vols . London , 1878 - 1880 .
- JULIEN , CHARLES ANDRE : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie , Algerie & Maroc) de la Conquête arabe à 1830 , 2 e . éd . revue et mise à jour par Roger le Tourneau (Payot , Paris , 1969) .

هذا الكتاب مذيل بـبليوجرافيا واقية عن تاريخ المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا ، وهي مرجعنا الأول اليوم فيما يتصل بمصادر تاريخ العرب الإسلامي كله سواء العرب منها وغير العرب . نجد القارئ ابتداء من ص ٢٢٥ من هذا الكتاب أهم مراجع تاريخ العرب من قيام دولة المرابطين ، فليرجع القارئ إليها فيما يتصل بهذه الحقبة التي تعيننا هنا .

LANE POOLE , STANLEY : History of Egypt in the emiddle Ages . London , 1925 .

--- : Medieval India under Muhammedan Rule .

--- : Muhammedan Dynasties . London , 1925

LYRER : The Ottoman Empire in the Time of Sulciman the Magnificent . Cambridge , 1913 .

MUIR , SIR WILLIAM . The Caliphate , its Rise , Decline and Fall . Edinburgh , 1924

SPULER , BERTOLD : Central Asia , the Last Centuries of Independence . Part 3 of The Muslim World . Historical Survey . London , 1969 .



الفصل الثامن

عطر النفوس



ترتبط النهضة الإسلامية — عادة — بالحملة الفرنسية على مصر سنة (١٧٩٨) وهي حملة أجنبية قصد الفرنسيون من ورائها احتلال أرض مصر واستغلالها لمصلحتهم ، وأساعوا إلى المصريين كثيرا ، وإن كانوا قد ساءلوا لها خدمات عن غير قصد ، وأنشأوا لمصر الفرصة للخروج من التدهور الذي كانت تعانيه نتيجة للتدهور الشامل والاقتصاد والجهل والركود الذي كانت تعانيه . فهذه الحملة كانت (من ناحية) نهاية لعصور الركود التي وصفناها ، وكانت (من ناحية أخرى) بداية للنهوض لا لمصر وحدها بل للعالمين العربي والإسلامي جميعا .

ولكن أهل العصر روعوا لتلك الحملة ورأوا فيها بداية الشر كله ، لأنهم كانوا قد ألفوا الحال السيء واستولى عليهم اليأس والحمود حتى صاروا يتصورون أن هذا الحال السيء هو المصير الذي لاخروج لهم منه ولا نجاة لهم من شروره . وقبل الحملة الفرنسية على مصر لم يكن المصريون يشعرون بالحال السيء الذي كانوا فيه لأنهم اعتادوه . ومن أسوأ ما يمكن أن يصيب الجماعات هو اعتيادهم للتدهور والفساد والظلم ، لأنهم في هذه الحالة لا يفكرون في تغييره أو إصلاحه .

والعبارة التي افصح بها « عبد الرحمن الجبري » الكلام عن الحملة الفرنسية على مصر في مستهل الجزء الثالث من تاريخه عظيمة الدلالة على الحالتين النفسية والعقلية اللتين كانتا تشتملان الحقيقتين المصريتين في تلك المناسبة وهي بليغة المعنى من الناحية التاريخية . قال : (سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وهي أول سنة الملاحم العظيمة والحوادث الحسيمة . والوقائع المازلة والوازل الماثلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور . وتوالى المحن ، واحتل الزم ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأحوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ،

وتواتر الأسباب ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾^(١) .

وكلام الجبرتي يدل على أنه لم يكن يحس بسوء الحال الذي كانت تعانيه البلاد في تلك الحقبة الأخيرة ، ويخيل إليك وأنت تقرأ هذه السطور أن مصر كانت في حال راضية مستقرة آمنة قبل دخول الفرنسيين ، وأن الفساد دخل مع الفرنسيين ، حقا ان الآية القرآنية التي يختم بها كلمته تلك ، وهي (الآية ١١٧ من سورة هود) تدل على أنه كان يدرك أن مسئولية هذا الغزو تقع على عاتق أولى الأمر من الأتراك والمماليك ، فما كان الله يهلكهم لو أنهم كانوا مصلحين .

وسيرد في كلام الجبرتي فيما بعد ما يدل على أنه كان يحس سوء الحال الذي كانت مصر تعانيه خلال هذا العصر .

ولكنه في تلك المناسبة لم يكن يحس بسوء الحال إحساسا كاملا لأنه كان واحدا من الظاهرين من الفقهاء ، والفقهاء كانوا جزءا من الطبقة الحاكمة فقد كانوا يعاونون الأتراك والمماليك — وكانت أحوالهم قد ساءت في سنهم الأخيرة — ويشاركوهم في ظلم الناس من طرق شتى أولا : أنهم كانوا يحصلون على نصيب طيب من مغامر الظلم والفساد ، فكانت لهم حرايات متخمة من الخبز كل يوم ، وكان معظمهم يبيعون حائنا كثيرا منها ويحصلون على أموال .

وثانيا : أنهم كانوا يضعون أيديهم على أوقاف واسعة ويتولون نظارتها ويحصلون — بموافقة الأتراك والمماليك — على دخل كبير ، وثالثها : أنهم كانوا يسكنون عن الظلم والفساد بل يؤيدونه ، فلم يحدث خلال العصر العثماني ان تصدى فقيه لظلم او وقف لنصرة المظلومين ، وكانوا يتعاضدون عن الحرائم التي يرتكبها الحكام وأحياناً كان بعضهم يؤيدها ، لأنه كانت لهم صداقات مع كبار المماليك ، والجبرتي نفسه كان صديقا محمد الألفي وهو من كبار المماليك وأكثرهم ظلما وأطرفهم شخصية كذلك .

ولكن جماهير الناس في مصر — في القاهرة والمدن والريف — كانوا في حال سيئة جدا ، وكان توالى عصور الظلم وعجز الناس عن النفع عن أنفسهم وعياب

(١) تاريخ الجبل : ج ٣ ص ٢ طعة بولاق سنة ١٢١٣ هـ من سنة ١٧٩٨ م .

المصلحين وانعدام الرجال دوى الهمة والحركة الدين يهضون في وجه الظلم ويصرون المظلوم ، كل هذا هبط بالمصري العادى إلى مادن مستوى البشر ، وهذه حالة نجد أمثالها كثيراً داخل العالم العربى وخارجه ، ففى جزيرة العرب مثلاً وقبل الحركة السلفية الوهابية السعودية كان البدو أو أهل الإبل قد هبطوا إلى ذرعة سحيقة ، لأن توالى عصور الجوع والمهل جعل حياتهم صراعاً رهيباً للمقاء ، فكل ما يأتيهم شئء يأكلونه أو يلبسونه مقبول عندهم ، ولهم رؤساء على مثالهم يفودونهم في الهجوم على القوافل أو القرى فينهبون ما فيها ويأسرون نساءها ويستحلوهم أو يبيعونهم دون أن يشعروا بأى تأنيب ضمير ، بل كانوا يهاجمون قوافل الحجاج ويهوبها ويقتلون الحجاج أو يسلونهم ، لاهم كانوا في حالة حوع دائم و (الجوع كافر) . أما شعورهم الدينى فكان دون الإسلام بمراحل . ولأمين الرحاى في كتابه نجد وملحقاتها وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل آل سعود : ثم جاء ابن عبد الوهاب يعلمهم أن التسييح لا يجوز لعير الله الواحد القهار . جاء يعلمهم التوحيد واستعان على ذلك بسيف ابن سعود ، فقاموا بخاربونه مع ابن الدواس وابن العريعر ، وكالوا مدعورين ، جمعهم ابن سعود تحت علم التوحيد ، فوجدوا الله وأقسموا ألا شريك له ، ولكنهم في كل أطوارهم بنو ، والبدو قتل ذوات الأحصنة طيارون ، أو أن لهم مزية الرثق ، فيجتمعون ويفترقون وأنت تنلو الفاتحة ، لا يعملون شيئاً في حيوبهم ولا في قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب . رفاقك في الطريق اليوم وأعدائك غدا ، ولا أظنهم لولا الجنة والخور يخصصون لرب الكائنات قد أكون مخطئاً بهذا ، وهم يكثرزون من ذكر الله في كل حين . ولكن البى نفسه انهم فلم ينفعهم التأنيب . وجاء في القرآن الكريم ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أما الدين عندهم فكالداء يلسونه ردحا من الزمن ، مبعسلوه مرة أو مرتين ثم يلسونه مقلوبا ، ثم يلسونه وقد تمزق — نذ البواة — كيف توضعاً ونحس نبغى الماء للشرب ؟ ولم نصوم والسنة كلها رمضان ؟ ولم الصلاة وليس لله وقت لسمعنا ؟ .. (١)

وفد أعانت الله أولئك البدو بالملك عبد العزيز آل سعود . وهو عربى مثلهم . فكان يعرف مساوئهم وأسبابها وعول على إيقادهم من هذا الحال السيء ، فبدأ عملية

(١) لعير الرحاى : عد وملحقاتها ... ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

شاقفة لتحضيرهم ، وهذه العملية تمت على مرحلتين : الأولى رفعهم إلى مستوى البشر بإخراجهم من البداوة إلى الاستقرار ، والثانية تحضيرهم وتعليمهم بعد الاستقرار ، وقد اقتضى هنا أثر رسول الله ﷺ وكان الملك عبد العزيز عبقرى شديد التمسك بالسنة النبوية حريصا على تطبيقها التطبيق الصحيح . وكان الرسول يدعو إلى الهجرة ، وهى هجرة من ضياع البداوة في رمال الصحراء إلى الاستقرار في كنف أمة الإسلام في المدينة . وهى كذلك هجرة معنوية حضارية ، ونحن نسميها هنا هجرة إلى الله ورسوله ، والهجرة إلى الله والرسول هى هجرة حضارية فانك ندخل ميدان الحضارة عندما تؤمن بالله ورسوله والكتاب واليوم الآخر ، وأمة الإسلام في العصر النبوي كانت تتكون من المؤمنين المستقرين المتمسكين بحبل الله ورسوله ، وكان معظم الذين انفصلوا عن الأمة ودخلوا في زمرة من نسجهم بالمرتدين أعراما وقد حاربهم أبو بكر بالعرب وهم الحضر المستقرون ، ثم دفعهم إلى المغازى فحاربوا في سبيل الله ونبتوا فضل الإسلام فيما أعطاهم الله من النصر وخيراته واستقروا في الأمصار المفتوحة وأصبحوا حصرا ، وأما الذين بقوا في شبه الجزيرة أعراما فظلوا على ما كانوا عليه ، ومنهم القرامطة ومنهم أبو هلال من عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور أصحاب التفرية المشهورة إلى مصر والمغرب .

وقد نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فيما أراد ، فصار يعطى البدو قطعا من الأرض فيها ماء وأرسل إليهم المطوعين (جمع مطوع) وهو الداعية أو الشيخ الذى يعلم الناس الدين والقراءة والكتابة ، وأعطاهم مالا وماشية وآلات الزرع لياشروا الزرع ويستقروا ، وأخذ منهم الإبل حتى لا يعودوا يظهرون إلى الصحراء ، وهذه المزارع أو المجتمعات الزراعية هى المحر (جمع هجرة) وهى مكان الهجرة . وأولاد أولئك الأعراب المهجرين هم أساس جانب عظيم من الشعب العربى السعودى المعاصر .



ولكن الفلاح المصرى الذى هبط عن مستوى البشرية وسكن في قرى كابية فقيرة لبس فيها شئى إلسانى ، فالبيت كله من لىن ، وهو في العادة لا نوافذ له ، وإذا كانت هوى من حشب قديم وسيفة الصنع ، ولا أثاث في البيت لأن الجلوس يكون على الأرض والنوم على ظهر العرن وهو من لىن ، والماشية القليلة التى يملكها الفلاح

تمام معه في نفس الليث ، وهو إذا أحس خطراً أخذ ماشيته وما لديه من آية قليلة وترك القرية ومضى بعيداً حتى يزول الخطر ، وهذه الصورة الحضارية المزعومة هي أيضاً صورة تاريخية ، فهي وسيلة لحماية هذا الفلاح من حكامه اللصوص . فما داموا يعرفون ألا شيء يسرق من هذا الليث فهم لا يدخلونه ، بل إن الفلاح حرص على ألا تبدو نساء بيته في هيئة جميلة حتى لا يطمع فيها أحد .

وهذه هي الصورة التي وحد الفرنسيون عليها مصر عندما دخلوها ، وقد خاب أملهم إذ لم يجدوا في مصر ما كانوا يقرءونه من أحاديث عن غنى مصر وثرواتها وعظم المكاسب التي سيفوزون بها من غزوها ، ولدنيا كتاب يسمى (نابليون في مصر) ألّفه واحد من صباط الفرنسيين يصف فيه شقاء الحياة في القاهرة وما كان الفرنسيون يعانونه من انخفاض مستوى الحياة وكثرة الهوام وانتشار الأمراض . وكان الفقر في مصر عاماً ، حتى المالك الذين كانوا يستولون على خير البلاد كله كانت حياتهم فقيرة باستثناء الطعام . كانت بيوتهم كبيرة ، ولكنها كانت حالية من كل تراف حقيقي . لأن الثروة تأتي من عمل الشعب وكسبه ، وما دام حكم المالك والأثرياء قد أدى بالبلاد إلى الإفلاس فمن أين للممالك بأدوات الترف ؟! وعندما دخل نابليون بيت « محمد الألفي » — أقوى ممالك مصر وأعتابهم في ذلك العصر — دهش لقلّة ما وجد فيه من الترف أو الأشياء الغالية أو ذات القيمة الكبيرة .

وبعينا هنا الفلاح المصري وساكن المدن من صغار التجار وأعلى الحرف ، فهؤلاء كانوا قد اعتادوا التعمسة والفقر حتى لم يعودوا يحسون بها ، وكانت الأمراض والأوبئة قد هيّطت بصحتهم وأكلت معظم أولادهم ، وقد قدر مستوى طول العمر إذ ذاك نحو إلى خمس وعشرين سنة . وانضاف إلى ذلك الجهل البالغ ، وكان جهلاً شاملاً بكل شئون الحياة ، وحتى إيمانهم بالإسلام سيطرت عليه الأوهام ، وامتلات البلاد بمن يسمونهم الأولياء ونسب الناس إلى قولك الأولياء كرامات ومعجزات تجعل بعضهم فوق مستوى رسول الله منزلة ، فإن رسول الله قال : « لو كنت أعرف الغيب لاستكثر من الخير وما معنى السوء » ولكن أولئك الأولياء كانوا يعرفون الغيب ويتنبأون للناس بمستقبلهم ، وبعضهم كانوا يزعمون أنهم يظهرون في الهواء أو يمشون على الماء ، وسئل واحد منهم : لماذا لا تسأل الله أن يرفع عنا الوباء ، فكان رده المتواضع : لم تؤمر بذلك ، كأنه كان يرى نفسه إنساناً ربيع المنزلة عند الله : يسأل الله أشياء فيجيبه الله إليها .

وكانت سياسة المماليك التجارية سياسة فاسدة أضاعت تجارة الشرق التي تمر بمصر فقدت البلاد عائلاتها ، وصادروا أموال التجار وأفقروا الناس ، ولهذا كان مستوى جمهور الناس في مصر خفيضاً جداً ، ويكفى أن تعلم أن سكان مدينة الإسكندرية كانوا عندما نزل الفرنسيون مصر حوالى خمسة آلاف نسمة ، وسكانها أيام البطالة كانوا حوالى نصف مليون .

وظل الفرنسيون في مصر أكثر من ثلاث سنوات بقليل ورحلوا سنة ١٨٠١ لأن الإنجليز طلبوا بناورون حتى أخرجوهم . وعادت مصر إلى حكم الأتراك ، وحاول سكوات المماليك أن يستعيدوا سلطانهم وإذا كان الفقهاء والمماليك لم يقيدوا من الحملة الفرنسية فإن أهل الأسواق في القاهرة أقادوا ، لأن الفرنسيين بعد أن استتب لهم الأمر في مصر أسرفوا في فرض الضرائب وأغضبوا الناس بأعمال كثيرة تخالف الإسلام مثل شرب الخمر والرقص والفساد مع النساء ، فثار عليهم أهل الحسنية في (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) وكان ذلك عقب تخطيم الإنجليز للأسطول الفرنسي فقام المصريون على الفرنسيين فجأة . ومن عجب أن الجبرتي أنكر هذه الثورة فحرد أن سطاء الناس هم الذين قاموا بها ، وكان - وهو من أهل الخلل والعقد - يرى أن هذه المسائل ينبغي أن تترك للكبار ، قال في كتابه « عجائب الآثار » : « وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) عملوا الديوان^(١) وأحضروا قائمة مفرات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة^(٢) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمناصر والسيارج والخوانيت فمعها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين حسب الحسنة والرواج والاقصاع ، وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص تمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء ، وطاقوا بعض الجهات لتحرير القوائم وصيبت أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك في الناس لعظهم واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقضاء . فانتبه جماعة من العامة وناجوا في ذلك ، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم يطر في عواقب الأمور ، ولم يفكر في أنه في القبضة

(١) أي أن الفرنسيين عملوا اجتماعاً للديوان الذي أشأوه من مصريين وفرنسيين لحكم البلاد .

(٢) عملة صكها الفرنسيون في مصر

مأمور . فتجمع الكثير من العواء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد منتحزين ، وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أحلوهم من السلع وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم وهول جسيم ، ويقولون بصياح في الكلام : « نصر الله الإسلام » ، فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر ، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر ، فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه ، فرحوه بالحجارة والطوب وطلب الحرب فلم يمكنه الفروب ، وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكر .

وفي ذلك الوقت حصر ديوى وهو حاكم القاهرة بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعائه ، فمر بشارع الفورية وعطف على خط الصادقية ، وذهب إلى بيت القاضي ، فوجد ذلك الزحام فخلف وخرج من بين القروباب الزهومة ، وتلك الاخطاط بالخلاتق مزحومة ، فبادروا إليه وصرروه وثخنوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعائه فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يبرعون من كل حذب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كـ « باب الفتوح » و « باب النصر » و « البرقية » إلى « باب زويلة » و « باب الشرعية » وجهة البندقانيين وما حاذها ، ولم يتعدوا جهة سواها ، وهدموا مصالط الخوانيت ، وجعلوا أحجارها مناريس للكريكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس . وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفرغ منهم ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع ، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكر قريهم من مساكن العسكر . ولم نزل طائفة المحاربين في الأزقة مترسين ، فظهر جماعة من الفرنساوية ، وظهروا من ناحية المناخلة ، وبدقوا على متراس الشوائين ، وبه جماعة من مغاربة الفحاميين قفانوا حتى أحلوهم ، وعن المناخلة أراوهم . وعند ذلك راد الحال وكثر الرجف والزلازل ، وحرحت العامة في الحر وبالعوا في القضية بالعكس والطرء ، وامتندت أيديهم إلى الخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية وسبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جلورهم من بيوت المسلمين على القمام ، وأخذوا الدوائع والأمانات وسبوا النساء والبنات ، وكذلك سبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعاييب ولم يفكروا في العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرايين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الأفرنج فأنهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلمة واقفين . وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقناير والعتبات ، ووقفوا مستحضرين وأمر كبيرهم منتظرين . وكان كبير الفرنسيين أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ولم من المطاوعة . هذا والرمي متتابع من الجهتين . ونضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر ، فعند ذلك خرجوا بالمدافع والبنات على البيوت والحارات ، وفصلوا بالخصوص الجامع الأزهر وجردوا عليه للمدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المخازين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عابوه نادوا : يا سلام من هذه الآلام ، يا خفي اللطاف نحنما تخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى نزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها المائل ، فلما عظم وراود الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع حنده عن الرمي المراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب حذقة وسجال فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير ، واتهمهم في التفتير فاعتذروا إليه ، فقل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم^(١) .

وإنما أثبت تفاصيل هذه الثورة لكي أدل على حيوية شعب مصر المتدفقة ، لأن الأمر لم يقتصر على القاهرة بل انتشر في الأرياف وقام الناس على الفرنسيين بالصالحية وسرباقوس . وأصاب المصريون في العرسيين إصابة بالغة ، فقد قتل ديموي قائد حامية القاهرة وعدد كبير من الضباط والجند ، وقد تحجر الفرنسيون في أمر من دعا إلى هذه الثورة ومن الذي ألقى الناس بالسلاح ، ومن الذي علمهم استعماله ، وانتبوا إلى أن رجلا يسمى « إبراهيم أفندي » كاتب البهار هو الذي رأس عملية جمع السلاح .

ومهما يكن من أمر الدين قاموا بهذه الثورة فلاشك في أنهم كانوا أشجع وأكثر شهامة من الشيوخ الذين استكروها ، وقد رأينا موقف « الحبري » منها ، لأن أولئك

(١) تاريخ الحرق : ٢٦ / ٣ - ٢٧ .

الرؤساء والشيوخ اعتادوا الظلم والخصوع للظالمين والعيش معهم ومقاسمتهم معهم حتى لم يعودوا يحسون بالظلم . وهذه مشكلة كبرى من مشاكل تاريخ مصر ، وهى أن الكبار والعلماء وأولى الأمر لم ينفوا إلا نادرا إلى جانب الشعب ، لأن معظمهم فى الحقيقة لم يكونوا منه ، والكثيرون منهم تربوا على أن يعتبروا أنفسهم طبقة عليا خلقت للسيادة . ولا مانع عندها من التعاون مع الأجانب والمستعمرين ، وهذا هو الذى أطال قضية الاستقلال والنهوض فى مصر ، فى حين أننا رأينا أن عبد العزيز آل سعود وقف من أول الأمر إلى جانب شعبه لأنه منه وهو يحس به إحساساً صادقا فاجتهد فى النهوض به لأن إيمانه الإسلامى السليم غرس فى نفسه المساواة بين الناس ، فقد كان يرى نفسه واحدا من عرب الجزيرة وإن لم يساهل فى متطلبات الرياسة ومطالب السلوك الملكى وقيادة الأمور . وخلال هذه الثورة انقلب الشوام والأروام على المصريين وأخذوا حانب الفرنسيين وكذلك فعل الكثيرون من المغاربة النازلين فى مصر ، وكان الكثيرون منهم زعرا يعملون فى خدمة المماليك . وقد اشتهر بالحياة فى هذه المناسبة الآغا قائم مقام ولم يكن مصريا ، وكان من كبار معاونى الوالى التركى . أما المشايخ فكانوا بعيدين عن المعركة ، إنما كان همهم إسكات الفتنة ومصالحه الفرنسيين .

وكان نابليون عندما رأى الأحوال فى مصر وقلة ما يمكن أن يحصل منها من الأموال ، قد فكر فى ضخ الشام لهذا الغرض ولأسباب أخرى . فترك فى مصر حاميات صغيرة فى « القاهرة » و « الإسكندرية » و « رشيد » و « دمياط » وخرج إلى الشام فى أربعة آلاف جندى مزودين بالمدافع واستسلمت له حاميتها التركية ، ولم يكن لديه حشد كاف لحراسة هذا العدد الكبير . فأمر بقتلهم جميعا بالرصاص . وهذه جريمة كبرى لا تنسى لمابليون ، ولو أن هذه الحامية حاربت واستشهد رجالها لكان ذلك أمكرا لها .

ولكن نابليون عجز عن الاستيلاء على « عكا » ، فقد كان يتولاها القائد « أحمد الجزار » ودخل فى خدمته ضابط هندسة عسكرية فرنسى يسمى فيليبو كان زميل دراسة لمابليون ولكنه كان بغار منه ، وفى البحر وقفت أمام عكا سفيتان انجليزيتان يقودهما الأميرال سيلفى سميث وكان يمد « أحمد باشا الجزار » بالمعونة والمؤن . وطال حصار نابليون دون جدوى لأنه كان قد أرسل مدافعه بالبحر فى سفينتين سقطت

جدهما في أيدي الإنجليز ، وعجزت حامية « يافا » التركية عن مواجهة الفرنسيين .
وهنا أيضاً نجد عناصر أصحاب الحكم والقوة في البلاد من الدروز والعلماء
المسيحية والقبائل العربية تميل إلى مصالحه الفرنسية والتفاهم مع أعداء البلاد وأخيراً
عاد نابليون إلى مصر في ١٤ مايو ١٧٩٩ دون نتيجة . وأراد الأتراك انتهاز فرصة
فشل نابليون فأرسلوا قوة تركية من ثلاثة عشر ألف جندي احتلت أبو قير ولكن
نابليون سار إليها وأنزل بها المزيمة وأسر مصطفى باشا . وفي ٢٢ أغسطس ١٧٩٩
غادر نابليون مصر عائداً إلى فرنسا وتاركا القيادة في مصر للجنرال كليبر .

وعقب خروج نابليون من مصر أرسل الأتراك حملة بقيادة يوسف باشا فخرج
للقائمه كليبر ولقيها في « عين شمس » واستولى على خزائنها وذخائرها وأسلحتها .

ولكن المصريين كانوا أشد شهامة من الأتراك . فقد انتهبوا فرصة خروج كليبر
إلى « عين شمس » ، وقامت ثورتهم بشرف عليها وينظمها هذه المرة سلطان من أبطال
تاريخ مصر هما « عمر مكرم » بقيب الأشراف و « أحمد المحروقي » بقيب التجار ،
وأنشأوا مصنعاً لليارود في « الخرنفش » ، وكان مركز الثورة « بولاق » وانضمت
إلى صفوف الثوار (من مسلمين وأقباط) من أمثال جرجس الجوهري وقلتيوس
وملطي ، وشذ عن الإجماع مهووس يسمى يعقوب يدعو إلى اشتراك الفرنسيين مع
المصريين في حكم مصر وأنشأ قوة عسكرية من الشوام والأقباط بمعاونة ضابط
فرنسي يسمى لاستاريس ، وسخر منه المصريون وسموه الجنرال يعقوب . ولكن
الثورة لم تستطع الصمود للمدفعية الفرنسية التي دكت حتى بولاق دكا ، وانتهت
ثورة القاهرة الثانية في (١٥ أبريل ١٨٠٠) ، وقبض الفرنسيون على زعمائها
وصالحهم كليبر على أداء غرامة قدرها عشرة ملايين من الفرنكات .

أما الماليك فقد صالحوا الفرنسيين ، وتولى « مراد بك » فضاء المصريون ذرعاً
بالماليك والأتراك ، وطردهم من مصر إلى الشام بمعاونة الفرنسيين .

وظل الإنجليز يحاولون إخراج الفرنسيين من مصر ، وكان كليبر قد قتل وتولى
بعده ميو ، وأخيراً تمكنوا من إخراجهم بمعاونة « أميان » وغادروا مصر على سفن
انجليزية في (أول سبتمبر ١٨٠١) .

* * *

وقد وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند الحملة الفرنسية على مصر لنقول إنها حطمت الأسوار التي كانت مصر تعيش فيها وأخرجتها من ظلمات العصور الوسطى ، وعادت مصر إلى التبعية التركية إلا أن الحال قد تغير كثيراً ، وشعب مصر الذي واجه الفرنسيين وقام ضدهم — بثورتين — لم يعد إلى الماضي قط ، فقد فقد المشايخ زعامتهم وتفتحت أمام المصريين آفاق جديدة ، ولكن كان ينبغي أن ينضم الأتراك وأنصارهم من الباشوات إلى الشعب وترسم خطة النهوض ، لأن الشعب نفسه كان فقيراً جداً وجاهلاً إلى حد بعيد ، والأتراك كانوا يعيدون عن هذا التفكير لأنهم — وكبار رجال دولتهم خاصة — كانوا في درك سحيق من الفساد .

وقد تعودنا أن نلوم الأتراك وننقدهم ، والحق أنهم يحملون مسئولية كبرى عن المصير السيئ الذي سار إليه العرب بعد هذه البداية التي يمكن أن توصف بأنها طيبة ، ولهذا فسنتكف عن لوم الأتراك ، ونقول — جملة — إنهم قدموا للعالم العربي خدمتين جليلتين ، هما حسبهم ، الأولى : هي إخراج العراق من سلطان الإبرانيين بعد معركة تشارالديران (سنة ١٥١٨) ، والثانية : هي إتقاذ المغرب العربي — عدا المملكة المغربية — من سلطان الأسبان وحلفائهم من الأوروبيين خلال القرن السادس عشر أيام السلطان سليمان القانوني ، وقد تكلمنا عن ذلك بشيء من التفصيل في هذا الكتاب .

والدولة العثمانية مسئولة عن كثير مما أصابنا وأصاب غيرنا ممن دخل تحت سلطانتها ، ولكن الأتراك أيضاً كانوا في نفس الحالة من سوء ، لأنهم كانوا يعانون نفس المشاكل التي انحدرت بعالم الإسلام . كانوا يعانون من الحكم المستبد والجند المرتزقة ، والدولة العثمانية كانت في أوجها في القرن السادس عشر أيام سليم الأول وسليمان القانوني ، كانت أغنى دولة إسلامية عرفها التاريخ ، وكان دخلها أضعاف دخل دولة مثل الدولة العباسية ولكن الحكم المستبد يذهب بمال الدول ويقطع أوصال العلاقات داخل الدولة ، وجيش الانكشارية الذي قهرت به الدولة العثمانية الدنيا انتهى به الأمر إلى أن أصبح أكبر سبب من أسباب تدهورها ، لأن أفرادها كانوا في زيادة وروايتهم في ارتفاع وعملهم أقل ونوعهم أسوأ ، والمعلومات عن الدنيا حول الدولة كانت قليلة جداً ، ويكفي أن الدولة لم تنتبه إلى خطر الروس إلا عندما قامت الدولة الروسية الجديدة وأصبحت قوتها أضعاف قوة الأتراك لأن بطرس الأكبر عندما نهض بدولة الروس قاطع الماضي واتخذ دول الغرب نموذجاً لدولته ، فأنشأ مصانع

السلاح ووضع أساس الصناعة في روسيا في حين أن سليمان القانوني — رغم دكانه وكفائه — زاد الحواجز بين العثمانيين والغربيين وزاد الحواجز مع الغرب . وعندما تحطم أسطولوه في معركة « ليبانتو » أمام الأسطول الآسياني الأوروبي كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر في معركة « كيتشك لينارجي » سنة (١٧٧٤) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة في طاعتها من المغرب إلى العراق .



كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامي نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها أنخطأت خطأ جسيما عندما اختارت محمد علي ليكون واليها . ومحمد علي كان رجلا عبقريا بلا شك ، ولكنه كان رجلا مرتزقا بلا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعا ، والمصريون كانوا أخرج إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقرى بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقاتهم في أبلهه ، وحاربوا في الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون النهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين في « معاهدة لندن » في مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده في (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، وجاء ابنه عباس فأفضل المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر في أيام عباس هذا في نفس الحال السيئة التي كانت فيها قبل حكم محمد علي .

والسبب الذي حدا بالمصريين على اختيار محمد علي واليا عليهم هو سوء الحال الذي كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا ينسبون إلى أنفسهم الفضل في إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون باتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفي » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » ، وقد توفي « مراد بك » (سنة ١٨٠١) وخلفه الطنبورجي بك ثم البرديسي بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركى على مصر بعد خروج

السلاح ووضع أساس الصناعة في روسيا في حين أن سليمان القانوني — رغم دكاته وكفايته — زاد الحواجز بين العثمانيين والفرين وزاد الحواجز مع الغرب . وعندما تحطم أسطوله في معركة « ليبانو » أمام الأسطول الإسباني الأوروبي كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر في معركة « كيتشك لينارجي » سنة (١٧٧٤) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة في طاعتها من المغرب إلى العراق .



كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامي نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها أعطأت خطأ جسيما عندما اختارت محمد علي ليكون واليا . ومحمد علي كان رجلا عبقريا ملامشك ، ولكنه كان رجلا مرتزقا ملا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعا ، والمصريون كانوا أخرج إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقري بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقاتهم في أيامه ، وحاربوا في الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون النهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين في « معاهدة لندن » في مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده في (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، وجاء ابنه عباس فأقفل المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر في أيام عباس هذا في نفس الحال السيئة التي كانت فيها قبل حكم محمد علي .

والسبب الذي حدا بالمصريين على اختيار محمد علي واليا عليهم هو سوء الحال الذي كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا يسبون إلى أنفسهم الفضل في إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون باتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفي » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » وقد توفي « مراد بك » (سنة ١٨٠١) وخلفه الطنبرجي بك ثم البرديسي بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركي على مصر بعد خروج

الفرنسيين محمد باشا خسرو ، فأرسل جيشا إلى « بنى سويف » لمحاربة البرديسي فانهزم الجيش عند « بنى سويف » ، وانتشر المماليك في الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالإنجليز الذين كانوا في الإسكندرية ، فانتصر البرديسي على الأتراك انتصارا كبيرا في (نوفمبر ١٨٠٢) . ثم غادر الإنجليز مصر بعد أن تمت معاهدتهم مع الفرنسيين (سنة ١٨٠٢) ووكّلوا حماية مصالحهم لمحمد الألفى بك ودعوه إلى إنجلترا حيث أكرموه ووعدوه بأن يسعوا لدى الأتراك حتى يعينوه واليا على مصر .

في هذه الظروف وفد « محمد على » إلى مصر سنة ١٨٠١ ضابطا برتبة يباشى في الحماية العثمانية ، وهو ليس تركيا بل ألبانيا من « قولة » ، ومنذ استقراره في مصر بدأ يفكر في وسيلة يبرز بها السلطان . وأراد الولى التركي محمد محسروا باشا محاربة المماليك في الصعيد ، وأمر الجند بالمسير لحرسهم فرفضوا حتى تدفع لهم رواتبهم ، ثم قام أحمد باشا طاهر رئيس المناوئين محسرو باشا وتصلى لحرب محسرو باشا ، ووقع النزاع بين الانكشارية والجيش وترغمهم أحمد باشا ، ووقع الاتفاق بين أحمد باشا ومحمد على رئيس الارناؤد وكانوا أكثر قوة في الجيش وعددهم ٤٠٠٠ حدى .

وانتهج محمد على إلى الاتفاق مع البرديسي بك زعيم المماليك وقبضا على محسرو باشا وسجنه في « القلعة » وأقبل « محمد الألفى » من إنجلترا يؤيده الإنجليز ، وطلب الجند بالرواتب فأحالهم محمد على إلى البرديسي وقام الجند على المماليك وطردهم من القاهرة ثم أرسلت الدولة واليا جديدا هو حورشيد باشا وهنا نجد المصريين يسرون إلى محمد على بزعامة « عمر مكرم » و « الشيخ الشرفاوى » في مايو ١٨٠٥ وعرضوا الولاية على محمد على لأنه وعدهم بالعدل وحماية البلاد من مساوى الأتراك فصدقوه وانتخبوه واليا وألبسه (عمر مكرم والشيخ الشرفاوى) الكرك والقفطان رمز الولاية ، ثم سار الارناؤد إلى القلعة وخلصوا محسروا باشا وكتبوا إلى السلطان العثمانى ليؤيد اختيارهم ، وتلك كانت خطيتهم الكبرى فاستجابت الدولة ، ولو أنهم اختاروا « عمر مكرم » لكانت الدولة قد أقرت اختيارهم ، ولكنا نغضنا من مأساة محمد على وأولاده .

المهم أن المصريين ارتكبوا هذا الخطأ الكبير ، وحرّموا أنفسهم من ولاية أمورهم بأنفسهم . ولم يكن « عمر مكرم » بأقل موهبة من محمد على ، ومن يدري فلعله كان يستطيع سياسة الأمور بطريقة أحسن . وليس في هذا إنكار لموهبة محمد على

فقد كان الغالب أنه سيستمر على العمل في مصر في خدمة الوالي الجديد ، ولكن من المؤكد أننا كنا سنتجو من أنانيته وإنكاره لفضلنا ، ومن الممكن كذلك أن الدولة العثمانية كانت تقر ولاية مصرى على مصر مادام يبقى في طاعة الدولة العثمانية .

ومنذ تولي محمد على أمر مصر في يوليو ١٨٠٥ أظهر عبقرية نادرة في تعلية ذاته وتقوية مركزه وإنشاء دولته ، ولكنه في كل حملة لم يفكر في المصريين ولا هو أحبهم وربما لم يحب غيرهم ، فقد كان رجلا بالغ الأنانية ، وكان له فهم نادر للظروف من حوله والقدرة على قيادتها ، وعلى الرغم من الكثير الذى عمله فقد انتهى كله قبل وفاته (سنة ١٨٤٨) ومن سوء الحظ ان ابنه إبراهيم وهو خيرة أولاده — مات قبله ، وكان رجلا خيرا وكان قريبا من المصريين يعرف قدر ما يمكن أن يقوموا به ، أما إخوة إبراهيم فقد كانوا مرتزقين وأغبياء وجهلاء ، وقد سيطر عليهم الأجانب والأتراك واستغلواهم واستغل هؤلاء جميعا المصريين استغلالا شائنا وعلى الرغم من وفرة إنتاج مصر وثراء أرضها فإن المصريين لم يغيروا شيئا من ذلك بل عمل أناء محمد على ومعاونوهم وكلهم أجنبي ما بين أوروبيين وترك وجراكسة وأرمن وأكراد ومغاربة ويونانيين وأشكال شتى على الاستئثار بكل شيء من دون المصريين ولكن المصريين أفادوا — رغم ذلك الظلم كله — من الناحية المعنوية ، فقد تعلم منهم نفر قليلون فعلا ، ولكنهم كانوا موهوبين وكلنا نعرف رفاة رفيع الطهطاوى وعلى مبارك وما كان لهم من دور في نهوض مصر والعالم العربى .

ولم يقتصر الامر على زعماء النهضة الفكرية من رفاة رافع إلى محمد عبيد بل نهض كذلك الكثيرون من المصريين من المشتغلين بالزراعة والتجارة ، ورغم الاحتلال البريطاني الذى كان إلى حد ما نتيجة لسياسات أسرة محمد على ورجالهم نهضت مصر وعوضت الكثير مما خسرت ، وتمهد الطريق لثورة (سنة ١٩١٩) التى تعتبر من مفاسخ الشعب المصرى بعد ما عانى طول القرن التاسع عشر .

* * *

وكان أسوأ ما لقي محمد على من الجزاء ممن كان يظن أنهم أصدقاؤه ما وقع له في بلاد الشام . أضافت الحكومة التركية إلى ملك محمد على بلاد الشام مكافأة له على ما قدم لها من الخدمات في جزيرة العرب وبلاد اليونان ، فولى ابنه إبراهيم

واليا على بلاد الشام (من ١٨٣١ إلى ١٨٤١) وإبراهيم كان خير أولاد محمد علي فحرمت مصر من خدماته هذه المدة وانصرفت جهوده إلى بلاد الشام . وكانت بلاد الشام في الحكم التركي قبل الحكم المصري في أسوأ حال من القوضى وسوء الإدارة ، وهي ليست بلادا سهلة ولا بيضة الحكم ، ولكنها طوائف وجماعات شتى : دينية وعرقية وكلها متقاطعة متدايرة ، وكان حاكم الشام التركي قبل إبراهيم باشا لا يحفل بمصالح أهل الشام ، ويحكم على الطريقة العثمانية المعروفة : طريقة الفساد والرشوة وعدم الاكتراث ، فلما جاء إبراهيم بذل أقصى جهده في إنشاء حكومة صالحة ، ولكن ارضاء أهل الشام جميعا في ذلك العصر كان شبه مستحيل ، فقد كانت الطوائف كلها تمانى ، وكلها تريد أن تتخلص من متاعها ، والمداوات بين بعضها البعض كانت متزايدة ، وقد أطعمهم عدل إبراهيم ولبنه وحرصه على إرضائهم فمضوا يبالغون في المطالب .

وفي نفس الوقت فتح إبراهيم أبواب الشام للأجانب من الأوروبيين ، فكثر فيها القناصل وبعضهم كان من الإنجليز والفرنسيين والاطاليين والروس ، وبعضهم الآخر كان من أهل البلاد يتولون الأعمال القنصلية للدول الأوروبية في نواح شتى ويتمتعون بامتيازات واسعة ، يستغلونها كلها لمصلحتهم وكانت الدول الأجنبية تشعر بخوف بالغ من ناحية محمد علي ، فقد كانت وراءه مصر بوائها وكان محمد علي موهوبا في اختيار الرجال الأكفاء من أمثال الكولونيل سبف وكلوث بك ولينان دى بلغوند ممن نهضوا له بجوانب كبرى من عملية النهوض ، فقوى جيشه ولزادته ثروته ، ولقام المشروعات والمصانع الكثيرة وقوى شأنه وازدادت المخاوف منه ، واشتدت الدسائس ضد الحكم المصري في بلاد الشام ، ويكفى أن نشر هنا إلى موقف « بالمرستون » رئيس وزراء بريطانيا من محمد علي . فقد أبغضه واحتقره وحاربه وتمنى زوال دولته ، ولا أذكر أنني قرأت شيئا يدل على أن « بالمرستون » عرف محمد علي معرفة حقيقية ، وإنما هو كان رجل سياسة بريطاني يرى أن بريطانيا لم تخرج الفرنسيين من مصر لتقوم في مصر دولة قومية قوية ، وإنما لكي تستولى عليها هي ، ومن هنا كان بغضه لـ محمد علي ومعاداته إيائه وعمله على اسقاطه واجتثاثه في أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية ، فهذه هي المقبرة ، وهذا أضمن سبيل لاستيلاء بريطانيا على مصر . وهكذا كان .

وعلى أى حال فإن محمد على تنازل في (معاهدة لندن سنة ١٨٤٠) ثم في (فرمان يونيو ١٨٤١) الذى يقرر أن مصر ولاية عثمانية تؤدى جزية سنوية قدرها (٤٠٠,٠٠٠ جنيه مجيدى) كل سنة ويحكمها محمد على وأولاده من بعده حكاما محليين ، أى أن مصر فقدت كل أبعادها العسكرية ومركزها الدولى وأصبحت محض ولاية عثمانية ، حتى امتداد مصر فى السودان — وهو أساس دولة وادى النيل — ترك دون تجديد ، ولم يكثر محمد على لذلك أدنى أكرات ، وذهب هو بنفسه (١٨٤٦) إلى تركيا وقدم فروض الولاء للسلطان . وعاد إلى مصر وقد دب فى جسده ديبب المرض الذى مات به (سنة ١٨٤٨) فإذا كان قد قدم إلى مصر فى سن الخامسة والعشرين مثلاً ، وتولى أمرها (سنة ١٨٠٦) وهو فى الثلاثين من عمره فتكون سنه عند وفاته ثلاثاً وسبعين سنة . وهى ليست بالسن العالية التى تهرر الآلام المرحلة التى كان يعانيها خلال الستين الأخيرتين من عمره خصوصاً بعد موت ابنه إبراهيم (سنة ١٨٤٦) وكان إبراهيم هو الأمل الوحيد لمصر ، لأن عباس ابن محمد على عندما قدم من الحجاز وتولى مصر (سنة ١٨٤٨) أغلق المدارس والمصانع وأوقف كل عمل تقدمى فكان مصر قد عادت بعد العناء إلى ما كانت عليه قبل محمد على فلم ينشأ فيها جيش أو تم فتوح أو تقيم مصانع ، وكل الذى بقى هو الأشياء الثابتة التى لا يمكن الغاؤها : كالقناطر الخيرية وترعة المصمودية وبعض الأعمال الزراعية المماثلة .

ونسأل الآن : ما السبب فى ذلك الفشل الذريع الذى لقيه محمد على فى آخريات أيامه مع ما تعلم من ذكائه وقدرته ومواهبه الإدارية والعسكرية والسياسية التى لا تحصى ؟

السبب — فيما يبدو لى — أن محمد على لم ينسب إلى مصر أو شعبها . فظل طوال حياته رجلاً دون هوية ، فلا هو مصرى ولا هو تركى ، وإنما هو أجنبى مغامر وقد إلى مصر واستعمل مصر لمصلحته دون أن يعرف المصريين أو يتصل بهم اتصالاً يذكر ، فقد كانوا عنده قلاحين (يزرعون الأرض ليستولى منهم على أعلى ما يستطيع الحصول عليه) أو مشايخ وفقهاء تقليديين يعيشون فى الماضى ولا بد من إبعادهم عن التشريع أو التعليم الذى يريده هو ، أو تجاراً صغاراً وأهل حرف فقراء من المدن .

مع أننا نعرف أن شعب مصر شعب موهوب ، وهو يستجيب للإسلام والتعليم . ويفهم مطالب عصره إذا هو تيسرت له أساليب العمل والنشاط ، وهو سريع الفهم

وقد اعترف محمد على بذلك عندما رأى نجابة المصريين ومهارتهم في « مدرسة الهندسة » التي أنشأها (سنة ١٨١١) ، ولكن دواعي الخير في قلبه كانت قليلة والجوانب الإنسانية في كيانها كانت أقرب إلى الجفاف ، فأسرع إلى الاستعانة بمن تصور أنهم على خبرة أو قدرة بإدارة أمور الدول من أجناب على مستوى ضئيل من الإنسانية — فيما عدا نفرا من الفرنسيين من السان سيمونيين الذين وفدوا عليه وعملوا معه ، أما رجال دولته من أبناء الممالك من جراكسة وأتراك وأكراد وغير ، وقد انتفع بهم بالفعل ولكنهم أضروا بمصر والمصريين ضررا بليغا ، فقد حرموهم فرصة العمل والنهوض وأساعوا إلى الناس حيث كانوا كما حدث في الشام والسودان ، ومعظم الآثام التي يذكرها السودانيون للحكم المصري ألهم محمد على وما بعده يرجع إلى تصرفات رجال محمد على هؤلاء ، وهم يتسبون أن المصريين عانوا منهم أضعاف ما عانى السودانيون ، بل إن الأتراك العثمانيين عانوا في بلادهم من حكمهم أهوالا بالغة ، ولولا أن العماد الحقيقي للحياة في الأناضول — وهو معظم تركيا — يقوم على الزراعة والرعي لتدهورت الدولة العثمانية ولتعرضت لأزمات قاتلة ، والميزة الكبرى للفلاح أو الراعي التركي على مثيله في مصر والسودان هو أن أرض الأناضول وعرة ومسالكتها عسيرة ، والوصول إلى الفلاح أو الراعي عمل شاق أيسر ما كان الواحد منهم يعملهُ إذا سمع بالقراب الجاني هو الصمود إلى أعلى الجبل ، وإذا كان راعيا أخذ معه ماشيته ، وزراعة الأناضول نصفها جبوب وبقيتها أشجار والحبوب تزرع وتجنّى قبل أن يأتي الجاني وإذا جاء قبل الحصاد رده برشوة ، أما الشجريات فمأذا يفعل الجاني ألم أشجار تفاح وخوخ ومشمش إذا اتفق أهل القرية على ألا يشتري أحد منهم ثمرة من محصول جاره ؟

ونعود فنسأل : ولكن ما السبب في كراهة إنجلترا وروسيا وتركيا لمحمد على وحرص هذه الدول الدائم على استصغار شأنه واعتباره مقارنا مرتزقا لا يستحق أى تأييد ؟

السبب في ذلك هو أن محمد على منذ أن تولى أمر مصر بانتخاب من المصريين في (يوليو ١٨٠٥) لم يعتبر نفسه قط مصريا — حتى ولو كان اقرب من المصريين — فظل دائما في نظر الغرب واليا تركيا مطيعا ثائرة وثائرا أخرى ولكنه وال عثماني ، وعندما وقع الخلاف بينه وبين الأتراك أصبح واليا ثائرا خارجا على النظام والسلطان العثماني ، ولو أن محمد على تنبه إلى أهمية هذه النقطة لتغير وضعه

والمعاهد وهبط بالجيش إلى مستوى قوة خفر ، فكأنك — كما يقول المثل العامى —
« يا أبو زيد ما غزيت ! »

وليس هذا مجرد كلام حماسى أقوله لأننى مصرى ، بل أنا أنظر إلى شهامة « رفاعة
رافع الطهطاوى » واتساع نظره وأفقه فى كلامه عن أوروبا والحضارة الأوروبية فى
كتاب مثل « مباحث الألباب العصرية فى مناهج الأفكار العصرية » ورفاعة كان من
الجيل الثالث لجيل عمر مكرم ، وعمر مكرم كان رجلاً شهماً بليغاً قوى القلب ،
ومثله كان الشيخ عبد الله الشرفاوى « الذى رفض أن يضع على صدره شارة الثورة
الفرنسية للثلاثة الألوان وألقاها على الأرض وخرج ، ومثلهما كان « أحمد المحبوتى »
حاكم الإسكندرية الذى أعدمه الفرنسيون لشهامته ونحوه ، وهذا البلد — مصر —
لم يغفل قط من الرجال ، ولكن الخطوة كانت فيما يبدو — واسعة على العصر
وفكره ، وقلوب الناس كانت أقدر على الحق والحسد منها على أعمال الشهامة
والقيادة .

* * *

ولكن محمد على وأسرته إذا كانوا قد عدموا يدهم ما فعلوه وأعادوا مصر ولاية
عثمانية تصرف فى أمورها الإنجليز والفرنسيون — بل الروس أحياناً — فان المصريين
أنفسهم لم ينسوا ما قاموا به خصوصاً عندما خاضوا المعارك بقيادة إبراهيم باشا فى
الشام والأناضول ، وبقيت هذه الذكريات حية فى القلوب لتنتعش فى أيام سعيد
باشا ، وأحمد عرابى كان ثمرة عصر سعيد الذى تميز على غيره من أفراد إبراهيم بن
محمد على بميله إلى المصريين وحبه لمصر ، ومهما يكن ما صدر عن « أحمد عرابى »
بعد مظاهرة (١٥ سبتمبر ١٨٨١) فإن الرجل يظل نادرة فى عصره ، فقد وقف
فى وجه الخديو وجماعته ونادى بأن مصر للمصريين ووقف من ورائه الشعب ،
وكانت ظروف عرابى سيئة ، والقليلون ممن كانوا معه لم يكونوا على مستوى ،
والخوة من حوله كانوا بلا عدد ، وصدمة مواجهة الخديو والاحتلال معه كانت
أقوى من أن يتحملها الكثيرون ، ورغم ما انتهى إليه أمر عرابى فإنه يظل قائد
أجيال التحرير التى سارت مع « مصطفى كامل » و« محمد فريد ثم « سعد زغلول »
لأن نفوس المصريين خصبة طيبة مثل أرضها ، وطوال القرن التاسع عشر ، ومنذ
حطيم الفرنسيون الجدار العثماني كانت نار النبوض تتلظى تحت الرماد . والمصريون
الأصلاء ، المصريون أبناء الفلاحين الذين كرههم محمد على ورفض أول الأمر الاعتراف

عليهم حتى تدخل الكولوبيل « سيف » وهو سليمان باشا الفرنساوى — وأقهرهم محمد على أن الفلاحين يمكن أن يكونوا أحسن الجنود إذا هم تعلموا وتدريبوا ، وبدأ التجربة بنفسه وعمل معه فيها « إبراهيم » ابن محمد على وإبراهيم كان يقول انه ليس تركيا فقد أتى إلى مصر صيبا وفي مصر نشأ فهو عرقى ، والعرقى في ذلك العصر هو المصرى والشامى والعراقى ، والحقيقة أن الأتراك كانوا يسمونهم جميعا أولاد عرب ، وكان إبراهيم بعد أن قاد المصريين واتصر بهم قد عرف قدرهم واعتز بهم وصار يقول : أنا لست تركيا فأتى جئت مصر صيبا ، ومنذ ذلك الحين مصر تسمى شمسيا وغيرت في دمي ، وجعلته دما عربيا^(١) وكان إبراهيم يدهش لموقف أبيه من المصريين والعرب عامة ، فرغم أن انتصارات المصريين على الأتراك كانت نصرا له فقد كان يؤلمه ويرى الناس ذلك في وجهه . و « إبراهيم » هو صاحب فكرة فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإنشاء دولة عربية ، وقد أعطى نفسه لقب « سر عسكر بلاد العرب » ولكن أباه رده عن هذه الفكرة ، ومن سوء الحظ أن ذلك اقتصر على « إبراهيم » ومات معه قبل موت محمد على . وبقي محمد على الألبانى المشترك المرتزق وكان ذلك من أضعف جوانبه ، لأن انحلتا وروسيا ظلنا تعتبرانه واليا تركيا خارجا على الطاعة ، وفي معاهدة (لندن ١٨٤١) اقتصر سلطانه على ولاية مصر داخل نظام الدولة العثمانية ، وقد أصابه من ذلك بلاء عظيم وورث خلفاؤه — عباس ومن بعده — ذلك فأصاب ذلك مصر بأسوأ الأضرار ، فقد ظل المصريون ميعدين عن إدارة بلادهم ، وظلت مصر ولاية عثمانية تنتظر تصفية الدولة العثمانية لتصبح في قسمة صاحب النصيب ، ولو كانت مصر مركز دولة عربية لما حدث لها ذلك أبدا ولاستمر النهوض على يد « إبراهيم » ولما مسها شيء من البلاء الذى أصابها كجزء من التركة التركية ، وربما كان وجه تاريخها قد تغير .

ولم يعرف محمد على قدر النعمة التى أنعم الله عليه بها عندما أراد له أن تقوم دولته في مصر إلا عندما ذهب إلى الشام .

فإن مصر والجزيرة العربية هما القطران الوحيدان في المنطقة المتوحدان عصريا ، فإن المصريين ليست فيهم اختلافات عنصرية كالتى تمزق بلاد الشام ، حتى أقباط

(١) . د . لطيفة محمد سالم : « الحكم المصرى فى الشام » (١٨٣١ - ١٨٤١) القاهرة ١٩٨٣ ص ١٨

مصر لا يكاد الإنسان يلاحظ أنهم يختلفون عن المسلمين في الطبيعة والتفكير ، فالكل مصريون ، وحاتم مصر لا يعاني من أقلية أو عنصريات ، وتلك نعمة من الله كبرى . ولكن سوء حفظه جكملة يسعى حثيثا ليضم الشام إلى مصر بحجة أن الشام درع لمصر أو أمان لها وهذا وهم باطل وغير صحيح جملة أو تفصيلا ، وبلاد الشام في ذاتها ليست درعا لشيء ولا لبلاد الشام نفسها ، فهي خليط عجيب من مناطق مختلفة في الطبيعة والجغرافية والسكان ، فهناك في بلاد الشام كل نوع من أنواع التكوين الجغرافي من الصحراء الرملية أو الصحيرية القاحلة إلى الأرض السهلية البالحة الخصوبة وبين ذلك توجد البوادي الصالحة للمرعى والجبال من كل ارتفاع والوديان والمضارب والسواحل وما إلى ذلك . وهذه الطبيعة أوجدت في بلاد الشام خليطا من السكان والأديان لا شبيه له إلا في الهند التي هي شبه قارة ، قالت في ذلك د . لطيفة سالم : « وقد تبانت التقارير الرسمية في رصد السكان ولذا فقد كان توخى التوسط (هو) ما اتبع في هذه الدراسة ، فبلغ المسلمون ٩٩٧٠٠٠ نسمة والبلد (وهم مسلمون) ٢٢٠٠٠ والمقاولة (وهم شيعة مسلمون) واليزيديون ١٧٠٠٠ ، والدروز ٤٨٠٠٠ والكاثوليك والموارنة ٢٦٠٠٠٠ والأرثوذكس ٣٥٠٠٠ واليهود ١٧٥٠٠٠^(١) وبذلك يشكل الجميع ١,٨٦٤٠٠٠ نسمة والمسلمون السنيون كادت مذاهبهم تنحصر في الشافعي وأبي حنيفة وانضم تحت لواء الشيعة المقاولون والعلويون والاسماعيليون ، وأما الدروز فلهم من الأسرار ما يحفظونها في حدودهم وتجمعهم في إطار موحد ، ويختبرهم البعض في عداد المسلمين بينما يرى الآخرون أنهم أنصاف مسلمين ، وهناك النصيريون وهم أصحاب عقيدة مختلفة تعطنى عليها الوثنية ، وتمثلت الطوائف المسيحية في الكاثوليك والأرثوذكس والموارنة ، فدخل تحت الأولى الروم والسرريان واليعاقبة والأرمن واللاتوي ، وجاهدت فرنسا في إسباغ حمايتها الدينية عليهم وضمت الثانية الروم والأرمن واليونانيين والأقباط والأحياس ، أما الثالثة (الغالب أن المراد هنا الموارنة) فاعتبرت أهم طائفة لدورها البارز في المنطقة ، وأيضاً أذعنهم فرنسا في كشفها وكان لهم الموقف الواضح أثناء الحروب الصليبية . وأخيراً لم يكن لليهود القدر العديدي المدعم

(١) انظر له في تقديم اليهود هذه السبة مبالغة واضحة .

وكان بين هذه الجماعات من العدوات ما يصل إلى الجذور ولا يمكن استتصاله ، وكانت الحروب وأعمال العداوة على قدم وساق بينها حتى كانت تقع بين الإخوة .

والحقيقة أنه ليس لمصر في بلاد الشام كلها ما يهجم إلا بيت المقدس لوجود الحرم القدسي ومسجد الصخرة بها ، وهذه كان من الممكن أن يفرض عليها محمد على سلطانه ليجمع بين الساجد الإسلامية الكبرى ويؤيد مركزه في العالم العربي .

ولكن محمد على وقع في شرك الشام ، وكان فيه حتفه بالضبط كما وقع في نفس الشرك جمال عبد الناصر وكان فيه حتفه . وتركبا زادت مخاوفها من محمد على وسعت في الفضاء عليه واجتذبت إليها الدول بسبب الشام . ولواختص محمد على وادي النيل لما صعب عليه الاستقلال به ولما عاقته الدولة ولكان له — أقصد محمد على — تاريخ آخر .



والهمم عندنا هنا هو أن فترة الحكم المصري في بلاد الشام كانت فترة الحرية التي جعلت لبلاد الشام مكانا في النهضة الفكرية العربية وهذه الحرية التي منحها إبراهيم لبلاد الشام كانت شيئا جديدا لم يحده أهل البلاد فأساءوا استخدامها . وكانوا قبل ذلك يعيشون في دوائر مغلقة : كل طائفة تدبر أمرها بالطريقة التي تريد ، ولهم ألا تسبب متاعب للسلطان العثماني ، فكانت الحروب وصور التطاحن دائرة فيما بينها وكل منها تحاول أن تحافظ على كيائها وسط جيرانها ، سواء كانوا من أهل جنسها وملتها أم لم يكونوا ، والدولة العثمانية أغلقت موانئ الشام . فكان لا يدخلها من الأجانب إلا القليلون ، وهؤلاء القليلون كانوا إما تجارا يقتصر دخولهم على الموانئ ويقيمون في الفنادق فيها لا يزارحونها ، وإما حجاجا يغامرون بالهجرة إلى بلاد الشام لزيارة الأراضي المسيحية المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة وما إليها ثم يخرجون من البلاد ، وكان في الشام ناس متخصصون يعملون أدلة لأولئك الحجاج ونرى نماذج من هؤلاء الأدلة في الكتب التي كتبها بعض المغامرين من رحالة الأوروبيين من أمثال داوني وكبيليك وبوركهارت السويسري الأصل .

وكان جبل لبنان — كما هو في طول تاريخه — منطقة اقتطاع واسع يسيطر عليه الموارنة والكاثوليك منذ أيام الحروب الصليبية ، وكان ملجأ لم يرد التخلص من حكم الدولة الإسلامية قبل الدولة العثمانية وأثناء حكمها ، وقد حاول الأمير فخر الدين

المعنى أن يستقل به مستعينا بالبندية وقام بشيء يشبه ما قام به محمد بك أبو الذهب في مصر ، ولم يقلح في النهاية وفي أيام محمد علي كان هناك الأمير بشير ، وكان صنوا لفخر الدين المكي في الخروج على الدولة ، ولكنه كان ذا ذهن متفتح يفكر في الإصلاح والانسلاخ عن الدولة وإنشاء دولة حديثة فأشبه محمد علي في ذلك ، ولكنه لم يقلح نظرا لطبيعة البلاد ، فظل « مقاطعجي » كما كان يقال ، وقد أراد محمد علي التعاون معه ، ولكنه لم يكن خالص النية فلم ينجح التعاون ثم إن إمكاناته المادية كانت قليلة ، وكانت قوته الحقيقية في أيدي أتباعه ، ولهذا لم يستطع في النهاية شيئا .

ثم جاء الحكم المصري واستقر « إبراهيم باشا » في دمشق ومعه قوة عسكرية منظمة تقوم على حنود مصريين ومدنيين وأسلحة حديثة ونظام محكم رسمه مع « إبراهيم باشا » الكولونيل « سيف » فقضى في وقت قصير على البدو الذين كانوا آفة الأمن والنظام في البلاد وألغيت الإقطاعيات وقام في المدن والعواصم حكام نظاميون من رجال الدولة المصرية وأقر « إبراهيم » النظام في النواحي ووضع نظاما ماليا قائما على ضرائب منتظمة كما كان الحال في مصر ، وكانت هذه الضرائب من أكبر أسباب المتاعب .

وكان محمد علي قد أقام سلطانه في الشام على رغم الدولة العثمانية التي كانت قد عوضته عن جهوده في جزيرة العرب واليونان باقطاعه ولاية « كربد » وعندما احتج محمد علي أعطته « غزة » وصيدا فحسب دون لبنان أو دواخل البلاد فثار محمد علي على الأمر وفرض سلطانه على الشام كله ودخلته جيوشه وأخرجت ولادة آل عثمان وحصنت الشام عند جبال « طوروس » واستعانت الدولة العثمانية بمحاربتها وبخاصة الإنجليز وترىث هؤلاء وفكروا في التوسط وإن كانوا قد كرهوا امتداد دولته كراهة شديدة ، فهي تريد أن تظل الدولة العثمانية على حالها السيء حتى تموت في مكانها ثم تأخذ من تركها أقصى ما تستطيع ، وهذه الدولة المصرية العربية الجديدة تفسد عليها كل سياستها .

ولكن محمد علي كان يأمل أن يكسب إنجلترا إلى جانبه ، وكانت فرنسا تؤيده ، لا حبا فيه ، وإنما كراهة في بريطانيا ولهذا فقد أعلن « إبراهيم » حرية واسعة في بلاد الشام وفتح أبوابها للأجانب فتدافع القناصل إلى دواخل البلاد ، وأرادت إنجلترا

أن تدل بسلطانها فجعلت قنصلها يدخل دمشق في موكب حافل ، وكانت تلك أول مرة يدخل دمشق قنصل أجنبي مسيحي ، وأرسلت أمريكا قنصلها ، وكان دافعها الأساسي دينيا ، فقد دخلت لتعاون المسيحيين ، وبلغ من وقاحة وكيل القنصل الأمريكي في القدس أنه أراد أن يرفع العلم الأمريكي ، فأنكر الناس عليه هذا فلم يكثرث فقام عليه الناس وطردوه من البلد وأهدتهم الحكومة في ذلك ترضية للأهالي وبشت أمريكا بإرساليات دينية أنشأت مدرسة في جبل لبنان ، وفي هذه المدرسة عمل « البستاني » و « اليازجي » مع الأمريكين والإنجليز في دراسة اللغة العربية ، وكان البستاني « اليازجي » رجلين ممتازين عملا في جد مع الأمريكين والإنجليز . وترجما مؤلفات غربية كثيرة فكانت نتيجة ذلك ما عرف بالنهضة الفكرية العربية الحديثة التي ينسبها الغربيون إلى هذا الذي ظهر في لبنان ، وهو كما ترى نتيجة للعمل المصري ، وثمرة من ثمرات النهضة المصرية ، ولم يعترف رؤساء الشام بمعمل مصر قتلوا ووقفوا إلى جانب أعداء « إبراهيم » لتعود الحال إلى ما كانت عليه .

وبالفعل اضطر محمد علي إلى سحب قواته من الشام والاكتفاء بمصر وراثية في آل بيته بمعاهدة (لندن ١٨٤٠) كما قلنا سلفا .



وهذه المعاهدة الأمريكية اعقبتها معاهدة فرنسية في بلاد الشام ، وخرجت من محنة العصور الوسطى وضياح الدولة العثمانية . حقا أن بلاد الشام عادت إلى الدولة العثمانية بعد خروج المصريين ولكن الباب انفتح ورياح التغيير هبت قالت د . لطيفة سالم : « ومع سياسة الانفتاح توافد الأجانب على البلاد ، ويذكر « يورنج » أنه لم يعد هناك أقل خطر على الأوروبيين الذين راحوا يتجولون في دمشق بمفردهم وبملايسهم الخاصة بهم ويذهبون إلى أي مكان يريدونه متمتعين بالأمن التام دون أن تنجبه إليهم الأنظار . وعلى هذا زادت الثقة وساد الاطمئنان وانفتح المجال أمام السياحة ، وخرجت التوصيات من محمد علي إلى المسلمين بشأن الرحالة الأجانب وقد تحسنت أحوال الناس في بلاد الشام وانتعشت التجارة وانفتحت الأسواق وتحسنت الأحوال نتيجة للسياسة المصرية المعتدلة ولم يكن يضايق الناس إلا الضرائب التي فرضها النظام المصري ، ولم يكن منها بد ، ومع أن الناس كانوا يدفعون قبل ذلك أضعاف الضرائب المصرية فإن كبار الناس وزعماء الطوائف والجماعات كانوا

لا يدفعون بل يأخذون ، أما في ظل النظام المصري فكان عليهم أن يدفعوا مثل غيرهم ، ومن هنا فقد كانوا يفضلون العودة إلى الدولة العثمانية ، لأن جماهير الناس في بلاد الشام كانت لا وزن لها في ذلك العصر ، إنما الأهمية كلها كانت لزعماء الطوائف والجماعات ، ومع أن الولاة السابقين من أمثال « أحمد باشا الجزائر » تمتصوا بمزايا كثيرة أثناء الحكم المصري فإنهم فقدوا سلطانهم السياسي . وهذا لم يكن يرضهم والأمر « بشير » زعيم الدروز القوي انضم إلى المصريين وكسب منهم كثيرا ولكنه ظل في الباطن يفضل العودة إلى النظام العثماني .

وقد نجح محمد علي في الاتفاق مع الدولة العثمانية على حكم الشام لقاء جزية قدرها (٣٢٠٠٠ كيس) ولكن الدولة لم تكف عن التآمر عليه والعمل مع بريطانيا ضده . وكانت روسيا قد أعلنت — عندما توالى انتصارات المصريين على الأتراك — حمايتها على الدولة العثمانية ، وهذا كان يخيف بريطانيا ويدفعها إلى العمل بكل قواها لإخراج محمد علي من الشام ، وأيدتها الدولة العثمانية وكل أنصار النظام القديم ، وقد حصلت بريطانيا من الدول الأوروبية — عدا فرنسا — على موافقة على التدخل العسكري في بلاد الشام ، وحرضت تركيا أنصارها في الشام فقامت الثورة على المصريين في كل مكان ، ونزل الجنود البريطانيون أرض الشام وكان يقود قواتها ضابط صغير يسمى نايبير وكان « إبراهيم » يستطيع الانتصار عليه بكل سهولة ولكن محمد علي ارتعب وخائنه شجاعته ، فقرر الانسحاب بمقتضى (معاهدة لندن سنة ١٨٤٠) وانتهت المغامرة المصرية في بلاد الشام ، وعادت إلى الدولة العثمانية .

والعودة إلى الدولة العثمانية كانت تعنى إذ ذاك أمرين أساسيين :

الأول : هو العودة إلى المظالم القديمة والركود الحضارى ونظام العشائر والمقاطعية في بلاد مثل الشام والعراق ، بل في مصر أيضا التي لم تسلم رغم استقلالها الشكلي تحت نظام الخديوية فقد عادت ابتداء من أيام عباس الأول إلى كل مساوئ الحكم العثماني ، أما الأمر الثاني : فهو العودة إلى نظام الامتيازات الأجنبية . وهذه الامتيازات كانت في أصلها اتفاقا تم بين السلطان « سليمان القانوني » وملك فرنسا (فرانسوا الأول) (سنة ١٥٣٥) على أن يكون لفرنسا حق رعاية المصالح الدينية للكاتوليك في أراضي الدولة ، والاتفاق في منشعه لم يكن مبيحا جدا إذا هو اقتصر على معاونات تقدمها فرنسا للمنشآت الدينية الكاثوليكية ، ولكنه

تطور مع الزمن ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وقصر نظر رجالها وسوء نية فرنسا ، فأصبح امتيازاً قضائياً ، بمعنى أن الكاثوليك لا يخضعون للشريعة الإسلامية بل لقوانين بلادهم ، وتحوّلت الفصلات إلى محاكم وصار الأجنى يقرّف الجنابة وتعجز السلطات المحلية عن مقاومته لأن ذلك كان يد قنصل دوله ، وهنا نجد أن روسيا تطالب بنفس الامتياز للرعايا الأرثوذكس ، ثم طالبت انجلترا بنفس الحق وأصرّت على أن تتولى شؤون البروتستانت ، ولم تستطع الدولة العثمانية إلا الخضوع ، وامتد هذا الامتياز وتشعب حتى إذا وصلنا إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر وجدنا الأوروبيين في البلاد الإسلامية (الخاضعة للدولة العثمانية) يتميزون على أهل البلاد بميزات دينية وقضائية واقتصادية وسياسية . وهذه الامتيازات أصبحت كارثة كبرى على تلك البلاد ، وهى نتيجة لخضوعها للسلطان العثماني وقد كانت لذلك آثار سياسية واجتماعية سيئة جداً ، وكانت — في مصر مثلاً — كارثة حقيقية كان على المصريين أن يتخلصوا منها ، ومع أن أى خليفه لمصر كان يستطيع أن يعلن أنه غير مقيد بهذه الامتيازات ويلغنها في مصر دون أن تعرض الدول على ذلك اعتراضاً جدياً لأنه غير قانونى أو منطقي ، فإن الخديوية المصرية لم تفعل ذلك لأنها كانت في الحقيقة جزءاً من التركيبة العامة للعثمانية ، وكان لا بد أن تتغير الدولة العثمانية كلها لكي تتغير هذه المساوئ كلها وما أدت إليه من احتلال سياسى وتأخر واستغلال .

* * *

وما دامت السلطنة العثمانية قد تعرّفت إلى هذه الصورة ، والخلافة العثمانية كانت قد ألغيت على يد الكماليين (سنة ١٩٢٥) وأخرج السلطان ، عيد المجيد ، آخر الخلفاء من استامبول ليجيش بقية حياته منفياً في باريس ، فقد آن الأوان لتصفية تركتها على النحو الذى كانت بريطانيا تفكر فيه طوال القرن التاسع عشر ثم دخلت فرنسا معها في تلك القسمة بعد أن تحالفتا معا في حرب ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وهذه التركة تلتخص في العراق وبلاد الشام والحجاز ، أما مصر فقد كانت بريطانيا قد احتلتها فعلاً في (سبتمبر ١٨٨٢) مع الاعتراف ببقائها ظاهرياً ولاية عثمانية وقامت مصر بكفاحها الطويل للاستقلال الذى قاده زعماء أبطال نجحوا بالفعل في إيقاف حركة قومية متعيرة ظهرت في صورتها الرائعة في ثورة (سنة ١٩١٩) التى سنحكيها في فقرة خاصة .

وأما الحجاز فقد كان الشريف « الحسين بن علي » قد فكر في القيام بحركة سياسية أثبتت الأيام أنها كانت من أضر الحركات بالقضية العربية بصورة عامة ، فكر في أن ينضم إلى بريطانيا والحلفاء وينقلب على الدولة العثمانية يعلن عليها الحرب ، وتلك هي الحركة التي عرفت في أيامها بالثورة العربية الكبرى ، ولم تكن ثورة ولا عربية ولا كبرى ، لأن ذلك الرجل لم تكن لديه أدنى فكرة عن حقيقة نفسه أو عن طبيعة الدول التي أراد محالفها ، فقد كان في حقيقته واليا من أصغر ولادة الدولة العثمانية سياسيا وعسكريا ، ولكن وجود الحرمين الشريفين الإسلاميين في بلاده يحيل له أن ذلك يؤهله لكي يكون خليفة المسلمين ، وعندما بدأ يتفاهم مع بريطانيا على القيام بثورة على الأتراك كانت تلك هي الناحية التي أهتمت بريطانيا في الموضوع كله ، لأن قيام والي الحرمين بالثورة على العثمانيين وادعاء الخلافة من دونهم والانضمام إلى الحلفاء في حربهم كان كقبلا بإضعاف مركز الأتراك في بلاد الإسلام ، وكان الأتراك أيامها يحكمون الشام ولهم قوة عسكرية فيه تحاول مهاجمة بريطانيا في مصر .

ثم إن مركز الحلفاء العسكري كان سيئا جدا حوالي (١٩١٧) فألمانيا تنزل المزامم المتوالية بالروس على الجبهة الشرقية وغار حرب خنادق مريرة ومتنصرة — إلى حد ما — على الجبهة الغربية ، فمثل هذه الحركة العربية كانت جذيرة بأن ترفع القوى المعنوية للإنجليز لأنها تحبر ضربة فاصمة لتركيا خليفة ألمانيا ونصرا كبيرا للإنجليز ، ومع علمها بأن الشريف حسين ليس له إلا وزن ضئيل جدا من الناحيتين : العسكرية والسياسية ، فقد أقدمت على التفاوض معه وإعطائه وعدا بإنشاء دولة عربية كبرى تشمل : الشام وجزيرة العرب ، وكانت تعلم أن شيئا من هذا لن يتم إذا ما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، بل إن بريطانيا كانت تتفاوض في نفس الوقت — بصورة جديدة — مع الصهيونية العالمية على إنشاء وطن قومي لليهود في أرض فلسطين لقاء عون مالي كبير قدمه اليهود ، ونظرا لما كانت بريطانيا تعرف من سلطان اليهود في الولايات المتحدة ، فقد فكر اللورد « بالقور » الذي أعطى اليهود هذا الوعد في أن ذلك الوعد سيجعل يهود الولايات المتحدة يذلون أقصى ما في وسعهم في إقناع أمريكا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، فإذا حدث ذلك ضمن الحلفاء النصر على الألمان الذين كانوا قد أنهكتهم الحرب وباتوا في حالة يرثى لها من الضعف أولئح (١٩١٧) .

وقد تلخصت الثورة العربية « الكبرى » في قيام نحو ألف جندي من جنود الشريف معهاجمة حركة الوالي التركي في جلة وإعلان الشريف « حسين » الحرب على الدولة العثمانية ، وكانت الدولة إذ ذاك في موقف سيء جدا مع الوطنيين في بلاد الشام الذين انتصروا يقاتلون جمال باشا الوالي العثماني ، وقد تمسك لهذه الثورة العربية نفر من أهل سوريا وفلسطين واجتمع بعضهم في دمشق وأعلنوا الخلافة العربية وكان من بين هؤلاء « رشيد رضا » تلميذ الإمام « محمد عبده » وذهب في زحفه بالغ إلى دمشق لكي يشترك في مبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكا على بلاد الشام . أما الأتراك فقد تقدمت قوة منهم وحاولت عبور قناة السويس ودخول مصر فانهمزمت ، ومن الغريب أن الذين هزموها كانوا بعض فرق الجيش المصري الذي أبقى عليه الإنجليز في حدود (١٧٠٠٠ رجل) ، هذا ولم تدخل مصر الحرب إلى جانب بريطانيا لأن هذا كان رأى السير جون جورست الذي تولى أمر مصر بعد كرومر ، وقد رأى ذلك — وأيده فيه مصطفى فهمي باشا رئيس وزراء مصر أيام الحماية — حتى يحرم مصر من ثمرة أي نصر للحلفاء ومع هذا فما هم المصريون يكسبون نصرا على الأتراك لحساب بريطانيا وتظل بلادهم رغم ذلك محمية بريطانية .

وتقدمت قوة بريطانية أتت من مصر والعراق في بلاد الشام شمالا بقودها اللورد اللنبي وانتصرت على الأتراك في موقعة « مجلو » ودخل اللورد اللنبي دمشق وبدد أحلام فيصل بن الحسين والقدس وأعلن أنه انتقم لنصر « صلاح الدين » على الصليبيين وانتزاعه القدس منهم سنة (١١٨٧ — ١١٨٨) .

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب تبين أن احتلرا وفرنسا كانا قد تقامتا العراق وبلاد الشام في (معاهدة) وضعها بريطاني يسمى سايكس وفرنسي يسمى بيكو (معاهدة سايكس — بيكو) وبمقتضاها توضع العراق تحت الانتداب الإنجليزي وتنقسم بلاد الشام إلى أربع وحدات سياسية : سوريا ولبنان وتكونان من نصيب فرنسا وفلسطين والأردن وتكونان لبريطانيا ، وبريطانيا بعد الحرب فتحت أبواب فلسطين لليهود وأقيم السير هربرت صمويل — وهو يهودي اختاره وايزمان — للندوب السامي لإنجلترا في فلسطين لتنفيذ السياسة الصهيونية .

وأما سوريا فقد حكمتها فرنسا حكما عسكريا متعسفا منذ بداية الانتداب (سنة ١٩٢٠) فقامت الثورة السورية الكبرى التي قادها « سلطان باشا الأطرش » في

جبل الدروز فيما بين سنتي (١٩٢٥ - ١٩٢٧) وقد أخذها الفرنسيون بأعنف الأساليب العسكرية ، ولكن التذمر ضد الفرنسيين استمر فلجأت فرنسا إلى المهادنة وأعلنت سنة (١٩٣٠) أنها مستعدة لإقامة نظام نيابي تحت السيطرة الفرنسية في البلاد ، ووضع دستور شكلي ، وقام في البلاد برلمان ولكن الثورة عادت فقامت في صورة شاملة سنة (١٩٣٦) ولجأ الفرنسيون إلى أشد وسائل العنف وضربوا دمشق بالمدافع دون جدوى واضطرت فرنسا إلى تغيير سياستها وعقد معاهدة مع السوريين في أواخر (١٩٣٦) بعد مفاوضات قام بها « هاشم الاتاسي » وقد ظلت الأحوال في سوريا قلقة حتى قامت الحرب العالمية الثانية وانهمزت فرنسا ضمنت سوريا من الحصول على استقلالها في (٢١ سبتمبر ١٩٤١) وعادت فرنسا إلى استعمال أقصى أساليب العنف مع السوريين مما اضطرت إنجلترا إلى التدخل ، وفي سنة (١٩٤٦) حصلت سوريا على استقلالها التام .

ومر لبنان أيضا بتجارب قاسية مع الفرنسيين أثناء الاحتلال الفرنسي حتى حصل على استقلاله التام سنة (١٩٤٦) ولكن فرنسا كانت وضعت في لبنان ذلك النظام الأعرج الذي يعتبر سبب البلاء كله في ذلك القطر النشيط وهو اشتراط أن يكون رئيس جمهورية لبنان مارونيا كاثوليكية أي من أقل طوائف سكان البلاد وبإيه رئيس الوزارة ويكون مسلما سنيا وهكذا تنقسم السلطات بحسب مصالح فئات دينية وعرقية ، وفي أسفل السلم وضع الشيعة اللبنانيون وهم من أكثر سكان لبنان عدداً وأشدهم فقراً ، وثبتت صورة هذا النظام الطائفي العشائري ولكل طائفة قواتها العسكرية المسلحة ، ففي الستينيات من هذا القرن ، وهو العصر الذهبي للبنان الحديث كانت البلاد تتمتع برخاء عظيم جداً نظراً لنشاط اللبنانيين وقدرتهم على إدارة الأعمال والأموال وتدفقت أموال العرب وكثرت الأموال في أيدي طوائف معينة من أهل لبنان معظمها من الموارنة الكاثوليك والروم الأرثوذكس . والأغنياء صاروا أغنى والفقراء صاروا أفقر ، ولم يفكر أحد في إصلاح النظام الخطر الذي وضعه الفرنسيون للبلاد . واستلكت بعض طوائف الموارنة قرى كاملة وما حولها من الأرض وأنشأوا فيها صناعات تقوم على عمل قليل ولكنها حسنة المنظر متقنة الصنعة لأن معظمها كانت فروع صناعات أوروبية واسعة التوزيع يشترون أذنون صنعها ويصدرونها بمقادير ومكاسب هائلة إلى البلاد العربية .

وهذا الرخاء زاد في توسيع الشقة بين طوائف لبنان وزاد عمق الأحقاد الطائفية ، وفي الستينيات أنشأ « بير الجميل » فرق الكتائب العسكرية اللبنانية ، وجانب كبير جداً من الأموال التي انشئت بها هذه الكتائب وجرائدها ومطابعها أتى من مصر ، لأن جمال عبد الناصر في طاعته إلى سيادة سوريا ولبنان صار يعرف من مال مصر ويلقى به هناك خصوصاً بعد أن كسر السوريون وحدة مصر وسوريا التي أنشأها عبد الناصر إنشاء هو أو عى حتى من نسيج العنكبوت .

وسوريا بعد الانفصال عن مصر سادتها طائفة عسكرية من النصريين العلويين وهم ليسوا مسلمين ، بل إنهم اضطهدوا المسلمين في حلب وحماة وأوقعوا بهم للمذابح وأقاموا نظاما عسكريا يعتمد على سند عسكري من روسيا وسند مالى من بعض البلاد العربية وصارت مع الزمن شوكة في جنب الوحدة العربية وانضمت إلى طائفة تستطيع ان نسميها بطائفة المشاغبين العرب تحالف إيران على العراق وتؤيده ليبيا التي تحولت إلى إقطاعية عسكرية يحكمها العقيد معمر القذافي الذي حمل يتصرف في ثروة البترول والغاز التي أنعم الله بها على ليبيا وأخرجها به من عالم الفقر إلى عالم العنى والسعادة ، ولكن القذافي رد الليبيين إلى الضيق والحاجة تحت ستار ما سماه بالاشتراكية الديمقراطية . وعندما تقسم عائدات البترول والغاز الليبيين على عدد السكان نجد أن الفرد الليبي يخرج بأعلى دخل في العالم فهو قرابة (تسعة آلاف دولار) في السنة ، ولكن الليبي لا يجد بين يديه من هذا الدخل إلا القليل ، ثم انه لا يجد ما يشتريه لأن الحكومة تسيطر على الأسواق والعقول والأموال وكل شيء . وربما كان السوريون في ظل الاستبداد النصري أحسن حالا من الليبيين لأن السوري ذكى متعلم صاحب تجربة ، وقد ترك السياسة للمستبددين وانصرف إلى حياته وصنعه وزرع وحسنا فعل : ولماذا التعرض للمذابح كل يوم وهذا النظام كله لا بد أن ينهار من أساسه لأنه غير طبيعي أو معقول ولا يخدم مصالح سوريا ؟ ، وكل نظام من هذا النوع لا بد أن ينهار ، والأوطان لا بد أن تعود إلى أهلها وأصحابها الشرعيين .

ومصر بعد ثورة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) واستقلالها نهائيا عن الإنجليز خاضت تجارب شتى في ظل العسكرية الناصرية ، ووصل بها الأمر إلى حضيض الفوضى الساحقة (يونيو ١٩٦٧) وضاعت منها سيناء وتمطلت قناة السويس ، ثم أفلقت إلى نفسها وأعدت جيشها وانتصرت على إسرائيل في (أكتوبر ١٩٧٣) ثم عقدت

معاهدة صلح مع إسرائيل (سنة ١٩٧٧) واستردت سيناء وأعدت افتتاح القناة . وكان الرئيس « السادات » قد فتح باب الديمقراطية والانفتاح الاقتصادى فأكمل ذلك كله خليفته الرئيس « محمد حسنى مبارك » ، ومصر كلها تعمل اليوم لبناء نفسها من جديد بلا هروب ولا انقلابات أو استجداعات لا تؤدى فى الغالب إلا إلى غراب البيوت والبلاد ، وقد تركت وراءها « دوشة » الجامعة العربية ، وهى طابورس بلا ذيل ولكنها لم تترك العرب وبعد أن نقرأ الفقرة التالية عن نهضة بلاد العرب فى ظل الدولة السعودية وبقية بلاد الخليج سنجد أن طريق مصر السياسى الصحيح هو طريق السعودية والتركيز على البحر الأحمر الذى هو بحر العرب حقا ، وعلى ضفة هذا البحر أيضاً يقوم السودان وهو شريك مصر فى رادى النيل ، وطريقهما واحد دون وحدة سياسية ، وثالث (السعودية — مصر — السودان) سيتحول إلى ربوع بعد استقلال آريتريا وهو أمر حتمى وهذه الوحدة (القلبية) الرباعية والعقلية تستطيع أن تقدم أجل الخدمات لنفسها وليقية العرب إن شاء الله .

وفى (سنة ١٩٧٧) اندلعت الحرب الأهلية فى لبنان ، وهى حرب أهلية طائفية أثارها فى لبنان نفس الذين أقاموا بنيانه الواهى بعد الاستقلال (الشكل) عن فرنسا سواء كانوا من داخل البلد أو خارجه . وأسباب الحرب الأهلية هى التناقضات التى كانت فى بناء البلد كله ، وبحسب الناس أن مسائل القناصة وخطف الناس والسوق السوداء والميليشيات أشياء جديدة والحقيقة أنها كلها قديمة ، وبعد انشاء « بيبير الجميل » لكتابه المارونية نشأت كتائب الطوائف الأخرى من دروز وشيعة ، ومدت إيران يدها بعد ثورتها فأقامت كتائب الشيعة فى جنوب لبنان ، وقد اشتد عودها ونشأت إلى جانبها جماعات محاربة أخرى أكثر تطرفا مثل (حزب الله) ، وجعلت الطوائف تتحارب فيما بينها حتى تحربت بيروت وطرابلس وصور وصيدا ، ودخلت سوريا ثم إسرائيل الميدان ومضت النار ترمى فى الحطب حتى سقطت الليرة اللبنانية وبدأت الصحف الطائفية تتصفى .

وستستمر هذه الحرب الأهلية حتى تتصفى كل عناصر البناء القديم ويمكن إقامة لبنان جديد على أسس قومية مقبولة من أهل البلاد فليس بدعا أن تكون فى البلد طوائف ، ولكن البدع أن تستبد أقلية من السكان بالأكثرية وأن يكون واحد على عشرة من السكان غنيا إلى درجة التخممة والأعشار التسعة الباقية تنقسم بينها الفقر والمذلة .

ولكن أعظم الحوادث في تاريخ النهضة العربية بعد اليقظة في مصر وتصدع الحواجز بين مصر والشام من ناحية والقرب من ناحية أخرى هو قيام الدولة السعودية في جزيرة العرب ذلك أن العرب الذين أنشأوا لمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس أوطانهم العربية الإسلامية شغلهم تصاريح التاريخ عن أن ينشئوا لأنفسهم وطناً في جزيرتهم . كان القرآن والإسلام ورسوله قد بهروا عقولهم وأيقظوا بصائرهم فاندفعوا خارج الجزيرة يقتحون وينشرون الإسلام والعروبة . وفي النهاية لم يبق لهم في جزيرتهم إلا نزر يسير من القوة . وكان انتقال قاعدة الخلافة إلى دمشق ثم بغداد قد ألحق بجزيرة العرب ضرراً بليغاً ، فإن خلفاء بني أمية أساءوا استعمار العرب ولم يحسنوا معاملتهم ، أما العباسيون وهم عرب هاشميون صليبة فقد آذوا ظهورهم للعرب ثم أسقطوهم من الحساب جملة وباستثناء الحجاز وهو موطن الحرمين الشريفين ومقصد الحجاج وسقط على بقية الجزيرة ستار وساد الظلام ولم يعد أحد يعرف على وجه التحقيق ماذا يجري هناك فيما عدا أخباراً كثيرة مبهمه ومتضاربة كانت تصل إلى الخارج عن اليمن ، لأن اليمنيين عرب نشيطون جداً ، وأكثر من نصف البناء الحضاري الذي أقامه العرب خارج الجزيرة قام به أعلى اليمن ، ثم إن اليمنى يجب وطنه ويتلمس أخباره مهما كان موضعه ، والعلّة الكبرى التي ضيعت الكثير من جهود اليمن هي أن كل يمنى يريد اليمن كله لنفسه وحده ، فكفر التنافس والتناحر وأصبح تاريخ اليمن طويلاً جداً وقصيراً جداً في آن معا .

وفيما عدا حركة القرامطة — وهي حركة قبلية سياسية أرادت أن تنشئ دولة شيعية مركزها البحرين والأحساء . ولكن شركاها في التدبير الأول وهم الفاطميون سبقوا القرامطة وأنشأوا لأنفسهم خلافة في أفريقيا أولاً ثم انتقلت إلى مصر (سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ — ٩٧٣ م) تصدوا للقرامطة فمضى هؤلاء يخطون خيط عشواء ، فهم يغزون جنوب العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز ، وفي إحدى ضرباتهم للحجاز اغتصبوا الحجر الأسود ، وأخذوه إلى البحرين ، وظل عندهم حتى استرده منهم الخليفة الفاطمي العزيز ، ثم تلاشت الأحلام القرمطية وعصفت بها رياح التاريخ وعاد الظلام . وبعد ذلك هاجر بنو هلال ابن صعصعة بن عامر وبنو سليم بن منصور إلى مصر ثم إلى المغرب حيث غيروا وجه تاريخه ، أما من بقي منهم في الجزيرة فقد اندرجوا في طي النسيان ، وكانت هجرة بني هلال وبنو سليم في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ظهر محمد بن عبد الوهاب ونشر دعوته ومضى يدعو إلى التوحيد ويحرم على الناس الإيمان بأدعياء الولاية ، وقام مع أنصاره بهدم القبور لأن الناس كانوا يعتقدون أن الموتي يتوسطون لهم عند الله وتطلع الأشجار التي كان الناس يقصدونها ويعلقون عليها أقمشة وأشياء يؤمنون بها ، وجعل يعلم الناس الوضوء والصلاة والقرآن والفقه على مذهب « ابن حنبل » فقلق عثمان بن معمر ، ثم جاءه أمر من أمير الاحساء بإخراج « محمد بن عبد الوهاب » من بلده لأنه كما زعم رجل خطر ودعوته خطيرة على سلطات الأمراء ، وأظهر عثمان بن معمر الرغبة في أن يغادر محمد عبد الوهاب بلده إذا أصر على مواصلة نشاطه في الدعوة . فاضطر الرجل إلى ترك العينة والمجرة إلى « الدرعية » مقر إمارة آل سعود فقد كان له هناك أنصار ومؤيدون كثيرون ، ونزل هناك على أحد تلاميذه ومجيبه وكان ذلك سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م وكان ذلك فائحة النصر لدعوته الإسلامية السلفية والله سبحانه وتعالى يصرف الأمور على ما فيه خير الناس .

ذلك أن الأمير « محمد بن سعود » أمير « الدرعية » التقى والشيخ « محمد بن عبد الوهاب » في بيت تلميذه وأخذ يسأل عن الدعوة ومحتواها وأهدافها وعن آراء محمد بن عبد الوهاب وما يرمى إليه ، فلما سمع كلام الشيخ وما يدعو إليه من إصلاح أمر الناس وتطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات والأوهام لتعود عقيدة التوحيد نقية صافية من كل البدع وأعمال الكفر التي ألصقتها بها أهل الجهل والعدوان وقال له إنه يدعو إلى ما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأدرك الأمير « محمد بن سعود » أهمية هذه الدعوة وسبر أغوارها وأدرك ما تؤدي إليه من خير عظيم للإسلام وأهله ، فوعده « محمد بن عبد الوهاب » بالنصر والمؤازرة والعمل على نشر هذه الدعوة الكريمة بكل سبيل ، ووعده « محمد بن عبد الوهاب » بنصر من الله وعزة وتمكين ، وتم الاتفاق بين الرجلين على ذلك وكان هذا الاتفاق فائحة خير للرجلين ، وكان بشرى بخير عظيم لجزيرة العرب وأهلها ونصر من الله عظيم للإسلام وأهله .

ذلك أن بيعة الأمير « محمد بن سعود » للشيخ « محمد بن عبد الوهاب » كانت بيعة صادقة قامت على نية طيبة واستعداد للعمل عظيم ، ولهذا فقد طلب « محمد ابن سعود » إلى الشيخ أن يستقر في « الدرعية » ويتخذها مركزاً لدعوته وأعلن

استعداده للجهاد في سبيل الدعوة لنصر دين الله ورسوله وإقامة شريعة الإسلام الخفيف كما هي في القرآن الكريم وسنة رسوله الصادق الأمين .

بدء الجهاد والزهارة الدرعية في ظل الدعوة :

وأقبل محمد بن عبد الوهاب ، والأمير محمد بن سعود ، على العمل بنشاط بالغ ، فأما محمد بن عبد الوهاب ، فقد جعل بيته في الدرعية مركز تعليم ومحاضرة ، فقد كان الرجل عالما واسع العلم متفقه في الدين متمكنا من أصوله وشريعته ، وكان فصيح اللسان بليغ العبارة ، فأقبل عليه التلاميذ من كل صوب حتى أصبح البيت حقا وكأنه كلية ومركز دعوة إسلامية ، وأقبل رجال ابن سعود ، وأمرأى بيته على الدراسة على يدى ذلك الرجل الذى كان يتحدث في كل شيء بما في ذلك السياسة وأحوال المجتمع ، وتحولت الأسرة كلها برئاسة الأمير محمد بن سعود ، إلى قوة سياسية وعسكرية وإدارية من وراء الدعوة السنية . وشيثا فشيثا تحولت الدرعية إلى قوة علمية وسياسية كبرى وبدت فيها مظاهر نهضة عظيمة للإسلام وأهله .

وتلك هي الحقيقة التى عفيت على أهل العصر بل لا تزال تخفى على كثير من المؤرخين فهم يتحدثون عن النهضة العربية في مصر والشام ويقصرون كلامهم على ذلك ويمضون يتبعون الحوادث في الدولة العثمانية ومصر ، وهذا جانب من النهضة العربية في العصر الحديث ، ولكن الدعوة السلفية التى قادها الأمير محمد بن سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب كانت جانباً آخر لا يقل أهمية فقد كانت نهضة إسلامية حقيقية ، وفي تاريخ الإسلام والمسلمين نجد أن حركات النهوض والإصلاح والقوة العلمية والحضارية والسياسية ترتبط دائما بالإسلام وتنبع منه ، لأن الإسلام هو سر القوة الحقيقية في بلاد الإسلام وبفضله يكون النهوض ومنه تنتج حركات التجمع واستعادة القوة والنهوض من الضعف (لقد بلغ من غفلة أهل العصر عن أهمية هذه الدعوة وما يمكن أن تؤدي إليه من الخير أن الدولة العثمانية عادت دون أن تعرف حقيقتها ، وسرى بعد قليل أن الصراع سيقوم بين الجانبين ، لأن الدولة العثمانية كانت صاحبة الخلافة ومركز الإسلام التقليدى الحكومى وأقطابه هم : المفتى والقضاة والشيوخ الذين يقوم كل علمهم على الحفظ والاستظهار

والتسميع دون فهم كثير أحياناً ، ويدخل في نطاق هذا الإسلام الرسمي التقليدي مراكز العلم في استامبول وبلاد الشام والعراق ومصر ولم يكن كل أهل العلم في هذه البلاد على المستوى الذي ذكرناه من الركود والاستسلام ، بل كان هناك علماء أجلة ، والأزهر ظل حامل لواء العلم الإسلامي في عالم الإسلام ولكن المتفتحين من علمائه كانوا قليلين ، وهؤلاء القليلون لم يكن لهم حول ولا طول ، لأن الحول والطول في عصور الركود يكون لأهل النفاذة وأصحاب الوظائف والمتفرجين من السلطان وأهله . وهؤلاء — بطبيعة تكوينهم الاجتماعي — الأخلاقي — وقفوا من الدعوة السلفية التي نادى بها محمد عبد الوهاب ، وقادها محمد بن سعود ، موقف العداء دون أن يعرفوها ودون أن يقرأوا شيئاً مما كان الشيخ يكتبه ويبيع بنسخه إلى أهل العلم في عالم الإسلام ، وكتب الشيخ ومؤلفاته تنقسم إلى : كتب أصول ، أي أصول الإسلام كما هي في الكتاب والسنة ، وكتب فروع وهي كتب فقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام ابن تيمية ، بل إن الدولة العثمانية — في صراعها السياسي مع الدعوة السلفية وصفتها أنها حركة خارجة ورمتها بالإلحاد أو الكفر . ولكن الدعوة انتشرت بين جماهير أهل المدن في نجد ، ووصلت إلى مكة والمدينة في الحجاز ، وعرفها الكثير من أهل مصر والشام والعراق . وعندما بدأ نشاط الجهاد والفتح العسكري للدعوة ملأ الخوف قلوب أمراء الرياض ، وهم آل دهم بن دواس وعريعر بن دجين أمير الاحساء وآل الرشيد أصحاب حائل ، والبيتان الأخيران كانا من أنصار الدولة العثمانية ، وقد استجاب رجاؤهما إلى ما دعت إليه الدولة العثمانية من معاداة الدعوة .

وتوفي محمد بن عبد الوهاب في الدرعية سنة (١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م) بعد أن وضع أساس دعوته وثبت أركانها ، وكان آل سعود قد تبنوا الدعوة وتولوا نشرها في جزيرة العرب بالكلمة الطيبة والسيف أي الجهاد في سبيل الله . وكان لابد أن تخوض الدعوة صراعاً عنيفاً لكي تنشر مبادئها ، وفي ذلك الحين كانت الجزيرة مقسمة إلى إمارات وشيحات كبيرة أو صغيرة ، ولكنها كلها كانت ضعيفة وفقيرة ، وكانت الحروب بين بعضها البعض على قدم وساق ، ولكل منها قوة عسكرية من المقاتلين والبدو تعتمد على الجمال والخيل والسيوف والحراب ، وفي بعض الإمارات الساحلية مثل الكويت والاحساء وعمان عرف الناس شيئاً من الأسلحة النارية . وبهذه المناسبة نقول إن العرب الذين عرفوا الأسلحة النارية واستعملوها منذ القرن

السابع عشر الميلادي كانوا عرب المغرب الأقصى ، ولكنهم لم يجتهدوا في تعلم صنعها وتطوير هذا الصنع حتى يصبحوا على مستوى البلاد الأوروبية . لقد شغلهم صراعات العروش ومؤامرات القصور عن ذلك الأمر الرئيسي — وعن غيره من الأمور الرئيسية — فكلهم ذلك استغلهم ، وهم ملمون في ذلك لوما شديدا



ونعود إلى الدولة السعودية فنقول إن السعوديين بعد أن توفى الإمام « محمد ابن عبد الوهاب » كانوا قد تحولوا إلى قوة سياسية ومعنوية كبيرة ، واستقرت نفوسهم فكرة أنهم مكلفون بالقيام بنشر هذا المذهب وإصلاح العالم الإسلامي كد على أساسه وسرت في كيانهم قوة معنوية كبرى فانطلقوا ينفذون هذه الرسالة بحماس بالغ ، وتحركوا حركة سياسية وعسكرية واسعة لتحقيق هذه الغاية ، ودخلوا — نتيجة لذلك — في صراع مرير مع كل القوى السياسية داخل الجزيرة ، واصطدموا بالدولة العثمانية ومصر والإنجليز اصطداما عنيفا ، وكانوا بذلك أول بلد عربي يقوم بثورة إصلاحية عربية إسلامية أسيلة في العالم الإسلامي ، وهذه حقيقة لم ينته إليها معظم مؤرخي العصر ، ولابد لهذا أن يعاد وضع صورة التاريخ العربي الحديث وضعا جديدا ، وأن يدخل التعديل الجديد في الكتب المدرسية .

ولا يتسع المجال هنا لذكر تفاصيل ولكننا نقول إنه قد حكم السعودية إلى يومنا هذا ثمانية عشر ملكا وأميرا قام كل منهم بنصيب كبير أو صغير في إقامة بناء الدولة السعودية الصحيح .

وينقسم تاريخ السعودية إلى ثلاثة أدوار هي :

الدور الأول : ويبدأ منذ سنة (١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م) — وهي السنة التي انتقل فيها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » إلى بلدة « الدرعية » واتفق مع أميرها « محمد بن سعود » على تأييد دعوته ونشرها . ويعتبر هذا الاتفاق ميلادا للدولة السعودية وينتهي ذلك الدور الأول في سنة (١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م) وهي السنة التي استسلم فيها الإمام « عبد الله بن سعود » أمام « إبراهيم » باشا ابن محمد على قائد الحملة الثالثة على الجزيرة العربية .

الدور الثاني ، ويسمى هذا الدور بالدولة السعودية الثانية :

يبدأ من (سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م) وهي السنة التي استولى فيها الأمير تركي بن عبد الله وهو السادس من أمراء البيت السعودي على مدينة الرياض ، وحرر سائر بلاد نجد ، من السيطرة المصرية . وينتهي باستيلاء محمد بن عبد الله بن رشيد أمير حائل على الرياض ، وضمها إلى إمارته .

الدور الثالث : عصر الملك عبد العزيز آل سعود ، ومازال مستمرا إلى اليوم :

ويبدأ سنة (١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م) وهي السنة التي استولى فيها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على الرياض وجعلها قاعدة ملكه وشرع في إقامة المملكة العربية السعودية . وستحدث الآن عن تلك المرحلة الثالثة .

• • •

الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م) — (١٣٧٠ هـ / ١٩٥٣ م)

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في ذي الحجة (١٢٩٧ هـ / ديه مير ١٨٨٠ م) في ظروف عصيرة جدا للبيت السعودي ، فقد كان آل الرشيد أصحاب حائل قد استولوا على كل من نجد والرياض ، وخرج عبد العزيز مع أبيه عبد الرحمن لاجئين إلى الكويت . وكان عبد العزيز مقبلا من أول الأمر على الدراسة والقراءة والاطلاع ، وكان من حبوته معجبا بالملك فيصل (الأول) من تركي الذي تولى عرش السعودية مرتين ، فهو السابع والعاشر من أمراء هذا البيت ، وكان أميراً ذكياً دعوباً واسع الخيلة عظيم الإيمان صانع خورشيد باشا الوالي المصري على الحجاز وتفاهم معه ، وكان حورشيد رجلاً ناسلاً شهماً ، ثم عزل عن العرش وذهب إلى مصر مرتين وفر في المرتين وعاد إلى عرشه في السعودية واتفق مع الأتراك وأصبح سلطاناً على السعودية اسمياً واستطاع أن ينهض يشنون الإمارة السعودية ويلم شعنها ، وكانت من يوم ميلادها في صراع دائم مع جيرانهم وغيرهم في سبيل تنفيذ مبادئها . وقد حكم في المرتين ثلاثة وعشرين عاماً كلها متاعب ، وفي النهاية ، وبعد تمكن من توحيد الصفوف ، اختلف ابنه عبد الله و عبد سعود على العرش وعادت الحرب الأهلية .

كان عبد العزيز بن عبد الرحمن معجبا بفصيل هذا الذي جمع بين الإيمان والنبأ والذكاء وسعة الحيلة . ومنذ سنوات العمر الباكرة (سنوات الخروج من الصبوة إلى الشباب) بدأت تظهر ملامح الرجل الفريد في طرازه ، فهو غير مستريح في ضيافة مبارك الأمير أمير الكويت ، لأن عبارات بدوت من هذا الرجل فيها ما يجرح الشعور ، والفتى « عبد العزيز » يقادر الكويت ويعيش خارجها في العراء حياة شغل بالغ ، ولكنه كان يجد نفسه هناك حرا كريما على نفسه وعلى الفئة القليلة من الأصحاب الذين خرجوا معه . كان قد تعلم الفروسية والصيد وضرب السيف والرمي بالرمح ، ولا يخلو الأمر من صيد حلال يستمتع هو وأصحابه بلحمه ، هذا مع التفكير الدائم والقراءة المتصلة ، حتى إذا بلغ الفتى تسعة عشر عاما من عمره وتجمعت لديه أخبار صحيحة عن الرياض وحاكمها آل الرشيد واسمه « مجلان » وحصل « عبد العزيز » على بعض المدد من أمير الكويت وفي يوم محدد كان هو وأربعون رجلا من أنصاره يخرج أسوار الرياض ، وكان ذراعه الأيمن القائد ياسل « عبد الله بن جلوى » ورسم « عبد العزيز » الخطوة ثم باغت الرياض واقتحمها وقفل الوالى عجلان واستقر في القصر وفرت حامية ابن الرشيد وسيطر « عبد العزيز » على الرياض ، ونادى المنادى بعودة آل سعود إلى العرش ، وطرب الناس لذلك ورحبوا . وبعد أيام كان كل شيء في يديه ، ثم نادى أبناء وآله من الكويت فأقبلوا ، وتم عقد اجتماع عام في مسجد الرياض الكبير وتنازل الأمير « عبد الرحمن » عن العرش لولده « عبد العزيز » وبايحه بالإمارة وتبعه الناس . واستقام الأمر « لعبد العزيز » في الرياض سنة (١٩٠٢) ومن ذلك التاريخ إلى وفاته سنة (١٩٥٣) وأتم « عبد العزيز » بناء المملكة العربية السعودية على النحو الذي نراه اليوم .



وكتشرون من الناس يقولون (إلى اليوم) إن جزيرة العرب قبل « عبد العزيز » كانت مقسمة إلى أربعة أقسام : نجد — الحجاز — الإحساء — اليمن . ونحن نقول : لا أيها السادة لم تكن كذلك ، بل كانت مسحوقا من الرياضات والإمارات والمشيخات . وكل قرية كانت مشيخة أو إمارة ، والحرب بين هؤلاء كانت على قدم وساق . و « نجد » الذين يقولون إنها كانت موجودة كانت علما جغرافيا غير محدد المعالم أما سياسيا وتاريخيا فكانت هناك إمارات الرياض والحرج وسدير والجبلة وعينية وبيردة وشم (وهي حائل) وكل هذه — وغيرها كثير —

كانت إمارات مستقلة بعضها عن بعض وكانت الحرب دائمة بينها ، ويفغذى اليدهم هذه الحروب ، وهم عرب خلصاء ولكن المهن طحتهم وطول الفقر وتوالى عصور الظلم أخرجهم عن طبيعة البشر ، فهم مسلمون وغير مسلمين ، وهم عرب وغير عرب وبشر وغير بشر . رجال فيهم صلابة الحديد وشجاعة الأسود ولكن عقولهم خاوية ويطونهم خاوية وهم يطوون إلى الحرب طيارا لأول فرصة أو لقاء أو حال . وكان هذا هو الحال في كل نواحي الجزيرة .

وكان « عبد العزيز » يرى — وهنا يكمن جانب كبير جدا من عبقرية — أن كل شعوب الدنيا قد أنشأت لأنفسها دولا إلا العرب . العرب الذين أنشأوا لغيرهم عشرات الدول الكبيرة الناجحة ليست لهم دولة . وجزيرة العرب (وهى قلب الدنيا القديمة جغرافيا ومساحتها فوق الثانية ملايين من الكيلومترات) ليست دولة واحدة مع أن كل سكانها عرب مسلمون يتكلمون العربية . لابد إذن (لاهد) من إنشاء دولة عربية وشعب عربى أى شعب يؤمن بهذه الدولة ويعمل رايتها بين رايات الأمم . هنا تنهض الجزيرة وتأخذ مكانها ويحتدل ميزان العالم العربى كله .

تلك هى الغاية التى رسمها « عبد العزيز » لنفسه منذ اللحظة التى استعاد فيها ملك آباءه فى الرياض ومضى يعمل فى تودة — وبناء على خطوة — فى تنفيذها وإذا كانت الغاية نبيلة ورفيعة فقد كان الرجل من وراثتها أنبل وأجمل : كان شجاعا ذكيا بعيد النظر حازما مستنير البصيرة ، وكان قبل ذلك كله مسلما صحيح الإسلام ، ترقى فى مدرسة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ولم يكن مقيدا بكل كلمة قالها هذا المصلح العظيم بل كان مقيدا بفضائل الإسلام .

• • •

وبدا عبد العزيز بتوسيع إمارة الرياض نحو الجنوب ففتح الحرج والافلاج والحوطة والدواسر ليؤمن ظهره ، ثم اتفق مع مبارك الكبير على الأمير بن رشيد صاحب حائل الذى كان لا يزال يمينى نفسه باستعادة الرياض فأبأه « عبد العزيز » وأعادته إلى بلاده واضطره إلى أن يستقر فيما أعطاه الله من جبال شمر وقاعدتها حائل ، ثم فتح بلاد الوشم والمحمل وسوير . ثم وجد أن ابن رشيد لا يطمئن له جنب ، فهو يجمع القبائل والجنود ويستعين بالأتراك فجتمع « عبد العزيز » قوة ورسم خططه ووجه إلى ابن رشيد ثلاث ضربات قاصصات فى البكيرية والشنانة وروضة مهنا ، وكانت أوامره

البائسة للنهوض بالخلعة العثمانية — قد فكر في استقلال العرب ومصالحهم ، وعندما قام رجال « الاتحاد والترقي » في تركيا وأرغموه على إعلان الدستور ونشأ مجلس « المبعوثان » أى مجلس النواب قد اختار الأمير عبد الله أصغر أبناء الحسين بن علي وجعله يعيش في استانبول وأوسع كرامة ، ولكن المتحمسين من عرب الشام وفلسطين صالحوا العثمانيين على دخن ، ووقعت بينهم وبين جمال باشا والى التركى في دمشق مخاصمات مما اضطره — ولم يكن بالعاقل أو المخلص أو بعيد النظر — إلى إيقاع المذابح بالمعارضين من عرب الشام وفلسطين ، والأمير عبد الله غادر الآستانة مع أهله وعاد إلى الحجاز ليدير مع أبيه عطة لإنشاء خلافة عربية يكونون هم خلفاءها . ومن هناك اتصل بالندوب السامى في مصر اللورد كشنر في أمر ثورة العرب على الأتراك إذا قامت الحرب بين تركيا وانجلترا .

— وكان أهمها أكبر مستول بريطاني في الشرق الأوسط — لم يقل شيئا ، ولكنه أمر بأن يعاد الأمير — عبد الله بن حسين إلى الآستانة في سفينة بريطانية خاصة ، وكان ذاهبا هناك لحضور مجلس المبعوثان .

وعندما قامت الحرب الكبرى وخرج مركز الإنجليز أمام الألمان في الميادين احتاجوا لأى سند . وعندما بلغ مركزهم غاية الضعف سنة (١٩١٧) فاتحموا العرب فيما كانوا قد عرضوه عليهم ، والعرب — وهم هنا الحسن بن علي بن عون وآله وأنصاره من المتحمسين الشوام والفلسطينيين — استجابوا دون علم أو نظر للعواقب ، وبناء على اتفاق غير معقول بإنشاء دولة عربية تشمل الشام والحجاز — وبقيّة الجزيرة العربية بالتالى يجلس على عرشها الحسين تحرك العرب ، وكانت الحركة هزيلة ، وأعلن الحسين الانقلاب على خلافة آل عثمان ، وهاجم ألف جندي من رجاله القنصلية التركية في جده ، وللاريشال هنرى هانتيان اللبى أقبل من جنوب العراق بحيش ليلقى العثمانيين ، وهؤلاء حاولوا عبور قناة السويس لمهاجمة مصر ، والغريب أن الذين ردوهم عن مصر لم يكونوا الانجليز ، بل قطعة من الجيش المصرى الصغير الذى سمح الإنجليز للمصريين بأنشأه رد الأتراك واستشهد من الجانبين ناس ، والنسبى التقي والأتراك في موقعة مجدو ودخل القدس وحصل على لقب اللورد أوف مجدو ، ورغم لنفسه في عبارة وذيلة أنه استعاد القدس من صلاح الدين وتكشفت

الأمر عن أن الإنجليز أسدروا وعد « بالفور » لليهود يعدونهم فيه بالمعاونة في إنشاء وطن قومي لليهود (٢ سبتمبر ١٩١٧) .

ولكن الحسين بن علي في مكة كان قد اعتبر نفسه خليفة المسلمين بعد أن ألقى مصطفى كمال الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٢) وكان الإنجليز قد أعطوه مالا وسلاحا فاشتد عوده وقرر أن يسود شبه الجزيرة العربية . ولم يكن أمامه أقوى من « عبد العزيز آل سعود » ، وسلطنته تصل إلى تربة والحزمة غربا . وهاتان البلدتان — بين الطائف ومكة — كانتا تعينان الفاصل بين نجد والحجاز وعلى الرغم مما كان الحسين وابنه (قائد جيوشه) يبديان من الحسن نحو « ابن سعود » فإن الأمير عبد الله قائد قوات الحسين استولى على تربة واستخدموا المدافع والرشاشات و « تربة » كانت من بلاد « ابن سعود » ، وكان حاكمها خالد بن لؤي من رجال « ابن سعود » وفي سكون تام وصمت وحسم رسم « عبد العزيز آل سعود » خطته . وكانت قوة عبد الله بن الحسين سبعة آلاف جندي ، منهم ألفان من النظام . ولكن « عبد العزيز » استعد بما هو أقوى وأشد إخلاصا يقودهم خالد بن منصور بن لؤي وابن بجاد وكان هذا الأخير يقود قوة معظمها من المعظم وكان الهجوم ليلة (٢٥ شعبان ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) وأبادوا السريتين الأوليين من حرس الأمير عبد الله ثم هجموا على السرايا المقيمة عند مخيم الأمير عبد الله ، وكان الرجل من المعظم يهجم على الجندي القائم على المدفع ويذبحه ، وأخيراً هجموا على مخيم الأمير نفسه ، ففر لا يلقى على شيء ، ولم ينج من رجاله إلا بضعة ضباط . وفي الصباح قضى على بقية الجيش الحجازي وكانت قد لجأت إلى حصين . ونستطيع أن نقول إن قوة الأمير عبد الله كلها قد أيدت . وكانت هي العمود الفقري لقوة الحسين بن علي بن عون ، فأصبح كطير قطع جناحه فجن في الأرض يعاني آلام النزاع وبلغ قتل هذه المركبة من رجال الحسين خمسة آلاف رجل ، وغنمت قوات « ابن سعود » مفادير لا تحصى من السلاح والعتاد والمؤن . وسار « عبد العزيز » فدخل « الحزمة » و « تربة » وانتهى أمر شرفاء الحجاز في هذه الوقعة ، ولم يعد في الجزيرة كلها من يعارضه ، وطلبت إليه بريطانيا أن يرأف بالمهزوم ولا يدخل الطائف . وما كان الرجل بحاجة إلى دخول الطائف أو مكة وقتها ، فقد أصبحت كلها بلاده يدخلها حين يشاء .

في (١٥ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) اجتمع الناس من مختلف أنحاء الحجاز في المسجد الحرام وبايعوا السلطان « عبد العزيز » ملكا على الحجاز ، وأصبح

لقية ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، وأقام الملك ابنه الأمير فيصل حاكماً على الحجاز وعاد هو إلى الرياض .

هكذا قامت الدولة العربية التي كان يفكر فيها « عبد العزيز » منذ اللحظة الأولى . قامت للعرب إذن دولتهم كغيرهم من شعوب الأرض . قامت على أساس إسلامي أخلاقي متين ، فقد كان « عبد العزيز » مسلماً صادقاً وملكاً عظيماً ، وقد ضمت معظم الجزيرة فلم يترك إلا أمارات الخليج ، فهذه كانت أمارات جلييلة لها أمراء ذوو شرف وبلاد عمان ، فهذه سلطنة قديمة عريقة لها شخصيتها ودورها الباهر في تاريخ الجزيرة ، واليمن لأن الأمير يحيى حميد الدين تراسى عليه يستعطفه ، وعقدت بينهما معاهدة الطائف ، وقد دخلت فيها في المملكة العربية السعودية نجران وجيزان .

وكان « عبد العزيز » في أثناء ذلك كله يبني الدولة العربية الجديدة بناءً محكمًا . فالامارات تنشأ والتعليم يسير على قدم وساق وكل شيء يجري على تشريعة الإسلام . وبدأت عملية تحضير البدو ونقلهم من حياة البداوة التي وضحتنا إلى الاستقرار . وكانت وسيلته في ذلك إنشاء « المهاجر » التي سميت « الحجر » ، هناك يستقر الناس في الأرض ويعطون البنود وآلات الزرع ويعلمون الزراعة وتؤخذ منهم الجمال حتى لا يعطروا على ظهورها إلى الغفر ويعودوا إلى حياة الإبل وهي البداوة ، وأولاد هؤلاء الزراع هم الذين يكونون جانباً عظيماً من سكان السعودية ، فهم حضر عندهم المدارس والمستشفيات ، وأبواب التجارة مفتحة أمامهم وشيئا فشيئا ينشأ الشعب العربي السعودي الجديد الذي أصبح الآن عمادا من أعمدة العروبة وفي سنة (١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م) عقد أول عقد للتنقيب عن البترول مع شركة البترول العربية الأمريكية وهي « الأرامكو » وعندما توفي الملك عبد العزيز في (٢ ربيع الأول ١٣٧٣ هـ / ٩ نوفمبر ١٩٥٣ م) كان عود السعودية قد استقام وبدأ البترول يتدفق وكان خيراً وبركة على العرب والمسلمين جميعاً ، فإن أول ما انجذبت إليه همّة السعوديين للبذل والإنفاق كان الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، وقد ابدعوا في ذلك ابداعاً يشكروه لهم كل مسلم حج أو اعتمر أو زار مسجد الرسول (صلوات الله عليه) .

وقد أصبح الحرم للكي بفضلهم من تحف العمارة العالمية وأخذ الحرم كله صورة باهرة من الهندسة العظيمة على أيدي مهندسين من العرب ، واجتكرت أساليب

لتخفيف حرارة الشمس عن أقدام الطائفين على الرخام ، هذا غير المعنويات والمسمى العظيم ، ولا يزال الإنشاء مستمرا ، لأن الله سبحانه رزق عبد العزيز سلالة كريمة من الامراء التميزين بالفضل والإيمان والخير . نذكر منهم الملك « فيصل بن عبد العزيز » الذى كان آية في الخير والفضل والذكاء وكرم اليد .

وما نفع أحد العرب بعد نكسة (يونيو ١٩٦٧) كما نفهم « فيصل » الفاضل الكريم . وقد أشرت فيما سبق إلى ما يدور غتلى من أن محور القوة في عالم العرب ينبغي أن يقوم على محور من القوة واتحاد الغاية يمتد من الرياض إلى القاهرة . فيين السعودية ومصر يجرى البحر الأحمر وهو بحر العرب الذى أتمم فيه الاستعمار الحبيشة دون أى مربر ، فهذا البلد الذى كان قبل الحرب العالمية الأولى لا يملك ميناء واحدا على هذا البحر أصبح يملك — بوضع اليد الظالم على آريتها — (١٨٠٠ كيلو متر) من ساحل هذا البحر ، وإسرائيل من سينائها الصغير في ايلات ترسم خططها وترسم أحلاما . وهذا كله باطل . وهذا البحر لا يد أن يعود بحرا عربيا كما كان فهو في الحقيقة تحتدق العروبة ، وهو رابط بين مصر والسعودية لا فاصل . ولا بد من رسم سياسة محكمة للوصول إلى هذه الغاية ، وسواء دخل السودان في هذا المحور أم لم يدخل فإن مصلحته تفرض عليه أن يكتب فيه ، ولا يجوز أن ترسم سياسة وادى النيل ، أو أى جزء منه — في لندن أو نيويورك ، فإن القوة العسكرية أو المالية لا تصنع التاريخ بل تصنعه عزمات الرجال وإيمان القلوب والعلم الصحيح . والإسلام علم . والمسلمون مكانهم قيادة الأمور في بلادهم على الأقل . هنا تأخذ النهضة العربية شكلا جديدا يفتينا نهائيا عن الجامعة العربية التى هى فعلا شئ من مخلفات الماضى ، وقبل أن يعقد رجالها قمة يبادر بعض الأعضاء إلى هدمها .

والخصومات قائمة بين دولها ، وهى فعلا منقسمة إلى معسكرات ، ومن أعضائها من يسمون أنفسهم التقدميين وهى بلاد يحكمها عسكريون حكما استيراديا شيئا ويذيقون أهلها الولايات ، وهؤلاء يعادون البلاد العربية المعتدلة التى تريد أن تسوس شعوبها بالحرية والعدالة وحكم القانون إلى المستوى المأمول رغم كل المتاعب التى لا يكف الآخرون عن تديرها ، وقبل أن تعقد الجامعة اجتماعا يقوم أولئك المسجون بالتقدميين بافساده ، ومن ثم فهى في حقيقة أمرها ليست شيئا ولا تستطيع شيئا ، وهذا لا يمتنع القول بأن المنظمات المتفرعة من الجامعة وبخاصة هيئة العلوم والآداب والتربية مازالت تؤدى للعرب خدمات جليلة .

الجزائر وتونس وطرابلس من الفتح التركي إلى الغزو الفرنسي :

في عبارة باللغة الشمول والعمق بينى المؤرخ الجزائري « ناصر الدين سعيدوني »
حاصل المصير التركي في الجزائر (١٥١٦ هـ - ١٨٣٠ م) وميزاته بقول: (١)
تعتبر الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر الحديث فترة مهمة وذلك لعدة اعتبارات :

١ - أنها فترة تعرضت في مطلعها البلاد الجزائرية للغزو الإسباني الذي تركز
في المدن الساحلية ، وكاد أن يعيد لها كارثة الأندلس ومأساة انهيار الوجود الإسلامي
في تلك الديار مرة أخرى . كما شهدت الجزائر في نهايتها الغزو الاستعماري الفرنسي
وما انجز عنه من ظلم وتعسف وإجحاف رغم ذلك دام أكثر من قرن وربع قرن
(١٧٣٠ - ١٨٦٢) .

٢ - لأنها فترة عاشت أثناءها الجزائر مرحلة حاسمة ، تمثلت بالخصوص في
مواجهة اعتداءات الدول الأوروبية ، وعلى رأسها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا ، التي
تكالبت أساطيلها وجيوشها على استغلال خيرات الجزائر والتحكم في مقدراتها
لمصلحة أوروبا وما تحمله من روح صليبية .

٣ - لكون هذه الفترة تعتبر بمثابة المعبر الزمني الذي حافظ على قيم الجزائر
الحضارية وتراثها ومقوماتها الإسلامية العربية التي تعمقت جذورها ورسخت دعائمها
أثناء الوجود العثماني بعد أن تبلورت واتضحت معالمها في الفترة الإسلامية السابقة .

٤ - أنها فترة اكتمل فيها كيان الشعب الجزائري ، وعرفت فيها البلاد الجزائرية
مقومات الدولة الخاصة ، بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم
أثناء انقسام دولة الموحدين (١٢٦١) وظهور الحمصيين والزبانين والمدينيين ، وقد
برز هذا الكيان بالخصوص في اختيار عاصمة قارة (ثابتة) ورسم حدود معينة ،
ووضع أجهزة إدارية ومن أنظمة اقتصادية وقرار أوضاع اجتماعية ، وانهاج علاقات
سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك . هذا مع التأكيد على الروابط
الوثيقة مع البلاد العربية ، والوفاء ضمن الوحدة الحضارية والفكرية للامبراطورية
العثمانية الشاسعة .

(١) ناصر الدين سعيدوني : حراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر ١٩٨٤

وعلى هذا لا يقتصر فضل الأتراك العثمانيين على محض إنقاذ الجزائر من الوقوع في أيدي الأسبان والفرنسيين بل انهم أنشأوا للجزائر فترة من الاستقرار النسبي في ظل الإسلام . فاستقرت أوضاع الإسلام والعروبة في البلاد ، وثبتت أركانها واكتمل تكوين الجزائر الإسلامية العرفي ، ومن الغريب انه رغم ما هو شائع من عجز الأتراك العثمانيين عن إقامة نظم إدارية سليمة فإنهم نجحوا في الجزائر على الأقل أكثر مما نجح من سبقوهم من الدستمين والحماديين والزياتيين فأنشأوا جهاز دولة مستكمل الشروط وأقاموا أمة عربية إسلامية مستوفاة المقومات .

وقد حاول الفرنسيون أن يطمسوا هذه الحقيقة فلم يروا في الحكم العثماني أي خير ولكنه على العكس من الحكم الفرنسي الذي كان استغلاليًا لإذلاليا يرمي إلى استخراج آخر قطرة من خير الجزائر لمصلحة الفرنسيين بالإضافة إلى اذلال الناس والإساءة إلى الإسلام في كل مناسبة . وبين أيدينا من الكتب التي ألفها فرنسيون عن تاريخ الجزائر قبل الاحتلال وكلها فياضة بالإهانات للإسلام وأهله وللعرب والأتراك بخاصة ، وأصحابها كتبوا ليقولوا : إن الجزائر لم تعرف الاستقرار والعمران إلا في العصر الروماني وعصر الاحتلال الفرنسي ، أما ما بين هذين فليس هناك إلا الظلم والفساد والتأخر ، حتى « شارل أندريه جولييان » الذي نقول انه أكثر الفرنسيين اعتدالا لم يحتدل بعض الشيء إلا عندما استقل الجزائريون وأثبتوا أنهم رجال ذوو كرامة وعزة ودين وعقيدة ولغة عظيمة وحضارة .

بعكس ذلك نجد الأتراك العثمانيين ، فقد كانوا قوما ذوي طمع في المال ولكنهم كانوا مسلمين ، ولم يكن بينهم وبين العرب مودة كبيرة ولكنهم لم يكرهوا العرب أو يحقروهم ، فسارت أمور العرب المسلمين الجزائريين في حكمهم سيرا طيبا . ثم أن الأتراك العثمانيين قاموا منذ نزولهم الجزائر بوضع نظام إداري لها لا بأس به ، فقسموها إلى أربع بيليكيات ، وقسموا كل بيلكية إلى فحوص والفحوص إلى أوطان ، وكل وطن خاص بقبيلة ، وثبتوا هذه التقسيمات ووسعوها ولم يغيروا فيها كثيرا ، وثبتوا عاصمة الأقليم في مدينة الجزائر وجعلوها عاصمة كبيرة حصينة ، وجعلوا لها بيلكية قائمة بذاتها هي دار السلطان ، وجعلوا لمدينة الجزائر نفسها فحوصا ، ولما كان الأتراك — بطبيعتهم — تقليديين غير مبالين إلى التغيير فقد ثبتت هذه التقسيمات

على حالها ، وأخذ الوطن الجزائري يظهر ويستقر ويثبت ، وهذا جانب آخر من جوانب تراث الأتراك العثمانيين في الجزائر .

ثم إن الحكم العثماني في الجزائر سار سيرا طيبا إلى بداية القرن التاسع عشر ، ثم لُتهم إذا كانوا يجمعون مالا بالغصب من جماعة من السكان فقد كانوا يتقاسمون الشيء المجموع مع بعض رؤساء الناس من أهل البلاد . والمال كله كان يعرف داخل البلاد فيما عدا القليل الذي كان يبعث به إلى الآستانة . وكان الحكام الأتراك يشجعون جهاد البحر ويتقاسمون أهل البحر فيه ، ولم يبدأ الخراب المال للبلاد إلا عندما تنحدر جهاد البحر وقل المال الوارد منه ، ثم إن الدول الأوروبية زادت من ضغطها على الجزائر وكثر القناصل ورجال الشركات في « عبادة » و « الجزائر » و « وهذان » وظهر منهم جشع شديد إلى أموال البلاد ، وأعاتهم في ذلك الجماعات اليهودية الكثيرة التي كانت تعيش في مدينة الجزائر وفي المواني ، وهذه الجاليات اليهودية لم تشعر قط بأنها جماعات من المواطنين ، ولم تعبر قط عن شكرها للجزائريين أيواعمهم في البلاد وإطلاق حرية العمل والتجارة والكسب لهم ، بل نجدهم من أول ما أخذ الإسبان والفرنسيون في الاغارة على شواطئ الجزائر ينضمون إليهم ويعاونونهم على أهل البلاد وأولياء نعمتهم . وكان لهم دور غير محمود في استيلاء الفرنسيين على البلاد ، وهذا ظاهر من تجنسهم بالجنسية الفرنسية ومعاونتهم الكبيرة للفرنسيين على أهل البلاد .

وقد أشار إلى هذه الحقائق كلها « ناصر الدين سعيدوني » في دراسته القيمة عن « صالح باي » حاكم إقليم قسطنطينة وما قام به من خدمات لبلاد الجزائر ، فقد حكم هذا الرجل ذلك الإقليم إحدى وعشرين سنة (١٨٥ — ١٢٠٧ هـ — ١٧٧١ — ١٧٩٢ م) قدم فيه للبلاد خدمات جليلة . و « صالح باي » تركي من أهل الأناضول ، وقد وفد على الجزائر ودخل في خدمة الأتراك ، ولكنه لم يكن عسكريا من أول الأمر ثم استطاع أن يسمو بفضل مواهبه حتى عينه الداي « محمد عثمان » باشا بابا لمنطقة قسطنطينة سنة (١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م) وهنا نجد هذا الرجل يرتفع بفضل مواهبه إلى درجة عالية من السلطان ، فتظهر منه صرامة وحزم عظيمان في جمع الأموال المقرضة على العشائر والواحات واستطاع بعد جهود كبيرة إقرار النظام والهدوء في ييلكية الشرق حتى تقدرت مكائنه وزاد قدره عند داي

الجزائر « محمد عثمان » باشا خصوصا عندما تمكن من تثبيت الحدود الشرقية لليبكية وارغامه « حمودة » باشا والى تونس على الاعتراف بهذه الحدود .

وكان هذا الرجل سخيا في الاتفاق على أعمال العمران ، وإليه يرجع الفضل في تمدين قسطنطينة وجعلها ثانية مدن الولاية بعد مدينة الجزائر ، فقد عمر حتى « سيدى الكفانى » وزينه بمسجد ومدرسة سنة (١٧٧٥ م) وأقام بالقرب منه منازل الواسعة وبساتينه واسطبلاته ، وكان له مهندسون وبستانيون وطبيب من الإيطاليين . وعمر كذلك ناحية الشارة وأقطعها لليهود ليقيموا فيها وينشعوا دكاكينهم فيها ، وكان غرضه من ذلك مراقبتهم والإشراف على أعمالهم وكلف كذلك مهندسا إسبانيا من أهل جزر البليار بإنشاء جسر القنطرة لتيسر المواصلات بين هذا البلد الجبلى وما يحيط به من الجبهات وجلب المياه إليه ولم يعش « صالح باى » حتى تمامه .

ولم نسمع نحن برجل تركى يشبه « صالح باى » في مصر مثلا مما يجعلنا ندرك أن الفترة العثمانية في الجزائر كانت أفضل من الفترة العثمانية في مصر ، ففى الجزائر حفل العصر العثمانى بكبار الشخصيات النشيطة القديرة في حين أن الأتراك في مصر اكتفوا بترك الحكم في أيدي المماليك ، وهؤلاء بدورهم تركوا الأمر للكشاف وجباة الضرائب ، وهؤلاء اتفقوا مع الفلاحين على مقادير الجباية وسارت الأمور بعد ذلك سيرا هادئا مما جعل الفترة العثمانية في مصر فترة سكون وركود وتدهور مستمر .

وقد انتهت حياة « صالح باى » نهاية أسيفة إذ كرهه رجال الدين وعملوا على عزله على الرغم من إحسانه الكثير إليهم . وكذلك انقلب عليه اليهود الذين كانوا يحكمون تصدير الحبوب إلى أوروبا وكان « صالح باى » قد فرض عليهم رقابة شديدة وعلى رأس أولئك اليهود ابن زقوط بكري ويعقوب بكري وبو شاق . وقد عمل هؤلاء جميعا على القضاء عليه ، فتمرد على السلطان وانتهى أمره بايا على قسطنطينة وخلفه حسن أبو حنك ثم الوزناجى سنة (١٧٩٥) ومن ذلك الحين تغرت طبيعة الحكم التركى في الجزائر وطمع فيها الفرنسيون واستعانوا في أمورهم باليهود .

الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٣٠ م :

وأحس الفرنسيون أن إمالة الجزائر العثمانية ضعفت ضعفا بالغاً وقرروا محاولة غزوها بدأ ذلك سنة (١٨٢٧) وفيما بين هذه السنة وسنة (١٨٣٠) قام الفرنسيون

بمحاولة فاشلة لغزو البلاد بحريا ، فحاصروا مدينة الجزائر بأسطولهم من (١٦ يونيو ١٨٢٧) وكانت العلاقات بين « حسين داي » آخر دايات الجزائر الأتراك والفرنسيين سيئة ، وكان القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر رجلا سيئا وكاديا ، وهو الذى اخترع حكاية قيام « حسين داي » بضربه بمروحة كانت في يده ثلاث مرات أثناء مناقشة عتيقة بينهما في شأن ديون كانت على القنصل من أثمان قموح كان قد استوردها من الجزائر ، وقد أبلغ القنصل دوفال ذلك إلى فرنسا وقال إن الشرف الفرنسي قد أهين ولا بد من عقاب الداي « حسين » فهدت إلى القنصلان كونه في أمر الحصول على ترضية مناسبة من الداي « حسين » ، وطلب هذا من الداي أن يعترف بأن فرنسا هي صاحبة احتكار التجارة بين الجزائر وفرنسا ، وكانت تلك خطوة في نظر فرنسا لوضع يدها على البلاد منتبهة فرصة العصف البالغ الذى وصلت إليه الدولة العثمانية وعجزها عن حمايتها ولاياتها ، ورفض الداي « حسين » وقدمت السفينة الفرنسية لوييتى توماس إلى الجزائر ، وطلب قائد السفينة لا بروفانس ترضية مثلة من الداي « حسين » وهذه الترضية التى طلبتها فرنسا كانت أن يرسل الداي وفدا من كبار شخصيات البلد وعلى رأسه وزير البحرية والشئون الخارجية الجزائرى المعروف بوكيل الخرج ليقدم للقنصل الفرنسي اعتذارا علنيا .

وكان من الطبعي أن يرفض الداي « حسين » ذلك ، وأدى رفضه إلى نشوب الحرب بين الجانبين ، وقد حلل الدكتور « ناصر الدين سعيدوني » الموقف تحليلا جيدا وأرانا كيف أن الداي وأهل القوة من الجزائريين كانوا بعيدين كل البعد عن الإدراك الحقيقى للموقف المتأزم الذى وصلت إليه الأمور ، فبينما كانت فرنسا تنظر إلى الأمر نظرة استعمارية خالصة وتدبر بقيادة الملك شارل العاشر لغزو الجزائر بحريا وعسكريا وتملك أراضيها واستغلال خيراتها رغم اعتراضات بعض النواب الفرنسيين كان الداي « حسين » رغم موقفه الخازم من التهديد الفرنسى يرحو أن يصل إلى صلح مع فرنسا ليواصل الحصول على المكاسب التى تعود الحصول عليها من التجارة مع أوروبا أو العدوان على السفن التجارية فى حين أن طائفة الحضر ومنها كان التجار وأصحاب رؤوس الأموال المستفيدون من علاقات الحرب والتجارة مع أوروبا يظنون أن الموقف الذى حدث مع فرنسا كان موقفا مؤقتا ناتجا عن سوء تصرف الداي مع الفرنسيين مما يدل على أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك حقيقة التغير الشامل الذى صارت إليه السياسة الأوروبية وبخاصة سياسة انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تريان

أن أوان تصفية التركة العثمانية قد اقترب وتستعدان للاستيلاء على هذه التركة والسيطرة الكاملة على البحر المتوسط وظهر ذلك بشكل واضح في غزو فرنسا لمصر سنة (١٧٩٨) وتحاذل تركيا أمام ذلك الغزو واجتهاد انجلترا في إخراج الفرنسيين من مصر وقد تم ذلك سنة (١٨٠١) وكان من الممكن أن يقع استيلاء بريطانيا على مصر بعد ذلك بقليل لولا ظهور محمد علي وإقامته دولة مصرية قوية ذات جيش وأسطول . وقد وقعت إنجلترا وفرنسا معا ضد محمد علي ، الأولى في الظاهر والداخل والثانية في الداخل وان تظاهرت بتأييده ، وكل ذلك كان كميلا بفتح عيون الجزائريين وإعلامهم بأنهم اليوم أمام موقف جديد لا يحض مظهر من مظاهر الاحتكاك مع الغرب لا يلبث أن يزول ثم تعود الأحوال سيرتها الأولى .

والغريب أن الفرنسيين الذين دخلوا مصر دون مقاومة قبل ذلك بحوال تسعة وعشرين عاما وجدوا مقاومة لا بأس بها من البحرية الجزائرية فتحطمت بعض سفنهم وأسر البعض الآخر وذلك في المعركة البحرية الأولى التي وقعت بين الجانبين في (٤ أكتوبر ١٨٢٧) .

وقد كانت خسائر الجزائريين كبيرة ولكن خسائر الفرنسيين لم تكن قليلة أيضاً رغم أن الأسطول الفرنسي كان كبيرا نسبيا والأميرال كولييه الذي قاد الأسطول أولا كان قائدا ماهرا ولكن المعركة أجهدهته إلى درجة أنه مات من الإجهاد فيها في (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) وخلفه في قيادة الأسطول القبطان قلاقل وفي نفس الوقت قام القبطان رويرو أندريه دوناسيا بالهجوم على ميناء وهران . وبعد ذلك اكتفى الفرنسيون بحصار موانئ الجزائر وإيقاف التجارة الجزائرية وقد استمر هذا الحصار حتى وقوع الغزو الفرنسي لميناء الجزائر في (يوليو ١٨٣٠) وهي بداية الاحتلال ورغم أن الجزائريين كانوا يستطيعون إزال خسائر أخرى بالفرنسيين ولكنهم لم يفعلوا وظلوا يأملون في الصلح حتى كانت الواقعة وبدأ الغزو .

الغزو الفرنسي للجزائر :

أوجز مؤرخ فرنسي هو « شارل أندريه جولييان » ، في تاريخه العام للمغرب ، المعالم الرئيسية للغزو الفرنسي للجزائر بقوله في ص ٥٧٤ من تاريخه تحت عنوان « ديون الكبرى » : عملية تجارية قام بها بعض اليهود من تجار الجزائر مشتركين في

ذلك مع نهر سبيء من رجال السياسة الفرنسية في باريس ثم حادث دبلوماسي (شيء) حركة وتسبب فيه رجل سياسة خارجية فرنسية مشكوك في أمره ثم حملة فرنسية توليها قائد فاقد لاحترام قومه ، ثم انتصار فرنسي على الجزائريين لم يحفل به الفرنسيون كثيرا ، وأعقب ذلك سقوط الأسرة الملكية الفرنسية التي رثبت لهذا الغزو (لتؤيد به مركزها المتهاوى في بلادها) تلك كانت البداية الفريدة في بابها للغزو الفرنسي للجزائر .

وقد سبق أن ذكرنا أولئك اليهود الذين دبوا لايقاع العداوة بين الجزائر وفرنسا وهما الأخوان يكرى وزميلهما بوشناق ، فان هؤلاء التجار اليهود الذين انتقلوا إلى ليغورنو في إيطاليا ومن هناك سيطروا على التجارة الجزائرية وفازوا بمعظم مكاسبها وحولوا الداي « حسين » إلى لعبة بين أيديهم . وفيما بين سنتي (١٧٩٣ و ١٨٠٠) باعوا مقادير ضخمة من القمح الجزائري لفرنسا لاستخدامها في تموين الجيوش الفرنسية في إيطاليا ومصر ، وتمكنا خداع الداي وإيهامه بأن فرنسا لا تريد أن تدفع ثمن ذلك القمح — وكانوا هم قد استولوا عليه — وتمكنوا بذلك من الاستيلاء من الحكومة الفرنسية — بموافقة يونابرت — على أربعة ملايين من الفرنكات الذهبية المستحقة للداي دون أن يعطوه منها درهما .

والنتيجة أن الداي « حسين » صاحب هذا المال ظن أن الحكومة الفرنسية خدعته واستولت على أمواله في حين أن الحكومة كانت قد دفعت جزءا كبيرا من ذلك المال إلى من زعموا أنهم يمثلوه في أوروبا وهم أولئك اليهود الذين ذكرتاهم .

وكان من الطبيعي أن يغضب الداي « حسين » لذلك وكان قد تولى حكومة الجزائر سنة (١٨١٨) وكان رجلا ذكيا نشيطا ولكنه لم ينتبه إلى المؤامرة التي كانت تدار حوله ، وانصب غضبه على ديفال القنصل الفرنسي الذي عين في الجزائر سنة (١٨١٥) ودخل في علاقات مالية غير شرعية مع اليهود ، وكان الداي « حسين » يشك فيه ويحقره لأن تاريخ هذا الرجل في شئون علاقات فرنسا مع الشرق والبلاد الإسلامية كان تاريخا سيئا وفي ٢٩ أبريل ١٨٢٧ وقعت بين الاثنين مشادة عنيفة في بلاد الداي ، وزعم ديفال فيما بعد أن الداي ضربه بمروحة أو بمذبة فذهب على وجهه ثلاث مرات ، وزعم أن ذلك إهانة لفرنسا ، والمؤرخون الفرنسيون

يشكون في صحة هذه الدعوى لأن الداي « حسين » لم يكن من الغباء بحيث يقع في ذلك الخطأ .

وعلى أي حال فعل أثر تجربة الحرب المريعة بين أساطيل فرنسا وغوات الجزائر البحرية قررت الحكومة الفرنسية إقامة الحصار حول سواحل الجزائر ، وهو حصار لم يرض عنه الجزائريون كما رأينا ولا الفرنسيون أيضاً .

وقررت الحكومة الفرنسية أهامه الحصار حول سواحل الجزائر سنة (١٨٢٨) حتى تحصل عى التضحية التي طلبتها من الداي وظل الداي مصراً على موقفه واحتج نائب فرنسي في البرلمان على هذا التصرف كله وقال إن فرنسا أنفقت فوق المليون فرنك ذهبي ولم تحصل إلا على مركب جزائري لا يزيد ثمنه على عشرين ألفاً ، وكان الناس في فرنسا قد سمعوا بحكومة الملك شارل العاشر وبدا بوضوح أنها ستسقط ولا ريب . وكان فيل أميرال الأسطول الفرنسي يرى غزو سواحل الجزائر ، ولكن الوزارة سقعت وحل مارتيناك محل فيل . ولم يدر هذا الرجل ما يعمل حيال داي الجزائر ، وبلغ به الأمر أنه أرسل إلى محمد علي باشا وإلى مصر يقترح عليه أن يقوم بغزو الجزائر لحساب فرنسا ، ورفض محمد علي . وأخيراً قررت فرنسا في (يناير ١٨٣٠) أن تقوم بغزو الجزائر .

وكان غزو الجزائر مأساة عسكرية طويلة بالنسبة لفرنسا ، وقد تكلفت في سبيل ذلك أكثر من مائة مليون فرنك ذهبي وخسرت فيه ألوف الأرواح ، ولكنها كانت أقوى من الجزائر مراراً هدية ، ثم إن موقف الكثيرين من أهل الحل والعقد في الجزائر من الداي « حسين » باشا جعله عاجزاً عن فعل شيء خصوصاً وهو نفسه لم يقدر خطورة الموقف قط . وعندما اختارت الحكومة الفرنسية الكونت بورمون قائداً للحملة أحس الفرنسيون بالهتزاز لأن هذا الرجل كان من بين القواد الفرنسيين الذين خاتوا نايليون في « ووترلو » ورحلت الحملة من ميناء طولون في (٢٥ مايو ١٨٣٠) وكان عدد رجالها سبعة وثلاثين ألف رجل ، وكانت الخصومة بين قائد الأسطول والجنرال دويريه شديدة وكانت الأمواج عالية ، وانجبه الأسطول أولاً نحو مدينة يالما عاصمة البليار .

وفي يونيو اقترب الأسطول من ساحل الجزائر ورسا عند سيدى فروج ، وكان اللقاء بين القوات الفرنسية وقوات الداي . وبعد قصف ذريع بالمدفعية تحطمت

دفاعات مدينة الجزائر ودخلها الفرنسيون في (٥ يوليو ١٨٣٠) بعد أن حصل الداي على وعد بسلامة شخصه وآله وأمواله وحرية المكان الذي يذهب إليه . واحتل الفرنسيون مدينة الجزائر ولم يفعلوا بعد ذلك شيئا لمدة ستة شهور ، ولكن غزو فرنسا للجزائر بدأ ، لأن تركيا — والمفروض أنها كانت مسئولة عن سلامة الجزائر — لم تحرك ساكنا — والداي اختفى . وكان اختلاف الرأي في فرنسا حول الموضوع عينا فان انجلترا اعترضت وميتريخ لم يفهم المراد من وراء ذلك الغزو والشعب الفرنسي لم يعطرب للغزو ولم ير فيه نصرا وكسبا . وبعد ستة شهور أرسلت فرنسا قاتلا جديدا هو كلوزل تحرك بالجنود في اتجاه قسطنطينة في (فبراير ١٨٣١) وظهر من أهل الجزائر نفر لم ينظروا للأمر على أنه غزو أجنبي وانضموا إلى الفرنسيين جهلا وغباء . وكان كلوزل يرى الاستيلاء على نواحي الجزائر بالحداق واللولن والحسنى الظاهرة ولكن بقية الجيش كانت تريد العنف وبعد استيلاء الفرنسيين على المدينة والقليعة ظهرت أعظم شخصية جلييلة في تلك المأساة كلها ، شخصية عبد القادر الجزائري .

الأمير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي :

عبد القادر كان أصغر أولاد الشيخ محي الدين من بني هاشم قرب مسكرة من بلاد الغرب . وكانت للرجل مكانة عظيمة في قلوب الناس ، وكان الفرنسيون قد استولوا على وهران في الغرب ثم توقعوا وفزع الناس إلى الشيخ محي الدين ليقودهم في الصراع ضد الفرنسيين ولكنه كان مستأفصهم باختيار ابنه عبد القادر وكان شابا شهما ومسلما عظيما فقبل القيادة وانضم إليه أهل الغرب الجزائري جميعا فيما عدا قبيلتين هما : الزمالة والدواير ، ولكن كانت معه قبائل قوية مثل بني هاشم وبني عامر وغرابة ، وقد بدأت قيادته في (٢٥ نوفمبر ١٨٣٢) ، وقد ظهر بمظهر الزعيم القوي القادر على القيادة من أول الأمر ، وشهد له بالتميز فرنسيون كثيرون منهم الجنرال « إزان » الذي أعجب بهنوته ورياسته وإيمانه التام بضرورة إخراج الفرنسيين من الجزائر ولينه وبعده عن العنف وأمانته في المعاملة . والجنرال « إزان » قال إنه لا نسبة إطلاقا بين أخلاقيات عبد القادر وتدهور أخلاق القواد الفرنسيين الذين واجهوه وانتصر عليهم أول الأمر . وانتشر صيته مع فرنسا ذاتها ومال الجنرال دي ميشيل إلى التفاهم مع الأمير عبد القادر وترك غرب الجزائر له فيما عدا الميناء وهران

وستغاثم وازرو وبالفعل وقعت فرنسا مع عبد القادر الصلح المسمى بمعاهدة ديمشيا في (٢٤ فبراير ١٨٣٤) الذي اعترفت فرنسا له بالسيادة على غرب الجزائر ووثق هو بشرف الفرنسيين فمضى يحكم البلاد التي اعترف له بالسيادة عليها حكما عادلا نظاميا بعيد النظر . وكان هذا الصلح أشبه بهدنة للفريقين فكلاهما كان يريد أن يحصل على مهلة يدير خلالها وسيلة للخلاص من الآخر . ولكن عبد القادر لم يكن يفكر في الخيانة ، إنما هو كان يرجو أن يجمع أهل البلاد حول راية الإسلام والعروبة .

وبينما كان عبد القادر يرتب أموره في بلاده ويمد سلطاته على جزء من يلقبه ططرى كان الفرنسيون يرتبون أمورهم للقضاء عليه فأقاموا الجنرال تريترل قائدا لجيش الجزائر وزودوه بجيش عدته أحد عشر ألفا مسلحين بالأسلحة والمدافع الثقيلة والخفيفة . ومضى الفرنسيون بقيادة الجنرال تريترل يخضعون شرف البلاد ويعملون على الاستيلاء على بونة وقسطنطينة ، أما عبد القادر فقد كان رجاله قد انتصروا على الفرنسيين في موقعة المقطع وقتلوا خمسمائة من جيش عدته ألفا رجل ، وهذا النصر الجزائري زاد في جاه عبد القادر ودفع الاستعماريين الفرنسيين إلى مضاعفة الجهود للقضاء عليه مستخدمين أعنف الوسائل .

وللوصول إلى ما كانوا يدرونه أقاموا قائدين من أعنف الفرنسيين هما حامر مون وبوجو ولكي يستطيع الفرنسيون تنفيذ سياستهم وقموا مع عبد القادر (معاهدة الثافتا) في (٣٠ مايو ١٨٣٧) التي اعترفت له فيها بضرب الجزائر هذا وهران وستغاثم وازرو ، ودخلت تلمسان في طاعة الأمير فيما عدا المنشور الذي تمسك به جنود الأتراك القولوجية ، وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح معظم الجزائر فعلا في يد الأمير الجزائري .

وفي أثناء ذلك أرسل بوجو حملة قوية للاستيلاء على قسطنطينة ، وكانت المعركة عنيفة فقتل فيها مئات الفرنسيين وبعض القادة ولكن القائد الفرنسي استطاع بفضل جماعة من جنود الزواغة الجزائريين إحداث ثغرة في السور ودخول البلد وعلى أثر ذلك تم الاستيلاء على قسطنطينة في (٢٣ أكتوبر ١٨٣٧) وعقب ذلك تغير الموقف تماما فقد سقطت « ميلة » و « سطيف » و « جيجل » وتمت سيطرة فرنسا .

وكان الأمير عبد القادر يرجو أن يسهر السلام بينه وبين فرنسا حتى يستطيع تقوية دولته الجزائرية ، ولكن استيلاء الفرنسيين على قسطنطينة ثم الغرب الجزائري

كله قلب الأمور كلها رأساً على عقب ومضى الجنرال بوجو يبعث في البلاد فساداً مستخدماً أقصى الأساليب حتى كان يزيل القرى وسكانها بالنار . وقد شمل البلاد كلها ظلمه وانتشر الخوف وترك الناس قراهم هاربين إلى الجبال وعلى أثر ذلك تدهور مركز الأمير عبد القادر ووجد أن الأسلم للبلاد أن ينتقل مع طائفة صغيرة من جده إلى أرض المغرب في (مايو ١٨٤٣) ولكنه عاد وكسر الفرنسيين في موقعة قرب نهر التافنا واضطر الجنرال بوجو الذي رقى إلى رتبة الماريشال إلى العودة من فرنسا ومعه قوة تعددها (١٠٦ آلاف جندي) وهنا ضاعف عسفه وتخريبه وقاد أسوأ حرب استعمارية عرفها التاريخ إلى ذلك الحين ، وعاد عبد القادر إلى المغرب حفاظاً على الباقين من أهلها ، واستقبله سلطان المغرب بالترحاب وإن كان الخوف من ذلك الإرهاب الفرنسي ملأ القلوب . وعزلت فرنسا الماريشال بوجو وأقامت مكانه ولي العهد الدوق دومال فسلكت سياسة لين مع الجزائريين ، وعلى أثر ذلك استسلم الأمير عبد القادر للجنرال لامور سير فترك له الأميراطور نابليون الثالث الحرية في الانتقال إلى أي بلد يختار من بلاد المشرق الإسلامي فاختار دمشق في (٢٧ أكتوبر ١٨٤٧) وهناك عاش بقية عمره بعد أن حلف في التاريخ أجمل ذكرى يخلفها قائد مسلم بطل . وإذا كنا نؤرخ الآن للجزائر التي استقلت من الاستعمار الفرنسي بعد ثورة أبطال استمرت من (١٩٥٦) إلى (١٩٦٢) فلا بد أن نذكر هنا أن عبد القادر يعد بحق من بناء العالم الإسلامي الحديث .

حقاً إن الأمير عبد القادر لم يستطع أن يحول بين فرنسا والاستيلاء على الجزائر واضطر إلى التسليم في النهاية ولكنه ليس مسئولاً عن ذلك فإن انهزام العالم الإسلامي كله أمام الاستعمار وقع نتيجة لتدهور سياسي واقتصادي عام للبلاد الإسلامية بدأ باختفاء حكومة الشورى من عالم الإسلام نتيجة لأن نظام الخلافة نفسه كان يحتاج إلى تجديد وتنظيم ، والفقهاء الذين بذلوا جهداً عظيماً في ضبط كل التصرفات المادية التي يقوم بها الإنسان من بيع وشراء ورهن وإرث وزواج وطلاق ونفقة وما إلى ذلك لم يتنبهوا إلى أن قيام الخلافة كان يحتاج إلى تجديد مدة الخليفة بزمان وكان يحتاج أيضاً إلى تجديد سلطات الخليفة وإقامة سلطات شعبية من شأنها أن توقف الاستبداد عند حده ، وقد فعل الرومان ذلك فحدوا المدة بـ ستين لايه أن يعزل الرئيس بعدها ويجيء غيره باختيار الناس ويجوز التجديد مرة واحدة ، أما نحن فقد أعجبنا بعبدل أبي بكر وعمر وصلحهما فغلب عنا التجديد ، فلما جاء عثمان ووقعت

الأزمة الأولى بين الحاكم والمحكوم لم يتنبه الفقهاء إلى أن القضية لن تحل إلا بتشريع وأنه كان لابد أن يقول الفقهاء كلمتهم ويضعوا تشريعا يقرر أن السلطة كلها في يد الأمة ، ومن حق الأمة أن تنزع السلطان عن من نرى أنه عاجز عن القيام بالحكم على وجهه الصحيح ، وكان لابد كذلك من تحديد مدة الخلافة توكيدا لسلطة الأمة بعودة القرار إليها بعد فترة محددة ، وكان لابد أن تحدد سلطات الخليفة على الأنفس والأموال ولكن أحدا لم يفعل ذلك فظلنا نعلم بأن يكون خلفاؤنا من طراز أبي بكر وعمر ، وهذا الطراز لا يتكرر فوقعت الأمة بعد استشهاد عثمان في أيدي معاوية بن أبي سفيان ، والخلافة تحولت إلى ملكية استبدادية وأى رئاسة بلا حدود ولا شورى ولا سلطان للأمة تتحول إلى ملكية استبدادية وراثية ، والاستبداد شل الأذهان وعطل فكرنا وأخرجنا عن الحدود التي وضعها الله سبحانه ورسوله لأمة الإسلام التي كان ينبغي أن تظل أمة حرة وشورى حتى تظل أمة إسلام .

لهذا كان لابد أن يخسر الأمير عبد القادر المعركة كما خسرتها كل دول الإسلام أمام الاستعمار فقد خضنا المعركة مع الغرب بنظام سياسي شليل وعاجز ونظام اقتصادي أخرج وخزائن مفلسة وتقدم علمي قليل ، لأن ملوك الاستبداد لا يحبون العلم أو العلماء .

تونس من الحكم التركي إلى الغزو الفرنسي :

وكانت الدولة الحفصية قد تدهورت تدهورا بالغا ، وفي عهد سلطانهم الثاني والعشرين « أبي عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس » (٩٣٢ — ٩٤٢ هـ / ١٥٢٥ — ١٥٣٥ م) بلغ التدهور أقصاه وخرج أعراب تونس عن السلطان ، وخاف خير الدين بارباروسا من أن تقع البلاد في يد الاسبان فغزا تونس سنة (٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م) وضمها إلى دولة آل عثمان . وكان ذلك في عصر السلطان « سليمان القانوني » ، وهرب « محمد الحسن بن محمد » إلى الصحراء وحاول الاستنجاد بالأعراب فلم ينجده أحد ، وبلغت الحسة بهذا الرجل أن ذهب إلى شارك الخامس (شرككان) سليل المايسبورج وطلب اسبانيا واستجده به فأجابه وأرسل جيشا استولى على تونس سنة (٩٤٢ هـ / ١٥٥٣ م) وقلم الاسبان بنهب البلد واحرق المساجد واستباحة الأعراض ، وهذا « الحسن » ساكن بحكم باسم النصراني ، بل إن الاسبان نهبوا جامع « الزيتونة » وكان آية في الجمال والغنى

فصبروه خرابا ، ووقع « الحسن » معاهدة خضوع لشركان أجهضت بكرامة الإسلام والمسلمين في (صفر ٩٤٢ هـ / يونيو ١٥٣٥ م) وثار الناس على الاسبان برعامة « أبي العباس أحمد بن الحسن » فقام الناس معه واستردوا تونس وقبضوا على الحسن وحملوا عينه ، ثم لم يلبث أن مات سنة (٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م) .

وكان الإسبان قد استولوا على جزيرة « جربة » ومدينة « طرابلس » فأرسل السلطان العثماني سليم الثاني القائد العثماني الرئيس درغوث باشا فاستعاد « تونس » و « جربة » و « طرابلس » من أيدي الاسبان وبعد وفاة « خير الدين بارباروسا » تولى أمر الجزائر « علي باشا » فأقبل وفتح تونس سنة (٩٧٧ هـ / ١٥٨٩ م) وهنا نحدأها العباس أحمد هذا يتجه إلى الاسبان ويستعين بهم على الأتراك ، فقبِلوا وفرضوا على تونس حماية مذلّة ، ورفض أبو العباس بن الحسن ذلك ، ولكن أخاه محمد قبل الحماية الأسبانية ونزل الاسبان حلق الوادي وألقوا بالناس ظلما فادحا فهرب الناس إلى الصحراء ، ورأى السلطان العثماني « سليم الثاني » أنه لابد من إخراج الاسبان من البلاد نهائيا والقضاء على كل أثر للحفصيين ، وتم ذلك على يد الصدر الأعظم « سان باشا » في جمادى الأولى (٩٨١ هـ / سبتمبر ١٥٧٣ م) وعلى يد « سنان باشا » تحولت تونس إلى ايلة عثمانية يحكمها باشا تركي يؤيده وجاق من الانكشارية من أربعة الاف مقاتل يرأسهم الاغا ويؤيده الأسطول وعلى رأسه القيودان رايس ، ويعاون الباشا ديوان من الأغا والقيودان ونفر من كبار الأتراك وأهل البلاد ثم صارت رياسة البلاد إلى الدايات وهم من رؤساء الجند وكان ذلك سنة (٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م) .

وعندما تولى أمر البلاد الداي « حسين بن علي » في ربيع الأول (١١١٧ هـ / يوليو ١٧٠٥ م) أنشأ أسرة ملكية وراثية أكبر أمراثها « حمودة باشا » وكان حاكما قديرا ، وأعظم أعماله غزو طرابلس وتأمينه حكامها القرامطيين على العودة إلى السلطان سنة (١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م) في ظل الحسينيين القونسيين .

وفي عهد مصطفى باشا (من خلفاء حمودة باشا) بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر فحافهم مصطفى باشا وحاول انقاذ بلاده من أيديهم ، فشرع في إدخال إصلاحات واقرض من فرنسا أموالا ، وانتهى الأمر بفرض الحماية الفرنسية على تونس في جمادى الثانية (١٢٩٨ هـ / مايو ١٨٨١ م) .

المغرب الأقصى : الأشراف السعديون والأشراف العلويون والاحتلال الفرنسي :

يمكن القول بأن المغرب الأقصى كان أحسن حالا من معظم البلاد الإسلامية في العصور الحديثة وهي عصور النهوض لأن اتجاه تاريخه وطبيعة أهله أرادت له أن تحكمه أسرتان من الشرفاء القادرين المتحمسين للإسلام ، وقد سبق هاتين الأسرتين ، وبعد أيام المدينين وفي أثناء عصر بني وطاس أن اشتد الحماس الصليبي في اسبانيا والبرتغال وأصبحت الحروب متصلة بين الاسبان والبرتغاليين من ناحية وأهل المغرب من ناحية أخرى ، لأن دول البرتغال بعد أن أقفلت في وجهها باب التوسع في شبه الجزيرة الأيبيرية اتجهت مطامعها الى شواطئ المغرب واحتلت مواضع مثل طنجة والقصر الكبير واتفا وهي الدار البيضاء وآزمور ومازغان وآسفي والعجوز وأغادير وماسة وانشأوا فيها مراكز تجارية ومستعمرات صغيرة عرفت بالفرونثيرات ولكنهم نادرا ما توغلوا داخل البلاد . وهذا التهديد النصراني دفع إلى قيام جماعة صوفية مركزها تارودانت وهي جماعة أبو حصون السملالي بمهاجمة المراكز البرتغالية وتمكنوا من استعادة أغادير وآزمور وآسفي فارتفعت همم المسلمين ونهض نفر من شرفاء الجنوب هم السعديون وانشأوا دولتهم السعدية وأعلنوا أنهم سيجهون إلى حرب البرتغاليين بقيادة الجهاد ضدهم ، وأيدهم الناس في ذلك ، وكان شمال المغرب الأقصى قد وقع في أيدي بني وطاس ، وكانوا أول الأمر من رجال المدينين ، فلما نهض السعديون تمكنوا من التغلب عليهم وإنهاء حكمهم وبسط سلطانهم على المغرب كله في (سبتمبر ١٥٥٤) .

وكان أول السلاطين السعديين أبا عبد الله محمد القايم بالله من عبد الرحمن من على ، وقد بدأ بحكم سنة (٩٥٥ هـ / ١٥١٨ م) وكانت عاصمة حكمه فاس ، ولكن أسعدهم حظا كان أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي (٩٨٣ - ٩٨٦ هـ / ١٥٧٥ - ١٥٧٨ م) الذي وصل إلى العرش بمعاونة الأتراك العثمانيين وتمكن في (٤ أغسطس ١٥٧٨ م) من كسب نصر وادي الخازن العظيم قرب القصر الكبير في شمال المغرب الأقصى وهو نصر حاسم للمغرب على البرتغاليين وحلفائهم وقد قتل في هذه المعركة الملك سباستيان ملك البرتغال والسلطان المغربي السعدى المخلوع أبو عبد الله محمد المتوكل على الله ومات في نهاية المعركة أبو مروان نفسه إذ إنه كان مريضا قبل المعركة ، ولهذا تسمى هذه المعركة بمعركة « الملوك الثلاثة » فخلعه اخوه

أبو العباس أحمد بن محمد المهدي الذي تلقب بالمنصور ولقب بالذهبي بسبب غناه ووفرة ماله (٩٨٦ - ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣ م) وقد وضعت هذه المعركة حدا لمطامع البرتغاليين في المغرب من ذلك الحين أخذ هؤلاء يحتلون مواقعهم فيه ويتجهون إلى بحار أفريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية الغربية .

وهذا هو الذي رفع السعديين إلى مراتب كبار السلاطين لافي المغرب فقط بل في كل بلاد العرب الأوروپي ، وكان أحمد المنصور قد كسب أموالا طائلة من مقام المعركة أولا ثم من فديات أسراها . وبفضل الثروة والسمعة العظيمة استطاع هذا السلطان السعدي أن ينشر في بلاد المغرب أمانا لم تعرفه من أيام الموحدين وقد استطاع أن يمد سلطانه جنوبي وادي درعة واستولى على قوات وطمع في الاستيلاء على تغار في الصحراء الكبرى وكانت سوقا عظيمة للملح الذي كان يعتبر من أكثر مصادر الثروة في أفريقيا الغربية المدارية والاستوائية وكان الناس يأتون إلى هناك ينبر الذهب فطمع فيه المنصور وأرسل حملة بحرية إلى « تمبوكتو » لم يحسن اختيار رحلتها إذ كانوا من العائدين إلى الإسلام من الموريسكيين الوافدين على الغرب ، وأقام في قيادتها جوذر باشا ، وقد خربت هذه الحملة مملكة صنهاة الإسلامية وعادت على المنصور الذهبي بمال وفير أول الأمر ولكنها أصبحت بعد ذلك كارثة على أفريقيا الإسلامية .

وبعد أن أمن المنصور الذهبي تدهورت السلطنة وضاع أمرها بين الحروب الأهلية وسوء الحكم وتفاخمت السلطان على المغرب جماعات الزوايا الصوفية خصوصا زاوية أبو حسون السملالي في الجنوب وزاوية الديلة في الشمال . وفي متقلبة سحلمان ظهر الشرفاء العلويون وأولهم الرشيد بن محمد بن علي بن يوسف بن علي بن حسن (١٠٧٥ - ١٠٨٢ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧١ م) وكانت عاصمته مكناس ، وكان أعظم سلاطينها في الإسلام وأطولهم حكما (ذو الحجة ١٨٠٢ - رجب ١١٣٩ هـ / مارس ١٦٧٣ - فبراير ١٧٢٧ م) وكان رجلا بالغ النشاط واسع الذكاء بالغ الحزم ، وقد استطاع أن ينشئ جيشين كبيرين أحدهما من بقايا العرب والبربر والثاني من السود الأفريقيين الذين جمعهم من كل نواحي المغرب وأنزلهم في مشرع الرمل قرب مكناس عاصمته ودرهم ندرية عظيمة سماهم بالبخارية (لأن الواحد منهم إذا انتهى تدريبه وأصبح صالحا للحرب أقسم على البخاري ودخل في اعداد العبيد البخارية) وبفضل هذين الجيشين استطاع المنصور أن يقيد وحدة البلاد ويقم فيها دولة بالغة

الفرة . وكانت عاصمته مكناس قد أنشأها انشاء جميلا وأضاف إلى المغرب بذلك عاصمة ثالثة بالغة الحسن والبهاء وبفضل هذا الرجل ارتفع صيت المغرب في العالم كله وصالحه الأتراك العثمانيون وبلغت البلاد مبلغا عظيما من الرخاء .

ولكن البلاد أخذت تتدهور من بعده ، وقد بذل بعض خلفائه جهودا عظيمة في إعادتها إلى ما كانت عليه ، ولكن الزمان كان يتغير ففي سنة (١٢٤٦ هـ) المقابلة لسنة (١٨٣٠ م) وفي عهد السلطان محمد الثاني بن عبد الرحمن بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر ووجم سلطان المغرب لأن الخطر على بلاده صار داهما وبخاصة عندما ظهر الأمير عبد القادر ولجأ إلى المملكة المغربية .

ولم يستطع العلويون حماية بلادهم تماما من الفرنسيين لأن عصر الاستعمار كان في الطريق إلى بلوغ دروته ، والصراع كان بين بلاد تملك السلاح والعلم والنظام السباسبى المتقدم وبلاد أخرى وقفت تقدمها في هذه النواحي الأساسية ، وفي شوال (١٣٢٩ هـ / ١٩١٢ م) أعلنت الحماية الفرنسية على المغرب ، وبذلك أكملت فرنسا امبرطوريته المغربية أو الأفريقية .

وقد عانت بلاد المغرب كلها من الاحتلال الفرنسي أسوأ صور الاستغلال والاذلال ، لأن الفرنسيين لم ينسوا قط أنهم كاثوليك يحاربون مسلمين ، وقد استطاع سلاطين المغرب الأقصى المحافظة على بلادهم مكتملة رغم الاستغلال الفرنسي الشائن ، أما الجزائر فقد قرر الفرنسيون أن يجعلوها جزءا من وطنهم الفرنسي وأرسلوا إليها ألوفاً بعد ألوف من المستعمرين الفرنسيين وحسبوا أنهم يستطيعون القضاء على الإسلام والعروبة لينتصروا فيما بعد أنهم يطلبون المستحيل .

والحقيقة أن عصر الاستعمار كان عصرا مريرا بالنسبة لكل بلاد الإسلام لأن أظافر أوروبا المحتلة كانت حامية وقاسية ومطامعها في الأرض والثروة كانت بلا حدود ولكنها لم تحب الناس أو تحترمهم قط . وكان ذلك شرا عظيما في أيامه ولكن يبدو أنه كان شرا لا بد منه ، فقد كان لابد من تحطيم الاطارات السياسية والاجتماعية والثقافية القديمة والدخول بالبلاد في عصور جديدة ومناخ حضارى جديد ، وبعد أن تحررت البلاد من الاستعمار بدا بالفعل أن بلاد الإسلام حين قبست ما يصلح لها من حضارة الغرب دخلت في عصور جديدة من القوة ويكفى أن نذكر أن فرنسا التي كانت تريد أن تجعل بلاد الجزائر قطعة من الوطن الفرنسي أحست عندما ثارت

الجزائر سنة (١٩٥٦) أنها لا تستطيع مواجهة الإسلام والعروة ، وأحس الجزائر
دعجول أنه ما لم تتحل فرنسا عن الجزائر تعرضت فرنسا نفسها للسقوط فقرر التخلي
عن الجزائر ، وبالفعل خرج المغرب العربي كله من الاستعمار الفرنسي سليما معاف ،
وكذلك خرجت بقية بلاد الإسلام وقد دخلت بالفعل في عصر نهوض لا شك فيه .

ولكن ، ما الذي كسبه - أو نحاول كسبه في عصر النهوض هذا ؟
إنه العلم والعمل بالعلم والعمل بإخلاص وصدق واثقان ، والامان بالله والوطن
والنفس ، والحرية والشورى واحترام الإنسان للإنسان والعدالة والمساواة والتقدم
وتحسين مستوى الحياة ونشر السلام في الأرض وأليس هذا كله في القرآن والإسلام ؟
أليست هذه كلها موجودة في الأمة التي أنشأها رسول الله (ﷺ) في المدينة وسار
عليها وأخذ بها عامة المسلمين ؟ ! أليست هذه هي السنة كما ينبغي أن تكون ؟
أجل كل هذا عندنا ولكننا انحرفنا عنه بل نسيناه ، وما كان ينبغي قط أن ننحرف
عه أو ننساه ، فهو في الحق طريق السعادة والسلامة والأمن في هذه الدنيا وسبيل
الخلود في حنة الله في الآخرة .

بكلمة قصيرة نستطيع أن نقول إن عصر النهوض هو عصر العودة إلى الإسلام
بعد طول انحراف وضلال .



كشف

عالم الإسلام

كشاف

[١]

أحمد بن حنكر خان : ١١٤
 أحمرا (أو أكرّا) : ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٤٤
 أحمرا : ٣٧٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧١
 أحمديس : ٨٣ ، ٨٢
 أحمد ، غزوة : ٢٣٩ ، ٤٤ ، ٣٧
 الأحراب ، غزوة : ٢٣٩
 الأحساء : ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤
 أحمد حان : ١٠٣
 أحمد عراقي : ٤٤٤ ، ٤٤٥
 أحمد الخروفي : ٤٣٦
 أحمد المصور النحوي : ٣٨٧ ، ٣٨٥
 الآخر ، سو : ٣٢٠ ، ٣٢٧
 الإخشيد ، محمد بن طغغ : ٢٨١
 أحمي : ٥٦ ، ٢٢١
 إخوان الصفا : ٣٣٥
 الأحضر ، قصر : ٣١٤ ، ٣٤٥
 الأخارسة ، دولة : ٩٠ ، ٤٤
 أدرة : ٣٢١
 الإدريسي ، الشريف : ٥٦ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٣١
 إدواردلين : ٤١٧
 أذربيجان : ٨٦ ، ١١٨ ، ٢٤٥ ، ٣٦٤
 أراسكو : ٤٦٩
 أرتويا : ١٨ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠
 الأرثوذكسية : ١٥
 أرجند بلانو بيكم : ١٠٣ ، ٢٤٤
 الأردن : ٤٥٤

آدم : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢
 آرمور : ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٨٤
 آزران : ٤٧٩
 الآستانة : ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٤٧٣ ، ٤٦٧ ، ٣٨٥ ، ٣٤٥
 آسفي : ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٨٤
 آسيا : ١٥ ، ٤٣٨
 آية الله الخميني : ١٢٠
 أانفا : ١١٥
 إبراهيم بك : ٤١١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩
 ٤٥١ ، ٤٥٠
 إبراهيم بن أحمد الأغلي : ٣١٧
 إبراهيم بن محمد علي : ٤٤٦ ، ٤٤٥
 ٤٤٨ ، ٤٦٢
 إبراهيم بن يعقوب الطليطل : ٢٥٣
 الإمرو ، سر : ٨٨
 إبليس : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢
 أبناء الكنز ، قاتل : ٩٥
 الأنواب ، حال : ٨٨
 أبي بن كعب : ١٥٤ ، ١٦٧
 الأبيض : ٩٥
 أبيض : ٨٨
 الاتحاد السوفيتي : ١١٩
 أتيل : ١٠٢
 الأثوسية : ١٥
 ابن الأثير ، عمر الدين : ٢٣٠
 أثينا : ٢١٠

إسماعيل الصعوى ، الشاه : ١٠٢ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٦٦
 إسنا : ٩٥
 أسوان : ٩٦
 أسيد بن حضير : ١٤١
 الأشونة : ٩١ ، ٢٥٠ ، ٣٧٨
 إشبيلية : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٢١٢ ،
 ٢٣١
 الأشتر النخعي : ٥٣
 آشوريس : ٨٨
 الأشرف خليل بن غلاوون ، السلطان :
 ١١٣
 الإشكنازية : ٢٥٢
 إصطخر : ٨٥
 أصفهان : ٢٨١ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ،
 ٣٤٦ ، ٣٦٣
 الأصفهاني ، أبو الفرج : ٧ ، ٣٣٤
 ابن أبي أصيبعة : ٢٥٤
 أصيلا : ٣٨٣ ، ٣٨٦
 أنفا : ٣٩٢
 أغادير : ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٤٨٤
 الأغالية : ٣٢٦ ، ٣٩٥
 الأغلب ، بنو : ٣١٧
 أفريقيا : ١٨ ، ٩٦
 أفريقيا الشرقية : ٤٨٥
 أفريقيا الغربية المدارية : ٤٨٥
 الأفغان : ٣٦٤ ، ٣٧٤
 أفغانستان : ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٢٤ ، ٢٤٥ ، ٣٦٤
 أفسوس الثاني : ١٥

قرسطو : ٢٣٠
 قرطغرل : ٣٥٨
 الأرمن : ٨٦ ، ٢٥٠
 أرمينيا : ٨٦
 أروى بنت عبد المطلب : ٢٣٩
 الأزدي : ١٣٩ ، ١٩٥
 الأزرق : ٢٣٠
 أزرزو : ٤٧٩
 الأزهر : ٤١١
 الأساقفة : ١٦
 الأساقفة : ١٤٨ ، ١٧٥ ، ١٧٩
 أسامة بن زيد : ٦٠
 الإسبان : ٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤
 إسمانيا : ٧٦ ، ١٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥
 ٣٠٠ ، ٣٢٦ ، ٣٥٧
 ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
 ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
 ٣٨٩ ، ٣٩٩ ، ٤٧١
 ٤٨٢ ، ٤٨٤
 أستاذ علي أكبري أصفهاني : ٣٢١
 أستاذ محمدى : ٣٢٤
 إستانبول : ١٦٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦١
 الاسترداد (لاريكونيستا) : ٣٨٢
 إسحاق بن راهوي : ٥٤
 ابن إسحاق ، محمد بن يسار : ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ١٥٣
 أسد بن القراء : ٩١
 إسرائيل : ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠
 الإسكندرية : ٨٧ ، ٢١٤ ، ٣٨٢
 ٤٠٦ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٥
 الإسكوريال : ٣٨٨
 أسلم ، قبيلة : ١٧٤

الأناضول : ٢٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٠ ،

٤٧٣

إنجلترا : ٥٧ ، ١١٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٧ ،

٣٧٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ،

٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٤٤٣ ،

٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،

٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ،

٤٧٦ ، ٤٧٩

الإمليز : ٣١ ، ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٧ ، ٢٨٦ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ،

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،

٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،

٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧

أنغولا : ٩٨

أندريا دوريا : ٣٩١

أندرية حوليان : ٤٧٢ ، ٤٧٦

الأنطلس : ٣٠ ، ٤١ ، ٧٦ ، ٨٨ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٢٤ ، ١٧٣ ، ١٩٥ ،

٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ،

٣٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،

الأحياط : ١٥ ، ٨٧ ، ٢٥٠ ،

ألفونس أغسطس : ٤٢ ، ٥٣ ،

الأكامرة : ٨٦ ، ٢١٠ ،

أكبر ، سلطان : ١٠٣ ، ٣٧٤ ،

أكرا (أجرا) : ١٠٢ ،

الأكراد : ٨٦ ، ٣٧٣ ،

إكوادور : ١١٨ ،

الب تكين : ٩٩ ،

ألبانيا : ٣٦٠ ، ٣٩٠ ، ٤٣٩ ،

ألفونسو ألفو كرك : ٣٧٨ ،

الألمان : ٤٥٣ ، ٤٦٧ ،

ألمانيا : ١١٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٥ ،

٣٩٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

إلبرايث ، ملكة إنجلترا : ٣٦٢ ، ٣٧٩ ،

أمواتنا : ١٠٦ ،

أمريكا : ٤٥٠ ، ٤٥٣ ،

الأمويون : ٤٨ ، ٦١ ، ٨٠ ، ٩٩ ،

١٥١ ، ١٩٥ ، ٢٨٣ ،

٣١١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ ،

أمياتوس : ٤٢ ،

أمية ، نو : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٣ ، ٨٠ ، ٩٠ ،

٩٩ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٧١ ،

١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٤٧ ،

٣١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٧٦ ،

٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٥٨ ،

أمية الأكبر س عبد حمس : ١٩٥ ،

الأمين ، الخليفة : ٨١ ،

أمير الربيعي : ٤٢٩ ،

٤٧٧ ، ٤٨٦

أوربان الثاني ، البابا : ١١٠

أوزبكستان : ١١٨ ، ٣٦٤

أوروون حسن : ٣٦١

الأوس : ٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٥ ، ١٧٦

أوغسطين : ١٦

أوغندا : ٩٨ ، ٢٥٠

أوليفر نورث ، ضابط : ٣٤

أوهاتفور : ٥٧

ابن لباس الحنفى : ٣٥٦ ، ٣٦٥

الإيبو ، قبائل : ١٠٨

الإيموية ، شبه جزيرة : ٤٨٤

إيران : ٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٧٥ ، ٧٦ ،

٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٤ ،

١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ،

١٢٤ ، ١٧٢ ، ١٩٢ ،

١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ،

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٩ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧ ،

٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ،

٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،

٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٤١٤ ،

٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ،

٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ،

٤٠٢ ، ٤٥٨ ، ٤٧١

إندونيسيا : ٧٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٢٤ ، ٢٢٢ ،

٢٧٦ ، ٢٥٠

أنس بن مالك : ١٤٨ ، ١٥٤

الأنصار : ١١ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٩٤ ،

١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،

١٧٧ ، ١٧٩

أنطاكية : ٨٤ ، ١١٠

أنطوني شيرلي ، السير : ٣٦٢

آنفا : ٤٨٤

أنقرة : ٣٦٠

الإنكشارية : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،

٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٢ ،

٤٣٧ ، ٤٣٩

الأهرام ، معركة : ٤١١

أهل البيت : ١٥١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤

أهل الذمة : ٨٧ ، ٢٥١

أهل السنة : ١٢٠

أهل الصفة : ١٤٧ ، ٢٠٣

الأهواز : ٨٥

أوجوتاي : ١١٦

أودغشت : ٢٧٤

أورانجزيب : ٣٧٥

أوريا : ١٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٤٤٥ ،

٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ،

البحافة ، غزوة : ٩٦

بجاد ، ابن : ٤٦٨

بجانة : ٢٨٢

بجاجة : ٣٨٩

البحري : ٤٠٨ ، ٣١٤

البحر الأبيض المتوسط : ٢٣٦ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ،

٢٨٢ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ،

٣٩١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ،

٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٧٦

البحر الأحمر : ٩٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ،

٤٥٧ ، ٤٧٠

البحر الأدرياتي : ٣٥٩

البحر الأسود : ١١٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٣

بحر البلطيق : ١١٤

بحر العرب : ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧٧ ،

٤٥٧

بحر قزوین : ٨٦ ، ٣٧٣

بحر الهند : ٢٦٩

البحرين : ٤١ ، ٨٥ ، ٤٥٨

بخارى : ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ٢٤٥ ،

٢٤٨

بدر ، سهل : ٤٣

بدر ، غزوة : ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٤٩ ،

١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧٨

بدر و الفاريت داکارال : ٣٧٧

بدر و القاسي : ٢٣١

البراء بن عازب : ١٦٧

البرازيل : ١١٨

برازايل : ٢٥١

براك ، سلطنة : ١٠٥

٤٥٧ ، ٤٥٦

إيطاليا : ١٠٩ ، ٢٢٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ،

٣٣١ ، ٣٥٧ ، ٤٧٧

إيلات : ٤٧٠

الأيوبيون : ١١٢ ، ٣٥٥ ، ٣٧٥ ، ٤١٥

[ب]

الباها : ١٩٣

باير (ظهر الدين محمود) : ١٠٢ ،

١٠٣

باب الشريعة : ٤٣٣

باب الفتوح : ٤٣٣

باب النصر : ٤٣٣

البابوية : ١١٠ ، ١١٥ ، ٢٢٩

ابن باجة : ٢٣٧

باح ، سياستان : ٣٠١

بارباروسا ، حو الدين : ٣٩٠ ، ٣٩١ ،

٣٩٢

بارساي ، السلطان : ٣٦٥

باريس : ٢٢٤ ، ٤٠٠ ، ٤٥٢ ،

٤٧٧

باشا - ماشاوات : ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٩١ ،

٣٩٢

باكستان : ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٣

بالعور : ٤٦٨

باتام : ٣٧٨

باهنج ، سلطنة : ١٠٥

مايزيد ، السلطان : ٣٦٠

بنافيا : ٣٧٨

البئر : ٨٩

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : ٢٤٥ ،

٢٤٧ ، ٢٤٧

بعث : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥

بعلبك : ٨٤

بغداد : ١١٣ ، ١١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،

٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ،

٢٤٤ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ،

٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ،

٣٦٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٤٥٨

بقيع الفرد : ١٤٨

اليكتانية : ٣٣٤

أبو بكر الصديق : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٢ ،

١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ،

١٧٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،

٢١٦ ، ٢٦٨ ، ٣٠٤ ،

٤٠٢ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،

أبو بكر الطرطوش : ٢٩

أبو بكر بن عمر : ٩٣

البكرية : ٤٦٥

بكين : ١١٤ ، ٢٧٦

بلاتناحييت : ٥٧

بلغ : ٨٥

بلغاريا : ٧٦

البلقان : ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤٤٤

بلنسية : ٢٨٢

بلوغستان : ٣٧٤

الليار ، جزر : ٤٧٤ ، ٤٧٨

اليوانس ، جبال : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

اليواها يوترا ، نهر : ٢٤٦

اليواحة : ١٩٢ ، ٢٥٦

اليربر : ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٤٨٥

اليرت ، جبال : ٨٨

اليرتغال : ٥٧ ، ٧٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٧ ،

٣٦٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،

٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٤٨٤

يرشلونة : ٢٤٥

يرغواطة : ٩٠

يرقة : ٨٧ ، ٨٩ ، ١١١

يركة خان بن جوجي بن حكير خان :

١١٥

يرمانيا (يورما) : ١٠٤

اليروستنتية : ١٦

يروسة : ٣٢١ ، ٣٥٨

يروناي ، سلطنة : ٢٩٨

يريدة : ٤٦٤ ، ٤٦٦

يريطانيا : ٣٦٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٦

يسكاية ، خليج : ٨٨

يسكرة : ٨٨ ، ٢٣١

يسمارك : ٣٣

ابن بصال الطليطل ، أبو عبد الله : ٢٢٣

البصرة : ٧٢ ، ٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢٧٦ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٣٠٥ ، ٤٠٦

البطالفة : ٤٣٢

بطرس الأكبر : ٤٣٧

بطرس الخوارى : ١٦ ، ٢١ ، ١٨٨

بيروت : ٣٧٨
 بئر عروة : ١٤٩
 بيروت : ٤٥٧
 البيروني ، أبو الرضوان : ١٠٠ ، ٢٣٢
 بيسان : ١١٥
 بيعة الرضوان : ١٦٥
 بيعة العفة : ١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ٢٦٨
 بيلقية ططري : ٤٨٠
 البهقي : ١٠٠
 بيمر الجميل : ٤٥٦ ، ٤٥٧
 بيمر لوقي : ١٤٦

[ت]

التاج محل : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢١٩ ،
 ٢٤٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٤
 تارودانت : ٣٨٤ ، ٤٨٤
 تارة : ٣٨١
 التافنا : ٤٨٠ ، ٤٨١
 تافيلالت : ٣٨١ ، ٣٨٤
 تانزانيا : ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٧٦
 تيميز : ٢٧٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣
 توك : ٣٦
 التمر : ٣٧٣
 تربة : ٤٦٨
 الترك : ٤٦ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٢٤ ،
 ١٩٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٧
 ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
 التركستان : ٧٥ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،

تل من الخفاف : ١٤٠
 ابن البناء : ٢٣١
 البنجاب : ١٠٠
 البندقية : ٣٥٧ ، ٤٤٩
 بنزرت : ٣٩١
 البنغال : ١٠١ ، ٢٤٦ ، ٣٧٨
 بني سوييف : ٤٣٩
 بيزاد : ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦
 بيو السباع : ٣٢٠
 البوادي : ٣١١ ، ٣٤٤
 بوجو : ٤٨٠ ، ٤٨١
 البوذية : ١٥ ، ١٠٤ ، ١٠٧
 البوربون : ٥٧
 بوركهات ، بوهات : ٢١٥
 بورما (برمانيا) : ١٠١ ، ١٠٤
 بورنيو : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٩٨
 بوروندي : ٩٨
 بوشناق : ٤٧٤ ، ٤٧٧
 البوصيري : شرف الدين محمد : ٤١٠
 بولاقي : ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦
 بولس : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥
 بولندا : ٣٧٣
 بوليفيا : ١١٨
 بومباي : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦
 بونابرت ، ناهليون : ٤٧٧ ، ٤٧٨
 بونة : ٣٩٠ ، ٤٨٠
 بويه ، سو : ٤٠٨
 البويهيون : ٥٤ ، ٥٥
 البيت الحرام : ١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 بيت المقدس : ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١١٢ ، ٢٥٤
 ٣٠٣ ، ٤٤٨

التوراة : ١٥

نوطيق باشا : ٤٤٤

نونس : ٩٠ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ،

٣٨٩ ، ٣٨١ ، ٣٥٨

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،

٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

تيس : ١٥

التيجاني ، التيجانيون : ٢١٦ ، ٢١٧

التيجاني ، أحمد بن محمد : ٩٤

التيفاشي ، أحمد بن يوسف : ٣٣٧ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩

تموجين بن باطور : ١١٣

نيمور لنت : ١٠٢ ، ٢٣١ ، ٣٥٩ ،

٣٦٠

ابن نيمية ، تقي الدين أحمد : ٦٢ ،

٤١٠ ، ٤٦١

[ث]

ثابت بن قرّة الحراني : ٣٣٥

ثابت بن قيس بن الشماس : ١٦٧

ثعلبة ، بو : ١٥٧

[جـ]

جار بن عبد الله : ٦٢

الجابون : ٢٥١

الحايية ، مؤخر : ٨٣ ، ١٩٥

الجاحظ : ٧ ، ٢٢٨ ، ٤٠٨

جاكاترا : ٣٧٨

جاكاترا : ٣٧٨

٣٦٤ ، ٣٢٣

السرطان : ١٠٢ ، ١١٢ ، ٣٦١ ،

٣٦٥ ، ٣٦٢

تركيا : ٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ،

٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ،

٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٧ ،

٤٧٦ ، ٤٧٩

تركي من عبد الله : ٤٦٣

تريتول : ٤٨٠

تريفيليان ، جورج ماكولي : ٧

تستر : ٢٤٨ ، ٢٧٢

تشاد : ٩٥ ، ٢٥١

تشالديران : ٣٦٢ ، ٤٣٧

تشرشل : ٣٤

تطوان : ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤

نغازي : ٤٨٥

ابن تغري بردي ، أبو الخامس : ٣٥٦ ،

٤١٠

تقازان : ٢٢٠

تكرهت : ٣٥٩

تكدولر أحمد : ١١٥ ، ١١٦

تلمسان : ٢٨٢ ، ٣٩١ ، ٤٨٠

أبو تمام : ٤٠٨

ثبيكتو : ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٤٨٥

تسيفت ، أهر : ٨٧

تيس : ٥٦ ، ٢٢١

تيامة : ٨٢ ، ٢٧٢

تيودة : ٨٨

توجو : ٢٥١

التوحيدى ، أبو حيان : ٢٢٨

٢٧٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٥
 ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥
 ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥
 ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩
 ٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩
 ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤
 ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧
 ٤٦٨ ، ٤٦٩
 الجزيرة القراتية : ٣٦٠ .
 الجسر : ٨٤
 بنو جشم : ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧
 ابن جملح سليمان : ٢٣٠
 جمال عبد الناصر : ٤٤٨ ، ٤٥٦
 جمال ، الوالي : ٤٦٧
 الجمهوريات الإيطالية التجارية : ٣٦٥
 ٣٧٠
 جنكيزخان : ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤
 ١١٦ ، ٢٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 جموة : ٣٥٧ ، ٣٨٣
 الحنيفة : ٢٥٦
 الجهمشاري ، ابن عثمان : ٣٩٦
 أبو جهل : ٤٣ ، ١٧٠ ، ٢٦٩ ، ٣٢٥
 جهينة ، عرب : ٣٥ ، ٩٦
 جوا : ٣٧٧
 جوزر باشا : ٤٨٥
 جورج واشنطن : ٥٠
 ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن : ٢٠١
 جوزيفوس : ٤٢
 الجوسق (قصر الخليفة المتوكل في
 سامراء) : ٣١٤ ، ٣٤٥
 جولدزبير : ١٨

الجامع الأقصر : ٣١٦
 جامع القدس : ٨٣
 جامعة باغيا : ١١٨
 جامعة القرويين : ٢٤٤
 جامعة الكويت : ١٠
 جان بيتر زون كوين : ٣٧٨
 جان دي بريون : ١١٢
 حاجنجر ، السلطان : ٣٧٤
 جاتوة : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٧٨
 الجبوتي ، عبد الرحمن : ٢٠٠ ، ٤١١
 ٤١٢ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
 ٤٣٢ ، ٤٣٣
 الجحفة : ٤٦٤
 جدالة ، قبيلة : ٩٢
 جدة : ٤٦٧
 جربة : ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٨٣
 جرجس الخوهرى : ٤٣٦
 الجزائر : ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥
 ٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٣٨١
 ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
 ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
 ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
 ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦
 ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩
 ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧
 الجزولي ، محمد بن عبد الرحمن : ٩٤
 الجوزلية ، الطريقة : ٣٨٤
 الجزويت : ٢٢٩
 جزيرة العرب ، الجزيرة العربية : ٥٧
 ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ١١٩
 ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠
 ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢

حرة واقم : ١٣٩

حرة الوبرة : ١٣٩

الحرتان : ١٣٩

الحريوى ، أبو القاسم : ٢٢٧ ، ٣٢٤

ابن حزم : ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠

الحزمة : ٤٦٨

حسان بن النعمان الغساني : ٨٨

حسنى بن شبروط : ٢٥٢

الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٣ ، ٣٨٨

الحسن ، الحفصى : ٤٨٣

أبو حسون السملالى : ٤٨٤ ، ٤٨٥

حسين أبو حك : ٤٧٤

حسين ، داي : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،

٤٧٩ ، ٤٨٣

الحسين بن علي ، الشريف : ٤٥٣

الحسين بن علي بن أبي طالب : ٦١ ،

١٩٦

الحسين بن علي بن عون : ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،

٤٨٣ ، ٤٦٨

حصين : ٤٦٨

حضر موت : ١٣٩ ، ٢٣١ ، ٢٧٦

حطين : ١١١

حفص ، بنو : ٣٨٩

حفصة ، أم المؤمنين : ٣٠٤

الحفصيون : ٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،

٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٧١ ، ٤٨٣

الحكم المستنصر : ٢٥٢ ، ٣٧٤

الحكم بن هشام المعروف بأبي جهم :

٢٦٩

حكيم من حزام : ٦٠

جوهر الصفيل : ٢١٤

جوبوك بن أجدى : ١١٤

الجيتو : ٢٥٢

جيجل : ٤٨٠

جيران : ٤٦٩

الجيلانية ، الجيلانيون : ٢٠٣ ، ٢١٦

[ح]

حاجي خليفة : ٣٦٩

الحارث بن أسد الثماسي : ٢٠٠

الحارث ، بنو : ١٥٥ ، ١٥٧

ابن الحاسب المرسي : ٢٣٧

الحاف بن قضاة : ١٧٤

الحاكم بأمر الله : ٣١٦

حائل : ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،

٤٦٦

الحباب بن المنذر بن الحموح : ١٦٧

الحبشة : ١٥ ، ١٨ ، ٩٦

الحجاج بن يوسف : ١٩٦ ، ٤٠٣

الحجاز : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨٢ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ٢٠٧ ، ٢٧٢ ،

٢٨٣ ، ٣٣٤ ، ٣٥٦ ،

٣٨٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٠ ،

٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

ابن حجر الصفيل ، أحمد : ٥٨ ، ٤١٠

الحديبية : ١٦٢ ، ١٧٨

حران : ٢٥٠

حلب : ١١١ ، ١١٥ ، ٢١٤ ، ٢٨١ ،
٤٥٦ ، ٣٥٩

حلقا : ٩٦

حلق الوادي : ٣٩١

حماة : ٨٤ ، ٤٥٦

الحمصراء : ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦

حمة بن عبد الغلب : ٤٤

حمص : ٨٤ ، ١١٥ ، ١١٦

حمودة باشا : ٤٧٤ ، ٤٨٣

الحميريون : ١٣٩

ابن حنبل : ٥٤ ، ٢٣٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦١

حنظلة بن أبي سفيان : ٤٤

حنظلة بن عتبة : ٤٣

أبو حنيفة التميمي : ٢٣٢ ، ٤٤٧

حواء : ٢٢ ، ٢٣

الحقولة : ٤٦٥

ابن حوقل ، أبو القاسم المصري : ٥٤ ،
٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤

حيدر آباد : ١٠١

الحيرة : ٨٢ ، ٨٤ ، ٢٥٠

[خ]

خالد بن زيد الأنصاري ، أبو أيوب :
١٤٦ ، ١٦٧

خالد بن عبد الله القسري : ١٩٦

خالد بن لؤي : ٤٦٨

خالد بن الوليد : ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٢ ،
٨٣ ، ٨٤

خان بالق : ٢٧٦

خاتقو : ٢٧٦

خياط بن الأرت : ١٤٧

خديجة ، أم المؤمنين : ٦٠ ، ١٤٣ ، ٢٦٨

خراسان : ٤٦ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٩٨

الخروج : ٤٦٤ ، ٤٦٥

الخزور : ٢٥٢

الخزرج : ٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦

خطمة ، بنو : ١٧١

ابن غلبون ، عبد الرحمن : ٥٨ ، ٨١

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢

٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤

٣٤٣ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥

٤٠٦ ، ٤١٠

الحلفاء الراشدون : ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٤

١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٩٤

٣٩٥ ، ٤٠٥

الخليج العربي : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٥

٢٤٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٣٧٧

الخميريون : ١٢٠

الخندق ، موقعة : ٣٧ ، ١٦٣ ، ١٧١

١٧٨

الخوارج : ٤٠٢ ، ٤٠٣

خوارزم : ١١٤ ، ٣٦٤

الخوارزمي ، أبو بكر : ٢٣١

خواند أوستريا : ٣٩٢

خورشيد باشا : ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣

خوزستان : ٨٥

خولو ، حزر : ١٠٦

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣١٠ ،
 ٣١١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ،
 ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٧ ، ٤٨١ ،
 دمياط : ١١٢ ، ٢٢١ ، ٤٣٥
 دعام بن دواس ، آل : ٤٦١
 دعلج : ١٠١ ، ٢٤٦ ، ٣٢٥ ، ٣٥٩ ،
 ٣٧٤ ، ٤٠٧ ،
 الدواسر : ٤٦٥
 دبيرة : ٤٧٨
 دوقال : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١
 الدولة الأفشارية : ٣٦٤
 الدولة الأموية : ٧٣ ، ٩٠ ، ١٢٣ ،
 ١٩٥
 الدولة الأيوبية : ٣٥٥
 الدولة البيزنطية : ٦٩ ، ٧٦ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١٤٦ ، ١٧٢ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،
 ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٥ ،
 الدولة الرومانية : ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ،
 ٤٠٦
 الدولة السعدية : ٣٨٤ ، ٤٨٤
 الدولة السعودية : ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،
 ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ،
 الدولة العباسية : ٨١ ، ٩٩ ، ١١٥ ،
 ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ،
 الدولة العثمانية : ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

الخيام ، عمر : ٣٢٦
 خير ، عمر : ٢٤٥
 حيحون : ٨٨
 حور الدين مارباروسا : ٣٩٠ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
 خيرة : ٣٦٤

[٥]

الدار البيضاء : ٤٨٤
 دار فور : ٩٦
 داغستان : ٣٦١
 دافاو : ١٠٦
 دامرمون : ٤٨٠
 داس سكوتوس : ٢٠٧
 ابن دانيال ، محمد : ٣٤٢
 دالغومي : ٢٥١
 داي ، لقب : ٣٩٢
 دلقو : ٢٢١
 دبيق : ٥٦
 دجلة ، نهر : ٢١٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 الدراويش القوارون : ٣٣٤
 درعة : وادي : ٤٨٥
 الدرعية : ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
 الدرور : ٤٥١ ، ٤٥٥
 دسيسا كاترينا : ٣٦١
 الذكن : ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،
 ٣٧٨
 دلتا النيل : ١١٢ ، ٢٢١
 دلفي : ١٠١ ، ١٠٤ ، ٣٢١
 دمشق : ٥٣ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٠ ،

٣٧٤ ، ٣٩١ ، ١٢٤ ، ٤١٦

الدولة العلية : ٣٨٣

الدولة العزبية : ١٠١

الدولة الغورية : ١٠١

الدولة الفارسية : ٢٧٢

الدولة الفاطمية : ٧٤ ، ٣١٥

الدولة المراتلية : ٩٣ ، ١٠٠

الدولة المملوكية : ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٧٩

الدولة المملوكية : ٢٧٩ ، ٣٦٠

دومنجو باديا : ٢٤٥

الدومينيكان : ٢٢٩

الدومر : ٤٧٩

ديبل : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٧٧

ديفال : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١

ديجول : ٤٨٧

ديلاتو روزقلت : ٤٩

الديلة ، زاوية : ٤٨٥

دي ميشيل : ٤٧٩

ديمشيا : ٤٨٠

دينار أبو المهاجر : ٨٨

ديو : ٣٧٧

[د]

أبو ذر الفقاري : ١٤٧

الدهلي ، أحمد المنصور : ٤٨٥

[ر]

الرازي ، محمد بن زكريا : ٣٣٥

رأس غير : ٣٨٣

الراضي ، الخليفة : ٣٩٧ ، ٤٠٧

رائيون : ١٠٤

رايموند لوليو : ٢٠٧

الرباط (رباط المنح) : ٣٨٣ ، ٤٠٧

ريجة : ٩٦

الرمثيون : ٤٧٢

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ١١ ،

١٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧١ ، ٨٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،

١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٣٥ ،

روما : ١٦ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢٢٤

الرومان : ٤٨ ، ٩٢ ، ٢١٩ ، ٤٨١

الروملي : ٣٧١

ابن الرومية ، أبو العباس : ٢٢٣

الرياض : ١٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

الري : ٢٧٢

الريف : ٣٨١

[ز]

زامبيا : ٩٨ ، ٢٥٠

الزبير بن العوام : ٥١ ، ١٤٨ ، ٢٦٨

زرياب (علي بن نافع) : ٣٣٦ ، ٣٣٧

زغورة : ٣٨٤

ابن زقوط بكري : ٤٧٤

الزلاقة : ٩٣ ، ١١٠

الزراعة : ٤٧٩

زناتة : ٩٠

زنجبار : ٢٤٦ ، ٢٧٦

الزهرلوي ، أبو فقامس : ٢٣١

زهر بن قيس البلوي : ٨٨

الزواغة : ٤٨٠

زباد بن أبيه : ١٩٦ ، ٣٠٥

الزياتيون : ٤٧١ ، ٤٧٢

الزيتونة ، جامع : ٤٨٢

زيد بن ثابت : ١٥٤ ، ٣٠٥

زيد بن حارثة : ٦٠

زيد بن أبي سفيان : ٤٤ ، ٤٥

زين الدين أمير حاج : ٢٨٣

٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٢

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨

٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٨٤

٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

٤٣٠ ، ٤٣١

الرشادية ، قبيلة : ٩٦

ابن رشد : ٢٣٠

ابن رشيد : ٤٦٥

رشيد ، بلدة : ٤٣٥

رشيد رضا : ٤٥٤

الرشيدة ، آل : ٤٤٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٤

الرشيد بن محمد بن علي بن يوسف : ٤٨٥

رضا عباس : ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦

رفاعة رافع الطيطاوي : ٤٤٠ ، ٤٤٥

الرفة : ٣١٢ ، ٣١٣

رغن الدين بيرس : ٢٠٠

الرها : ١١١

روبرت كلايف : ٣٧٩

روبروت شولي ، السور : ٣٦٢

روبر ألدريه دوتاميا : ٤٧٦

الروبيكون ، نهر : ٤٢

الروس : ١١٩ ، ٢٨٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٤١ ، ٤٥٣

روسيا : ٧٦ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ٢٤٥ ،

٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩

٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤٣٨

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥١

٤٥٢ ، ٤٥٦

روضة مها : ٤٦٥

رولف وانغرت : ١١٨

- سعد بن الربيع : ١٦٧
سعد زعلول : ٤٤٥
سعد بن عبادة : ٣٥ ، ٣٩
سعد بن معاذ : ٤٠ ، ٣٥ ، ١٦٧
سعد بن أبي وقاص : ٦٩ ، ٨٥ ، ١٦٧ ،
٤٠١ ، ٣٠٥
السعدى : ٤٨٥
السعديون : ٤٨٤ ، ٤٨٥
ابن سعود : ٤٦٦ ، ٤٦٨
سعود ، آل : ٤٥٩ ، ٤٦١
سعود بن حورشيد : ٤٦٣
سعيد باشا : ٤٤٥
ابن سعيد المغربي ، عل : ٢٤٥
أبو سعيد بن أبي الخير : ٢٠٦
سفالة : ٢٧٦
السفردية : ٢٥٢
أبو سفيان صخر بن حرب : ٤٣ ،
٤٤ ، ٢٦٨
سقطرى ، جزيرة : ١٠٥ ، ٣٧٧
سقيفة بني ساعدة : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٦٠ ، ١٧٥
سلا : ٣١٨ ، ٣٨٧
السلاحقة : ٧٦ ، ١٠٠ ، ٢٠٠
ابن سلام ، أبو عبيد القاسم : ٢٥٠
سلطان محمد : ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،
٣٤٦
سلع ، جبل : ١٤٢ ، ١٤٨
سلمى بنت عمرو : ١٤٦
سلنجور ، سلطنة : ١٠٥
سليبيز : ١٠٥
سليمان بن عبد الملك : ٣٩٥
- السادات : ٤٥٧
ساعدة ، بنو : ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٤٢
سالوس : ٤٢
سالوسى : ٢٠
سامراء : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٤٤ ،
٣٤٥
الساموراي : ٢٥٦
ساندينو : ٣٤
ساتنا كروز دو كابوداجير : ٣٨٣
سان لوكير : ٩١
سياستان ، ملك البرتغال : ٣٨٦ ، ٤٨٤
سيتة : ٣٨٣
ابن سبعين : ٢٣٠
سبكشكين : ١٠٠
السبكي ، عبد الوهاب : ٢٣٧
سيبلة : ٨٧
سيورات : ٥٧
سجلماصة : ٢٧٤ ، ٣٨٨
سجلمان : ٤٨٥
السخاوى ، فهمس اللين : ٥٨ ، ٤١٠
سدير : ٤٦٤
سر من رأى : ٣١٣
سرفسطة : ٨٨
سرتديب (سيلان) ، جزيرة : ١٠٥
سريافوس : ٤٣٤
سطيف : ٤٨٠
ابن سعد ، صاحب الطبقات : ١٥٣ ،
٢٤٠
سعد بن غيثمة : ٦٧

السويس ، قاة : ٤٦٧

الشيخ : ٣٧٥

سبى كفاني : ٤٧٤

سراف : ١٠٥ ، ٢٧٦

سينيل ، جزيرة : ٢٤٨

سيف الإسلام (خالد بن الوليد) : ٨٢

سيف الدين قطز : ١١٥ ، ٢٠٠

سيف الدين قلاوون الصالحى ، السلطان :

١١٣ ، ١١٥ ، ٢٠٠

سيلان (سرنديب) جزيرة : ١٠٥ ،

٢٤٦

سيناء : ٤٥٦ ، ٤٥٧

ابن سبا ، أبو علي : ٢٣٢ ، ٣٣٥ ،

٤١٠

سيواجى : ٣٧٥

السيوطى : ٥٨

[ش]

الشارية : ٤٧٤

شارل أندريه جوليان : ٤٧٢ ، ٤٧٦

شارل التانى ، ملك إنجلترا : ٣٧٩

شارل الخامس المعروف بشرلكان : ٣٩١ ، ٤٨٢

شارل ديجول : ٤٩

شارل العاشر : ٤٧٥ ، ٤٧٨

الشافعى ، محمد بن إدريس : ٢٣٢ ،

٣٢٨

شالة : ٣٨١

الشام : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ،

٦٠ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ،

سليمان الفرنسوى باشا : ٤٤٦

سليمان القانونى : ٣٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ،

٣٧٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٨٢ ، ٤٥١

سليمان المهرى : ٢٧٦

سليم الأول - السلطان العثمانى : ١٠٢ ،

٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

سليم الثانى : ٤٨٣

سليم بن منصور ، بنو : ٤٥٨

سماك بن عتيك : ١٤١

سمرقند : ١١٤ ، ١١٩ ، ٢٤٨

السمهودى : ١٤٩ ، ١٦٩ ، ٢٣٠

سميث ، آدم : ٤١٧

ستان باشا العمارى التركى : ١٠٣ ،

٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٤٨٣

السنج : ١٤٢ ، ١٤٨

السند : ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٠

ستاقورة : ١٠٥ ، ٣٨٠

السفال : ٩٣ ، ٢٥١

ابن السوداء اليهودى : ٤٨

السودان : ٧٧ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٤٣٨ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠

سورات : ٣٧٧ ، ٣٧٩

سوريا : ٤٥٤ ، ٤٥٧

سوزيانا : ٨٥

السوس : ٢٨٢ ، ٣٨٤

سومة : ٣٩١

سولو : ١٠٦

سومطرة : ١٠٥ ، ٢٧٦

سوير : ٤٦٥

شرلكان : ٣٩١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

شرطان : ٢٢٨

الشرىف الرضى : ٤٠٩

الشمراق : عبد الوهاب : ٢٠١

شخاى : ١١٤

شغلون : ٣٨٤

شمر : ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦

شمس الدين النهى : ٥٥

الشنانة : ٤٦٥

شترىن : ٣٧٨

شوق « الشاعر » : ٣٦٨

شبة بن ربيعة : ٤٣

الشياه البيضاء (قبيلة) : ٣٦١

شراز : ٢٧٢

الشيعة : ٥٣ ، ١٢٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠

٤٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦١

شلى : ١١٨

الشيوعية : ١٨ ، ١١٩

[ص]

الصابئة : ٢٥٠

ابن صاعد الأندلسى : ٢٣٠

صالى : ٣٨٣

صالح مائ : ٤٧٣ ، ٤٧٤

ابن الصانع ، أبو بكر (المعروف بابن باجة

السرقسى) : ٣٣٧

الصحابية : ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٢٠

١٤٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٢

الصحراء الكبرى : ٩٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٢

٤٨٥

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

٨٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢

١١٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨

٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢

٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤

٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧١

٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣

٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٤١

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨

٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥

٣٦٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧

٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠

٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥

٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨

٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١

٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٧

الشماتية : ١٥

شاه جهان : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢٤٤

٣٧٤

شاه جهاناباد : ٣٧٤

شاه شجاع : ٣٣٦

شاون : ٣٨٣

شبه الجزيرة الأيبورية : ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩

١٠٩

شبه الجزيرة العربية : ٦٨ ، ٨٢ ، ٩٧

١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠

شبه الجزيرة الهندية : ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢

شبه القارة الهندية : ٧٧

الشرق الأوسط : ٤٦٧

صور : ٤٥٧

الصومال : ١٨ ، ٩٧ ، ٢٥١ ، ٢٧٦

صيدا : ٤٤٩ ، ٤٥٧

الصين : ٧٥ ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٦

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤

٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦

٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٤١

[حـ]

الضحاك بن قيس : ١٩٥

ضرغوث أبو (طرغوث) : ٣٩٢

ضياء الدين : ١١٨

[ط]

طارق بن زياد : ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٥٣

٣١٨

طاش كبرى زادة : ٣٦٩

أبو طالب الكلي : ٢٠٠

الطائف : ١٤٣ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

ابن طياطين : ٤٠٨

الطبرى ، محمد بن جرير : ٧ ، ٢٠٠

٢٢٩ ، ٤١٠

طليحك : ١١٨

طخارستان : ٤٦

طرايزون : ٣٦١

طرابلسي : ٢٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٩

٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧

٤٧١ ، ٤٨٣

طرطوشة : ٣٠

الصحيحة : ١١ ، ٦٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١

الصخرة ، بالقدس - القبة ، المسجد :

٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٤٤

صدر الدين بن صفى الدين الأردبيلي :

٣٦١

الصدوق : ١٥

صيد مصر : ٩٥ ، ٩٦ ، ٢٢١

صفائق : ٣٩١

الصفتة : ١٤٧

الصفيون : ٣٢٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥

٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٤

٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨

صفى الدين الأردبيلي ، الشيخ : ٣٦١

صفى الدين الحلبي : ٤١٠

صفى الدين بن عبد النعم : ٣٣٦

صفية بنت عبد المطلب : ٢٣٩

صقر قريش : ٩٠

سقلية : ٧٦ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٨

١٢٤ ، ٢٦٩ ، ٣٩١

صلاح الدين الأيوبي : ١١١ ، ٢٠٠

٢٧٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩

٤١٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٧

الصليبيون : ٥٨ ، ٥٤

صنعاء : ٢٨٠ ، ٤٨٥

صنهاجة : ٩٠ ، ٩٢

صهيب الرومي : ١٤٧

الصهيونية ، الصهيونيون : ٢٥٢ ، ٢٥٣

العباس، بنو : ٦١ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٦ ،

١٥١ ، ٣١٣ ، ٣٧٦ ،

٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ،

أبو العباس ، أحمد بن الحسن : ٤٨٣

أبو العباس ، أحمد بن محمد المهدي : ٤٨٥

عباس الأول : ٤٤٤ ، ٤٥١ ،

أبو العباس السفاح : ٤٠٤

عباس ، الشاف : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،

العباس بن عبد المطلب : ٢٣٩ ، ٢٦٨ ،

عباس بن محمد علي : ٤٤٢

العباسية ، دولة : ٩٦

العباسيون : ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٩ ،

١٥١ ، ١٩٨ ، ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،

٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤١١ ،

٤٥٨ ، ٤١٦

عبد الحق ، أبو يحيى الرزني : ٣٨١

عبد الحكيم ، آل : ٥٤

عبد الحميد الأول ، السلطان العتاي :

٣٧٢ ، ٣٧٣

عبد الرحمن آل سعود : ٤٦٣

عبد الرحمن الأوسط : ٣١٨ ، ٣٣٦ ،

عبد الرحمن بن السمرة : ٦٢

عبد الرحمن بن عود : ٣٩ ، ٤٢ ،

١٤٨ ، ٥١

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الداخل :

٩٠ ، ١٩٥ ، ٣١٨ ،

عبد الرحمن الناصر : ٢٥٢ ، ٣١٩ ،

٣٧٤

لرغود أو (ضرغوت) : ٣٩٢

لشقند : ١١٩ ، ٣٠٦ ، ١١٤

للحة بن عبيد الله : ٥١ ، ٢٦٨

للبلطة : ٨٨ ، ٩١ ، ١١٠ ، ١٧٣ ،

٢٥٠

طجة : ٨٩ ، ٢٤٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ،

٣٨٧ ، ٤٨٤

طهماسب ، الشاه : ٣٢٦ ، ٣٦٢ ،

٣٦٤

الطوائف ، عمالك : ٧٦ ، ١١٠

طوس : ٨٥

ابن طولون ، أحمد : ٣١٤ ، ٣١٥

طولون : مياء : ٤٨٤

الطونة نهر : ٣٦٠ ، ٣٦٩

طلى : ٤٥ ، ١٣٩

طيبة : ٢١٠

طيشفون (الملائن) : ٨٥ ، ٢١٠

[ظ]

الظاهر بيبرس : ١١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٤١

ظهر الدين محمد (عرف باسم بابر) :

١٠٢

[ع]

عائشة (رضى الله عنها) : ١٧

عائكة بنت عبد المطلب : ٢٣٩

عاشق أندى ، موسى تركى : ٣٤٠

عبادان : ٢٧٦

عبادة بن الصامت : ١٥٣

عبد المطلب ، بنو : ٢٦٩
عبد الملك بن مروان : ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

عبد الواد ، بنو : ٣٩١
أبو عبيدة بن عامر الجراح : ٣٥ ، ٥١ ،
٦٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٦٧

عتاب بن أسيد : ٢٢٠
عتبة بن ربيعة : ٤٣ ، ٢٦٩
عتبة بن غزوان : ٣٠٥

آل عثمان : ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،
٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤١٥

٤١٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢

ابن عثمان : ٣٦٦

عثمان البرقيسي : ٤١١

عثمان بن عفان : ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٨٠ ،

٨٧ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ،

٦٦٨ ، ٣٠٤ ، ٤٠١ ،

٤٨١ ، ٤٨٢

عثمان بن معمر : ٤٥٩

العثمانيون : ٢٧٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ،
٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ،

٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ،

٤٥٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

العجوز : ٤٨٤

عدن : ١٠٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦

عبد خمس : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥
عبد العزيز آل سعود : ٤٣٠ ، ٤٣٥ ،

٤٦٣

عبد العزيز بن عبد الرحمن : ٤٢٩ ،
٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٨٨
عبد الفتاح إسماعيل ، الأستاذ الدكتور

مدير جامعة الكويت : ١٠

عبد الله بن أحمد بن سعد : ٣٨٤

عبد الله بن جحش : ٦٢

عبد الله بن جلوي : ٤٦٤

عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب :

١٥١

عبد الله بن حورشيد : ٤٦٣

عبد الله بن الزبير : ١٩٥ ، ٤٠٣

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٨٧ ، ٨٨

عبد الله الشرقاوي : ٤٤٤ ، ٤٤٥

عبد الله بن طاهر : ٣٦٥

عبد الله بن مسعود : ٤٦٢

عبد الله بن ياسين : ٩٢

عبد الله بن محب بن رشيد : ٤٦٦

أبو عبد الله الملقب بالبرقياني : ٣٨٢ ،

٣٨٤

أبو عبد الله ، محمد الحسن بن محمد

الخامس : ٤٨٢

أبو عبد الله ، محمد بن لقمان بالله : ٤٨٤

أبو عبد الله ، محمد المتوكل : ٤٨٤

عبد المجيد ، السلطان : ٤٥٢

عبد المطلب بن هاشم : ٤٤

بنو عدى بن النجار : ١٤٥ ، ١٧٦

عفوة : ٤٥

العراق : ٣١ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ،

٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٩٨ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ،

٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،

٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ،

٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ،

٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ،

٣٩٥ ، ٤٠٣ ، ٤١٤ ،

٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥١ ،

٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،

٤٥٨ ، ٤٦١

عربستان : ٨٥

عرب المقل : ٣٨٨ ، ٣٩٠

ابن عرى ، عيسى الدين : ٢٠٠ ، ٢٠٧ ،

٣٤٢

عروج : ٣٩٠ ، ٣٩١

العريف بالله : ٥٦ ، ٤٥٨

عقبة بن نافع الفهري : ٨٧ ، ٨٨ ،

٣١٧ ، ٣٠٥

عكا : ١١٣ ، ٤٣٥

العلويون : ٣٨٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

عل باشا : ٤٨٣

عل الرضا : ٣٦٣

عل بن أقي طالب : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٣ ، ١٥٤

عل بك العباس : ٢٤٥

عل مبارك : ٤٤٠

عل بن نافع ، الملقب زرياب : ٣٣٦ ،

٣٣٧

عماد الدين زنكي : ١١١ ، ٢٠٠

عمار بن ياسر : ٤٧ ، ٤٧

أم عمارة الأنصارية : ٢٣٩

عمان : ٤٠ ، ٥٧ ، ١٠٥ ، ٢٧٦ ،

٤٦١

عمر أثنى ، أبو المختار : ٣٨٩

عمر بن الخطاب : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ،

٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٠ ،

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ،

١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ،

١٩٦ ، ٢٥٤ ، ٣٠٤ ،

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٤٠٢ ،

٤٠٤ ، ٤٠٥

عمر شيخ ميرزا : ١٠٢

عمر بن عبد العزيز : ١٩٥ ، ٣٠٤

عمر مكرم : ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ،

٤٤٤ ، ٤٤٥

عمرو بن العاص : ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٢٦٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٥

العمري ، ابن فضل الله : ٣٣٢ ، ٤١٠

عنابة : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٧٣

ابن العوام الإشبيلي ، أبو زكريا يحيى بن

محمد : ٢٢٣ ، ٢٣١

بنو عوف : ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧

[ف]

- الغارات ، أبو نصر : ٤١٠ ، ٢٣٥
 قارس : ٤٦ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٩٥ ، ٣٥٩
 غارس ، أبو عثان - السلطان المربى :
 ٣٨١
 ابن القارض ، أبو حفص عمر بن علي
 السعدي : ٤٠٩
 قاس : ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٣١٨ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٨٤
 فاسكو داجاما : ٢٧٦
 القاشر : ٩٥
 فاطمة المعهرة : ٢٤٤
 الفاطميون : ٥٦ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٩٠ ،
 ٢١٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٤١٦
 فحيج : ٣٨١
 فحل : ٨٣
 فخر الدين المعنى : ٤٤٨ ، ٤٤٩
 أبو فراس الحمداني : ٤٠٩
 فرانسوا دويله : ٣٧٩
 فرانسيسكو دا أليفا : ٣٧٧
 فرانكلين : ٤٩
 الفردوسي ، أبو القاسم : ١٠٠ ، ٣٢٦
 فرجيا : ٥٠
 الفرس : ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٨١ ، ٨٤ ،
 ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ،
 ٣٨٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧٤ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨
 فرغانة : ١٠٢
 الفرنجة : ٢٣٤

عبر ، جبل : ١٤٩

عيسى بن مريم (المسيح) : ١٦ ، ١٧ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١

عيلام ، بلاد : ٨٥

عين جالوت : ١١٥ ، ١١٦

عين قيس : ٤٣٦

[غ]

غازان : ١١٦

غانة : ٢٥١ ، ٣٨٧

غرابة : ٤٧٩

غراطلة : ٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ،

٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

الغرائ ، أبو حامد : ٢٠٠ ، ٢٠٧ ،

٢٩٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٤١٠

غزة : ٤٤٩

عزنة : ١٠٠

غطفان : ٤٥

عمارة ، قبيلة : ٩٠

غمبيا ، نهر : ٩٣

بنو غنم بن النجار : ١٤٦

الغور : ١٠١

عيث الدين بن سام : ١٠١

غيانا البريطانية : ١١٨

غيانا الفرنسية : ١١٨

غيانا الهولندية : ١١٨

غينيا : ٩٣

القفقشندي : ٢٣٢ ، ٤١٠

القليعة ، مدينة : ٤٧٩

قم : ٣٦٣

قندهار : ٣٧٤ ، ٣٧٥

قوبلاي خان : ١١٤ ، ١١٧

قورية : ٨٨

القوط : ٢٣٤ ، ٢٥٣

القوقاز : ١١٥ ، ٢٤٥ ، ٣٦٩

التولوغلية : ٤٨٠

القومسيون : ٤٨٣

قونية : ٤٥٨

القروان : ٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٣٠٥

٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٢٦ ، ٣١٧

قيس بن سعد بن عبادة : ٣٩

قيس بن شماس : ٥٢

قيس عيلان بن مضر : ١٩٥

القيسية : ١٩٥ ، ١٩٦

قيصرة : ٨٢

قيساق ، بنو : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

[ك]

كابل : ١٠٢

كاثالينادي براجانتا : ٣٧٩

الكاثوليكية : ١٥ ، ١٦

كارل بارت البروتستنتي : ١٦

الكامل بن العادل ، السلطان : ٢٧٨

الكاميرون : ٢٥١

كانت ، إيمانويل : ٢٩٩

كاثون : ٢٧٦

كانو : ٣٠٦

القرم ، شبه جزيرة : ٢٤٥ ، ٣٦٠

٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤

قريش : ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١

٦٢ ، ٩٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢

قربطة : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

ابن فرمان ، أبو بكر : ٢٠٢ ، ٢٣٠

القساوسة : ١٦

قسطنطينية : ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩

٤٨٠

القسطنطينية : ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٥

٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٠

٣٩٠ ، ٤١٥

قسطنطينية : ٢٨٩

قشباله : ١١٠ ، ٢٣١ ، ٣٨٢

القشوري ، عبد الكريم بن هوزان : ٢٠٠

قصر الرصافة : ٣١١

القصر الصخر : ٣٨٣

القصر الكبير : ٣٨٦ ، ٤٨٤

قصر عمرة : ٢٨٢

القصب : ٤٦٦

قضاة ، قبيلة : ٣٥ ، ٤٥ ، ١٣٩

١٤٠

القضاةيون : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٨

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

قنصة : ٣٩٢

قلاوون ، السلطان : ٣١٦

القلمة : ٣٣٤

قلعة الجبل : ٣٦٦

القلعة الحمراء : ١٠٤

كبريل ، آل : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤١٥
 كبريل ، أحمد فاضل : ٣٧١
 كبريل ، محمد : ٣٧١
 كرامة ، قبيلة : ٩٠
 كترغون : ٨٥
 كشك كينارجي ، معاهدة : ٣٧٣
 الكرادلة : ١٦
 كريد : ٤٤٩
 كريلاء : ١٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٥
 الكرخ : ٣١٢
 كردقان : ٩٦
 كرمان شاه : ٢٧٢
 كروماندل : ٣٧٨ ، ٣٧٥
 كرومر : ٤٥٤
 كشمر : ٣٧٤
 كعب بن الأشرف : ١٤٢
 كعب بن مالك : ١٦٧
 الكعبة : ١٩٦ ، ٣٦٣
 كلب من مرة ، فرع قبيلة : ٤٥
 كلثوم بن الهدم : ٦٧
 ابن كلث : ٥٦
 كلثكا ، (غاليقوت) : ٢٧٦
 كلوزل : ٤٧٩
 كلية الآداب جامعة الكويت : ١٠
 كليوباترا : ٤٢
 كمابة : ١٠٥
 كرامة : ٩٦
 الكشح ، نهر : ١٠٠ ، ٢٤٦
 كتنة ، قبيلة : ٤٥
 الكندي ، أبو يعقوب يوسف : ٣٣٤
 الكور ، قبائل : ٩٥ ، ٩٦

كيسة القيامة : ٨٢
 كوالامبور : ١٠٥
 كوثباتو : ١٠٦
 كوتشين : ٣٧٧
 الكوجرات : ٣٧٨
 كوريليس دي هونغان : ٣٧٨
 الكوكة : ٥٣ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٢٠٩ ،
 ٤٠٦ ، ٣٠٥
 كولام : ١٠٥
 كولوميس ، كريستوفر : ٩١ ، ٣٥٧
 كولومبيا : ١١٨
 كوليه : ٤٧٥ ، ٤٧٦
 الكوتفو : ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 الكويت : ١٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤
 كيتشير : ٤٦٧
 كينشاسا : ٢٥٠
 كيميا : ٩٨
 كيف : ٢٤٥

[ل]

اللاتيان : ١٣٩
 لاريكوميكستا (الاسترداد) : ٣٨٢
 لاداو : ١٠٦
 لاهور : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤
 لبنان : ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ،
 ٤٥٧
 لحم : ٤٥ ، ١٣٩
 لك : ٨٨
 لكديف ، جزر : ١٠٥
 لثونة ، قبيلة : ٩٢

لندرة : ٤٤٢

لندن : ٢٢٤ ، ٣٧٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ،

٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ،

٤٥١ ، ٤٧٠

أبو لب : ٣٢٥

لويس التاسع : ١١٣ ، ٣٩٠

لويس شيخو : ٢٥٤

لويس ماسييون : ٢٥٣

ليسانو ، معركة : ٣٧٠ ، ٣٩٢

ليبيا : ٩٥ ، ٢٤٥ ، ٤٥٦

ليبرنو ، مدينة : ٤٧٧

لين إيلوارد وليم : ٢١٥

ليون : ١١٠ ، ٤٠٠

ابن ماء السماء ، أبو بكر عبادة : ٣٠٢ ،

٣٣٠

ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد : ٢٧٦ ،

٢٧٧

مارنا أنة أوزون حسن : ٣٦١

ماردة : ٨٨

مارسيلوس : ٤٢

مارك أنطونيوس : ٤٢

ماركوبولو : ٢٤٦

مازغان : ٣٨٣

مائلة : ٢٨٢

مالك بن أنس : ١٥٠ ، ٢٣٢ ، ٣٢٨

ابن مالك ، محمد بن عبد الله : ٤١٠

مالندى : ٢٧٧

مالي : ١٠٥ ، ٢٥١

ماليزيا : ١٠٥

المأمون ، الخليفة : ٥٤ ، ٨١ ، ٣١٥ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

الماوية : ٨٦

المانويون : ١٧٢

ما وراء النهر ، بلاد : ٨٦ ، ١١٤ ،

٢٤٥ ، ٣٩٥

الماوردي ، أبو الحسن : ٥٤ ، ٥٥ ،

٢٥٠

مارك الأمير : ٤٦٤ ، ٤٦٥

الميرد ، أبو عباس أحمد : ٧

المنى ، أبو الطيب : ٤٠٩

المنوكل ، الخليفة : ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣٤٤ ، ٣٤٥

المنى بن حارثة الشيباني : ٨٥

معاهد العاصري : ٢٣٠

النجار : ١١٤ ، ٢٨٦ ، ٤٣٨

أبو المحاسن : ٥٨

محمد ، صلى الله عليه وسلم : ١٧ ، ٣٣ ،

٤٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ، ١٢٠ ،

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،

محمد عبد الحادي أبو ريدة ، الدكتور :

٢٩٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢

٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥

٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠

محمد بن عبد الوهاب : ٣٠ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥

محمد علي : ٤٧٦ ، ٤٧٨

محمد علي جنة : ١٠٣

محمد الفاتح : ٣٦٠ ، ٣٩٠ ، ٤١٥

محمد فريد : ٤٤٥

محمد المتوكل ، مولاي : ٣٨٥

محمد المحروق : ٤١١

محمد بن مسلمة : ١٦٧ ، ٤٠١

عمود بن مبيكتكين الغزنوي : ١٠٠

عمود مختار : ٣٠٢ ، ٣٢٧

عمود مقهي : ٣٢٦

الخطاط الأطلسي : ٨٧ ، ٩٣ ، ١٢٤

٢١٩ ، ٢٦٩ ، ٣٥٧

٣٨٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٧

الخطاط الحادي : ١٠٦

الخطاط الهندي : ٧٧ ، ٩٧

الحازن ، معركة : ٣٨٦

الحفار بن عبد الله الثقفي : ٤٠٣

الحفون (حكومة المغرب) : ٣٨٥

الحزوم ، بنو : ٨٣

الدلائل (طيففون) : ٨٥ ، ٢١٠

اللدجنون : ٣٢٠

مدراس : ٢٤٦ ، ٣٧٧

مدغشقر : ٢٧٦

أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي : ٩٤

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤

١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٤ ، ٣٩٥

محمد أنفا بن عبد المؤمن ، العمارة

التركي : ٣٢٢ ، ٣٤٥

محمد إقبال : ١٠٣

محمد الألفي : ٤١١ ، ٤٢٨ ، ٤٣١

٤٣٨ ، ٤٣٩

محمد الباقر بن جعفر الصادق : ١٥٠

محمد بن تومرت : ٣٨٩

محمد الثاني بن عبد الرحمن : ٤٨٦

محمد بن الحسن : ٤٨٢ ، ٤٨٣

محمد حسني مبارك : ٤٥٧

محمد بن الحسين ، المعروف الشريف

الرضي : ٤٠٩

محمد حسرو باشا : ٤٣٩

محمد أبو الذهب : ٤١٠ ، ٤٤٩

محمد زعيم محمد عزب ، دكتور : ٥٥

محمد السادس الحفصي : ٣٩٢

محمد بن سعود : ٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢

محمد الشيخ : ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

٣٨٥

محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٣١٩

محمد بن عبد الله بن رشيد : ٤٦٣

محمد عيه : ٥٣ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤

محمد بن طلال : ٤٦٦

محمد الطهراني : ١٥٤

٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤

مرج دابق : ٣٦١

مرج راهط : ١٩٥

مرج الصفر : ٨٣

مرجوليث : ١٨

مرزق : ٩٥

مرسى الدجاج : ٢٨٢

المرسى الكبير : ٣٨٤ ، ٣٩٠

مرسية : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٨٢

مرسيليا : ٣٨٣

مرقص الحوازي : ٢١

مرمرة ، بحر : ٣٥٩

مرو : ٨٥ ، ٢٧٢

مروان بن الحكم : ١٩٥

أبو مروان عبد الملك : ٣٨٥ ، ٣٨٦

أبو مروان بن عبد الملك بن محمد المهدي :

٤٨٤

مروان بن محمد الجعدي : ٤٠٣

مرج (العتراء) : ١٦

أثرية : ٢٠٧ ، ٢٨٢

مربن ، بنو : ٩٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣

المرينيون ، دولة : ٩٠ ، ٣٨١

المتنصر بالله محمد الحفصي : ١١٣ ،

٣٩٠

ابن مسجع : ٣٣٤

مسجد أجرا الجامع : ١٠٤

المسجد الأموي بدمشق : ٣١٠ ، ٣٤٤

مسجد البردني : ٣١٦

مسجد السلطان أحمد : ٣٢٢

مسجد السلطان حسن : ٣١٦

مدينة السلام (بغداد) : ٢١٤

المدينة الفاضلة : ١٧٤ ، ١٧٩

المدينة المنورة (بغداد) : ٢١٤ ، ٣٤٤

المدينة المنورة : ١١ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦

٤٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٩

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥

١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٨٩

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧

٢٦٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٤٣

٣٩٥ ، ٤٣٠ ، ٤٦١

٤٨٧ ، ٤٦٩

مدینتا ، لفظ سرياني : ١٤٢

المرابطون ، دولة : ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٥ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٢٤

٣٨٨ ، ٣٨٥

مراد بك : ٤١١ ، ٤٣٨

مراد الرابع ، السلطان المثنى : ٣٦٣

مراكش : ٨٧ ، ٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣١٨

٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢١
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢١
 ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨
 ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٣
 ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨
 ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٢
 ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧
 ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
 ٣٤٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
 ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩
 ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
 ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧
 ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠
 ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
 ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
 ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣
 ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
 ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩
 ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣
 ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧
 ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١
 ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧
 ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨

مصطفى الأول ، السلطان العثماني :

٣٧١ ، ٤١٥

مصطفى بن عبد الله كاتب حلي ،

المعروف بحلي خليفة : ٣٦٩

مصعب بن عمير : ١٤٣

مسجد السلطان سليمان : ٣٢٢ ، ٣٤٥

مسجد السلمانية : ٣٢٢

مسجد شاء زادة : ٣٢٢

مسجد القناتين : ١٤٩

مسجد قرطبة الجامع : ١٨٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

مسجد القرويين : ٢٤٤ ، ٣١٨

مسجد اللؤلؤة : ١٠٤

مسجد المحمدية : ٣٢٢

مسجد مطيع : ٣٧٤

المسجد النبوي : ٦٧ ، ١٢٢ ، ١٤٦

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

٣٠٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

المسعودي ، أبو الحسن علي : ٢٧٧

٤٠٨ ، ٤١٠

مسقط : ١٠٥

أبو مسلم الخراساني : ٤٠٣

مسوفة ، قبيلة : ٩٢

المسيحية : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨

١٩ ، ٢٠ ، ٧٧ ، ٩٦

٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤

١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٥٠

المسيحيون : ٨٣ ، ١٠٨ ، ١٧٢

٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

مشهد : ٣٦٣

مصر : ١٥ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٥٣

٥٦ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٩

٨٣ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥

٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٢

١١٥ ، ١٩٨ ، ٢١٠

منجوخان بن تولوي بن جكيزخان : ١١٤

مندناو ، جبرية : ٧٧ ، ١٠٦

المنذر بن ساوي : ٤١

المنسترل : ٣٣١

المنستير : ٣٩١

المنصور ، أبو جعفر - الخليفة : ٩٠ ،

٢١٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،

٣٧٦ ، ٣٤٤

منصور بن طلحة بن طاهر : ٣٣٤

النصورة : ١١٢

ابن منظور الإفريقي المصري : ٢٣٢

منفوليا : ١١٦

المهاجرون : ١١ ، ٦٧ ، ١٢٢ ، ١٤٥ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٧

المهدي ، الخليفة العباسي : ٣٠٤ ، ٣٩٨

المهلب بن أبي صفرة : ١٩٦

موتة : ٦٠ ، ٨٣

المؤثر الإسلامي العالي : ١١٩

الموحدون ، دولة : ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٧٨ ،

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٧١

المورة ، شبه حررة : ٣٥٩

المورسكيون : ٣٢٠ ، ٤٨٥

الموروس : ١٠٦

موريا ، جبل : ٣٠٨

مورجانتيا : ٢٥١

موريس ، جزيرة : ٢٤٨

مورسوق : ٩٨ ، ٢٧٦

موسكو : ٢٥٩

المكيون : ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٧٠

ملاوي : ٩٨ ، ٢٥٠

الملايو : ٧٧ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ،

٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٧٦ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠

ملتان : ٨٦ ، ٩٨

ملدانيا : ٣٧١

مليديف ، جبر : ٢٤٦

ملقا : ٩٥ ، ١٠٥ ، ٢٤٦ ، ٣٧٨

الملكاتيون : ١٥

الملك الصالح الأولي : ١١٢

الملك العادل : ١١٢

الملك الكامل : ١١٢

و الملوك العرب ، لوحات : ٣٢٤ ،

٣٢٦

مليقة : ٣٨٤

المماليك : ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٥٥ ،

٢٧٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،

٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،

٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٩ ،

٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٤٤٣ ، ٤٤٤

المماليك البحرية : ٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٤١١

المماليك البرجية : ٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٤١١

ممتاز محل (أرجمند بابوركيم) : ١٠٣

معيس : ٢١٠

موسى الكاظم : ٣٦١

موسى بن نصر : ٤٦ ، ٨٨ ، ٣١٨

الموصل : ٨٥ ، ١١١

الموصلى ، إسحاق : ٣٣٤ ، ٣٣٦

مولاي زيدان : ٣٨٧ ، ٣٨٨

مولاي محمد الشريف : ٣٨٩

المولوية : ٣٣٤

ميجاليل جورباتشوف : ١١٩

ميلان : ٤٠٠

المينسنجر : ٣٣١

[ن]

نابليون : ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦

نابليون الثالث : ٤٨١

نادر شاه : ٣٦٤

ناصر خسرو : ٢٨١

ناصر الدينوزي : ٤٧١

ناصر الدين سعيدوني : ٤٧١ ، ٤٧٣

٤٧٥

الناصر محمد بن قلاوون : ٢٠٠ ، ٣٥٥

٣٥٦

النبي ، صلى الله عليه وسلم : ٤٧

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٦

١٥٥ ، ١٦٢ ، ٢٣٩

٢٤٠ ، ٢٧١

النبيث ، سو : ١٥٥

البحار ، بنو : ١٥٥ ، ١٥٧

نجد : ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦

٤٦٨ ، ٤٦٩

نهران : ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٤٦٩

ابن النديم : ٣٣٤

الناظرة : ١٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

النصارى : ١٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١١٩

١٧٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨١

٢٢٠ ، ٣٣٧ ، ٢٨٦

نصر من الأحمر ، بنو : ٣٢٧ ، ٣٨١

النصرانية : ١٨ ، ٢٥ ، ٩٨ ، ١٠٩

١١٠ ، ١١١ ، ٢٠٥

نصر الدين محمد بن همايون : ١٠٣

النضير ، سو : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

نظامي ، الشاعر : ٣٢٦

نجر بن قاسط ، قبيلة : ٤٥

النحسا : ٤٣٨

نباوند : ٨٥

النوبة ، مملكة : ١٥ ، ٩٦

نورجهان ، زوجة جهانشير : ٣٧٤

نور الدين محمود : ١١١ ، ٢٠٠

النورمان : ٩١ ، ٣٧٥

التويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد

الوهاب : ٣٣٢ ، ٤١٠

النيجر ، سمر : ٩٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١

نيجيريا : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٥١ ، ٣٠٦

نيسابور : ٨٥

نيكاراجوا : ٣٤

النيل : ٩٦ ، ٢١٤

نيويورك : ٤٧٠

[هـ]

الهابسبورج : ٣٧٥ ، ٤٨٢

الحند الغربية : ١٠٥
الحندكوش ، جبل : ١٠٢ ، ٣٧٥
الحندوكية : ١٠٣ ، ١٠٥
هنري تيراس : ٣٢١
هنري جورج غلرس : ٣٣٨
هنري هاينان اللسي : ٤٦٧
هود : ٤٢٨
هولاكو : ١١٣ ، ١١٥ ، ٢٢٢ ،
٣٨٨ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٢٢٤
هولندا : ٥٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٧٨
الهولنديون : ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
٣٨٠ ، ٣٧٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦
المون : ١٠٢
الموهنتاوس : ٣٧٥
المياطة : ٧٥
ابن الميثم : ٢٣٠ ، ٢٣١
هيردوس : ٢٠
هيطل : ٧٥
الميسالاي : ١٠٠
هيوكاويه ، آل : ٥٧ ، ٣٧٥

[٩]

الوائق ، الخليفة : ٨١ ، ٣٩٤
وادي بجرده ، نهر : ٣٩١
وادي درعة ، نهر : ٣٨٤
وادي العقيق : ١٤٩
الوادي الكبير ، نهر : ٣١٩
وادي لكه : ٨٨
وادي الخمارن : ٢٨٦
واسط : ٣١٢

هارون الرشيد : ٢٢٨ ، ٢٥٠ ، ٣١٣ ،
٣٢٦ ، ٣٩٦
هاشم ، بنو : ٤٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٢٦٩ ،
٤٧٩
هاشم بن عبد مناف : ١٤٦
هراة : ٨٥ ، ٣٢٥
هرمز : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٦٣ ، ٣٧٧
ابن هشام : ١٧١
حلال ، بنو : ٣٤١ ، ٣٨٨ ، ٤٣٠ ،
٤٥٨
حلال الصافي : ٣٩٦
الحلاليون : ٣٩٠
هشام : ٢٧٢ ، ٣٦٣
الحند : ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥
١٢٤ ، ١٩٢ ، ٢١٩
٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠
٢٥٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣
٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥
٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٨
٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤
٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٩
٤٠١ ، ٤١٤ ، ٤١٧
٤١٨ ، ٤٤٧
الحند الإسلامية : ٥٧
الحند الشرقية ، جزر : ٣٧٧ ، ٣٧٨
٣٨٠ ، ٣٩٤
الحند الصينية : ٢٣٣ ، ٣٨٠

واقف ، بر : ١٧١
 وائل ، بنو : ١٧١
 ابن وحشية : ٣٢٣
 ابن الوردى ، ربن الدين عمر : ٤١٠
 الوشم : ٤٦٥
 وطاس ، سو : ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٤٨٤
 ولاشيا : ٣٧١
 الولايات المتحدة : ٤٩ ، ٥٠ ، ١١٨ ، ٤٥٣ ، ٤٦٩
 وليام لين : ٤٠٥
 الوليد بن العاص : ٤٤
 الوليد بن عبد الملك : ٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٩٥ ، ٣٧٤ ، ٣١١
 الوليد بن المغيرة : ٣٦٩ ، ٣٢٥
 الوندال : ٢٣٤
 وهدان : ٤٧٣
 وهران : ٢٨٢ ، ٣٩٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠

[ى]

اليابان : ٢٥٦
 الياپانيون : ١٠٦
 اليازجى : ٤٥٠
 يافا : ٤٣٦
 يارب : ١٢٢ ، ١٥٨ ، ١٥٥ ، ١٦١
 يحيى أو يوحنا : ٢٠
 يحيى حتى : ١٤٦
 يحيى بن معين : ٥٤

اليوموك : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤
 يزجرد الثالث : ٨٦
 يزيد بن ألى سفهان : ٨٣
 يزيد بن عبد الملك : ١٩٥
 يزيد بن معاوية : ٥٣ ، ٦١
 يسوع : ٢٠
 اليسوعيون (الخريزمت) : ٢٧٩
 الهمريون : ٥٧
 يعقوب قاضى الرشيد (أبو يوسف) : ٢٥٠
 الين : ١٣٩ ، ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٣٢٣ ، ٣٦٩ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩
 اليمنية ، اليمنيون : ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٤٥٨
 ينيع : ٣٥
 اليهود : ١١ ، ١٥ ، ٦٧ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٤٤٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
 اليهودية : ١٥ ، ٢٠
 يون ، دولة : ١١٤ ، ١١٧

يوسف المري ، أبو يعقوب : ٢٨١
 يوغوسلافيا : ٧٦ ، ١١٨
 يولوج القرطبي : ١٧٣
 يوليوس قيصر : ٤٢ ، ٥٣
 يون - نان ، مقاطعة صينية : ١١٧ ،
 ١١٩
 اليونان : ٨٥ ، ٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٣٤ ، ٣٥٩ ، ٤٤٩
 ابن يونس الفلكي : ٢٣٠ .

يوحنا التمشقي : ١٧٢
 يوحنا ذو الصليب : ٧ - ٢
 يوحنا النفوسى للصرى : ١٧٢
 يوسف الأول العتي بالله ، سلطان
 غرناطة : ٣٧٤
 يوسف باشا : ٤٣٦
 يوسف البوهلي : ٥٤
 يوسف بن تاشفين : ٩٣ ، ١١٠
 يوسف الكندي (أبو يعقوب) : ٣٣٤

الفهرس

الموضوع

الصفحة

٧	مقدمة
١٣	الفصل الأول : الإسلام والمسلمون في التاريخ
٦٥	الفصل الثاني : عالم الإسلام
٦٧	ميلاد الجماعة الإسلامية
٦٨	قيام دولة الجماعة الإسلامية أنهام لى بكر وعمر
٧٢	الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية
٧٥	انتشار الإسلام
٧٧	الأمة أساس الوجود الإسلامى
٧٩	الجماعة الإسلامية الأولى : مجتمع من رجال أحرار
٨٢	امتداد العالم الإسلامى نحو الشرق
٨٦	أثر فتح إيران وبلاد الشرق فى تكوين الجماعة الإسلامية
٨٧	امتداد العالم الإسلامى نحو الغرب
٩٢	امتداد الإسلام فى أفريقيا المدارية والاستوائية
٩٨	امتداد الإسلام فى آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية
١٠٧	سير الإسلام لا يتوقف
١٠٩	الإسلام يخرج ظافرا من كل الأزمات الكبرى التى مرت به
١١٧	الجماعات الإسلامية فى عالم اليوم
١٢١	خلاصة
١٢٧	مراجع مختارة

الفصل الثالث : الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة	١٣٥
تمهيد	١٣٧
توثيق الصحيفة	١٣٨
المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها	١٤٠
الظروف المباشرة التي مهدت لهجرة النبي ﷺ	١٤٢
الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية في المدينة	١٤٥
إنشاء مسجد الرسول ﷺ وأهميته في بناء الجماعة	١٤٦
عمران للمدينة	١٤٨
مبدأ للتوحيات	١٤٩
سبلاد دستور الجماعة الإسلامية	١٥٠
كيف نشأت الوثيقة	١٥٢
نص دستور المدينة	١٥٥
ملاحظات على النظام العام للجماعة	١٦٣
رسول الله ﷺ يتصرف دائما تصرفا قانونيا	١٦٤
إدارة الرسول ﷺ للمدينة	١٦٦
إخلاص الناس لجماعتهم إخلاص لأنفسهم أيضا	١٦٨
حرية الناس هي أساس الحياة في الجماعة	١٦٩
أثر الحرية والتسامح في انتشار الإسلام	١٧٢
الصورة العامة للجماعة الإسلامية الأولى في المدينة	١٧٣
خلاصة	١٧٥
مراجع مختارة	١٨١
الفصل الرابع : ملاحم المجتمع الإسلامي	١٨٥

الطابع الغالب على المجتمع الإسلامي	١٨٧
بناء المجتمع	١٨٩
المجتمع الإسلامي مجتمع لا طبقى	١٩٢
الإسلام هو أساس اللابطبيقية	١٩٣
جماهير الناس ونظم الحكم التى قامت فى العصور الوسطى	١٩٤
أثر ذلك فى نفسيات الجماهير الإسلامية	١٩٧
أفراد الشعب يصلون إلى مراكز القوة عن طريق العلم والدين	١٩٨
المصوغة ووظيفتهم السياسية والاجتماعية	٢٠٠
ظهور طائفة أصحاب الكرامات ومدعى الولاية ودلالته الاجتماعية	٢٠٢
الصوفية والفقهاء	٢٠٧
حياة المدن	٢٠٩
أهل الحرف وتقاباتهم	٢٧٤
أحوال الزراعة والمجتمع الريفى	٢٢٢
العالم الإسلامى عالم متعلم مثقف ، العلم والعلماء والكتب والمكتبات ..	٢٢٦
سلامة الأسرة فى المجتمع الإسلامى	٢٢٣
مراتب الناس فى المجتمع	٢٣٦
المرأة فى المجتمع الإسلامى	٢٣٨
المسلمون جميعاً أمة واحدة	٢٤٤
أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى	٢٤٩
خلاصة	٢٥٥
مراجع مختارة	٢٥٩
الفصل الخامس : التنظيم الاقتصادى	٢٦٥
تمهيد	٢٦٧
التجارة والتجار	٢٦٩

٢٧٣	النشاط التجاري في العالم الإسلامي
٢٧٥	طرق التجارة ومراكزها
٢٧٧	المعاملات المالية
٢٨٣	الدول الإسلامية والاقتصاد
٢٨٦	خلاصة
٢٨٩	مراجع مختارة
٢٩٥	الفصل السادس : الفنون عند المسلمين
٢٩٧	الفنون نعيم على الأحاسيس والمشاعر والمعاني
٢٩٩	ميلاد الفنون الإسلامية
٣٠١	الفنون الشعبية والفنون المصنولة
٣٠٢	ميلاد فن العمارة عند المسلمين - المساجد الأولى
٣٠٦	المساجد تجمع بين عنصرين متناقضين : البساطة والجلال
٣٠٩	الفن الأموي في المشرق
٣١٢	العمارة في العصر العباسي
٣١٥	أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك
٣٢٢	الفنون الصغيرة عند المسلمين
٣٢٤	التصوير والنحت عند المسلمين
٣٢٧	للموسيقى عند شعوب الإسلام
٣٣٣	العلم الموسيقى عند المسلمين
٣٣٧	ممارسة الموسيقى
٣٤١	فنون أخرى
٣٤٢	خلاصة
٣٤٨	مراجع مختارة
٣٥٣	الفصل السابع : عنصر الركود

٣٥٥	تمهيد
٣٥٧	خمس دول تتقاسم بلاد الإسلام في مطالع العصر الحديث
٣٥٨	الدولة العثمانية
٣٦١	دولة الصفويين
٣٦٥	العرب والأتراك
٣٧١	اضمحلال الدولة العثمانية
٤٨٤	إمبراطورية مغول الهند بعد السلطان أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥)
٣٧٧	دولة المغول والتدخل الغربي
٣٨٠	بلاد المغرب وما قام فيها من الدول
٣٨٢	البرتغاليون والإسبان في المغرب
٣٨٤	السعديون الفلاحيون (٩٦١ - ١٠٦٩ هـ / ١٥٥٤ - ١٦٥٩ م)
	الأحوال في إفريقية (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) حتى القرن الثامن عشر
٣٨٩	الميلادي
٣٩٢	التدهور السياسي وأزماته
٤٠٠	قيام المدن في الغرب ودوره في خروج الشعوب من ظلمات العصور الوسطى
٤٠٧	مجتمع فقير تسوده أخلاق الفقر
٤٠٨	الركود الفكري
٤١٤	خلاصة
٤١٩	مراجع مختارة
٤٢٥	الفصل الثامن : لمصر النهضة
٤٢٧	تمهيد
٤٦٠	بدء الجهاد وازدهار « الدرعية » في ظل الدعوة
٤٦٢	أقسام تاريخ السعودية
٤٧٤	الاحتلال الفرنسي للجزائر
٤٧٦	الغزو الفرنسي للجزائر
٤٨٩	الكشاف

رقم الايداع : ٨٩ / ٨٠٩٤

الترقيم الدولى : ٠ - ٤٣ - ١٤٧١ / ٩٧٧



مطبع الزملاء للإعلام العربي

١١ شارع التحرير - رأسه جنوبا

مطبعة مصر - ت ٩٠٦٩٨ - ٢٦١١٦٠٢

القاهرة